ظاهرة الفكر التربوي

في القرن الخامس عشر

دراسة شرعية لبعض المناهج والأفكار الدعوية

تأليف

ذياب بن سعد آل حمدان الغامدي

ظاهرة الفكر التربوي

في القرن الخامس عشر

تأليف

ذياب بن سعد آل حمدان الغامدي

قَالَ اللهُ تَعَالى : «والعَصْرِ إنَّ الإنْسانَ لفي خُسرٍ، إلَّا الَّذين آمَنُوا وعَمِلُوا الصَّالحات وتَواصَوْا بالحقِّ وتَوَاصَوْا بالصَّبْرِ» .

وقَالَ تَعَالى : «إنْ أُرِيدُ إلَّا الْإصْلَاحَ مَا اسْتَطَعْتُ ومَا تَوْفِيقِي إلَّا بِاللهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وإلَيْه أنيبُ» (هُوْدٌ :٨٨) .

وقَالَ ﷺ: «الدِّيْنُ النَّصِيْحَةُ» مُسْلمٌ .

وقَالَ ﷺ: «تَرَكْتُ فِيْكُم أمْرَيْنِ لَنْ تَضِلُّوا مَا تَمَسَّكْتُم بِهِما : كِتَابَ اللهِ، وسُنَّةَ نَبيِّه» مَالكٌ .

وقَالَ الإمَامُ مَالكٌ رَحِمَهُ اللهُ وغَيْرُهُ : «لا يَصْلُحُ آخِرُ هَذِهِ الأمَّةِ إلَّا بِما صَلُحَ بِهِ أوَّلُهَا» .

«ولم يُسَمِّ اللهُ أوْلِيَاءَهُ المُتَّقِيْنَ : رَبَّانِيِّيْنَ، ولا سَمَّى بِهِ رُسُلَهُ وأنْبِيَاءَهُ، فإنَّ الرَّبَّانِيَّ مَنْ يُرَبِّ النَّاسَ كَما يُرَبِّ الرَّبَّانِيُّ السَّفِيْنَةَ، ولهَذَا كَانَ الرَّبَّانِيُّوْنَ يُذَمُّوْنَ تَارَةً ويُمْدَحُوْنَ أخْرَى، ولَوْ كَانُوا مَنْسُوْبِيْنَ إلى الرَّبِّ لم يُذَمُّوا قَطُّ» ابنُ تَيْمِيَّةَ .

الطَّبْعَةُ الأولى
رمضان ١٤٣٠ هـ

حقوق الطبع محفوظة للمؤلف
إلا لمن أراد طبعه وتوزيعه مجانًا
بعد أخذ إذن المؤلف

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

اللَّهُمَّ لَكَ الحَمْدُ، حَمْدًا كَثِيْرًا طَيِّبًا مُبارَكًا فِيْهِ، كَما يَلِيْقُ بجَلالِ وَجْهِكَ، وعَظِيْمِ سُلْطَانِكَ، وأَشْهَدُ أنْ لا إِلَهَ إِلَّا الله وَحْدَه لا شَرِيْكَ لَهُ، لَهُ المُلْكُ ولَهُ الحَمْدُ وهُوَ عَلىٰ كُلِّ شَيءٍ قَدِيْرٌ، وأَشْهَدُ أنَّ مُحمَّدًا عَبْدُ الله ورَسُوْلُه أرْسَلَهُ للعَالَمِيْنَ بَشِيْرًا ونَذِيْرًا، فَصَلَوَاتُ الله وسَلامُهُ عَلَيْهِ، وعَلىٰ آلِهِ وصَحْبِهِ الطَّاهِرِيْنَ الطَّيِّبِيْنَ إلىٰ يَوْمِ الدِّيْنِ، وبَعْدُ:

فَهَذِه مَوَاصِي ونَقَدَاتٌ ضَمَّنْتُها كِتَابِي (هَذَا) قَدْ سُقْتُها بقَلَمِ النَّصِيْحَةِ؛ لأَهُشَّ بِها عَنْ أمَّتِي مَسَارِبَ فَوْضَىٰ، ومِنْ وَرَائِهَا تَنَابِيْهُ ومَآرِبُ أخْرَىٰ؛ لَمْ تَزَلْ تَنْسِجُها وتَجْلِبُها دُخُوْلاتُ التَّشَبُّهِ المَقِيْتِ، والانْهِزَامُ الدَّعْوِيُّ ... فِي غَيْرِ ذَلِكَ مِنْ وَاقِعَاتِ البَلايَا والآذَايَا؛ الَّتِي لَمْ تَزَلْ تَدْفَعُ بالهُوِيَّةِ الإسْلامِيَّةِ فِي أخَادِيْدَ مُظْلِمَةٍ مَا لَها مِنْ قَرَارٍ!

* * *

فَكَانَ مِنْ أخْرَيَاتِ صَنَائِعِ التَّغْرِيْبِ: مَا أشْرِبَتْهُ أقْلامُ بَعْضِ كُتَّابِ المُسْلِمِيْنَ، وأفْكَارُ بَعْضِ الدُّعَاةِ (التَّرْبَوِيِّيْنَ!)؛ حَتَّىٰ إذَا تَمَدَّدَ بِهِمُ التَّغْرِيْبُ؛ صَارَ ثَوْبًا فَضْفَاضًا مُرَقَّعًا قَدْ ألْبَسُوْهُ مَنْ شَاءُوْا مِنْ أبْنَاءِ المُسْلِمِيْنَ؛ كُلُّ ذَلِكَ تَحْتَ قَبْضَةِ: (الفِكْرِ التَّرْبَوِيِّ)!

وإنَّ مُثُلاتِ (الفِكْرِ التَّرْبَوِيِّ) فِي تَمدُّدِهِ الضَّارِي هُنَا وهُنَاكَ؛ لا يَزَالُ يَأْخُذُ

بحَيَاتِنا العِلْمِيَّةِ والعَمَلِيَّةِ (مَعًا) كَرِيْحٍ عَاصِفٍ لا تُبْقِي ولا تَذَرُ؛ إلَّا مَا نَدَرَ في غُبَّارَاتٍ سَلَفِيَّةٍ فِي رِجَالِ عِلْمٍ لَمْ تُصِبْهُم: زَفَرَاتُ حَمْحَمَةِ: (الفِكْرِ التَّرْبَويِّ) فلله الحَمْدُ أوَّلًا وآخِرَ.

* * *

وكُلُّنا أَسًىٰ؛ أنَّ نَفَثاتِ (الفِكْرِ التَّرْبَويِّ) فِي تَوْلِيْدِه القَاتِمِ؛ لا يَزَالُ يَنَالُ مِنَ الأمَّةِ الإسْلامِيَّةِ فِي دُعَاتِها وأبْنَائِها، أوْ قُلْ: قَدْ سَرَىٰ فِي الحَيَاةِ العَامَّةِ سَرَيَانَ المَاءِ فِي العُوْدِ، حَتَّىٰ إذَا مَا أخَذَتِ الإغَارَةُ مَأْخَذَهَا مِنْ مَفَاصِلِ الأمَّةِ، وأشْرِبَتِ القُلُوْبُ مَشَارِبَها؛ أصْبَحَتْ وَبَالًا عَلَىٰ تَارِيْخِنَا، وخَطأً غَائِرًا فِي فِكْرِنَا وتُرَاثِنَا.

وهَكَذَا دَلَفَ زَبَدُ (الفِكْرِ التَّرْبَويِّ) إلىٰ تُرَاثِنَا العِلْمِيِّ مُجدَّدًا فِي غُضُوْنِ القَرْنِ الرَّابعِ عَشَرَ تَقْرِيْبًا، وهُوَ مَعَ هَذَا الزَّحْفِ الهَادِرِ عَلَىٰ تَارِيْخِنَا؛ لا يُسْتَنَدُ إلىٰ عِلْمٍ أثيلٍ، ولا يُلْجَأ فِيْهِ إلىٰ رُكْنٍ شَدِيْدٍ؛ بَلْ جَاءَ بِتَدَسُّسٍ مِنْ تَحْتِ أنْقَاضِ مُخَلَّفَاتِ الفِكْرِ الوَافِدِ؛ ابْتِدَاءً بالفِكْرِ اليُوْنَانِيِّ، وانْتِهَاءً بالاسْتِيْلاءِ الأوْرُوْبِيِّ، ومُرُوْرًا بالانْبِهَارِ الغَرْبِيِّ، وخِتَامًا بالانْهِزَامِ الدَّعْويِّ!

* * *

ومَا هَذِهِ المُوَاطَآتُ فِي بَسْطِ (الفِكْرِ التَّرْبَويِّ) فِي مَسَارِحِ المُسْلِمِيْنَ؛ إلَّا مِنْ خِلالِ تباعُدِ أكْثرِ (التَّرْبَوِيِّيْنَ!) عَنْ مَصَادِرِ عُلُوْمِ وفُهُوْمِ السَّالِفِيْنَ (وِرْدًا وصُدُوْرًا)، والوُقُوْعِ فِي مَفَاوِزِ عُلُوْمِ وفُهُوْمِ الخَالِفِيْنَ: مِنْ مُفَكِّرِيْنَ ومُنَظِّرِيْنَ ومُرَبِّيْنَ ومُحَلِّلِيْنَ إسْلامِيِّيْنَ ... إلَخْ!

لأجلِ هَذَا؛ تَوَاقَحتْ لَوْثَاتٌ آثِمَةٌ مِنْ خِلالِ مَسَارِبِ التَّبَعِيَّةِ المَاسِخَةِ، ومُرَقِّقَاتِ الفِتَنِ الكَاسِرَةِ . . . لَكِنَّ هَذَا الاعْتِلاجَ لا يَكْفِي: بَلْ لابُدَّ مِنْ بيَانِ ظَاهِرَةِ (الفِكْرِ التَّرْبَويِّ) الجَلِيَّةِ مِنْهَا والخَفِيَّةِ، فِي وَقَفَاتٍ مَعَ: بِدَايَتِه، وتَعْرِيْفِهِ، وأخْطَارِهِ، وآثَارِهِ إلىٰ غَيْرِ ذَلِكَ، إنْ شَاءَ الله!

وإنَّه لَبِسَبِيْلٍ مُقِيْمٍ لُزُوْمُ هَذَا البَيَانِ؛ لأنَّهُ مِنْ وَاجِبِ النَّصِيْحَةِ، ومِنْ شُعَبِ الإيْمَانِ؛ لِكَوْنِهِ إمَاطَةَ الأذىٰ عَنْ طَرِيْقِ (الدُّعَاةِ) فِي دَعَوَاتِهِمُ البَرِيْئَةِ مِنْ قَتَرِ الارْتِمَاءِ وَرَاءَ فِجَاجِ أدْعِيَاءِ (الفِكْرِ التَّرْبَويِّ)، ومَسَالِكِ أرْبَابِ الانْهِزَامِ الدَّعْوِيِّ.

* * *

فَعِنْدَئِذٍ؛ كَانَ مِنَ الخَطَأ البَيِّنِ: أنْ تَأْخُذَ الظُّنُوْنُ الفَاسِدَةُ سَبِيْلًا إلىٰ قُلُوْبِ، وعُقُوْلِ أغْتَامِ بَعْضِ مُرِيْدِي (الفِكْرِ التَّرْبَويِّ)، وذَلِكَ فِي اعْتِمَالِ الظَّنِّ السَّوْءِ؛ إذْ يَقُوْلُوْنَ: إنَّ هَذِه الرِّسَالَةَ ومَا وَرَاءهَا؛ لا يُرَادُ بِهَا إلَّا أشْخَاصًا، أوْ جَمَاعَاتٍ، أوْ مَحاضِنَ، أو مَجَامِعَ أوْ نَوَادٍ، أوْ غَيْرَ ذَلِكَ مِمَّا اسْتَقَرَّتْ بِعَصَاهَا فِي القُلُوْبِ . . . فَمِثْلُ هَذَا (لِلأسَفِ!) يُعَدُّ مِنْهُمْ تَحْجِيْرًا لِوَاسِعِ الرِّسَالَةِ، وتَضْيِيْقًا لفَضَاءِ مَعَالِمها؛ لأنَّ هَذِه الرِّسَالَةَ مَا خَطَّتْ طَرِيْقَهَا، ومَا طَرَقَتْ سَبِيْلَهَا إلَّا لدِرَاسَةِ ظَاهِرَةِ (الفِكْرِ التَّرْبَويِّ)، وتَشْخِيْصِهَا تَشْخِيْصًا يَعُوْدُ إلىٰ اسْتِقْصَاءِ مَنَابِعِ (الفِكْرِ التَّرْبَويِّ) ابْتِدَاءً، ويَرْجِعُ عَلَىٰ مَجَامِعِ (الفِكْرِ التَّرْبَويِّ) انْتِهَاءً، فَهِيَ أكْبَرُ وأعْظَمُ قَدْرًا مِنْ صِغَارِ هَذِهِ

العُقُوْلِ، وأشْمَلُ وأعَمُّ مِنْ مَضَايِقِ هَذِهِ المَدَارِكِ!

* * *

وإنَّا وإيَّاهُم لا نَشُكُّ طَرْفَةَ عَيْنٍ؛ أنَّ كَثِيْرًا مِنْ دُعَاةِ (الفِكْرِ التَّرْبَويِّ) لا يَأْلُوْنَ جَهْدًا فِي تَرْوِيْضِ النَّاشِئَةِ مِنْ أبْنَاءِ المُسْلِمِيْنَ للحَقِّ المَنْشُوْدِ، والأخْذِ بأيْدِيْهِم إلىٰ مَعَالِي الأمُوْرِ، وحُسْنِ الأخْلاقِ ... فِي غَيْرِ ذَلِكَ مِنْ جُهُوْدٍ مَشْكُوْرَةٍ؛ إلَّا أنَّنا وإيَّاهُم مَعَ هَذا لا نَرْضَىٰ بالنَّصِيْحَةِ بَدِيْلًا، والحَالَةُ هَذِهِ كَانَ مِنْ حَقِّ الأخُوَّةِ فِي الله تَعَالَىٰ أنْ نَمُدَّ حَبْلَ النَّصِيْحَةِ بَيْنَنَا ما بَقِيَتِ الدَّعْوَةُ فِيْنَا، ولَوْ علىٰ طَوِيَّتِ بِلالِنَا!

فإذَا عُلِمَ هَذَا؛ كَانَ حَقًّا عَلَىٰ النَّاصِحِيْنَ مِنْ أهْلِ العِلْمِ أنْ يَقِفُوْا مَعَ ظَاهِرَةِ (الفِكْرِ التَّرْبَويِّ) بِشَيْءٍ مِنَ النُّصْحِ فِي أوْعِيَةِ عَدْلٍ ورَحْمَةٍ؛ ضَارِبِيْنَ باللِّجَاجِ والتَّعَالِي وكذا التَّشَفِّي ... عُرْضَ الحَائِطِ، فَنَحْنُ اليَوْمَ كَدُعَاةِ إصْلاحٍ أحْوَجَ مَا نَكُوْنُ إلىٰ النَّصِيْحَةِ والتَّصْحِيْحِ مِنْهُ إلىٰ السُّكُوْتِ والتَّجْرِيْحِ؛ لأنَّ الوَقْتَ الآنَ قَدْ أصْبَحَ ثَمِيْنًا وحَاسِمًا لَا يَحْتَمِلُ سِوَىٰ جَرِّ ثوبِ النَّصِيْحَةِ، والله المُوَفِّقُ والهَادِي إلىٰ سَوَاءِ السَّبِيْلِ.

* * *

وأنَا هُنَا لا أدَّعِي الإحَاطَةَ بالمَوْضُوْعِ مِنْ جَمِيْعِ جَوَانِبِهِ؛ بَلْ هَذِهِ نُتَفٌ ولَمَحَاتٌ تُوْقِفُ اللَّبِيْبَ عَلَىٰ مَوَاقِعِ الدَّاءِ، والخَلَلِ الكَامِنِ فِي ظَاهِرَةِ (الفِكْرِ التَّرْبَويِّ) كَدَعْوَةٍ سَائِرَةٍ بِلا وُجْهَةٍ، وفِكْرٍ هَائِمٍ بِلا قِبْلَةٍ، ضَمَّنْتُها كِتَابِي هَذَا،

بَعْدَ تَرَدُّدٍ مِنِّي، لأزِيْلَ الغِطَاءَ المُمَوَّهَ ولأكْشِفَ غَاشِيَةَ الوَبَاءِ المُنْتَشِرِ عَنْ مَسَارِبِ الهَلاكِ الخَفِيِّ الَّذِي بَدَأَ بِتَدَسُّسٍ إلىٰ أبْنَاءِ أمَّتِي، وهُمْ فِي غَفَلاتِهِمْ آمِنُوْنَ، ولأذُوْدَ عَنْ سَلامَةِ مَنْهَجِ سُكَّانِ الجَزِيْرَةِ وغَيْرِهَا مِنْ بِلادِ المُسْلِمِيْنَ مِنْ لَوْثَاتِ (الفِكْرِ التَّرْبَوِيِّ) السَّابِحِ فِي هَوَائِهَا، السَّائِحِ عَلَىٰ بِسَاطِهَا إنْ شَاءَ الله!

* * *

وحَسْبُنَا عِلْمًا؛ أنَّ أكْثَرَ أبْنَاءِ المُسْلِمِيْنَ اليَوْمَ مِمَّنْ احْتَوَتْهُم مَجَامِعُ (الفِكْرِ التَّرْبَوِيِّ) هُم: عِمَادُ ومَعْدِنُ ومَادَّةُ الإسْلامِ والمُسْلِمِيْنَ، لِذَا كَانَ مِنَ الوَاجِبِ الإيْمَانِيِّ أنْ نَسْعَىٰ حَثِيْثًا فِي تَصْحِيْحِ هَذِه المَجَامِيْعِ (التَّرْبَوِيَّةِ) فِي طَرَائِقِهَا ودَعَوَاتِها، حَتَّىٰ لا تَذْهَبُ بِنَا الأيَّامُ والسُّنُونُ إلىٰ السُّكُوْتِ عَنِ المُقَامَرَةِ بطَاقَةِ وجُهُوْدِ الشَّبَابِ فِي ثَقَافَاتٍ بَارِدَةٍ وتَلاعِيْبَ سَاذَجَةٍ . . . مِمَّا سَيَجُرُّ سُكُوْتُنا: الأمَّةَ إلىٰ مَزَالِقَ فَادِحَةٍ، ومَفَارِقَ دَعَوِيَّةٍ مُتَشَعِّبَةٍ فِي مَفَاوِزِ التِّيْهِ السَّحِيْقَةِ هُنَا وهُنَاكَ، هَذَا إذَا عَلِمْنا جَمِيْعًا أنَّ العَدُوَّ هَذِهِ الأيَّامَ مُتَرَبِّصٌ بالأمَّةِ يَقْظَانُ، وحِبَالَهُ مَمْدُوْدَةٌ، وفِعَالَهُ مَوْجُوْدَةٌ.

* * *

فَأقُوْلُ: لا شَكَّ أنَّ ظَاهِرَةَ (الفِكْرِ التَّرْبَوِيِّ) مِنَ القَضَايَا العَصْرِيَّةِ النَّازِلَةِ فِي سَاحَةِ المُسْلِمِيْنَ، حَيْثُ فَجَّرَتْ حَوْلَهَا مَجْمُوْعَةً مِنَ السُّؤَالاتِ والشُّبُهَاتِ؛ ومِنْهُ اخْتَلَفَتْ عِنْدَهَا الآرَاءُ، وتَبَايَنَتْ الأقْوالُ، وكُلٌّ بِحَسْبِ مَشَارِبِهِ ونِحَلِهِ . . . لِذَا أرَدْتُ أنْ أقِفَ مَعَ هَذِهِ الأقْوالِ بِشَيءٍ مِنَ الاخْتِصَارِ.

هَذَا إذا عَلِمْنا أنَّ لَفْظَ (الفِكْرِ التَّرْبَويِّ)، ومَا مَشَىٰ عَلىٰ بِسَاطِه مِنْ مُسَمَّيَاتٍ دَارِجَةٍ باسْمِ: التَّربِيَةِ الإسْلامِيَّةِ وغَيْرِها؛ لَيْسَ لَهُ أصْلٌ في كِتَابٍ أو سُنَّةٍ أو تَطْرِيْقٍ عِنْدَ سَلَفِنا الصَّالِحِ، فَهَذا في حَدِّ ذَاتِه لَهُو كَافٍ أنْ نَقِفَ مَعَها بشَيءٍ مِنَ التَّذْكِيْرِ والتَّبْيِيْنِ، والله مِنْ وَرَاءِ القَصْدِ!

* * *

فَعِنْدَئِذٍ؛ طَلَبْتُ مِنَ اللهِ العَوْنَ والسَّدَادَ فِي بَيَانِ بَعْضِ أخْطَاءِ هَذِهِ الظَّاهِرَةِ، تَحْتَ عِنْوَانِ: «ظَاهِرَةِ الفِكْرِ التَّرْبَويِّ» بِشَيءٍ مِنَ الاخْتِصَارِ والإيْجَازِ للاعْتِبَارِ؛ لأنَّ بَسْطَ الحَدِيْثِ عَنْهَا يَحْتَاجُ إلىٰ بَحْثٍ طَوِيْلٍ قَدْ يُخْرِجُنَا عَنِ القَصْدِ والسَّدَادِ؛ لَكِنَّ خَيْرَ الكَلامِ مَا قَلَّ ودَلَّ.

ولَكِنْ حَسْبِي أنَّ فِي هَذَا الطَّرْحِ الوجِيْزِ كِفَايَةً ومَقْنَعًا لِمَنْ ألْقَىٰ السَّمْعَ وأصْغَىٰ، وأحْضَرَ القَلْبَ وأوْعَىٰ، والله الهَادِي إلىٰ سَوَاءِ السَّبِيْلِ.

* * *

وأخِيْرًا؛ فَقَدْ نَظَمْتُ هَذِهِ الرِّسَالَةَ فِي سَبْعَةِ أبْوابٍ، وتَحْتَ كُلِّ بَابٍ مَدَاخِلُ وفُصُوْلٌ، ومن ورَائِها خَاتِمَةٌ:

❑ **البَابُ الأوَّلُ**: وفِيْهِ ثَمانِيَةُ مَدَاخِلَ.

المَدْخَلُ الأوَّلُ: القِصَّةُ والقَصَّةُ.

المَدْخَلُ الثَّاني: النَّصِيْحَةُ.

المَدْخَلُ الثَّالِثُ: التَّغْيِيْرُ.

المَدْخَلُ الرَّابِعُ: الاتِّفَاقُ والائْتِلافُ.

المَدْخَلُ الخَامِسُ: الافْتِرَاقُ والاخْتِلافُ.

المَدْخَلُ السَّادِسُ: فِقْهُ الوَاقِعِ.

المَدْخَلُ السَّابِعُ: الفِقْهُ الوَاقِعُ.

المَدْخَلُ الثَّامِنُ: دَعْوَةُ السَّلَفِ ودَعَاوِي الخَلَفِ.

❑ البَابُ الثَّانِي: وفِيْهِ ثَلاثَةُ فُصُوْلٍ.

الفَصْلُ الأوَّلُ: تَعْرِيْفُ التَّرْبِيَةِ لُغَةً واصْطِلاحًا.

الفَصْلُ الثَّانِي: تَعْرِيْفُ التَّرْبِيَةِ عِنْدَ المُحْدَثِيْنَ مِنْ أرْبَابِ (الفِكْرِ التَّرْبَوِيِّ).

الفَصْلُ الثَّالِثُ: إغَارَةُ التَّرْبِيَةِ علىٰ تُرَاثِ الأمَّةِ العِلْمِي والعَمِلي.

❑ البَابُ الثَّالِثُ: وفِيْهِ فَصْلانِ.

الفَصْلُ الأوَّلُ: بِدَايَاتُ (الفِكْرِ التَّرْبَوِيِّ) عِنْدَ الأمَمِ المَاضِيَةِ.

الفَصْلُ الثَّانِي: بِدَايَاتُ (الفِكْرِ التَّرْبَوِيِّ) عِنْدَ المُسْلِمِيْنَ.

❑ البَابُ الرَّابِعُ: وفِيْهِ أرْبَعَةُ فُصُوْلٍ.

الفَصْلُ الأوَّلُ: بِدَايَاتُ الانْهِزَامِ النَّفْسِيِّ عِنْدَ المُسْلِمِيْنَ.

الفَصْلُ الثَّانِي: تَارِيْخ بِدَايَاتِ الفِرَقِ.

الفَصْلُ الثَّالِثُ: العِلاقَةُ بَيْنَ جَماعَةِ (الإخْوَانَ المُسْلِمُونَ).

وبَينَ أنْصَارِ (التَّربيَةِ)، وأدْعِيَاءِ السَّلَفِيَّةِ.

الفَصْلُ الرَّابعُ: الانْهِزَامُ الدَّعْوِيُّ.

❑ **البَابُ الخَامِسُ**: وفِيْهِ فَصْلانِ.

الفَصْلُ الأوَّلُ: تَارِيْخُ المَدَارِسِ الإسْلامِيَّةِ.

الفَصْلُ الثَّانِي: الفَرْقُ بَيْنَ مَدَارِسِ السَّلَفِ ومَدَارِسِ الخَلَفِ.

❑ **البَابُ السَّادِسُ**: أخْطَاءُ (الفِكْرِ التَّرْبَوِيِّ)، وفِيْهِ أرْبَعَةٌ وثَلاثُوْنَ خَطَأً.

❑ **البَابُ السَّابعُ**: تَصْحِيْحُ الدَّعْوَةِ عِنْدَ أنْصَارِ (الفِكْرِ التَّرْبَوِيِّ).

❑ **تَحذِيْرٌ وتَنْبِيْهٌ، وأخَيْرًا الخَاتِمَةُ**:

وفي الخِتَامِ؛ فإنِّي أحْمَدُ الله تَعَالَىٰ وأشْكُرُهُ علىٰ نِعَمِهِ الَّتِي لا تُعَدُّ ولا تُحْصَىٰ، كَما أسْألُهُ تَعَالىٰ الإخْلاصَ في القَوْلِ والعَمَلِ، آمِيْنَ!

والحَمْدُ لله رَبِّ العَالَمِيْنَ، والصَّلاةُ والسَّلامُ عَلَىٰ عَبْدِهِ ورَسُوْلِهِ الأمِيْنِ

وكَتَبَهُ

ذياب بن سعد آل حمدان الغامدي

الطَّائِفُ المَأنُوْسُ

(١٤٣٠/٤/٤)

❑ ❑ ❑

البَابُ الأَوَّلُ

- المَدْخَلُ الأَوَّلُ: القِصَّةُ والقَصَّةُ.
- المَدْخَلُ الثَّانِي: النَّصِيحَةُ.
- المَدْخَلُ الثَّالِثُ: التَّغْيِيرُ.
- المَدْخَلُ الرَّابِعُ: الاتِّفَاقُ والائْتِلافُ.
- المَدْخَلُ الخَامِسُ: الافْتِرَاقُ والاخْتِلافُ.
- المَدْخَلُ السَّادِسُ: فِقْهُ الوَاقِعِ.
- المَدْخَلُ السَّابِعُ: الفِقْهُ الوَاقِعُ.
- المَدْخَلُ الثَّامِنُ: دَعْوَةُ السَّلَفِ ودَعَاوِي الخَلَفِ.

المَدْخَلُ الأوَّلُ
القِصَّةُ والقَصَّةُ

❑ أمَّا القِصَّةُ؛ فَهِيَ الإخْبارُ والتَّحْدِيْثُ، وَمِنْهُ قَوْلُهُ تَعالىٰ: ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ ٱلْقَصَصِ بِمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ وَإِن كُنتَ مِن قَبْلِهِۦ لَمِنَ ٱلْغَٰفِلِينَ﴾ [يوسف: ٣].

فَهُنَاكَ قِصَّةٌ يَطُوْلُ ذِكْرُهَا في جَرِّ قَلَمِي لِلْكِتَابَةِ عَنْ ظَاهِرَةِ (الفِكْرِ التَّرْبَويِّ)، مِمَّا جَعلَتْنِي أشُدُّ مِئْزَرِي، وَأحْيِي وَقْتِي في مُتَابَعَةِ هَذِهِ الظَّاهِرَةِ؛ الَّتِي كانَت علىٰ حِسَابِ مُشَاغَلَةِ وَقْتِي بِمَا هُوَ أوْلَىٰ، ولَكِنِّي أرِيْدُ وَالله يُرِيْدُ ﷻ: ﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [التكوير: ٢٩].

غَيْرَ أنِّي آثَرْتُ حِفْظَهَا في طَارِفِ الذِّكْرَىٰ، ولَم أبْدِهَا اليَوْمَ وَلَنْ أعِيْدَ؛ حِفْظًا لِوَقْتِ المُسْلِمِ البَصِيْرِ، كَمَا خِلْتُهَا لا تُسْمِنُ الحَقِيْقَةَ، ولا تُغْنِيْهَا مِنْ جُوْعٍ؛ فَكَان الضَّرْبُ عَلَيْهَا إلىٰ أجَلٍ مُسَمَّىً[(١)] إنْ شَاءَ الله تَعالىٰ!

وحَسْبِي قَوْلُهُ ﷺ: «**دَعْ مَا يَرِيْبُكَ لما لا يَرِيْبُكَ**» أخْرَجَهُ أحْمَدُ (١/ ٢٠٠)، والتِّرْمِذِيُّ (٢٥١٨)، وهُوَ صَحِيْحٌ.

---

(١) لَقَدْ أكْثَرَ عَليَّ بَعْضُ طَلَبَةِ العِلْمِ: السُّؤَالَ عَنْ سَبَبِ تَألِيْفِ هَذَا الكِتَابِ، وسَبَبَ اخْتِيَارِ هَذَا المَوْضُوْعِ النَّازِلِ، فَكَانَ مِنِّي هَذَا التَّنْبِيْهُ، والله أعْلَمُ!

وَقَوْلُهُ ﷺ: «مِنْ حُسْنِ إِسْلامِ المَرْءِ تَرْكُهُ ما لا يَعْنِيهِ» أَخْرَجَهُ التِّرْمِذِيُّ (٢٣١٧)، وهُوَ صَحِيْحٌ.

* * *

❑ أَمَّا القَصَّةُ؛ فَهِيَ التَّتَبُّعُ لِلأَثَرِ، وَمِنْهُ قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَقَالَتْ لِأُخْتِهِۦ قُصِّيهِ فَبَصُرَتْ بِهِۦ عَن جُنُبٍ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ [القصص: ١١].

فَإِنَّ المُسْلِمَ الكَرِيْمَ، والدَّاعِيَةَ البَصِيْرَ لَيَسْتَغْرِبُ مِنْ هَذَا الظُّهُوْرِ الهَائِلِ لِدُعَاةِ (الفِكْرِ التَّرْبَوِيِّ)، ومَا لَدَيْهِمْ: مِنْ مَعَاجِمَ وقَوَائِمَ لأَسْمَاءِ (التَّرْبِيَةِ) الرَّابِضَةِ علىٰ عَنَاوِيْنِ: الكُتُبِ والكُتَيِّبَاتِ والمُحَاضَرَاتِ واللِّقَاءاتِ والنَّدَوَاتِ الَّتِي لَمْ تَزَلْ تَزْدَادُ مُكَاثَرَتُهَا، وتَتَفَجَّرُ بَرَاكِيْنُها ... بالقَدْرِ الَّذِي يَزِيْدُنا مَعَهَا خَوْفًا ورِيْبَةً مِنْ هَذِهِ الظَّاهِرَةِ التَّي تُلاكُ بِصِفَةٍ تُشْبِهُ الحَقَّ!

ولا أُبَالِغُ إذا قُلْتُ (جِهَارًا): إِنَّنِي تَتَبَّعْتُ أَسْمَاءَ (الفِكْرِ التَّرْبَوِيِّ) ومَشْتَقَّاتِهَا وما حَامَ في فَلَكِهَا مَنْطُوْقًا ومَفْهُوْمًا، عِنْوَانًا ومَضْمُوْنًا؛ مَا بَيْنَ كِتَابٍ وَكُتَيِّبٍ وَرِسَالَةٍ ومُحَاضَرَةٍ وَنَدْوَةٍ ومَقَالٍ: فَوَجَدْتُّها تَزِيْدُ علىٰ خَمْسَةِ آلافٍ، وَهِيَ لمْ تَزَلْ في مَزِيْدٍ!

* * *

وهذا وغَيْرُهُ؛ مِمَّا يَدْفَعُ كُلَّ نَاصِحٍ غَيُوْرٍ مَعَ هَذِهِ الظَّاهِرَةِ بِأَنْ يَكْشِفَ مُخَدَّرَاتِهَا، وَيَنْبُشَ مَقَابِرَهَا (لَعَلَّ وَعَسَىٰ!)؛ حَتَّىٰ نَكُوْنَ وإِيَّاهُمْ علىٰ بَصَائِرَ مِنْ أَمْرِ دِيْنِنَا، وصِحَّةِ دَعْوَتِنَا، وسَدَادِ المَنْهَجِ السَّلَفِي بُكْرَةً وَأَصِيْلًا.

والعُذْرُ مَوْصُوْلٌ بَيْنَ طُلَّابِ الحَقِ، والعَفْوُ مَوْجُوْدٌ بَيْنَ النَّاصِحِيْنَ في مَيادِيْنِ العِلْمِ والتَّعْلِيْمِ، والخَيْرُ طَرِيْقُ أهْلِ الدَّعْوَةِ مِنَ (التَّرْبَوِيِّيْنَ!) وغَيْرِهِمْ، فلا سَبِيْلَ حِيْنَئِذٍ لِخَطَرَاتِ الشَّيَاطِيْنِ المُخَذِّلَةِ في عَضُدِ وَصَفِّ النَّاصِحِيْنَ، الَّذِيْنَ قَالَ الله تَعالىٰ عَنْهُم: ﴿وَٱلْعَصْرِ ۝١ إِنَّ ٱلْإِنسَـٰنَ لَفِى خُسْرٍ ۝٢ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ﴾ [العصر].

وعَنْ تَمِيْمٍ الدَّارِيِّ ﷺ، أنَّ النَّبِيَّ ﷺ، قَالَ: «**الدِّيْنُ النَّصِيْحَةُ (ثَلاثًا) قُلْنَا: لِمَنْ؟ قَالَ لله ولِكِتَابِهِ ولرَسُوْلِهِ ولأئِمَّةِ المُسْلِمِيْنَ وعَامَّتِهِم**» أخْرَجَهُ مُسْلِمٌ.

ولَيْسَ مِنْ وَرَاءِ هَذِهِ الوَقَفَاتِ والمُحَاسَبَاتِ لِظَاهِرَةِ (الفِكْرِ التَّرْبَوِيِّ) إلَّا البَلاغُ، وَبَذْلُ النَّصِيْحَةِ، وتَصْحِيْحُ الدَّعْوَةِ القَائِمَةِ في دِيَارِ المُسْلِمِيْنَ، لاسِيَّمَا بِلادُ الحَرَمَيْنِ الَّتِي لَمْ تُصِبْهَا لَوْثَاتٌ فِكْرِيَّةٌ، أوْ تَحُزُّبَاتٌ عَصَبِيَّةٌ، أوْ أفْكَارٌ بِدْعِيَّةٌ أو غَيْرُ ذَلِكَ ممَّا تَرَكَتْهُ أيْدِي الاحْتِلالِ الآثِمَةِ في مُعْظَمِ بِلادِ المُسْلِمِيْنَ . . . ومِثْلُ هَذا لَيْسَ بِدْعًا مِنَ القَوْلِ في الوُقُوْفِ مَعَ ظَاهِرَةِ (الفِكْرِ التَّرْبَوِيِّ) بِشَيْءٍ مِنَ المُنَاصَحَةِ الإيْمَانِيَّةِ، والله مِنْ وَرَاءِ القَصْدِ.

* * *

ومِنْ قَبْلُ؛ فَإنَّ (الفِكْرَ التَّرْبَوِيَّ) في تَمَدُّدِهِ الضَّارِي هُنَا وهُنَاكَ؛ علىٰ مَسَارِحِ المُسْلِمِيْنَ العِلْمِيَّةِ والعَمَلِيَّةِ علىٰ حَدٍّ سَوَاءٍ، مِمَّا يَزِيْدُنَا هَاجِسًا وشَكًّا . . . كَمَا يَحْمِلُنَا أيْضًا إلىٰ مُحَاسَبَةِ ومُرَاجَعَةِ ظَاهِرَةِ (الفِكْرِ التَّرْبَوِيِّ) في بِدَايَاتِهِ، وطَرَائِقِهِ، وتَسَلُّلِهِ، وكَذَا ما تَرَتَّبَ عَلَيْهِ مِنْ أخْطَاءٍ دَعَوِيَّةٍ، وَأحْزَابٍ فِكْرِيَّةٍ بِطَرِيْقٍ أوْ آخَرَ ممَّا قَامَ عَلَيْهَا الشَّاهِدُ والغَائِبُ.

* * *

كَما أَنَّهُ لَم يَنْتَهِ الحَدُّ بِهِمْ إِلىٰ هَذا؛ بَلْ تَنكَّرَ بَعْضُهُمْ (هَذِهِ الأَيَّامَ) لِلدَّعْوَةِ السَّلَفِيَّةِ، وأَقَامَ مَحاكِمَ قَضَائِيَّةً بَيْنَ طَرِيْقَةِ السَّلَفِ في الدَّعْوَةِ وبَيْنَ طَرائِقِ (الفِكْرِ التَّرْبَويِّ)، وَمِنْهُ نادَىٰ بَعْضُهُم بِأَفْضَلِيَّةِ مَسارِبِ طَرِيْقَةِ (الفِكْرِ التَّرْبَويِّ) لأَمْرٍ كَانَ مَفْعُوْلًا!

فَلَيْتَ شِعْرِي؛ لَوْ وَقَفَ (الفِكْرُ التَّرْبَويُّ) حِجْرًا مَحْجُوْرًا في بِلادِهِ هُنَاكَ، لِظُرُوْفٍ مُلْجِئَةٍ عِنْدَهُمْ لَيْسَ هَذَا مَحَلَّ بَسْطِهَا؛ بَلْ وَجَدْنَا لِلأَسَفِ مَنْ نادَىٰ بِهِ في بِلادِ الحَرَمَيْنِ، وصَاحَ بِهِ بَيْنَ أَبْنَاءِ الجَزِيْرَةِ، وزَاحَمَ بِهِ مَنْهَجَ عُلَمَائِنَا الأَكَابِرِ السَّائِرِيْنَ علىٰ خُطَىٰ السَّلَفِ الصَّالِحِ.

نَعَمْ؛ لَقَدْ وَجَدْنَا مِن دُعَاتِنَا وبَعْضِ طُلَّابِ العِلْمِ مَنْ دارَ في فَلَكِ (الفِكْرِ التَّرْبَويِّ)، وسَارَ في أَنْفَاقِهِ، بِلا دَلِيْلٍ ولا تَعْلِيْلٍ، اللهمَّ أَنَّهُ عَاشَ (أَوْ خُلِقَ!) هَكَذا في أَجْوَاءَ دَعَوِيَّةٍ لا تَعْرِفُ مِنَ الدَّعْوَةِ الإِسْلامِيَّةِ إِلَّا تَسْرِيْبَ (الفِكْرِ التَّرْبَويِّ)، ولا تَعْرِفُ الطَّرِيْقَ الدَّعْوِيَّ إِلَّا مِنْ خِلالِهِ، ولا تُحْسِنُ مَعارِفَ ومَعَالَمَ الإِسْلامِ إِلَّا مِنْ كُتُبِ ومَقَالاتِ رُمُوْزِ (الفِكْرِ التَّرْبَويِّ)، كَما أَنَّها لا تَعْرِفُ مِنْ أَهْلِ العِلْمِ والفِكْرِ إِلَّا مَا كَانَ مَرْقُوْمًا في قَامُوْسِ أَرْبَابِ (الفِكْرِ التَّرْبَويِّ): مِنْ مُفَكِّرِيْنَ، ومُحَلِّلِيْنَ، وسِيَاسِيِّيْنَ . . . إلخ.

فَعِنْدَئِذٍ لا تَحْزَنْ إِذَا عَلِمْتَ: أَنَّ مِثْلَ هَذَا الدَّاعِيَةِ (التَّرْبَوِيِّ!) المُرْتَمِي في أَحْضَانِ (الفِكْرِ التَّرْبَويِّ)، قَدْ أَصْبَحَ حَرْبًا في التَّحْذِيْرِ والتَّنْفِيْرِ مِنْ كُلِّ مُخَالِفٍ أو مُفَارِقٍ لِتُبَّاعِ (الفِكْرِ التَّرْبَويِّ) ولَوْ كَانَ مِمَّنْ بَذَلَ نُصْحًا، أو أَقَالَ عَثْرَةً . . . ولَكِنَّها النَّصِيْحَةُ الإِيْمَانِيَّةُ عَلَىٰ رُغْمِ مَا هُنَا!

* * *

❑ **وتَأكِيْدًا لِما هُنَا**؛ فقد أحْبَبْتُ أنْ أجْمِلَ أسْبَابَ ذِكْرِ القَصَّةِ ودَوَافِعِها في أمُوْرٍ ثَلاثَةٍ:

أوَّلًا: أنَّ ظَاهِرَةَ (الفِكْرِ التَّرْبَوِيِّ) لَم تُطرَقْ أو تُبْحَثْ بَحْثًا وَافِيًا عَلىٰ ضَوْءِ الكِتَابِ والسُّنَّةِ مِنْ قَبْلُ (فِيْما أعْلَمُ!).

ثَانِيًا: أنَّ (الفِكْرَ التَّرْبَويَّ) يُعْتَبَرُ هَذِه الأيَّامَ ظَاهِرَةً كَبِيْرَةً؛ حَيْثُ أخَذَ بأوْقَاتِ وطَاقَةِ وجُهُوْدِ أكْثَرِ المُنْتَسِبِيْنَ إلىٰ قَبِيْلِ الدَّعْوَةِ و(التَّرْبِيَةِ).

ثَالِثًا: أنَّ أكْثَرَ أبْنَاءِ المُسْلِمِيْنَ العَائِدِيْنَ إلىٰ الله (هَذِه الأيَّامَ) لَيْسَ لَهُم مَلاذٌ بَعْدَ الله تَعَالَىٰ (غَالبًا) إلَّا مَحَاضِنَ ونَوَادِي (الفِكْرِ التَّرْبَوِيِّ)، مِمَّا يَحْمِلُنا جَمِيْعًا أنْ نَقِفَ مَعَ هَذِه الظَّاهِرَةِ بِشَيءٍ مِنَ التَّصْحِيْحِ عَلىٰ طَرَائِقِ السَّلَفِ، وتَصْفِيَتِها مِنْ بَعْضِ دُخُوْلاتِ الأخْطَاءِ الوَافِدَةِ!

وإنَّ مَوْضُوْعًا مِثْلَ هَذَا فإنَّه يَحْتَاجُ مِنَّا إلىٰ جُهْدٍ كَبِيْرٍ، ووَقْتٍ مُتَّسَعٍ، لا طَاقَةَ لَنَا بِهِ اليَوْمَ، ولَكِنْ إسْعَافًا لمَطْلُوْبِ بَيَانِ الحَقِّ، ولَوْ في وَرَقَاتٍ مُجْمَلَةٍ مُخْتَصَرَةٍ، تَدُلُّ النَّاصِحِيْنَ، وتُرْشِدُ الدَّاعِيْنَ، وتُوْقِظُ العَائِدِيْنَ إلىٰ الله تَعَالىٰ، وفَوْقَ ذَلِكَ يَكُوْنُ بِدَايَةً ولَبِنَةً لِمَنْ يَأتَمُّ بِرِسَالَتِي هَذِهِ في بَيَانِ الحَقِّ، ودِرَاسَةِ هَذِهِ الظَّاهِرَةِ المُخِيْفَةِ هُنَا أو هُنَاكَ.

والله المُوَفِّقُ والهَادِي إلى سَوَاءِ السَّبِيْلِ

❑ ❑ ❑

المَدْخَلُ الثَّاني

النَصِيحَةُ

إنَّ النَّصِيْحَةَ بَيْنَ المُسْلِمِيْنَ لَمْ تكُنْ فَضِيْلَةً يَلُوْكُها مَنْ يَشَاءُ وَقْتَ ما يَشَاءُ! بَلْ هِيَ مِنْ وَاجِبِ الدِّيْنِ، وَلَوْلاهَا لَضَاعَ الحَقُّ بَيْنَ أهْلِهِ، وظَهَرَ البَاطِلُ بِكَلْكَلِهِ، وَانْدَرَسَتْ مَعَالِمُ الإسْلامِ بِكُلِّهِ . . . لِذَا كَانَتِ النَّصِيْحَةُ وَاجِبًا شَرْعِيًّا بَيْنَ المُسْلِمِيْنَ؛ لاسِيَّمَا العُلَمَاءِ مِنْهُمْ والدُّعَاةِ وغَيْرِهِم مِنَ العَامِلِيْنَ في مَيَادِيْنِ الدَّعْوَةِ والأمْرِ بالمَعْرُوْفِ والنَّهْيِ عَنِ المُنْكَرِ، كَمَا قَالَ تَعالىٰ: ﴿وَالْعَصْرِ ۝١ إِنَّ الْإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ ۝٢ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ﴾ وَقَوْلُهُ تَعالىٰ: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ ۗ وَلَوْ آمَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُم ۚ مِّنْهُمُ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ [آل عمران: ١١٠].

وقَوْلُهُ تَعَالىٰ: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ [فصلت: ٣٣].

وقَوْلُهُ ﷺ: **«الدِّيْنُ النَّصِيْحَةُ (ثَلاثًا) قُلْنَا: لِمَنْ؟ قَالَ: للهِ، ولِكِتَابِهِ، ولِرَسُوْلِهِ، ولأئِمَّةِ المُسْلِمِيْنَ، وعَامَّتِهِم»** أخْرَجَهُ مُسْلِمٌ.

وعَنْ جَرِيْرِ بنِ عَبْدِ الله رضي الله عنه قَالَ: «بَايَعْتُ رَسُوْلَ الله ﷺ عَلَىٰ إقَامِ الصَّلاةِ، وإيْتَاءِ الزَّكَاةِ، والنُّصْحِ لِكُلِّ مُسْلِمٍ» مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ.

وقَوْلُهُ ﷺ: «إنَّ الله يَرْضَىٰ لَكُم ثَلاثًا: يَرْضَىٰ لَكُم أنْ تَعْبُدُوْهُ ولا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا، وأنْ تَعْتَصِمُوا بحَبْلِ الله جَمِيْعًا ولا تَفَرَّقُوا، وأنْ تُنَاصِحُوا مَنْ وَلَّاهُ الله أمْرَكُم» أخْرَجَهُ مُسْلِمٌ.

* * *

ومِن إيْقَاظَاتِ اليَوْمِ؛ كَانَ عَلَيْنَا أنْ نَعْلَمَ جَمِيْعًا (عُلَمَاءَ وَدُعَاةً) أنَّ الخُطُوْبَ هَذِهِ الأيَّامَ بَيْنَ أهْلِ الحَقِّ وبين أهْلِ البَاطِلِ ذَاتُ خَطَرٍ جَسِيْمٍ، وأمْرٍ عَظِيْمٍ.

هَذَا إذَا عَلِمْتَ أنَّ أهْلَ البَاطِلِ اليَوْمَ عِنْدَهُم مِنْ العُدَدِ والعَتَادِ، والدُّوَلِ والأجْنَادِ، مَا لَيْسَ لِغَيْرِهِم كَمَا لَا يَخْفَىٰ!

ومَعَ هَذَا وذَاكَ؛ فَإنَّ الطَّائِفَةَ المَنْصُوْرَةَ (ولله الحَمْدُ) ظَاهِرَةٌ قَائِمَةٌ بِأمرِ رَبِّهَا تُبَلِّغُ الوَاجِبَ الَّذي أُنِيْط بِأعْنَاقِهَا إبْرَاءً للذِّمَّةِ، ونُصْحًا للأمَّةِ، فَلَمْ تَزَلْ قَوَافِلُهُم تَتْرَىٰ؛ يَستَنْجِدُ بَعْضُهُم بِبَعْضٍ كَي يَرُدُّوْا عَادِيَةَ أهْلِ البَاطِلِ، ويَكْشِفُوْا الزَّيْفَ الغَاشِمَ، وذَلِكَ من خِلالِ بَذْلِ وَاجِبِ النَّصِيْحَةِ بَيْنَهُمْ في تَصْحِيْحِ مَنْهجِ العِلْمِ والعَمَلِ، وتَقْيِيْمِ بَصَائِرِ الدَّعْوَةِ والتَّذْكِيْرِ ... كُلُّ ذَلِكَ حَتَّىٰ تَسِيْرَ القَافِلَةُ السَّلَفِيَّةُ شَامِخَةً عَالِيَةً مُعْتَزَةً بِمَنْهَجِهَا، واثِقَةً بِسَيْرِهَا ودَعْوَتِهَا، والله المُوَفِّقُ والهَادِي إلىٰ سَوَاءِ السَّبِيْلِ.

* * *

وإنَّا وإيَّاهُمْ لا نَشُكُّ طَرْفَةَ عَيْنٍ؛ أنَّ أكْثَرَ دُعَاةِ (الفِكْرِ التَّرْبَوِيِّ) هُمْ إخْوَانٌ لَنَا علىٰ سُرُرٍ مُتَقَابِلِيْنَ، كَمَا أنَّ لَهُمْ أثَرًا وتَأْثِيْرًا في أوْسَاطِ الشَّبَابِ العَائِدِ

إلىٰ الله تَعالَىٰ، وكَذا لَهُمْ أثَرَةُ أعْمَالٍ في جُهُوْدٍ مَشْكُوْرَةٍ آنَاءَ اللَّيْلِ وأطْرَافَ النَّهارِ، ومِنْ وَرَائِهَا نِيَّاتٌ صَادِقَةٌ (والله حَسِيْبُهُم)؛ ومَا ذَاكَ مِنْهُم حَفِظَهُمُ الله إلَّا لِيَكُوْنُوا لأبْنَاءِ المُسْلِمِيْنَ: حِصْنًا حَصِيْنًا، وَسَدًّا مَنِيْعًا مَنْ عَادِيَةِ الشَّهَوَاتِ الأخَّاذَةِ، والشُّبُهَاتِ الشَّاقَّةِ في أفْئِدَةِ أبْنَاءِ المُسْلِمِيْنَ جُرُوْحًا غَائِرَةً مَا لَهَا مِنْ وَاقٍ وَلا رَاقٍ، إلَّا مَا رَحِمَ رَبِيْ وَقَلِيْلٌ ما هُمْ!

* * *

ومَهْمَا يَكُنْ؛ فَهَذَا شَيْءٌ وَالنَّصِيْحَةُ الإيْمَانِيَّةُ شَيْءٌ آخَرُ، لا يَجُوْزُ مِنَّا إغْفَالُهَا، ولا مِنْهُمْ تَغَافُلُهَا، فَغِيَابُ التَّنَاصُحِ لَمْ يَكُنْ مِنْ شَأنِ المُؤْمِنِيْنَ في سَالِفِ الدَّهْرِ وخَالِفِ العَصْرِ، وإلَّا كُنَّا وإيَّاهُم (عِيَاذًا بالله!) كَالَّتِي تَنْقُضُ غَزْلَهَا، أوْ كَالَّذِيْنَ يَهْدِمُوْنَ بُيُوْتَهُم بأيْدِيْهِم، لِأجْلِ هَذَا: فَقَدْ اسْتَوْجَبَتِ النَّصِيْحَةُ اليَوْمَ حَقَّهَا ومُسْتَحَقَّهَا.

* * *

وإنِّيْ أعْلَمُ أنَّ أحَدًا لَوْ أرَادَ أنْ يَقِفَ اليَوْمَ في وَجْهِ (التَّرْبِيَةِ) أيًّا كَانَ، أوْ حَاوَلَ (ولَوْ عَبَثًا!) أنْ يَكْشِفَ أخْطَاءَهَا . . . فَسَيَكُوْنُ مَصِيْرُهُ عِنْدَ بَعْضِهِم: الرَّجمَ والشَّتْمَ . . . كَمَا سَيَغْضَبُ أُنَاسٌ وأُنَاسٌ؛ ورُبَّمَا يُعَادِي القَرِيْبُ قَبْلَ البَعِيْدِ، ومَهْمَا يَكُنْ؛ فَلِسَانُ حَالِي كَمَا قَالَ تَعالىٰ: ﴿قَالَ يَٰقَوۡمِ أَرَءَيۡتُمۡ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٖ مِّن رَّبِّي وَرَزَقَنِي مِنۡهُ رِزۡقًا حَسَنٗاۚ وَمَآ أُرِيدُ أَنۡ أُخَالِفَكُمۡ إِلَىٰ مَآ أَنۡهَىٰكُمۡ عَنۡهُۚ إِنۡ أُرِيدُ إِلَّا ٱلۡإِصۡلَٰحَ مَا ٱسۡتَطَعۡتُۚ وَمَا تَوۡفِيقِيٓ إِلَّا بِٱللَّهِۚ عَلَيۡهِ تَوَكَّلۡتُ وَإِلَيۡهِ أُنِيبُ﴾ [هود: ٨٨].

كما أنَّني بِسَبِيْلِ النَّصِيْحَةِ هَذِهِ لا أُرِيْدُ: إسْقَاطَ وَتَجْرِيْمَ أصْحَابِ (الفِكْرِ التَّرْبَوِيِّ)؛ ولَكِنِّي أُرِيْدُ تَصْحِيْحَ الدَّعْوَةِ عِنْدَ أرْبَابِهَا ولَوْ بِاسْمِ (التَّرْبِيَةِ!)، لأنَّ تَصْحِيْحَ الدَّعْوَةِ الإسْلامِيَّةِ جَادَةٌ مَطْرُوْقَةٌ عِنْدَ حُمَاةِ الشَّرِيْعَةِ، وأرْبَابِ الحَقِّ.

* * *

في حِيْنِ أنَّهُ؛ لَو اسْتَسْلَمَ النَّاصِحُوْنَ أمَامَ أخْطَاءِ (الفِكْرِ التَّرْبَوِيِّ) وأمَامَ كَثْرَةِ مُرِيْدِيْهِ، وَسَكَتُوا عَنِ التَّصْحِيْحِ والمُنَاصَحَةِ: خَوْفًا علىٰ مَصْلَحَةِ الدَّعْوَةِ (زَعَمُوا!) لاسْتَعْلىٰ البَاطِلُ، وَبَرَدَ الحَقُّ، وتَغَرَّبَتِ الشَّرِيْعَةُ في دَارِها ومَدَارِها، وانْحَرَفَ أبْنَاؤهَا عَنْ جَادَّةِ الطَّرِيْقِ!

* * *

ومِنْ خِلالِ ما ذَكَرْنَاهُ هُنَا؛ كَانَ حَقًّا لازِمًا عَلَىٰ أهْلِ العِلْمِ أنْ يَجْتَهِدُوا حَثِيْثًا في بَيَانِ أخْطَاءِ هَذِه الدَّعْوَاتِ النَّازِلَةِ بِسَاحَةِ المُسْلِمِيْنَ هَذِه الأيَّامَ لاسِيَّمَا دُعَاةُ (الفِكْرِ التَّرْبَوِيِّ)؛ هَذَا إذا عَلِمْنَا أنَّ خَرْقَها قَدِ اتَّسَعَ، وشَرَّها قَدِ اسْتَوْضَعَ؛ حَيْثُ رَكَضَ أكْثَرُ أبْنَاءِ المُسْلِمِيْنَ وَرَاءها وُحْدانًا وزَرَافاتٍ لا يَلْوُنَ عَلَىٰ أحَدٍ مِنْ أهْلِ العِلْمِ النَّاصِحِيْنَ، ومِنْ هُنَا انْعَقَدَتْ آصِرَةُ المُغَالَطَاتِ، وبَلَغَتْ تُزَاحِمُ الحَقَائِقِ المَعْلُوْمَةِ ضَرُوْرَةً مِنَ الدِّيْنِ شَيْئًا فَشَيْئًا؛ حَتَّىٰ غَزَتْ بَعْضًا مِنْ أهْلِ العِلْمِ والدُّعَاةِ (المَشْهُوْرِيْنَ)!

❏ ❏ ❏

المَدْخَلُ الثَّالِثُ

التَّعْيِيرُ

أَمَّا التَّعْيِيْرُ فَشِيءٌ أَعَاذَنِي الله وإيَّاكُمْ مِنْهُ: فَإنَّه عَيْنُ المَقْتِ وَسُوْءُ النِّيَّةِ، ودَفَائِنُ القُلُوْبِ المَرِيْضَةِ، وأكِنَّةُ الصُدُوْرِ الضَّيِّقَةِ، وحَبَائِلُ الشَّيْطَانِ، ومَعَاوِلُ الهَدْمِ، وأعْوَانُ الشَّيْطَانِ، بَلْ هُوَ: جِمَاعُ الخُذْلانِ (عِيَاذًا بالله!).

كَما قَالَ تَعَالىٰ: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ ۖ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّوا۟ مِنْ حَوْلِكَ ۖ فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِى ٱلْأَمْرِ ۖ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَوَكِّلِينَ﴾ [آل عمران: ١٥٩].

وقَوْلُهُ تَعَالىٰ: ﴿وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَا تَنَٰزَعُوا۟ فَتَفْشَلُوا۟ وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ ۖ وَٱصْبِرُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ [الأنفال: ٤٦]، وغَيْرُهَا مِنَ الآيَاتِ.

وقَوْلُهُ ﷺ: «حَسْبُ امْرِئٍ مِنَ الشَّرِّ؛ أَنْ يُحَقِّرَ أَخَاهُ المُسْلِمَ» أَخْرَجَهُ ابنُ مَاجه (٤٢١٣)، وهُوَ صَحِيْحٌ، وهُنَاكَ غَيْرُهَا مِنَ الأَحَادِيْثِ.

* * *

فَمَا أَحْسَنَ مَا قَالَهُ الشَّيْخُ بَكْرُ أَبو زَيْدٍ ﵀ في كِتَابِهِ: «الرَّدُّ علىٰ المُخَالِفِ» (١٤): «ولأمْرٍ خَيْرٍ يُرِيدُه الله في هَذِه الطَّائِفَةِ الذَّادَّةِ عَنْ دِيْنِ

الله، وشَرْعِه يَنَالُهم أَنْوَاعٌ مِنَ الآذَايا والبَلايَا. زِيَادَةً في مُضاعفَةِ الأجْرِ وخُلُوْدِ الذِّكْرِ.

ومِنْ أَسْوَئِهَا، نَفَثَاتُ المُخَذِّلِيْنَ المُقَصِّرِيْنَ مِنْ أهْلِ السُّنةِ، فَتَرَىٰ المُثْخَنَ بِجِرَاحِ التَّقْصِيرِ، الكَاتِمَ للحَقِّ، البَخِيْلَ بِبَذلِ العِلْمِ، إذَا قَامَ إخْوَانُه بِنُصْرَةِ السُّنةِ يُضِيْفُ إلىٰ تَقْصِيْرِه مَرَضَ التَّخْذِيلِ، ومِنْ وَرَاءِ هَذَا لِيُوجِدَ لِنَفْسِه عِنْدَ المُنَاشدَةِ، والمُطَالَبَةِ: العُذْرَ في التَّولِّي يَوْمَ الزَّحْفِ علىٰ مُعْتَقَدِه!

وهَكَذَا تُلاكُ هَذِه الظَّاهِرَةَ المُؤْذِيَةَ بِصَفَةٍ تُشْبِهَ الحَقَّ، وهِيَ بَاطِلٌ مَحْضٌ!

وهَذِه الظَّاهِرَةُ إنَّما تُنْتَشَرُ، لِقُصُورِ الفَهْمِ، وضَعْفِ القُدْرَةِ، وتَقَلُّصِ عِلْمِ الوَحْي، وأَنْوَارِ النُّبُوَّةِ، والرُّكُوْنِ إلىٰ الدُّنيا، والإغْمَاضِ علىٰ أثَرَةٍ، وإقْذَاءٍ فَكَانَ الوَقْتُ وَقْتَ فَتْرَةٍ في ذَلِكَ الأمْرِ، إذْ العُلَمَاءُ يَقِلُّونَ تَارَةً، ويَكْثُرُونَ أُخْرَىٰ.

فَقُلْ لِي بِرَبِّكَ: إذَا أَظْهَرَ المُبْطِلُوْنَ أهْوَاءهُم، والمُرْصِدُونْ في الأمَّةِ: وَاحِدٌ يُخَذِّلُ، ووَاحِدٌ سَاكِتٌ؛ فَمَتَىٰ يَتَبَيَّنُ الحَقُّ؟ إلَّا إنَّ النَّتِيْجَةَ تُسَاوِي: ظُهُورُ الأقْوَالِ البَاطِلَةِ، والأهْوَاءِ الغَالِبَةِ علىٰ الدِّيْنِ الحَقِّ بالتَّحْرِيْفِ والتَّبْدِيْلِ، وتَغْيِيْرُ رُسُومِه في فِطَرِ المُسْلِمِيْنَ. فَكَيْفَ يَكُوْنُ السُّكُوْتُ عَنِ البَاطِلِ إذًا حَقًّا؟ والله يَقُوْلُ: ﴿بَلْ نَقْذِفُ بِٱلْحَقِّ عَلَى ٱلْبَٰطِلِ فَيَدْمَغُهُۥ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌۚ وَلَكُمُ ٱلْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ﴾ [الأنبياء: ١٨]. إلَّا إنَّ السُّكُوْتَ عَنْ كُلِّ مُبطِلٍ وباطِلِه أبَدًا: هُوَ هُنَا أبْطَلُ البَاطِلِ، وخَوْضٌ في بَاطلِ الإثْمِ وظَاهِرِه، فَيَا لله

كَيْفَ يؤُوْلُ «التَّخْذِيْلُ» إلىٰ مَكِيْدَةٍ للإسْلامِ يَصِيْرُ بِهَا نِهَابًا للأهْوَاءِ» انْتَهَىٰ(١).

* * *

فإذا عُلِمَ هَذَا؛ كَانَ حَقًّا علىٰ النَّاصِحِيْنَ مِنْ أهْلِ العِلْمِ أنْ يَقِفُوا مَعَ ظَاهِرَةِ (الفِكْرِ التَّرْبَوِيِّ) بَعِيْدِيْنَ كُلَّ البُعْدِ عَنِ التَّعْبِيْرِ الجَارِحِ، والتَّشْهِيْرِ الفَاضِحِ، والحَالَةُ هَذِهِ كانَ مِنَ الوَاجِبِ أيْضًا أنْ يَقْبَلَ إخْوَانُنَا أصْحَابُ (الفِكْرِ التَّرْبَوِيِّ) ما يَرَوْنَهُ حَقًّا، وما يَظُنُّوْنَهُ صِدْقًا؛ مِمَّا يَكُوْنُ عَوْنًا لَهُمْ في تَصْحِيْحِ الدَّعْوَةِ، وتَقْيِيمِ الدُّعَاةِ، وتَحْقِيْقِ الخَيْرِ ظَاهِرًا وبَاطِنًا.

لأجْلِ هَذَا؛ كَانَ عَلىٰ أهْلِ العِلْمِ والدَّعْوَةِ أنْ يَرْفَعُوا صَوْتَ النَّصِيْحَةِ بَيْنَهُمْ؛ بَعِيْدًا عَنِ التَّشَفِّي، وحُظُوْظِ النَّفْسِ، كَمَا عَلَيْهِم أنْ يَكُفُّوا ويَحْذَرُوا ألْسِنَةَ أدْعِيَاءِ العِلْمِ والدَّعْوَةِ، وأنْ يَحْبِسُوا صَرِيْفَ أقْلامِهِمُ (المَأْجُوْرَةِ) في الطَّعْنِ والنَّيْلِ منْ أهْلِ العِلْمِ والدَّعْوَةِ، الَّذِيْنَ لا يَسْأمُوْنَ مِنَ التَّشْهِيْرِ بأخْطَاءِ

---

(١) وَقْفَةٌ ورِثَاءٌ؛ وبَيْنَا أنَا هُنَا آخِذٌ بلِجَامِ القَلَمِ رَاكِضًا في نَمْنَمَةِ ومُرَاجَعَةِ الكِتَابِ تَبْيِيْضًا وتَرْوِيْضًا إذْ طَنَّتْ نَائِحَةُ اللُّغَةِ عَزَاءً في فَقِيْدِهَا وعَمِيْدِهَا الشَّيْخِ بَكْرِ أبي زَيْدٍ ﷺ، فَجَمَحَ القَلَمُ بيَدِي، وهَزَّ عَضُدِي، وأذْرَفَ هُنَا دَمْعَةً مِهْرَاقَةً في رِثَاءِ شَيْخِي وشَيْخِهِ: فَيَا أيُّها اليَلْمَعُ العَرُوْفُ، والمَعْمَعُ اليَهْفُوْفُ: لَقَدْ مَاتَ بَلِيْغُ نَجْدٍ وأدِيْبُهَا، حَارِسُ حِيَاضِ العَقِيْدَةِ ورِيَاضِهَا، المُتَفَرِّعُ عَنِ اللُّغَةِ بأفْنَانٍ وفُنُوْنٍ، وعَنْ دَوْحَاتِهَا بخَيْطَانٍ وغُصُوْنٍ، فَلَمْ يَكُنْ يَرْضَىٰ مِنَ الفِقْهِ بالسَّافِيَةِ عَنِ الشَّحْوَاءِ، ولا ممَّنْ اهْتَافَ بِهِ رِيْحُ الشَّقَاءِ!

وبَعْدُ؛ فَهَذِهِ طِلْبَةٌ واسْتِجْدَاءٌ لرُوَّامِ العِلْمِ وطُلَّابِهِ بَعْدَ وَفَاةِ حَبِيْبِ النَّفْسِ أدِيْبِ الحِسِّ، بَكْرِ أبي زَيْدٍ: مَنْ يَأْخُذِ القَلَمَ بحَقِّهِ؟! (وقَدْ أخْرجْتُ سِيْرَةَ الشَّيْخِ بَكْرِ أبو زَيْدٍ كَامِلَةً في رِسَالَةٍ صَغِيْرَةٍ بعِنْوَانِ: «كَرَائِمِ التَّرَاجِمِ» فانْظُرْهَا مَشْكُورًا).

إخْوَانِهِمْ، والانْتِصَارِ بالبَاطِلِ، والتَّجَهُّمِ والغِلْظَةِ، وكَذَا اسْتِعْدَاءِ السُّلْطَانِ علىٰ إخْوَانِهِمُ الدُّعَاةِ . . . ومِنْ وَرَاءِ ذَلِكَ: تَحْزِيْبُ الشَّبِيْبَةِ والمُرِيْدِيْنَ حَوْلَهُمْ أنْصارًا وأشْيَاعًا، ومَا النَّصْرُ في مِثْلِ هَذِهِ المَوَاطِنِ إلَّا لِلنَّفْسِ والهَوَىٰ (عِيَاذًا بالله!)، وهَلْ هَذَا إلَّا إعْمَالًا لِلْبَاطِلِ، أو عَمَالَةً لِلْمُبْطِلِيْنَ؟!

* * *

❑ كَما أعِيْذُكَ أخِي المُسْلِمَ مِنْ: كَلِمَةِ حَقٍّ أُرِيْدَ بِهَا بَاطِلٌ، فَمِنْهَا ما يَكُوْنُ بِاسْمِ: السَّلَفِيَّةِ، وأحْيَانًا باسمِ: اتِّبَاعِ الحَقِّ، وأخْرَىٰ باسْمِ: التَّحْذِيرِ مِنَ البَاطِلِ وأهْلِهِ!

فلا تَغْتَرْ أخِي المسْلِمُ؛ فإنَّها: شِنْشِنَةٌ نَعْرِفُها مِنْ أخْزَمَ، ومن ورَائِهَا: جَعْجَعَةٌ ولا نَرَىٰ طِحْنًا؛ بَلْ هِيَ في حَقِيْقَتِهَا حَمَائِلُ سُوْءٍ يَتَسَوَّلُ بِهَا بَعْضُ أدْعِيَاءِ السَّلَفِيَّةِ هُنَا وهُنَاك، فَالله طَلِيْبُهُم!

* * *

كَمَا أنَّنا لا نَشُكُّ طَرْفَ عَيْنٍ أنَّ كَثِيْرًا مِنْ طُلَّابِ العِلْمِ مِمَّنْ رَكِبُوا ثَجِيْجَ ظَاهِرَةِ أدْعِيَاءِ السَّلَفِيَّةِ اليَوْمَ، أو أُقْحِمُوا فِيْهَا: هُمْ علىٰ السَّدَادِ والاقْتِصَادِ في المَنْهَجِ والعَقِيْدَةِ، كَمَا أنَّهُم لا يَرْضَوْنَ بالسَّلَفِيَّةِ بَدِيْلًا ولا عَنِ الأثَرِ تَحْوِيْلًا، ولَهْم فِيْما يَقُوْلُوْنَ ويَفْعَلُوْنَ اجْتِهَادَاتٌ ونِيَّاتٌ صَادِقَةٌ (ولا نُزَكِّيْهِم عَلَىٰ الله!)، ولَكِنَّ الحَوْبَ الكَبِيْرَ مِنْ أدْعِيَاءِ السَّلَفِيَّةِ، مِمَّنْ غَلَوْ في المَنْهَجِ والتَّصْنِيْفِ، ولِكُلٍّ بَيْنَ يَدَيْ الله مَوْقِفٌ وحِسَابٌ، والله يَغْفِرُ لمَنْ يَشَاءُ.

* * *

❑ ومَهْما يَكُنْ؛ فإنَّ شُذُوْذاتِ وأُغْلُوْطاتِ أدْعِياءِ السَّلَفِيَّةِ اليَوْمَ لا تَنْتَهِي إلىٰ حَدٍّ أو عَدٍّ؛ اللهمَّ إنَّهم يجْتَمِعُونَ في صِفَاتٍ وَآرَاءٍ فَاسِدَةٍ، وأمَّا إذا أرَدْتَ أنْ تَعْرِفَهُم بِسِيْمَاهُمُ (اليَوْمَ) فانْظُرْهُم في المَسَائِلِ الاجْتِهَادِيَّةِ والخِلافِيَّةِ(١) الَّتِي يَسُوْغُ فِيْهَا الخِلافُ عِنْدَ السَّلَفِ الصَّالِحِ؛ فَمِنْ صِفَاتِهِم:

أوَّلًا: أنَّهُمْ في المَسَائِلِ الاجْتِهَادِيَّةِ يُفَسِّقُوْنَ المُخَالِفِيْنَ، وقَدْ يُبَدِّعُوْنَهُم، ورُبَّمَا يُكَفِّرُوْنَهُم، خِلافًا لِأهْلِ السُّنَّةِ الَّذِيْنَ يُخَطِّئُوْنَ مَعَ الرَّدِ بالرَّحْمَةِ والعَدْلِ.

ثَانِيًا: أنَّهم يَسْتَعْدُونَ فِيْهَا السُّلْطَانَ علىٰ إخْوَانِهِمُ المُخَالِفِيْنَ مِنْ أهْلِ العِلْمِ والدَّعْوَةِ، كَمَا هُوَ مَنْهَجُ أهْلِ الأهْوَاءِ والبِدَعِ.

ثَالِثًا: أنَّهم يُوَالُوْنَ فِيْهَا ويُعَادُوْنَ، وكذا يُحِبُّوْنَ ويُبْغِضُوْنَ.

رَابِعًا: أنَّهم يَجْعَلُوْنَ مِنْها نَفَقًا: لِلتَّشْهِيْرِ، والتَّنْفِيْرِ، والتَّحْذِيْرِ.

خَامِسًا: أنَّهم حَرْبٌ علىٰ إخْوَانِهِمْ مِنْ أهْلِ العِلْمِ والدَّعْوَةِ، وعُذْرٌ لأهْلِ الفِسْقِ والفُجُوْرِ، وسِلْمٌ مَعَ أهْلِ الأهْوَاءِ والبِدَعِ، وصَمْتٌ مَعَ اليَهُوْدِ والنَّصَارَىٰ.

---

(١) المسَائِلُ الاجْتِهادِيَّةُ: هِي المَسَائِلُ الَّتِي لَيْسَ فِيْها دَلِيلٌ مِنَ الكِتَابِ والسُّنَّةِ؛ بَلْ هِي مَتْرُوكَةٌ لاجْتِهادِ أهْلِ العِلْمِ، ومِنْهُ قَالُوا: لا إنْكَارَ في المَسَائِلِ الاجْتِهادِيَّةِ.
أمَّا المَسَائِلُ الخِلافِيَّةُ: فَهِي المَسَائِلُ الَّتِي فِيْها دَلِيلٌ مِنَ الكِتَابِ والسُّنَّةِ؛ فَهَذِه يَجُوزُ فِيْها الإنْكَارُ، والرَّدُّ والبَيَانُ، بشَرْطِ العَدْلِ والإنْصَافِ والرَّحْمَةِ، لاسِيَّما مَعَ أهْلِ العِلْمِ والدَّعْوَةِ.
وقَدْ يُطْلَقُ كُلٌّ مِنَ المَسَائِلِ الاجْتِهَادِيَّةِ والخِلافِيَّةِ علىٰ بَعْضِهَا البَعْضِ، كَما هُوَ ظَاهِرُ بَعْضِ عِبَارَاتِ أهْلِ العِلْمِ، فَهُما كَما يُقَالُ: إذَا اجْتَمَعَتَا افْتَرقَتَا، وإذَا افْتَرقَتَا اجْتَمَعَتَا.

سَادِسًا: أنَّ مَنْهَجَهُم في التَّعَامُلِ مَعَ أخْطَاءِ أهْلِ العِلْمِ والدَّعْوَةِ أشْبَهُ مَا يَكُوْنُ بالخَوَارِجِ، ومَعَ السَّلاطِيْنِ أشْبَهُ ما يَكُوْنُ بالمُرْجِئَةِ.

سَابِعًا: أنَّ مَوْقِفَهُم مَعَ إخوانِهِم مِنْ طَلَّابِ العِلْمِ والدَّعْوَةِ أشْبَهَ مَا يَكُوْنَ بمَوْقِفِ الخَوَارِجِ مَعَ سَائِرِ المُسْلِمِيْنَ؛ حَيْثُ نَرَاهُم (للأسَفِ) لا يَرْضَوْنَ ولا يَقْبَلُوْنَ ولا يُحْسِنُوْنَ الظَّنَّ بأحَدٍ إلَّا مَنْ كَانَ مِنْ أتْبَاعِهِم أو مَعَهُم، وإلَّا مَدُّوا بِسَاطَ الظُّنُوْنِ والتُّهَمِ بِهِ، وحَذَّرُوا مِنْهُ؛ حَتَّىٰ يَفِيْئ ألَيْهِم، أو يُفْصِحَ بأنَّهُ علىٰ مَشَارِبِهِم الكَدِرَةِ، ومَنَاقِعِهِم الآسِنَةِ.

ثَامِنًا: أنَّ مَنْهَجَهُم فِيْهِ شَبَهٌ بِمَنْهَجِ الشِّيْعَةِ الرَّافِضَةِ مَعَ سَائِرِ المُسْلِمِيْنَ، يُوَضِّحُهُ أنَّ أصْلَ مَنْهَجِ أدْعِيَاءِ السَّلَفِيَّةِ مَعَ إخْوانِهِم طَلَّابِ العِلْمِ والدَّعْوَةِ: هُوَ السَّبُّ، والشَّتْمُ، واللَّعْنُ، والطَّعْنُ، والبُغْضُ، والعِدَاءُ، والبَرَاءُ، وسُوْءُ الظَّنِّ، والتَّفْسِيْقُ، والتَّبْدِيْعُ، ورُبَّمَا التَّكْفِيْرُ ... وهَلْ هَذَا إلَّا دِيْنُ الرَّافِضَةِ؟!

تَاسِعًا: أنَّهم أهْلُ ظِنَّةٍ، وسُوْءِ نِيَّةٍ بإخْوانِهِم مِنْ أهْلِ العِلْمِ والدَّعْوَةِ، لِذَا تَرَاهُم لا يَقْبَلُوْنَ أحَدًا مِنْ أهْلِ العِلْمِ إلَّا إذَا ثَبَتَ لَدَيْهِم أنَّه علىٰ كَدَرِ مَشْرَبِهِم، وضِيْقِ مَسْلَكِهِم، وسُوْءِ مَنْهَجِهِم، وإلَّا أسَاءوا الظَّنَّ بِهِ، وحَذَّرُوْا مِنْهُ، ومَنْ لم يَتَبَيَّنْ لهُم سَبِيْلُهُ لدَيْهِم اتَّهَمُوْهُ بالمُعَمْعَمِ والمُبْهَمِ، فَهُو عِنْدَهُم في مَنْزِلَةٍ بَيْنَ مَنْزِلَتَيْنِ لا إلىٰ هَؤلاءِ ولا إلىٰ هَؤلاءِ؛ حَتَّىٰ يُفْصِحَ عَنْ مَنْهَجِهِ (وهُوَ مُوَافَقَةُ مَنْهَجِهِم!)، فَإنْ لم يَكُنْ لهُم عَلَيْهِ طَرِيْقٌ تَكَلَّفُوا لَهُ الأحْكَامَ والتُّهَمَ، وتَقَوَّلُوا عَلَيْهِ في القَوْلِ والحُكْمِ؛ حَتَّىٰ يَسْلَمَ لهُم اطِّرَاحُهُ والتَّحْذِيْرُ مِنْهَ!

وهَذَا بَابٌ وَاسِعٌ قَدْ رَكِبُوا مَتْنَ ظُنُوْنِهِ: مَا بَيْنَ غِيْبَةٍ، وبُهتَانٍ، واتِّهَامٍ، وكَذِبٍ، وتَقَوُّلٍ، وسُوْءِ ظِنَّةٍ وشَوْبِ نِيَّةٍ، وتَتَبُّعٍ للعَوْرَاتِ، وتَكَلُّفٍ في التَّحْذِيْرَاتِ... كُلَّ هَذَا تَفَنَّنٌ مِنْهُم في المُسَارَعَةِ إلىٰ مَنَابِعِ الخَطَايَا ومَنَاقِعِ الرَّزَايَا!

عَاشِرًا: أنَّهم عُشَّاقُ ثَلْبٍ، وهُوَاةُ نَقْبٍ، وأقْطَابُ رَدٍّ، حَيْثُ لا يَعْرِفُوْنَ من الجَرْحِ والتَّعْدِيْلِ إلَّا الجَرْحَ، ولا مِنَ الرَّدِّ إلَّا النَّقْدَ والفَضْحَ، ومِنْهُ يَنْشَأ الغُمْرُ بَيْنَهُمْ علىٰ مَنْهَجِ التَنْقِيْبِ والتَّجْرِيْحِ بِمَنْ يَشَاءُ وكَيْفَمَا شَاءَ، وهَكَذَا حَتَّىٰ يَصِيْرَ الغُمْرُ بَيْنَهُم: إمَامًا لِلجَرْحِ والتَّشْهِيْرِ!

❑ **وقَدْ قِيْلَ:**

ومَا النَّفْسُ إلاَّ حَيْثُ يَجْعَلُهَا الفَتَىٰ   فَإنْ أُطْعِمَتْ تَاقَتْ وإلاَّ تَسَلَّتِ

* * *

وهَكَذَا؛ لم يَعْرِفْ أكْثَرُ أدْعِيَاءِ السَّلَفِيَّةِ مِنْ أقْوَالِ وأفْعَالِ وكُتُبِ السَّلَفِ: إلَّا الجَرْحَ، والتَّحْذِيْرَ، والهَجْرَ والبُغْضَ، واللَّعْنَ والسَّبَّ!

ومَا عَلِمُوا (هَدَاهُم الله!)؛ أنَّ أهْلَ السُّنَّةِ في جَرْحِهِم وتَحْذِيْرِهِم لأهْلِ البِدَعِ والأهْوَاءِ، لم يَكُنْ عَبَثًا أو اسْتِطَالَةً أو هَوَىٰ للنَّفْسِ، بَلْ كَانَ هَذَا مِنْهُم رَحِمَهُمُ الله: نُصْرَةً للسُّنَّةِ، وتَحْذِيْرًا مِنَ البِدْعَةِ، وكَانَ هَذَا مِنْهُم أيْضًا لاعْتِبَارَاتٍ وحَالاتٍ بِحَسَبِ زَمَانِهِم ومَكَانِهِم، وذَلِكَ باعْتِبَارِ ظُهُوْرِ أهْلِ السُّنَّةِ وقِلَّتِهِم، وظُهُوْرِ أهْلِ البِدَعِ وقِلَّتِهِم، وهَذَا خِلافُ مَا يَدَّعِيْهِ أدْعِيَاءُ السَّلَفِيَّةِ اليَوْمِ!

❏ قَالَ عَبْدُ الله بنُ المُبارَكِ رَحِمَهُ اللهُ:

ذَهَبَ الرِّجَالُ المُقْتَدَىٰ بِفِعَالِهِم والمُنْكِرُوْنَ لِكُلِّ أمْرٍ مُنْكَرِ
وبَقِيْتُ في خَلَفٍ يُزَيِّنُ بَعْضُهُم بَعْضًا لِيَأخُذَ مُعْوِرٌ عَنْ مُعْوِرِ
رَكِبُوا ثَنِيَّاتِ الطَّرِيْقِ فَأصْبَحُوا مُتَنَكِّبِيْنَ عَنِ الطَّرِيْقِ الأكْبَرِ

الحَادِي عَشَرَ: وهُوَ أخْطَرُهَا وأظْهَرُهَا، أنَّهُم مِنْ خِلالِ المَسَائِلِ الاجْتِهَادِيَّةِ يُدْخِلُوْنَ مَنْ يَشاؤُونَ في السَّلَفِيَّةِ، ويُخْرِجُوْنَ مَنْ يَشَاؤُونَ، لِهَذا تَجِدُهُمْ يَتَسَوَّلُوْنَ بالسَّلَفِيَّةِ (زَعمُوا!) بَيْنَ طُلَّابِهِمُ الأغْمَارِ مِنْ نُزَّاعِ الوَافِدِيْنَ المُسْتَضْعَفِيْنَ، لاسِيَّما الأفَارِقَةُ مِنْهُمْ والبَرَابِرَةُ، وأغْرَابُ الهِنْدِ والسِّنْدِ مِمَّنْ لَيْسَ لَهُمْ في التَّحْقِيْقِ شَيْءٌ، اللهمَّ التَّقْلِيْدُ والتَّبعِيَّةُ العَمْيَاءُ، فَعِنْدَئِذٍ لا تَحْزَنْ علىٰ السَّلَفِيَّةِ، ولْيَكُنْ بُكَاؤُكَ علىٰ أدْعِيَائِهَا اليَوْمَ[1]!

الثَّاني عَشَرَ: أنَّ أكثَرَهُمْ في مَسَائِلِ الإيْمَانِ، والحُكْمِ بِغَيْرِ ما أنْزَلَ الله، والوَلاءِ والبَراءِ في غَيْرِهَا: مُرْجِئَةٌ، أو ممَّنْ دَخَلَتْهُم شُبْهَةُ الإرْجَاءِ.

الثَّالِثَ عَشَرَ: غُلُوُّهُم في كَلامِ بَعْضِ رِجَالِ أهْلِ السُّنَّةِ مِنَ السَّلَفِ الصَّالِحِ، وكَذَا غُلُوُّهُم في بَعْضِ مَوَاقِفِهِم؛ بِحَيْثُ غَدَتْ أقْوَالُ ومَوَاقِفُ

---

(١) لا شك أنَّ كَثِيْرًا مِنْ إخْوَانِنَا الأفَارِقَةِ والبَرَابِرَةِ والهِنْدِ والسِّنْدِ هُمْ مِنْ أهْلِ العِلْمِ الرَّبَّانِيِّيْنَ، بَلْ كَثِيْرٌ مِنْهُم مُحَدِّثُوْنَ وفُقَهَاءُ ومُفَسِّرُوْنَ ومُجَاهِدُوْنَ وغَيْرَ ذَلِكَ مِمَّا هُوَ مَعْلُوْمٌ مَشْهُوْرٌ، بَلْ بَعْضُهُم مِنْ مَشَايِخِي الَّذِيْنَ أخَذْتُ عَنْهُم العِلْمَ، غَيْرَ أنَّني أرَدْتُ هُنَا بَعْضَهُم مِمَّنْ تَأثَّرُوا بِفِكْرِ أدْعِيَاءِ السَّلَفِيَّةِ مِمَّنْ لَيْسَ لَهُم عِلْمٌ أو تَأصِيْلٌ مَنْهَجِيٌّ، والله أعْلَمُ!

الرِّجَالِ عِنْدَهُم تَخْصِيْصًا لعُمُوْمَاتِ الوَحْيَيْنِ (الكِتَابِ والسُّنَّةِ)، وتَقْيِيْدًا لمُطْلَقِهِما، وتَفْسِيْرًا لمُحْكَمِهِما، وهَكَذا في سِلْسِلَةٍ نَكِدَةٍ حَتَّىٰ قَدَّمُوا أقْوَالَ الرِّجَالِ علىٰ ظَاهِرِ الوَحْيَيْنِ، وجَعَلُوْا مِنْ أقْوَالِ الرِّجَالِ مَنْهَجًا وشِرْعَةً، ضَارِبِيْنَ بالوَحْيَيْنِ عُرْضَ الذَّاكِرَةِ، نَاسِيْنَ الاسْتِشْهَادَ والاسْتِدْلالَ بِهما، وبأقْوَالِ الصَّحابَةِ ﷺ، إلَّا مَا نَدَرَ وقَلَّ!

فَلا يَسْتَشْهِدُوْنَ غَالِبًا إلَّا بأقْوَالِ الرِّجَالِ، ولا يُقَرِّرُوْنَ مَنْهَجَ أهْلِ السُّنَّةِ إلَّا بمَوَاقِفِ بَعْضِ الرِّجَالِ . . . والخَطأُ كُلُّ الخطأ إذا عَلِمَ الجَمِيْعُ أنَّ القَوْمَ (للأسَفِ!) قَدْ ظَنُّوْا بأنْفُسِهِم أنَّ مَا يَقُوْلُوْنَهُ أو يَتَقَوَّلُوْنَهُ مِنْ أغْلُوْطَاتٍ مَنْهَجِيَّةٍ: هِي حَقِيْقَةُ مَنْهَجِ السَّلَفِ، فالله المُسْتَعانُ علىٰ مَا يَصِفُوْنَ!

* * *

❑ **أمَّا المَسَائِلُ الخِلافِيَّةُ الَّتِي يَسُوْغُ فِيْهَا الاجْتِهَادُ ويَجُوْزُ فِيْهَا البَيَانُ والرَّدُّ:** فَشَيْءٌ آخَرُ، حَيْثُ تَرَاهُمْ يَصُوْلُوْنَ ويَجُوْلُون بألْفَاظٍ وعِبَارَاتٍ وعَنَاوِيْنَ ومُحَاضَرَاتٍ تَشُمُّ مِنْهَا: التَّحْقِيْرَ والتَّنْقِيْصَ والتَّشَفِّي والتَّجْرِيْحَ والحَطَّ في غَيْرِ ذَلِكَ مِنَ العِبَارَاتِ الَّتِي لا تَنِمُّ إلَّا عَنْ دَفَائِنَ قَلْبِيَّةٍ، وسَوْءَاتٍ خَفِيَّةٍ، وانْتِصَارَاتٍ شَخْصِيَّةٍ، إلَّا مَا رَحِمَ الله!

لِذَا؛ فلا تَغْتَرْ بِمَا يَتَشَدَّقُوْنَ بِهِ: مِنْ بَيَانِ الحَقِّ والتَّحْذِيْرِ مِنَ البَاطِلِ . . . فَهَذا لَوْنٌ، وبَيَانُ الحَقِّ مَعَ العَدْلِ والرَّحْمَةِ لَوْنٌ آخَرُ، لا يُحْسِنُهُ أدْعِيَاءُ السَّلَفِيَّةِ اليَوْمَ، لأنَّ السَّلَفَ أعْلَمُ الخَلْقِ بالحقِّ، وأرْحَمُ الخَلْقِ بالخَلْقِ!

ومِنْ هُنَا؛ فإنِّي أُعِيْذُ نَفْسِي وكُلَّ مُسْلِمٍ: مِنْ نَزَغَاتِ الشَّيْطَانِ وأنْ يَحْضُرُوْنَ، ومِنْ أدْعِيَاءِ السَّلَفِيَّةِ وأنْ يَجْرَحُوْنَ!

فَإِنَّهم في حَقِيْقَةِ الأمْرِ: ابْتِلاءٌ يُسَلِّطُهُ الله علىٰ مَنْ يَشاءُ مِنْ عِبادِهِ المُؤْمِنِيْنَ؛ فالصَّبْرَ والاحْتِسابَ، والله وَليُّ الصَّالِحِيْنَ!

* * *

❏ والحَالَةُ هَذِه فَمَنِ ابْتَلاهُ الله بشَيءٍ مِنْ أدْعِيَاءِ السَّلَفِيَّةِ: في بَسْطِ ألْسِنَتِهِم، أو تَجْرِيْحِ أقْلامِهِم؛ فإنْ كَانَ مِنْ أهْلِ العِلْمِ والإيْمانِ (السَّلَفِيِّيْنَ): فلْيُوَطِّنْ نَفْسَهُ علىٰ الصَّبْرِ والاحْتِسابِ، فَإِنَّ بَلاءَهُم يَسْتَوْجِبُ صَبْرًا، وإنَّ أذاهُم يَسْتَجْلِبُ أجْرًا، فَهَذِهِ سُنَّةُ الله مَعَ أوْلِيَائِه، كَما قَالَ تَعالىٰ: ﴿الٓمٓ ۝١ أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتْرَكُوٓاْ أَن يَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ۝٢ وَلَقَدْ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْۖ فَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْكَٰذِبِينَ﴾ [العنكبوت: ١-٣].

ومِنْ وَرَاءِ ذَلِكَ؛ كَانَ مِنْ يَقِيْنِ العِلْمِ والقَبُوْلِ، ومِنْ أُلْقِيَاتِ الله في قُلُوْبِ المُؤْمِنِيْنَ: أنَّه مَا مِنْ أحَدٍ ابْتَلاهُ الله اليَوْمَ بأدْعِيَاءِ السَّلَفِيَّةِ إلَّا ازْدَادَ في أعْيُنِ النَّاسِ رِفْعَةً، وعَلا في العَالَمِيْنَ قَدْرُهُ . . . بَلْ أصْبَحَ بَلاؤهُم اليَوْمَ لأوْلِيَاءِ الله مَنْقَبَةً وزَيْنَةً يَتَزَيَّنُ بِها الصَّابِرُوْنَ في مَجَالِسِ أهْلِ العِلْمِ والإيْمانِ، ويَفْتَخِرُوْنَ بِها إذَا افْتَخَرَتْ أزْدٌ وقَحْطَانُ . . . وقَدْ قِيْلَ: رُبَّ ضَارَّةٍ نَافِعَةٍ، ومَعَ هَذَا فإنِّي أُعِيْذُ نَفْسي والمُسْلِمِيْنَ مِنْ بَلائِهِم!

❏ يَقُوْلُ الشَّافِعِيُّ رَحِمَهُ اللهُ:

يُخَاطِبُنِي السَّفِيْهُ بِكُلِّ قُبْحٍ ... فَأكْرَهُ أنْ أكُوْنَ لَهُ مُجِيْبَا
يَزِيْدُ سَفَاهَةً وأزِيْدُ حِلْمًا ... كَعُوْدٍ زَادَهُ الإحْرَاقُ طِيْبَا

* * *

وأمَّا مَنْ كَانَ مِنْ أَهْلِ الأهْوَاءِ والبِدَعِ فَابْتَلاهُ الله بِهِم، فَهَذِهِ سُنَّةُ الله في الظَّالِمِيْنَ، كَما قَالَ تَعالىٰ: ﴿وَكَذَٰلِكَ نُوَلِّي بَعْضَ ٱلظَّٰلِمِينَ بَعْضًۢا بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ﴾ [الأنعام].

* * *

ولا تَحْسِبَنَّ أخِي المُسْلِمُ أنَّ كَلامِي هَذَا مَدْعَاةُ رُكُوْنٍ إلىٰ البِدْعَةِ وأهْلِهَا، فَنَعُوْذُ بالله مِنْ ذَلِكَ، فَمَنْهَجُنَا ودَعْوَتُنَا: هُوَ نَبْذُ البِدْعَةِ وبُغْضُ أهْلِهَا، وإيْثَارُ السُّنَّةِ ومَحَبَّةُ أهْلِهَا، كَما أنَّنا نَكْرَهُ الغُلُوَّ ونُخَالِفُ أهْلَهُ، ونُؤثِرُ الاعْتِدَالَ ونُحِبُ أهْلَهُ، فَهَذِهِ سُنَّةُ الله الَّتِي ارْتَضَاهَا لأتْبَاعِ هَذِه الأمَّةِ الوَسَطِ، كَما قَالَ تَعالىٰ: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ۗ وَمَا جَعَلْنَا ٱلْقِبْلَةَ ٱلَّتِي كُنتَ عَلَيْهَآ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يَتَّبِعُ ٱلرَّسُولَ مِمَّن يَنقَلِبُ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ ۚ وَإِن كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ ۗ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَٰنَكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [البقرة].

* * *

❑ **وهَذِه أخْرَىٰ أيْضًا**؛ أنَّ أدْعِيَاءَ السَّلَفِيَّةِ كُلَّما كَلَّ رَادُّهُم، أو قَلَّ خَصْمُهُم، أو مَلَّ أتْبَاعُهُم؛ قَامُوا سِرَاعًا للبَحْثِ عَنْ خُصُوْمٍ لهُمْ، واخْتِلاقِ خِلافَاتٍ هُنَا وهُنَاكَ مِنْ خِلالِ الاتِّهَامِ والتَّقَوُّلِ والبُهْتَانِ والجُرْأةِ بِأنَّ فُلانًا: إخْوَانيٌّ، أو حَرَكِيٌّ، أو تَبْلِيْغيٌّ، أو حِزْبيٌّ، أو سُرُوْرِيٌّ، أو خَارِجِيٌّ، أو تَكْفِيْرِيٌّ، أو إرْهَابيٌّ، أو فُلانًا يَتَرحَّمُ علىٰ أهْلِ البِدَعِ، أو يُثْنِي عَلَيْهِم، لاسِيَّما علىٰ ابنِ حَجَرٍ والنَّوَوِيِّ والسُّيُوطِيِّ وسَيِّد قُطُب رَحِمَهُمُ الله تَعالىٰ، أو غَيْرُ ذَلِكَ مِنْ تَفَقُّهَاتِ أدْعِيَاءِ السَّلَفِيَّةِ... فَعِنْدَهَا يَنْشَطُوْنَ في الرَّدِّ

والتَّحْذِيْرِ مِنْ فُلانٍ وفُلانٍ!

ومِنْ وَرَاءِ ذَلِكَ وأشَدُّهُ: أنَّهُم لمَّا أصْبَحُوا كالجَمَلِ الأجْرَبِ بَيْنَ النَّاسِ، وذَهَبَتْ رِيحُهُم، وتَسَاقَطُوا في كُلِّ مَا يَأتُوْنَ ويَذَرُوْنَ: قَامُوا في اسْتِعْدَاءِ السُّلْطَانِ علَىٰ إخْوَانِهِم مِنْ أهْلِ العِلْمِ والدَّعْوَةِ، فَعِنْدَهَا يُضَيِّقُوْنَ مَنْهَجَ السَّلَفِ ويُحَجِّرُوْنَهُ في فَلَكِ السُّلْطَانِ، وهَذِهِ مِنْ تَعَاجِيْبِ الزَّمَانِ!

❑ وقَدْ قِيْلَ:

مَا عِنْدَهُم عِنْدَ التَّنَاظُرِ حُجَّةٌ ... أنَّىٰ بِهَا لِمُقَلِّدٍ حَيْرانِ

لا يَفْزَعُوْنَ إلىٰ الدَّلِيْلِ وإنَّما ... في العَجْزِ مَفْزَعُهُم إلىٰ السُّلْطَانِ

عِلْمًا أنَّ لوَلِيِّ الأمْرِ عِنْدَ أهْلِ السُّنةِ والجماعَةِ حُقُوقًا لا يَجُوزُ مُخالَفَتُها، ولا مُنَازَعَتُها، مِنْهَا: طَاعَتُهُم في المَعْرُوْفِ، ومُنَاصَحَتُهُم بالحَقِّ، وعَدَمُ غِشِّهِم، أو الخُرُوْجِ عَلَيْهِم، في غَيرِها ممَّا هُوَ مَوْجُودٌ في كُتُبِ عَقَائِدِ أهْلِ السُّنةِ والجَماعَةِ.

* * *

ولِيَعْلَمْ جَمَازِرَةُ السَّلْخِ والتَّجْرِيْحِ مَقَالَةَ السَّلَفِ المَاضِيَةِ في مُعَاوِيَةَ رضي الله عنه: «مُعَاوِيَةُ رضي الله عنه بِمَنْزِلَةِ حَلْقَةِ البَابِ: مَنْ حَرَّكَهُ اتَّهَمْنَاهُ علىٰ مَنْ فَوْقَهُ».

وقَوْلَهُم: «مُعَاوِيَةُ بْنُ أبي سُفْيَانَ سِتْرُ أصْحَابِ النَّبِيِّ ﷺ فإذَا كَشَفَ الرَّجُلُ السِّتْرَ اجْتَرَأَ علىٰ ما وَرَاءَهُ». انْظُر: «تَارِيْخَ دِمِشْقَ» لابنِ عَسَاكِرَ (٥٩/ ٢٠٩).

فَإذَا تَقَرَّرَ هَذَا؛ كَانَ علىٰ أدْعِيَاءِ السَّلَفِيَّةِ أنْ يَعْلَمُوا: أنَّ أهْلَ العِلْمِ

والدَّعْوَةِ عِنْدَنَا بِمَنْزِلَةِ حَلْقَةِ البَابِ: فَمَنْ حَرَّكَهُم اتَّهَمْنَاهُ على وُلاةِ الأمْرِ مِنْ أهْلِ السُّنَّةِ، ثُمَّ مَنْ بَعْدَهُم مِنْ جَمَاعَةِ المُسْلِمِيْنَ!

ومَنْ كَشَفَ السِّتْرَ عَنْهُم بالطَّعْنِ والوَقِيْعَةِ، اجْتَرَأَ على وُلاةِ الأمْرِ مِنْ أهْلِ السُّنَّةِ، ثُمَّ هَذِهِ طَلائِعُ بَعْضِ قُطَّاعِ الطَّرِيْقِ عِنْدَهُم مِنَ الأغْمارِ وأعْجَامِ الأمْصَارِ حَيْثُ نَرَى لَهُم تَغْبِيْرًا وتَدْبِيْرًا في الطَّعْنِ في وُلاةِ الأمْرِ مِنْ أهْلِ السُّنَّةِ في تَنْهِيْجٍ وتَنْبِيْتٍ جَدِيْدٍ باسْمِ: السَّلَفِيَّةِ!

ومَا ذَا مِنْهُم إلَّا تَلْقِيْنًا بَعْدَ تَقْلِيْدٍ في تَطْبِيْقِ مَنْهَجِ الجَرْحِ والطَّعْنِ في وُلاةِ الأمْرِ مِنْ أهْلِ السُّنَّةِ!

❑ **يَقُوْلُ طَرَفَةُ بنُ العَبْدِ:**

سَتُبْدِي لَكَ الأيَّامُ مَا كُنْتَ جَاهِلًا ... ويَأتِيْكَ بالأخْبَارِ مَنْ لَمْ تُزَوِّدِ

ويَأتِيْكَ بالأخْبَارِ مَنْ لَمْ تَبِعْ لَهُ ... بَتَاتًا ولَمْ تَضْرِبْ لَهُ وَقْتَ مَوْعِدِ

* * *

❑ **وهَكَذَا لم يَنْتَهِ سُعَارُ أدْعِيَاءِ السَّلَفِيَّةِ في تَعْلِيْمِ وحَمْلِ أبْنَاءِ المُسْلِمِيْنَ علَى الآذَايَا والبَلايَا، والتَّحْذِيْرِ والتَّشْهِيْرِ، والاسْتِعْدَاءِ، حَتَّى إذَا كَتَبَ الله عَلَيْهِمُ: الكَلَّ والمَلَّ، وضَاقَتْ صُدُوْرُ الأوْلِيَاءِ مِنْهُم، واسْتَوْحَشَ مِنْهُمُ أهْلُ العِلْمِ والإيْمَانِ، إذْ بِنَا نَجِدُهُم والحَالَةُ هَذِهِ يَقْلِبُوْنَ ظَهْرَ المَجَنِّ فِيمَا بَيْنَهُم: مَا بَيْنَ رَدٍّ وتَحْذِيْرٍ، وتَفْسِيْقٍ وتَبْدِيْعٍ، وهَكَذَا حَتَّى أصْبَحُوا أقْسَامًا، والقِسْمُ مِنْهُم في انْقِسَامٍ، كَالنَّارِ إذَا لم تَجِدْ مَا تَأكُلُهُ أكَلَتْ بَعْضَهَا بَعْضًا!**

* * *

ومِنْ مَقَاتَةِ الله وبُغْضِهِ؛ أنَّ طَائِفَةً مِنْهُم ممَّنْ اتَّخَذُوا التَّجْرِيْحَ والطَّعْنَ سَرَبًا لبَسْطِ أَلْسِنَتِهِم في أعْرَاضِ إخْوَانِهم مِنْ أهْلِ العِلْمِ والدَّعْوَةِ: أنْ عَاقَبَهُمُ الله تَعَالىٰ بالحَوْرِ بَعْدَ الكَوْرِ، وبالفُتُوْرِ بَعْدَ الظُّهُوْرِ، وبالنُّقْصَانِ بَعْدَ الزِّيَادَةِ، وبالنَّكْسَةِ بَعْدَ الاسْتِقَامَةِ؛ حَتَّىٰ غَدَتْ هَذِهِ المَقْتَةُ في الغَاغَةِ مِنْ أدْعِيَاءِ السَّلَفِيَّةِ شَيْئًا ظَاهِرًا، وأمْرًا سَائِرًا، فنسْألُ الله؛ لَنَا ولهُمُ الثَّبَاتَ علىٰ الطَّاعَةِ والدِّيْنِ، والاسْتِقَامَةَ علىٰ الحَقِّ المُبِيْنِ، اللهمَّ آمِيْنَ!

ومِنْ أسِيْفِ أدْعِيَاءِ السَّلَفِيَّةِ اليَوْمَ؛ أنَّه حَتَّىٰ سَاعَتِي هَذِهِ لا نَعْلَمُ بَيْنَهُم رَجُلًا مَرْضِيًّا قَدِ اجْتَمَعُوا عَلىٰ سَلَفِيَّتِهِ وإمَامَتِهِ؛ لأنَّهم في نِزَاعٍ واخْتِلافٍ مَا بَيْنَ تَفْسِيْقٍ وتَبْدِيْعٍ، فَمَنْ أصْبَحَ عِنْدَهُم سَلَفِيًّا؛ أمْسَىٰ لَدِيْهِم مُبْتَدِعًا، ومَنْ بَدَّعُوْهُ بَدَّعَهُم، ومَنْ أحَبُّوْهُ وقَرَّبُوْهُ يَوْمًا؛ أبْغَضُوْهُ وجَانَبُوْهُ أيَّامًا، وهَكَذَا في مُصَارَمَةٍ ومُخَاصَمَةٍ أشْبَهُ مَا تَكُوْنُ حَالًا وشَبَهًا بِالخَوَارِجِ في مُخَالَفَةِ بَعْضِهِم بَعْضًا مَا بَيْنَ عَشِيَّةٍ وضُحَاهَا.

فَحِيْنَئِذٍ قُلْ: عَلىٰ أدْعِيَاءِ السَّلَفِيَّةِ السَّلامُ، كَما نَقُوْلُ لَهُم: إذَا اجْتَمَعْتُم علىٰ إمَامَةِ وسَلَفِيَّةِ رَجُلٍ مِنْكُم فَأخْبِرُوْنَا، وإلاَّ فاتْرُكُوْنَا؟!

❑ **يَقُوْلُ يَزِيْدُ بنُ الحَكَمِ:**

ألَا لَيْتَ حَظِّي مِنْ غُذَافَةَ أنَّهَا تُكَفْكِفُ عَنِّي خَيْرَهَا وشُرُوْرَهَا

وإنْ قِيْلَ: إنَّ الرَّافِضَةَ هُمْ سِبَّةُ بَنِي آدَمَ، فَنَقُوْلُ اليَوْمَ: إنَّ الخُلُوْفَ هُمْ سِبَّةُ السَّلَفِيَّةِ!

وسَيَأتِي مَعَهُم بَعْضُ الحَدِيْثِ والبَسْطِ في البَابِ الرَّابِعِ إنْ شَاءَ الله.

وفي مِثْلِ هَذَا؛ فَإنِّي أوْصِي نَفْسِي وطُلَّابَ العِلْمِ اليَوْمَ بِقِرَاءَةِ كِتَابِ «تَصْنِيْفِ النَّاسِ بَيْنَ الظَّنِّ واليَقِيْنِ» لشَيْخِنا بَكْرِ بنِ عَبْدِ الله أبُو زَيْدٍ رَحِمَهُ اللهُ، فَفِيْهِ بَسْطَةُ عِلْمٍ آخِذَةٌ بكَشْفِ عَوَارِ هَذِهِ النَّابتَةِ العَصْرِيَّةِ الَّتِي لم تَكُنْ لها سَابِقَةٌ في إرْثِ سَلَفِنَا الصَّالِحِ، والله أعْلَمُ.

* * *

☐ وأخِيْرًا؛ هَاكَ أخِي المُسْلِمُ هَذِهِ الكَلِمَاتِ السَّلَفِيَّةَ، فَفِيْها تَسْلِيَةٌ لِكُلِّ نَاصِحٍ ومَنْصُوْحٍ، وهُوَ مَا ذَكَرَهُ الإمَامُ ابنُ القَيِّمِ رَحِمَهُ اللهُ إذْ يَقُوْلُ في كِتَابهِ «مَدَارِجِ السَّالِكِيْنَ» (٣/ ٢٠٨): «فَإذَا أرَادَ المُؤمِنُ الَّذِي قَدْ رَزَقَهُ الله بَصِيْرَةً في دِيْنِهِ، وفِقْهًا في سُنَّةِ رَسُوْلِهِ، وفَهْمًا في كِتَابِهِ، وأرَاهُ مَا النَّاسُ فِيْهِ: مِنَ الأهْوَاءِ والبِدَعِ، والضَّلالاتِ وتَنَكُّبِهِم عَنِ الصِّرَاطِ المُسْتَقِيْمِ، الَّذِي كَانَ عَلَيْهِ الرَّسُوْلُ ﷺ، وأصْحَابُهُ، فَإذَا أرَادَ أنْ يَسْلُكَ هَذَا الصِّرَاطَ:

فلْيُوَطِّنْ نَفْسَهُ علىٰ قَدْحِ الجُهَّالِ وأهْلِ البِدَعِ فِيْهِ، وطَعْنِهِم عَلَيْهِ، وازْدِرَائِهِم بِهِ، وتَنْفِيرِ النَّاسِ عَنْهُ، وتَحْذِيْرِهِم مِنْهُ، كَما كَانَ سَلَفُهُم مِنَ الكُفَّارِ يَفْعَلُوْنَهُ مَعَ مَتْبُوْعِهِ وإمَامِهِ ﷺ، فَأمَّا إذَا دَعَاهُم إلىٰ ذَلِكَ وقَدَحَ فِيما هُمْ عَلَيْهِ: فَهُنَالِكَ تَقُوْمُ قِيَامَتُهُم، ويَبْغُوْنَ لَهُ الغَوَائِلَ، ويَنْصِبُوْنَ لَهُ الحَبَائِلَ، ويَجْلِبُوْنَ عَلَيْهِ بخَيْلِ كَبِيرِهِم ورَجْلِهِ، فَهُوَ غَرِيْبٌ في أمُوْرِ دُنْيَاهُ وآخِرَتِهِ، لا يَجِدُ مِنَ العَامَّةِ مُسَاعِدًا أو مُعِينًا.

فَهُوَ عَالِمٌ بَيْنَ جُهَّالٍ، صَاحِبُ سُنَّةٍ بَيْنَ أهْلِ بِدْعَةٍ، دَاعٍ إلىٰ الله ورَسُوْلِه بَيْنَ دُعَاةٍ إلىٰ الأهْوَاءِ والبِدَعِ، آمِرٌ بالمَعْرُوْفِ نَاهٍ عَنِ المُنْكَرِ بَيْنَ قَوْمٍ

المَعْرُوْفُ لَدَيْهِم مُنْكَرٌ، والمُنْكَرُ مَعْرُوْفٌ».

ولَهُ أيْضًا رَحِمَهُ اللهُ كَلامٌ نَفِيْسٌ في كِتَابِهِ «بَدَائِعِ الفَوَائِدِ» (٢/ ٨٠٢)، وذَلِكَ لَمَّا كَانَ يَتَحَدَّثُ عَنْ مَكَائِدِ وشُرُوْرِ الشَّيْطَانِ بالإنْسَانِ: «فَإذَا أعْجَزَهُ العَبْدُ (الشَّيْطَانَ) مِنَ هَذِهِ المَرَاتِبِ السِّتِّ وأعْيَا عَلَيْهِ، سَلَّط عَلَيْهِ حِزْبَهُ مِنَ الإنْسِ والجِنِّ بأنْوَاعِ الأذَىٰ والتَكْفِيرِ لَهُ، والتَّضْلِيْلِ والتَّبْدِيْعِ والتَّحْذِيْرِ مِنْهُ، وقَصَدَ إخْمَالَهُ وإطْفَاءَهُ لِيُشَوِّشَ عَلَيْهِ قَلْبَهُ، ويُشْغِلَ بحَرْبِهِ فِكْرَهُ، ولِيَمْنَعَ النَّاسَ مِنَ الانْتِفَاعِ بِهِ، فَيَبْقَىٰ سَعْيُهُ في تَسْلِيْطِ المُبْطِلِيْنَ مِنْ شَيَاطِيْنَ الإنْسِ والجِنِّ عَلَيْهِ، لا يَفْتُرُ ولا يَنِي، فَحِيْنَئِذٍ يَلْبَسُ المُؤمِنُ لأمَةَ الحَرْبِ ولا يَضَعُهَا عَنْهُ إلىٰ المَوْتِ، ومَتَىٰ وَضَعَهَا أُسِرَ أو أُصِيْبَ، فَلا يَزَالُ في جِهَادٍ حَتَّىٰ يَلْقَىٰ الله» انْتَهَىٰ.

* * *

❑ **لأجْلِ هَذَا**؛ كَانَ وَاجِبًا علىٰ إخْوَانِنَا أرْبَابِ (الفِكْرِ التَّرْبَوِيِّ) أنْ يُحْسِنُوا الظَّنَّ في إخْوَانِهِم النَّاصِحِيْنَ، كَما عَلَيْهِم ألَّا يَسْتَأخِرُوا سَاعَةً في أخْذِ الحَقِّ والعَمَلِ بِهِ، تَصْحِيْحًا للدَّعْوَةِ، ونُصْحًا لإخْوَانِهِم مِنَ الشَّبِيْبَةِ العَائِدِيْنَ إلىٰ الله تَعَالىٰ، فَبِهَذَا تَسِيْرُ قَافِلَةُ الدَّعْوَةِ السَّلَفِيَّةِ قُدُمًا إلىٰ الأمَامِ، ويَقْوَىٰ عُوْدُهَا، ويَثْبُتُ أتْبَاعُهَا إنْ شَاءَ الله تَعَالىٰ!

❑ ❑ ❑

المَدْخَلُ الرَّابِعُ

الاتِّفَاقُ والائتِلافُ

لا شَكَّ أنَّ الاتِّفَاقَ والائتِلاف مَقْصَدٌ شَرْعِيٌّ، وهُوَ مِنَ الأصُوْلِ العَظِيْمَةِ الَّتِي بُنِيَ عَلَيْهَا دِيْنُ الإسْلامِ، بَلْ إنَّه مِنْ آكَدِ الأصُوْلِ في هَذَا الدِّيْنِ العَظِيْمِ، إذْ يَقُوْلُ شَيْخُ الإسْلامِ ابنِ تَيْمِيَّةَ رَحِمَهُ اللهُ في «مَجمُوْعِ الفَتَاوَىٰ» (٢٢/ ٣٥٩): «وهَذَا الأصْلُ العَظِيْمُ: وهُوَ الاعْتِصَامُ بحَبْلِ الله جَمِيْعًا وأنْ لا يُتَفَرَّقَ: هُوَ مِنْ أعْظَمِ أصُوْلِ الإسْلامِ، وممَّا عَظُمَتْ وَصِيَةُ الله تَعَالىٰ بِهِ في كِتَابِهِ، وممَّا عَظَّمَ ذَمَّهُ لمَنْ تَرَكَهُ مِنْ أهْلِ الكِتَابِ وغَيْرِهِم، وممَّا عَظُمَتْ بِهِ وَصِيَةُ النَّبيِّ ﷺ، في مَوَاطِنَ عَامَّةٍ وخَاصَّةٍ» انْتَهَىٰ.

ولذَلِكَ أمَرَ الله تَعَالىٰ، ورَسُوْلُه ﷺ: بكُلِّ مَا يَحْفَظُ علىٰ المُسْلِمِيْنَ جَمَاعَتَهُم وأُلْفَتَهُم، والنَّهْيَ عَنْ كُلِّ مَا يُضْعِفُ هَذَا الأمْرَ العَظِيْمَ ويُوَهِّنُهُ.

لأجْلِ هَذَا؛ كَانَ مِنَ الحَقِّ الوَاجِبِ أنْ تَجْتَمِعَ كَلِمَةُ العُلَماءِ الرَّبَّانِيِّيْنَ، والدُّعَاةِ المُصْلِحِيْنَ علىٰ كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَهُم، وذَلِكَ بأخْذِ سِيَرِ السَّلَفِ الصَّالِحِ عَقِيْدَةً ومَنْهَجًا، عِلْمًا وعَمَلًا، دَعْوَةً ونُصْحًا، وإلَّا عَادَ حَامِدُنَا ذَامًّا، وذَهَبَتْ رِيْحُنَا، وتَشَتَّتَ شَبَابُنَا . . . في غَيْرِ ذَلِكَ ممَّا يَزِيْدُ في التَّفْرِقَةِ

والخِلافِ، ويَزِيْدُ في اسْتِعْدَاءِ أَهْلِ الضَّلالِ والفَسَادِ علىٰ الإسْلامِ والمُسْلِمِيْنَ.

* * *

قَالَ تَعَالىٰ: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُواْ بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ [الحجرات: ١٠].

وقَالَ تَعَالىٰ: ﴿وَٱعْتَصِمُواْ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُواْ وَٱذْكُرُواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَآءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِۦٓ إِخْوَٰنًا وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٣].

ففِي هَذِهِ الآيَاتِ وغَيْرِهَا: الأمْرُ بالاجْتِمَاعِ والائْتِلافِ، والنَّهْيُ عَنِ الافْتِرَاقِ والاخْتِلافِ، وهَذَا ممَّا اسْتَفَاضَتْ بِه النُّصُوْصُ الشَّرْعِيَّةُ، ودَعَتْ إلَيْهِ مَقَاصِدُ الشَّرِيْعَةِ، ووَقَعَ عَلَيْهِ الإجْمَاعُ.

❑ ❑ ❑

المَدْخَلُ الخَامِسُ

الافْتِرَاقُ والاخْتِلافُ

لا شَكَّ أنَّ الافْتِرَاقَ والاخْتِلافَ مَذْمُوْمٌ شَرْعًا، ومَمْنُوْعٌ طَبْعًا، فَلا دِيْنَ بِلا أُخُوَّةٍ، ولا أُخُوْةَ بِلا دِيْنٍ، كَما قَالَ تَعالىٰ: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ [الحجرات: ١٠].

لأجْلِ هَذَا؛ كَانَتِ الآيَاتُ القُرْآنِيَّةُ في ذَمِّ الافْتِرَاقِ والاخْتِلافِ أكْثَرَ عَدَدًا مِنْهَا في الحَثِّ علىٰ الجَمَاعَةِ، ومَا ذَاكَ إلَّا أنَّ الجَمَاعَةَ أصْلٌ ومَقْصَدٌ، ومَطْلَبٌ شَرْعِيٌّ، أمَّا الافْتِرَاقُ والاخْتِلافُ فَأمْرٌ طَارِئ وحَادِثٌ لِذَا نَجِدُ الشَّرِيْعَةَ قَدْ أوْلَتْهُ اهْتِمامًا بَالِغًا مِنَ التَّحْذِيْرِ والتَّحْرِيْمِ.

قَالَ تَعالىٰ: ﴿وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ تَفَرَّقُوا۟ وَٱخْتَلَفُوا۟ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٠٥﴾ يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ ۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ فَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿١٠٦﴾ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱبْيَضَّتْ وُجُوهُهُمْ فَفِى رَحْمَةِ ٱللَّهِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٥-١٠٧].

وقَدْ ذَكَرَ ابنُ جَرِيْرٍ رَحِمَهُ اللهُ في «جَامِعِ البَيَانِ» (٤/ ٣٩) قَوْلَ ابنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا في قَوْلِهِ: «وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا»، ونَحْوِ هَذَا في القُرْآنِ: «أمَرَ الله جَلَّ ثَنَاؤهُ المُؤمِنِيْنَ بالجَماعَةِ، فَنَهَاهُم عَنِ الاخْتِلافِ والفُرْقَةِ،

وأَخْبرَهُم أَنَّما هَلَكَ مَنْ كَانَ قَبْلَهُم بالمِرَاءِ والخُصُوْمَاتِ في دِيْنِ الله» انْتَهىٰ.

فَالله تَعالىٰ في هَذِهِ الآيَاتِ وغَيْرِهَا يَنْهىٰ المُسْلِمِيْنَ أنْ يَكُوْنُوا كَالأُمَمِ المَاضِيَةِ في افْتِرَاقِهِم واخْتِلافِهِم وتَرْكِهِم مَا أَوْجَبَ الله عَلَيْهِم مِنَ الأَمْرِ بالمَعْرُوْفِ والنَّهْيِ عَنِ المُنْكَرِ في غَيْرِهَا مِنَ الوَاجِبَاتِ الشَّرْعِيَّةِ.

قَالَ الإمَامُ مَالِكٌ رَحِمَهُ اللهُ كَمَا نَصَّ عَلىٰ ذَلِكَ الشَّاطِبيُّ في «الاعْتِصَامِ» (٢/ ٢٩٠)، بقَوْلِهِ: «وقَالَ ابنُ وَهْبٍ: سَمِعْتُ مَالِكًا يَقُوْلُ: مَا آيَةٌ في كِتَابِ الله أَشَدُّ علىٰ أَهْلِ الاخْتِلافِ مِنْ أَهْلِ الأَهْوَاءِ مِنَ هَذِهِ الآيَةِ: ﴿يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ﴾ إلىٰ قَوْلِهِ: ﴿بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ﴾. قَالَ مَالِكٌ: فَأَيُّ كَلامٍ أَبْيَنَ مِنْ هَذَا؟ فَرَأَيْتُهُ يَتَأَوَّلُها لأَهْلِ الأَهْوَاءِ . ورَوَاهُ ابنُ القَاسِمِ، وزَادَ: قَالَ مَالِكٌ: إنَّما هَذِهِ الآيَةُ لأَهْلِ القِبْلَةِ» انْتَهىٰ.

* * *

وقَالَ تَعَالىٰ: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [الأنعام: ١٥٣].

وعَنْ ابنِ مَسْعُوْدٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ: «خَطَّ لَنَا رَسُوْلُ الله ﷺ، يَوْمًا خَطًّا، فَقَالَ: هَذَا سَبِيْلُ الله، ثُمَّ خَطَّ عَنْ يَمِيْنِ ذَلِكَ الخَطِّ وعَنْ شِمَالِهِ خُطُوْطًا، فَقَالَ: هَذِهِ سُبُلٌ علىٰ كُلِّ سَبِيْلٍ مِنْهَا شَيْطَانٌ يَدْعُو إلَيْهَا، ثُمَّ قَرَأَ هَذِهِ الآيَةَ: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ ۚ﴾ أَخْرَجَهُ

أحْمَدُ (١/ ٤٣٥، ٤٦٥)، و(٣/ ٣٩٧)، وابنُ مَاجَه (١١)، و«جَامِعُ البَيَانِ» لابنِ جَرِيْرٍ الطَّبَرِيِّ (٨/ ٨٨-٨٩)، وهُوَ صَحِيْحٌ.

* * *

قَالَ تَعَالىٰ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ فَرَّقُوا۟ دِينَهُمْ وَكَانُوا۟ شِيَعًا لَّسْتَ مِنْهُمْ فِى شَىْءٍ ۚ إِنَّمَآ أَمْرُهُمْ إِلَى ٱللَّهِ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ﴾ [الأنعام: ١٥٩].

قَالَ ابنُ كَثِيْرٍ رَحِمَهُ اللهُ في تَفْسِيْرِهِ لهَذِهِ الآيَةِ (٢/ ١٩٦): «والظَّاهِرُ أنَّ الآيَةَ عَامَّةٌ في كُلِّ مَنْ فَارَقَ دِيْنَ الله، وكَانَ مُخَالِفًا لَهُ، فَإنَّ الله بَعَثَ رَسُوْلَهُ بالهُدَىٰ ودِيْنِ الحَقِّ لِيُظْهِرَهُ علىٰ الدِّيْنِ كُلِّهِ، وشَرْعُهُ وَاحِدٌ لا اخْتِلافَ فِيْهِ ولا افْتِراقَ، فَمَنِ اخْتَلَفَ فِيْهِ «وكَانُوا شِيَعًا»، أيْ: فِرَقًا كَأهْلِ المِلَلِ والنِّحَلِ والأهْوَاءِ والضَّلالاتِ، فَإنَّ الله قَدْ بَرَّأ رَسُوْلَ اللهِ ﷺ، ممَّا هُمْ فِيْهِ، وهَذِهِ الآيَةُ كَقَوْلِهِ تَعالىٰ: ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ﴾ الآيَةُ. وفي الحَدِيْثِ: «**نَحْنُ مَعَاشِرَ الأنْبِيَاءِ أوْلادُ عَلَّاتٍ دِيْنُنا وَاحِدٌ**» (مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ).

فَهَذَا هُوَ الصِّرَاطُ المُسْتَقِيْمُ، وهُوَ مَا جَاءتْ بِهِ الرُّسُلُ: مِنْ عِبَادَةِ الله وَحْدَهُ لا شَرِيْكَ لَهُ، والتَّمَسُّكِ بشَرِيْعَةِ الرَّسُوْلِ المُتَأخِّرِ، ومَا خَالَفَ ذَلِكَ فَضَلالاتٌ وجَهَالاتٌ وأرَاءٌ وأهْوَاءٌ والرُّسُلُ بُرَاءٌ مِنْهَا كَمَا قَالَ الله تَعَالىٰ: ﴿لَّسْتَ مِنْهُمْ﴾ انْتَهَىٰ.

* * *

وقَالَ تَعَالىٰ: ﴿وَمِنَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّا نَصَٰرَىٰٓ أَخَذۡنَا مِيثَٰقَهُمۡ فَنَسُواْ حَظّٗا مِّمَّا ذُكِّرُواْ بِهِۦ فَأَغۡرَيۡنَا بَيۡنَهُمُ ٱلۡعَدَاوَةَ وَٱلۡبَغۡضَآءَ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِۚ وَسَوۡفَ يُنَبِّئُهُمُ ٱللَّهُ بِمَا كَانُواْ يَصۡنَعُونَ﴾ [المائدة: ١٤].

يَقُوْلُ ابنُ تَيْمِيَّةَ رَحِمَهُ اللهُ في «مَجْمُوعِ الفَتَاوَىٰ» (١/ ١٤) شَارِحًا لِهَذِهِ الآيَةِ: «فَأخبَرَ أنَّ نِسْيَانَهُم حَظًّا ممَّا ذُكِّرُوا بِهِ. وهُوَ تَرْكُ العَمَلِ ببَعْضِ مَا أُمِرُوا بِه. كَانَ سَبَبًا لإغْرَاءِ العَدَاوَةِ والبَغْضَاءِ بَيْنَهُم، وهَكَذَا هُوَ الوَاقِعُ في أهْلِ مِلَّتِنَا مِثْلَما نَجِدُهُ بَيْنَ الطَّوَائِفِ المُتَنَازِعَةِ في أُصُوْلِ دِيْنِهَا، وكَثِيْرٍ مِنْ فُرُوْعِهِ، مِنْ أهْلِ الأُصُوْلِ والفُرُوْعِ».

وقَالَ أيْضًا (٣/ ٤٢١): «فمَتَىٰ تَرَكَ النَّاسُ بَعْضَ مَا أمَرَهُمُ الله بِهِ: وَقَعَتْ بَيْنَهُمُ العَدَاوَةُ والبَغْضَاءُ، وإذَا تَفَرَّقَ القَوْمُ فَسَدُوا وهَلَكُوا، وإذَا اجْتَمَعُوا صَلَحُوا ومَلَكُوا، فَإنَّ الجَمَاعَةَ رَحْمَةٌ، والفُرْقَةَ عَذَابٌ».

وقَالَ (١٣/ ٢٢٧): «فَمَنْ دَفَعَ نُصُوْصًا يَحْتَجُّ بِها غَيْرُهُ، لم يُؤْمِنْ بِها، بَلْ آمَنَ بِما يَحْتَجُّ: صَارَ ممَّنْ يُؤْمِنُ ببَعْضِ الكِتَابِ ويَكْفُرُ ببَعْضٍ.

وهَذَا حَالُ أهْلِ الأهْوَاءِ، هُمْ مُخْتَلِفُوْنَ في الكِتَابِ، مُخَالِفُوْنَ للكِتَابِ، مُتَّفِقُوْنَ علىٰ مُخَالَفَةِ الكِتَابِ، وقَدْ تَرَكُوا كُلُّهُم بَعْضَ النُّصُوْصِ، وهُوَ مَا يَجْمَعُ تِلْكَ الأقْوَالِ.

فَصَارُوا كَما قَالَ تَعَالىٰ عَنْ أهْلِ الكِتَابِ: ﴿وَمِنَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّا نَصَٰرَىٰٓ أَخَذۡنَا مِيثَٰقَهُمۡ فَنَسُواْ حَظّٗا مِّمَّا ذُكِّرُواْ بِهِۦ فَأَغۡرَيۡنَا بَيۡنَهُمُ ٱلۡعَدَاوَةَ وَٱلۡبَغۡضَآءَ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِۚ﴾.

فإذَا تَرَكَ النَّاسُ بَعْضَ مَا أنزَلَ الله وَقَعَتْ بَيْنَهُمُ العَدَاوَةُ والبَغْضَاءُ، إذْ لم يَبْقَ هُنَا حَقٌّ جَامِعٌ يَشْتَرِكُوْنَ فِيْهِ، بَلْ: ﴿فَتَقَطَّعُوٓاْ أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ زُبُرًاۖ كُلُّ حِزْبِۭ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ﴾ [المؤمنون: ٥]. وهَؤلاءِ كُلُّهُم لَيْسَ مَعَهُم مِنَ الحَقِّ إلَّا مَا وَافَقُوْا فِيْهِ الرَّسُوْلَ، وهُوَ مَا تَمسَّكُوا بِهِ مِنْ شَرْعِهِ ممَّا أخْبَرَ ومَا أمَرَ بِهِ، وأمَّا مَا ابْتَدَعُوْهُ فَكُلُّهُ ضَلالَةٌ».

وقَالَ (١/ ١٧): «فَظَهَرَ أنَّ سَبَبَ الاجْتِمَاعِ والأُلْفَةِ جَمْعُ الدِّيْنِ، والعَمْلُ بِهِ كُلِّهِ، وهُوَ عِبادَةُ الله وَحْدَهُ لا شَرِيْكَ لَهُ، كَما أمَرَ بِهِ بَاطِنًا، وظَاهِرًا.

وسَبَبُ الفُرْقَةِ: تَرْكُ حَظٍّ ممَّا أُمِرَ العَبْدُ بِه، والبَغْيُ بَيْنَهُم.

ونَتِيْجَةُ الجَماعَةِ: رَحْمَةُ الله، ورِضْوَانُه، وصَلَوَاتُه، وسَعَادَةُ الدُّنْيَا والآخِرَةِ، وبَيَاضُ الوُجُوْهِ.

ونَتِيْجَةُ الفُرْقَةِ: عَذَابُ الله، ولَعْنَتُهُ، وسَوَادُ الوُجُوْهِ، وبَرَاءَةُ الرَّسُوْلِ مِنْهُم».

وقَالَ أيْضًا رَحِمَهُ اللَّهُ (١٩/ ١١٦): «إذَا كَانَ الله تَعالىٰ قَدْ أمَرَنَا بطَاعَةِ الله وطَاعَةِ رَسُوْلِهِ، وأُولي الأمْرِ مِنَّا، وأمَرَنَا عِنْدَ التَّنَازُعِ في شَيءٍ أنْ نَرُدَّهُ إلىٰ الله وإلىٰ الرَّسُوْلِ، وأمَرَنَا بالاجْتِماعِ والائْتِلافِ، ونَهَانَا عَنِ التَّفَرُّقِ والاخْتِلافِ، وأمَرَنَا أنْ نَسْتَغْفِرَ لمَنْ سَبَقَنَا بالإيمانِ، وسَمَّانَا المُسْلِمِيْنَ، وأمَرَنَا أنْ نَدُوْمَ عَلَيْهِ إلىٰ المماتِ، فَهَذِهِ النُّصُوْصُ ومَا كَانَ في مَعْنَاهَا تُوْجِبُ عَلَيْنَا الاجْتِماعَ في الدِّيْنِ كاجْتِماعِ الأنْبِيَاءِ قَبْلَنا في الدِّيْنِ»، إلىٰ أنْ قَالَ: «فَالأُصُوْلُ الثَّابِتَةُ بالكِتَابِ والسُّنَّةِ والإجْمَاعِ هِيَ بمَنْزِلَةِ الدِّيْنِ المُشْتَركِ

بَيْنَ الأنْبِيَاءِ، لَيْسِ لأحَدٍ خُرُوْجٌ عَنْهَا، ومَنْ دَخَلَ فِيْهَا كَانَ مِنْ أهْلِ الإسْلامِ المَحْضِ، وهُمْ أهْلُ السُّنَّةِ والجَماعَةِ، ومَا تَنَوَّعُوا فِيْهِ مِنَ الأعْمالِ والأقْوَالِ المَشْرُوْعَةِ: فَهُوَ بمَنْزِلَةِ مَا تَنَوَّعَتْ فِيْهِ الأنْبِيَاءِ» انْتَهَىٰ.

* * *

وقَالَ تَعَالىٰ: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا ۚ فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾ ۞ مُنِيبِينَ إِلَيْهِ وَٱتَّقُوهُ وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَلَا تَكُونُوا۟ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٣١﴾ مِنَ ٱلَّذِينَ فَرَّقُوا۟ دِينَهُمْ وَكَانُوا۟ شِيَعًا ۖ كُلُّ حِزْبٍۭ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ﴾ [الروم: ٣٠-٣٢].

فالله تَعَالىٰ في هَذِهِ الآيَاتِ يُحَذِّرُ هَذِهِ الأمَّةَ أنْ تَسِيْرَ علىٰ مَا كَانَ عَلَيْهِ أهْلُ الأدْيَانِ قَبْلَنَا مِنِ اخْتِلافٍ وافْتِراقٍ؛ حَتَّىٰ أصْبَحُوا شِيَعًا وأحْزَابًا، وكُلُّ فِرْقَةٍ مِنْهُم تَزْعُمُ أنَّها علىٰ شَيءٍ.

ومَعَ هَذَا التَّحْذِيْرِ والنَّهي مِنَ الاخْتِلافِ والافْتِراقِ؛ إلَّا سَبَقَ في عِلْمِ الله تَعَالىٰ أنَّ هَذِهِ الأمَّةَ سَوْفَ تَخْتَلِفُ فِيْما بَيْنَهَا علىٰ فِرَقٍ ضَالَّةٍ، وأحْزَابٍ مُبْتَدَعَةٍ كُلُّهَا في النَّارِ، إلَّا وَاحِدَةً: وهُم الطَّائِفَةُ المَنْصُوْرَةُ النَّاجِيَةُ مِنْ أهْلِ السُّنَّةِ والجَماعَةِ، المُتَمَسِّكِيْنَ بكِتَابِ الله وسُنَّةِ رَسُوْلِهِ ﷺ، وبما كَانَ عَلَيْهِ سَلَفُ الأمَّةِ مِنَ الصَّحَابَةِ والتَّابِعِيْنَ وتَابعِ التَّابِعِيْنَ، ومَنْ تَبِعَهُم بإحْسَانٍ إلىٰ يَوْمِ الدِّيْنِ، فاللهمَّ اجْعَلْنَا مَعَهُم حَيَاةً ومَمَاتًا!

وقَدْ سُئِلَ ﷺ، عَنِ الفِرْقَةِ النَّاجِيَةِ مِنْهُم، فَقَالَ: «**مَنْ كَانَ علىٰ مَا أنَا عَلَيْهِ**

اليَوْمَ وأصْحَابي» رَوَاهُ الحَاكِمُ.

وعَنْ أبي هُرَيْرَةَ ﷺ، عَنِ النَّبيِّ ﷺ قَالَ: «إنَّ الله يَرْضَىٰ لَكُمْ ثَلاثًا، أنْ تَعْبُدُوْهُ ولا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا، وأنْ تَعْتَصِمُوا بِحَبْلِ الله جَمِيْعًا ولا تَفَرَّقُوا، وأنْ تُنَاصِحُوا مَنْ وَلاَّهُ الله أمْرَكُم» رَوَاهُ مُسْلِمٌ.

* * *

❑ ومِنْ خِلالِ مَا ذَكَرْنَاهُ مِنَ الأدِلَّةِ الشَّرْعِيَّةِ والآثَارِ السَّلَفِيَّةِ النَّاهِيَةِ عَنِ الاخْتِلافِ والافْتِرَاقِ؛ كَانَ حَقًّا علىٰ الدُّعَاةِ اليَوْمَ أن يَحْذَرُوا كُلَّ مَا مِنْ شَأنِه يَكُوْنُ سَبَبًا للتَّفَرُّقَةِ والاخْتِلافِ سَوَاءً كَانَتْ: أقْوَالًا، أو أعْمالًا، أو أسْماءً، أو مَنَاهِجَ، أو أفْكَارًا، أو غَيْرَهَا مِنَ الأسْبَابِ المُفَرِّقَةِ الَّتِي مَا أنْزَلَ الله بِها مِنْ سُلْطَانٍ.

❑ فلَيْسَ في الإسْلامِ: حِزْبِيَّاتٌ، ولا جَماعَاتٌ، ولا مَنَاهِجُ، ولا مُسَمَّيَاتٌ، بَلْ حِزْبُ الله، وجَمَاعَةُ المُسْلِمِيْنَ، ومَنْهَجُ السَّلَفِ، وقَدْ سَمَّانَا الله تَعَالىٰ: المُسْلِمِيْنَ المُؤمِنِيْنَ عِبَادَ الله.

❑ فَحِيْنَئِذٍ: لا جَهْمِيَّةٌ، ولا أشْعَرِيَّةٌ، ولا كُلَّابِيَّةٌ، ولا كَرَّامِيَّةٌ، ولا أبَاضِيَّةٌ، ولا شِيْعِيَّةٌ، ولا صُوْفِيَّةٌ، ولا إخْوَانِيَّةٌ، ولا تَبْلِيْغِيَّةٌ، ولا تَرْبَوِيَّةٌ، ولا غَيْرُهَا ممَّا كَانَ أو سَيَكُوْنُ سَبَبًا للافْتِرَاقِ والاخْتِلافِ بَيْنَ جَمَاعَةِ المُسْلِمِيْنَ؛ بَلْ جَمَاعَةٌ وَاحِدَةٌ، ومَنْهَجٌ وَاحِدٌ، وحِزْبٌ وَاحِدٌ: وهُوَ مَا كَانَ عَلَيْهِ النَّبيُّ ﷺ، وأصْحَابُهُ الكِرَامُ.

❑ ❑ ❑

المَدْخَلُ السَّادِسُ

فِقْهُ الوَاقِعِ

لا شَكَّ أنَّ فِقْهَ الوَاقِعِ أصْلٌ أصِيْلٌ، وأسَاسٌ مَتِيْنٌ فِي التَّشْرِيْعِ الإسْلامِي، والفِقْهِ فِي دِيْنِ الله سُبْحَانَه؛ بَلْ هُوَ مَيْدَانُ الرَّاسِخِيْنَ مِنْ أهْلِ العِلْمِ فِي فَهْمِ الأحْكَامِ، ومَعْرِفَةِ الحَلالِ مِنَ الحَرَامِ، وهُوَ كَذَلِكَ.

وعَلَيْهِ؛ فإنَّ مَعْرِفَةَ فِقْهِ الوَاقِعِ عِنْدَ النَّوَازِلِ لاسِيَّما عِنْدَ الحَدِيْثِ عَنِ (الفِكْرِ التَّرْبَوِيِّ) هُوَ العَدْلُ الَّذِي أرَادَهُ الله تَعَالَىٰ، والحَقُّ الَّذِي سَنَّهُ رَسُوْلُ الله ﷺ فَمَنْ جَهِلَه أو تَجَاهَلَه فَقَدْ حَكَمَ عَلَىٰ الشَّرِيْعَةِ بالتَّنَاقُضِ والمُنَاقَضَةِ وحَاشَاهَا.

لِذَا وَجَبَ عَلَىٰ أهْلِ العِلْمِ أنْ يُدْرِكُوا حَقِيْقَةَ فِقْهِ الوَاقِعِ عِنْدَ تَوْظِيْفِ الأحْكَامِ الشَّرْعِيَّةِ فِي النَّوَازِلِ المُسْتَحْدَثَةِ؛ وإلَّا وَقَعْنا فِي حَيْصَ بَيْصَ، وأوْقَعْنَا المُسْلِمِيْنَ فِي وَادِي تُضُلِّلَ!

* * *

❑ وقَدْ كَفَانا تَرْسِيمَ فِقْهِ الوَاقِعِ تَرْسِيْمًا عِلْمِيًّا سَلَفِيًّا مَا ذَكَرَه الإمَامُ الهُمَامُ ابنُ القَيِّمِ رَحِمَهُ اللهُ مِمَّا يَجْدُرُ بطالِبِ العِلْمِ أنْ يَعَضَّ عَلَيْه النَّوَاجِذَ لِنُدْرَةِ وُجُودِه، وعِزَّةِ تأصِيلِه، وذَلِكَ عِنْدِ قَوْلِه كما جاء في «إعلامِ المُوَقِّعِيْنَ» (١/ ٨٧):

«ولا يَتمَكَّنُ المُفْتِي، ولا الحَاكِمُ مِنَ الفَتْوَىٰ، والحُكْمِ بالحقِّ إلَّا بِنَوْعَيْنِ مِنَ الفَهْمِ:

أَحَدُهُمَا: فَهْمُ الوَاقِعِ والفِقْهُ فِيْه، واسْتِنْباطُ عِلْمِ حَقِيْقَةِ مَا وَقَعَ بالقَرَائِنِ، والأَمَارَاتِ، والعَلامَاتِ؛ حَتَّىٰ يُحِيْطَ بِهِ عِلْمًا.

والنَّوْعُ الثَّاني: فَهْمُ الوَاجِبِ فِي الوَاقِعِ، وهُوَ فَهْمُ حُكْمِ الله الَّذِي حَكَمَ بِهِ فِي كِتَابِهِ، أو عَلَىٰ لِسَانِ رَسُولِهِ فِي هَذَا الوَاقِعِ، ثُمَّ يُطَبِّقُ أَحَدُهُما عَلَىٰ الآخَرِ، فَمَنْ بَذَلَ جُهْدَه، واسْتَفْرَغَ وُسْعَه فِي ذَلِكَ لَمْ يَعْدَمْ أَجْرَيْنِ، أو أَجْرًا!

فالعَالِمُ مَنْ يَتَوَصَّلُ بمَعْرِفَةِ الوَاقِعِ، والتَّفَقُّهِ فِيْهِ إلىٰ مَعْرِفَةِ حُكْمِ الله ورَسُولِه» انْتَهَىٰ.

* * *

❑ فعِنْدَئِذٍ كَانَتْ مِنْ أُغْلُوْطَاتِ أدْعِيَاءِ فِقْهِ الوَاقِعِ اليَوْمَ أنَّهم يَظُنُّوْنَ: أنَّ فِقْهَ الوَاقِعِ عِلْمٌ جَدِيْدٌ، وثَقَافَةٌ حَدِيْثَةٌ ... وهَذَا مِنْهُم قُصُورٌ فِي التَّصوُّرِ، ونَقْصٌ في العِلْمِ، لأنَّ أَسَاسَهُ في القُرْآنِ، والسُّنَّةِ، وكَلامِ سَلَفِ الأُمَّةِ، ففِي سُوْرَةِ الأنْعَامِ يَقُوْلُ ﷻ: ﴿وَكَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْأَيَٰتِ وَلِتَسْتَبِينَ سَبِيلُ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾ [الأنعام: ٥٥]، ومِنْ فِقْهِ الوَاقِعِ اسْتِبَانَتْ سَبِيلُ المُجْرِمين، ومَعْرِفَةُ أَهْدَافِهِم ومُخَطَّطاتِهِم؛ لِهَذا جَاءَتْ كَثِيْرٌ مِنَ الآياتِ مُفَصِّلَةً ومُبَيِّنَةً سُبُلَ أعْدَاءِ الله، وفَاضِحَةً لِمآرِبِهم وغَايَاتِهم.

* * *

❑ أمَّا السنَّةُ فَقَدْ حَفِلَتْ بكَثيْرٍ مِنَ الوَقَائِعِ، والشَّواهِدِ الَّتي تَدُلُّ عَلَىٰ عِنايَةِ النَّبيِّ ﷺ بِهَذا الجَانِبِ.

فَهَا نَحْنُ نَرَاهُ ﷺ يُوَجِّهُ المُسْتَضْعَفِين مِنْ صَحَابَتِه بالهِجْرَةِ إلىٰ الحَبَشَةِ، وهَذَا بُرْهانٌ سَاطِعٌ علىٰ مَعْرِفَتِه ﷺ بِمَا يَدُورُ حَوْلَه، وأحْوَالِ الأمَمِ المُعَاصِرَةِ له . أمَّا اخْتِيارُه ﷺ للحَبَشَةِ، فلِقَوْلِه: «إنَّ فِيْها مَلِكًا لا يُظْلَمُ عِنْدَه أحَدٌ!»، انْظُرْ «سِيْرَةَ ابنِ هِشَامْ» (١/ ٣٩٧)، وإسْنادُه حَسَنٌ.

وكَذَا نَجِدُه ﷺ يَخْتَارُ المَدِيْنَةَ مَكانًا لِهِجْرَتِهِ، ويَتَعامَلُ مَعَ الطَّوائِفِ المَوْجُودَةِ فِيْها وحَوْلَها: بأسْلُوبٍ يُناسِبُ أحْوَالَها!

وعِنْدَما أرْسَلَ ﷺ مُعَاذًا إلىٰ اليَمَنِ قَالَ لَهُ: «**إنَّكَ تَأتِي قَوْمًا أهْلَ كِتَابٍ**»، وهَذَا مِنْ إدْرَاكِهِ ﷺ وَاقِعَ كُلِّ بَلَدٍ، وما يَحْتَاجُ إلَيْه، ولِذَلِكَ قَالَ لَهُ: «فَلْيَكُنْ أوَّلَ ما تَدْعُوهم إلَيْه شَهَادَةُ أنْ لا إلَهَ إلاَّ الله . . .» مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ.

وكَذَلِكَ نَلْمَسُ عُمْقَ هَذَا العِلْمَ فِي غَزَواتِه، ورَسَائِلِه ﷺ إلىٰ الأمَمِ، والمُلُوكِ، والقَبائِلِ[١].

ومِنَ أقْوَىٰ الأدِلَّةِ عَلَىٰ عِنَايَةِ الكِتابِ، والسُّنةِ بِفِقْهِ الوَاقِعِ: قِصَّةُ فَارِسٍ والرُّومِ، وفِيْهَا يَظْهَرُ فِقْهُ الصَّحَابَةِ بوَاقِعِهِم، وإدْرَاكِهِم لأهَمِّيتِه، والقِصَّةُ كَمَا وَرَدَتْ فِي سُورَةِ الرُّوْمِ.

* * *

(١) انْظُرْ «فِقْهَ الوَاقِعِ» للشَّيْخِ النَّاصِحِ/نَاصِرِ العُمَرِ (١٠).

والعُلَماءُ مِنْ سَلَفِ هَذِه الأمَّةِ كَانُوا خَيْرَ مِثَالٍ لِحُسْنِ تَعَامُلِهم مَعَ وَاقِعِهم، فالإمَامُ أحْمَدُ بنُ حَنْبلٍ فِي فِتْنَةِ القَوْلِ بِخَلْقِ القُرآنِ، وشَيْخُ الإسْلامِ ابنُ تَيْميَّةَ فِي مَوْقِفِه مِنَ التَّتَارِ، وابنُ القَيِّمِ فِيما دَوَّنَه عَنْ فِقْهِ الوَاقِعِ، وحاجَةِ المُفْتِي إلَيْه، والعِزُّ ابنُ عَبْدِ السَّلامِ فِي مَوَاقِفِه الخالِدَةِ مِنَ النَّصارَىٰ، ومَنْ خَالَفَهُم.

لِذَا فإنَّ أهَمَّ دَعَائِمِ فِقْهِ الوَاقِعِ: هُوَ التَّأْصِيلُ الشَّرْعيُّ، وأحَقُّ النَّاسِ فِي هَذَا الجانِبِ هُمُ العُلَمَاءُ، وطُلابُ العِلْمِ، لا أدْعِيَاءُ الفِكْرِ والتَّنْظِيرِ، وعُشَّاقُ السِّيَاسَةِ، وأرْبَابُ (الفِكْرِ التَّرْبَوِيِّ)!

وعَلَيْه؛ فإنَّ الفَتْوَىٰ تَحْتاجُ - فِي كَثِيْرٍ مِنَ المَسَائِلِ - إلىٰ فِقْهِ الأصُوْلِ، وفِقْهِ الفُرُوعِ، وفِقْهِ الوَاقِعِ، وإذا اخْتَلَّ رُكْنٌ مِنْ هَذِه الأرْكَانِ تَدَاعَتِ الفَتْوَىٰ، وانْهَدَّ جَانِبُها.

فعِنْدَئِذٍ فَلَنْ يَكُوْنَ للفَقِيْهِ أثَرٌ حَمِيْدٌ في حَيَاةِ الأمَّةِ، ولَنْ يَكُوْنَ لفَتْوَاهُ التَّأثِيْرُ السَّدِيْدُ في حَيَاةِ المُسْلِمِيْنَ إلَّا باسْتِكْمالِ شُرُوطِ المُفْتِي والفَتْوَىٰ الَّتي حَدَّدَها العُلَمَاءُ، ومِنْها اكْتِمَالُ التَّصَوُّرِ عَنِ المَسْألَةِ: وهُوَ فِقْهُ الوَاقِعِ في المَسَائِلِ المُعَاصِرَةِ والنَّازِلَةِ.

* * *

وتَقْرِيرًا لِمَا طَافَ مَعَنَا هُنَا؛ نَجِدُ الشَّيْخَ بَكْرًا أبو زَيْدٍ يُقَرِّرُ هَذَا في كِتَابِهِ «المَدْخَلِ المُفَصَّلِ» (١/ ٧٧) بِقَوْلِه: «وتَأسِيْسًا عَلَىٰ هَذَا أعْطَىٰ الشَّرْعُ المُطَهَّرُ مَنِ انْبَسَطَتْ يَدَاهُ، ودَرَجَتْ خُطَاهُ فِي سَنَنِ التَّحْقِيْقِ: مَنْصِبَ إعْمَالِ

الفِكْرِ، وإجَالَةَ النَّظَرِ بالتَّفَهُّمِ، والتَّفَقُّهِ، والتَّدَبُّرِ فِي فَهْمِ النُّصُوْصِ، وتَطْبِيْقِها عَلَىٰ الوَاقِعَاتِ المُسْتَجِدَّةِ، وباسْتِخْرَاجِ الدَّلِيْلِ لِلْوَاقِعَةِ مِنَ الكِتَابِ والسُّنَّةِ، وإلْحَاقِ مَا لا نَصَّ فِيْه مِنْها عَلَىٰ مَا وَرَدَ النَّصُّ بِمَا اكْتَسَبَ بَعْدُ اسْمَ: «الاجْتِهَادِ»، ومُعْتَمَلَهُ اسْمِ: «المُجْتَهِدِ».

وقَدْ تَسَلَّمَ الصَّحَابَةُ ﷺ مَنْصِبَ الأسْتَاذِيَّةِ فِي هَذَا، وتَتَابَعَ عَلَيْه أهْلُوْهُ مِنْ عُلَمَاءِ الشَّرِيْعَةِ عَلَىٰ تَوَالِي العُصُورِ، بالتَّفَقُّهِ وبَذْلِ الجُهْدِ الفِكْرِي.

وبِهِ: اسْتَمَرَّ دُولابُ الحَيَاةِ مُتَرَابِطَ الحَلَقَاتِ بالدِّيْنِ، وحَبْلِ الله المَتِيْنِ، وصَارَ جِسْرًا مُمْتَدًّا فِي الإسْلامِ، مُعْلِنًا الخُلُوْدَ، والنَّفَاذَ، واسْتِلْهَامَ الحَوَادِثَ والوَاقِعَاتِ، والصُّمُودَ أمَامَ ظُرُوْفِ الحَيَاةِ، ومُوَاجَهَاتِ العُصُوْرِ.

وإذَا سَبَرْتَ الحَالَ لِمِيْزَانِ عُصُوْرِ القُوَّةِ، والنُّضُوْجِ، والتَّرَقِّي مِنْ عُصُورِ الضَّعْفِ والتَّهرِّي، حَمَلَكَ هَذَا إلىٰ مَعْرِفَةِ مَدَىٰ تَوَفُّرِ العُقُولِ الحَامِلَةِ لِمَلَكَةِ الاجْتِهَادِ الحَقِيْقِي فِي الأمَّةِ، الَّذِي يَسْعَىٰ بِهِ مُكْتَمِلُ أدَوَاتِه إلىٰ مَا يُرِيْدُ الله مِنْ عِبَادِه» انْتَهَىٰ.

❑ ❑ ❑

المَدْخَلُ السَّابِعُ

الفِقْهُ الوَاقِعُ

لا شَكَّ أنَّ فَرْقًا كَبِيْرًا بَيْنَ فِقْهِ الوَاقِعِ وبَيْنَ الفِقْهِ الوَاقِعِ، فَهَذَا لَوْنٌ، وهَذَا لَوْنٌ لا يَجْتَمِعَانِ ولا يَسْتَوِيَانِ: فَإذَا عُلِمَ مَا هُنَا ممَّا هُوَ مِنْ شَأنِ فِقْهِ الوَاقِعِ؛ كَانَ عَلَىٰ أهْلِ العِلْمِ عِنْدَ الحُكْمِ عَلَىٰ النَّوَازِلِ المُسْتَجِدَّةِ أنْ يُحَقِّقُوا مَنَاطَ النَّظَرِ فِي فِقْهِ الوَاقِعِ؛ لاسِيَّمَا وَاقِعُنَا الَّذِي اكْتَنَفَتْهُ مَسَارِبُ ومَغَالِبُ تَدْفَعُ (ضَرُورَةً) بأصْحَابِ المُوَقِّعِيْنَ عَنْ رَبِّ العَالَمِيْنَ إلىٰ التَّرَيُّثِ في نَزْعِ الحُكْمِ الشَّرْعِيِّ عَلَىٰ الوَقَائِعِ المُعاصِرَةِ.

❑ فَكَانَ مِنْ مَعِيْنِ الحِكْمَةِ، ورَبَّانِيَّةِ العِلْمِ: أنْ نَحْكُمَ عَلَىٰ (الفِكْرِ التَّرْبَويِّ) بوَاقِعِهِ الآنِيِّ، لا بِأصْلِهِ اللُّغَوِيِّ أو الفَلْسَفِيِّ الفَاني، وإلَّا خَرَجَتِ الفَتْوَىٰ قَاصِرَةً فِي حُكْمِهَا، حَاسِرَةً عَنْ وَاقِعِها!

فَمِنْ ذَلِكَ: أنَّ بَعْضَهُم لا يَنْقِمُ مِنَ (التَّرْبِيَةِ) إلَّا الأنَاشِيْدَ والتَّمْثِيْلِيَّاتِ، وآخَرَ لا يُبْغِضُ مِنْهَا سِوَىٰ التَّعَصُّبِ المَقِيْتِ، والتَّحَزُّبِ البِدْعِيِّ . . . فَذَانَ نَاظِرَانِ بعَيْنِ السُّخْطِ!

وثَالِثًا لا يَفْقَهُ مِنْهَا سِوَىٰ جَمْعِ الشَّبَابِ، وحِفْظِ أوْقَاتِهِم مِنَ الضَّيَاعِ، وأفْكَارِهِم مِنَ نَامُوْسِ العَصْرِ (الإرْهَابِ) . . . فَذَانَ نَاظِرَانِ بعَيْنِ الرِّضَا.

❑ وقَدْ قِيْلَ:

وعَيْنُ الرِّضَا عَنْ كُلِّ عَيبٍ كَلِيْلَةٌ ... ولَكِنَّ عَيْنَ السُّخْطِ تُبْدِي المَسَاوِيَا

فَهَلْ بَعْدَ هَذَا مِنْ رَاقٍ فَيُرْقِي وَاقِعَاتِ هَذِهِ التَّفَقُّهَاتِ لوَاقِعِ (التَّرْبِيَةِ)؟!

لأجْلِ هَذا؛ كَانَ مِنَ الحقِّ والنَّصِيْحَةِ مَعًا أنْ نَقِفَ مَعَ فِقْهِ وَاقِعِ (التَّرْبِيَةِ) كَما تُمْلِيْهِ النُّصُوْصُ الشَّرْعِيَّةُ قَبُوْلًا وَرَدًّا، كَما سَيَأتي بَيَانُه إنْ شَاءَ الله.

* * *

لِذَا كَانَ مِنَ الإبْلاسِ بَعْدَ الخَطِيْئَةِ؛ أنَّ الانْهِزَامَ الدَّعْوِيَّ الجَاثِمَ علىٰ قُلُوْبِ بَعْضِ الدُّعَاةِ اليَوْمَ، والمُغَلَّفَ بأثْوَابِ ضَغْطِ الوَاقِعِ؛ كَانَ سَبَبًا في دَفْعِ كَثِيرٍ مِنْ أنْصَارِ (الفِكْرِ التَّرْبَوِيِّ) إلىٰ التَّسْلِيْمِ والانْقِيَادِ: نَحْوِ ضَغْطِ الوَاقِعِ، يُرَدِّدُوْنَ ذِكْرَهُ ويُؤَصِّلُوْنَ فِكْرَهُ؛ ابْتِدَاءً بأنْفُسِهِم، ومُرُوْرًا بالشَّبَابِ، وانْتِهَاءً بمُعَارَضَةِ الأدِلَّةِ الشَّرْعِيَّةِ.

❑ لِذَا كَانَتْ مُعَارَضَةُ الأدِلَّةِ الشَّرْعِيَّةِ عِنْدَ بَعْضِ أنْصَارِ (الفِكْرِ التَّرْبَوِيِّ) تَتَسَرَّبُ مِنْ خِلالِ نَفَقَيْنِ: (تَحْرِيْفِهَا أو تَعْطِيْلِهَا).

فَأمَّا الأوَّلُ: تَحْرِيْفُ وتَأوِيْلُ النُّصُوْصِ الشَّرْعِيَّةِ لمُسَايَرَةِ ضَغْطِ الوَاقِعِ، وذَلِكَ بِاسْمِ: التَّيْسِيرِ، والوَسَطِيَّةِ، وسَمَاحَةِ الإسْلامِ، ومُوَاكَبَةِ العَصْرِ، والتَّسَامُحِ، والتَّعَايُشِ، ونَحْنُ والآخَرُ!

وأمَّا الثَّاني: تَعْطِيْلُ وإلْغَاءُ دَلالَةِ الأحْكَامِ الشَّرْعِيَّةِ، وذَلِكَ بِاسْمِ: دَفْعِ المَفَاسِدِ مُقَدَّمٌ علىٰ جَلْبِ المَصَالِحِ، أو مَصْلَحَةِ الدَّعْوَةِ، أو كَسْبِ

الآخَرِيْنَ، وهَلْ بَعْدَ هَذَا، أبْقَىٰ ضَغْطُ الوَاقِعِ للإسْلامِ: وَاقِعًا وحُرْمَةً، أو أجْلىٰ عَنْهُ ضَغْطًا وغُمَّةً؟!

* * *

وهَكَذَا مِنْ خِلالِ مَا مَضَىٰ عَادَ ضَغْطُ الوَاقِعِ عِنْدَ بَعْضِهِم دَلِيْلًا مُسْتَقِلًّا، أو قُلْ: دَلِيْلًا قَطْعِيًّا لا يَقْبَلُ تَخْصِيْصًا ولا تَقْيِيْدًا، أو حَتَّىٰ تَأخِيرًا، ومِنْهُ أصْبَحَتِ الأدِلَّةُ الشَّرْعِيَّةُ تَابِعَةً مَحْكُوْمَةً، و ضَغْطُ الوَاقِعِ مَتْبُوْعًا حَاكِمًا!

نَعَمْ؛ فَإنَّ وَاقِعًا كَهَذَا قَدْ أوْقَعَ بَعْضًا مِنْ أرْبَابِ (الفِكْرِ التَّرْبَويِّ) في أسْرِ وأغْلالِ ضَغْطِ الوَاقِعِ، ولَوْ بِاسْمِ: فِقْهِ الوَاقِعِ!

* * *

❑ وحَقِيْقَةُ الأمْرِ: أنَّ فِقْهَ الوَاقِعِ بَاتَ هَذِه الأيَّامَ عِنْدَ أدْعِيَاءِ الدَّعْوَةِ مَرْتَعًا لكُلِّ مُتَكَاسِلٍ، ومُرْتَقىً لكُلِّ خَامِلٍ، فَعِنْدَئِذٍ تَهَافَتَ عَلَيْهِ بَعْضُ أنْصَارِ (الفِكْرِ التَّرْبَويِّ)؛ فَتَسَنَّمُوا بِهِ المَنَاصِبَ العَلِيَّةَ في تَبَنِّي (التَّرْبِيَةِ) والدَّعْوَةِ بَيْنَ أبْنَاءِ المُسْلِمِيْنَ، فَتَحَقَّقَ مَا أخْبَرَ بِهِ الرَّسُوْلُ ﷺ مِنْ تَرْئِيْسِ الجَهلَةِ، وظُهُوْرِ الأحْدَاثِ والصِّغَارِ في سَاحَةِ الدَّعْوَةِ والقِيَادَةِ، وصَارَ وَرَثَةُ الأنْبِيَاءِ بَيْنَهُم أضْيَعَ مِنَ الأيْتَامِ علىٰ مَأدَبَةِ اللِّئَامِ، واتَّخَذَ النَّاسُ رُؤوْسًا جُهَّالًا فَأفْتُوا بغَيْرِ عِلْمٍ؛ فَضَلُّوا وأضَلُّوا[1]!

* * *

(١) مُقْتَبَسٌ مِنْ حَدِيْثٍ مُتَّفَقٍ عَلَيهِ.

وهَكَذَا ذَهَبَ فِقْهُ الوَاقِعِ بكَثِيرٍ مِنْ أدْعِيَائِهِ إلىٰ: فِقْهِ مَا وَقَعَ، ومَا لَمْ يَقَعْ، ومَا يُمْكِنُ أنْ يَقَعَ، ومَا لَوْ وَقَعَ كَيْفَ سَيَقَعُ ... وهَكَذَا في دَوَّامَةٍ مِنَ التَّوَقُّعَاتِ والتَّخْمِيْنَاتِ والتَّكَهُّنَاتِ المُؤذِيَةِ ممَّا أشْغَلُوا بِها أنْفُسَهُم، وعُقُوْلَ النَّاشِئَةِ مِنْ أبْنَاءِ المُسْلِمِيْنَ.

ولَنْ يُدْرِكَ أحَدٌ مِنْ أهْلِ الدَّعْوَةِ والفِكْرِ مُخَطَّطَاتِ عَدُوِّهَا: إلَّا بِالرُّجُوْعِ إلىٰ الكِتَابِ والسُّنَّةِ رُجُوْعًا سَلَفِيًّا كَما فَهِمَهُ الصَّحَابَةُ والتَّابِعُوْنَ وتَابِعُ التَّابِعِيْنَ، أمَّا التَّفَقُّهُ وأخْذُ العِلَمِ عَنْ طَرِيْقِ مُتَابَعَةِ الجَرائِدِ والمَجَلَّاتِ، والإذَاعَاتِ الإعْلامِيَّةِ، وقِرَاءَةِ المُفَكِّرَاتِ دُوْنَ الرُّجُوْعِ إلىٰ فِقْهِ الكِتَابِ والسُّنَّةِ ... فَمِثْلُ هَذَا لا يَزِيْدُ الأمَّةَ إلَّا ضِغْثًا علىٰ إبَّالَةٍ، ولا يُوْرِثُهَا إلَّا وَهْنًا علىٰ وَهْنٍ، ولا يَزِيْدُهَا إلَّا حَيْرَةً علىٰ جَهْلٍ!

* * *

☐ وعِنْدَ التَّحْقِيْقِ والتَّمْحِيْصِ نَجِدُ كَثِيرًا مِنْ أدْعِيَاءِ فِقْهِ الوَاقِعِ لَيْسَ لهُم مِنَ الوَاقِعِ اليَوْمَ إلَّا فِقْهُ وَاقِعِ الغَرْبِ الكَافِرِ ومُخَطَّطَاتِهِ، أمَّا فِقْهُ وَاقِعِ المُسْلِمِيْنَ فَهُمْ أجْهَلُ النَّاسِ بِه إلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ وقَلِيْلٌ ما هُم.

وأدَلُّ شَيءٍ علىٰ ذَلِكَ: أنَّكَ تَجِدُ الرَّجُلَ مِنْهُم ممَّنْ قَضَىٰ أكْثَرَ عُمُرِهِ وأوْقَاتِهِ: في التَّنْظِيرِ والتَّفْكِيرِ والتَّحْلِيْلِ السِّيَاسِي إذَا تكَلَّمَ عَنْ وَاقِعِ الغَرْبِ أتَاكَ بالعَجَبِ العُجَابِ مِنْ تَفْصِيْلاتٍ وتَحلِيْلاتٍ ... وإذَا تَكَلَّمَ عَنْ أوْضَحِ مَسَائِلِ وَاقِعِ المُسْلِمِيْنَ: رَأيْتَهُ يَتَخَبَّطُ خَبْطَ العَشْوَاءِ كَأنَّه مِنْ عَوَامِ المُسْلِمِيْنَ لا دَلِيْلَ ولا تَعْلِيْلَ، لا نَظَرَ ولا فِكْرَ!

وهَذَا مَا ذَكَرَهُ الشَّيْخُ سَفَرٌ حَفِظَهُ الله في «ظَاهِرَةِ الإرْجَاءِ» (١٠): «لَقَدِ اسْتَطَعْنَا. نَحْنُ شَبَابَ الإسْلامِ. أنْ نَكْسِرَ طَوْقَ الوَلاءِ المُطْلَقِ للغَرْبِ، وأنْ نَرْفُضَ حَضَارَتَه الزَّائِفَةَ إلىٰ حَدٍّ لا بَأسَ بِهِ، وعَرَفْنَا الكَثِيرَ مِنْ عَدُوِّنَا وخُطَطِهِ ومُؤامَرَاتِه، لكِنَّنَا الآنَ لم نَعْرِفْ حَقِيْقَةَ مَنْ نَحْنُ؟ وفي أيِّ طَرِيْقٍ نَسِيرُ؟» انْتَهَىٰ.

قُلْتُ: لاشَكَّ أنَّ الشَّيْخَ حَفِظَهُ الله يَقْصِدُ بكَلامِهِ هَذَا أكْثَرَ دُعَاةِ فِقْهِ الوَاقِعِ اليَوْمَ، وإلاَّ كَثِيرًا مِنَ المُسْلِمِيْنَ يَعْرِفُوْنَ حَقِيْقَةَ مَنْ هُمْ، وفي أيِّ طَرِيْقٍ يَسِيْرُوْنَ، لاسِيَّما أهْلُ العِلْمِ مِنْهُم.

* * *

❑ ومِنْ مَخَازِي الدَّهْرِ، ومَضَائِقِ العَصْرِ؛ أنَّكَ تَجِدُ بَعْضَ أدْعِيَاءِ فِقْهِ الوَاقِعِ إذَا مَا سَألْتَهُ (هَذِهِ الأيَّامَ) عَنْ حَرْبِ اليَهُوْدِ أو النَّصَارَىٰ في بَلَدٍ مِنْ بِلادِ المُسْلِمِيْنَ، قَالَ: هَذِهِ حَرْبٌ ضِدَّ الإرْهَابِ، أو أُمُوْرٌ تَخُصُّ أهْلَ هَذَا البَلَدِ لا شَأنَ لَنَا بِهَا!

وإذَا سَألْتَهُ عَنْ جِهَادِ أهْلِ هَذِه البَلادِ المُحْتَلَةِ ضَدَّ اليَهُوْدِ أو النَّصَارَىٰ، قَالَ: هَذِهِ مُقَاوَمَةٌ صَنِيْعَةُ الغَرْبِ، أو فَوْضَوِيَّةٌ عَمْيَاءُ، أو لَيْسَتْ مِنْ صَالِحِ الدَّعْوَةِ، أو الرَّايَةُ فِيْهَا لَيْسَتْ وَاضِحَةً!

وإذَا سَألْتَهُ عَنْ حُكْمِ أهْلِ البِدَعِ والأهْوَاءِ لاسِيَّما الرَّافِضَةِ والصُّوْفِيَّةِ والعَلْمانِيَّةِ والحَدَاثَةِ وغَيْرِهَا، قَالَ: هَذِهِ حُرِّيَّاتٌ فِكْرِيَّةٌ، وآرَاءٌ عَقْلِيَّةٌ، والإسْلامُ يَدْعُو إلىٰ حُرِّيَّةِ الفِكْرِ.

وإذَا سَألْتَهُ عَنْ قَضَايَا المَرْأةِ، لاسِيَّما كَشْفِ وَجْهِهَا، أو قِيَادَتِها للسَّيَّارَةِ، أو مُخَالَطَتِهَا للرِّجَالِ، قَالَ: هَذِهِ مُتَطَلَّبَاتٌ حضَارِيَّةٌ، وحُرِّيَّاتٌ شَخْصِيَّةٌ تَخُصُّ المَرْأةَ، وهَكَذَا في تَقَوُّلاتِ جُهَلاءَ لَيْسَ لَهَا مِنَ الدَّلِيْلِ الشَّرعِيِّ أثَرَةُ عِلْمٍ، ولا مِنْ فِقْهِ الوَاقِعِ بَقِيَّةُ فَهْمٍ!

* * *

❑ وأمَّا إذا سَألْتَ أخِي المُسْلِمَ عَنْ سَبَبِ هَذِه الجَهَالاتِ المُؤذِيَةِ، وعَنْ هَذِه المَخَاضَاتِ الجَرِيئَةِ في مِثْلِ هَذِهِ القَضَايَا المَصِيْرِيَّةِ، فَلَيْسَ مِنَ السِّرِّ أنْ نُجِيْبَ عَنْهَا، ولا مِنَ العَيْبِ أنْ نَذْكُرَ طَرَفًا مِنْهَا؛ لأنَّ أدْعِيَاءَ فِقْهِ الوَاقِعِ قَدْ كَفَوْنَا مُئُوْنَةَ التَّنْقِيْبِ والسُّؤالِ عَنْهَا؛ حَيْثُ قَطَعُوا لَنَا دَابِرَ الشَّكِّ، وأوْصَدُوا أمَامَنَا بَابَ الحَيْرَةِ، لِذَا نَجِدُهُم قَدْ كَشَفُوا السِّتْرَ وأظْهَرُوا الأمْرَ، وذَلِكَ: أنَّ القَوْمَ لَمَّا أخَذُوا علىٰ عَاتِقِهِم الحَدِيْثَ عَنْ فِقْهِ وَاقِعِ الغَرْبِ بِكُلِّ مَا يَمْلِكُوْنَ مِنْ تَحْلِيْلاتٍ وتَكَهُّنَاتٍ ... وهَكَذا حَتَّىٰ إذَا أصْبَحُوا في أعْيُنِ النَّاسِ أرْبَابَ فِكْرٍ وتَحْلِيْلٍ، ورُمُوْزَ تَنْظِيرٍ وتَوْجِيْهٍ، ظَنُّوا بأنْفُسِهِم أنَّهُم صُنَّاعُ قَرَارٍ وفُقَهَاءُ وَاقِعٍ كَيْفَما تَأتَّىٰ!

ومَا ذَاكَ إلَّا أنَّهُم لَمَّا أحْسَنُوا الحَدِيْثَ عَنْ فِقْهِ وَاقِعِ الغَرْبِ، وأصَابُوا في كَثِيرٍ مِمَّا يَقُوْلُوْنَ ويَتَوَقَّعُوْنَ، فَعِنْدَهَا لم يَتَأخَّرُوا طَرْفَةَ عَيْنٍ عَنْ كُلِّ مَا يَدُوْرُ في وَاقِعِ المُسْلِمِيْنَ، لاسِيَّما في القَضَايَا المَصِيرِيَّةِ، فَعِنْدَئِذٍ أسْرَجُوا مَنَابِرَ فِقْهِ الوَاقِعِ فَرَكِبُوْهَا عَنْ عَمَايَةٍ مِنْ بَعْدِ جَهَالَةٍ، وآخَرُوْنَ مِنْهُم قَدْ لَبِسُوا ثَوْبَ الظُّهُوْرِ والشُّهْرَةِ، فَعِنْدَئِذٍ كَانَتْ مَطَالِبُ الشُّهْرَةِ سَبَبًا قَوِيًا في دَفْعِهِم إلىٰ مَرَاتِعِ التَّقَوُّلِ والتَّحَكُّمِ في عَقَائِدِ المُسْلِمِيْنَ وأخْلاقِهِم، وهَلِ الشُّهْرَةُ إلَّا

بَابُ جُرْأةٍ للتَّصَدُّرِ للقِيْلِ والقَالِ؟! والله أعْلَمُ.

* * *

❑ ومَهْمَا يَكُنْ مِنْ أمْرٍ؛ فَإنَّ فِقْهَ الوَاقِعِ اليَوْمَ لم يَعُدْ سِرًّا مَكْنُونًا؛ بَلْ قَدْ عَلِمَهُ أكْثَرُ المُسْلِمِيْنَ، لاسِيَّما وأنَّ الإعْلامَ اليَوْمَ (الخَارِجِي، والدَّاخِلي) قَدْ أحَاطَ بجَوَانِبَ وَاقِعِ البَشَرِيَّةِ دُوْنَ شَكٍّ، فَحِيْنَئِذٍ لا فَضْلَ لأحَدٍ علىٰ آخَرَ في فِقْهِ الوَاقِعِ؛ اللهمَّ في جُزْئِيَّاتٍ وتَشْقِيْقَاتٍ لَيْسَتْ مِنَ الفِقْهِ في شَيءٍ، لأنَّها لا تَنْتَهِ إلىٰ حَدٍّ مُسَمَّىٰ.

وحَسْبُنَا وإيَّاهُم مِنْ فِقْهَ الوَاقِعِ اليَوْمَ: أنْ نَعْلَمَ (مَثَلًا) أنَّ اليَهُوْدَ احْتَلُّوا فِلِسْطِيْنَ، وغَيْرَ ذَلِكَ ممَّا نَشَرَتْهُ يَهُوْدُ مِنْ مُخَطَّطَاتٍ، تَحْتَ عُنْوَانِ «بُرُوتُكُولاتِ حُكَماءِ صِهْيَوْنَ» في غَيْرِهَا مِنْ أحْدَاثِ فِقْهَ الوَاقِعِ ... فَهَلْ بَعْدَ هَذِهِ الوَاقِعَاتِ مِنْ شَيءٍ يُقَدِّمُهُ فُقَهَاءُ الوَاقِعِ لأمَّتِهِم؟! وهَلْ مِنْ مَخْرَجٍ وحَلٍّ لهَذِهِ الجَرائِمِ الَّتِي اسْتَبَاحَتِ العِبَادَ والبِلادَ؟!

* * *

وحِيْنًا بَعْدَ حِيْنٍ؛ ونَحْنُ نَسْمَعُ بأدْعِيَاءِ فِقْهِ الوَاقِعِ في اجْتِرَارِهِم للأخْبَارِ، وتَحْلِيْلِهِم للأقْوَالِ، حَيْثُ اسْتَبَاحُوا الصُّحُفَ والمَجَلَّاتِ، وسَحَرُوا أعْيُنَ الشَّبَابِ واسْتَرْهَبُوْهُم في كُلِّ مَا يَأتُوْنَ مِنْ قَضَايَا نَازِلَةٍ أو فَاصِلَةٍ، وأدَلُّ مِثَالٍ علىٰ ذَلِكَ: قَضِيَّةُ فِلِسْطِيْنَ، وسَيأتي بَعْضُ الحَدِيْثِ عَنْهَا إنْ شَاءَ الله!

* * *

❑ فأمَّا فُقَهاءُ الوَاقِعِ اليَوْمَ فَقَدْ تَقَاسَمُوا أمْرَهُم نَحْوَ مَآسِي المُسْلِمِيْنَ وجِرَاحَاتِهِم إلىٰ فَرِيْقَيْنِ: أَهْلِ رِوَايَةٍ، وأهْلِ دِرَايَةٍ، كَما يَلي:

❑ **الفَرِيْقُ الأوَّلُ**: أَهْلُ الرِّوَايَةِ، وهُم الَّذِيْنَ يَنْقُلُوْنَ الأخْبَارَ الَّتِي تَتَكَلَّمُ عَنْ قَضَايَا الأمَّةِ الإسْلامِيَّةِ مَا بَيْنَ حُرُوْبٍ، ومَآسٍ، ومَذَابِحَ، وكَوَارِثَ . . . إلخ .

فَنَحْنُ وإنْ كُنَّا نُوَافِقَهُم علىٰ هَذَا المَبْدَأ الإسْلامِي والطَّرْحِ الإعْلامِي، إلَّا أنَّنا نَسْتَنْكِرُ عَلَيْهِم أشْيَاءَ لَعَلَّهَا خَفِيَتْ عَلَيْهِم في مَعَاطِفِ الأجْوَاءِ الإخْبَارِيَّةِ الَّتِي تَدَثَّرُوا بِهَا؛ فَمِنْ ذَلِكَ مَا يَلي:

الأوَّلُ: الإغْرَاقُ في نَقْلِ الأخْبَارِ الَّتِي طَغَتْ علىٰ الهَدَفِ المَنْشُوْدِ، وهُوَ الحَلُّ الشَّرعِيُّ تُجاهَ هَذِهِ القَضَايَا الإسْلامِيَّةِ، فَنَقْلُ الأخْبَارِ مَا هِي إلَّا وَسِيْلَةٌ مَحْمُوْدَةٌ إلىٰ غَايَةٍ مَنْشُوْدَةٍ: وهِي البَحْثُ عَنِ الحَلِّ الشَّرعِيِّ، فَحِيْنَئِذٍ كَانَ الإغْرَاقُ في نَقْلِ الأخْبَارِ تَفْرِيْغًا لجُهُوْدِ المُسْلِمِيْنَ مِنْ قُدرَاتِهِمُ الَّتِي كَانَ عَلَيْنا أنْ نُوَظِّفَهَا في حَلِّ قَضَايَاهُم.

الثَّاني: إظْهَارُ الإسْلامِ بِأنَّهُ ضَعِيْفٌ، وأهْلِهِ مَغْلُوْبٌ علىٰ أمْرِهِم؛ هَذَا يَوْمَ أشْعَرُوا المُسْلِمِيْنَ: كَأنَّهم لم يُخْلَقُوا إلَّا هَكَذَا مُشَرَّدِيْنَ مُطارَدِيْنَ، وكَأنَّ الذُّلَّ والصَّغَارَ لم يُكْتَبْ علىٰ أمَّةٍ سِوَاهُم، وفي المُقَابِلِ أظْهَرُوا القُوَّةَ والسِّيَادَةَ والتَّمْكِيْنَ لِكُلِّ كَافِرٍ لَعِيْنٍ مِنَ النَّصارَىٰ الضَّالِّيْنَ، واليَهُوْدِ الغَاصِبِيْنَ بطَرِيْقٍ أو آخَرَ.

عِلْمًا أنَّ التَّوَسُّعَ في نَقْلِ الأخْبَارِ يَصْلُحُ لأفْرَادِ الأمَّةِ وآحَادِهَا مِنَ العُلَماءِ العَامِلِيْنَ وصُنَّاعِ القَرَارِ مِنَ القَادَةِ والمُجَاهِدِيْنَ، أمَّا أنْ تُعْرَضَ الصُّوَرُ،

وتُفصَّلَ الأَخْبَارُ لكَافَّةِ المُسْلِمِيْنَ لاسِيَّما مَعَ انْتِشَارِ الجَهْلِ، وكَذَا اليَأْسِ عِنْدَ بَعْضِهِم؛ فَلا، بَلْ كَانَ مِنَ الوَاجِبِ عَلَيْنا أنْ نُرَاعِيَ الحِكْمَةَ في مُخَاطَبَةِ عُمُوْمِ المُسْلِمِيْنَ بِما يَفْقَهُوْنَ، كَما قَالَ عَليُّ بنُ أبي طَالِبٍ ﷺ: «حَدِّثُوا النَّاسَ بِما يَعْرِفُوْنَ، أتُرِيْدُوْنَ أنْ يُكَذَّبَ الله ورَسُوْلُهُ؟!» رَوَاهُ البُخَارِي.

الثَّالِثُ: أنَّ الإغْرَاقَ في نَقْلِ الأخْبَارِ، والتَّوَسُّعَ فِيْهَا؛ لَهُوَ جَدِيْرٌ في تَثْقِيْفِ المُسْلِمِ تَثْقِيْفًا إخْبَارِيًّا مُجَرَّدًا؛ بِمَعْنَىٰ أنَّكُم سَتُخْرِجُوْنَ لَنا جِيْلًا بَعِيْدًا عَنِ الهَدَفِ الشَّرْعِيِّ المُنَاطِ بِهِم: وهُوَ الحَلُّ الشَّرْعِيُّ المَنْشُوْدُ.

يُوَضِّحُهُ؛ أنَّكَ لا تَجِدُ أكْثَرَ أبْنَاءِ المُسْلِمِيْنَ هَذِهِ الأيَّامَ إلَّا وهُوَ مِنْ عُشَّاقِ الأخْبَارِ، وسَماسِرَةِ الأحْدَاثِ؛ فَلا يَنَامُ إلَّا علىٰ الإذَاعَاتِ العَالَمِيَّةِ، أو القَنَوَاتِ الفَضَائِيَّةِ، ولا يَسْتَيْقِظُ إلَّا علىٰ الصُّحُفِ الإخْبَارِيَّةِ، فَهَكَذَا غُذِّيَ بالأخْبَارِ، وفُطِمَ عَلَيْهَا!

إنَّ هَذَا الصَّنِيْعَ (وأعُوْذُ بالله مِنْهُ) إذَا اسْتَمْرَاهُ المُسْلِمُ وأدْمَنَ عَلَيْهِ سَوْفَ يَكُوْنُ عِبْئًا علىٰ أمَّتِه، كَما أنَّ فِيْهِ تَغْلِيْفًا لأفْكَارِهِ الإسْلامِيَّةِ، وتَبْلِيْدًا لمَشَاعِرِهِ الإيْمانِيَّةِ، وتَجْمِيْدًا لقُدُرَاتِهِ الجِهَادِيَّةِ!

الرَّابِعُ: تَنَازُلُ بَعْضِ الإخْبَارِيِّيْنَ عَنِ الشَّخْصِيَّةِ الإسْلامِيَّةِ، وذَلِكَ عِنْدَما تَرَاهُ يَتَشَبَّهُ ببَعْضِ عَادَاتِ ولِبَاسِ أهْلِ الكُفْرِ؛ كَما أنَّهُم لم يَسْلَمُوا أيْضًا مِنْ تَقْلِيْدِ ومُحَاكَاتِ أعْدَاءِ المُسْلِمِيْنَ في مُصْطَلَحَاتِهِمُ المَسْمُوْمَةِ مِنْ حَيْثُ لا يَشْعُرُوْنَ!

الخَامِسُ: الوُقُوْعُ في مَحْذُوْرِ التَّصْوِيْرِ الَّذِي هُوَ ذَرِيْعَةُ الشِّرْكِ، في حِيْنَ

أنَّ الشَّرِيْعَةَ الإسْلامِيَّةَ قَدْ حَرَّمَتْهُ صَرَاحَةً، ولم تَسْتَثْنِ مِنْهُ شَيْئًا، إلَّا مَا كَانَ في دَائِرَةِ الضَّرُوْرَةِ، والضَّرُوْرَةُ تُقَدَّرُ بقَدرِهَا، عِلمًا أنَّ إخْوَانَنَا هَدَاهُمُ الله لم يُقَدِّرُوا هَذِهِ الضَّرُوْرَةَ؛ بَلْ تَوَسَّعُوا في تَصْوِيْرِ الصَغِيْرِ والكَبِيْرِ، والحَقِيْرِ والقِطْمِيْرِ . . . فَكَأنَّ الأخْبَارَ لا تَخلُوْا لهُم إلَّا وَقَدْ أحَاطَتْ بِها الصُّورُ مِنَ فَوْقِ رَأسِهَا ومِنْ تَحْتِ أرْجُلِهَا!

وهُنَاكَ بَعْضُ الآثَارِ السَّيِّئَةِ الكَثِيْرَةِ مِنْ عَرْضِ الأخْبَارِ بِهَذِهِ الطَّرِيْقَةِ المُغْرِقَةِ الَّتِي تَنْتُجُ عِنْدَ عَرْضِ الصُّوَرِ، والمَشَاهِدِ المُؤلِمَةِ والمُفْزِعَةِ علىٰ النَّفْسِ دُوْنَ تَفْرِيْغِهَا في نِصَابِها، أو الاسْتِفَادَةِ مِنْهَا، قَدْ أعْرَضْنَا عَنْهَا صَفْحًا.

* * *

❑ **الفَرِيْقُ الثَّاني**: أهْلُ الدِّرَايَةِ، وهُمُ الَّذِيْنَ لا يَكْتَفُوْنَ بنَقْلِ أخْبَارِ المُسْلِمِيْنَ؛ بَلْ يَتَعَامَلُوْنَ مَعَهَا مُعَامَلَةً تُغَايِرُ أهْلَ الرِّوَايَةِ، فَكَأنَّهم (والله أعْلَمُ) يُقَابِلُوْنَ الطَّرَفَ الأوَّلَ مُقَابَلَةَ رَدِّ الفِعْلِ، فَعِنْدَئِذٍ قَابَلُوا الخَطَأ بخَطأٍ!

فالطَّرَفُ الأوَّلُ عِنْدَهُم أصْحَابُ مَوَادٍ أوَّلِيَّةٍ، وهُم (الفَرِيْقُ الثَّاني) أصْحَابُ المَصَانِعِ الفِكْرِيَّةِ والتَّحْلِيْلاتِ السِّيَاسِيَّةِ، فَكَانَتِ القِسْمَةُ بَيْنَهُم هَكُذَا: أهْلَ أخْبَارٍ مُجَرَّدَةٍ، وأهْلَ تَحْلِيْلاتٍ مُجوَّدَةٍ.

فَأهْلُ التَّحْلِيْلِ غَالِبًا: يَنْظُرُوْنَ إلىٰ القَضِيَّةِ الإسْلامِيَّةِ بعَيْنٍ بَصِيْرَةٍ، وزَاوِيَةٍ حَادَّةٍ؛ ورُبَّما تَكَهَّنُوا المُسْتَقْبَلَ، فَكَانَ شُغْلُهُمُ الشَّاغِلُ، وعَمَلُهُمُ الدَّؤوْبُ: هُوَ تَحْلِيْلُ الأخْبَارِ وتَجْرِيْدِهَا مِنَ اللَّمْسَةِ الظَّاهِرَةِ، والإغْرَاقُ في بَوَاطِنِ

مُجْرَيَاتِها وتَفْصِيْلاتِها، ومِنْ ثَمَّ إعْطاءُ الصُّوْرَةَ القَرِيْبَةَ مِنَ الوَاقِعِ، وبَيَانُ أبْعَادَهَا السِّيَاسِيَّةَ، ومَخَاطِرَهَا البَعِيْدَةَ . . . إلخ.

وهَكَذَا نَجِدُهُم يَخُوْضُوْنَ مَعارِكَ التَّحْلِيْلِ، وغِمَارَ التَّفْصِيْلِ لمُجْرَيَاتِ الأحْدَاثِ، وتَقَلُّبَاتِ الأخْبارِ؛ حَتَّىٰ غَلَبَ عَلَيْهِمُ اسْمُ: «المُفَكِّرُوْنَ الإسْلامِيُّوْنَ».

ومِنْ نَافِلَةِ التَّحْقِيْقِ: أنَّ لَقَبِ «المُفَكِّرُ الإسْلامِيُّ» لَيْسَ مِنْ جَادَّةِ أهْلِ العِلْمِ، ولا مِنَ التَّحْقِيْقِ بشَيءٍ؛ فَالأفْكَارُ غَالِبًا هِيَ إلىٰ الخَوَاطِر والنَّظَرَاتِ أقْرَبُ مِنْهَا إلىٰ العُلُوْمِ الإسْلامِيَّةِ، والجَمِيْعُ إلىٰ التَّخْمِيْنَاتِ والظُّنُوْنِ أقْرَبُ مِنْهَا إلىٰ اليَقِيْنِيَّاتِ والقَطْعِيَّاتِ، فَكَانَ الأوْلىٰ تَرْكُهُ؛ لاسِيَّما إذَا عَلِمْنَا أنَّ أكْثَرَ المُفَكِّرِيْنَ الإسْلامِيِّيْنَ غَلَبَتْ عَلَيْهِمُ التَّحْلِيْلاتِ الإخْبارِيَّةِ، والتَّقْدِيْسَاتِ العَقْلِيَّةِ، إلَّا مَا رَحِمَ الله!

عِلْمًا أنَّنا لا نَتَّهِمُ نَوَايَا هَؤلاءِ المُفَكِّرِيْنَ؛ بقَدْرِ مَا نُعَاتِبُهُم علىٰ الإغْرَاقِ في تَحْلِيْلِ الأخْبَارِ، ومُتَابَعَتِهَا حَذْوَ القُذَّةِ بالقُذةِ علىٰ حِسَابِ مَا هُوَ أهَمُّ، وذَلِكَ في البَحْثِ عَنِ الحَلِّ الإسْلامِي لا أكْثَرَ.

* * *

حَتَّىٰ إذَا وَقَعَتِ الوَقَائِعِ، وتَفَجَّرَتِ الأحْدَاثِ، واخْتَلَطَتِ الأصْوَاتِ في قَضِيَّةٍ إسْلامِيَّةٍ؛ كَانُوا المَفْزَعَ والمَلاذَ عِنْدَ كَثِيْرٍ مِنْ أبْنَاءِ المُسْلِمِيْنَ، فَإذَا عَصَفَتْ عَوَاطِفُ المُسْلِمِ، وثَارَتْ مَشَاعِرُهُ قَامَ حَثِيْثًا لِيُسَكِّنَ عَوَاطِفَهُ، ويُطْفِأَ

حَمَاسَهُ بِإِبَرٍ مُخَدِّرَةٍ لَيْسَ لَهَا مِنَ الفَائِدَةِ إِلَّا أَنَّها تُسَكِّنُ الألَمَ حَالَ هَيَجَانِهِ، ثُمَّ يَعُوْدُ بَعْدَها مَرِيْضًا مُدْمِنًا لَيْسَ لَهُ عِلاجٌ إِلَّا إِبَرُ المُفَكِّرِيْنَ، وتَحْلِيْلاتُهُم السِّيَاسِيَّةُ!

فَأَهْلُ التَّحْلِيْلُ (للأَسَفِ!) يَوْمَ تَوَسَّعُوا في تَحْلِيْلِ الأَخْبَارِ علىٰ حِسَابِ الحَلِّ الشَّرْعِي، والطَّرِيْقِ المَأْمُوْلِ؛ انْقَلَبَتْ تَحْلِيْلاتُهُم إِلىٰ تَخْدِيْرَاتٍ لمَشَاعِرِ وآلامِ المُسْلِمِيْنَ، في حِيْنَ أَنَّهُم لم يَسْلَمُوا أَيْضًا مِنَ التَّأَثُّرِ ومُحَاكَاتِ مُصْطَلَحَاتِ أَعْدَاءِ المُسْلِمِيْنَ مِنْ حَيْثُ لا يَشْعُرُوْنَ، فَنَضْرِبُ لهَذَا مِثَالًا وَاحِدًا للتَّوضِيْحِ والتَّدْلِيْلِ، وهُوَ قَضِيَّةُ فِلِسْطِيْنَ.

* * *

❑ أَقُوْلُ: إِنَّ قَضِيَّةَ فِلِسْطِيْنَ للأَسَفِ قَدْ ذَهَبَتْ طُفُوْلَتُهَا، وزَهْرَةُ شَبَابِها بَيْنَ أَهْلِ الاسْتِنْكَارِ والأَخْبَارِ، فَكَانَتْ بَيْنَ إِفْرَاطٍ وتَفْرِيْطٍ، يَوْمَ نَشَأَ فِيْنَا الصَّغِيْرُ، وهَرِمَ مِنَّا الكَبِيْرُ علىٰ صَوْتِ الاسْتِنْكَارِيِّيْنَ، وحَدِيْثِ الإِخْبَارِيِّيْنَ، وكُلُّ هَذَا يَوْمَ غُيِّبَتْ قَضِيَّةُ فِلِسْطِيْنَ عَنِ الحَقِيْقَةِ الشَّرْعِيَّةِ، والطُّرُقِ النَّبَوِيَّةِ في الجُمْلَةِ.

فَكَانَتْ قَضِيَّةَ فِلِسْطِيْنَ رَهِيْنَةَ هَذِه التَّوَسُّعَاتِ الإِخْبَارِيَّةِ، والاجْتِهَادَاتِ الاسْتِنْكَارِيَّةِ الَّتِي عَلَتْ وطَغَتْ علىٰ حِسَابِ الحَلِّ الشَّرْعِي المَنْشُوْدِ، مَعَ مَا تَرَكَتْهُ أَيْضًا مِنْ آثَارٍ سَيِّئَةٍ مَا كَانَ لَهَا أَنْ تَعْمَلَ في جَسَدِ الأُمَّةِ الإِسْلامِيَّةِ هَذَا الأَثَرَ إِلَّا يَوْمَ غَلَبُوْنَا فُقَهَاءُ الوَاقِعِ، واجْتِهَادَاتُ بَعْضِ المَنْسُوْبِيْنَ إِلىٰ قَبِيْلِ العِلْمِ الَّذِيْنَ قَتَلَتْهُمُ الانْهِزَامِيَّةِ، واكْتَنَفَهُمُ الهَوَانُ؛ حَتَّىٰ قَدَّسُوا وقَدَّمُوا الوَاقِعَ

المَشْحُوْنَ بالتَّغَيُّراتِ والتَّجَدُّدَاتِ علىٰ حِسَابِ الشَّرْعِ الرَّبَّاني!

* * *

❑ فاحْتِلالُ اليَهُوْدِ لَبِيْتِ المَقْدِسِ في أرْضِ فِلِسْطِيْنَ كَافٍ في حَدِّ ذَاتِهِ لتَحْرِيْكِ المُسْلِمِيْنَ نَحْوَ البَحْثِ عَنِ اتِّخَاذِ المَوْقِفِ الشَّرْعِيِّ الصَّحِيْحِ تُجَاهَ القَضِيَّةِ.

وهُنَاكَ الكَثِيرُ والكَثِيْرُ مِنَ الأخْطَاءِ الشَّرْعِيَّةِ الَّتِي تَرَكَتْهَا التَّحْلِيْلاتُ الإخْبَارِيَّةُ، والإفْرَازَاتُ الفِكْرِيَّةُ في نُفُوْسِ أبْنَاءِ المُسْلِمِيْنَ؛ حَتَّىٰ أمْسَىٰ الوَاحِدُ مِنْهُم (للأسَفِ) سُرْعَانَ مَا يَسْمَعُ بفَاجِعَةٍ ضِدَّ المُسْلِمِيْنَ يَنْقَلِبُ إلىٰ مَكْتَبِهِ، ويُضِيءُ مِصْبَاحَهُ، ويَنْثُرُ أوْرَاقَهُ؛ ثُمَّ يُفِكِّرُ ويُقَدِّرُ، ويُقْبِلُ ويُدْبِرُ بَاحِثًا عَنْ أبْعَادِ القَضِيَّةِ ومُلابَسَاتِها، وتَحْلِيْلِ الظُّرُوْفِ الَّتِي تَكْتَنِفُهَا؛ جَاهِدًا نَفْسَهُ وفِكْرَهُ كَي يُبَصِّرَ الأمَّةَ الإسْلامِيَّةَ سَوَاءَ السَّبِيْلِ، ويَضَعَ يَدَهَا علىٰ خَفَايَا الأمُوْرِ تَجْلِيَةً لسَبَبِ القَضِيَّةِ، وإزَاحَةً للرُّكَامِ القَاتِمِ مِنْ أمَامِ أعْيُنِ المُسْلِمِيْنَ!

كَما نَجِدُ في المُقَابِلِ جُمُوْعًا كَبِيْرَةً مِنْ أبْنَاءِ المُسْلِمِيْنَ عِنْدَ نُزُوْلِ أمْثَالِ هَذِهِ المَصَائِبِ والمَذَابِحِ بالمُسْلِمِيْنَ يَقِفُوْنَ بِكُلِّ وَلَعٍ وهَلَعٍ يَنْتَظِرُوْنَ صُدُوْرَ تِلْكُمُ المَجَلَّاتِ الإسْلامِيَّةِ علىٰ شَوْقٍ وهُيَامٍ عَسَاهُم يَقْرَؤُوْنَ شَيْئًا مِنَ هَذِهِ التَّحْلِيْلاتِ الفِكْرِيَّةِ لتَدْفَعَ عَنْهُم بَعْضَ الضَّيْمِ والحُزْنِ، وتُطْفِئَ الحَماسَ المُتَوَقِّدَ، وتَطْمَئِنَ عِنْدَهَا القُلُوْبُ، وتَسْتَرْخِي بَعْدَهَا الأعْصَابُ، وتَنَامَ عَلَيْهَا العُيُوْنُ، وبَعْدَهَا كَأنَّ شَيْئًا لم يَكُنْ!

نَعَم هَذِهِ حَقَائِقُ يَنْبَغِي أنْ نَقِفَ مَعَهَا طَوِيْلًا، فَكَانَ الأوْلىٰ مِنْ هَذِهِ

التَّحْلِيْلاتِ الإخْبَارِيَّةِ الاسْتِفَادَةُ مِنْ قُدْرَةِ وحَمَاسِ أَبْنَاءِ المُسْلِمِيْنَ، وتَوْظِيْفُ مَا عِنْدَهُم مِنِ اسْتِطَاعَةٍ في نُصْرَةِ القَضَايَا الإسْلامِيَّةِ عَمَلِيًّا!

* * *

❑ أمَّا إنْ سَألْتَ أخِي المُسْلِمُ عَنِ المَخْرَجِ مِنَ هَذِهِ الأخْبَارِ والاسْتِخْبَارَاتِ؛ فَهُوَ الأخْذُ بناصِيَةِ المَنْهَجِ النَّبَوِيِّ في سِيْرَتِهِ ﷺ يَوْمَ كَانَ يَتَعامَلُ مَعَ مِثْلِ هَذِه القَضَايَا النَّازِلَةِ، فَلَنَا في سِيْرَتِهِ ﷺ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ كَما قَالَ تَعَالىٰ: ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُواْ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْآخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا﴾ [الأحزاب: ٢١]، فَعِنْدَ أوَّلِ قِرَاءةٍ للسِّيْرَةِ النَّبَوِيَّةِ يَجِدُ المُسْلِمُ حَقَائِقَ وحُلُوْلًا جَلِيَّةً وَاضِحَةً لا تَحْتَاجُ مِنَّا إلَّا الصِّدْقَ مَعَ الله تَعَالىٰ.

فَحَسْبُنا أنْ نَأخُذَ مِنْ حُلُوْلِهِ ﷺ في مِثْلِ هَذِه المَوَاقِفِ شِعَارًا نَجْعَلُهُ دَائِمًا رَايَةً فَوْقَ رُؤوْسِنَا، وصَيْحَةً علىٰ مَنَابِرِنَا؛ هي قَوْلُه ﷺ: «**مَنْ يُبَايِعُ علىٰ المُوتِ؟!**».

ومُنَاسَبَةُ هَذِه الكَلِمَةِ العَصْماءِ الَّتِي قَدْ نَسِيَهَا أو تَنَاسَاهَا كَثِيرٌ مِنَ المُسْلِمِيْنَ أنَّه ﷺ قَالَ، حَيْنَ بَلَغَهُ أنَّ عُثْمانَ بنَ عَفَّانَ رضي الله عنه قَدْ قُتِلَ: لا نَبْرَحُ حَتَّىٰ نُنَاجِزَ القَوْمَ، فَدَعَا رَسُوْلُ الله ﷺ النَّاسَ إلىٰ البَيْعَةِ، فَكَانَتْ بَيْعَةَ الرِّضْوَانِ تَحْتَ الشَّجَرَةِ، فَكَانَ النَّاسُ يَقُوْلُوْنَ: بَايَعَهُم رَسُوْلُ الله ﷺ علىٰ المَوْتِ[1].

---

(١) «سِيْرَةُ ابنِ هِشَام» (٣/ ٤٢٦)، والبُخَارِيُّ (٧/ ٤٤٨)، ومُسْلِمٌ (٣/ ١٤٨٦)، وللبُخَارِيِّ ألفَاظٌ قَرِيبَةٌ، انْظُرْ «الفتح» (١٢/ ٧٩)، وانظُرْ أيْضًا تَوْفِيقَ ابنِ حَجَرٍ رحمه الله لهذِهِ الألْفَاظِ. =

ولم يَجْتَهِدِ النَّبِيُّ ﷺ في التَّحْلِيْلِ والتَّنْظِيْرِ، ولم يَسْأَلْ مَنْ قَتَلَ عُثْمانَ، وهَلْ قُتِلَ بالسَّيْفِ أم بالرُّمْحِ، ومَا الأَسْبَابُ الَّتِي دَفَعَتِ المُشْرِكِيْنَ إلىٰ قَتْلِهِ، أو غَيْرِ ذَلِكَ؟!

وكَذَا غَزْوَةُ بَنِي قُرَيْظَةَ، لما نَقَضُوا العَهْدَ، حَيْثُ أَمَرَ الله تَعالىٰ نَبِيَّهُ بِقِتَالِهِم بَعْدَ عَوْدَتِهِ مِنَ الخَنْدَقِ، ووَضْعِه السِّلاحَ، أَخْرَجَهُ البُخَارِيُّ.

وامْتِثَالًا لأَمْرِ الله أَمَرَ الرَّسُوْلُ ﷺ أَصْحَابَهُ أَنْ يَتَوَجَّهُوا إلىٰ بَنِي قُرَيْظَةَ، وتَوْكِيْدًا لطَلَبِ السُّرْعَةِ أَوْصَاهُم قَائِلًا: «**لا يُصَلِيَنَّ أَحَدٌ العَصْرَ إلاَّ في بَنِي قُرَيْظَةَ**» البُخَارِيُّ، وعِنْدَمَا أَدْرَكَهُمُ الوَقْتُ في الطَّرِيْقِ قَالَ بَعْضُهُم: لا نُصَلِّي حَتَّىٰ نَأتِي قُرَيْظَةَ، وقَالَ البَعْضُ الآخَرُ: بَلْ نُصَلِّي؛ لم يَرِدْ مِنَّا ذَلِكَ، فَذُكِرَ ذَلِكَ للنَّبِيِّ ﷺ فَلَمْ يُعَنِّفْ وَاحِدًا مِنْهُم، وهَذَا اجْتِهَادٌ مِنْهُم في مُرَادِ الرَّسُوْلِ ﷺ. مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ، وانْظُرْ «سِيْرَةَ ابنِ هِشَامٍ» (٣/ ٣٢٦).

ومِنْ خِلالِ مَا ذَكَرْنَاهُ نَسْتَيْقِنُ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ كَانَ رَجُلَ مَوَاقِفَ وأَفْعَالٍ أَكْثَرَ مِنْهُ صَاحِبَ تَحْلِيْلاتٍ وكَلامٍ عَلَيْهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ!

* * *

❑ ونَحْنُ أَيْضًا لا نَقُوْلُ بطَرْحِ التَّحْلِيْلاتِ رَأْسًا، بَلْ نَعْتَبِرُ مِنْهَا مَا اعْتَبَرَهُ الشَّرْعُ لاسِيَّما إِذَا رَبَطْنَا الأَحْدَاثَ بالأَسْبَابِ الشَّرْعِيَّةِ، فَإِذَا نَظَرْنَا مَثَلًا إِلىٰ

= وعِنْدَ مُسْلِم: أَنَّ جابرَ بنَ عَبْدِ الله قَال: إِنَّ رَسُولَ الله ﷺ لم يُبَايِعْنا علىٰ المَوْتِ؛ ولكنْ بَايَعْنا عَلىٰ أنْ لا نَفِرَّ، قُلْتُ: أَيًّا كانَ الأَمْرُ فَكِلاهما حَلٌّ شَرْعِيٌّ نَبَوِيٌّ سَوَاءٌ كانَتْ بَيْعةً عَلىٰ المَوْتِ، أو عَلىٰ عَدَمِ الفِرَارِ، فَتَأَمَّلْ!

غَزْوَةِ أُحُدٍ وحَلَّلْنَاهَا تَحْلِيْلًا فِكْرِيًّا مُجرَّدًا عَنِ الشَّرْعِ لقُلْنَا: إنَّ ذَكَاءَ خَالِدِ بنِ الوَلِيْدِ والْتِفَافَهُ حَوْلَ مُؤَخِّرَةِ مُعَسْكَرِ المُسْلِمِيْنَ وذَلِكَ حِيْنَ نُزُوْلِ الرُّمَاةِ مِنْ مَكَانِهِم؛ كَانَ سَبَبًا كَبِيْرًا في انْهِزَامِ المُسْلِمِيْنَ ... إلخ!

إلَّا أنَّ الله تَعَالىٰ هُنَا لم يَذْكُرْ هَذَا السَّبَبَ التَّحْلِيْلي المُجَرَّدِ، وإنَّما قَالَ تَعَالىٰ: ﴿أَوَ لَمَّآ أَصَٰبَتۡكُم مُّصِيبَةٞ قَدۡ أَصَبۡتُم مِّثۡلَيۡهَا قُلۡتُمۡ أَنَّىٰ هَٰذَاۖ قُلۡ هُوَ مِنۡ عِندِ أَنفُسِكُمۡۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ﴾ [آل عمران: ١٦٥] فَأرْجَعَ الله تَعَالىٰ الأمْرَ إلىٰ السَّبَبِ الشَّرْعِيِّ: وهُوَ أنَّ المُسْلِمِيْنَ أنْفُسَهُم كَانُوا السَّبَبَ في الانْهِزَامِ لا الكُفَّارَ؛ وذَلِكَ يَوْمَ عَصَوْا أمْرَ النَّبِيِّ ﷺ بنُزُوْلِهم عَنْ مَوَاقِعِهِم!

وكَذَلِكَ في حُنَيْنٍ: نَسْتَطِيْعُ أنْ نَقُوْلَ: أنَّ الكَمِيْنَ الَّذِي وَقَّتَهُ الكُفَّارُ ضِدَّ المُسْلِمِيْنَ كَانَ سَبَبًا قَوِيًّا في انْكِشَافِ المُسْلِمِيْنَ عَنْ مَوَاقِعِهِم ... إلخ!

إلَّا أنَّ الله تَعَالىٰ هُنَا لم يَذْكُرْ هَذِه التَّحْلِيْلاتِ المُجَرَّدَةَ؛ بَلْ أرْجَعَ السَّبَبَ إلىٰ المُسْلِمِيْنَ أنْفُسِهِم: وهُوَ الإعْجَابُ بالكَثْرَةِ لا غَيْرَ، حَيْثُ قَالَ تَعَالىٰ: ﴿لَقَدۡ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٖ وَيَوۡمَ حُنَيۡنٍ إِذۡ أَعۡجَبَتۡكُمۡ كَثۡرَتُكُمۡ فَلَمۡ تُغۡنِ عَنكُمۡ شَيۡـٔٗا وَضَاقَتۡ عَلَيۡكُمُ ٱلۡأَرۡضُ بِمَا رَحُبَتۡ ثُمَّ وَلَّيۡتُم مُّدۡبِرِينَ﴾ [التوبة: ٢٥].

❑ ❑ ❑

المَدْخَلُ الثَّامِنُ

دَعْوَةُ السَّلَفِ ودَعَاوِي الخَلَفِ

ممَّا لا شَكَّ فِيْهِ: أنَّ الخَيْرَ في اتِّبَاعِ مَنْ سَلَفَ، وأنَّ الشَّرَّ في اتِّبَاعِ مِنْ خَلَفَ، وكَما قَالَ الإمَامُ مَالِكٌ ﵀ وغَيْرُهُ: لا يَصْلُحُ آخِرُ هَذِهِ الأمَّةِ إلَّا بِما صَلُحَ بِهِ أوَّلُها[1].

وإنَّهُ لحَقِيْقٌ بِأهْلِ (الفِكْرِ التَّرْبَوِيِّ) وغَيْرِهِم أنْ يَلْزَمُوا سَنَنَ السَّلَفِ الصَّالِحِ في دَعْوَتِهِم، كَما عَلَيْهِم أنْ يَأخُذُوا بالأمْرِ العَتِيْقِ، لأنَّ الدَّعْوَةَ إلىٰ الله تَعَالىٰ: هِيَ وَظِيْفَةُ الأنْبِيَاءِ والرُّسُلِ، فَهِيَ مِنْ أشْرَفِ الوَظَائِفِ وأعْلىٰ المَرَاتِبِ.

❑ ورَحِمَ الله إمَامَ أهْلِ السُّنَّةِ والجَماعَةِ أحمَدَ بنَ حَنْبَلٍ إذْ يَقُوْلُ[2]:

دِيْنُ النَّبِيِّ مُحَمَّدٍ أخْبَارُ ... نِعْمَ المَطِيَّةُ للفَتىٰ آثَارُ
لا تَرْغَبَنَّ عَنِ الحَدِيْثِ وأهْلِهِ ... فالرَّأيُ لَيْلٌ والحَدِيْثُ نَهارُ
ولرُبَّما جِهِلَ الفَتىٰ أثَرَ الهُدَىٰ ... والشَّمْسُ بَازِغَةٌ لهَا أنْوَارُ

---

(١) انْظُرْ «التَّمهِيْدَ» لابْنِ عَبْدِ البَرِّ (٢٣/ ١٠).

(٢) انْظُرْ «شَرَفَ أصْحَابِ الحَدِيْثِ» للخَطِيْبِ البَغْدَادِي (٧٦)، و«جَامِعَ فَضْلِ أهْلِ العِلْمِ» لابنِ عَبْدِ البَرِّ (١/ ٧٨٢)، وتُنْسَبُ أيْضًا لعَبْدَةَ بنِ زِيَادَةَ الأصْبَهانيِّ.

❏ وكَذَا قَالَ الشَّافِعِيُّ رَحِمَهُ اللهُ(١):

كُلُّ العُلُوْمِ سِوَىٰ القُرْآنِ مَشْغَلَةٌ   إلَّا الحَدِيْثَ وإلَّا الفِقْهَ في الدِّيْنِ

العِلْمُ مَا كَانَ فِيْهِ قَالَ: حَدَّثَنَا   ومَا سِوَىٰ ذَلِكَ وَسْوَاسُ الشَّيَاطِيْنِ

* * *

هَذَا إذَا عَلِمْنَا؛ أنَّ الدَّعْوَةَ السَّلَفِيَّةَ مُنْذُ بِدَايَتِهَا وهِي في مُوَاجَهَاتٍ عَصِيْبَةٍ، وعَقَبَاتٍ كَأْدَاءَ، إلَّا أنَّ رُوَّادَهَا وأتْبَاعَهَا في إقْدَامٍ وشُمُوْخٍ وعَمَلٍ دَؤُوْبٍ في نَشْرِ الدَّعْوَةِ وتَبْلِيْغِ الرِّسَالَةِ لا يَسْأمُوْنَ ولا يَنْكَسِرُوْنَ حَامِلِيْنَ لِوَاءَ الدَّعْوَةِ والتَّبْلِيْغِ أيْنَما حَلُّوْا أو رَحَلُوا، وهَكَذَا في جِهَادٍ واجْتِهَادٍ كَي يَبْقَىٰ بَابُ الدَّعْوَةِ مَفْتُوْحًا، وعَمَلُ الدُّعَاةِ مُسْتَمِرًا ومُتَوَاصِلًا.

وكَانَ جِيْلُ الصَّحَابَةِ مَثَلًا ومِثَالًا لم يَعْرِفْ تَارِيْخُ البَشَرِيَّةِ مِثْلَهُم في الدَّعْوَةِ إلىٰ الله تَعَالىٰ، وفي تَبْلِيْغِ دِيْنِهِ، وهَكَذَا لم تَزَلْ قَافِلَةُ الدَّعْوَةِ حَتَّىٰ جَاءَ التَّابِعُوْنَ مِنْ بَعْدِهِم يَحُثُّوْنَ الخُطَىٰ مُقْتَفِيْنَ الأثَرَ في اتِّبَاعِ سِيَرِ الصَّحَابَةِ في الدَّعْوَةِ والتَّبْلِيْغِ، لا يَبْتَدِعُوْنَ ولا يَتَكَلَّفُوْنَ، بَلْ كَانُوا حَذْوَ القُذَّةِ بالقُذَّةِ، ثُمَّ وَرِثَ عُلَماءُ السَّلَفِ طَرِيْقَةَ السَّابِقِيْنَ ومَنْهَجَهُم في العِلْمِ والدَّعْوَةِ، فَكَانُوا مُتَّبِعِيْنَ لا مُبْتَدِعِيْنَ.

وبِقَدْرِ أهَمِيَّةِ هَذَا الدِّيْنِ وضَرُوْرَتِهِ لكُلِّ مُكَلَّفٍ: تَعْظُمُ أهَمِيَّةُ الدَّعْوَةِ إلَيْهِ،

---

(١) انْظُرْ «الطَّبَقَاتِ الكُبْرىٰ» للسُّبْكِيِّ (١/ ٢٩٧)، و«البِدَايَةَ والنِّهَايَةَ» لابنِ كَثِيْرٍ (١٠/ ٢٥٤)، وهُما مَنْسُوبانِ للشَّافِعِيِّ.

وتَتَأكَّدُ ضَرُوْرَتُها وحَاجَةُ المُكَلَّفِيْنَ إلَيْهَا، لاسِيَّما إذَا اسْتَحْكَمَتِ الشُّبُهَاتُ والشَّهَوَاتُ بالنَّاسِ، وأقْبَلَتِ بِرَجْلِهَا ورِجَالِهَا.

* * *

❑ فعِنْدَئِذٍ؛ كَانَ مِنْ أبْجَدِيَّاتِ الدَّعْوَةِ: أنَّ صَلاحَ آخِرِ هَذِهِ الأمَّةِ لا يَكُوْنُ إلَّا بِما صَلُحَ بِهِ أوَّلُهَا، وأنَّ الدَّعْوَةَ اليَوْمَ لَنْ تَأتي ثِمارَهَا اليَانِعَة إلَّا إذَا أخَذَ أهْلُ العِلْمِ والدَّعْوَةِ طَرِيْقَهُم خَلْفَ السَّلَفِ الصَّالِحِ أهْلِ القُرُوْنِ الثَّلاثَةِ المُفَضَّلَةِ: عَقِيْدَةً ومَنْهَجًا، عِلْمًا ودَعْوَةً رَامِيْنَ وَرَاءَهُم كُلَّ مَا مِنْ شَأنِهِ يُخَالِفُ الدَّعْوَةَ السَّلَفِيَّةَ، وإلَّا كَانَ التَّحَزُّبُ والتَّفَرُّقُ، والعَدَاوَةُ والبَغْضَاءُ، والتَّحْرِيْشُ والتَّنَازُعُ، وذَهَابُ الرِّيْحِ، كَما هُوَ الحَالُ اليَوْمَ إلَّا مَا رَحِمَ الله في بَقِيَّةٍ مِنْ أتْبَاعِ السَّلَفِ الصَّالِحِ.

* * *

❑ وهَذِهِ جُمَلٌ؛ مِنْ بَصَائِرِ السَّلَفِ الصَّالِحِ في الدَّعْوَةِ إلىٰ الله تَعَالىٰ تُنْبِئُكَ بِما وَرَاءَهَا:

العِلْمُ بحَقِيْقَةِ مَا يَدْعُوْنَ إلَيْهِ، والعَمَلُ بِهِ، والدَّعْوَةُ إلَيْهِ بالحُسْنَىٰ، والصَّبْرُ علىٰ الأذَىٰ في طَرِيْقِهِ، ومِنْ وَرَاءَ ذَلِكَ كُلِّهِ: الإخْلاصُ لله تَعَالىٰ، ومُتَابَعَةُ النَّبِيِّ ﷺ في الدَّعْوَةِ إلىٰ الله تَعَالىٰ، واتِّبَاعِ السَّلَفِ فِيْما يَأتُوْنَ ويَذَرُوْنَ . . . فَلَمْ يَمِيْلُوا أو يَرْكَنُوا إلىٰ طَرَائِقَ أخْرَىٰ؛ مَهْما كَانَ: قَائِلُها، أو تَفَيْقَهَ كَاتِبُها، أو تَزَخْرَفَتْ أقْوَالُها، أو تَنَمَّقَتْ أفْعَالُها.

فَهَذِهِ في غَيْرِهَا مِنَ السُّنَنِ الشَّرْعِيَّةِ؛ كَانَتْ مَدْرَجَةَ سَلَفِنَا الصَّالِحِ في

عِلْمِهِم ودَعْوَتِهِم علىٰ السَّدَادِ والاقْتِصَادِ حَذْوَ القُذَّةِ بالقُذَّةِ، مِثْلًا بمِثْلٍ، فَمَنْ زَادَ علىٰ مَنْهَجِهِم أو اسْتَزَادَ فَقَدْ أرْبَىٰ فِي الاتِّبَاعِ، وأغْرَىٰ جُلَّ الأتْبَاعِ.

لأجْلِ هَذَا؛ كَانَ فَرْضًا لازِمًا علىٰ كُلِّ دَعْوَةٍ إصْلاحِيَّةٍ أنْ تَقْتَفِي آثارَ مَنْهَجِ السَّلَفِ الصَّالِحِ في كلِّ مَا تَأتِي وتَذَرُ؛ وإلَّا كَانَتْ رَمَادًا في رِيْحِ يَوْمٍ عَاصِفٍ، أو سَرَابًا في عَيْنِ ظَمْآنَ خَائِفٍ، فَعِنْدَئِذٍ لا تَغْتَرْ أخِي المُسْلِمُ بدَعْوَةٍ لَيْسَ لها مِنْ طَرَائِقِ السَّلَفِ إلَّا الانْتِسَابَ والادِّعَاءَ!

قَالَ تَعالىٰ: ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَۖ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾ [الحشر: ٧]. وقَالَ تَعالىٰ: ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِى رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْءَاخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا﴾ [الأحزاب: ٢١].

وعَنْ أبي وَاقِدٍ اللَّيْثِيِّ رضي الله عنه أنَّ رَسُوْلَ الله ﷺ قَالَ ونَحْنُ جُلُوسٌ علىٰ بِسَاطٍ: «إنَّها ستَكُوْنُ فِتْنَةٌ»، قَالُوا: كَيْفَ نَفْعَلُ؟ قَالَ: فَرَدَّ يَدَهُ إلىٰ البِسَاطِ فَأمْسَكَ بِهِ فَقَالَ: «تَفْعَلُوْنَ هَكَذَا» قَالَ: وذَكَرَ لهُم رَسُوْلُ الله ﷺ: «أنَّها سَتَكُوْنُ فِتْنَةٌ» ولم يَسْمَعْهُ كَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ، فَقَالَ مُعَاذُ بنُ جَبَلٍ: ألَا تَسْمَعُوْنَ مَا يَقُوْلُ رَسُوْلُ الله ﷺ؟ قَالُوا: ومَا قَالَ؟ قَالَ: يَقُوْلُ: «إنَّها سَتَكُوْنُ فِتْنَةٌ»، قَالُوا: فَكَيْفَ بِنَا يَا رَسُوْلَ الله؟ وكَيْفَ نَصْنَعُ؟ قَالَ: «تَرْجِعُوْنَ إلىٰ أمْرِكُمُ الأوَّلِ» أخْرَجَهُ الطَّبَرانيُّ في «المُعْجَمِ الكَبِيرِ» (٣/ ١٨١)، و«الأوْسَطِ» (٢/ ٢٤٩)، (٨٨٤٣)، والطَّحَاوِيُّ في «مُشْكِلِ الآثَارِ» (٢/ ٦٨) بإسْنَادٍ صَحِيْحٍ.

وعَنِ العِرْبَاضِ بنِ سَارِيَةَ رضي الله عنه قَالَ: وَعَظَنَا رَسُوْلُ الله ﷺ يَوْمًا بَعْدَ صَلاةِ الغَدَاةِ مَوْعِظَةً بَلِيْغَةً ذَرَفَتْ مِنْهَا العُيُوْنُ ووَجِلَتْ مِنْهَا القُلُوْبُ فَقَالَ رَجُلٌ: إنَّ

هَذِهِ مَوْعِظَةُ مُوَدِّعٍ فَمَاذَا تَعْهَدُ إِلَيْنَا يَا رَسُوْلَ الله؟ قَالَ: «أُوْصِيْكُم بتَقْوَىٰ الله، والسَّمْعِ والطَّاعَةِ، وإنْ عَبْدٌ حَبَشِيٌّ، فَإِنَّهُ مَنْ يَعِشْ مِنْكُم يرَىٰ اخْتِلافًا كَثِيرًا، وإِيَّاكُم ومُحْدَثَاتِ الأُمُوْرِ فَإِنَّها ضَلالَةٌ، فَمَنْ أدْرَكَ ذَلِكَ مِنْكُم فَعَلَيْكُم بسُنَّتِي وسُنَّةِ الخُلَفَاءِ الرَّاشِدِيْنَ المَهْدِيِّيْنَ، عَضُّوْا عَلَيْهَا بالنَّوَاجِذِ» أخْرَجَهُ أحمَدُ، التِّرمِذِيُّ، وقَالَ: حَدِيْثٌ صَحِيْحٌ.

* * *

وقَالَ عُمَرُ بنُ الخَطَّابِ رضي الله عنه: «أَصْبَحَ أهْلُ الرَّأي أعْدَاءَ السُّنَنِ؛ أعْيَتْهُم الأحَادِيْثُ أنْ يَعُوْهَا، وتَفَلَّتَتْ مِنهُم أنْ يَرْوُوْهَا؛ فاسْتَبْدَلُوْهَا بالرَّأيِ» أخْرَجَهُ الهَرَوِيُّ في «ذمِّ الكَلامِ وأهْلِهِ» (٢/ ٢٠٠) رَقَم (٢٦٧ و ٢٦٨)، وهُوَ أثرٌ صَحِيْحٌ.

وقَالَ عَبْدُ الله بنُ مَسْعُوْدٍ رضي الله عنه: «كَيْفَ أنْتُمْ إذَا لَبِسَتْكُم فِتْنَةٌ يَهْرَمُ فِيْهَا الكَبِيرُ، ويَرْبُو فِيهَا الصَّغِيرُ ويَتَّخِذُهَا النَّاسُ سُنَّةً؟ فَإِذَا غُيِّرَتْ قَالُوا: غُيِّرَتِ السُّنَّةُ» قَالُوا: ومَتَىٰ ذَلِكَ يَا أبَا عَبْدِ الرَّحمَنِ؟ قَالَ: «إذَا كَثُرَتْ قُرَّاؤكُم، وقَلَّتْ فُقَهَاؤكُم، وكَثُرَتْ أمَرَاؤكُم، وقَلَّتْ أمَنَاؤكُم، والْتُمِسَتِ الدُّنْيَا بعَمَلِ الآخِرَةِ!» أخْرَجَهُ الدَّارِميُّ في «السُّنَنِ» (١٩١).

وقَالَ أيْضًا رضي الله عنه: «اتَّبِعُوا، ولا تَبْتَدِعُوا فَقَدْ كُفِيْتُم، عَلَيْكُم بالعَتِيْقِ» أخْرَجَهُ وَكِيْعٌ في «الزُّهْدِ» (٣١٥)، وأحمَدُ في «الزُّهْدِ» (٦٢)، وهُوَ أثرٌ صَحِيْحٌ.

وقَالَ أيْضًا رضي الله عنه: «أيُّها النَّاسُ سَتُحدِّثُوْنَ، ويُحدَّثُ لَكُم، فَإذَا رَأيْتُم مُحْدِثَةً؛ فَعَلَيْكُمُ الأمْرَ الأوَّلَ» أخْرَجَهُ وَكِيْعٌ، وأحمَدُ.

وقَالَ أيْضًا رضي الله عنه: «اقْتِصَادٌ في سُنَّةٍ خَيْرٌ مِنِ اجْتِهَادٍ في بِدْعَةٍ» أخْرَجَهُ اللَّالَكَائيُّ في «شَرْحِ اعْتِقَادِ أُصُوْلِ أهْلِ السُّنَّةِ والجماعَةِ» (١/ ٥٥)، وهُوَ أثرٌ صَحِيْحٌ.

وقَالَ أيْضًا رضي الله عنه: «لا يَزَالُ النَّاسُ صَالِحِيْنَ مُتماسِكِيْنَ (مُشْتَمِلِيْنَ)؛ مَا أتَاهُمُ العِلْمُ مِنْ أصْحَابِ مُحَمَّدٍ ﷺ ومِنْ أكَابِرِهِم، فَإذَا أتَاهُمُ العِلْمُ مِنْ قِبَلِ أصَاغِرِهِم هَلَكُوا» أخْرَجَهُ عَبْدُ الرَّزَّاقِ، وهُوَ أثرٌ صَحِيْحٌ.

قَالَ أبُو عُبَيْدٍ: مَعْنَاهُ: أنَّ كُلَّ مَا جَاءَ عَنِ الصَّحَابَةِ وكِبَارِ التَّابِعِيْنَ لهُم بإحْسَانٍ؛ هُوَ العِلْمُ المَوْرُوْثُ، ومَا أحْدَثَهُ مَنْ جَاءَ بَعْدَهُم؛ هُوَ المَذْمُوْمُ.

قَالَ عُثْمانُ بنُ حَاضِرٍ الأزْدِيُّ: دَخَلْتُ علىٰ ابنِ عَبَّاسٍ رضي الله عنهما، فَقُلْتُ: أوْصِنِي، فَقَالَ: «عَلَيْكَ بالاسْتِقَامَةِ، اتَّبِعْ ولا تَبْتَدِعْ، اتَّبِعِ الأمْرَ الأوَّلَ ولا تَبْتَدِعْ» أخْرَجَهُ الهَرَوِيُّ في «ذمِّ الكَلامِ وأهْلِهِ»(٢/ ١٨٥)، وهُوَ أثرٌ صَحِيْحٌ.

وقَالَتْ عَائِشَةُ رضي الله عنها: «مَا رَأيْتُ أحَدًا ألْزَمَ للأمْرِ الأوَّلِ مِنْ عَبْدِ الله بنِ عُمَرَ» أخْرَجَهُ اللَّالَكَائيُّ، وهُوَ أثرٌ صَحِيْحٌ.

وقَالَ مُعَاذُ بنُ جَبَلٍ رضي الله عنه: «يُفْتَحُ القُرْآنُ علىٰ النَّاسِ حَتَّىٰ يَقْرَأهُ المَرْأةُ والصَّبِيُّ والرَّجُلُ، فيَقُوْلُ الرَّجُلُ: قَدْ قَرَأتُ القُرْآنَ فَلَمْ أُتَّبَعْ، والله لأقُوْمَنَّ بِهِ فِيْهِم لعَلي أُتَّبَعْ، فيَقُوْمُ بِهِ فِيْهِم فلا يُتَّبَعُ، فيَقُوْلُ: قَدْ قَرَأتُ القُرْآنَ فَلَمْ أُتَّبعْ وقَدْ قُمْتُ بِهِ فِيْهِم فَلَمْ أُتَّبعْ لأحْتَظِرَنَّ في بَيْتِي مَسْجِدًا لعَلي أُتَّبَعْ، فَيَحْتَظِرَ في

بَيْتِهِ مَسْجِدًا فَلا يُتَّبَعُ، فيَقُوْلُ: قَدْ قَرَأتُ القُرْآنَ فَلَمْ أُتَّبَعْ وقَدْ قُمْتُ بِهِ فِيْهِم فَلَمْ أُتَّبَعْ وقَدْ احْتَظَرْتُ في بَيْتِي مَسْجِدًا فَلَمْ اتَّبَعْ، والله لآتِيَنَّهُم بحَدِيْثٍ لا يَجِدُوْنَهُ في كِتَابِ الله ولم يَسْمَعُوْهُ عَنْ رَسُوْلِ الله لعَلِّي أُتَّبَعْ»، قَالَ مُعَاذٌ: «فإيَّاكُم ومَا جَاءَ بِهِ، فَإنَّ مَا جَاءَ بِهِ ضَلالَةٌ» أخْرَجَهُ الدَّارِمِيُّ، وهُوَ أثَرٌ صَحِيْحٌ، والله تَعَالىٰ أعْلَمُ.

* * *

وقَالَ الأوْزَاعِيُّ رَحِمَهُ اللهُ: «عَلَيْكَ بآثَارِ مَنْ سَلَفَ، وإنْ رَفَضَكَ النَّاسُ، وإيَّاكَ وآرَاءَ الرِّجَالِ، وإنْ زَخْرَفُوْهُ لَكَ بالقَوْلِ؛ فإنَّ الأمْرَ يَنْجَلي، وأنْتَ عَلَىٰ طَرِيْقٍ مُسْتَقِيْمٍ» أخْرَجَهُ الآجُرِّيُّ في «الشَّرِيْعَةِ» (١٢٧)، والذَّهَبِيُّ في «العُلُوِّ» (١٣٨)، وهُوَ أثَرٌ صَحِيْحٌ.

وقَالَ سُفْيَانُ الثَّوْرِيُّ رَحِمَهُ اللهُ: «إذَا اسْتَطَعْتَ ألَّا تَحُكَّ رَأسَكَ إلَّا بأثَرٍ فَافْعَلْ». وقَالَ أيْضًا رَحِمَهُ اللهُ: «وَجَدْتُ الأمْرَ بالاتِّبَاعِ» أخْرَجَهُ الهَرَوِيُّ (٢/ ٤٠٠، ٤٨٦)، وهُوَ أثَرٌ صَحِيْحٌ.

وعَنْ إسْمَاعِيْلَ بنِ أبي حَكِيْمٍ قَالَ: سَمِعْتُ عُمَرَ بنَ عَبْدِ العَزِيْزِ رَحِمَهُ اللهُ يَقُوْلُ: «مَنْ جَعَلَ دِيْنَهُ غَرَضًا للخُصُوْمَاتِ أكْثَرَ التَّنَقُّلَ» أخْرَجَهُ الدَّارِمِيُّ في «السُّنَنِ» (٣١٢)، وهُوَ أثَرٌ صَحِيْحٌ.

وقَالَ أبو سَعِيْدٍ الحَدَّادُ رَحِمَهُ اللهُ: «الحَدِيْثُ دَرَجٌ، فَاتَّقِ أنْ تَنْزِلَ، والرَّأيُ مَرَجٌ، فارْكُضْ فِيْهِ حَيْثُ شِئْتَ» أخْرَجَهُ الهَرَوِيُّ، حَدِيْثُ رَقْمُ (٣٥٨)، وهُوَ أثَرٌ صَحِيْحٌ.

وقَالَ عِصَامُ بنُ يُوسُفَ رَحِمَهُ اللهُ: «عَلَيْكُم بالآثَارِ، وإيَّاكُم والرَّأيَ؛ فَإنَّ أصْحَابَ الرَّأي أعْدَاءُ السُّنَّةِ، أعْيَتْهُمُ الأحَادِيْثُ أنْ يَحْفَظُوْهَا، فَإنَّ وأنَّ وأرَأيْتَ لا يَكُوْنُ عِلْمًا» أخْرَجَهُ الهَرَوِيُّ، حَدِيْثُ رَقَمُ (٣٣١)، وهُوَ أثرٌ صَحِيْحٌ.

وقَالَ الشَّعبِيُّ رَحِمَهُ اللهُ: «مَا حَدَّثُوْكَ هَؤلاءِ عَنْ رَسُوْلِ الله ﷺ فَخُذْ بِهِ، ومَا قَالُوْهُ بِرَأيِهِم فَألْقِهِ في الحُشِّ» أخْرَجَهُ الدَّارِمِيُّ في «السُّنَنِ» (٢٠٦).

وقَالَ الإمَامُ البَرْبَهارِيُّ رَحِمَهُ اللهُ في «السُّنَّةِ» (١١١): «عَلَيْكَ بالآثَارِ، وأهْلِ الآثَارِ، فَمَعَهُم فاجْلِسْ، ومِنْهُمُ اقْتَبِسْ».

* * *

لِذَا كَانَتْ دَعْوَةُ السَّلَفِ الصَّالِحِ قَلِيْلَةً يَسِيْرَةً إلَّا أنَّها كَثِيْرَةُ البَرَكَةِ، ودَعْوَةُ الخَلَفِ عَرِيْضَةٌ كَثِيْرَةٌ إلَّا أنَّها قَلِيْلَةُ البرَكَةِ، نَاهِيْكَ أنَّ بَعْضَ أصْحَابِها مَا زَالُوا يَتَأرْجَحُوْنَ بَيْنَ فُتُوْرٍ وخُمولٍ ورُكُوْنٍ وذُبُوْلٍ، ورُبَّما سَقَطَ بَعْضُهُم علىٰ أمِّ رَأسِهِ رَغْبَةً وارْتِكَاسًا (عَيَاذًا بالله!).

كَما قَالَ تَعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفۡعَلُونَ ۝٢ كَبُرَ مَقۡتًا عِندَ ٱللَّهِ أَن تَقُولُواْ مَا لَا تَفۡعَلُونَ﴾ [الصف: ٢-٣].

وجَدِيْرٌ بِكُلِّ عَالمٍ ومُتَعَلِّمٍ ودَاعِيَةٍ، بَلْ بِكُلِّ مُسْلِمٍ (اليَوْمَ) أنْ يَقْرَأ كِتَابَ: «بَيَانِ فَضْلِ عِلْمِ السَّلَفِ علىٰ عِلْمِ الخَلَفِ» للحَافِظِ ابنِ رَجَبٍ رَحِمَهُ اللهُ المُتَوفَّىٰ سَنَةَ (٧٩٥).

* * *

❏ وإنِّي لا إِخَالُكَ؛ أنَّ مَا تَنْفُثُهُ بَعْضُ قَنَوَاتِ (الفِكْرِ التَّرْبَويِّ) في رَوْعِ الشَّبَابِ المُسْلِمِ هَذِهِ الأَيَّامَ؛ مَا هُوَ إِلَّا مُقَامَرَةٌ بالشَّبَابِ، وتَخْوِيْنٌ لعُقُوْلِهِم وجُهُوْدِهِم؛ حَيْثُ نَرَاهُم لا يَسْأَمُوْنَ مِنْ تَرْوِيْضِ الشَّبَابِ: علىٰ ألاعِيْبَ ممْجُوْجَةٍ، وثَقَافَاتٍ فِكْرِيَّةٍ، وأنَاشِيْدَ مُرْتَجلَةٍ، وتَمثِيْلِيَّاتٍ مُبْتَذَلَةٍ، ومَخَارِجَ سِيَاحِيَّةٍ، ومَدَاخِلَ تَرْويحِيَّةٍ . . . ظَنًّا مِنْهُم أنَّ الشَّبَابَ اليَوْمَ لا يُصْلِحُهُم إِلَّا طَرَائِقُ (الفِكْرِ التَّرْبَويِّ)، ولا يُهَذِّبُهُم إِلَّا مَسَالِكُ (التَّرْبِيَةِ) العَصْرِيَّةِ!

كَما لا يَغُرَّنَّكَ مَا يَقُوْلُوْنَهُ مِنْ قَالاتٍ خَاطِئَةٍ، كَقَوْلِهِم: لَوْلا هَذِهِ البَرامِجُ والمَنَاهِجُ التَّرْبَوِيَّةُ: لسَقَطَ الشَّبَابُ في أَحْضَانِ الشَّهَوَاتِ والشُّبُهَاتِ، ولما ثَبَتُوا علىٰ طَرِيْقِ الاسْتِقَامَةِ . . . فَعِنْدَئِذٍ كَانَ في حَمْلِهِم علىٰ الجِدِّيَّةِ وعُلُوِّ الهِمَّةِ في الطَّلَبِ والعِبَادَةِ تَنْفِيرًا لهُم عَنِ الاسْتِقَامَةِ وفِعْلِ الخَيرِ، وأَنَّهُم مَتَىٰ عَلِمُوا بضَرُوْرَةِ الجِدِّيَّةِ في الاسْتِقَامَةِ: سَيَتَسَلَّلُوْنَ لِوَاذًا إلىٰ أصْحَابِ السُّوْءِ ومَرَاتِعِ الفَسَادِ!

قُلْتُ: إنَّ مِثْلَ هَذِهِ المُغَالَطَاتِ المَزْعُوْمَةِ مَا هِي إِلَّا خَطَرَاتٌ شَيْطَانِيَّةٌ، ووَسَاوِسُ وَهْمِيَّةٌ، مَا أنْزَلَ الله بِها مِنْ سُلْطَانٍ، بَلْ هِي في حَقِيْقَةِ الأَمْرِ: مُقَامَرَةٌ بحَيَاةِ الشَّبَابِ ومَا يَمْلِكُوْنَهُ مِنْ إِيْمَانٍ وهِمَمٍ عَالِيَةٍ وطَاقَةٍ كَبِيرَةٍ . . . وسَيَأتي لهَذَا شَيءٌ مِنَ البَسْطِ إنْ شَاءَ الله، في البَابِ السَّادِسِ، تَحْتَ عُنْوَانِ: أخْطَاءِ (الفِكْرِ التَّرْبَويِّ)!

❏ ❏ ❏

البَابُ الثَّانِي

تَعْرِيفُ (الفِكْرِ التَّرْبَوِيِّ)

- الفَصْلُ الأَوَّلُ: تَعْرِيفُ التَّرْبِيَةِ لُغَةً واصْطِلاحًا.
- الفَصْلُ الثَّانِي: تَعْرِيفُ التَّرْبِيَةِ عِنْدَ المُحْدَثِيْنَ مِنْ أرْبَابِ (الفِكْرِ التَّرْبَوِيِّ).
- الفَصْلُ الثَّالِثُ: إغَارَةُ (التَّرْبِيَةِ) عَلَىٰ تُرَاثِ الأُمَّةِ.

الفَصْلُ الأَوَّلُ

تَعرِيفُ التَّربِيَةِ لُغَةً، واصطِلاحًا

❑ فأمَّا مَعْنَىٰ (التَّرْبِيَةِ) لُغَةً، فَقَدْ جاءَتْ لمَعَانٍ كَثِيْرةٍ، مِنْهَا(١):

أوَّلًا: الإصْلاحُ: رَبَّ الشَّيءَ إذَا أصْلَحَهُ، والإصْلاحُ قَدْ لا يَقْتَضِي الزِّيَادَةَ؛ وإنَّما التَّعْدِيْلُ والتَّصْحِيْحُ.

ثَانِيًا: النَّماءُ والزِّيَادَةُ: رَبَا يَرْبُو، زَادَ ونَما.

وفي هَذَا المَعْنَىٰ قَوْلُهُ تَعالىٰ: ﴿وَتَرَى ٱلْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنۢبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ﴾ [الحج: ٥].

ورَبَّ المَعْرُوْفَ والصَّنِيْعَةَ والنِّعْمَةَ: أيْ نَمَّاهَا وأتمَّهَا وأصْلَحَهَا.

ثَالِثًا: نَشَأ وتَرَعْرَعَ: رَبِّىٰ يَرْبَىٰ، علىٰ وَزْنِ خَفِيَ يَخْفَىٰ: أيْ نَشَأ وتَرَعْرَعَ، وعَلَيْهِ قَوْلُ ابنِ الأعْرَابيِّ:

فَمَنْ يَكُنْ سَائِلًا عَنِّي فَإنِّي بِمَكَّةَ مَنْزِلي وبِها رَبَيْتُ

رَابِعًا: سَاسَهُ وتَوَلَّىٰ أمْرَهُ: رَبَّيْتُ القَوْمَ: أيْ سُسْتُهُم، أيْ كُنْتُ فَوْقَهُم،

---

(١) انْظُرْ: «لِسَانَ العَرَبِ» لابنِ مَنْظُوْرٍ مَادَّةَ: رَبَب (١/ ٤٠٠، ٤٠١، ٤٠٥)، و«المُصْبَاحَ المُنِيْرَ» للفَيُّومِيِّ (١/ ٢٩٦)، و«المُعْجَمَ الوَسِيْطَ» مَادَّةَ: رَبَّ.

ومِنْهُ قَوْلُ أحَدِهِم: لَئِنْ يُرَبِّنِي فُلانٌ أحَبُّ إليَّ مِنْ أنْ يُرَبِّنِي فُلانٌ، وقَدْ قَالَ أَبُو سُفْيَانَ: غُلِبَتْ والله هَوَازِنُ! فَقَالَ صَفْوَانُ: لَئِنْ يُرَبِّنِي رَجُلٌ مِنْ قُرَيْشٍ، أَحَبُّ إليَّ مِنْ أنْ يُرَبِّنِي رَجُلٌ مِنْ هَوَازِنَ.

خَامِسًا: التَّعْلِيْمُ: قَالَ ابنُ مَنْظُوْرٍ: الرَّبَّانِيُّ مِنَ الرَّبِّ، بِمَعْنَىٰ التَّربِيَةِ، وقَالَ ابنُ الأعْرَابِيِّ: الرَّبَّانِيُّ العَالمُ المُعَلِّمُ الَّذِي يَغْذُو النَّاسَ بِصِغَارِ العُلُوْمِ قَبْلَ كِبَارِهَا، والرَّبَّانِيُّ: الرَّاسِخُ في العِلْمِ، أو الَّذِي يَطْلُبُ بِعِلْمِهِ وَجْهَ الله.

ومِنْ مَعَانِي الرَّبِّ لُغَةً: المَالِكُ، والسَّيِّدُ، والمُرَبِّي، والقَيِّمُ، والمُنْعِمُ، والمُدَبِّرُ، والمُصْلِحُ.

كَما جَاءَ في اللُّغَةِ: رَبَّ الوَلَدَ ... وَلِيَهُ وتَعَهَّدَهُ بما يُغَذِّيْهِ ويُنَمِّيْهِ ويُؤدِّبُهُ.

ورَبَّ وَلَدَهُ والصَّبِيَّ: يُرَبِّهِ رَبًّا ورَبَّبَهُ تَرْبِيْبًا، وتَرِبَةً ... ورَبَّاهُ تَرْبِيَةً: أحْسَنَ القِيَامَ عَلَيْهِ ووَلِيَهُ حَتَّىٰ يُفَارِقَ الطُّفُوْلِيَّةَ، كَانَ ابْنَه أو لم يَكُنْ.

ومِنْهُ قَوْلُهُ تَعالىٰ: ﴿وَٱخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحْمَةِ وَقُل رَّبِّ ٱرْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا﴾ [الإسراء: ٢٤].

وقَالَ فِرْعَوْنُ لمُوْسَىٰ في قَوْلِهِ تَعالىٰ: ﴿قَالَ أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ﴾ [الشعراء: ١٨]، أيْ: أمَا أنْتَ الَّذِي رَبَّيْنَاهُ فِيْنَا، وفي بَيْتِنَا، وعلىٰ فَرْشِنَا، وأنْعَمْنَا عَلَيْهِ مُدَّةً مِنَ السِّنِيْنَ؟! قَالَهُ ابنُ كَثِيرٍ في «تَفْسِيرِهِ» (٣/ ٣٤٤).

* * *

ومِنْ خِلالِ هَذِه التَّعْرِيْفَاتِ اللُّغَوِيَّةِ، يَتَّضِحُ لَنَا أنَّ (التَّرْبِيَةَ) لها: إطْلاقٌ وتَقْيِيْدٌ.

فَهِيَ إذَا أطْلِقَتْ شَمِلَتْ تَرْبِيَةَ الطِّفْلِ الصَّغِيرِ حَتَّىٰ يَكْتَمِلَ، فَعِنْدَئِذٍ يَكُوْنُ مَدَارُ كَلِمَةِ (التَّرْبِيَةِ) إذَا أطْلِقَتْ فَهِي تَدُوْرُ حَوْلَ إصْلاحِ الصَّغِيرِ، والقِيَامِ بأمْرِهِ، وتَعَهُّدِهِ بما يُنَمِّيْهِ.

وإذَا قُيِّدَتْ فَلَهَا اعْتِبَارَانِ: قِيْدٌ بالإضَافَةِ، وقَيْدٌ بالنِّسْبَةِ، وكِلاهُما يَشْمَلُ الكَبِيرَ وغَيْرَهُ، كَما يَلي:

❑ **فَأمَّا المُقَيَّدُ بالإضَافَةِ**: كَقْولهم: رَبَّىٰ القَوْمَ، أيْ: سَاسَهُم.

وقَدْ تُضَافُ إلىٰ المَعْرُوْفِ والصَّنِيْعَةِ والنِّعْمَةِ: أيْ نَمَّاهَا وأتَّمهَا وأصْلَحَهَا.

وقَدْ تُضَافُ إلىٰ الحَيَوانِ وغَيرِهِ: والصَّبِيُّ مَرْبُوْبٌ، ورَبِيْبٌ، وكَذَلِكَ الفَرَسُ، والمرْبُوْبُ المُرَبَّىٰ.

وكَقَوْلِه ﷺ: «**مَنْ تَصدَّقَ بعَدْلِ تَمْرَةٍ مِنْ كَسْبٍ طَيِّبٍ، ولا يَقْبَلُ الله إلاَّ الطَّيِّبَ، وإنَّ الله يَتَقَبَّلُهَا بيَمِيْنِه، ثُمَّ يُرَبِّيْهَا لصَاحِبِهَا كَما يُرَبِّي أحَدُكُم فَلُوَّهُ حَتَّىٰ تَكُوْنَ مِثْلَ الجَبَلِ**» مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ.

* * *

❑ **وأمَّا المُقَيَّدُ بالنِّسْبَةِ**: كَقَولِهِم: رَبَّانيٌّ.

والرَّبَّانيُّ: الرَّاسِخُ في العِلْمِ، أو الَّذِي يَطْلُبُ بعِلْمِهِ وَجْهَ الله.

والرَّبَّانيُّ العَالمُ المُعَلِّمُ الَّذِي يَغْذُو النَّاسَ بصِغَارِ العِلْمِ قَبْلَ كِبَارِهَا، والمُرَادُ بصِغَارِ العِلْمِ مَا وَضَحَ مِنْ مَسَائِلِهِ، وبكِبَارِهِ مَا دَقَّ مِنْهَا[١].

ومِنْهُ قَوْلُهُ تَعَالىٰ: ﴿مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُؤْتِيَهُ ٱللَّهُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا۟ عِبَادًا لِّى مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَٰكِن كُونُوا۟ رَبَّٰنِيِّۦنَ بِمَا كُنتُمْ تُعَلِّمُونَ ٱلْكِتَٰبَ وَبِمَا كُنتُمْ تَدْرُسُونَ﴾ [آل عمران: ٧٩]، وقَالَ ابنُ عَبَّاسٍ وغَيْرُ وَاحِدٍ مِنَ السَّلَفِ: أيْ حُكَماءُ، عُلَماءُ فُقَهاءُ[٢].

* * *

وقِيْلَ الرَّبَّانيُّ في اللُّغَةِ: الرَّفِيْعُ الدَّرَجَةِ في العِلْمِ، وعلىٰ ذَلِكَ حُمِلَ قَوْلُهُ تَعَالىٰ: ﴿وَلَٰكِن كُونُوا۟ رَبَّٰنِيِّۦنَ بِمَا كُنتُمْ تُعَلِّمُونَ ٱلْكِتَٰبَ وَبِمَا كُنتُمْ تَدْرُسُونَ﴾ [آل عمران: ٧٩]، قَالَ ابنُ الأعْرَابيِّ: إذَا كَانَ الرَّجُلُ عَالمًا عَامِلًا مُعَلِّمًا، قِيْلَ لَهُ هَذَا رَبَّانيٌّ، وهُوَ مَنْسُوْبٌ إلىٰ الرَّبِّ، والألِفُ والنُّوْنُ زِيْدَتَا للمُبَالَغَةِ وفي النَّسَبِ، كاللِّحْيَانيِّ، وقِيْلَ: إلىٰ رُبَّانِ السَّفِيْنَةِ. انْتَهىٰ.

والصَّحِيْحُ أنَّه مَنْسُوْبٌ إلىٰ رُبَّانِ السَّفِيْنَةِ، وهَذَا مَا رَجَّحَهُ ابنُ تَيْمِيَّةَ رَحِمَهُ ٱللَّهُ في كَلامٍ نَفِيْسٍ مَتِيْنٍ قَدْ أتَىٰ علىٰ مَعْنَىٰ (التَّرْبِيَةِ) وذَلِكَ بقَوْلِهِ في «مَجْمُوعِ الفَتَاوَىٰ» (١/ ٦١): «وهَذَا أصَحُّ، فَإنَّ الأصْلَ عَدَمُ الزِّيَادَةِ في النِّسْبَةِ،

---

(١) «فَتْحُ البَارِي» لابنِ حَجَرٍ (١/ ١٦٢).

(٢) انْظُرْ: «جَامِعَ البَيَانِ» لابنِ جَرِيْرٍ الطَّبَريِّ (٥/ ٥٢٦-٥٢٩)، و«تَفْسِيرَ القُرْآنِ العَظِيمِ» لابنِ كَثِيرٍ (١/ ٣٨٥).

لأَنَّهُم مَنْسُوْبُوْنَ إِلىٰ التَّرْبِيَةِ وهَذِهِ تَخْتَصُّ بِهِم، وأمَّا نِسْبَتُهُم إِلىٰ الرَّبِّ فَلا اخْتِصَاصَ لهُم بذَلِكَ، بَلْ كُلُّ عَبْدٍ لَهُ فَهُوَ مَنْسُوْبٌ إِلَيْهِ، إِمَّا نِسْبَةَ عُمُوْمٍ أو خُصُوْصٍ، ولم يُسَمِّ الله أَوْلِيَاءَهُ المُتَّقِيْنَ: رَبَّانِيِّيْنَ، ولا سَمَّىٰ بِهِ رُسُلَهُ وأَنْبِيَاءَهُ، فإِنَّ الرَّبَّانِيَّ مَنْ يُرَبُّ النَّاسَ كَما يُرَبُّ الرَّبَّانِيُّ السَّفِيْنَةَ، ولهَذَا كَانَ الرَّبَّانِيُّوْنَ يُذَمُّوْنَ تَارَةً ويُمْدَحُوْنَ أُخْرَىٰ، ولَوْ كَانُوا مَنْسُوْبِيْنَ إِلىٰ الرَّبِّ لم يُذَمُّوا قَطُّ، وهَذَا هُوَ الوَجْهُ الثَّامِنُ.

إِنَّها إِنْ جُعِلَتْ مَدْحًا فَقَدْ ذُمُّوا في مَوَاضِعَ، وإِنْ لم تَكُنْ مَدْحًا لم يَكُنْ لهُم خَاصَّةٌ يَمْتَازُوْنَ بِها مِنْ جِهَةِ المَدْحِ، وإِذَا كَانَ مَنْسُوْبًا إِلىٰ رَبَّاني السَّفِيْنَةِ بَطَلَ قَوْلُ مَنْ يَجْعَلُ الرَّبَّانِيَّ مَنْسُوْبًا إِلىٰ الرَّبِّ، فَنِسْبَةُ الرِّبِّيِّيْنَ إِلىٰ الرَّبِّ أَوْلىٰ بالبُطْلانِ.

(كَما) أنَّه إِذَا قُدِّرَ أَنَّهم مَنْسُوْبُوْنَ إِلىٰ الرَّبِّ فَلا تَدُلُّ النِّسْبَةُ علىٰ أَنَّهم عُلَماءُ، نَعَمْ تَدُلُّ علىٰ إِيْمَانٍ وعِبَادَةٍ وتَأَلُّهٍ، وهَذَا يَعُمُّ جَمِيْعَ المُؤمِنِيْنَ، فَكُلُّ مَنْ عَبَدَ الله وَحْدَهَ لا يُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا: فَهُوَ مُتَأَلِّهٌ عَارِفٌ بالله، والصَّحَابَةُ كُلُّهُم كَذَلِكَ ولم يُسَمَّوْا رَبَّانِيِّيْنَ ولا رِبِّيُّوْنَ وإِنَّما جاءَ أَنَّ ابنَ الحَنَفِيَّةِ قَالَ لما مَاتَ ابنُ عَبَّاسٍ: اليَوْمَ مَاتَ رَبَّانِيُّ هَذِه الأُمَّةِ، وذَلِكَ لِكَوْنِهِ يُؤَدِّبُهُم بِما آتَاهُ الله مِنَ العِلْمِ، والخُلَفَاءُ أَفْضَلُ مِنْهُم ولم يُسَمَّوْا رَبَّانِيِّيْنَ وإِنْ كَانُوا هُمْ الرَّبَّانِيِّيْنَ.

وقَالَ إِبْرَاهِيْمُ: كَانَ عَلْقَمَةُ مِنَ الرَّبَّانِيِّيْنَ، ولهَذَا قَالَ مُجَاهِدٌ: هُمُ الَّذِيْنَ يُرَبُّوْنَ النَّاسَ بِصِغَارِ العِلْمِ قَبْلَ كِبَارِهِ فَهُم أَهْلُ الأَمْرِ والنَّهْيِ، والإِخْبَارِيُّ يَدْخُلُ فِيْهِ مَنْ أَخْبَرَ بالعِلْمِ ورَوَاهُ عَنْ غَيْرِهِ وحَدَّثَ بِهِ، وإِنْ لم يَأْمُرْ أو يَنْهَ،

وذَلِكَ هُوَ المَنْقُوْلُ عَنِ السَّلَفِ في الرَّبَّانيِّ.

نُقِلَ عَنْ عَليٍّ قَالَ: هُمُ الَّذِيْنَ يُغَذُّوْنَ النَّاسَ بالحِكْمَةِ، ويُرَبُّوْنَهُم عَلَيْهَا، وعَنِ ابنِ عَبَّاسٍ قَالَ: هُمُ الفُقَهَاءُ المُعَلِّمُوْنَ، قُلْتُ: أَهْلُ الأمْرِ والنَّهْي، هُمُ الفُقَهَاءُ المُعَلِّمُوْنَ.

وقَالَ قَتَادَةُ وعَطَاءٌ: هُمُ الفُقَهَاءُ العُلَمَاءُ الحُكَمَاءُ، قَالَ ابنُ قُتَيْبَةَ: وَاحِدُهُم رَبَّانيٌّ، وهُمُ العُلَماءُ المُعَلِّمُوْنَ، قَالَ أبو عُبَيْدٍ: أحْسِبُ الكَلِمَةَ عِبْرانِيَّةً أو سُرْيَانِيَّةً، وذَلِكَ أنَّ أبَا عُبَيْدٍ زَعَمَ أنَّ العَرَبَ لا تَعْرِفُ الرَّبَّانِيِّيْنَ، قُلْتُ: اللَّفْظَةُ عَرَبِيَّةٌ مَنْسُوْبَةٌ إلىٰ رُبَّانِ السَّفِيْنَةِ الَّذِي يُنَزِّلُها ويَقُوْمُ لمَصْلَحَتِهَا، ولكِنَّ العَرَبَ في جَاهِلِيَّتِهِم لم يَكُنْ لهُم رَبَّانِيُّوْنَ لأنَّهم لم يَكُوْنُوا علىٰ شَرِيْعَةٍ مُنَزَّلَةٍ مِنَ الله ﷻ» انْتَهىٰ.

* * *

❑ ومِنْ خِلالِ كَلامِ ابنِ تَيْمِيَّةَ ﵀ وغَيْرِهِ مِنْ عُلماءِ السَّلَفِ، نَسْتَفِيْدُ ما يَلي:

أوَّلًا: أنَّ كَلِمَةَ (التَّرْبِيَةِ) مُشْتَقَّةٌ مِنْ رُبَّانِ السَّفِيْنَةِ لا مِنَ الرَّبِّ، كَما ظَنَّهُ بَعْضُ أرْبَابِ (الفِكْرِ التَّرْبَويِّ)؛ لأنَّ الأصْلَ عَدَمُ الزِّيَادَةِ في النِّسْبَةِ، لأنَّهُم مَنْسُوْبُوْنَ إلىٰ التَّرْبِيَةِ وهَذِهِ تَخْتَصُّ بِهِم، وأمَّا نِسْبَتُهُم إلىٰ الرَّبِّ فَلا اخْتِصَاصَ لهُم بذَلِكَ، بَلْ كُلُّ عَبْدٍ لَهُ فَهُوَ مَنْسُوْبٌ إلَيْهِ، إمَّا نِسْبَةَ عُمُوْمٍ أو خُصُوْصٍ.

ولَوْ قُدِّرَ أنَّهم مَنْسُوْبُوْنَ إلىٰ الرَّبِّ فَلا تَدُلُّ النِّسْبَةُ علىٰ أنَّهم عُلَماءُ، نَعَمْ

تَدُلُّ علىٰ إيْمَانٍ وعِبَادَةٍ وتَألُّهٍ، وهَذَا يَعُمُّ جَمِيْعَ المُؤمِنِيْنَ، فَكُلُّ مَنْ عَبَدَ الله وَحْدَهَ لا يُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا: فَهُوَ مُتَألِّهٌ عَارِفٌ بالله، والصَّحَابَةُ كُلُّهُم كَذَلِكَ.

ثَانِيًا: أنَّ كَلِمَةَ (الرَّبَّاني) لا تُذَمُّ ولا تَمْدَحُ في ذَاتِها، فَمِنَ (الرَّبَّانيِّ) مَا هُوَ حَقٌّ، ومِنْهَا مَا هُوَ بَاطِلٌ، ولهَذَا كَانَ الرَّبَّانِيُّوْنَ يُذَمُّوْنَ تَارَةً ويُمْدَحُوْنَ أخْرَىٰ، ولَوْ كَانُوا مَنْسُوْبِيْنَ إلىٰ الرَّبِّ لم يُذَمُّوا قَطُّ.

ثَالِثًا: أنَّ كَلِمَةَ (الرَّبَّانيِّ) لها مَعْنَيانِ: عَامٌّ وخَاصٌّ.

فالعَامُ: يَدْخُلُ فِيْهِ مَا هُوَ حَقٌّ، ومَا هُوَ بَاطِلٌ، ولهَذَا لا يُذَمُّ ولا يُمْدَحُ حَتَّىٰ يَتَمَيَّزَ بالتَّخْصِيْصِ والإضَافَةِ.

وأمَّا الخَاصُ: فيُطْلَقُ علىٰ أهْلِ العِلْمِ الرَّبَّانِيِّيْنَ الرَّاسِخِيْنَ العَامِلِيْنَ، لا علىٰ أهْلِ الفِكْرِ والتَّرْبِيَةِ والمُثَقَّفِيْنَ.

وهَذَا التَّخْصِيْصُ هُوَ مَا ذَكَرَهُ الله تَعَالىٰ في الثَّنَاءِ علىٰ الرَّبَّانِيِّيْنَ الَّذِيْنَ جَاءَ ذِكْرُهُم في الآيَةِ: وهُوَ أنَّهم يُعَلِّمُوْنَ النَّاسَ الكِتَابَ، ويَقُوْمُوْنَ بدِرَاسَتِهِ، فَكَانَ هَذَا القَيْدُ مُهمًّا جِدًّا، فَتَأمَّلْ.

رَابِعًا: أنَّ الله تَعالىٰ لم يُسَمِّ أنْبِيَاءَهُ أو أوْلِيَاءَهُ المُتَّقِيْنَ: رَبَّانِيِّيْنَ، ولا تَسَمَّىٰ بِهِ الخُلَفَاءُ الرَّاشِدُوْنَ، ولا أحَدٌ مِنَ سَلَفِ الأمَّةِ!

خَامِسًا: أنَّ كَلِمَةَ (التَّربيَةِ) أيْضًا لا تُذَمُّ ولا تَمْدَحُ في ذَاتِها، فَمِنَ (التَّربيَةِ) مَا هُوَ حَقٌّ، ومِنْهَا مَا هُوَ بَاطِلٌ، لِذَا لم يُسَمِّ الله جُهُوْدَ أنْبِيَائِهِ وأوْلِيَائِهِ المُتَّقِيْنَ في عِلْمِهِم وعَمَلِهِم وجِهَادِهِم: (تَرْبِيَةً)، وكَذَا لم يُسَمِّ

عُلَماءُ السَّلَفِ و أئِمَّةُ المُسْلِمِيْنَ كُتُبَهُم ومُصَنَّفاتِهِم بِشَيءٍ مِنَ (التَّربِيَةِ)!

سَادِسًا: أنَّ كَلِمَةَ (التَّربِيَةِ) إذَا قُلْنَا (جدَلًا) أنَّها مُشْتَقَّةٌ مِنَ الرَّبِّ، أيْ: بمَعْنَىٰ رَبَّاني: فَهِيَ حِيْنَئِذٍ مِنْ شَأنِ أهْلِ العِلْمِ الرَّبَّانِيِّيْنَ الرَّاسِخِيْنَ لا مِنْ شَأنِ أهْلِ الفِكْرِ والتَّرْبِيَةِ، كَما جَاءَ هذا المَعْنَىٰ عَنِ ابنِ الحَنَفِيَّةِ رَحِمَهُ اللهُ قَالَ لما مَاتَ ابنُ عَبَّاسٍ: اليَوْمَ مَاتَ رَبَّانِيُّ هَذِه الأمَّةِ، وذَلِكَ لِكَوْنِهِ يُؤَدِّبُهُم بِما آتاهُ الله مِنَ العِلْمِ، وقَالَ إبْرَاهِيْمُ: كَانَ عَلْقَمَةُ مِنَ الرَّبَّانِيِّيْنَ، ولهَذَا قَالَ مُجَاهِدٌ: هُمُ الَّذِيْنَ يُرَبُّوْنَ النَّاسَ بصِغَارِ العِلْمِ قَبْلَ كِبَارِهِ فَهُم أهْلُ الأمْرِ والنَّهْي، وذَلِكَ هُوَ المَنْقُوْلُ عَنِ السَّلَفِ في الرَّبَّانِيِّ . كُمَا نُقِلَ عَنْ عَليٍّ قَالَ: هُمُ الَّذِيْنَ يُغَذُّوْنَ النَّاسَ بالحِكْمَةِ، ويُرَبُّوْنَهُم عَلَيْهَا، وعَنِ ابنِ عَبَّاسٍ قَالَ: هُمُ الفُقَهَاءُ المُعَلِّمُوْنَ.

قَالَ ابنُ تَيْمِيَّةَ رَحِمَهُ اللهُ عَنْهُم: أهْلُ الأمْرِ والنَّهْي، هُمُ الفُقَهَاءُ المُعَلِّمُوْنَ.

وقَالَ قَتَادَةُ وعَطَاءٌ رَحِمَهُما الله: هُمُ الفُقَهَاءُ العُلَمَاءُ الحُكَمَاءُ، وقَالَ ابنُ قُتَيْبَةَ رَحِمَهُ اللهُ: وَاحِدُهُم رَبَّانِيٌّ، وهُمُ العُلَماءُ المُعَلِّمُوْنَ.

وهَذَا مَا ذَكَرَهُ ابنُ جَرِيْرٍ رَحِمَهُ اللهُ بِقَوْلِهِ في «جَامِعِ البَيَانِ» (٥/ ٥٣١): «فالرَّبَّانِيُّوْنَ إذًا هُمُ عِمَادُ النَّاسِ في الفِقْهِ والعِلْمِ وأمُوْرِ الدِّيْنِ والدُّنْيا، ولذَلِكَ قَالَ مُجَاهِدٌ: وهُمْ فَوْقَ الأحْبَارِ لأنَّ الأحْبَارَ هُمُ العُلَماءُ، والرَّبَّانِيُّ الجَامِعُ إلىٰ العِلْمِ والفِقْهِ: البَصَرَ بالسِّيَاسَةِ، والتَّدْبِيْرَ والقِيَامَ بأمُوْرِ الرَّعِيَّةِ ومَا يُصْلِحُهُم في دُنْيَاهُم ودِيْنِهِم» انْتَهَىٰ.

سَابِعًا: لَيْسَ مِنَ الصَّوَابِ نِسْبَةُ التَّربِيَةِ أو الرَّبَّانِيِّ: إلىٰ الرَّبِّ؛ لأنَّهُ

يُخَالِفُ الأدَبَ الإسْلامِيَّ في حَسْمِ كُلِّ لَفْظٍ أو طَرِيْقٍ يُوْهِمُ مَعْنىٰ بَاطِلًا، فَقَدْ نَهَىٰ النَّبِيُّ ﷺ عَنِ الانْتِسَابِ إلىٰ الرَّبِّ؛ حَيْثُ رَوَىٰ الشَّيْخَانِ عَنْ أبي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه، أنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «لا يَقُولَنَّ أحَدُكُم: أطْعِمْ رَبَّكَ، وضِئْ رَبَّكَ، ولْيَقُلْ سَيِّدِي ومَوْلايَ، ولا يَقُلْ أحَدُكُم: عَبْدِي وأمَتِي، ولْيَقُلْ: فَتَايَ وفَتَاتِي وغُلامِي».

فَهَذِهِ الألْفَاظُ وإنْ كَانَتْ تُطْلَقُ لُغَةً، فالنَّبِيُّ ﷺ نَهَىٰ عَنْهَا تَحْقِيْقًا للتَّوْحِيْدِ، وسَدًّا لذَرَائِعِ الشِّرْكِ، لمَا فِيْهَا مِنَ التَّشْرِيْكِ في الألْفَاظِ بَيْنَ الخَالِقِ والمَخْلُوْقِ!

ثَامِنًا: أنَّ كَلِمَةَ «التَّربِيَةِ»، في تَمَدُّدِهَا الوَاسِعِ هَذِهِ الأيَّامَ، لَيْسَ لَهَا أصْلٌ في كِتَابٍ أو سُنَّةٍ أو تَطْرِيْقِ السَّلَفِ وأئِمَّةِ الإسْلامِ، لِذَا لم تَكُنْ دَارِجَةً عِنْدَ سَلَفِنَا الصَّالِحِ، ولم تُسَمَّ بِهِ كُتُبُهُم ومُصَنَّفَاتُهُم!

* * *

❏ فَعِنْدَئِذٍ كَانَ مِنَ الخَطأ البَيِّنِ؛ أنْ نُطْلِقَ كَلِمَةَ (التَّربِيَةِ) فِيْمَا نَأتِي ونَذَرُ، دُوْنَ اعْتِبَارٍ للاسْتِعْمالاتِ اللُّغَوِيَّةِ مِنْ إطْلاقٍ أو تَقْيِيْدٍ، ومَنْ نَظَرَ في اسْتِعْمالاتِ كَلِمَةِ (التَّربِيَةِ) عِنْدَ الإطْلاقِ سَوَاءٌ كَانَتْ: في المَعَاجِمِ اللُّغَوِيَّةِ أو غَيْرِهَا مِنْ كُتُبِ السَّلَفِ يَجِدُهَا تَدُوْرُ حَوْلَ: تَرْبِيَةِ الصَّغِيرِ وصَلاحِهِ والقِيَامِ بأمْرِهِ حَتَّىٰ التَّمامِ والكَمالِ، كَما هُوَ ظَاهِرُ اللُّغَةِ وكُتُبِ السَّلَفِ.

لِذَا كَانَ مِنَ الخَطَأ أيْضًا أنْ يَجُرَّ أنْصَارُ (الفِكْرِ التَّرْبَويِّ) هَذِهِ الكَلِمَةَ في اسْتِعْمالاتِهِم وخِطَابَاتِهِم علىٰ تَعْلِيْمِ الكَبِيْرِ، بحَيْثُ تَكُوْنَ سِمَةً ظَاهِرَةً،

وإطْلاقًا عَامًا دُوْنَ التَّقيُّدِ باسْتِعْمالاتِ اللُّغَةِ والسَّلَفِ لهَا، فَفِي هَذَا الصَّنِيْعِ قَلْبٌ لاسْتِعْمالِ اللّغَةِ العَربِيَّةِ، ومُنَاكَدَةٌ للسَّلَفِ في اسْتِعْمالاتِهِم لهَذِهِ الكَلِمَةِ.

ومَا هَذَا مِنْهُم (هَدَاهُمُ الله) إلَّا أنَّ الانْهِزَامَ أخَذَ ببَعْضِهِم في بُنَيَّاتِ طَرِيْقِ الاسْتِعْمالِ الغَرْبيِّ الوَافِدِ، حَيْثُ إنَّ كَلِمَةَ (التَّربِيَةِ) اليَوْمَ لم تَأْخُذْ سَبِيْلَهَا في هَذَا التَّوسُّعِ والبَعْثِ إلَّا علىٰ أيْدِي رِجَالِ الغَرْبِ، ثُمَّ لاكَهَا بَعْضُ أنْصَارِ (الفِكْرِ التَّرْبَويِّ) مِنْ خِلالِ التَّصابُبِ علىٰ مَزَالِقِ التَّرْجماتِ الَّتِي لم تَأتِ الأمَّةَ إلَّا في جُنْحِ الظَّلامِ عَنْ غرَّةٍ مِنْ عُلَمائِهَا وحُمَاتِهَا.

ومَا هَذِهِ التَّرْجَمَاتُ الَّتِي تُحَاكُ علىٰ أيْدِي أنْصارِ (الفِكْرِ التَّرْبَويِّ) اليَوْمَ إلَّا هَجْمَةً كَاسِرَةً علىٰ تُرَاثِ الأمَّةِ، ومِنْ وَرَائِهَا تَسْوِيْقًا وتَسوُّلًا للانْهِزَامِ النَّفْسِي عِنْدِ بَعْضِ هؤلاءِ (المُربِّيْنَ) في فِكْرِ وثَقَافَةِ أبْنَاءِ المُسْلِمِيْنَ اليَوْمَ!

* * *

❑ **أمَّا مَعْنَىٰ (التَّرْبِيَةِ) اصْطِلاحًا**: فَقَدْ أخذَتْ مَعانٍ مُتَغايِرةً عِنْدَ أصْحَابِ الاصْطِلاحِ اليَوْمَ، حَيْثُ اخْتَلَفَتْ كَلِمَتُهُم في تَعْرِيْفِهَا وتَحْدِيْدِهَا.

ومِنْ أسَفٍ؛ أنَّ كَلِمَةَ (التَّرْبِيَةِ) مَا ظَنَّتْ يَوْمًا أنَّها سَوْف تُبعَثُ بَعْثًا لا خَلاقَ لهَا بِهِ، مُنْذُ كَانَتْ غَادَةً طَرِيَّةً في خِدْرِ مَعَاجِمِ اللُّغَةِ، لا يُخرِجُهَا إلَّا ألْسِنَةُ أهْلِهَا تَحْتَ جِلْبَابِ الصَّوْنِ والغَيْرَةِ حَتَّىٰ إذَا غُلِبَتْ علىٰ أمْرِهَا؛ سَلَبَتْهَا أيْدِي رِجَالِ الغَرْبِ فَعرَّوْهَا مِنْ كُلِّ مَا لهَا مِنْ مَعْنًىٰ علىٰ غِرَّةٍ مِنْ حُمَاتِها وضَعْفٍ في أهْلِهَا، فَحِيْنَئِذٍ أصْبحَ الظَّنُّ عِنْدَهَا يَقِيْنًا.

وهَكَذَا بَقِيَتْ تُلاكُ علىٰ ألْسِنَةِ المُسْتَشْرِقِيْنَ والمُسْتَغْرِبِيْنَ العَرَبِ سِنِيْنَ عَدَدًا؛ حَتَّىٰ إذَا جَاءَ أنْصَارُ (الفِكْرِ التَّرْبَوِيِّ) علىٰ اسْتِحْيَاءٍ ووَجَلٍ أخَذُوْهَا مُشَوَّهَةً في لَفظِهَا ومَعْنَاهَا، ثُمَّ ألْبَسُوْهَا ثِيَابَ التَّرْجَمَةِ والتَّغْرِيْبِ، فَتَغَرَّبَتْ عَنْ مَعْنَاهَا وتَعَرَّتْ مِنْ مَبْنَاهَا، فَطَالَ ثَوْبُها وتَنَاثَرَ عِقْدُهَا، وفُضَّتْ بَكَارَتُها مُسْتَكْرَهَةً في سَاحَاتِ (الفِكْرِ التَّرْبَوِيِّ) يَوْمَ حَمَّلُوْهَا مَا لا طَاقَةَ لهَا بِهِ، علىٰ أيْدِي أدْعِيَاءِ (التَّرْبِيَةِ)، كَما سَيَأتي ذِكْرُهُ إنْ شَاءَ الله.

* * *

لأجْلِ هَذَا؛ فَقَدْ تَقَاسَمَ أهْلُ الاصْطِلاحِ أمْرَهُم زُبُرًا في مَعْنَىٰ (التَّرْبِيَةِ) فَكَانُوا فَرِيْقَيْنِ: (المُتَقَدِّمِيْنَ، والمُتَأخِّرِيْنَ).

❑ فأمَّا المُتَقَدِّمُوْنَ: فَقَدْ عَرَّفُوا (التَّرْبِيَة) بتَعَارِيْفَ مُتَقَارِبَةٍ، لم تَخْرُجْ في جُمْلَتِهَا عَنْ جَادَّةِ اللُّغَةِ، وكَلامِ السَّلَفِ، وأهْلِ العَقْلِ مِنْ دُعَاةِ (التَّرْبِيَةِ).

قَالَ البَيْضَاوِيُّ رَحِمَهُ اللهُ في تَفْسِيْرِهِ «أنْوَارِ التَّنْزِيْلِ» (١/ ٨): «الرَّبُّ في الأصْلِ بمَعْنَىٰ التَّرْبِيَةِ، وهِيَ تَبْلِيْغُ الشَّيءَ إلىٰ كَمَالِهِ شَيْئًا فَشَيْئًا».

وقَالَ الرَّاغِبُ الأصْفَهانيُّ رَحِمَهُ اللهُ في غَرِيْبِهِ «المُفْرَدَاتِ» (١٨٤): «الرَّبُّ في الأصْلِ التَّرْبِيَةُ، وهُوَ إنْشَاءُ حَالًا فحَالًا إلىٰ حَدِّ التَّمامِ».

❑ ومِنْ خِلالِ هَذِه التَّعَارِيْفِ نَجِدُ أنَّ (التَّرْبِيَة) في مَعْنَاهَا لم تَخْرُجْ عَنْ كَوْنِها: تَرْبِيةً تَدُوْرُ حَوْلَ تَعْلِيْمِ وتَوْجِيْهِ الطِّفْلِ والصَّغِيرِ شَيْئًا فشَيْئًا إلىٰ حَدِّ الكَمَالِ والتَّمامِ.

وهَذَا التَّعْرِيْفُ هُوَ المَعْرُوْفُ عِنْدَ عُقَلاءِ الغَرْبِ وأنْصَارِ (الفِكْرِ التَّرْبَوِيِّ)

اليَوْمَ فَلَمْ يَكُنْ لهم تَعْرِيْفٌ سِوَاهُ، خِلافًا للمُحْدَثِيْنَ اليَوْمَ، كَما سَيأتي بَيَانُهُ إنْ شَاءَ الله.

جَاء في «المُعْجَمِ الفَلْسَفِيِّ» لجمِيْلِ صَلِيبا (١/ ٢٦٦): «التَّربِيَةُ هِيَ تَبْلِيْغُ الشَّيءَ إلىٰ كَمالِهِ، أو هِيَ كَما يَقُوْلُ المُحْدَثُوْنَ: تَنْمِيَةُ الوَظَائِفِ النَّفْسِيَّةِ بالتَّمْرِيْنِ حَتَّىٰ تَبْلُغَ كَمالها شَيْئًا فشَيْئًا، تَقُوْلُ: رَبَّيْتُ الوَلَدَ، إذَا قَوِيَتْ مَلَكَتُهُ، ونَمِيَتْ قُدُرَاتُهُ إذَا أحْكَمَتْهُ التَّجَارُبُ ونَشَأ نَفْسَهُ بنَفْسِهِ.

ومِنْ شُرُوْطِ التَّرْبِيَةِ الصَّحِيْحَةِ أنْ تُنَمِّي شَخْصِيَةَ الطِّفْلِ مِنَ النَّاحِيَةِ الجِسْمِيَّةِ والعَقْلِيَّةِ والخُلُقِيَّةِ حَتَّىٰ يُصْبحَ قَادِرًا علىٰ مُؤَالَفَةِ الطَّبِيْعَةِ: يُجَاوِزُ ذَاته ويَعْمَلُ علىٰ إسْعَادِ نَفْسِهِ، وإسْعَادِ النَّاسِ، وتُعَدُّ التَّرْبِيَةُ ظَاهِرَةٌ اجْتِمَاعِيَّةٌ تَخْضَعُ لما تَخْضَعُ لَهُ الظَّوَاهِرُ الأخْرَىٰ في نُمُوِّهَا وتَطَوُّرِهَا».

أمَّا قَوْلُهُ: «وتُعَدُّ التَّرْبِيَةُ ظَاهِرَةٌ اجْتِمَاعِيَّةٌ . . . إلخ»، فَهُوَ كَلامٌ بَاطِلٌ، بَلِ التَّرْبِيَةُ تَخْضَعُ في نُمُوِّهَا للشَّرِيْعَةِ الإسْلامِيَّةِ أمْرًا ونَهْيًا، فَتَأمَّلْ!

وتَرَىٰ المُرَبِّيَةُ الإيْطَالِيَّةُ (مِنْتَسُوْرِي): «أنَّ التَّرْبِيَةَ هِيَ التَّنْمِيَةُ لأنَّ: «الطِّفْلَ جِسْمٌ يَنْمُو ورُوْحٌ تَنْمُو»[1].

أمَّا المُرَبِّي الفَرَنْسِي المُعَاصِرِ (رُوْنِيْه أوْبِيْر) فَيَقُوْلُ في كِتَابِه «التَّربِيَةِ العَامَّةِ» (٢٧): «التَّرْبِيَةُ: جُمْلَةُ الأفْعَالِ والآثَارِ الَّتِي يُحْدِثُهَا بإرَادَتِه كَائِنٌ إنْسَانيٌّ في كَائِنٍ إنْسَانيٍّ آخَرَ، وفي الغَالِبِ رَاشِدٌ في صَغِيرٍ، والَّتِي تَتَّجِهُ نَحْوَ

(١) «الاتِّجاهَاتُ الحَدِيثَةُ في التَّربِيَةِ» لمحَمَّدِ بنِ عَطِيَّةَ الإبْرَاشِيِّ (٩٥).

غَايَةٍ قِوَامِهَا أن تُكَوِّنَ لَدَىٰ الكَائِنِ الصَّغِيرِ اسْتِعْدَادَاتٍ مُنَوَّعَةً تُقَابِلُ الغَايَاتِ الَّتِي يُعَدُّ لها حِيْنَ يَبْلُغَ طَوْرَ النُّضْجِ».

ولْيَعْلَمَنَّ كُلُّ مُسْلِمٍ أنَّني لم أَمُدَّ يَدِي هُنَا إلىٰ ذِكْرِ شيءٍ مِنَ الكُتَّابِ الغَرْبِيِّيْنَ، ونَقْلِ تَعَارِيْفِهِم للتَّرْبِيَةِ إلَّا لتَطْمَئِنَّ أفْئِدَةُ بَعْضِ أنْصَارِ (التَّرْبِيَةِ) الَّذِيْنَ قَدْ يَسْتَأْنِسُوْنَ بِما يَقُوْلُهُ غَرَابِيْبُ الغَرْبِ، وشَقَاشِقُ الشَّرْقِ التَّرْبَوِيِّيْنَ، أمَّا نَحْنُ (المُسْلِمِيْنَ) فَلا نَرْضَىٰ في تَعْرِيْفِ (التَّرْبِيَةِ) إلَّا مَا ذَكَرَهُ أئِمَّتُنَا وعُلَماؤنَا لَيْسَ إلاَّ، لأنَّ فِيْهَا الكِفَايَةَ والوَفَايَةَ، كما أنَّا ولله الحَمْدُ لم نَضْطَرْ لأكْلِ جِيْفَةِ الأفْكَارِ الغَرْبِيَّةِ!

* * *

☐ كَما أنَّنا نَجِدُ تَعْرِيْفِ (التَّرْبِيَةِ) عِنْدَ عُلَماءِ الإسْلامِ وأئِمَّةِ الدِّيْنِ لم يَخْرُجْ عَنِ الجَادَّةِ والسَّدَادِ، ومَا كَانَتِ اسْتِعْمالاتُهُم لكَلِمَةِ (التَّرْبِيَةِ) إلَّا في أضْيَقِ الحُدُوْدِ، وذَلِكَ عِنْدَمَا يَتَحَدَّثُوْنَ: عَنْ تَرْبِيَةِ الطِّفْلِ والصَّغِيْرِ وتَعْلِيْمِهِ . . . فَلَمْ تَكُنْ كَلِمَةُ (التَّرْبِيَةِ) عِنْدَهُم إلَّا في مَدَارِكِ الطِّفْلِ، وفَلَكِهِ لَيْسَ إلَّا!

أمَّا إذَا سَألْتَ عَنْ جُلِّ حَدِيْثِ السَّلَفِ، وعَنْ عُمُوْمِ كَلامِهِم وعَنْ كَبِيْرِ هَمِّهِم: فَهُوَ الحَدِيْثُ عَنِ العِلْمِ، وعَنْ آدَابِهِ، ومَنَاهِجِهِ، وطَرَائِقِهِ، وشُرُوْطِهِ، وغَوَائِلِهِ، وفِيْهِ قَامَتْ سُوْقُ التَّألِيْفِ والتَّصْنِيْفِ؛ فَخُذْ مَثَلًا: «جَامِعَ بَيَانِ العِلْمِ وفَضْلِه» لابنِ عَبْدِ البرِّ، و«الجامِعَ لآدَابِ الرَّاوي» و«الفَقِيْهَ والمُتَفَقِّهَ» كِلاهُمَا للخَطِيْبِ البَغْدَادِيِّ، و«أخْلاقَ العُلَماءِ» للآجُرِّي، و«تَذْكِرَةَ السَّامِعِ والمُتَكَلِّمِ» لابنِ جَماعَةَ، و«تَعْلِيْمَ المُتَعَلِّمِ

طَرِيْقَ التَّعَلُّمِ» للزَّرْنُوْجِيِّ، وغَيْرَهَا كَثِيْرٌ.

فَعِنْدَ هَذَا؛ لم تَأخُذْ كَلِمَةُ (التَّرْبِيَةِ) مَسَاحَةً كَبِيْرَةً سَوَاءٌ في مَقَالاتِهِم أو كِتَابَاتِهِم، وحَتَّىٰ سَاعَتِي هَذِهِ لم أجِدْ لأحَدٍ مِنْ عُلَماءِ السَّلَفِ: كَلِمَةً وَاحِدَةً عَنْ كَلِمَةِ (التَّرْبِيَةِ) بالمَعْنَىٰ الَّذِي طَارَ وذَاعَ عِنْدَ أرْبَابِ (الفِكْرِ التَّرْبَويِّ) اليَوْمَ، إلَّا كَلِمَةً أو كَلِمَتَيْنِ تَجِدُهَا هُنَا وهُنَاكَ في غَيْرِ سِلْكٍ يَنْظِمُهَا، ولا بَابٍ يَضُمُّهَا، كَما أنَّني إلىٰ سَاعَتِي هَذِهِ لا أعْلَمُ أحَدًا مِنْ عُلَماءِ السَّلَفِ ألَّفَ أو صَنَّفَ كِتَابًا أو رِسَالةً عَنِ (التَّرْبِيَةِ)، ولا أعْلَمُهُم ضَمَّنُوْهَا عِنْوَانًا لمُصَنَّفَاتِهِم!

* * *

وهَذَا ابنُ القَيِّمِ رَحِمَهُ اللهُ الَّذِي يُعَدُّ اليَوْمَ تَرْبَوِيًّا عِنْدَ أنْصَارِ (الفِكْرِ التَّرْبَويِّ)، لم تُذْكَرْ كَلِمَةُ (التَّرْبِيَةِ) في مَجْمُوْعِ كُتُبِهِ كُلِّهَا، إلَّا مَرَّتَيْنِ أو ثَلاثَةٍ، وذَلِكَ عِنْدَ كَلامِهِ عَنْ تَعْلِيْمِ وتَوْجِيْهِ الأطْفَالِ والصِّغَارِ، بِغَضِّ النَّظَرِ عَنْ كِتَابِهِ «تُحْفَةِ المَوْدُوْدِ» فَهَذَا كِتَابٌ ألَّفَهُ رَأسًا في آدَابِ المَوْلُوْدِ وتَعْلِيْمِهِ، وأحْكَامِهِ، لا آدَابِ طُلَّابِ العِلْمِ وأحْكَامِهِم، كَما يَظُنُّ التَّرْبَوِيُّوْنَ اليَوْمَ.

يَقُوْلُ ابنُ القَيِّمِ رَحِمَهُ اللهُ في كِتَابِهِ «تُحْفَةِ المَوْدُوْدِ» (٢٤٠): «ومِمَّا يَحْتَاجُ إلَيْهِ الطِّفْلُ غَايَةَ الاحْتِيَاجِ الاعْتِنَاءَ بأمْرِ خُلُقِهِ، فإنَّه يَنْشَأ علىٰ مَا عَوَّدَهُ المُرَبِّي في صِغَرِهِ مِنْ حَرْدٍ وغَضَبٍ ولجَاجٍ وعَجَلَةٍ، وخِفَّةٍ مَعَ هَوَاهُ، وطَيْشٍ وحِدَّةٍ وجَشَعٍ فَيَصْعُبُ عَلَيْهِ في كِبَرِهِ تَلافي ذَلِكَ، وتَصِيْرُ هَذِه الأخْلاقُ صِفَاتٍ وهَيْئَاتٍ رَاسِخَةً، فَلَوْ تَحَرَّزَ مِنْهَا غَايَةَ التَّحَرُّزِ فَضَحَتْهُ، ولا بُدَّ يَوْمًا مَّا،

ولهَذَا تَجِدُ أكْثَرَ النَّاسِ مُنْحَرِفَةً أخْلاقُهُم، وذَلِكَ مِنْ قِبَلِ التَّرْبِيَةِ الَّتِي نَشَؤُوا عَلَيْهَا».

ويَقُوْلُ أيْضًا في كِتَابِهِ «مِفْتَاحِ دَارِ السَّعَادَةِ» (١/ ٦٦): «فَإنَّ أرْوَاحَ البَشَرِ بالنِّسْبَةِ إلىٰ الأنْبِيَاءِ والرُّسُلِ كالأطْفَالِ بالنِّسْبَةِ إلىٰ آبَائِهِم، بَلْ دُوْنَ هَذِه النِّسْبَةِ بكَثِيرٍ».

وقَالَ أيْضًا عِنْدَ شَرْحِهِ علىٰ حَدِيْثِ: «**العُلَماءُ وَرَثَةُ الأنْبِيَاءِ . . .**»: «وفِيْهِ أيْضًا تَنْبِيْهٌ لأهْلِ العِلْمِ علىٰ تَرْبِيَةِ الأمَّةِ كَما يُرَبِّي الوَالِدُ وَلَدَهُ» انتهىٰ.

وكَذَا نَجِدُ أيْضًا الغَزَالِيَّ رَحِمَهُ اللَّهُ وهُوَ ممَّن اتَّخَذَهُ أنْصَارُ (الفِكْرِ التَّرْبَويِّ) رَمْزًا تَرْبَوِيًّا؛ لم تَرِدْ كَلِمَةُ (التَّرْبِيَةِ) عِنْدَهُ رَأسًا إلَّا في نَزرٍ قَلِيْلٍ مِنْ مَجْمُوْعِ كُتُبِهِ، لاسِيَّما عِنْدَ الحَدِيْثِ عَنْ تَعْلِيْمِ الطِّفْلِ، وقِسْ علىٰ ذَلِكَ: عِنْدَ ابنِ خُلْدُوْنَ، وابنِ سُحْنُوْنَ، وابنِ تَيْمِيَّةَ، والذَّهَبِيِّ، وابنِ رَجَبٍ في غَيْرِهِم مِنْ عُلَماءِ السَّلَفِ، بَلْ هُنَاكَ كَثِيرٌ مِنْ عُلَماءِ الأمَّةِ سَلَفًا وخَلَفًا لم تُذْكَرْ كَلِمَةُ (التَّرْبِيَةِ) عِنْدَهُم قَطْعًا، ولم تَكُنْ علىٰ ألْسِنَتِهِم، ولا عَرَفُوْهَا يَوْمًا مِنَ الأيَّامِ العِلْمِيَّةِ الَّتِي قَضَوْهَا في رِيَاضِ العِلْمِ ومَجَالِسِ التَّعْلِيْمِ، بَلْ لم يَكُنْ يَعْرِفُوْنَ: إلَّا العِلْمَ والتَّعَلُّمَ، والأدَبَ والتَّأدِيْبَ، والتَّوْجِيْهَ وغَيْرَهُ.

فَأيْنَ إذًا هَذَا الضَّجِيْجُ الَّذِي يَذْكُرُهُ أنْصَارُ (الفِكْرِ التَّرْبَويِّ) اليَوْمَ عَنْ أهَمِّيَّةِ (التَّرْبِيَةِ)؟ وكَيْفَ بِهِم وهُم في تَنْقِيبِهِم وتَقْلِيبِهِم لكُتُبِ السَّلَفِ عَسَاهُم يَجِدُوْنَ مَا يَتَمَسَّكُوْنَ بِهِ مِنْ نَثَائِرِ الكَلامِ هُنَا وهُنَاكَ في تَعْزِيْزِ وتَأيِيْدِ هَذِهِ الظَّاهِرَةِ اللَّائِكَةِ باسْمِ: (التَّرْبِيَةِ)؟!

والحَالَةُ هَذِه؛ نَعْلَمُ الخَطِيئَةَ الَّتِي يَتَعالَنُ بِها بَعْضُ دُعاةِ (التَّرْبِيَةِ) اليَوْمَ، حَيْثُ نَرَاهُم لا يَأْلُوْنَ جُهْدًا في أَطارِيْحِهِمُ الجَامِعِيَّةِ العِلْمِيَّةِ تَحْتَ عَناوِيْنَ مُرْتَجلَةٍ، مِنْ خِلالِ كُتُبِهِم ورَسَائِلِهِم وخِطَابَاتِهِم ونَدَوَاتِهِم، وهَكَذَا حَتَّىٰ غَرَزُوا خَنْجَرَ الانْهِزَامِ والتَّغْرِيْبِ في ظَهْرِ تَارِيْخِ الأُمَّةِ العِلْمِيِّ، وذَلِكَ فِيْما يَكْتُبُوْنَ عَنِ (التَّرْبِيَةِ) عِنْدَ عُلَماءِ السَّلَفِ (زَعَمُوا!)، وهَلْ هَذِه العَنَاوِيْنُ عَنَّا بِبَعِيْدٍ؟!: «التَّرْبِيَةُ عِنْدَ ابنِ تَيْمِيَّةَ»، و«التَّرْبِيَةُ عِنْدَ ابنِ القَيِّمِ»، و«التَّرْبِيَةُ عِنْدَ الغَزَالِيِّ»، و«التَّرْبِيَةُ عِنْدَ ابنِ خُلْدُوْنَ»، و«التَّرْبِيَةُ عِنْدَ الذَّهَبِيِّ»، و«التَّرْبِيَةُ عِنْدَ ابنِ رَجَبٍ»، و«التَّرْبِيَةُ عِنْدَ الشَّاطِبِيِّ»، و«التَّرْبِيَةُ عِنْدَ ابنِ سَعْدِيٍّ»، و«التَّرْبِيَةُ عِنْدَ ابنِ بَازٍ» وغَيرِهِم مِنْ أَهْلِ العِلْمِ!

هَذَا إذَا عَلِمْنَا أَنَّ (التَّربِيَةَ) لم تَكُنْ عِنْدَ هَؤلاءِ العُلَماءِ أو غَيْرِهِم مِنْ أئِمَّةِ المُسْلِمِيْنَ إلَّا: تَرْبِيَةُ الأَطْفَالِ والصِّغَارِ!

* * *

❑ ومَهْما يَكُنْ، فالتَّرْبِيَةُ في الإسْلامِ سَوَاءٌ عِنْدَ ابنِ القَيِّمِ أو غَيْرِهِ مِنْ أَهْلِ العِلْمِ لها مَعْنَيَانِ لا ثَالِثَ لهُمَا، وذَلِكَ مِنْ خِلالِ اللُّغَةِ والاصْطِلاحِ، وهما: (تَرْبِيَةُ العِلْمِ، و تَرْبِيَةُ النَّاسِ).

❑ **المَعْنَىٰ الأَوَّلُ**: تَرْبِيَةُ العِلْمِ، وذَلِكَ بتَنْمِيَتِهِ بالازْدِيَادِ والتَّحْصِيْلِ والتَّفَقُّهِ والتَّعَلُّمِ ممَّا هُوَ شَأْنُ العُلَماءِ الرَّبَّانِيِّيْنَ وطُلَّابِ العِلْمِ النَّابِغِيْنَ.

وهَذَا المَعْنَىٰ يُسَمَّىٰ: بالعِلْمِ والتَّعَلُّمِ، والفِقْهِ والتَّفَقُّهِ، والتَّحْصِيْلِ والتَّأْوِيْلِ، والطَّلَبِ والمُلازَمَةِ... إلخ.

أمَّا أَصْحَابُ هَذَا المَعْنَىٰ فَيُسَمَّوْنَ: بالعُلَماءِ، وطُلَّابِ العِلْمِ، والفُقَهَاءِ،

وعُلَماءِ الإسْلامِ، وعُلَماءِ الشَّرِيْعَةِ، وعُلَماءِ الدِّيْنِ، وعُلَماءِ المِلَّةِ، والمُجْتَهِدِيْنَ، والمُحَدِّثِيْنَ، والرَّبَّانِيِّيْنَ ... إلخ.

* * *

❑ المَعْنَىٰ الثَّاني: تَرْبِيَةُ النَّاسِ، وهِي علىٰ قِسْمَيْنِ: (تَرْبِيَةِ الصِّغَارِ، وتَرْبِيَةِ الكِبَارِ).

القِسْمُ الأوَّلُ: تَرْبِيَةُ الصِّغَارِ، وذَلِكَ بحَمْلِهِم علىٰ حِفْظِ القُرْآنِ والسُّنَّةِ، وحُسْنِ الأخْلاقِ، وذِكْرِ القَصَصِ والغَزَوَاتِ وشَيءٍ مِنَ السِّيْرَةِ ... إلخ، كُلُّ ذَلِكَ مِنْ خِلالِ مَا يُسَمَّىٰ: بمَدَارِسِ الكَتَاتِيْبِ.

والقَائِمُ علىٰ هَذِه التَّرْبِيَةِ يُسَمَّىٰ: بالمُرَبِّي، والمُؤَدِّبِ.

والطُّلَّابُ فِيْهِ يُسَمَّوْنَ أيْضًا: بطُلَّابِ الكُتَّابِ، وطُلَّابِ الكَتَاتِيْبِ، والصِّغَارِ، والنَّاشِئَةِ ... إلخ.

القِسْمُ الثَّاني: تَعْلِيْمُ الكِبَارِ، وذَلِكَ بحَمْلِهِم علىٰ العِلْمِ الشَّرعِي بعَامَّةٍ، كُلُّ ذَلِكَ وغَيْرِهِ مِنْ خِلالِ إقَامَةِ الدُّرُوْسِ والحِلَقِ العِلْمِيَّةِ: مِنْ قُرْآنٍ وسُنَّةٍ وتَفْسِيرٍ وعَقِيْدَةٍ وفِقْهٍ ولُغَةٍ ونَحْوٍ وسِيَرٍ، وكَذَا مِنَ الأمْرِ بالمَعْرُوْفِ والنَّهْي عَنِ المُنْكَرِ، والجِهَادِ، والفُرُوْسِيَّةِ الشَّرْعِيَّةِ بأنْوَاعِهَا وغَيْرِهَا ممَّا هُوَ شَأنُ العُلَماءِ الرَّبَّانِيِّيْنَ وطُلَّابِ العِلْمِ النَّابِغِيْنَ.

وهَذَا المَعْنَىٰ يُسَمَّىٰ: بالتَّعَلُّمِ، والتَّفَقُّهِ، والتَّحْصِيْلِ، والطَّلَبِ، والمُلازَمَةِ ... إلَخْ، وهُوَ دَاخِلٌ في الجُمْلَةِ تَحتَ المَعْنَىٰ الأوَّلِ.

أَمَّا أَصْحَابُ هَذَا القِسْمِ، فيُسَمَّوْنَ: بطُلَّابِ العِلْمِ، وشُدَاتِه . . . إلخ.

وبِهَذَا نَنْتَهِي مِنْ تَعْرِيْفِ (التَّرْبِيَةِ) اصْطِلاحًا عِنْدَ المُتَقَدِّمِيْنَ.

* * *

❑ وأمَّا المُتَأخِّرُوْنَ: فَقَدْ عَرَّفُوا (التَّرْبِيَةَ) بتَعَارِيْفَ مُتَخَالِفَةٍ جِدًّا، وقَدْ نَظَرْتُ في تَعْرِيْفِ (التَّرْبِيَةِ) عِنْدَ أكْثَرِهِم مِنْ خِلالِ عَشَرَاتِ الكُتُبِ، لاسِيَّما عِنْدَ مُنَظِّرِي (الفِكْرِ التَّرْبَوِيِّ) فَوَجَدْتُّها لا تَخْلُوا عَنْ حَالَتَيْنِ:

الأوْلىٰ: مَا ذَكَرَهُ المُتَقَدِّمُوْنَ مِنْ أهْلِ العِلْمِ في الجُمْلَةِ، وقَدْ مَرَّ مَعَنَا مِنْهُ الشَّيءُ الكَثِيْرُ: وهِيَ تَرْبِيَةُ وتَعْلِيْمُ وتَوْجِيْهُ الصَّغِيرِ تَرْبِيَةً إسْلامِيَّةً حَتَّىٰ سِنَّ التَّمامِ والبُلُوْغِ.

يَقُوْلُ مِقْدَادُ يَالجِنْ عَنْ تَعْرِيْفِ (التَّرْبِيَةِ) في كِتَابِه «أهْدَافِ التَّربِيَةِ الإسْلامِيَّةِ وغَايَتِها» (١٥): هِيَ مَنْهَجُ مُقَرَّرَاتِ المَوَادِ الإسْلامِيَّةِ الَّتِي يَدْرُسُهَا الطَّالِبُ في مَرَاحِلِ التَّعْلِيْمِ مِثْلَ القُرْآنِ الكَرِيْمِ، والتَّوْحِيْدِ، والحَدِيْثِ، والفِقْهِ.

كَما أصْبَحَ مَفْهُوْمُ (التَّرْبِيَةِ) في العَصْرِ الحَاضِرِ لَدَىٰ أكْثَرِ البَاحِثِيْنَ مِنَ المُهْتَمِّيْنَ بالتَّرْبِيَةِ والتَّعْلِيْمِ في العَالمِ الإسْلامِيِّ أنَّها: «تِلْكَ العَمَلِيَّةُ الَّتِي تَرْتَبِطُ عَنَاصِرُهَا في إطَارٍ فِكْرِيٍّ وَاحِدٍ يَسْتَنِدُ إلىٰ المَبَادِئ والقِيَمِ الَّتِي أتَىٰ بِها الإسْلامُ، والَّتِي تَرْسُمُ عَدَدًا مِنَ الإجْرَاءاتِ والطَّرَائِقِ العِلْمِيَّةِ يُؤَدِّي تَنْفِيْذُهَا إلىٰ أنْ يَسْلُكَ الفَرْدُ سُلُوْكًا يَتَّفِقُ مَعَ عَقِيْدَةِ الإسْلامِ»[1].

---

(١) «أصُوْلُ التَّربِيَةِ الإسْلامِيَّةِ» لفُوْقِيَّةَ بِنْتِ مُحمَّدٍ يَاقُوْتَ (٤٢).

ويَقُوْلُ سَعِيْدٌ المُغَامِسِيُّ: «ومِنَ التَّعْرِيْفَاتِ العِلْمِيَّةِ المُخْتَصَرَةِ للتَّرْبِيَةِ الإسْلامِيَّةِ في العَصْرِ الحَاضِرِ: هِيَ إعْدَادُ المُسْلِمِ إعْدَادًا كَامِلًا مِنْ جَمِيْعِ النَّوَاحِي في جَمِيْعِ مَرَاحِلِ نُمُوِّهِ للحَيَاةِ الدُّنْيَا والآخِرَةِ في ضَوْءِ المَبَادِئ والقِيَمِ، وفي ضَوْءِ أسَالِيْبِ وطُرُقِ التَّرْبِيَةِ الَّتِي جَاءَ بِها الإسْلامُ»[1].

* * *

الثَّانِيَةُ: مَا ذَكَرَهُ أرْبَابُ (الفِكْرِ التَّرْبَوِيِّ) اليَوْمَ.

وهَؤُلاءِ لهُم في تَعْرِيْفِ (التَّرْبِيَةِ) خِلافَاتٌ ومُنَاوَرَاتٌ ... سَيَأتي الحَدِيْثُ عَنْهَا في الفَصْلِ التَّالي، إنْ شَاءَ الله!

❑ ❑ ❑

(١) «أهْدَافُ التَّربِيَةِ الإسْلامِيَّةِ وغَايَتُها» (٢٠).

الفَصْلُ الثَّانِي

تَعْرِيفُ التَّرْبِيَةِ عِنْدَ المُحْدَثِيْنَ مِنْ أَرْبَابِ (الفِكْرِ التَّرْبَوِيِّ)

❑ أمَّا تَعْرِيْفُ (التَّرْبِيَةِ) عِنْدَ المُحْدَثِيْنَ:

فَقَدْ أخَذَ طَرَائِقَ شَتَّىٰ، ومِنْهُ خَرَجَ تَعْرِيْفُهَا في جُمْلَتِه عَنِ التَّعْرِيْفِ القَائِمِ عِنْدَ عُقَلاءِ (الفِكْرِ التَّرْبَوِيِّ)، ومَا ذَاكَ إلَّا أنَّ المُحْدَثِيْنَ قَدْ تَوَسَّعُوا في تَعْرِيْفِ (التَّرْبِيَةِ) تَوَسُّعًا مُسْتَدْرَكًا، كَما أنَّهم جَرُّوا ذَيْلَ التَّعْرِيْفِ جَرًّا أخْرَجُوْهُ: مِنْ تَرْبِيَةِ وتَوْجِيْهِ وتَعْلِيْمِ الطِّفْلِ الصَّغِيْرِ إلىٰ تَرْبِيَةِ الكَبِيْرِ، بَلْ إلىٰ المُجْتَمَعِ، وهَكَذا حَتَّىٰ أوْصَلُوْهُ إلىٰ جَمِيْعِ شُؤوْنِ الحَيَاةِ، كَمَا سَيأتي ذِكْرُهُ، إنْ شَاءَ الله!

ومِنَ المَعَاني الَّتِي حَدَّدَهَا «المُعَجَمُ التَّرَبَوِيُّ للتَّرْبِيَةِ»: هِيَ مَجْمُوْعَةُ العَمَلِيَّاتِ الَّتِي تَسْعَىٰ إلىٰ تَنْمِيَةِ قُدُرَاتِ الفَرْدِ واتِّجَاهَاتِه وإمْكَانَاتِهِ وسُلُوْكِهِ[(١)].

وقِيْلَ إنَّها: هِيَ عَمَلِيَّةٌ مَقْصُوْدَةٌ تَهْدِفُ إلىٰ تَنْشِئَةِ جَوَانِبِ الشَّخْصِيَّةِ الإنْسَانِيَّةِ جَمِيْعَهَا، لتَحْقِيْقِ غَايَاتٍ مُحَدَّدَةٍ، يَقُوْمُ بِها أفْرَادٌ ذَوو كَفَاءةٍ عَالِيَةٍ بتَوْجِيْهِ وتَعْلِيْمِ أفْرَادٍ آخَرِيْنَ وُفْقَ طُرُقٍ مُلائِمَةٍ، مُسْتَخْدِمَةً مُحْتَوَىٰ تَعْلِيْمِيًّا،

---

(١) «أصُوْلُ التَّرْبِيَةِ الإسْلامِيَّةِ» لخَالِدِ بنِ حَامِدٍ الحَازِميِّ (٢٤).

وطُرُقِ تَقْوِيْمٍ مُلائِمَةٍ[١]. في غَيْرِهَا مِنَ التَّعْرِيْفَاتِ الَّتِي تَشُمُّ مِنْهَا رَائِحَةَ التَّأثُّرِ بالفِكْرِ الأوْرُوبِّي، وهُوَ كَذَلِكَ لمَنْ نَظَرَ في تَعْرِيْفَاتِ (التَّرْبِيَةِ) عِنْدَهُم، فالقَوْمُ مِنَ الغَرْبِ لا يَنْظُرُوْنَ إلىٰ شُرُوْطِ المُرَبِّي إلَّا بعَيْنِهِم هُم، لا بنَظَرِ الإسْلامِ: مِنْ قُدْوَةٍ وعِلْمٍ ونَزَاهَةٍ . . . بَلِ التَّربِيَةُ عِنْدَهُم تُؤخَذُ ممَّنْ يُحْسِنُ تَلْقِيْنَهَا أيًّا كان وكَيْفَما كَانَ، لا مِنْ عُلَماءِ الشَّرِيْعَةِ وطُلَّابِ العِلْمِ أهْلِ التَّقْوَىٰ والنَّزَاهَةِ!

فالتَّرْبِيَةُ حِيْنَئِذٍ؛ لم تكُنْ طَاهِرَةَ النَّسَبِ، ولا عَرِيْقَةَ الأصْلِ، بَلْ خَرَجَتْ عَلَيْنَا مِنْ بَيْنِ ثَقَافَاتِ اليُونَانِ الوَثَنِيَّةِ، والنَّظَرِيَّاتِ اليَهُوْدِيَّةِ، والتَّجَارُبِ النَّصْرَانِيَّةِ . . . ومُرُوْرًا بثَقَافَاتٍ مُهَجَّنَةٍ قَدْ ألْبَسُوْهَا ثَوْبَ الإسْلامِ انْهِزَامًا مِنْهُم وتَبَعِيَّةً؛ كُلُّ ذَلِكَ (للأسَفِ!) مُجَارَاةً للغَرْبِ الكَافِرِ في ثَقَافَاتِهِ بطَرِيْقٍ أو آخَرَ، كَما سَيأتِي بَيَانُهُ إنْ شَاءَ الله!

* * *

وكَذَا يَقُوْلُ أنْوَرُ الجُنْدِيُّ في تَعْرِيْفِهَا، كَما جَاءَ ذَلِكَ في «المَوْسُوْعَةِ الإسْلامِيَّةِ العَرَبِيَّةِ» (٨): «بِأنَّها تَعْنِي تَهْذِيْبَ الشَّخْصِيَّةِ، وتَزْوِيْدَهَا بكُلِّ مَا يُمْكِنُ قُوَاهَا الفِكْرِيَّةُ والبَدَنِيَّةُ مِنْ تَحَمُّلِ المَسْؤوْلِيَّةِ: السَّعْيُ والعَمَلُ والنِّضَالُ، وهِيَ تَعْنِي بقُوَّةِ البَدَنِ والرُّوْحِ مَعًا مُتَّصِلَيْنِ لا مُنْفَصِلَيْنِ».

وقِيْلَ: «هِيَ الجُهُوْدُ المَبْذُوْلَةُ لإحْدَاثِ تَغْيِيْراتٍ مَرْغُوْبٍ فِيْهَا في الفَرْدِ

---

(١) «مَدْخَلٌ إلىٰ التَّرْبِيَةِ الإسْلامِيَّةِ» لعَبْدِ الرَّحْمنِ بنِ صَالِحٍ (١٩).

المُسْلِمِ صَغِيْرًا كَانَ أمْ كَبِيْرًا؛ بِحَيْثُ تَشْمَلُ هَذِه التَّغْيِيْراتُ الإنْسَانَ بجَانِبَيْهِ المَادِي وغَيْرِ المَادِي لإعْدَادِهِ لعِبَادَةِ الله تَعَالىٰ، والاسْتِخْلافِ في الأرْضِ وعِمَارَتِها»[١].

وقِيْلَ: هِيَ إيْصَالُ المُتَربِّي إلىٰ دَرَجَةِ الكَمالِ الَّتِي هَيَّأهُ الله لها عَنْ طَرِيْقِ مُرَاعَاةِ فِطْرَتِهِ، وتَنْمِيَةِ مَوَاهِبِهِ وقُدَرَاتِهِ وطَاقَاتِهِ بطُرُقٍ مُتَدرِّجَةٍ وُفْقَ مَرَاحِلَ، وتَوْجِيْهِهَا نَحْوَ الخَيْرِ والحَقِّ والكَمَالِ[٢].

* * *

ومَهْما يَكُنْ؛ فَقَدْ كَفَانَا الشَّيْخُ مُحمَّدٌ الدُّوِيْشُ أعْبَاءَ أسْبَابِ الخِلافِ والتَّخالُفِ في تَحْرِيْرِ مَعْنَىٰ (التَّرْبِيَةِ) عِنْدَ أرْبَابِ (الفِكْرِ التَّرْبَويِّ)، وذَلِكَ بأنَّ (التَّرْبِيَةَ) مُصْطَلَحٌ خَاضِعٌ للاجْتِهَادِ والتَّجارُبِ، وهُوَ مَا ذَكَرَهُ بقَوْلِهِ في كِتَابِهِ «تَرْبِيَةِ الشَّبَابِ» (٧): «ومَعَ أنَّ فِكْرَةَ هَذَا الكِتَابِ، ومُعْظَمَ مَادَّتِه كَانَتْ لَدَيَّ مُنْذُ مُدَّةٍ مَضَتْ، إلَّا أنِّي تَرَدَّدْتُ كَثِيرًا في إصْدَارِهِ، وآثَرْتُ الانْتِظَارَ والتَّرَيُّثَ لأهَمِّيَّةِ مِثْلِ هَذَا المَوْضُوْعِ، وأخَيْرًا اسْتَعَنْتُ بالله في إصْدَارِهِ، وكُلِّي أمَلٌ أنْ يَقْرَأهُ المُرَبُّوْنَ بعَيْنِ النَّقْدِ لا بعَيْنِ التَّلَقِّي، وأنْ يَتَعَامَلُوا مَعَهُ علىٰ أنَّه رَأيٌ شَخْصِيٌّ لا مُسَلَّماتٍ عِلْمِيَّةٌ، وأنَّه مَهْما اجْتَهَدَ الكَاتِبُ في تَحْرِيْرِهِ والاعْتِنَاءِ بِهِ فَلَنْ يَخْرُجَ مِنْ أسْرِ التَّجارُبِ والخِبْرَةِ الشَّخْصِيَّةِ المَحْدُوْدَةِ في إطَارِ الزَّمَانِ

(١) «أصُوْلُ التَّرْبِيَةِ الإسْلامِيَّةِ» لفُوْقِيَّةَ بِنْتِ مُحمَّدٍ يَاقُوْتَ (١٢).
(٢) «مَنْهَجُ التَّرْبِيَةِ في التَّصوُّرِ الإسْلامِيِّ» لعَلي بنِ أحْمَدَ مَذْكُور (٢٦٦).

والمَكَانِ، ولَنْ يَخْرُجَ مِنْ أَسْرِ القُصُوْرِ البَشَري» انْتَهَىٰ.

* * *

ومِنْ خِلالِ التَّعارِيْفِ السَّالِفَةِ في غَيْرِهَا مِنْ جَمْهَرَةِ تَعارِيْفِ (التَّرْبِيَةِ)، نَجِدُهَا خُلْوَةً (للأَسَفِ) مِنْ أَهَمِّ مُقْتَضَياتِ (التَّرْبِيَةِ)؛ بَلْ هُوَ أَسَاسُهَا وأَصْلُهَا: إنَّه تَحْقِيْقُ العُبُوْدِيَّةِ لله تَعالَىٰ، وذَلِكَ في عِبَادَةِ الله وَحْدَهُ، وأَلَّا يُعْبَدُ إلَّا بِما شَرَعَ في الكِتَابِ والسُّنَّةِ.

كَما قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦].

وقَوْلُهُ تَعالَىٰ: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلطَّـٰغُوتَ ۖ فَمِنْهُم مَّنْ هَدَى ٱللَّهُ وَمِنْهُم مَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ ٱلضَّلَـٰلَةُ ۚ فَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ﴾ [النحل: ٣٦]، وقَوْلُهُ تَعالَىٰ: ﴿۞ وَٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا۟ بِهِۦ شَيْـًٔا ۖ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَـٰنًا وَبِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَـٰمَىٰ وَٱلْمَسَـٰكِينِ وَٱلْجَارِ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْجَارِ ٱلْجُنُبِ وَٱلصَّاحِبِ بِٱلْجَنۢبِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَـٰنُكُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا﴾ [النساء: ٣٦].

* * *

ومَعَ هَذَا؛ فَإنَّ ذِكْرَ (العُبُوْدِيَّةِ) لم يَكُنْ نَسْيًا مَنْسِيًا عِنْدَ بَعْضِ أنْصَارِ (الفِكْرِ التَّرْبَوِيِّ)، إلَّا أنَّهم (للأَسَفِ) يَجْعَلُوْنَها: مَجالًا مِنْ مَجالاتِ (التَّرْبِيَةِ) في غَيْرِهَا مِنَ الأَهْدَافِ لا أَصْلًا وغَايَةً، ويَدُلُّ علىٰ ذَلِكَ: أنَّهم لا يَقِفُوْنَ مَعَ

هَدِفِ (العُبُوْدِيَّةِ) كَما يَقِفُوْنَ مَعَ غَيْرِهَا مِنَ الأهْدَافِ، بَلْ يُشِيْرُوْنَ إلَيْهَا في كَلِماتٍ أو أسْطُرٍ مَعْدُوْدَةٍ لا تُقَارَنُ بغَيْرِهَا، أمَّا مَا سِوَاهَا مِنَ الأهْدَافِ فَشَيءٌ يَطُوْلُ حَدِيْثُهُ وتَفْرِيْعُهُ وتَقْرِيْرُهُ، وهَذَا غَالِبُ مَا عِنْدَهُم!

فَهَذِهِ أسْماءُ كُتُبِهِم وخِطَابَاتُهم تُنْبِؤُكَ بِما عِنْدَهُم مِنْ مُسَارَقَاتٍ في تَسْوِيْقِ كَلِمَةِ (التَّرْبِيَةِ)، في كُلِّ مَا يَأتُوْنَ ويَذَرُوْنَ: سَوَاءٌ في ثَقَافَةٍ، أو سِيَاسَةٍ، أو اقْتِصَادٍ، أو إعْلامٍ، أو اجْتِماعٍ، أو طِبٍّ، بَلْ في جَمِيْعِ شُؤوْنِ الحَيَاةِ.

* * *

ومِنْ خِلالِ هَذِه التَّقْسِيْماتِ نَسْتَطِيْعُ (يَقِيْنًا) أنْ نَسْتَلْهِمَ الخَطأ الكَبِيْرَ الَّذِي أخَذَ بمَجَامِعِ أفْكَارِ وأقْلامِ بَعْضِ أصْحَابِ (الفِكْرِ التَّرْبَوِيِّ): وهُوَ الخَلْطُ البَيِّنُ القَاضِي علىٰ تَارِيْخِ الأمَّةِ في إرْثِهَا العِلْمِي والعَمَلي ممَّا تَنَاقَلَتْهُ الأجْيَالُ عَبْرَ التَّارِيْخِ، جِيْلًا بَعْدَ جِيْلٍ، كَمَا أخَذَهُ الخَلَفُ عَنِ السَّلَفِ، والأصَاغِرُ عَنِ الأكَابِرِ.

وذَلِكَ في تَنْحِيَةِ ومَسْخِ كَلِمَتَيْنِ شَرْعِيَّتَيْنِ مَا لهُما مِنْ زَوَالٍ، وهُمَا: (العِلْمُ، والعَالِمُ)، واسْتِبْدَالهُما بكَلِمَتَيْنِ حَادِثَتَيْنِ لائِكَتَيْنِ مَا لهُما مِنْ قَرَارٍ، وهُما: (التَّرْبِيَةُ، والمُرَبِّي).

☐ **فاسْتَبْدَلُوا العِلْمَ**: بالتَّرْبِيَةِ، واسْتَبْدَلُوا العَالِمَ: بالمُرَبِّي!

فحِيْنَئِذٍ؛ كَانَ مِنَ الخطأ الخَلْطُ بَيْنَ مَعْنَىٰ الرَّبَّانيِّ عِنْدَ السَّلَفِ، وبَيْنَ مَعْنَىٰ المُرَبِّي في اصْطِلاحِ أهْلِ التَّرْبِيَةِ اليَوْمَ.

* * *

ومِنْ قَبْلُ؛ فلْيَعْلَمْ أرْبَابُ الحَقَائِقِ العِلْمِيَّةِ: أنَّ كَلِمَةَ (التَّرْبِيَةِ) بمَعْنَاهَا السَّائِدِ اليَوْمَ لم تُعْرَفْ إلَّا في القَرْنِ الخَامِسِ عَشَرَ الهِجْرِي، كَما أنَّها تَوْلِيْدُ تَرْجَمَاتِ كُتُبِ الغَرْبِ، وهَذَا مَا أجْمَعَ عَلَيْهِ كُلُّ مَنْ كَتَبَ في (التَّرْبِيَةِ)، فَهِي حِيْنَئِذٍ كَلِمَةٌ حَادِثَةٌ، تَحْمِلُ في مَضَامِيْنِهَا مَعَانٍ خَطِيْرَةً، ومُصْطَلَحَاتٍ مُبْتَدَعَةً، وأخْطَاءً خَطِيْرَةً علىٰ تَارِيْخِ الأمَّةِ العِلْمِي والعَمَلي.

يَقُوْلُ يُوْسُفُ القَرَضَاوِيُّ في كِتَابِهِ «التَّربِيَةِ عِنْدَ الإمَامِ الشَّاطِبِيِّ» (٥): أمَّا التَّرْبِيَةُ؛ فَلَمْ أعْرِفْ مَنْ كَتَبَ عَنْهَا مِنَ العَرَبِ والمُسْلِمِيْنَ، وإنَّما اهْتَمَّ بِها الغَرْبِيُّوْنَ فِيْما عَلِمْتُ، وإنْ لم يُتَحْ لي أنْ أطَّلِعَ علىٰ مَا كَتَبُوْهُ لعَدَمِ مَعْرِفَتِي بلُغَاتِ الكَاتِبِيْنَ الأجَانِبِ.

وكَذَا قَالَ حَسَنُ الحَجَّاجِيُّ في كِتَابِه «الفِكْرِ التَّربَوِيِّ عِنْدَ ابنِ القَيِّمِ» (٢٤): لهَذَا أصْبَحَتِ التَّرْبِيَةُ في غَالِبِ دِيَارِ الإسْلامِ لا تَنْطَلِقُ مِنْ مُنْطَلَقَاتٍ إسْلامِيَّةٍ، بَلْ هِيَ مُتَأرْجِحَةٌ بَيْنَ الشَّرْقِ المُلْحِدِ، وبَيْنَ الغَرْبِ المُنْحَلِّ الكَافِرِ، فقَلَّدَتِ الشُّعُوْبُ المُسْلِمَةُ أعْدَاءهَا في كُلِّ شَيءٍ: في نُظُمِ التَّرْبِيَةِ والتَّعْلِيْمِ ومَسَارِ الثَّقَافَةِ وأسَالِيْبِ التَّفْكِيْرِ.

وهَذَا سَعِيْدٌ المُغَامِسِيُّ يُؤكِّدُ حَقِيْقَةَ ذَلِكَ في كِتَابِه «التَّربِيَةِ بالحِوَارِ» (٢٠): «لم يَكُنْ مَفْهُوْمُ التَّرْبِيَةِ الإسْلامِيَّةِ مَوْضِعَ اتِّفَاقِ العُلَماءِ والبَاحِثِيْنَ في الدِّرَاسَاتِ التَّرْبَوِيَّةِ الإسْلامِيَّةِ، فلَقَدْ بَدَأ اسْتِعْمالُ مُصْطَلَحِ التَّرْبِيَة الإسْلامِيَّةِ عِنْدَ بَعْضِ البَاحِثِيْنَ ليُشِيْرُوا بِه إلىٰ مَا كَانَ لَدَىٰ المُسْلِمِيْنَ مِنَ المُؤسَّسَاتِ التَّرْبَوِيَّةِ، فالمَفْهُوْمُ يَعْنِي لَدِيْهِم تَارِيْخُ التَّرْبِيَةِ عِنْدَ المُسْلِمِيْنَ».

وكَذَا مَحْمُوْدُ سُلْطَانُ يُؤكِّدُ ذَلِكَ في كِتَابِهِ «مَسِيرَةِ الفِكْرِ التَّربَوِيِّ» (٢٣٤):
«إنَّ تَأثُّرَنَا بالثَّقَافَة الغَرْبِيَّةِ مُنْذُ بِدَايَةِ القَرْنِ التَّاسِعِ عَشَرَ، حَتَّىٰ نِهَايَةِ القَرْنِ العِشْرِيْنَ جَعَلَنَا نَخْضَعُ لمُؤثِّرَاتِ هَذِه الثَّقَافَةِ التَّرْبَوِيَّةِ».

فَهَلْ بَعْدَ هَذِه النُّقُولاتِ والتَّحْقِيْقَاتِ القَاطِعَةِ بإحْدَاثِيَّةِ (التَّرْبِيَةِ) اليَوْمَ في تَارِيْخِ أمَّتِنَا العِلْمِي والعَمَلي علىٰ حَدٍّ سَوَاءٍ: مِنْ مُدَّكِرٍ؟!

* * *

نَعَم؛ هُنَاكَ تَعْرِيْفَاتٌ للتَّرْبِيَةِ قَدْ سَاقَهَا أصْحَابُها بأقْلامٍ سَلَفِيَّةٍ رَصِيْنَةٍ، لكِنَّنا والحَالَةُ هَذِهِ لا نَرْضَىٰ مِنَ السَّلَفِيِّيْنَ أنْ يَخُوْضُوا مَيادِيْنَ دُعَاةِ (التَّرْبِيَةِ)، أو يَدُوْرُوا في فَلَكِ (الفِكْرِ التَّرْبَويِّ) في اجْتِرَارِ مُصْطَلَحَاتِهِم المُشْتَرَكَةِ، فالسَّلَفِيُّ لا يَكُوْنُ سَلَفِيًّا صِرْفًا إلَّا إذَا أتَىٰ علىٰ السَّلَفِيَّةِ في مَبْنَاهَا ومَعْنَاهَا، لا أنْ يَحْفُرَ للمُصْطَلَحَاتِ (البِدْعِيَّةِ) خَنَادِقَ وأخَادِيْدَ في عُلُوْمِ المُسْلِمِيْنَ ثُمَّ يَكْسُوْهَا مِنْ أثْوَابِ السَّلَفِيَّةِ مَا قَدْ يَكُوْنُ فِتْنَةً أو تَلْبِيْسًا لحُدْثَانِ العِلْمِ، لاسِيَّما المُشَفْشِفُ مِنْهُم، وقَدْ كَانَ!

ولَيْسَ مِنَ الأظَانِيْنِ أنَّ هُنَاكَ مُشَارَكَاتٌ كَثِيْرَةٌ مِنْ بَعْضِ أهْلِ السُّنَّةِ في تَرْوِيْضِ كَلِمَةِ (التَّرْبِيَةِ) بيْنَ أبْنَاءِ المُسْلِمِيْنَ، مِنَ خِلالِ عَنَاوِيْنِ كُتُبِهِم، وارْتِجَالِ كَلِماتِهِم، وتَرْسِيْمِ مُحَاضَرَاتِهِم، فالله المُسْتَعَانُ.

* * *

فَكَانَ لَنا هُنَا بَعْضُ الوَقَفَاتِ مَعَ بَعْضِ أهْلِ العِلْمِ والدُّعَاةِ السَّلَفِيِّيْنَ، ممَّنْ

حَاوَلُوا مُسَارَقَةَ كَلِمَةِ (التَّرْبِيَةِ) بمَنْظُوْرٍ إسْلامِيٍّ (سَلَفِيٍّ)، وهُم كَثِيْرٌ (للأسَفِ)، فَكَانَ يَهِمُّنَا مِنْ هَؤلاءِ: مُحَدِّثُ العَصْرِ شَامَةُ الشَّامِ، وحَسَنَةُ الأيَّامِ العَلَّامَةُ الألْبَانيُّ ﷺ رَحْمَةً وَاسِعَةً، حَيْثُ كَانَ ﷺ مِنَ القَائِلِيْنَ بالتَّرْبِيَةِ، تَحتَ عُنْوَانِ: (التَّصْفِيَةِ والتَّرْبِيَةِ)، حَيْثُ أخَذَتْ هَذِهِ الكَلِمَةُ عِنْدَهُ مَأخَذًا كَبِيْرًا، إلَّا أنَّه ﷺ لم يَكُنْ يُرِيْدُ مَا يُرِيْدُهُ أنْصَارُ (الفِكْرِ التَّرْبَوِيِّ) مِنْ هَذِهِ الكَلِمَةِ، بَلْ كَانَ يُرِيْدُ مِنْهُما: مَعْنىً سَلَفِيًّا، كَما سَيَظْهَرُ مِنْ خِلالِ كَلامِهِ عَنِ (التَّصْفِيَةِ والتَّرْبِيَةِ)، إلَّا أنَّنا مَعَ هَذَا وهَذَا لا نُقِرُّ لَهُ مَا ذَهَبَ إلَيْهِ، كَما سَيَأتي بَيَانُهُ.

قَالَ ﷺ في مُقَدِّمَة كِتَابِه «السِّلْسِلَةِ الضَّعِيفَةِ» (٢/د): «لا بُدَّ اليَوْمَ مِنْ أجْلِ اسْتِئْنَافِ الحَيَاةِ الإسْلامِيَّةِ مِنَ القِيَامِ بهَذَيْنِ الوَاجِبَيْنِ: التَّصْفِيَةِ والتَّرْبِيَةِ.

❑ **وأرَدْتُ بالأوَّلِ مِنْهُما أمُوْرًا:**

الأوَّلُ: تَصْفِيَةُ العَقِيْدَةِ الإسْلامِيَّةِ ممَّا هُوَ غَرِيْبٌ عَنْهَا: كالشِّرْكِ، وجَحْدِ الصِّفَاتِ الإلهِيَّةِ ورَدِّ الأحَادِيْثِ الصَّحِيْحَةِ لتَعَلُّقِهَا بالعَقِيْدَةِ الصَّحِيْحَةِ ونَحْوِها.

الثَّاني: تَصْفِيَةُ الفِكْرِ الإسْلامِيِّ مِنَ الاجْتِهَادَاتِ الخَاطِئَةِ المُخَالِفَةِ للكِتَابِ والسُّنَّةِ.

الثَّالِثُ: تَصْفِيَةُ كُتُبِ التَّفْسِيْرِ والفِقْهِ والرَّقَائِقِ وغَيْرِهَا مِنَ الأحَادِيْثِ الضَّعِيْفَةِ والمَوْضُوْعَةِ والإسْرَائِيْلِيَّاتِ المُنْكَرَةِ.

وأمَّا الوَاجِبُ الآخَرُ فَأرِيْدُ بِهِ تَرْبِيَةَ الجَيْلِ النَاشِئ علىٰ هَذَا الإسْلامِ المُصَفَّىٰ مِنْ كُلِّ مَا ذُكِرَ تَرْبِيَةً إسْلامِيَّةً صَحِيْحَةً مُنْذُ نُعُوْمَةِ إظْفَارِهِ، دُوْنَ أي تَأثُّرٍ بالتَّرْبِيَةِ الغَرْبِيَّةِ الكَافِرَةِ.

وممَّا لا رَيْبَ فِيْهِ أنَّ هَذَيْنِ الوَاجِبَيْنِ يَتَطَلَّبُ جُهُوْدًا كَبِيْرَةً جَبَّارَةً مُتَعَاوِنَةً مِنَ الجماعَاتِ الإسْلامِيَّةِ المُخْلِصَةِ» انْتَهَىٰ.

* * *

❑ ولَنَا فِيْما ذَهَبَ إلَيْهِ الألْبَانيُّ ﷺ بَعْضُ الرَّأي، ومَا الرَّأيُ إلَّا مَظِنَّةُ الخَطأ، إلَّا أنَّنا نَسْتَمِدُّ مِنَ الله العَوْنَ في بَيَانِ الحَقِّ، فَمِنْ ذَلِكَ:

أوَّلًا: أنَّ الألْبَانيَّ ﷺ قَدْ أوْجَبَ (التَّصْفِيَةَ والتَّرْبِيَةَ) علىٰ المُسْلِمِيْنَ، عِلْمًا أنَّ الوَاجِبَ ما أوْجَبَهُ الله والرَّسُوْلُ ﷺ، والوَاجِبُ تَشْرِيْعٌ، ولا يَجُوْزُ تَشْرِيْعُ شَيءٍ مِنَ الألْفَاظِ إلَّا مَا شَرَعَهُ الله والرَّسُوْلُ: كالإسْلامِ، والإيْمانِ، والإحْسَانِ، والبِرِّ، والتَّقْوَىٰ، واليَقِيْنِ ... إلخ، أمَّا كَلِمَةُ (التَّصْفِيَةِ والتَّرْبِيَةِ) فمُصْطَلَحٌ حَادِثٌ، كَما هُوَ مَعْلُوْمٌ.

قَالَ شَيْخُ الإسْلامِ ابنُ تَيْمِيَّةَ ﷺ في «مَجْمُوعِ الفَتَاوَىٰ» (١١/ ٢٥): «الألْفَاظُ الَّتِي جَاءَ بِها الكِتَابُ والسُّنَّةُ عَلَيْنا أنْ نَتَّبِعَ مَا دَلَّتْ عَلَيْهِ: مِثْلُ لَفْظِ الإيْمَانِ، والبِرِّ، والتَّقْوَىٰ، والصِّدْقِ، والعَدْلِ، والإحْسَانِ، والصَّبْرِ، والشُّكْرِ، والتَّوَكُّلِ، والخَوْفِ والرَّجَاءِ والحُبِّ للهِ، والطَّاعَةِ لله وللرَّسُوْلِ، وبِرِّ الوَالِدَيْنِ، والوَفَاءِ بالعَهْدِ ونَحْوِ ذَلِكَ ممَّا يَتَضَمَّنُ ذِكْرَ مَا أحَبَّهُ الله ورَسُوْلُهُ مِنَ القَلْبِ والبَدَنِ، فَهَذِهِ الأمُوْرُ الَّتِي يُحِبُّهَا الله ورَسُوْلُهُ هِيَ الطَّرِيْقُ المُوْصِلُ إلىٰ الله».

وقَالَ أيضًا في «الجَوَابِ الصَّحِيْحِ» (٣/ ١٩٢)، و«القَاعِدَةِ الجَلِيْلَةِ» (٧٩): «وعَلَيْهِ فمَنْ كَانَ لَهُ اصْطِلاحٌ خَاصٌّ لم يَجُزْ لَهُ أنْ يَحْمِلَ أَلْفَاظَ الكِتَابِ والسُّنَّةِ عَلَيْهِ لمُجَرَّدِ اصْطِلاحِهِ، لأنَّ ذَلِكَ يُعْتَبرُ مِنْ تَحْرِيْفِ الكَلِمِ عَنْ مَوَاضِعِهِ، والمَيْلِ بِهِ عَنْ مَقْصُوْدِ المُتَكَلِّمِ بِهِ» انْتَهَىٰ.

ثَانِيًا: أنَّ كَلِمَةَ (التَّصْفِيَةِ والتَّرْبِيَةِ) لَيْسَتْ مِنَ الأَلْفَاظِ الشَّرْعِيَّةِ الَّتِي يَتَرتَّبُ عَلَيْهَا أجْرٌ أو وِزْرٌ لذَاتِها، لِذَا كَانَ التَّمَسُّكُ والأخْذُ بِها ممَّا سَيَتَرتَّبُ عَلَيْه خَلْطٌ في الدَّلالَةِ والمَعْنَىٰ.

يَقُوْلُ ابنُ تَيْمِيَّةَ رَحِمَهُ اللَّهُ في «المَجْمُوعِ» (٣/ ٣٠٧)، و(٥/ ٢٩٩): «إنْ كَانَ ثَمَّتُ أَلْفَاظٌ مُجْمَلَةٌ في بَابِ الاعْتِقَادِ كَالحَيِّزِ والجَوْهَرِ والجِسْمِ ... إلخ.

فَكَذَلِكَ في بَابِ السُّلُوْكِ تُوْجَدُ أَلْفَاظٌ مُجْمَلَةٌ كالتَّصَوُّفِ والفَنَاءِ، والفَقْرِ ونَحْوِهِ.

وقَدْ تَقَرَّرَ أنَّ مَوْقِفَ السَّلَفِ الصَّالِحِ مِنَ الأَلْفَاظِ المُجْمَلَةِ في الاعْتِقَادِ هُوَ التَّفْصِيْلُ، فَلا يَطْلِقُوْنَ نَفْيَهَا ولا إِثْبَاتَها إلَّا إذَا بُيِّنَ مَا أُثْبتَ بِها، فَهُوَ ثَابِتٌ، ومَا نُفِيَ بِها، فَهُوَ مَنْفِيٌّ، فَهُم يَنْظُرُوْنَ في مَقْصُوْدِ قَائِلِهَا فَإِنْ كَانَ مَعْنًىٰ صَحِيْحًا قُبِلَ، لكِنْ يَنْبَغِي التَّعْبِيرُ عَنْهُ بأَلْفَاظِ النُّصُوصِ الشَّرْعِيَّةِ دُوْنَ الأَلْفَاظِ المُجْمَلَةِ، إلَّا عِنْدَ الحَاجَةِ، مَعَ قَرَائِنَ تُبَيِّنُ المُرَادَ والحَاجَةَ، مِثْلُ أنْ يَكُوْنَ الخِطَابُ مَعَ مَنْ لا يَتِمُّ المَقْصُوْدُ مَعَهُ إنْ لم يُخَاطَبْ بِها» انْتَهَىٰ.

ثَالِثًا: أنَّ لَفْظَةَ (التَّرْبِيَةِ) حَادِثَةٌ، والسَّلَفُ حَذَّرُوا مِنَ الأَلْفَاظِ المُشْتَرَكَةِ المُوْهِمَةِ، لاسِيَّما الَّتِي تَدُلُّ عِنْدَ إطْلاقِهَا علىٰ المَعَاني البِدْعِيَّةِ، فَكَانَ

الوَاجِبُ تَرْكُهَا، هَذَا إِذَا عَلِمْنَا كثيرًا مِنَ المَعَانِي الفَاسِدَةِ قَدْ تَرَكَتْهَا كَلِمَةُ (التَّرْبِيَةِ) هَذِهِ الأَيَّامَ!

قَالَ ابنُ تَيْمِيَّةَ رَحِمَهُ اللهُ في «المَجْمُوعِ» (١٢/ ١١٤): «وأَمَّا الأَلْفَاظُ الَّتِي لَيْسَتْ في الكِتَابِ والسُّنَّةِ ولا اتَّفَقَ السَّلَفُ علىٰ نَفْيِهَا أو إِثْبَاتِها، فَهَذِهِ لَيْسَ علىٰ أَحَدٍ أنْ يُوَافِقَ مَنْ نَفَاهَا أو أَثْبَتَهَا، حَتَّىٰ يَسْتَفْسِرَ عَنْ مُرَادِهِ، فإنْ أَرَادَ بِها مَعْنىٰ يُوَافِقُ خَبَرَ الرَّسُوْلِ أَقِرَّ بِهِ، وإنْ أَرادَ بِها مَعْنىٰ يُخَالِفُ خَبَرَ الرَّسُوْلِ أَنْكَرَهُ.

ثُمَّ التَّعْبِيْرُ عَنْ تِلْكَ المَعَانِي إنْ كَانَ في أَلْفَاظِهِ اشْتِبَاهٌ أو إِجْمَالٌ عَبَّرَ بغَيْرِهَا أو بَيَّنَ مُرَادَهُ بِها، بحَيْثُ يَحْصُلُ تَعْرِيْفُ الحَقِّ بالوَجْهِ الشَّرْعِيِّ، فَإِنَّ كَثِيْرًا مِنْ نِزَاعِ النَّاسِ سَبَبُهُ أَلْفَاظٌ مُجْمَلَةٌ مُبْتَدَعَةٌ، ومَعَانٍ مُشْتَبِهَةٌ» انْتَهىٰ.

قَالَ ابنُ القَيِّمِ رَحِمَهُ اللهُ في «مَدَارِجِ السَّالِكِيْنَ» (٣/ ٤٣٧): «وإِذَا كَانَ أَهْلُ الكَلامِ أَحْدَثُوا أَلْفَاظًا مُجْمَلَةً في أَسْماءِ الله وصِفَاتِهِ، فَإِنَّ أَرْبَابَ الطُّرُقِ الصُّوْفِيَّةِ قَدْ أَحْدَثُوا أَلْفَاظًا مُجْمَلَةً في السُّلُوْكِ، وهَذِهِ الأَلْفَاظُ عُمُوْمًا لا تَخْلُو مِنْ مُخَالَفَاتٍ للكِتَابِ والسُّنَّةِ، إِضَافَةً إِلىٰ مَا فِيْهَا مِنَ التَّكَلُّفِ الشَّدِيْدِ، والتَّعْقِيْدِ في الأَلْفَاظِ والمَعَانِي، فَوَعَّرُوا - أي المُتَكَلِّمُوْنَ والمُتَصَوِّفَةُ - الطَّرِيْقَ إِلىٰ تَحْصِيْلِهَا، وأَطَالُوا الكَلامَ في إِثْبَاتِها مَعَ قِلَّةِ نَفْعِهَا، فَهُوَ لَحْمُ جَمَلٍ غَثٍّ علىٰ رَأسْ جَبَلٍ وَعْرٍ، لا سَهْلٌ فيُرْتَقىٰ، ولا سَمِيْنٌ فيُنْتَقَلَ، فيُطَوِّلَ عَلَيْكَ الطَّرِيْقَ، ويُوَسِّعَ لَكَ العِبَارَةَ، ويَأتي بكُلِّ لَفْظٍ غَرِيْبٍ، ومَعْنًىٰ أَغْرَبَ مِن

اللَّفْظِ، فإذَا وَصَلْتَ لم تَجِدْ مَعَكَ حَاصِلًا طَائِلًا، ولكِنْ تَسْمَعُ جَعْجَعَةً ولا تَرَىٰ طِحْنًا» انْتَهَىٰ.

رَابِعًا: وقَدْ عَلِمَ الجَمِيْعُ أنَّ الألْبَانيَّ ﷺ كَانَ ممَّنْ يَنْهَىٰ عَنْ إطْلاقِ كَلِمَةِ (أَهْلِ السُّنَّةِ والجَماعَةِ) اليَوْمَ علىٰ السَّلَفِ الصَّالِحِ وأتْبَاعِهِم بَلْ كَانَ يَدْعُو إلىٰ لَفْظِ (السَّلَفِ)، لأنَّ بَعْضَ الجَماعَاتِ الحَادِثَةِ اليَوْمَ الَّتِي انْضَوَتْ واسْتَظَلَّتْ بِهَذِهِ الكَلِمَةِ العَامَّةِ في مَدْلُوْلِهَا . . . وهَكَذَا أَرَادَ الألْبَانيُّ، فَكَانَ الأوْلىٰ والحَالَةُ هَذِهِ أنْ نَتْرُكَ أيْضًا كَلِمَةَ (التَّرْبِيَةِ) لكَوْنِها هَذِهِ الأيَّامَ حمَّالةَ الحَطَبِ، وجَمَّاعَةَ الخَشَبِ.

عِلْمًا أنَّ إطْلاقَ كَلِمَةَ (التَّرْبِيَةِ) اليَوْمَ علىٰ أهْلِ السُّنَّةِ لهِيَ أشَدُّ خَطَرًا في مَعَانِيْهَا ومَضَامِيْنِهَا مِنْ إطْلاقِ كَلِمَةِ أهْلِ السُّنَّةِ والجَماعَةِ عَلَيْهِم.

خَامِسًا: كَما أنَّ دِلالَةَ (التَّصْفِيَةِ والتَّرْبِيَةِ) وَاحِدَةٌ، مِنْ حَيْثُ مَدْلُوْلهِمَا عِنْدَ الألْبَانيِّ ﷺ، فَإذَا كَانَ المُرَادُ مِنَ التَّصْفِيَةِ هُنَا: تَصْفِيَةَ العَقِيْدَةِ والفِقْهِ والأحَادِيْثِ ممَّا لَيْسَ مِنْهَا، وأنَّ (التَّرْبِيَةَ): هِيَ تَرْبِيَةُ الجِيْلِ النَّاشِئ وحَمْلُهُ علىٰ هَذِهِ التَّصْفِيَةِ، فعِنْدَئِذٍ نَسْتَطِيْعُ أنْ نَقُوْلَ: إنَّ (التَّرْبِيَةَ) هُنَا هِيَ التَّصْفِيَةُ، لأنَّها تَتَضَمَّنُهَا ضَرُوْرَةً وزِيَادَةً، وكَذَا (التَّصْفِيَةُ) تَرْبِيَةٌ لأنَّها تَتَضَمَّنُهَا ضَرُوْرَةً، فَكُلُّ تَرْبِيَةٍ تَصْفِيَةٌ والعَكْسُ صَحِيْحٌ!

يُوَضِّحُهُ؛ أنَّه مِنَ المُحَالِ أنْ يَقُوْمَ أحَدٌ مِنَ المُسْلِمِيْنَ بتَصْفِيَةٍ مُجَرَّدَةٍ عَنِ (التَّرْبِيَةِ) كَما أرَادَها الألْبَانيُّ ﷺ، أو يَقُوْمَ بتَرْبِيَةٍ مُجَرَّدَةٍ عَنِ (التَّصْفِيَةِ)!

سَادِسًا: لا شَكَّ أنَّ دِلالَةَ (التَّصْفِيَةِ والتَّرْبِيَةِ) عِنْدَ الألْبَانيِّ نَظَرِيَّةٌ مُجَرَّدَةٌ،

لأنَّ الوَاقِعَ يَشْهَدُ بِهذَا، فكَانَ مِنَ المُحَالِ أنْ نَقُوْمَ بتَصْفِيَةٍ مُجرَّدَةٍ عَنِ (التَّرْبِيَةِ)، أو بتَرْبِيَةٍ مُجرَّدَةٍ عَنِ (التَّصْفِيَةِ)، فَهُما مُتلازِمَانِ لا يَنْفَكَّانِ إلَّا نَظَرِيًّا!

سَابِعًا: كَانَ مِنَ الخطأ اسْتِبْدَالُ الألْفَاظِ الشَّرْعِيَّةِ بألْفَاظٍ حَادِثَةٍ، هَذَا إذَا عَلِمْنَا أنَّ دِلالاتِ (التَّصْفِيَةِ والتَّرْبِيَةِ) الَّتِي أرَادَهَا الألْبَانيُّ رَحِمَهُ اللهُ مَوْجُوْدَةٌ في الألْفَاظِ الشَّرْعِيَّةِ إمَّا مُطَابَقَةً أو تَضَمُّنًا أو تَلازُمًا، فَلِلأسْماءِ الشَّرْعِيَّةِ مِنَ المَعَاني والدِّلالاتِ مَا لا يَفِي بِهِ أيُّ اسْمٍ أو لَفْظٍ آخَرَ.

فلَفْظُ (الإيْمانِ) شَرْعًا يَتَضَمَّنُ مَعْنَىٰ (التَّصْفِيَةِ والتَّرْبِيَةِ) ضَرُوْرَةً، فَإذَا كَانَتِ (التَّرْبِيَةُ) تَتَضَمَّنُ حَمْلَ النَّاشِئَةِ علىٰ الصَّحِيحِ مِنَ العَقِيْدَةِ والفِكْرِ والأحَادِيْثِ وغَيرِهَا، و(التَّصْفِيَةُ) تَتَضَمَّنُ تَنْقِيَةُ العَقِيْدَةِ والفِكْرِ والأحَادِيْثِ وغَيرِهَا ممَّا لَيْسَ مِنْهَا، فَعِنْدَئِذٍ كَانَ (الإيْمانُ) شَرْعًا يَتَضَمَّنُ مَعَاني (التَّصْفِيَةِ والتَّرْبِيَةِ) وزِيَادَةً، حَيْثُ إنَّ الإيْمانَ: قَوْلٌ وعَمَلٌ، وهُوَ في حَقِيْقَتِهِ يَتَضَمَّنُ تَحْقِيْقَ العُبُوْدِيَّةِ لله تَعَالىٰ ظَاهِرًا وبَاطِنًا، وهَذَا مَعْنَىٰ (التَّرْبِيَةِ)، ويَتَضَمَّنُ مُنَابَذَةَ كُلِّ مَا يُخَالِفُ مَعْنَىٰ الإيْمانِ، وهَذَا مَعْنَىٰ (التَّصْفِيَةِ)، لِذَا كَانَ الأوْلىٰ شَرْعًا الالْتِزَامُ بكَلِمَةِ: الإيْمانِ.

أو الالْتِزَامُ بلَفْظِ: «لا إلَهَ إلَّا الله»، لأنَّها تَتَضَمَّنُ دِلالَةَ (التَّصْفِيَةِ والتَّرْبِيَةِ) الَّتِي أشَارَ إلَيْهَا الألْبَانيُّ رَحِمَهُ اللهُ، وذَلِكَ بمُطَابَقَةِ مُفْرَدَاتِها، حَيْثُ يَدُلُّ مَعْنَىٰ (لا إلَهَ) علىٰ مَعْنَىٰ (التَّصْفِيَةِ)، ومَعْنَىٰ (إلَّا الله) علىٰ مَعْنَىٰ (التَّرْبِيَةِ) حَذْوَ القُذَّةِ بالقُذَّةِ.

فلمَّا كَانَتْ (لا إِلَهَ) تَدُلُّ علىٰ نَفْيِ كُلِّ مَأْلُوْهٍ ومَعْبُودٍ سِوَىٰ الله، فَكَذَا مَعْنَىٰ (التَّصْفِيَةِ) تَدُلُّ علىٰ نَفْيِ كُلِّ مَا مِنْ شَأْنِه يُخَالِفُ العَقِيْدَةَ الصَّحِيْحَةَ، والفِكْرَ الصَّحِيْحَ، والأحَادِيْثَ الصَّحِيْحَةَ، وكَذَا نَقُوْلُ أَيْضًا: إِنَّ مَعْنَىٰ (إِلَّا الله) تَدُلُّ علىٰ إِثْبَاتِ الأُلُوْهِيَّةِ الصَّحِيْحَةِ لله تَعالىٰ، فَكَذَا مَعْنَىٰ (التَّرْبِيَةِ) تَدُلُّ علىٰ حَمْلِ النَّاشِئَةِ علىٰ الإِسْلامِ في عَقِيْدَتِه وأَخْلاقِهِ الصَّحِيْحَةِ مِنْ كُلِّ مَا ذُكِرَ، لِذَا كَانَ مِنَ الأَوْلىٰ أَنْ يَلْتَزِمَ بكَلِمَةِ: لا إِلَهَ إِلَّا الله، بَدَلًا مِنَ (التَّصْفِيَةِ والتَّرْبِيَةِ)، لاسِيَّما هَذِهِ الأيَّامِ الَّتي اخْتَلَطَتِ عِنْدَ كَثِيْرٍ مِنَ المُسْلِمِيْنَ: الأَسْماءُ بالمُسَمَّياتِ، والظَّنِّيَّاتُ بالمُسَلَّماتِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّي!

قَالَ شَيْخُ الإِسْلامِ ابنُ تَيْمِيَّةَ ﷺ في «المَجْمُوعِ» (١٢/ ١١٣): «الأَلْفَاظُ الشَّرْعِيَّةُ لهَا حُرْمَةٌ، ومِنْ تَمامِ العِلْمِ أَنْ يُبْحَثَ عَنْ مُرادِ رَسُوْلِه بِها ليُثْبِتَ مَا أَثْبَتَهُ، ويُنْفِي مَا نَفَاهُ مِنَ المَعَاني، فَإِنَّه يَجِبُ عَلَيْنَا أَنَّ نُصَدِّقَهُ في كُلِّ مَا أَخْبَرَ، ونُطِيْعَهُ في كُلِّ مَا أَوْجَبَ وأَمَرَ . . .».

وبَعْدَئِذٍ؛ فَلا تَفْرَحْ بقَوْلِهِم: لا مُشَاحَةَ في الاصْطِلاحِ!

لأَنَّ كَلِمَةَ: لا مُشَاحَّةَ في الاصْطِلاحِ، لها شُرُوْطٌ، سَيَأتي ذِكْرُهَا إِنْ شَاءَ الله في صَفْحَةِ.

ثَامِنًا: وأَهَمُّ مِنْ ذَلِكَ أَنَّ الأَلْبَانيَّ ﷺ (مِنْ حَيْثُ لا يَشْعُرُ!) قَدْ فَتَحَ أَبْوَابًا كَثِيْرَةً كَانَ مِنَ الصَّعْبِ إِيْصَادُهَا إِلَّا بتَصْفِيَتِهَا مِنْ كَلِمَةِ (التَّصْفِيَةِ والتَّرْبِيَةِ)، وتَرْبِيَةِ النَّاشِئَةِ علىٰ تَرْكِ مَضْغِ كَلِمَةِ (التَّصْفِيَةِ والتَّرْبِيَةِ) في كُلِّ مَا تَأتي وتَذَرُ، فَمِنْ ذَلِكَ:

١- أنَّ بَعْضًا مِنْ أدْعِيَاءِ السَّلَفِيَّةِ اليَوْمَ قَدْ حَجَّرُوا وَاسِعًا؛ حَيْثُ حَصَرُوا مَنْهَجَ أهْلِ السُّنَّةِ والجَماعَةِ في كَلِمَةِ (التَّصْفِيَةِ والتَّرْبِيَةِ) كَما هُوَ ظَاهِرُ بَعْضِ كُتُبِهِم ومُحَاضَرَاتِهِم، لاسِيَّما مَا يَكْتُبُهُ مُرْجِئَةُ الحَدِيْثِ اليَوْمَ مِنْ بَعْضِ طُلَّابِ الشَّيْخِ رَحِمَهُ اللهُ.

٢- أنَّ كَثِيرًا مِنْهُم تَبَايَعُوا علىٰ كَلِمَةِ (التَّصْفِيَةِ والتَّرْبِيَةِ)، فَقَامَتْ بَيْنَهُم سُوْقُ (الوَلاءِ والبَراءِ)، و(الحُبِّ والبُغْضِ)، ومِنْ وَرَائِهَا كَانَ الهَجْرُ والتَّهاجُرُ بَيْنَ أبْنَاءِ المُسْلِمِيْنَ، عِلْمًا أنَّ لَفْظَةَ (التَّصْفِيَةِ والتَّرْبِيَةِ) لا تُحْمَدُ ولا تُذَمُّ لذَاتِها بغَضِّ النَّظَرِ عَنْ مُحْتَوَاهَا الحَادِثِ، وهَذَا خِلافُ الألْفَاظِ الشَّرْعِيَّةِ الَّتِي تَعَبَّدَنَا الله تَعَالىٰ بلَفْظِهَا ومَعْنَاهَا.

٣- أنَّ تَسْوِيْقَ كَلِمَةِ (التَّصْفِيَةِ والتَّرْبِيَةِ) وتَرْوِيْجَها بَيْنَ النَّاشِئَةِ ممَّا سَيَكُوْنُ لَهُ أثَرُهُ السَّيِّئُ علىٰ الألْفَاظِ الشَّرْعِيَّةِ في الأمَدِ البَعِيْدِ، لاسِيَّما علىٰ كَلِمَةِ: لا إلَهَ إلَّا الله، والإيْمَانِ، والإسْلامِ، والإحْسَانِ ... إلخ، وسَيَكُوْنُ الاسْتِبْدَالُ والتَّنْحِيَةُ شَيْئًا فَشَيْئًا أبَيْنَا أمِ ارْتَضَيْنَا!

٤- أنَّ كَثِيرًا مِنْ أدْعِيَاءِ (الفِكْرِ التَّرْبَوِيِّ) اليَوْمَ، قَدْ فَهِمُوا (التَّصْفِيَةَ والتَّرْبِيَةَ) علىٰ غَيْرِ مَا أرَادَهُ الألْبَانِيُّ رَحِمَهُ اللهُ، حَيْثُ نَرَاهُم يُقَسِّمُوْنَ هَذِهِ الكَلِمَةَ إلىٰ مَرْحَلَتَيْنِ ووَقْتَيْنِ غَيْرِ مُسَمَّيَيْنِ: مَرْحَلَةِ التَّرْبِيَةِ أوَّلًا، ثُمَّ مَرْحَلَةِ التَّصْفِيَةِ.

بمَعْنَىٰ: أنَّهُم يَقُوْمُوْنَ أوَّلًا: بتَجْمِيْعِ وتَقْمِيْشِ مَا يُمْكِنُ جَمْعُهُ مِنْ أبْنَاءِ المُسْلِمِيْنَ، وهَذِهِ المَرْحَلَةُ عِنْدَهُم لم تَكُنْ (للأسَفِ) مَعْلُوْمَةً ولا مَدْرُوْسَةً، اللهمَّ التَّجْمِيْعُ، باسْمِ: التَّرْبِيَةِ.

وثَانِيًا: أَنَّهُم يَقُوْمُوْنَ بَعْدَ المَرْحَلَةِ الأُوْلىٰ (فِيْما يَظُنُّوْنَ) بتَصْفِيَةِ الشَّبَابِ وفَرْزِهِم، كَما تَقْتَضِيْهِ المَرْحَلَةُ الثَّانِيَةُ عِنْدَهُم، وهَذِهِ المَرْحَلَةُ عِنْدَهُم لم تكُنْ (للأَسَفِ) مَعْلُوْمَةً ولا مَدْرُوْسَةً، اللهمَّ الفَرْزُ، باسْمِ: التَّصْفِيَةِ.

وعِنْدَ التَّحْقِيْقِ؛ نَجِدُهُم لا يُرَبُّوْنَ ولا يُصَفُّوْنَ، والدَّلِيْلُ علىٰ ذَلِكَ أَنَّ طَائِفَةً من الشَّبَابِ يَبْقَىٰ عِنْدَهُم السِّنِيْنَا الخَوَالِيَا، وهُوَ مَا تَرَبَّىٰ ومَا تَصَفَّىٰ، بَلْ يَبْقَىٰ مَعَهُم مَا بَقِيَ اللَّيْلُ والنَّهارُ لا عِلْمًا شَرْعِيًّا مُؤَصَّلًا، ولا عَمَلًا شَرْعِيًّا مُؤَمَّلًا، إلَّا مَا رَحِمَ الله!

٥- ومِنْ أخْطَرِهَا إنْ لم يَكُنْ أخْطَرَهَا: هُوَ أنَّ (التَّصْفِيَةَ والتَّرْبِيَةَ) اليَوْمَ قَدْ فَتَحَتْ للمُتَعَالِمِيْنَ مِنْ أدْعِيَاءِ (الفِكْرِ التَّرْبَوِيِّ) أبْوَابًا لا قِبَلَ لَنا بِها، حَيْثُ تَرَكَتْ هَذِهِ الكَلِمَةُ لِكُلِّ مَنْ هَبَّ ودَبَّ مَجَالًا فَسِيْحًا للعَبَثِ بتُرَاثِنَا العلْمِي، وشَجَّعَتِ الأقْزَامَ أنْ يَقْفِزُوا وأنْ يَتَرَامُوا في مَيَادِيْنِ العِلْمِ والتَّنْظِيْرِ والتَّرْشِيْدِ ممَّا مَرَّ، وسَيَمُرُّ ذِكْرُهُ إنْ شَاءَ الله!

❑ ❑ ❑

الفَصْلُ الثَّالِثُ

إغَارَةُ (التَّرْبِيَةِ) عَلىٰ تُرَاثِ الأمَّةِ

لا شَكَّ أنَّ (الفِكْرَ التَّرْبَويَّ) في عَصْرِنَا هَذَا قَدْ أخَذَ مَنْحَىٰ خَطِيرًا لا يَلْوِي علىٰ أحَدٍ مِنْ أهْلِ العِلْمِ الرَّبَّانِيِّيْنِ، كَما أنَّه ازْدَادَ شُهْرَةً وَاسِعَةً تَجاوَزَتِ الأفَاقَ، وامْتَلأتْ بِهِ الأوْرَاقُ، واشْتَغَلَ بِهِ الدُّعَاةُ والوُعَّاظُ وغَيْرُهِم مِنَ السَّلاطِيْنَ والأمَرَاءِ والوُزَرَاءِ . . . وهَكَذا حَتَّىٰ غَزَتْ أجْنَادُ (الفِكْرِ التَّرْبَويِّ) حُصُوْنَ العِلْمِ، وقِلاعَ الثَّقَافَةِ في بِلادِ المُسْلِمِيْنَ، حَيْثُ أنْشَبَتْ مَخَالِبَهَا في صُرُوْحِ الجَامِعَاتِ والمَعَاهِدِ والوَزَارَاتِ الإسْلامِيَّةِ هُنَا وهُنَاكَ تَحْتَ تَسْرِيْبِ مُنْشَآتِ كُلِّيَّاتِ التَّرْبِيَةِ وأقْسَامِهَا وفُنُوْنِها وغَيْرِهَا ممَّا لم تَسْلَمْ مِنْهُ صُرُوْحُ العِلْمِ كَافَّةً . . . وهَكَذَا لم تَزَلْ وَلائِدُ (الفِكْرِ التَّرْبَويِّ) الهَادِرُ بجَلْجَلِهِ وكَلْكَلِهِ تُسَابِقُ الزَّمَانَ في لَيْلِهِ ونَهَارِهِ، وتُضَايِقُ المَكَانَ في أرْضِهِ وبِحَارِهِ.

* * *

❏ فَلَيْتَ شِعْرِي؛ يَوْمَ رَمَتِ الأقْضِيَةُ التَّرْبَوِيَّةُ بِأطْنَابِها في مَنَابِعِ الفِكْرِ، ونَادَتْ بضَجِيْجِهَا في مِنَاحِي الثَّقَافَةِ، وأغَارَتْ بخَيْلِهَا ورَجْلِهَا تُبَيِّتُ المُسْلِمِيْنَ في فَلَذَاتِ أكْبَادِهِم، إذْ بِها تَأخُذُ برِقَابِ أبْنَاءِ المُسْلِمِيْنَ أخْذًا يَؤُزُّهُم أزًّا؛ لتَقْذِفَ بِهِم في تَمَوُّجَاتٍ وتَبِعَاتٍ مَاسِخَةٍ . . . ومِنْ وَرَائِها تَقْلِيْدٌ

وانْبِهَارٌ وتَعْظِيمٌ لمُخَلَّفَاتِ الغَرْبِ الكَافِرِ المَاثِلِ في مَنَاهِجِهِ وطَرَائِقِهِ التَّرْبَوِيَّةِ، ومِنْ قَبْلِهَا تَغْرِيْبٌ وتَغْيِيْبٌ وإبْعَادٌ للإرْثِ الإسْلامِي في مَنَاهِجِهِ وطَرَائِقِهِ العِلْمِيَّةِ والعَمَلِيَّةِ مَعًا.

حَتَّىٰ إذَا خَلَتِ السَّاحَةُ أو كَادَتْ، نَبَتَتْ بَيْنَنَا نَوَابِتُ نَكِدَةٌ، وظَهَرَتْ ظَوَاهِرُ غَرِيْبَةٌ . . . فعِنْدَهَا طُفِّفَتْ مَوَازِيْنُ العِلْمِ، وغُيِّبَتْ مُسَلَّماتُ الشَّرْعِ، واخْتَلَطَتْ يَقِيْنِيَّاتٌ بظَنِّيَّاتٍ، والْتَبَسَتْ حَقَائِقُ بمُبْطِلاتٍ . . . فَلَمْ تَعُدْ الرُّؤيَا في صَفَائِهَا، ولم تَبْقَ الرَّايَةُ العِلْمِيَّةُ تَحْتَ يَدِ رَامِيْهَا، في غَيْرِ ذَلِكَ مِنْ تَنَكُّبَاتٍ ومَتَاهَاتٍ قَدْ أخَذَتْ في بُنَيَّاتِ الطَّرِيْقِ قُدُمًا!

فَلا يَهُوْلَنَّكَ مَا هُنَا! فإنِّي وإيَّاكَ لَنَسْتَعْجِبُ كُلَّ العَجَبِ مِنْ هَذِهِ التَّيَّارَاتِ المَائِجَةِ، والرِّيَاحِ العَاصِفَةِ الآخِذَةِ برِقَابِ أدْعِيَاءِ (الفِكْرِ التَّرْبَوِيِّ) إلىٰ مَصَافِ العُلَماءِ الرَّبَّانِيِّيْنَ، والفُقَهَاءِ المُحَدِّثِيْنَ، والقُرَّاءِ العَامِلِيْنَ . . . يَوْمَ قَفَزَ دُعَاةُ (الفِكْرِ التَّرْبَوِيِّ) إلىٰ مَيَادِيْنِ (التَّرْبِيَةِ)، وتَسَنَّمُوا مِنْ خِلالِهَا قِيَادَةَ أبْنَاءِ المُسْلِمِيْنَ في الحَاضِرِ والبَادِ، وحَمَلُوا رَايَةَ تَوْجِيْهِهِم وإرْشَادِهِم في حَالِ العُسْرِ واليُسْرِ وفي المَنْشَطِ والمَكْرِهِ، وأخَذُوا بِحُجَزِهِم في الحَرْبِ والسِّلْمِ . . . في غَيْرِ هَذِه المَخَازِي العَارِيَةِ ممَّا جَرَّتْ علىٰ الأمَّةِ الوَيْلاتِ والنَّكَبَاتِ: مِنْ تَمْيِيْعٍ للقَضَايَا الإسْلامِيَّةِ، وانْهِزَامٍ دَعَوِيٍّ، ومُقَامَرَةٍ بجُهُوْدِ أبْنَاءِ المُسْلِمِيْنَ في مَفَاوِزَ وتِيْهِ (الفِكْرِ التَّرْبَوِيِّ)، فَلَكُمُ الله يَا أبْنَاءَ المُسْلِمِيْنَ!

وإنَّا وإيَّاهم؛ لتَذْهَبُ الحَسَرَاتُ بنُفُوْسِنَا، وليَأخُذِ الأسَىٰ ألمًا مَا رَأيْنَا ومَا سَمِعْنَا بوَلائِدِ (الفِكْرِ التَّرْبَوِيِّ) في تَمَوُّجَاتِهِ الجَائِي والذَّاهِبِ عَارِضًا بوَجْهِهِ

شَطْرَ وِهَادِ حَمقَاتِ التَّقْلِيْدِ والتَّشَهِّي والظُّهُوْرِ، عَارِضًا عَنْ تَرْسِيْمِ السَّلَفِ الصَّالِحِ لمنَاهِجِ العِلْمِ والدَّعْوَةِ بكُلِّ سَبِيْلٍ مُبِيْنٍ.

* * *

يُوَضِّحُهُ؛ ظُهُوْرُ بَيَارِقِ أسْماءِ (الفِكْرِ التَّرْبَوِيِّ): في الكُتُبِ والكُتَيِّبَاتِ والمَجَلَّاتِ والمُحَاضَرَاتِ والجَامِعَاتِ والمَعَاهِدِ . . . ونُبُوْغُ نَوَابِتَ تَرْبَوِيَّةٍ جَهْلاءَ: مِنْ تَرْبَوِيِّيْنَ، ومُرَبِّيْنَ، ومُفَكِّرِيْنَ، ومُحَلِّلِيْنَ سِيَاسِيِّيْنَ وغَيْرِهِم ممَّنْ تَقَلَّدُوا أدْوَارَ أهْلِ العِلْمِ الرَّبَّانِيِّيْنَ في تَعْلِيْمِ وتَرْشِيْدِ أبْنَاءِ المُسْلِمِيْنَ، في حِيْنَ أنَّ كَثِيرًا مِنْهُم لَيْسَ أهْلًا لهَذِهِ الوَظِيْفَةِ النَّبَوِيَّةِ، لا في عِلْمِهِ ولا في أخْلاقِهِ.

بَلْ إخَالُكَ تَعْجَبُ إذَا قُلْتُ لَكَ: إنَّ بَعْضًا مِنْهُم ضَعِيْفُ الدِّيْنِ رَقِيْقُ الحَيَاءِ، وأشَدُّ مِنْهُم مَنْ خَلَعَ جِلْبَابَ الحَيَاءِ عَنِ التَّعَالُنِ والمُجَاهَرَةِ بالمعَاصِي . . . نَعْم إنَّها (التَّرْبِيَةُ) ولا بَوَاكِي لهَا!

وهَلْ؛ عَنَّا ببَعِيْدٍ حَالُ كَثِيرٍ مِنْ أدْعِيَاءِ (الفِكْرِ التَّرْبَوِيِّ) ممَّنْ يَكْتُبُوْنَ اليَوْمَ لشَبَابِنَا: مِنْ تَنْظِيْرٍ وتَأصِيْلٍ وتَقْعِيْدٍ للتَّرْبِيَةِ؟ أو ممَّنْ يُنَظِّرُوْنَ ويُحَاضِرُوْنَ ويَشْرَحُوْنَ عَنْ أهَمِّيَتِهَا؟ لاسِيَّما في المَحَاضِنِ والمَجَامِعِ السَّائِرَةِ باسْمِ (التَّرْبِيَةِ)؟

إنَّ مِثْلَ هَؤلاءِ (للأسَفِ!): هُم الَّذِيْنَ تَوَلَّوْا قِيَادَةَ مَسِيْرَةِ أبْنَاءِ المُسْلِمِيْنَ إلىٰ التَّرْبِيَةِ والتَّرْشِيْدِ والتَّنْظِيْرِ . . . حَتَّىٰ إذَا أزِفَتِ الآزِفَةُ وحَصْحَصَ الحَقُّ: إذْ بِهِم يَنْفِضُونَ لَنَا أيْدِيْهِم مِنْ شَبَابِنَا وفَلَذَاتِ أكْبَادِنا، ويَتَنَكَّرُوْنَ لهُم بَعْدَمَا

غَمَسُوْهُم: في غَيَاهِبِ التَّبَعِيَّةِ، وضَعْفِ الإيْمانِ، وخَوَرِ العَزِيْمَةِ، وسَطْحِيَّةِ الثَّقَافَةِ، وانْهِزَامِ الدَّعْوَةِ والتَّربِيَةِ . . . ومِنْ أخْطَرِهَا وأضَرِّهَا علىٰ أنْفُسِهِم وأمَّتِهِم: أنَّهُم قَدْ غَيَّبُوْهُم عَنْ مَصَادِرِ التَّلَقِي الأصِيْلَةِ، وقَطَعُوا صِلَتَهُم عَنْ مَنَاهِلِ سَلَفِهِم الصَّالِحِ: سَوَاءٌ في تَحْقِيْقِ عُبُوْدِيَّتِهِم لله تَعَالىٰ سِرًّا وعَلانِيَةً، أو عَنْ كُتُبِهِم ومُصَنَّفَاتِهِم، أو مَآثِرِهِم وعَزْعَزَتِهِم!

* * *

نَعم؛ لَقَدِ اسْتَبْدَلَ بَعضُ أنْصارِ (الفِكْرِ التَّرْبَويِّ) الَّذِي هُوَ أدْنَىٰ بالَّذِي هُوَ خَيْرٌ، يَوْمَ قَلَّبُوا الأمُوْرَ لأبْنَاءِ المُسْلِمِيْنَ، وغَيَّرُوا الحَقَائِقَ العِلْمِيَّةَ، ومَسَخُوا أسْطَارَ التَّارِيْخِ الإسْلامِيِّ في مَسِيْرَتِهِ العِلْمِيَّةِ والعَمَلِيَّةِ.

يُوَضِّحُهُ؛ أنَّ ظَاهِرَةَ (الفِكْرِ التَّرْبَويِّ) أخَذَتْ في مَرْحَلَةِ الاسْتِبْدَالِ والتَّقْلِيْبِ بِكُلِّ مَا تَسْتَطِيْعُ حَيْثُ اسْتَبْدَلَتْ عُلَماءَ السَّلَفِ برُمُوْزِ (التَّرْبِيَةِ): فَيَوْمَ كَانَتِ الأمَّةُ تَسْمَعُ علىٰ مَرِّ العُصُوْرِ والدُّهُوْرِ بأعْلامِ الصَّحَابَةِ والتَّابِعِيْنَ ومَنْ تَبِعَهُم بإحْسَانٍ إلىٰ يَوْمِنَا هَذَا: مِثْلُ الخُلَفَاءِ الأرْبَعَةِ، والعَشَرَةِ المُبَشَّرِيْنَ بالجَنَّةِ في غَيْرِهِم مِنْ أعْلامِ الصَّحَابَةِ، وكَذَا ابنِ جُبَيْرٍ، والحَسَنِ البَصْرِيِّ، وابنِ المُسَيَّبِ، ومَسْرُوْقٍ، والزُّهْرِيِّ، والثَّوْرِيِّ، وكَذَا الأئِمَّةِ الأرْبَعَة، والبُخَارِيِّ، ومُسْلِمٍ، وأصْحَابِ السُّنَنِ، وابنِ عَبْدِ البَرِّ، والخَطِيْبِ البَغْدَادِيِّ، والنَّوَوِيِّ، وابنِ قُدَامَةَ، وكَذَا ابنِ تَيْمِيَّةَ، وابنِ القَيِّمِ، والذَّهَبِيِّ، وابنِ رَجَبٍ، وابنِ كَثِيرٍ، والمِزِّيِّ، والشَّاطِبِيِّ، والعِرَاقِيِّ، وابنِ حَجَرٍ، والسَّخَاوِيِّ، والسُّيُوْطِيِّ، وكَذَا ابنِ عَبْدِ الوَهَّابِ، وأئِمَّةِ

الدَّعْوَةِ، والصَّنْعَانيِّ والشَّوْكانيِّ، وابنِ الوَزِيْرِ، والمُعَلِّمِيِّ، والشِّنْقِيْطِيِّ، وابنِ إبْرَاهِيْمَ، والسَّعْدِيِّ، وابنِ عَقِيْلٍ، وآلِ شَاكِرٍ، والإبْرَاهِيْمِيِّ، والخَضِرِ حُسَيْنٍ، وابنِ بَادِيْسَ، والعُثْمانيِّ، وابنِ بَازٍ، والعُثَيْمِيْنِ، والألْبَانيِّ . . . وغَيْرِهِم مِنْ أهْلِ العِلْمِ الرَّبَّانِيِّيْنَ الأحْيَاءِ مِنْهُم والأمْوَاتِ.

❑ أمَّا اليَوْمَ؛ فَحَقًّا كَانَ البُكَاءُ عَلَيْنا؛ إذَا عَلِمَ الجَمِيْعُ أنَّ زَبَدَ (الفِكْرِ التَّرْبَويِّ) أخَذَ يَقْذِفُ بحُمَمِهِ المُحْرِقَةِ علىٰ أبْنَاءِ المُسْلِمِيْنَ اليَوْمَ مِنْ خِلالِ نَشْرِ وتَرْوِيْجِ وتَقْدِيْسِ أسْماءَ ورُمُوْزَ (التَّرْبَوِيِّيْنَ) في غَيْرِهَا مِنْ أسْماءٍ سَمَّوْهَا هُم وإخْوَانُهم مَا أنْزَلَ الله بها مِنْ سُلْطَانٍ، ولَوْ لا المَلامَةُ وخَوْفُ سَوْءِ الظَّنِّ لذَكَرْتُ مِنْ أسْماءِ (الفِكْرِ التَّرْبَويِّ) اليَوْمَ مَا يَنْدَىٰ لَهُ جَبِيْنُ الأمَّةِ، ويَضِيْقُ صَدْرُهَا مِنْ ظَاهِرِ عِلْمِهِم وقِلَّةِ فِقْهِهِم، فإلىٰ الله المُشْتَكَىٰ وعَلَيْهِ التُّكْلانِ!

فَلا تَذْهَبَنَّ نَفْسُكَ عَلَيْهِم حَسَرَاتٍ، وذَلِكَ عِنْدَمَا تَسْتَوْقِفُكَ أسْماءُ (الفِكْرِ التَّرْبَويِّ) الرَّائِجَة هُنَا وهُنَاكَ لاسِيَّما الجَامِعَاتُ والمَعَاهِدُ والمُنْتَدَيَاتُ، وكَذَا الوَزَارَاتُ والنَّدَوَاتُ والمُحَاضَرَاتُ . . . ومَهْما يَكُنْ فَهَذِهِ أسْماؤهُم تَجِدُهَا مَبْثُوْثَةً في المَكْتَبَاتِ العَامَّةِ عِنْدَ السُّؤَالِ عَنْ مُصَنَّفَاتِ (الفِكْرِ التَّرْبَويِّ)، ومَنْ أحَالَكَ علىٰ حَاضِرٍ فَقَدْ بَرِئ!

* * *

وكَذَا نَجِدُ ظَاهِرَةَ (الفِكْرِ التَّرْبَويِّ) اليَوْمَ في مَجْمُوْعِهَا قَدِ اسْتَبْدَلَتْ كُتُبَ السَّلَفِ العِلْمِيَّةِ الآخِذَةِ بيَدِ طَالِبِ العِلْمِ: إلىٰ بَيَانِ مَنْهَجِ العِلْمِ والتَّعَلُّمِ،

وفَضَائِلِه، وطَرائِقِه، وشَرَائِطِهِ، وآدَابِهِ، وكَذَا التَّحْذِيْرِ مِنْ غوَائِلِه: بكُتُبِ آدَابِ ومَنَاهِجِ (التَّرْبِيَةِ)!

فبِالأمْسِ القَرِيْبِ يَوْمَ كَانَتِ الأمَّةُ تَقْرَأ وتُقْرِئ كُتُبَ أهْلِ العِلْمِ الرَّبَّانِيِّيْنَ مِنَ السَّلَف الصَّالِحِ، نَجِدُهَا اليَوْمَ قَدِ اسْتَبْدَلَتْ تِلْكُمُ الكُتُبَ الأصِيْلَةَ بِكُتُبِ التَّرْبَوِيِّيْنَ، ومِنْ وَرَائِهَا كُتُبِ الإدَارَةِ والبَرْمَجَةِ العَصَبِيَّةِ وغَيْرَها إلَّا مَا نَدَرَ وقَلَّ.

* * *

ومِنَ النَّكَدَاتِ في هَذَا الزَّمَانِ؛ أنَّ كُتُبَ (الفِكْرِ التَّرْبَوِيِّ) لم تَزَلْ في تَكاثُرِهَا وتَنَاثُرِهَا بَيْنَ الحِيْنِ والآخَرِ، حَيْثُ أخَذَتْ مِنْ أفْكَارِ وثَقَافَاتِ الأمَّةِ في أبْنَائِهَا الشَّيءَ الكَثِيرَ، بَلْ لا أبَالِغُ إذَا قُلْتُ: إنَّ كُتُبَ (الفِكْرِ التَّرْبَوِيِّ) أصْبَحَتِ المَادَّةَ المُتَدَفِّقَةَ والمَائِدَةَ المُغْدِقَةَ في تَلَقِّي العِلْمِ والتَّعْلِيْمِ عِنْدَ أكْثَرِ أبْنَاءِ المُسْلِمِيْنَ، سَوَاءٌ في الجَامِعَاتِ أو المَعَاهِدِ أو المُنْتَدَيَاتِ أو المَجَامِعِ أو المَحَاضِنِ، فإلىٰ الله المُشْتَكىٰ وعَلَيْهِ التُّكْلانُ!

ويَزْدَادُ خَوْفُنَا إذَا وَقَفْنَا مَعَ أسْماءِ كُتُبِ (الفِكْرِ التَّرْبَوِيِّ) في المَكْتَبَاتِ العَامَّةِ والخَاصَّةِ، وحَتَّىٰ سَاعَتِي هَذِهِ؛ فَقَدْ بَلَغَتْ أسْماءُ الكُتُبِ الَّتِي سَطَّرَهَا وكَتَبَهَا رُوَّادُ وصُنَّاعُ (الفِكْرِ التَّرْبَوِيِّ) مَبْلَغًا يَزِيْدُ علىٰ (١٥٠٠) ألْفٍ وخَمْسِمائَةِ عُنْوَانٍ مَا بَيْنَ تَأصِيْلٍ وتَقْرِيْرٍ، وبَيْنَ فَلْسَفَةٍ وتَنْظِيْرٍ إلىٰ غَيْرِهِ مِنْ مُشْتَقَّاتٍ ومَضَامِيْنِ (التَّرْبِيَةِ) في المَكْتَبَاتِ الإسْلامِيَّةِ!

* * *

❑ ولَنَا أَنْ نُحَاكِمَ أَحَدَ كِبَارِ مُنَظِّرِي (الفِكْرِ التَّرْبَوِيِّ)، وأَكْثَرَهُم تَأْلِيْفًا وتَنْظِيرًا، إِنَّهُ الأَخُ الدَّاعِيَةُ المُرَبِّي[1]: عَبْدُ الكَرِيمِ بَكَّار حَفِظَهُ الله.

وذَلِكَ مِنْ خِلالِ كِتَابِه «بِنَاءِ الأَجْيَالِ»، حَيْثُ بَلَغَتْ صَفَحَاتُهُ (٢١١) إِحْدَىٰ عَشَرَةَ ومَائَتَيْنِ صَفْحَةً.

ومِنَ المُؤسِفِ والمُحْزِنِ مَعًا أَنَّ الكِتَابَ يَحْمِلُ عُنْوَانًا مُهِمًّا جِدًّا، لا يَسْتَطِيْعُ القِيَامُ بِهِ رَجُلٌ ولا رَجُلانِ، بَلْ يَحْتَاجُ إِلىٰ كَوْكَبَةٍ مِنَ العُلَماءِ الرَّبَّانِيِّيْنَ الرَّاسِخِيْنَ في العِلْمِ الشَّرْعِيِّ، فالعُنْوَانُ يَحْمِلُ في عِبَارَتِه وإِشَارَتِهِ: بِنَاءَ وتَكْوِيْنَ وتَرْبِيَةَ الأَجْيَالِ المُسْلِمَةِ . . . ومَعَ هَذَا الطَّرْحِ الغَايَةِ في أَهْدَافِهِ إِذْ بِنَا نَجِدُ صَاحِبَ الكِتَابِ يَقْطَعُ آمَالَنَا في فَلَذَاتِ أَكْبَادِنَا، إِذَا عَلِمْنَا ما يَلي:

❑ أَنَّ الكِتَابَ يَحْتَوِي علىٰ: سِتَّ عَشَرَةَ آيَةً، وسَبْعَةَ أَحَادِيْثَ!

أي بمُعَدَّلِ: آيَةٍ وَاحِدَةٍ في كُلِّ ثَلاثَ عَشَرَةَ صَفْحَةً، وحَدِيثٍ وَاحِدٍ في كُلِّ ثَلاثِيْنَ صَفْحَةً!

❑ كَما أَنَّ الآيَاتِ والأَحَادِيْثَ في كِتَابِه هَذا لا تَأْتي إِلَّا تِبَاعًا للاسْتِئْنَاسِ والتَّذْكِيْرِ لَيْسَ إِلَّا، أَمَّا أَقْوَالُ الكَاتِبِ وأَفْكَارِهِ وتَجَارُبِهِ فَتَأْتي تَأْصِيْلًا وتَدْلِيْلًا . . . لِذَا كَانَ جَرُّ الأَدِلَّةِ الشَّرْعِيَّةِ عِنْدَهُ كَانَ لِتَدْعِيْمِ أَقْوَالِهِ وأَفْكَارِهِ وتَعْزِيْزِ تَجَارُبِهِ.

---

(١) لا شَكَّ أَنَّ أَخَانَا الشَّيْخَ عَبْدَ الكَرِيْمِ بَكَّار حَفِظَهُ الله، لَهُ كُتُبٌ كَثِيْرَةٌ قَدْ كَتَبَهَا بِقَلَمٍ إِيْمانيٍّ، وحَمِيَّةٍ إِسْلامِيَّةٍ، وغَيْرَةٍ أَبِيَّةٍ، مَا يَقْضِي لَهُ بالشُّكْرِ، فَجَزَاهُ الله تَعَالىٰ عَنِ الإِسْلامِ خَيْرًا.

وأدلُّ شيءٍ علىٰ هَذَا؛ أنَّه (هَدَاهُ الله) إذَا ذَكَرَ الآيَةَ أو الحَدِيْثَ لا يَتْبَعُهُما بتَفْسِيْرٍ وأقْوَالِ السَّلَفِ الصَّالِحِ . . . فَلا تَسْمَعُ عِنْدَهُ بذِكْرِ: ابنِ مَسْعُوْدٍ ولا ابنِ عَبَّاسٍ ولا ابنِ جُبَيْرٍ ولا عَطَاءٍ ولا السُّدِّي ولا مَالِكٍ ولا الشَّافِعيِّ ولا أحمَدَ ولا ابنِ عَبْدِ البَرِّ ولا ابنِ تَيْمِيَّةَ ولا غَيْرِهِم مِنْ عُلَماءِ السَّلَفِ، بَلْ يَتْبَعُ الآيَةَ والحَدِيْثَ بكَلامِهِ وأفْكَارِهِ وتَجارُبِهِ، وإلَّا تَرَكَهُما لخَيَالِ القَارِئ والسَّامِعِ!

هَذَا إذَا عَلِمْنَا أنَّ أكْثَرَ مَرَاجِعِ الكِتَابِ: أجْنَبِيَّةٌ غَرْبِيَّةٌ، مَا بَيْنَ كُتُبٍ مُتَرْجَمَةٍ أو مُعْجَمَةٍ، فَهَلْ بَعْدَ هَذَا تَأثُّرٌ وتَأثِيْرٌ يَفُوْقُ صَنِيْعَ هَذَا الكَاتِبِ في كِتَابِهِ؟!

* * *

❑ وللأسَفِ أيْضًا بَقِيَّةُ اعْتِصَارٍ لقُلُوْبِنَا؛ إذَا وَقَفْنَا مَعَ كِتَابٍ آخَرَ للشَّيْخِ بَكَّارٍ حَفِظَهُ الله، وهُوَ: «مِنْ أجْلِ انْطِلاقَةٍ حَضَارِيَّةٍ شَامِلَةٍ»، حَيْثُ بَلَغَتْ صَفَحَاتُهُ (٢٠٩) تِسْعَ ومَائَتَيْنِ صَفْحَةً.

فالكِتَابُ أيْضًا يَحْمِلُ عُنْوَانًا كَبِيْرًا جِدًّا، حَيْثُ إنَّه يُوْحِي بتَبَاشِيرَ للأمَّةِ المَكْلُوْمَةِ في حَضَارَتِها اليَوْمَ، وذَلِكَ بأخْذِهِ بيَدِهَا إلىٰ النَّهْضَةِ الحَضَارِيَّةِ الشَّامِلَةِ!

فَكَانَ مِنْ بَقَايَا اليَقِيْنِ هُنَا؛ أنَّ الكِتَابَ الأوَّلَ لَهُ إذَا لم يَكُ مِنْ مَقْدُوْرِ الرَّجُلِ ولا الرَّجُلَيْنِ، فكِتَابُنَا هَذَا مِنْ بَابِ أوْلىٰ وأحْرَىٰ، ومَعَ هَذَا إذْ بِنَا نَجِدُ صَاحِبَ الكِتَابِ يَزِيْدُنَا يَقِيْنًا أنَّ أكْثَرَ أنْصَارِ (الفِكْرِ التَّرْبَوِيِّ) لا يُحْسِنُوْنَ الأخْذَ بأزِمَّةِ الوَحْيَيْنِ، ولا النَّهْلَ مِنْ مَوَارِدِ السَّلَفِ الصَّالِحِ في حَلِّ المَسَائِلِ

والمُعْضِلاتِ؛ فَضْلًا عَنِ القَضَايَا المَصِيْرِيَّةِ الكُبْرَىٰ، لاسِيَّما البَانِيَةُ للأجْيَالِ، والنَاهِضَةُ للآمَالِ!

نَعَم؛ فَإنَّ هَذَا الكِتَابَ لَيْسَ عَنْ صَاحِبِهِ ببَعِيْدٍ تَدْلِيْلًا وتَعْلِيْلًا، هَذَا إذَا عَلِمْنَا مَا يَلي:

❑ أنَّ الكِتَابَ يَحْتَوِي علىٰ: سَبعَ عَشَرَةَ آيَةً، وعَشَرَةَ أحَادِيْثَ!

أي بمُعَدَّلِ: آيةٍ وَاحِدَةٍ في كُلِّ اثْنَتي عَشَرَةَ صَفْحَةً، وحَدِيْثَيْنِ في كُلِّ عِشْرِيْنَ صَفْحَةً!

❑ أمَّا مَا ذَكَرَهُ الكَاتِبُ للآيَاتِ والأحَادِيْثِ، ورَصْفِهِ للمَرَاجِعِ: فَلا تَقِلُّ مُمَاثَلَةً عَنِ الكِتَابِ الأوَّلِ، هَذَا إذَا لم يَكُنْ زَائِدًا عَلَيْهِ ببَعْضِ المُصْطَلَحَاتِ المَنْطِقِيَّةِ، والأسَالِيْبِ الصُّحُفِيَّةِ الإعْلامِيَّةِ؟!

وحَسْبِي كِفَايَةً في ذِكْرِ هَذَيْنِ الكِتَابَينِ للأخِ بَكَّارٍ دُوْنَ غَيْرِهِ مِنْ رُوَّادِ (الفِكْرِ التَّرْبَوِيِّ)، ومَا ذَاكَ إلَّا لكَوْنِه حَفِظَهُ الله مِنْ أمْثَلِهِم طَرِيْقَةً، وأكْبَرِهِم تَنْظِيرًا، وأوْسَعِهِم رَوَاجًا، وأبْلَغِهِم مَقَالًا . . . وفي هَذَيْنِ الكِتَابَينِ دَلالاتٌ وشَوَاهِدُ تُنْبِؤكَ بِما وَرَاءَهُما مِنْ كُتُبٍ تَرْبَوِيَّةٍ لا تَقِلُّ هَشَاشَةً مِنْهُما، والله أعْلَمُ.

* * *

❑ تَنْبِيْهٌ: لَيْسَ بالضَّرُوْرَةِ أنْ نَحْكُمَ علىٰ جَوْدَةِ أو رَدَاءَةِ كِتَابٍ مَّا بالنَّظَرِ إلىٰ كَثْرَةِ مَا فِيْهِ مِنَ الآيَاتِ والأحَادِيْثَ، كَلَّا؛ بَلْ هَذَا مَتْرُوْكٌ للمَوْضُوْعِ المُرَادِ الحَدِيْثِ عَنْهُ، فلأهْلِ العِلْمِ في التَّألِيْفِ والتَّصْنِيْفِ مَسَالِكُ ومَنَاهِجُ

مُتَغَايِرَةٌ بحَسَبِ المَوْضُوْعِ طَرْحًا وعَرْضًا، وبهَذَا نَعْلَمُ الفرْقَ بَيْنَ مَا يَكْتُبُهُ أهْلُ العِلْمِ في العَقِيْدَةِ والفِقْهِ والتَّفْسِيْرِ وغَيْرِهَا مِنَ المَوَاضِيْعِ الشَّرْعِيَّةِ الَّتِي تَتَوَقَّفُ مَعْرِفَتُهَا علىٰ الأدِلَّةِ الشَّرْعِيَّةِ، وبَيْنَ مَا كَتَبُوْهُ في التَّارِيْخِ والسِّيَرِ والآدَابِ والأخْلاقِ واللُّغَةِ والأدَبِ وفِقْهِ الوَاقِعِ وغَيْرِهَا ممَّا لا يَتَوَقَّفُ مُعْظَمُهُ علىٰ الأدِلَّةِ الشَّرْعِيَّةِ، فَهَذَا لَوْنٌ وهَذَا لَوْنٌ، ومَعَ هَذَا فَكُلَّما اسْتَكْثَرَ المُؤلِّفُ مِنْ ذِكْرِ الأدِلَّةِ الشَّرْعِيَّةِ في كُلِّ مَا يَأتي مِنَ التَّآلِيْفِ والتَّصَانِيْفِ فَهُوَ أكْمَلُ وأفْضَلُ، بَلْ هَذَا يَدُلُّ علىٰ رُسُوْخِهِ وفِقْهِهِ وتَوْفِيْقِهِ وحِكْمَتِهِ!

لأجْلِ هَذَا؛ سَبَقَتْ مِنَّا كَلِمَةُ اسْتِدْرَاكٍ هُنَا علىٰ الكِتَابَيْنِ السَّابِقَيْنِ للشَّيْخِ بَكَّارٍ، وذَلِكَ لقُصُوْرِ وقِلَّةِ الأدِلَّةِ الشَّرْعِيَّةِ فِيْهِما، هَذَا إذَا عَلِمْنَا سَالِفًا أنَّ عَنَاوِيْنَهُما ومَوْضُوْعَهُما يَسْتَوْجِبَانِ ضَرُوْرَةَ جَمْعِ وذِكْرِ مَا يُمْكِنُ ذِكْرُهُ مِنَ الأدِلَّةِ الشَّرْعِيَّةِ، والله أعْلَمُ.

* * *

أمَّا مَا يَبُثُّهُ أقْطَابُ (الفِكْرِ التَّرْبَوِيِّ) في المَقَالاتِ والمَجَلَّاتِ والنَّدَوَاتِ والمُحَاضَرَاتِ فَشِيءٌ لا يَعُدُّهُ عَادٌّ، ولا يُحْصِيْهُ مُحْصٍ إلَّا رَبُّ العَالمِيْنَ!

وَيْكَأنَّ بَعْضَ المُرَبِّيْنَ والمُنَظِّرِيْنَ اليَوْمَ مِمَّنْ تَقَلَّدَ مَنْصِبَ التَّرْبِيَةِ لم يَرْفَعْ رَأسًا للعِلْمِ الشَّرعِي المؤَصَّلِ، بل بَعْضُهُم للأسفِ لَم يَخُطَّ شَارِبُه بَعْدُ، وبَعْضُهُم تَصَدَّرَ للتَّرْبِيَةِ بِحُكْمِ الأسْبَقِيَّةِ والتَّقَدُّمِ الزَّمَنِيِّ لكَوْنِه مُنْذُ أنْ نَشَأ وتَرَعْرَعَ وهُوَ فِي هَذِه المَرَاكِزِ والمحَاضِنِ والمَجَامِعِ السِّنِيْنَ الخَوَالِيَا، وبَعْضُهُم تَسَنَّمَ مَنَاصِبَ التَّرْبِيَةِ لكَوْنِهِ حَسَنَ الصَّوْتِ فِي القُرْآنِ، وبَعْضُهم لأنَّه مُرِيْدٌ مُطِيْعٌ لِكَبِيْرِهِم الَّذِي عَلَّمَهُم التَّرْبِيَةَ، وآخَرُوْنَ أخَذُوْا فِي التَّرْبِيَةِ

بَادِئَ الرَّأيِ لكَوْنِهِم مِنْ عِلْيَةِ القَوْمِ لاسِيَّما أصْحَابُ المَنَاصِبِ العَلِيَّةِ، أو الثَّرَوَاتِ المَالِيَّةِ، وآخَرُوْنَ مِنْ وَرَائِهِم لا نَعْلَمُهُم الله يَعْلَمُهُم!

فإنَّ صَنِيْعًا مِثْلَ هَذَا؛ ممَّا يَزِيْدُنَا خَوْفًا علىٰ تُرَاثِنَا الإسْلامِيِّ، وعلىٰ أبْنَاءِ المُسْلِمِيْنَ الَّذِيْنَ هُم مَادَّةُ الإسْلامِ وحُمَاتِهِ وذَادَتُهُ!

* * *

فَحِيْنَ اسْتَبْدَلَ أصْحَابُ (الفِكْرِ التَّرْبَويِّ) المُصْطَلَحَ الشَّرْعِيَّ بمُصْطَلَحٍ حَادِثٍ قَدْ ألْبَسُوْهُ ثَوْبًا فَضْفَاضًا يَرْتَدِيْهِ كُلُّ مَنْ هَبَّ ودَبَّ . . . وَقَعُوا في حَيْصَ بَيْصَ، وفي هِيَاطٍ ومِيَاطٍ، وذَلِكَ بتَنْحِيَةِ وتَقْمِيْصِ واخْتِزَالِ كَلِمَةِ (العَالِمِ) في كَلِمَةِ (المُرَبِّي)، واخْتِزَالِ كَلِمَةِ (العِلْمِ) في كَلِمَةِ (التَّرْبِيَةِ)، فَعِنْدَهَا خَرَجَتْ عَلَيْنَا نَوَابِتُ نَكِدَةٌ وزَوَابِعُ هَشَّةٌ قَدْ رَفْرَفَتْ في مَشَارِقِ الأرْضِ ومَغَارِبِها تَحْتَ عَبَاءَةِ (الفِكْرِ التَّرْبَويِّ)!

وهَكَذا لم يَنْتَهِ بِهِم التَّبْدِيْلُ في المُصْطَلَحَاتِ الشَّرْعِيَّةِ؛ حَتَّىٰ أتْبَعَهُ التَّعْطِيْلُ في حَمَلَةِ الشَّرِيْعَةِ، حَيْثُ اسْتَطَاعَ أسَاطِيْنُ (الفِكْرِ التَّرْبَويِّ) أنْ يَصْنَعُوا حَاجِزًا مَنِيْعًا بَيْنَ أبْنَاءِ المُسْلِمِيْنَ وبَيْنَ عُلَماءِ الأمَّةِ الرَّبَّانِيِّيْنَ، فَكَانَ الجَهْلُ أو التَّجَاهُلُ بَيْنَهُم، وكَانَ الهَجْرُ أو التَّهَاجُرُ فِيْهِم . . . فَقَلِيْلٌ مِنْ أبْنَائِنَا مَنْ يَعْرِفُ العُلَماءَ الرَّبَّانِيِّيْنَ ومُصَنَّفَاتِهِم، وكَثِيْرٌ مِنْهُم مَنْ يَعْرِفُ أرْبَابَ (الفِكْرِ التَّرْبَويِّ) وكُتُبَهُم.

ولَيْسَ عَجَبًا عِنْدَهُم اليَوْمَ؛ أنَّ كُلَّ مَنْ سَرْبَلُوْهُ بِشَيءٍ مِنْ أثْوَابِ (الفِكْرِ

التَّرْبَوِيِّ) أو كَسَوْهُ وِسَامَ (التَّرْبِيَةِ)، أو لَقَّبُوْهُ (مُرَبِّيًا): أَصْبَحَ شَيْئًا مَذْكُوْرًا، وعَمَلًا مَشْكُوْرًا، بَعْدَ أَنْ كان نَسْيًا مَغْمُوْرًا، إنَّ مِثْلَ هَذَا لهُوَ العَجَبُ الَّذِي لا تَنْتَهِي عَجَائِبُهُ!

فمَنْ شَاءَ أنْ يَذْهَبَ إلىٰ دُرُوْسِ العِلْمِ الَّتِي يُقِيْمُهَا أَهْلُ العِلْمِ الرَّبَّانِيُّوْنَ لِيَرَىٰ بِأُمِّ عَيْنَيْهِ مَا أَرَىٰ: مِنْ قِلَّةِ طُلَّابِ العِلْمِ الحَاضِرِيْنِ، ولْيَنْظُرْ تِباعًا عَدَدَ الحَاضِرِيْنَ مِنْ أَبْنَاءِ المُسْلِمِيْنَ في تِلْكُمُ المَجَامِعِ والنَّوَادِي التَّرْبَوِيَّةِ، لِيَعْلَمَ ولِيَرَىٰ هَذِهِ الأَفْوَاجَ المُتَكَاثِرَةَ، وإنْ كُنَّا لا نَكْرَهُ هَذَا التَّجَمُّعَ الطَّيِّبَ مِنْهُم، إلَّا أنَّنَا نَكْرَهُ هَذَا العُزُوْفَ عَنْ طَلَبِ العِلْمِ والجُلُوْسِ بَيْنَ أيْدِي أهْلِ العِلْمِ؟!

* * *

❑ ومِنْ قَبْلُ ومِنْ بَعْدُ، فإنَّ أنْصَارَ (الفِكْرِ التَّرْبَوِيِّ) اليَوْمَ لم يَكُوْنُوا علىٰ مَنْهَجٍ أو فِكْرٍ وَاحِدٍ؛ بَلْ هُم علىٰ طَرَائِقَ قِدَدًا، ومَهْما يَكُنْ فَهُم (في جُمْلَتِهِم) لا يَخْرُجُوْنَ عَنْ أحَدِ رَجُلَيْنِ:

الأَوَّلُ مِنْهُما: الَّذِيْنَ تَوَلَّوْا كِبْرَ (الفِكْرِ التَّرْبَوِيِّ) في تَرْوِيْجِهِ وتَقْرِيْرِهِ وبَعْثِهِ مِنْ قُبُوْرِ الثَّقَافَاتِ البَائِدَةِ في قَوَالِبَ إسْلامِيَّةٍ مُغْتَصَبَةٍ ... مِمَّنْ تَقَمَّصُوا ثِيَابَ أهْلِ العِلْمِ في التَّعَامُلِ مَعَ قَضَايَا الأُمَّةِ النَّازِلَةِ، الآخِذِيْنَ بحُجَزِ أبْنَاءِ المُسْلِمِيْنَ إلىٰ دَرَكَاتِ الانْهِزَامِ والتَّبَعِيَّةِ، السَّائِمِيْنَ علىٰ وُجُوْهِهِم بَيْنَ المُسْلِمِيْنَ باسِمْ: (التَّرْبِيَةِ) الحَادِثَةِ.

فأصْحَابُ هَذَا القِسْمِ؛ للأسَفِ: هُم أَكْثَرُ نَفِيْرًا وأعْظَمُ تَنْفِيْرًا، وأشْهَرُ ذِكْرًا وأظْهَرُ نُكْرًا، فأكْثَرُهُم لم يَرْفَعْ رَأْسًا للعِلْمِ الشَّرْعِيِّ المُؤَصَّلِ، ولم

يَنْهَلْ في تَعْلِيْمِهِ مِنَ الكِتَابِ والسُّنَّةِ وكَلامِ السَّلَفِ الصَّالِحِ، بَلْ لا يَعْرِفُ مِنَ (الفِكْرِ التَّرْبَوِيِّ) إلَّا لَوْثَاتِ الثَّقَافَاتِ الغَرْبِيَّةِ، وتَجَارُبَها المَيْدَانِيَّةَ، مَعَ تَفَقُّهَاتٍ وتَكَهُّنَاتٍ للحَاضِرِ والمُسْتَقْبَلِ.

فَهَؤلاءِ للأسَفِ؛ هُمْ اليَوْمَ أكْثَرُ أرْبَابِ (الفِكْرِ التَّرْبَوِيِّ): تَصْنِيْفًا، وتَألِيْفًا وإلْقَاءً، ومُحَاضَرَةً . . . ولَوْلا المَلامَةُ لذَكَرْتُ مِنْ أسْمائِهِم وأسْماءِ كُتُبِهِم مَا تَضِيْقُ بِهِ الرِّسَالَةُ، حَيْثُ بَلَغَتْ كُتُبُهُم (١٥٠٠) عِنْوَانٍ أو يَزِيْدُ!

* * *

أمَّا الثَّاني مِنْهُما: هُم الَّذِيْنَ أخَذُوا نَصِيْبًا مِنَ العِلْمِ الشَّرْعِيِّ، إلَّا أنَّهم مَعَ هَذِهِ النِّعْمَةِ الرَّبَّانِيَّةِ قَدْ تَأثَّرُوا بطَرِيْقٍ أو آخَرَ بحَمْحَمَةِ (الفِكْرِ التَّرْبَوِيِّ) حَيْثُ نَرَاهُم قَدْ وَقَعُوا في أسْرِ وقَبْضَةِ الانْهِزَامِ الدَّعْوِيِّ يَوْمَ تَنَكَّبُوا الطَّرِيْقَ السَّلَفِيَّ لِيَبْحَثُوا جَاهِدِيْنَ في تَقْلِيْبِ صَفَحَاتِ التَّارِيْخِ، مُنَقِّبِيْنَ سِيَرَ أهْلِ العِلْمِ الرَّبَّانِيِّيْنَ، مُنْتَزِعِيْنَ مِنَ الأدِلَّةِ الشَّرْعِيَّةِ مَا يَظُنُّوْنَهُ دَلِيْلًا: لتَأصِيْلِ وتَقْرِيْرِ (الفِكْرِ التَّرْبَوِيِّ) وأنَّهُ مَوْجُوْدٌ في تُرَاثِنَا مُنْذُ فَجْرِ الإسْلامِ، وأنَّ كَثِيْرًا مِنْ عُلَماءِ الأمَّةِ كَانُوا أعْلامًا في (التَّرْبِيَةِ) قَبْلَ أنْ يَكُوْنُوا عُلَماءَ، وأنَّ الثَّقَافَةَ الإسْلامِيَّةَ سَابِقَةٌ علىٰ غَيْرِهَا مِنَ الحَضَارَاتِ الغَرْبِيَّةِ في مَيْدَانِ التَّرْبِيَّةِ . . . وهَكَذَا في تَخَبُّطَاتٍ وتَمَوُّجَاتٍ كَأنَّهُم علىٰ جَنَاحِ طَائِرٍ!

ومَعَ إبْلاسِهِم وانْقِطَاعِهِم عَنْ وُجُوْدِ مَا يَدُلُّهُم علىٰ وُجُوْدِ مُصْطَلَحِ (التَّرْبِيَةِ) في الكِتَابِ والسُّنَّةِ وتَارِيْخِ الأمَّةِ العِلْمِيِّ والعَمَلِيِّ علىٰ حَدٍّ سَوَاءٍ، لم يَلْبَثُوا طَوِيْلًا حَتَّىٰ أخْرَجُوا (التَّرْبِيَةِ) مِنْ جُحُوْرِ ضِبَابِ الغَرْبِ، بَعْدَ تَنْقِيْبِ

وتَشْقِيْقٍ مُضْنٍ، ومَا ذَاكَ إلَّا أنَّهم يَرَوْنَ أنْفُسَهم أصْحَابَ فَحْصٍ وتَقَصٍّ، واسْتِنْبَاطٍ وتَعْلِيْلٍ. . . وهَكَذَا يَرَوْنَ أنْفُسَهم!

وعُذْرُنَا مَوْصُوْلٌ بعُذْرِهِم؛ أنَّهم أرَادُوا بِما كَتَبُوْهُ في تَعْزِيْزِ (الفِكْرِ التَّرْبَويِّ): الرَّدَّ علىٰ مَنْ ظَنَّ أنَّ الإسْلامَ لم يَهْتَمْ بالتَّرْبِيَةِ، ولا بمَنَاهِجِهَا ولا بأفْكَارِهَا . . . وهَكَذَا (ظَنُّوا) حَتَّىٰ أشْغَلُوا أنفُسَهُم وأشْغَلُوا السَّاحَةَ العِلْمِيَّةَ بِلا طَائِلٍ ولا قَائِلٍ.

* * *

❑ ولهُم فِيْما يَأتُوْنَ ويَذَرُوْنَ أسْلافٌ قَدْ قَتَلَهُم الانْهِزَامُ، حَيْثُ إنَّهم خَرَجُوا فِيْما مَضَىٰ لِيَنْصُرُوا الإسْلامَ (زَعَمُوا) فَإذا بِهِم يَنْصُرُوْنَ علىٰ الإسْلامِ، وهَكَذَا دَوَالَيْكَ لم تَنْتَهِ بِهِم عَجَلَةُ الانْهِزَامِ الدَّافِعَةِ!

فَتَارَةً يَقُوْلُوْنَ: مَسَارِحَ إسْلامِيَّةً، تَمثِيْلِيَّاتٍ إسْلامِيَّةً، أغَانٍ إسْلامِيَّةً، أزْيَاءَ إسْلامِيَّةً، فَوَائِدَ إسْلامِيَّةً، دِيْمُقْرَاطِيَّةً إسْلامِيَّةً، مُظَاهَرَاتٍ إسْلامِيَّةً، حُرِّيَّاتٍ إسْلامِيَّةً، حِوَارَاتٍ إسْلامِيَّةً، انْتِخَابَاتٍ إسْلامِيَّةً، حُرِّيَّةَ الأدْيَانِ، حُرِّيَّةَ الفِكْرِ . . . ومِنْ وَرَائِهَا: هَزَائِمُ دَعَوِيَّةٌ!

وتَارَةً يَكْتُبُوْنَ: الدِّيْمُقْرَاطِيَّةَ في الإسْلامِ، الرَّأسَمَالِيَّةَ في الإسْلامِ، الاشْتِرَاكِيَّةَ في الإسْلامِ، وِحْدَةَ الأدْيَانِ، العِلْمَ والإيْمانَ، الإعْجَازَ في القُرْآنِ، الإعْجَازَ في الحَدِيْثِ، تَجدِيْدَ الخِطَابِ الدِّيْنِي، نَحْنُ والآخَرَ، الإرْهَابَ، الإنْسَانِيَّةَ في الإسْلامِ . . . ومِنْ وَرَائِهَا: عَوْلَمَةٌ إسْلامِيَّةٌ!

* * *

❑ نَعَمْ؛ هَذِهِ بَعْضُ جِنَايَاتِ (الفِكْرِ التَّرْبَوِيِّ) علىٰ أهْلِهِ مِنَ المُسْلِمِيْنَ، إلَّا أنَّنا مَعَ هَذِهِ الجِنَايَاتِ نَجِدُ كَثِيْرًا مِنْ أرْبَابِ (الفِكْرِ التَّرْبَوِيِّ) لم تَزَلْ تَقْذِفُ بِهِمُ (التَّرْبِيَةُ) إلىٰ التَّقَوُّلِ علىٰ التَّارِيْخِ والإرْثِ العِلْمِيِّ بغَيْرِ حُجَّةٍ ولا بُرْهَانٍ، فَكَانَ مِنْ تِلْكُمُ الأغْلُوْطَاتِ المُتَشَعِّبَةِ في غَيْرِ طَرِيْقِهَا مَا يَلي:

قَالُوا عَنِ التَّرْبِيَةِ: أهَمُّ شَيءٍ عَرَفَهُ التَّارِيْخُ، التَّرْبِيَةُ مَنْهَجٌ وعَقِيْدَةٌ، التَّرْبِيَةُ حَضَارَاتُ الأُمَمِ، لا قَوَامَ لأمَّةٍ مِنَ الأُمَمِ دُوْنَ تَرْبِيَةٍ، لا عَقِيْدَةَ ولا فِكْرَ ولا ثَقَافَةَ دُوْنَ تَرْبِيَةٍ . . . !

وقَالَ أيُّوْبُ الدَّخِيْلُ في كِتَابِهِ «التَّرْبِيَةِ الإسْلامِيَّةِ عِنْدَ الإمَامِ الغَزَالِيِّ» (١٢٥): «التَّرْبِيَةُ ضَرُوْرَةٌ فَرْدِيَّةٌ واجْتِماعِيَّةٌ علىٰ حَدٍّ سَوَاءٍ، حَيْثُ إنَّه لَيْسَ بإمْكَانِ أيٍّ مِنَ الفَرْدِ والمُجْتَمَعِ الاسْتِغْنَاءَ عَنْهَا، وكُلَّما سَلَكَ الإنْسَانُ دَرْبًا مِنْ دُرُوْبِ الحَيَاةِ كُلَّما أحَسَّ بأهَمِّيَّةِ الحَاجَةِ إلَيْهَا . . .».

وقَالَ أيْضًا مُعَظِّمَ التَّرْبِيَةَ تَعْظِيمًا لا مَثِيْلَ لَهُ (١٣٨): «إنَّ التَّرْبِيَةَ لهَا أهَمِّيَّةٌ كَبِيْرَةٌ في تَقْرِيْرِ مَصَائِرِ الشُّعُوْبِ، حَيْثُ إنَّها تُشَكِّلُ قُوَّةً فَاعِلَةً سَوَاءٌ علىٰ صَعِيْدِ الفَرْدِ أو المُجْتَمَعِ فَهِي: لا تَشْمَلُ فَقَطْ كُلَّ مَا نَفْعَلُهُ لأنْفُسِنَا، أو مَا يَعْمَلُهُ الآخَرُوْنَ لَنَا بقَصْدِ تَنْشِئَتِنَا وتَقْرِيْبِنَا مِنْ دَرجَةِ الكَمالِ بقَدْرِ المُسْتَطَاعِ، ولكِنَّهَا فَوْقَ ذَلِكَ: الآثَارُ غَيْرُ المُبَاشِرَةِ الَّتِي تُؤَثِّرُ في أخْلاقِنَا وطِبَاعِنَا ومَوَاهِبِنَا الإنْسَانِيَّةِ: مِثْلُ القَانُوْنِ، ونُظُمِ الحَكُوْمَةِ، والفُنُوْنِ الصِّنَاعِيَّةِ، والنُّظُمِ الاجْتِمَاعِيَّةِ، بَلْ إنَّها تَشْمَلُ أيْضًا آثَارَ البِيْئَةِ الطَّبِيْعِيَّةِ الَّتِي لا تَتَوَقَّفُ علىٰ الإرَادَةِ البَشَرِيَّةِ مِنْ عَوَامِلَ الجَوِّ والتُّرْبَةِ والمَوْقِعِ الجُغْرافِيِّ، فَكُلُّ مَا

يُسَاعِدُ علىٰ صَقْلِ الفَرْدِ وإخْرَاجِهِ بالشَّكْلِ الَّذِي يَنْتَهِي إلَيْهِ جُزْءٌ مِنَ التَّرْبِيَةِ».

وقَالَ أيْضًا (١٥): «إنَّ بَحْثَ التَّرْبِيَةِ عِنْدَ الإمَامِ الغَزَالِيِّ وغَيْرِهِ: كَانَ لإيْجَادِ نِظَامٍ تَربَوِيٍّ إسْلامِيٍّ يُعِيْدُ إلَيْنَا كَرَامَتَنَا ويَعُوْدُ بِنَا إلىٰ الإسْلامِ الَّذِي كَانَ ومَا زَالَ وسَيَبْقَىٰ العِلاجَ الشَّافي مِنْ كُلِّ انْحِطَاطٍ وتَخَلُّفٍ» انْتَهَىٰ.

* * *

ومِنْ آخِرِ غُلُوِّهِم في القُرْآنِ الكَرِيْمِ، مَا قَالَهُ مُحمَّدٌ شَدِيْدٌ في كِتَابِهِ «مَنْهَجِ القُرْآنِ في التَّربِيَةِ» (٧): «بأنَّهُ (القُرْآنَ) رِسَالَةُ تَرْبِيَةٍ قَبْلَ أنْ يَكُوْنَ رِسَالَةَ تَشْرِيْعٍ ورِسَالَةَ خُلُقٍ، بَلْ أنْ يَكُوْنَ رِسَالَةَ جِهادٍ ورِسَالَةَ سُمُوٍّ وقِيَمٍ قَبْلَ أنْ يَكُوْنَ رِسَالَةَ كَثْرَةٍ واتِّسَاعٍ»؟!

قُلْتُ: وفي هَذَا الكَلامِ مَا فِيْهِ مِنَ الإسْرَافِ المَنْهَجِي، والمَآخِذِ الشَّرْعِيَّةِ الشَّيءُ الكَثِيْرُ!

* * *

وقَالُوا أيْضًا عَنِ النَّبِيِّ ﷺ: المُرَبِّي الأوَّلُ، مُرَبِّي البَشَرِيَّةِ، أعْظَمُ مُرَبِّي، قَائِدُ المُرَبِّيْنَ، رَسُوْلُ التَّرْبِيَةِ . . . إلىٰ غَيْرِهَا مِنْ بِدَعِ (الفِكْرِ التَّرْبَوِيِّ)، الَّتِي لا نَعْلَمُ لهَا أصْلًا ولا حَرْفًا في كِتَابِ الله ولا في سُنَّةِ رَسُوْلِهِ ﷺ، ولا في كِتَابَاتِ أئِمَّةِ أهْلِ السُّنَّةِ والجَمَاعَةِ!

ومِنْ غُلُوِّهِم أيْضًا في النَّبِيِّ ﷺ مَا قَالَهُ عَبْدُ الغَنِي بن عَبُّوْدٍ في كِتَابِهِ «الايْدُولُوجِيا والتَّربِيَةِ» (٤٢١): «وكَانَ بَدْءُ نُزُوْلِ الوَحْي عَلَيْهِ (ﷺ) بمَثَابَةِ

(إجَازَةٍ) لَهُ بَعْدَ أرْبَعِيْنَ عَامًا مِنَ تَرْبِيَتِهِ فِي هَذِهِ المَدْرَسَةِ الإلهِيَّةِ» انْتَهَىٰ.

وقَالُوا عَنْ عُلَماءِ السَّلَفِ: عُلَماءُ التَّرْبِيَةِ، أصْحَابُ التَّرْبِيَةِ، أرْبَابُ التَّرْبِيَةِ، عُظَماءُ التَّرْبِيَةِ، صُنَّاعُ التَّرْبِيَةِ، مُفكِّرُوْنَ، مُثَقَّفُوْنَ، دُعَاةٌ، رُوَّادُ فِكْرٍ... إلْخَ.

* * *

فَلَيْتَ شِعْرِي؛ يَوْمَ تَظَاهَرَ عَلَيْنَا بَعْضُ أنْصَارِ (الفِكْرِ التَّرْبَوِيِّ) فِي مُحَاوَلاتٍ تَنْظِيْرِيَّةٍ وجُهُوْدٍ كِتَابِيَّةٍ لِتَعْزِيْزِ وتَرْوِيْجِ هَذِهِ الظَّاهِرَةِ؛ مِنْ خِلالِ دِرَاسَاتٍ جَامِعِيَّةٍ، ومُحَاضَرَاتٍ تَنْظِيْرِيَّةٍ، ومُشَارَكَاتٍ فَرْدِيَّةٍ ... كُلُّ ذَلِكَ لِلبَحْثِ فِي تُرَاثِنَا العِلْمِي عَنْ كُلِّ مَا مِنْ شَأنِهِ يُعَزِّزُ ويُقَرِّرُ (الفِكْرَ التَّرْبَوِيَّ) سَوَاءٌ فِي كُتُبِ سَلَفِنَا الصَّالِحِ أو مَوَاقِفِهِم أو كَلِماتِهِم!

❑ فَهَذِهِ جُمْلَةٌ مِنَ الكُتُبِ والكِتَابَاتِ ممَّا عَمِلَتْهَا أيْدِي أنْصَارِ (الفِكْرِ التَّرْبَوِيِّ) علىٰ اخْتِصَارٍ:

«تَرْبِيَةُ النَّبِيِّ ﷺ لأصْحَابِهِ»، «تَرْبِيَةُ النَّبِيِّ ﷺ للشَّبَابِ»، «تَرْبِيَةُ النَّبِيِّ ﷺ للنِّسَاءِ»، وكَذَا «مَنْهَجُ التَّرْبِيَةِ عِنْدَ ابنِ تَيْمِيَّةَ»، «مَنْهَجُ التَّرْبِيَةِ عِنْدَ ابنِ القَيِّمِ»، «مَنْهَجُ التَّرْبِيَةِ عِنْدَ ابنِ رَجَبٍ»، «مَنْهَجُ التَّرْبِيَةِ عِنْدَ الذَّهَبِيِّ»، «مَنْهَجُ التَّرْبِيَةِ عِنْدَ الحَارِثِ المُحَاسِبِيِّ»، «مَنْهَجُ التَّرْبِيَةِ عِنْدَ ابنِ سُحْنُوْن»، «مَنْهَجُ التَّرْبِيَةِ عِنْدَ أبِي حَامِدٍ الغَزَالِيِّ»، «مَنْهَجُ التَّرْبِيَةِ عِنْدَ ابنِ خُلْدُوْن»، «مَنْهَجُ التَّرْبِيَةِ عِنْدَ الشَّاطِبِيِّ»، «مَنْهَجُ التَّرْبِيَةِ عِنْدَ ابنِ سَعْدِي»، «مَنْهَجُ التَّرْبِيَةِ عِنْدَ ابنِ بَازٍ»،

وغَيْرُهَا كَثِيْرٌ ممَّا يُعْتَبَرُ جِنَايَةً علىٰ تُرَاثِ الأمَّةِ العِلْمِيِّ!

* * *

❏ وهُنَاكَ بَعْضُ الجُهُوْدِ الكِتَابِيَّةِ الَّتِي لم تَقِفْ علىٰ حَدٍّ مُسَمًّىٰ، بَلْ أخَذَتْ في تَرْسِيمَاتٍ تَرْبَوِيَّةٍ وتَنْظِيْرَاتٍ فِكْرِيَّةٍ تَأصِيْلًا وتَقْرِيْرًا لظَاهِرَةِ (الفِكْرِ التَّرْبَوِيِّ)، فمِنْهَا علىٰ وَجْهِ الاخْتِصَارِ:

«مَنْهَجِ التَّرْبِيَةِ الإسْلامِيَّةِ»، «التَّرْبِيَةُ علىٰ مَنْهَجِ أهْلِ السُّنَّةِ والجَمَاعَةِ»، «أصُوْلُ التَّرْبِيَةِ»، «تَرْبِيَةُ الشَّبَابِ»، «مَعَالمُ التَّرْبِيَةِ الإسْلامِيَّةِ»، «بِنَاءُ الأجْيَالِ»، «أصُوْلُ التَّرْبِيَةِ الإسْلامِيَّةِ»، «وَقَفَاتٌ تَرْبَوِيَّةٌ في ضَوْءِ القُرْآنِ الكَرِيْمِ»، «فَنُّ التَّرْبِيَةِ»، «كَيْفَ تَكُوْنُ مُرَبِّيًا؟»، «التَّرْبِيَةُ بالحِوَارِ»، «التَّرْبِيَةُ الجَادَّةُ»، «مِنْ أهْدَافِ التَّرْبِيَةِ الإسْلامِيَّةِ»، «أسَالِيْبُ التَّرْبِيَةِ الإسْلامِيَّةِ»، «أزْمَةُ التَّرْبِيَةِ»، «تَرْبِيَةُ المَرْأةِ المُسْلِمَةِ»، «اتِّجاهَاتُ التَّرْبِيَةِ»، «دِرَاسَاتٌ تَرْبَوِيَّةٌ»، «التَّرْبِيَةُ الذَّاتِيَّةُ»، «التَّرْبِيَةُ الرُّوحِيَّةُ»، «فَلْسَفَةُ التَّرْبِيَةِ»، وغَيْرُهَا مِنَ العَنَاوِيْنِ الَّتِي لو جُمِعَتْ لخَرَجَتْ في مُجَلَّدٍ ضَخْمٍ ممَّا يَنُوْءُ بِه أوْلُو العُصْبَةِ.

* * *

عِلمًا أنَّني هُنَا لم أذْكُرْ مِنْ أسْماءِ الكُتُبِ التَّرْبَوِيَّةِ إلَّا الَّتِي كَتَبَهَا أصْحَابُهَا بأقْلامٍ عِلْمِيَّةٍ؛ انْتِصَارًا مِنْهُم لظَاهِرَةِ (الفِكْرِ التَّرْبَوِيِّ)، أمَّا الَّذِيْنَ لَيْسَ لهُم حَظٌّ في العِلْمِ الشَّرْعِيِّ؛ فَلَمْ أتَكَلَّفْ ذِكْرَ أسْماءِ كُتُبِهِم، لأنَّها تَفُوْقُ الحَصْرَ والعَدَّ!

فمِثْلُ هَذِه الأَسْماءِ والعَنَاوِيْنِ الشَّاقَّةِ بأقْلامِهَا خُدُوْشًا في ثَقَافَةِ الأمَّةِ، لهِيَ مِنَ الخَطَرِ العَظِيْمِ، والمَسْخِ العَمِيْمِ الَّذِي يَسْتَوْجِبُ مِنَّا جَمِيْعًا البَيَانُ والتَّحْذِيْرُ، كَما قَالَ تَعَالىٰ: ﴿إِنْ أُرِيدُ إِلَّا ٱلْإِصْلَٰحَ مَا ٱسْتَطَعْتُۚ وَمَا تَوْفِيقِيٓ إِلَّا بِٱللَّهِۚ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾ [هود: ٨٨].

* * *

❑ وبَعْدَئِذٍ؛ فَلَيْسَ لأحَدٍ أنْ يَقُوْلَ: لا مُشَاحَةَ في الاصْطِلاحِ، لأنَّ كَلِمَةَ (التَّرْبِيَةِ)، تَحْمِلُ مَعْنىٰ العِلْمِ والتَّعْلِيْمِ؟!

قُلْتُ: نَعَمْ، لا مُشَاحَةَ في الاصْطِلاحِ، ولكِنْ بشُرُوْطٍ ذَكَرَهَا أهْلُ العِلْمِ تِبَاعًا، فَمِنْهَا:

أوَّلًا: ألَّا يَحْمِلَ هَذَا المُصْطَلَحُ مَعْنىٰ بَاطِلًا يُخَالِفُ الكِتَابَ والسُّنَّةَ، أو يُعَارِضُهُما.

ثَانِيًا: ألَّا يُوْجَدَ في الكِتَابِ والسُّنَّةِ مَا يَدُلُّ علىٰ المَعْنَىٰ المَرَادِ، لاسِيَّما إذَا كَانَ المُتَكَلِّمُ سَلَفِيًّا ولا يُوْجَدُ مَا يَدْفَعُهُ إلىٰ هَذَا المُصْطَلَحِ، أمَّا إذَا لم يَكُنْ فِيْهِما مَعْنَىٰ مُرَادِ المُتَكَلِّمِ، فَحِيْنَئِذٍ؛ لا مُشَاحَّةَ في الاصْطِلاحِ.

ثَالِثًا: ألَّا يَكُوْنَ فِيْهِ اسْتِبْدَالٌ للألْفَاظِ الشَّرْعِيَّةِ (الكِتَابِ والسُّنَّةِ)، والحَالَةُ هَذِهِ، فَلا يَجُوْزُ اسْتِبْدَالُ لَفْظٍ حَادِثٍ بلَفْظٍ شَرْعِيٍّ، ولَوْ ادَّعَىٰ صَاحِبُهُ أنَّه يَحْمِلُ مَعْنَىٰ حَقًّا، لأنَّ هَذَا يُعَدُّ جِنَايَةً علىٰ التَّشْرِيْعِ، وتَنْحِيَةً لأحْكَامِ الدِّيْنِ.

رَابِعًا: إلَّا يُحمَلَ كَلامُ الله والرَّسُوْلِ والسَّلَفِ الصَّالِحِ علىٰ المُصْطَلَحَاتِ الَّتِي أَحْدَثَهَا المُتَأخِّرُوْنَ.

يَقُوْلُ ابنُ تَيْمِيَّةَ رَحِمَهُ اللهُ في «الجَوَابِ الصَّحِيْحِ» (٣/ ١٩٢): «الألْفَاظُ الَّتِي جَاءَ بِها الكِتَابُ والسُّنَّةُ عَلَيْنَا أنْ نَتَّبعَ مَا دَلَّتْ عَلَيْهِ . . . وعَلَيْهِ فمَنْ كَانَ لَهُ اصْطِلاحٌ خَاصٌّ لم يَجُزْ لَهُ أنْ يَحمِلَ أَلْفَاظَ الكِتَابِ والسُّنَّةِ عَلَيْهِ لمُجَرَّدِ اصْطِلاحِهِ، لأنَّ ذَلِكَ يُعْتَبرُ مِنْ تَحْرِيْفِ الكَلِمِ عَنْ مَوَاضِعِهِ، والمَيْلِ بِهِ عَنْ مَقْصُوْدِ المُتَكَلِّمِ بِهِ» انْتَهىٰ.

وقَالَ ابنُ القَيِّمِ رَحِمَهُ اللهُ في «مَدَارِجِ السَّالِكِيْنَ» (٣/ ٤٣٧): «فَإنَّ أرْبَابَ الطُّرُقِ الصُّوْفِيَّةِ قَدْ أحْدَثُوا ألْفَاظًا مُجْمَلَةً في السُّلُوْكِ، وهَذِهِ الألْفَاظُ عُمُوْمًا لا تَخْلُو مِنْ مُخَالَفَاتٍ للكِتَابِ والسُّنَّةِ، إضَافَةً إلىٰ مَا فِيْهَا مِنَ التَّكَلُّفِ الشَّدِيْدِ، والتَّعْقِيْدِ في الألْفَاظِ والمَعَاني»، وقَدْ مَرَّ مَعَنا بَيَانُ ذَلِكَ.

ومِنْهُ؛ فَقَدْ جَمعَتْ كَلِمَةُ (التَّرْبِيَةِ) اليَوْمَ، كَمَا هُوَ عِنْدَ أنْصارِهَا: مَعَانٍ مُخَالِفَةً للألْفَاظِ الشَّرْعِيَّةِ، مَعَ اسْتِبْدَالٍ لهَا، وحَمْلِهَا علىٰ مُصْطَلَحَاتٍ حَادِثَةٍ، في غَيْرِهَا ممَّا مَرَّ مَعَنَا، ومَا سَيأتي ذِكْرُهُ إنْ شَاءَ الله.

* * *

❑ وقَبْلَ الخُرُوْجِ مِنْ هَذَا الفَصْلِ؛ أحْبَبْتُ أنْ أقِفَ بنَفْسِي والمُسْلِم علىٰ كِتَابَيْنِ مُهِمَّيْنِ؛ حَيْثُ كَتَبَاهُ صَاحِبَاهُ بقَلَم عِلْمِيٍّ مُنَاصَرَةً مِنْهُما لـ(الفِكْرِ التَّرْبَويِّ)، كُلُّ ذَلِكَ مُتَابَعَةً مِنْهُما لهَذِهِ الظَّاهِرَةِ السَّائِرَةِ، أمَّا غَيْرُهما مِنَ الكُتُبِ الَّتِي كَتَبَهَا أصْحَابُها بدَافِعِ الجُهُوْدِ الفَرْدِيَّةِ فَلَوْنٌ آخَرُ مِنَ التَّمَحُّلِ

والتَّكَلُّفِ والانْهِزَامِ لَيْسَ هَذَا مَحلَّ بَسْطِهَا.

❑ فأمَّا الكِتَابُ الأوَّلُ: فَهُوَ بعُنْوَانِ «الفِكْرِ التَّربَوِيِّ عِنْدَ ابنِ القَيِّمِ» للأخِ حَسَنَ بنِ عليٍّ الحَجَّاجِيِّ، وبه حَصَلَ علىٰ الشَّهَادَةِ العَالِمِيَّةِ (الدُّكْتُوْرَاه) مِنْ جَامِعَةِ الإمَامِ محَمَّدِ بنِ سُعُوْدٍ الإسْلامِيَّةِ.

❑ أمَّا الكِتَابُ الثَّاني: فَهُوَ بعِنْوَانِ «التَّربِيَةِ الإسْلامِيَّةِ عِنْدَ الإمَامِ الغَزَاليِّ» للأخِ أيُّوْبَ بنِ دَخِيْلٍ، وبِهِ حَصَلَ علىٰ شَهَادَةِ (المَاجِسْتِيْرِ) مِنْ كُلِّيَّةِ الإمَامِ الأوْزَاعِيِّ[1].

عِلمًا أنَّ وُقُوْفَنَا مَعَ هَذَيْنِ الكِتَابَيْنِ سَيَكُوْنُ علىٰ وَجْهِ الإجْمَالِ والاخْتِصَارِ، والعُمُوْمِ والاعْتِبَارِ؛ خَوْفًا مِنَ الخُرُوْجِ عَنْ مَقْصَدِ الكِتَابِ هُنَا، والله المُوَفِّقُ.

---

(١) لَقَدْ وَقَفْتُ حَتَّىٰ سَاعَتِي هَذِه علىٰ اثْنَيْ عَشْرَةَ كِتَابًا حَوْلَ «التَّربِيَةِ عِنْدَ الإمَامِ الغَزَالي» رَحِمَهُ اللهُ، فمِنْ ذَلِكَ: «المَذْهَبُ التَّرْبَوِيُّ عِنْدَ الغَزَالي» لفَتْحِيَّةَ بنْتِ حَسَنَ سُلَيْمانَ، و«أبُو حَامِدِ الغَزَالي فَلْسَفَتُهُ وآرَاؤهُ في التَّرْبِيَةِ والتَّعْلِيْمِ» رِسَالَةُ مَاجِسْتِيرٍ مُقَدَّمَةٌ مِنْ محَمَّدٍ نَبِيْلٍ، و«التَّوْجِيْهُ الإسْلامِي للنَّشْءِ في فَلْسَفَةِ الغَزَالي» رِسَالَةُ مَاجِسْتِيرٍ مُقَدَّمَةٌ مِنْ عَارِفَ مُفْضِي البَرْجِس، و«الفِكْرُ التَّربَوِيُّ عِنْدَ الغَزَالي» كَما يَبْدُو مِنْ رِسَالَتِهِ «أيُّها الوَلَدُ» لعَبْدِ الغَني بنِ عَبُّودٍ، و«الفِكْرُ التَّربَوِيُّ عِنْدَ الإمَامِ الغَزَالي» لعَبْدِ الأمِيرِ شَمْسِ الدِّيْنِ، و«نَظَرِيَّةُ التَّربِيَةِ الخُلُقِيَّةِ عِنْدَ الإمَامِ الغَزَالي» لعَبْدِ الحَفِيْظِ أحمَدَ عَلَّاوي، و«مَلامِحُ الفَلْسَفَةِ التَّربَوِيَّةِ التَّعلِيمِيَّةِ عِنْدَ الغَزَالي» صَادِرٌ عَنِ المَعْهَدِ التَّربَوي الوَطَني في حَلَقَةِ بِنَاءِ الطِّفْلِ في الخَلِيْجِ العَربي، و«الفِكْرُ التَّربَوِيُّ عِنْدَ الغَزَالي» لعَبْدِ الغَني عَبُّودٍ، و«النَّسَقُ التَّربَوِي عِنْدَ الغَزَالي في ضَوْءِ رِسَالَةِ أيُّها الوَلَدُ» صَادِرٌ عَنِ الفِكْرِ العَربي، و«آرَاءُ الغَزَالي التَّربَوِيَّةِ» لحنَان كَمِيْدٍ، و«تَعْلِيْمُ النَّاشِئَةِ وتَهذِيْبِهِم عِنْدَ الغَزَالي» لفَضِيْلَةَ عَبَّاسٍ مَطْلَكٍ، و«التَّربِيَةُ الإسْلامِيَّةُ عِنْدَ الإمَامِ الغَزَالي» لأيُّوبَ الدَّخِيْلِ وغَيرُهَا، والله المُسْتَعَانُ!

أوَّلًا: أنَّ الإمَامَيْنِ الغزَاليَّ وابنَ القَيِّمِ رَحِمَهُما الله تعالىٰ لم يَذْكُرَا (التَّربيَةَ) بالمَعْنَىٰ الَّذِي ذَهَبَ إليْهِ البَاحِثَانِ أو غَيْرِهما مِنَ المُعَاصِرِيْنَ المُحْدَثِيْنَ، لا مِنْ قَرِيْبٍ ولا مِنْ بَعِيْدٍ، بَلْ لم يَخْطُرْ ببَالِ الإمَامَيْنِ أنَّهما يَوْمًا مِنَ الأيَّامِ سَوْفَ تُدْرَجُ أسْماؤهُما في قَائِمَةِ أعْلامِ (التَّربيَةِ) أو (التَّربَوِيِّيْنَ)! بَلْ هُما لم يَكْتُبَا سَوْدَاءَ في بَيْضَاءَ إلَّا لأجْلِ: العِلْمِ والتَّعْلِيْمِ، كَما كَانَا مُجْتَهِدَيْنِ بأنْ يَكُوْنَا مِنَ العُلَماءِ الرَّبَّانِيِّيْنَ، وقَدْ كَانَا رَحِمَهُما الله تَعَالىٰ.

ثَانِيًا: أنَّ كَلِمَةَ (التَّربِيَةِ) لم تُذْكَرْ في كُتُبِ ومُصَنَّفَاتِ الإمَامَيْنِ بالمَعْنَىٰ العَامِ الفَضْفَاضِ الَّذِي أرَادَهُ أنْصارُ (الفِكْرِ التَّربَوِيِّ) اليَوْمَ، بَلْ ذُكِرَتْ كَلِمَةُ (التَّرْبِيَةِ) عِنْدَهُما في مَعْرِضِ تَرْبِيَةِ وتَعْلِيْمِ الطِّفْلِ الصَّغِيْرِ: مِنَ الوِلادَةِ حَتَّىٰ سِنِّ التَّمْيِيْزِ أو التَّكْلِيْفِ، خِلافًا لمَا أطْلَقَهُ أنْصارُ (الفِكْرِ التَّرْبَوِيِّ) في جَرِّ مَعْنَىٰ (التَّربِيَةِ) علىٰ الصَّغِيْرِ والكَبِيْرِ، والفَرْدِ والمُجْتَمعِ حَتَّىٰ أخَذَتْ عِنْدَهُم بمَجَامِعِ شُؤوْنِ الحَيَاةِ كُلِّهَا سِيَاسَةً واقْتِصَادًا واجْتِماعِيًّا . . .!

لهَذَا نَجِدُ ابنَ القَيِّمِ رَحِمَهُ اللهُ لم يَذْكُرْ كَلِمَةَ (التَّربِيَةِ) إلَّا في كِتَابِ «تُحْفَةِ المَوْدُوْدِ»، ومَرَّةً ومَرَّتَيْنِ في كِتَابِ «مِفْتَاحِ دَارِ السَّعَادَةِ» لكِنَّهَا ذُكِرَتْ في مَعْرِضِ تَرْبِيَةِ الآبَاءِ لأبْنَائِهِم، وهَكَذَا كَانَتْ مَآخِذُ كَلِمَةِ (التَّرْبِيَةِ) عِنْدَهُ رَحِمَهُ اللهُ!

وكَذَا نَجِدُ كَلِمَةَ (التَّرْبِيَةِ) عِنْدَ الغَزَالي رَحِمَهُ اللهُ لم تُذْكَرْ في كِتَابِ «إحْيَاءِ عُلُوْمِ الدِّيْنِ»، إلَّا في بَابِ تَعْلِيْمِ الصَّغِيْرِ لَيْسَ إلَّا، وهُنَاكَ رِسَالَةٌ مَنْسُوْبَةٌ لَهُ بعُنْوَانِ «أيُّهَا الوَلَدُ!» كُلُّهَا تَدُوْرُ حَوْلَ نَصِيْحَةِ وتَعْلِيْمِ الطِّفْلِ والصَّغِيْرِ!

ثَالِثًا: أنَّ الغَزَالِيَّ وابنَ القَيِّمَ رَحِمَهُما الله تَعَالىٰ لم يَذْكُرَا في كُتُبِهِم بعَامَّةٍ إلَّا مَا كَانَ مِنْ شَأنِ: العِلْمِ والتَّعْلُّمِ، والعُلَماءِ والمُتَعَلِّمِيْنَ، والفَتْوَىٰ والمُسْتَفْتِي، سَوَاءٌ في الآدَابِ أو الغَوَائِلِ: مِنْ إخْلاصٍ ومُتَابَعَةٍ وجُهْدٍ وصَبْرٍ وطَلَبٍ وفَائِدَةٍ، أو تَحْذِيْرٍ مِنَ الرِّيَاءِ والعُجْبِ والمُمَارَاةِ ... وكُلِّ مَانَعٍ أو قَاطِعٍ للعِلْمِ والتَّعْلِيْمِ والفَتْوَىٰ.

والحَالَةُ هَذِهِ لم تَكُنْ كَلِمَةُ (التَّرْبِيَةِ) عِنْدَ الغَزَالِيِّ وابنَ القَيِّمَ وغَيْرِهِمَا مِنْ أهْلِ العِلْمِ لاسِيَّما أعْلامِ السَّلَفِ المَاضِيْنَ بمَكَانٍ، اللهمَّ مَا جَاءَ عِنْدَ ذِكْرِ تَعْلِيْمِ الطِّفْلِ والصَّغِيْرِ.

رَابِعًا: أنَّ البَاحِثَيْنِ وغَيْرِهِمَا ممَّنْ تَأثَّرُوا بظَاهِرَةِ (الفِكْرِ التَّرْبَوِيِّ) لم تكُنِ الكِتَابَةُ والتَّألِيْفُ عِنْدَهُما بدَافِعِ مُتَابَعَةِ السَّلَفِ في كُتُبِهِم ومُصَنَّفَاتِهِم ابْتِدَاءً أو انْتِهَاءً أو بنَوْعٍ مِنْ أنْوَاعِ التَّصْنِيْفِ الشَّرْعِيَّةِ، اللهمَّ كَانَتِ الكِتَابَةُ مِنْهُما بدَافِعِ التَّقْلِيْدِ والتَّبَعِيَّةِ؛ ظَنًّا مِنْهُما أنَّ الأمَّةَ الإسْلامِيَّةَ في عُلَمائِهَا هِيَ أوَّلُ وأوْلَىٰ في تَأصِيلِ وتَقْرِيْرِ (الفِكْرِ التَّرْبَوِيِّ) مِنْ رِجَالاتِ الغَرْبِ.

خَامِسًا: أنَّ كُلًّا مِنَ البَاحِثَيْنِ اسْتَطَاعَا مِنْ خِلالِ كِتَابَيْهِما أنْ يَسْلُبَا مِنَ الإمَامَيْنِ الغَزَالي وابنِ القَيِّمِ حَقَّهُما العِلْمِيَّ، ويُنْزِلاهُمَا مِنْ مَكَانَتِهِما، وذَلِكَ بتَسْمِيَتِهَما: تَرْبَوِيِّيْنَ، ومُرَبِّيْنَ وأعْلامَ التَّرْبِيَةِ، ومُنَظِّرِي التَّرْبِيَةِ، ومُفَكِّرِيْنَ، ودُعَاةً، إنَّ في هَذَا الصَّنِيْعِ لإغَارَةً مَحْمُوْمَةً علىٰ حِمَىٰ الإمَامَيْنِ بغَيْرِ حَقٍّ ولا طَائِلٍ!

فَيَوْمَ كَانَ الإمَامَانِ عِنْدَ أبْنَاءِ المُسْلِمِيْنَ: عُلَماءَ أصْبَحُوا اليَوْمَ مُرَبِّيْنَ

ومُفَكِّرِيْنَ، ويَوْمَ كَانُوا دُعَاةً إلىٰ العِلْمِ والتَّعْلِيْمِ، أصْبَحُوا اليَوْمَ: دُعَاةَ تَرْبِيَةٍ، فمِثْلُ هَذَا الصَّنِيْعِ سَيَكُوْنُ علىٰ المَدَىٰ القَرِيْبِ مَسْخًا للأمَّةِ في عِلْمِهَا وعُلَمائِهَا، عِلْمًا أنَّ طَلائِعَ هَذَا المَسْخِ قَدْ ظَهَرَتْ هُنَا وهُنَاكَ!

سَادِسًا: أنَّ البَاحِثَيْنِ (هَدَاهُما الله) قَدْ تَمحَّلا وتكَلَّفا في إيْجادِ رَوَابِطَ وَهْمِيَّةٍ كَبَيْتِ العَنْكَبُوْتِ بَيْنَ عِبَارَاتِ وكَلِماتِ الإمَامَيْنِ في (العِلْمِ والتَّعْلِيْمِ) وبَيْنَ (التَّرْبِيَةِ)، فمَنْ ألْقَىٰ نَظْرَةً عَابِرَةً علىٰ كِتَابِ البَاحِثَيْنِ عَلِمَ حَقِيْقَةَ اجْتَهَادِهِمَا واسْتِماتَتِهِما في الرَّبْطِ (المَقْطُوْعِ!) بَيْنَ مَا أرَادَهُ الإمَامَانِ وبَيْنَ حَشْرِ مَا أرَادَهُ البَاحِثَانِ مِنْ تَكَلُّفٍ وتَحَكُّمٍ مَرْدُوْدٍ!

* * *

فَلَيْتَ شِعْرِي! لَوْ ذَهَبَ البَاحِثَانِ إلىٰ قَلْبِ المَوَازِيْنَ، وأخَذَا بَصَائِرَ الطَّرِيْقِ عِنْدَ أهْلِ العِلْمِ، لكَانَ هَذَا خَيْرًا لهُما ولأمَّتِهِم، وذَلِكَ بجَعْلِ عَنَاوِيْنَ الكِتَابَيْنِ هَكَذَا: «العِلْمُ عِنْدِ ابنِ القَيِّمِ»، و«العُلُوْمُ الإسْلامِيَّةُ عِنْدَ الإمَامِ الغَزَالي»، أو «أدَبُ العِلْمِ» عِنْدَ الإمَامَيْنِ مَثَلًا، وذَلِكَ بَعْدَ حَذْفِ مَا يَجِبُ حَذْفُهُ، وطَرْحُ مَا يَجِبُ طَرْحُهُ!

ومَا ذَكَرْنَاهُ هُنَا مِنِ انْتِقَادَاتٍ واسْتِدْرَاكَاتٍ فَهِي مَطَّرِدَةٌ في الجُمْلَةِ عِنْدَ كُلِّ مَنْ كَتَبَ عَنْ مَنْهَجِ التَّرْبِيَةِ عِنْدَ بَعْضِ أئِمَّةِ المُسْلِمِيْنَ، سَوَاء عِنْدَ الغَزَالي أو عِنْدَ ابنِ القَيِّمِ، أو عِنْدَ ابنِ تَيْمِيَّةَ، أو عِنْدَ الذَّهَبِيِّ، أو عِنْدَ ابنِ رَجَبٍ، أو عِنْدَ ابنِ سُحْنُوْنَ، أو عِنْدَ ابنِ خُلْدُوْن، أو عِنْدَ ابنِ عَبْدِ الوَهَّابِ، أو عِنْدَ ابنِ

إبْرَاهِيْمَ، أو عِنْدَ ابنِ سَعْدِي . . . إلخ.

* * *

□ نَعَمْ؛ فَهُنَاكَ جَمْهَرَةٌ كَبِيْرَةٌ مِنْ كُتُبِ (الفِكْرِ التَّرْبَوِيِّ) غَيْرُ مَا ذُكِرَ، حَيْثُ أَلْقَاهَا أَصْحَابُها بَيْنَ ظَهْرَانَي أبْنَاءِ المُسْلِمِيْنَ اليَوْمَ بدَافِعِ الجُهُوْدِ الفَرْدِيَّةِ مِنْهُم، لاسِيَّما كِتَابِ «تَرْبِيَةِ الشَّبَابِ» لأخِيْنَا الشَّيْخِ محَمَّدِ الدُّوَيْشِ حَفِظَهُ الله، وقَدَ وَقَفْتُ مَعَ مُقَدِّمَةِ هَذَا الكِتَابِ بَعْضَ الشَّيءِ لكَوْنِهِ مِنْ كُتُبِ (الفِكْرِ التَّرْبَوِيِّ) الَّتِي أخَذَتْ مِنْ بَعْضِ أبْنَائِنَا اليَوْمَ مَأخَذًا بَعِيْدًا، فَهَذِهِ نَظْرَةٌ سَرِيْعَةٌ حَوْلَ الكِتَابِ تَقْضِي علىٰ ما وَرَاءهِ مِنِ اجْتِهَادَاتٍ فَرْدِيَّةٍ لَيْسَ لها حَظٌّ مِنَ العِلْمِ الشَّرعِيِّ المُؤَصَّلِ(١):

أوَّلًا: أنَّ الكَاتِبَ قَدْ أقرَّ في كِتَابِهِ «تَرْبِيَةِ الشَّبَابِ» (٥): بَأنَّ الخَلَلَ التَّربَوِيَّ عِنْدَ كَثِيرٍ مِنَ المُرَبِّيْنَ كَانَ بسَبَبِ ضَعْفِ اعْتِنَائِهِم بالرَّفْعِ مِنْ مُسْتَوىٰ التَّأهِيْلِ، ممَّا زَادَ مِنَ المُمارَسَاتِ المُعْتَمَدَةِ علىٰ المُحَاوَلَةِ والخَطأ، وتَعْمِيْمِ التَّجارُبِ الشَّخْصِيَّةِ المَحْدُوْدَةِ . انْتَهىٰ.

وهَذَا مِنْهُ إقْرَارٌ بَأنَّ كَثيرًا مِنَ المُرَبِّيْنَ اليَوْمَ ضِعَافُ التَّأهِيْلِ، كَما أنَّه لم يُبَيِّنْ نَوْعَ التَّأهِيْلِ هُنَا، فَإنْ كَانَ يَقْصِدُ تَأهِيْلًا مَأخُوْذًا مِنْ أرْبَابِ (الفِكْرِ التَّرْبَوِيِّ) فَلَيْسَ لَنَا هُنَا كُلامٌ، فمِنْهُم وإلَيْهِم، وإنْ كَانَ يَقْصِدُ تَأهِيْلًا عِلْمِيًّا شَرْعِيًّا (وهُوَ كَذَلِكَ) فَلَيْسَ هَذَا مَجَالُ المُرَبِّيْنَ اليَوْمَ، بَلِ العِلْمُ هُوَ شَأنُ

---

(١) لا شَكَّ أنَّ أخَانَا الشَّيْخَ محَمَّدَ الدُّوَيْشَ حَفِظَهُ الله مِنَ الَّذِيْنَ لهُم جُهُوْدٌ مَشْهُوْدَةٌ في أوْسَاطِ شَبَابٍ، وأبْنَاءِ المُسْلِمِيْنَ مَا يَقْضِي لَهُ بالشُّكْرِ مِنَّا، فَجزَاهُ الله تَعالىٰ عَنِ الإسْلامِ خَيْرًا.

طُلَّابِ العِلْمِ هَذَا أَوَّلًا، ثُمَ يَكُوْنُ أَخْذَهُ مِنَ العُلَماءِ ثَانِيًا.

وفي حَقِيْقَةِ الأمْرِ؛ نَجِدُ التَّأَهُّلَ هُنَا لا يَخْرُجُ عَنْ مَيْدَانِ العِلْمِ والتَّعْلِيْمِ، الَّذِي يَأْتِيْهِ طُلَّابُ العِلْمِ مِنْ كُلِّ فَجٍّ عَمِيْقٍ ليَأخُذُوا العِلْمَ عِنْدَ العُلَماءِ الرَّبَّانِيِّيْنَ: مِنْ كِتَابٍ وسُنَّةٍ وفِقْهٍ ولُغَةٍ ... إلخ.

ومِنْهُ؛ كَانَ وَاجِبًا علىٰ كُلِّ مَنْ يَكْتُبُ في (التَّرْبِيَةِ) أنْ يَكُوْنَ عَالِمًا أو طَالِبَ عِلْمٍ، وأنْ يَكُوْنَ خِطَابُ (التَّرْبِيَةِ) هُنَا لطُلَّاب العِلْمِ، أمَّا مَا سِوَاهُم مِنَ العَامَّةِ فَطَرِيْقُهُم التَّقْلِيْدُ والسُّؤالُ المَوَاعِظُ والتَّرغِيْبُ والتَّرْهِيْبُ ... إلخ.

ثَانِيًا: أنَّ الكَاتِبَ قَدْ أقرَّ أيْضًا (٦): بِأنَّ المُرَبِّيْنَ اليَوْمَ قَدْ وَرِثُوا أمْرَاضَ مُجْتَمَعَاتِهِم وصَارَتْ جُزْءًا مِنْ تَفْكِيْرِهِم: مِثْلُ السَّطْحِيَّةِ في التَّفْكِيرِ، والتَّخَلُّفِ الحَضَارِي، وضَيْقِ الأُفُقِ، وضَعْفِ الثِّقَةِ بالنَّفْسِ ... انْتَهَىٰ.

ومَا ذَكَرَهُ الكَاتِبُ هُنَا، لهُوَ كَافٍ في وُجُوْدِ الخَلَلِ الكَبِيْرِ عِنْدَ أرْبَابِ (الفِكْرِ التَّرْبَوِيِّ) اليَوْمَ، هَذَا إذَا عَلِمْنَا أنَّ مَا ذَكَرَهُ الدُّوِيْشُ مِنْ أمْرَاضٍ لَيْسَتْ في شَيءٍ مِنْ أهْلِ العِلْمِ وطُلَّابِهِ، فهُنَا فَرْقٌ بَيْنَ المُرَبِّي والعَالمِ، وبَيْنَ التَّربِيَةِ والتَّعْلِيْمِ، وهَذَا ممَّا يَزِيْدُنَا يَقِيْنًا أنَّ كَلِمَةَ (التَّرْبِيَةِ) اليَوْمَ مِنَ المُصْطَلَحَاتِ الحَادِثَةِ الَّتِي جرَّتْ علىٰ الأمَّةِ في أبْنَائِهَا وتُرَاثِهَا العِلْمِيِّ أخْطَارًا وأضْرَارًا كَبِيرَةً، حَيْثُ تَصَدَّرَ (للتَّربِيَةِ) اليَوْمَ مَنْ لَيْسَ أهْلًا للعِلْمِ، إلَّا مَا رَحِمَ الله وقَلِيْلٌ مَا هُم.

ثَالِثًا: أنَّ الكَاتِبَ قَدْ أقرَّ أيْضًا (٥-٧): بِأنَّ مَضْمُوْنَ كِتَابِه في غَيْرِهِ مِنْ

كُتُبِ أنْصَارِ (الفِكْرِ التَّرْبَوِيِّ) كَانَتْ أسِيرَةَ التَّجَارُبِ والخِبْرَاتِ الشَّخْصِيَّةِ المَحْدُوْدَةِ في إطَارِ الزَّمَانِ والمَكَانِ. انْتَهَىٰ.

وقَالَ آنِفًا: أنَّ ضَعْفَ اعْتِنَاءِ كَثِيرٍ مِنَ (التَّربَوِيِّيْنَ) بالرَّفْعِ مِنْ مُسْتَوَىٰ التَّأهِيلِ، ممَّا زَادَ مِنَ المُمارَسَاتِ المُعْتَمَدَةِ علىٰ المُحَاوَلَةِ والخَطأ، وتَعْمِيْمِ التَّجَارُبِ الشَّخْصِيَّةِ المَحْدُوْدَةِ .انْتَهَىٰ.

قُلْتُ: إذَا كَانَتِ التَّجَارُبُ: هِيَ نَصِيْبُ أنْصَارِ (الفِكْرِ التَّرْبَوِيِّ) فَلَيْسَ لَهُم والحَالَةُ هَذِهِ أنْ يُكْتُبُوا سَوْدَاءَ في بَيْضَاءَ لتَرْبِيَةِ شَبَابِ المُسْلِمِيْنَ، لأنَّ التَّجَارُبَ التَّربَوِيَّةَ الَّتِي يُرَوِّجُهَا أصْحَابُها خَاضِعَةٌ للخَطأ والصَّوَابِ، خِلافًا للعِلْمِ الشَّرعِيِّ الَّذِي يُسْتَنَدُ علىٰ الكِتَابِ والسُّنَّةِ، ومَنْ تمَسَّكا بِهما فَلَنْ يَضِلَّ ولَنْ يَشْقَىٰ، لقَوْلِهِ تَعالىٰ: ﴿قُلْنَا ٱهْبِطُواْ مِنْهَا جَمِيعًاۖ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَاىَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [البقرة: ٣٨].

وقَوْلِهِ ﷺ: «**تَركْتُ فِيْكُم أمْرَيْنِ لَنْ تَضِلُّوا مَا تَمَسَّكْتُم بِهِما: كِتَابَ الله، وسُنَّةَ نَبيِّهِ**» أخْرجَهُ مَالِكٌ في «الموَطَّأ» (٥٦٤)، وهُوَ حَدِيْثٌ صَحِيْحٌ.

رَابِعًا: أنَّ الكَاتِبَ أرَادَ مِنْ كِتَابِهِ هَذَا: رَسْمَ أهْدَافِ التَّربِيَةِ للشَّبَابِ، والحَالَةُ هَذِه كَانَ الأوْلىٰ بالكَاتِبِ أنْ يَرْسُمَ لأبْنَاءِ المُسْلِمِيْنَ شُعَبَ الإيْمانِ، لأنَّ كُلَّ هَدَفٍ يَرُوْمُهُ أصْحَابُ (الفِكْرِ التَّرْبَوِيِّ) إمَّا أنْ يَكُوْنَ تَرْبَوِيًّا خَاضِعًا للتَّجْرُبَةِ، أو يَكُوْنَ هَدَفًا شَرْعِيًّا، فالأوَّلُ مِنْهُما لَيْسَ مِنْ مَقْصَدِ الكَاتِبِ (قَطْعًا)، أمَّا إذَا أرَادَ الثَّاني (وهُوَ كَذَلِكَ) فمَحَلُّهُ الكِتَابُ والسُّنَّةُ الَّتِي هِيَ مِنْ شُعَبِ الإيْمانِ، والحَالَةُ هَذِه كَانَ علىٰ الَّذِي يَرْسُمُ أهْدَافًا شَرْعِيَّةً أنْ يَكُوْنَ

مِنْ جُمْلَةِ أَهْلِ العِلْمِ الشَّرعِيِّ (كَما هُوَ حَالُ الدُّوِيْشِ)، لا مِنْ زُمْرَةِ أَرْبَابِ (الفِكْرِ التَّرْبَويِّ)!

كَما كَانَ عَلَيْهِ أَنْ يُشْعِرَ ويُعَلِّمَ كُلَّ مَنْ هُم حَوْلَهُ مِنْ شَبَابِ المُسْلِمِيْنَ أَنَّ الَّذِي يُمْلِيْهِ عَلَيْهِم: هُوَ عِلْمٌ شَرْعِيٌّ مَأخُوْذٌ مِنْ أَهْلِهِ العُلَماءِ وطُلَّابِهِم؛ ممَّا لَيْسَ مِنْ شَأنِ إفْرَازَاتِ تَجارُبِ ومَمارَسَاتِ صَنائِعِ (الفِكْرِ التَّرْبَويِّ)!

خَامِسًا: أنَّ الكَاتِبَ في كِتَابِهِ (للأسَفِ) قَدْ تَأثَّر في أبْوَابِهِ وفُصُوْلِهِ الأوْلىٰ بمَبَاحِثَ خَطِيرةٍ، حَيْثُ أخذَتْ مِنْ صَاحِبِهَا فَلْسَفَةً مَنْطَقِيَّةً وتَقْسِيمَاتٍ عَقْلِيَّةً في صَيَاغَتِهَا لا قِبَلَ ولا عِلْمَ للمُسْلِمِيْنَ بِها؛ فَضْلًا عَنْ أبْنَاءِ المُسْلِمِيْنَ الَّذِيْنَ يُرَادُ (تَرْبِيَتُهُم) علىٰ أهْدَافِ هَذَا الكِتَابِ!

فَحَسْبُكَ مِنْ كَلِماتِهِ المَنْطِقِيَّةِ كَما جَاءَتْ في كِتَابِهِ هَذَا؛ مَا يَلِي: النَّمُوُّ الدَّاخِلي، نُمُوُّ الأبْعَادِ الخَارِجِيَّةِ، التَّعَلُّمُ المَنْطِقِّيُّ، التَّفْكِيرُ المُجَرَّدُ، التَّغْيرُ في مَفْهُوْمِ الذَّاتِ، الشُّعُوْرُ بالأنَا، غَزَارَةُ الانْفِعَالِ، التَّذَبْذُبُ الانْفِعَالي ... في غَيْرِهَا مِنْ مُصْطَلَحَاتِ الفَلْسَفَةِ والمَنطِقِ!

* * *

❑ ولَيْسَ لقَائِلٍ بَعْدَ ذَلِكَ أنْ يَقُوْلَ: لا مُشَاحَةَ في الاصْطِلاحِ؟!

أقُوْلُ لَيْسَ الأمْرُ كَذَلِكَ: لأنَّ في الألْفَاظِ الشَّرعِيَّةِ الكِفَايَةَ والوَفَايَةَ في الدِّلالاتِ والمَعَاني مَا لَيْسَ في غَيْرِهَا، هَذَا إذَا عَلِمْنَا أنَّ تَسْوِيْقَ هَذِهِ الألْفَاظِ المُحْدَثَةِ سَيَكُوْنُ علىٰ الأمَدِ القَرِيْبِ صَدًّا عَنْ سَبِيْلِ الحَقِّ، ومَسْخًا

للألْفَاظِ الشَّرعِيَّةِ وتَغْرِيْبًا للمُصْطَلَحاتِ الشَّرعِيَّةِ، وقَدْ ظَهَرَتْ طَلائِعُهُ بَيْنَ الشَّبِيْبَةِ الَّذِيْنَ أخَذَتْ بِهِم مُصْطَلَحاتُ (الفِكْرِ التَّرْبَويِّ) في وَادِ تُضُلِّلَ!

وقَدْ مَرَّ مَعَنَا خَطَرُ اسْتِعْمالِ الألْفَاظِ المُجْمَلَةِ، لاسِيَّما المَنْطِقيَّةِ مِنْهَا[1].

❑ وأخِيرًا؛ فَهَذِهِ بَعْضُ النَّظَرَاتِ السَّرِيْعَةِ حَوْلَ مُقَدِّمَةِ كِتَابِ «تَرْبِيَةِ الشَّبَابِ» للشَّيْخِ الدِّوِيْشِ حَفِظَهُ الله، وإلَّا هُنَاكَ اسْتِدْرَاكَاتٌ كَثِيرَةٌ في مَجْمُوْعِ كِتَابِهِ لا يَسَعُهَا هَذَا الكِتَابُ، والله المُوَفِّقُ والهَادِي إلىٰ سَوَاءِ السَّبِيْلِ!

❑ ❑ ❑

---

(١) انْظُرْ ص ١٠٨ وما بعدها.

البَابُ الثَّالِثُ

بِدَايَاتُ (الفِكْرِ التَّرْبَويِّ)

- الفَصْلُ الأوَّلُ: بِدَايَاتُ (الفِكْرِ التَّرْبَويِّ) عِنْدَ الأُمَمِ المَاضِيَةِ.
- الفَصْلُ الثَّانِي: بِدَايَاتُ (الفِكْرِ التَّرْبَويِّ) عِنْدَ المُسْلِمِيْنَ.

الفَصْلُ الأوَّلُ

بِدَايَاتُ (الفِكْرِ التَّرْبَويِّ) عِنْدَ الأُمَمِ المَاضِيَةِ

لا شَكَّ أنَّ الحَدِيْثَ عَنْ بِدَايَاتِ (الفِكْرِ التَّرْبَوِيِّ) عِنْدَ الأُمَمِ المَاضِيَةِ طَوِيْلُ الذَّيْلِ قَلِيْلُ النَّيْلِ، شَائِكُ الطَّرِيْقِ بَعِيْدُ النَّوَالِ . . . وهَكَذَا حَتَّىٰ شَاءَ الله تَعَالىٰ أنْ أقِفَ مَعَ هَذَا التَّارِيْخِ أوْقَاتٍ غَيْرَ قَلِيْلَةٍ، حَتَّىٰ إذَا قَضَىٰ الله أجْلًا مُسَمًّىٰ مِنَ القِرَاءةِ إذْ بي أقِفُ علىٰ فَلْسَفَةٍ تَارِيخِيَّةٍ، وتكَهُّنَاتٍ خُرَافِيَّةٍ مَا أنْزَلَ الله بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ . . .!

ومَهْما يَكُنْ مِنْ قَارِئٍ فَلَنْ تَصِلَ بِهِ الحَقِيْقَةُ في هَذَا التَّارِيْخِ إلَّا أنْ يُقِرَّ: بِأنَّ التَّرْبِيَةَ في بِدَايَاتِها عِنْدَ الأُمَمِ المَاضِيَةِ: مَا هِيَ إلَّا وَثَنِيَّاتٌ يُوْنَانِيَّةٌ، وأفْكَارٌ إلحَادِيَّةٌ، ونَظَرِيَّاتٌ لفَظَتْهَا حُثَالَةُ أفْكَارٍ، وزُبَالَةُ أفْهَامٍ . . . ولا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيْرٍ!

وإنِّي مَعَ هَذِهِ الحَقِيْقَةِ فَقَدْ آثَرْتُ أنْ أخُوْضَ بَعْضَ الشَّيءِ في أوْحَالِ هَذَا التَّارِيْخِ المُظْلِمِ علىٰ كَرْهٍ مِنِّي ومُصَابَرَةٍ؛ عَسَاني أقِفُ علىٰ رُفَاتِ الحَضَارَاتِ التَّارِيخِيَّةِ مُنْذُ عُصُوْرِهَا البَائِدَةِ، كَي نَقْطَعَ الطَّرِيْقَ علىٰ عُشَّاقِ (الفِكْرِ التَّرْبَوِيِّ)، ونَكْشِفَ الحَقِيْقَةَ لكُلِّ مُسْتَبْصِرٍ للحَقِّ طَالِبٍ للهِدَايَةِ.

إلَّا أنَّنا مَعَ هَذِهِ الوَقَفَاتِ التَّارِيخِيَّةِ لبِدَايَاتِ (الفِكْرِ التَّرْبَوِيِّ) عَبْرَ التَّارِيْخِ،

لَنْ نُطِيْلَ البَحْثَ والتَّنْقِيْبَ في كُلِّ مَا تَرَكَتْهُ الحضَارَاتُ البَائِدَةُ هُنَا وهُنَاكَ، بَلْ سَنَكْتَفِي ببَعْضِ الإشَارَاتِ والأمَارَاتِ الَّتي تأتي بشَهَادَتِها علىٰ المَاضِي والحَاضِرِ، وكَما قِيْلِ: يَكْفِي مِنَ القِلادَةِ مَا أحَاطَ بالعُنُقِ!

* * *

❑ ولَقَدِ اهْتَدَيْتُ بَعْدَ قِرَاءةٍ طَوِيْلَةٍ في تَارِيْخِ تَطوُّرِ (الفِكْرِ التَّرْبَويِّ) عِنْدَ الأمَمِ في غَابِرِ الأزْمَانِ، أنَّ (التَّرْبِيَةَ) عِنْدَهُم: هِيَ في حَقِيْقَتِهَا (دِيْنٌ) في تَطوُّرَاتِهِ، و(دِيْنٌ) في مُعْتَقَدَاتِهِ، وهِيَ أيْضًا (عُبُوْدِيَّةٌ) كَيْفَما عَرَفُوْهَا وكَيْفما آمَنُوا بِها، سَوَاءٌ كَانَتْ: وَثَنِيَّةً، أو أدْيَانًا مُحرَّفَةً، أو خُرَافَاتٍ عَقْلِيَّةً . . . نَعَم فَإنَّ (التَّرْبِيَةَ) في قَامُوْسِ التَّارِيْخِ الغَابِرِ لَيْسَتْ إلَّا: أدْيَانًا وعُبُوْدِيَّاتٍ آمَنَ بِها أولَئِكَ الكَافِرُوْنَ!

ومَهْما اسْتَكْثَرَ المُؤرِّخُوْنَ المُعَاصِرُوْنَ في كِتَابَةِ تَارِيْخِ (الفِكْرِ التَّرْبَويِّ) عِنْدَ الأمَمِ المَاضِيَةِ، فَلَنْ يَأتُوا علىٰ كَبِدِ الحَقِيْقَةِ في تَفْصِيْلاتِها وتَدْقِيْقَاتِها . . . حَتَّىٰ إنَّكَ لتُقْسِمُ إيْمانًا مُغَلَّظَةً أنَّ أحَدًا مِنْهُم لم يَقِفْ علىٰ شَيءٍ مِنَ التَّحْقِيْقِ العِلْمِيِّ الَّذِي يُؤْمِنُ بِهِ المُنْهَجُ العِلْمِيُّ عِنْدَ أحَدٍ مِنَ العَالمِيْنَ، بَلْ كُلُّ مَا هُنَالِكَ اجْتَرَارٌ وفَلْسَفَاتٌ تَأخُذُ في المَدِّ والجَزْرِ بقَدْرِ مَا يَبْتَعِدُ أو يَقْرُبُ القَمَرُ بضُوْئِه الهَادِي علىٰ البَحْثِ المُجَرَّدِ الَّذِي تَفْرِضُهُ الأمَانَةُ العِلْمِيَّةُ.

وإنَّا وإيَّاهُم لا نَرْفُضُ أو نُكَذِّبُ كُلَّ مَا كَتَبَهُ المُعَاصِرُوْنَ عَنْ تَارِيْخِ (الفِكْرِ التَّرْبَويِّ) جُملَةً، كَلَّا؛ بَلْ كُلُّنا يَعْلَمُ أنَّ الفَلْسَفَةَ التَّارِيخِيَّةَ عِنْدَ مُؤرِّخِي (الفِكْرِ التَّرْبَويِّ) تَقِفُ عِنْدَ أصُوْلٍ ومَعَالمَ عَرِيْضَةٍ لا تَتَجَاوَزُ تَصوُّرَاتٍ عَامَّةٍ

بَعِيْدَةٌ كُلَّ البُعْدِ عَنْ كُلِّ مَا يَكْتُبُهُ مَنَظِّرُو (الفِكْرِ التَّرْبَوِيِّ) اليَوْمَ في تَحْرِيْرِ تَارِيْخِ (التَّرْبِيَةِ) مُنْذُ عُصُوْرِهَا الغَابِرَةِ حَتَّىٰ العُصُوْرِ الوُسْطَىٰ المُظْلِمَةِ: مِنْ تَفْصِيْلاتٍ، وتَفْرِيْعَاتٍ، وتَشْقِيْقَاتٍ، وكَذَا تَأْصِيْلاتٍ؛ وكَأَنَّهم يَكْتُبُوْنَ وهُمْ أحْيَاءُ بَيْنَ ظَهْرَانَيْ أُوْلَئِكَ الغَابِرِيْنَ في أُمَمٍ مَضَتْ واندثرت كَأنَّ شَيْئًا لم يَكُنْ!

فَإذَا عَلِمْنَا مَا هُنَا كَانَ الأَوْلَىٰ بِنَا، واحْتِرَامًا مِنَّا للقَارِئ أنْ نَقِفَ مَعَ بِدَايَاتِ (الفِكْرِ التَّرْبَوِيِّ) بشَيءٍ مِنَ الاخْتِصَارِ، وهُوَ كَذَلِكَ.

كَما أنَّنا سَوْفَ نَجْتَزُّ (هُنَا) تَارِيخًا كَبِيرًا، وحَضَارَاتٍ بَائِدَةً مِنْ فَصْلِنَا هَذَا، حَتَّىٰ نَأتي علىٰ عَجَلٍ فِيْما نُرِيْدُهُ مِنِ اخْتِصَارٍ، فإلىٰ تَارِيخِهِم البَائِسِ!

❑ ❑ ❑

الفِكْرُ التَّرْبَويُّ

في اليُونَانِ (الإغْرِيقِ)

اليُوْنَانُ شِبْهُ جَزِيْرَةٍ في البَحْرِ المُتَوسِّطِ بمَنَاخِهَا المُعْتَدِلِ الدَّاعِي إلىٰ حُرِّيَّةِ الحَرَكَةِ، إلَّا أنَّها جِبَالٌ ووِهَادٌ تَتَطَلَّبُ مَشَقَّةً وعَمَلًا وجُهْدًا جَسِيْمًا.

وقَدْ تَنَاثَرَتْ علىٰ شِبْهِ الجَزِيْرَةِ هَذِهِ مَجْمُوْعَةٌ مِنَ المُدُنِ، وكَانَ لِكُلٍّ مِنْهَا نِظَامُهَا وقَوَانِيْنُهَا وحَيَاتُها الاجْتِماعِيَّةُ.

ودَانَتْ بِلادُ اليُوْنَانُ بآلِهَةٍ مُتَعَدِّدَةٍ: آلِهَةٍ للبَرِّ والبَحْرِ والحَرْبِ والجَمالِ ... آلِهَةٍ لا تَمُوْتُ، لكِنَّهَا تَغْضَبُ وتَثُوْرُ وتُهَدِّدُ ثُمَّ تَهْدأ، فَيَنْعَكِسُ ذَلِكَ علىٰ اليُوْنَانِيِّيْنَ فيَخْرُجُوْنَ ويَرْقُصُوْنَ وتَسِيْلُ أنهارٌ مِنْ خَمْرٍ، وتُمَدُّ المَوَائِدُ ويُبَاحُ فِيْهَا كُلُّ شَيءٍ (عَيَاذًا بالله)!

ويَعْجَبُ اليُوْنَانِيُّون بأبَطْالِ أسَاطِيرِهِم، وبِما فِيْهَا مِنْ أعْمالٍ تَفُوْقُ طَاقَةَ البَشَرِ، إذْ يَطِيْرُ الإنْسَانُ ويُحَطِّمُ مَا يُرِيْدُ، ويَهِيْجُ البَحْرُ بأمْرِ الآلِهَةِ، ويحْمِي الفَارِسُ مَحْبُوْبَتَهُ، فَيَقْتُلُ حَيْوَانًا لَهُ رَأسُ أسَدٍ علىٰ جِسْمِ مَاعِزٍ وذَيْلِ تِنِّيْنٍ وهَكَذَا شَعْبٌ وبَطَلٌ وإلَهٌ تَجْمَعُهُم الأسَاطِيْرُ والخُرَافَاتُ.

وقَدْ مَرَّتِ اليُوْنَانُ بعُصُوْرٍ مُتَعَدِّدَةٍ، إلَّا أنَّها لم تَعْرِفِ الوِحْدَةَ والاسْتِقْرَارَ، وقَدِ اخْتَلَفَتْ بَيْنَ مُدُنِها الأنْظِمَةُ الحُكُومِيَّةُ: بَيْنَ دِيْمُقْرَاطِيَّةٍ واسْتِبْدَادِيَّةٍ غَارِقَةٍ

في جَبَرُوتِها وسَطْوَتِها[١].

* * *

وكَانَ لليُونَانِ فَلاسِفَةٌ قَدْ أشْغَلُوا الدُّنْيَا بعُلُوْمِهِم الفَلْسَفِيَّةِ، ونَظَرِيَّاتِهم المَنْطِقِيَّةِ، وأفْكَارِهِم العَقْلانِيَّةِ، فَذَهَبَتْ نَظَرِيَّاتُهم تُضْرَبُ بنَفْسِهَا في عُقُوْلِ جُهلاءَ، وقُلُوْبِ عَمْياءَ، فَكَانَتِ الفَلْسَفَةُ اليُونَانِيَّةُ عِنْدَهُم مَضْرِبًا للمَثَلِ البَشَرِيِّ.

* * *

❑ **وقِصَّةُ الفَلْسَفَةِ اليُونَانِيَّةِ تَتَمَثَّلُ في سُطُوْرٍ مُخْتَصَرَةٍ، فَهَاكَهَا:**

لَقَدِ اهْتَمَّ الإغْرِيْقُ في القَرْنِ الخَامِسِ قَبْلَ المِيْلادِ بمَشَاكِلِ حَيَاتِهِم الاجْتِماعِيَّةِ، فَقَدْ بَدَأ بَعْضُ المُفَكِّرِيْنَ يَبْحَثُوْنَ طَرَائِقَ الحَيَاةِ والنُّظُمِ الاجْتِماعِيَّةِ الَّتِي عَاشَهَا الإغْرِيْقُ قُرُونًا طَوِيْلَةً، ولاحَ لهم أنَّ ثَمَّةَ تَغْيِيْرَاتٍ كَبِيْرَةً حَدَثَتْ في حَيَاتِهِم الاجْتِماعِيَّةِ، خَاصَّةً بَعْدَ الحُرُوْبِ الَّتِي خَاضُوْهَا، والانْتِعَاشِ الاقْتِصَادِي الَّذِي فَاضَ عَلَيْهِم.

لأجْلِ هَذَا؛ كَانَ لا بُدَّ مِنْ تَعْدِيْلاتٍ اجْتِماعِيَّةٍ لَدَيْهِم، لأنَّ النِّظَامَ المَوْجُوْدَ وقْتَئِذٍ أصْبَحَ لا يَتَنَاسَبُ مَعَ مَا طَرأ علىٰ المُجْتَمَعِ مِنْ تَغْيِيْرَاتٍ مَشْهُوْدَةٍ.

---

(١) انْظُرْ «تَطوُّرَ الفِكْرِ التَّرْبَوِيِّ» لسَعْدِ مُرْسِي (١٥٥)، و«تَارِيْخَ تَطوُّرِ اتِّجاهاتِ الفِكْرِ التَّرْبَوِيِّ» لسُهَامِ العِرَاقِيَّةِ (٣٧).

فَعِنْدَ هَذَا؛ تَطَلَّعُوا إِلىٰ التَّربِيَةِ ونِظَامِهَا، كَيْفَ يَتَعَلَّمُ الأَحْدَاثُ؟ ومَاذَا يَتَعلَّمُوْنَ؟ لأَنَّ العَادَاتِ والتَّقَالِيْدَ القَدِيْمَةَ أَصْبَحَتْ غَيرَ مُنَاسِبَةٍ، كَما أَنَّ الاتِّجاهَاتِ الجَدِيْدَةَ لا تُرْضِي جَمِيْعَ المُوَاطِنِيْنَ، كَانَ هَذَا هُوَ المَوْقِفُ الَّذِي مَهَّدَ الطَّرِيْقَ للفَلْسَفَةِ لتَقُوْلَ رَأيَها!

نَعَم؛ كَانَ السُّفُسْطَائِيُّوْنَ: هُمْ أَوَّلُ مَنْ تَصدُّوا للمُشْكِلاتِ النَّظَرِيَّةِ التَّربَوِيَّةِ الَّتِي تَمَخَّضَتْ عَنِ القَلَقِ الاجْتِماعِي، وكَانُوا أَيْضًا مِنْ أَشَدِّ المُهَاجِمِيْنَ للنُّظُمِ القَدِيْمَةِ، الَّتِي كَانَتْ مُقَدَّسَةً ومُعَظَّمَةً عِنْدَهُم، فَعِنْدَئِذٍ قَامُوا بثَوْرَةٍ عَلَيْهَا يَطْلِبُوْنَ: بالعِلْمِ والمَعْرِفَةِ، غَيْرَ أَنَّ مَا يُؤخَذُ علىٰ السُّفُسْطائِيِّيْنَ أَنَّهم يُدَافِعُوْنَ عَنْ وُجْهَةِ نَظَرٍ تَتَناسَبُ مَعَ مَنْ يَدْفَعُ لهُم مالًا وفَائِدَةً، فَقَدْ يُؤيِّدُوْنَ رَأيًا في وَقْتٍ، ويُؤيِّدُوْنَ نَقِيْضَهُ في وَقْتٍ آخَرَ!

وقَدْ جَذَبَتْ طَرِيْقَةُ السُّفُسْطائِيِّيْنَ الشَّبَابَ الثَّائِرَ المُتَحَمِّسَ، وأَغْضَبَتِ المُحَافِظِيْنَ علىٰ القَدِيْمِ وكِبَارَ السِّنِّ، وقَدْ احْتَقَرَهُمُ البَعْضُ لأَنَّهم اتَّخَذُوا مِنَ العِلْمِ سِلْعَةً يَبِيْعُوْنَها مَتَىٰ شَاؤوا، إِلَّا أَنَّ الخَوْفَ مَا زَالَ يُأرِّقُ الكَثِيرَ مِنَ المُحَافِظِيْنَ لمَا في آرَاءِ هَؤُلاءِ الجُدُدِ مِنْ ثَوْرَةٍ علىٰ القَدِيْمِ المُتَعَارَفِ عَلَيْهِ، ومَعَ ذَلِكَ فَقَدْ هَرَعَ إِلَيْهِم الشَّبَابُ لمَا اتَّسَمَتْ بِه آرَاؤُهم مِنْ حُرِّيَّةٍ وانْطِلاقٍ، ولمَا أَضْفَوْهُ علىٰ الفَرْدِ مِنْ تَمْجِيْدٍ وإِعْزَازٍ، حَتَّىٰ قَالُوا: إِنَّ الإِنْسَانَ مِقْيَاسُ كُلِّ شَيءٍ، وكَذَا عَمِلُوا علىٰ تَحْرِيْرِ العَقْلِ مِنَ الجَهَالَةِ والرُّوْحِ مِنَ الخَوْفِ، والجِسْمِ مِنَ الوَهَنِ . . . وهَكَذا حَتَّىٰ نَسَبَ إِلَيْهِم المُنَاصِرُوْنَ أَنَّهم: دُعَاةُ

الحُرِّيَّةِ البَشَرِيَّةِ فِيْما يَزْعُمُوْنَ، لأنَّ هَذَا ظَاهِرُ عِلْمِهِم مِنَ الحَيَاةِ الدُّنْيَا[1].

وكَانَ السُّفُسْطَائِيُّوْنَ يَتَعَلَّمُوْنَ: الحِسَابَ، والهَنْدَسَةَ، والفَلَكَ، والبَيَانَ، والتَّارِيْخَ، والأسَاطِيْرَ، والمَنْطِقَ، والسِّيَاسَةَ، وفِقْهَ الدِّيْنِ، والمُوْسِيْقَىٰ، ولكِنَّهُم مَجَّدُوا البَيَانَ وعَظَّمُوْهُ!

لِذَا نَجِدُ السُّفُسْطَائِيِّينَ لم يَتَعَلَّمُوا المَنْطِقَ حِرْصًا مِنْهُم علىٰ مَعْرِفَةِ الصِّدْقِ والحَقِّ، ولَكِنْ للفَوْزِ في مُنَاظَرَةٍ أو مُنَاقَشَةٍ كَلامِيَّةٍ، وهَذَا مَا سُمِّيَ: بالسَّفْسَطَةِ، وكَانُوا يُنْكِرُوْنَ وُجُوْدَ المَوْجُوْدِ، أو الحَقِيْقَةَ المَوْضُوعِيَّةَ، وأنَّ رَأي الفَرْدِ: هُوَ الصِّدْقُ الوَحِيْدُ.

ولَكِنَّ المُحَافِظِيْنَ وأنْصَارَهُم رَدُّوا علىٰ هُجُوْمِ السُّفُسْطَائِيِّينَ قَائِلِيْنَ: إنَّهم جَمَاعَةٌ مِنَ المُنَافِقِيْنَ يَتَذَبْذَبُوْنَ في أقْوَالِهم حَسْبَما يُدْفَعُ لهُم، وهَاجَمُوا طَرِيْقَةَ السُّفُسْطَائِيِّينَ القَائِمَةِ علىٰ التَّفْكِيرِ، مُنْكِرِيْنَ علىٰ الإنْسَانِ قُدْرَتَهُ علىٰ الفَضِيْلَةِ أو الكَرَامَةِ عَنْ طَرِيْقِ الطُّرُقِ العَقْلِيَّةِ والجَدَلِ.

وأكَدَّ المُحَافِظُوْنَ علىٰ القَدِيْمِ أنَّ مِعْيَارَ الفَضِيْلَةِ يُحَدِّدُهُ أشْرَافُ القَوْمِ بِما يَسْلُكُوْنَهُ، والفَضِيْلَةُ في نَظَرِهِم تُوْرَثُ، ويُمْكِنُ تَعَلُّمُهَا لمَنْ يَعِيْشُ مَعَ الأشْرَافِ مُتَتَلْمِذًا عَلَيْهِم في سُلُوْكِهِم، فَاعِلًا النَّبِيْلَ مِنَ الأعْمالِ، ولكِنْ لا يُمْكِنُ تَعَلُّمُهَا عَنْ طَرِيْقِ التَّفْكِيرِ والذَّكَاءِ، ومَعْنَىٰ ذَلِكَ أنَّ الأُسْلُوْبَ الدِّيْمُقْراطيَّ السُّفُسْطائيَّ لتَعْلِيْمِ الفَضِيْلَةِ لجَماهِيْرِ الشَّعْبِ: كَانَ لا بُدَّ وأنْ يَفْشَلَ في رَأيِ عِلْيَةِ القَوْمِ.

---

(١) انْظُرْ «تَطَوُّرَ الفِكْرِ التَّرْبَوِيِّ» لسَعْدِ مَرْسَي (١٣٨-١٣٩).

وظَهَرَ الصِّرَاعُ بَيْنَ المُحَافِظِيْنَ وآرَائِهِم وبَيْنَ السُّفُسْطَائِيِّيْنَ وآرَائِهِم، : صِرَاعٌ بَيْنَ أُرُسْتُقْرَاطِيَّةٍ ودِيْمُقْرَاطِيَّةٍ، وقَدْ أوْلَىٰ سُقْرَاطُ هَذَا الصِّرَاعَ اهْتِمامَهُ الكَبِيرَ، فإلَىٰ قِصَّةِ سُقْرَاطٍ، ومَشَاهِيرِ فَلاسِفَةِ اليُوْنَانِ!

* * *

❑ سُقْرَاطُ (٤٦٩-٣٩٩ ق. م)[١]:

هُوَ أعْظَمُ مُفَكِّرِي (أثِيْنَا) في القَرْنِ الخَامِسِ، ومَعَ هَذَا كَانَ قَبِيْحَ المَنْظَرِ، رَثَّ الهَيْئَةِ، وقَدْ نَشَأ سُقْرَاطُ نَشْأةً مُتَوَاضِعَةً، فَكَانَ مُتَّجِهًا بحُكْمِ نَشْأتِهِ نَاحِيَةَ الدِّيْمُقْرَاطِيَّةِ الَّتِي كَانَتْ تَعْنَىٰ بالفَرْدِ، وكَانَ أبُوْهُ يَحْتَرِفُ صِنَاعَةَ التَّماثِيْلِ، وكَانَتْ أُمُّهُ قَابِلَةً، ومِنْ أُسْرَةٍ فَقِيْرَةٍ، وقَدِ احْتَرَفَ مِهْنَةَ أبِيْهِ فَتْرةً قَصِيرَةً، ثُمَّ تَرَكَهَا، وتَخَصَّصَ في الفَلْسَفَةِ، واعْتَبَرهَا رِسَالَتَهُ في الحَيَاةِ، وقَدْ رَاعَىٰ سُقْرَاطُ التَّقَالِيْدَ الأثِيْنِيَّةَ، وقَدْ رَأىٰ الحَاجَةَ إلَىٰ تَرْبِيَةٍ مِنْ نَوْعٍ ممْتَازٍ، تَرْبِيَةً إنْسَانِيَّةً مُتَّجِهَةً إلَىٰ الإنْسَانِ، ويَكُوْنَ مَوْضُوْعُهَا الرَّئِيْسُ: الجَوْهَرَ الرُّوْحِيَّ للإنْسَانِ، ولكِنَّهُ لم يَقْصِدْ مِنْ هَذَا مَا قَصَدَهُ السُّفُسْطَائِيُّوْنَ بقَوْلِهِم: إنَّ الإنْسَانَ مِقْيَاسُ كُلِّ شَيءٍ، ولكِنَّهُ قَصَدَ إلَىٰ القَوْلِ بوُجُوْبِ أنْ تَكُوْنَ المَعْرِفَةُ مُسْتَقِلَّةً، أيْ أنَّ عَقْلَ الإنْسَانَ يَجِبُ أنْ يَبْحَثَ في الأشْيَاءِ باسْتِقْلالٍ وحُرِّيَّةٍ كَامِلَةٍ، وأنْ يُحَكِّمَ كُلَّ مَا هُوَ مَوْرُوْثٌ، فَلا قِيْمَةَ للأفْكَارِ أو العَقَائِدِ مِنْ حَيْثُ هِي قَدِيْمَةٌ أو حَدِيْثَةٌ، ولكِنْ تَتَأتَّىٰ قِيْمَتُهَا مِنْ حَيْثُ إنَّها تُعَبِّرُ تَعْبِيْرًا صَحِيْحًا عَنْ حَقِيْقَةِ الأشْيَاءِ.

---

(١) تَحْدِيْدُ سَنَةِ وِلادَةِ سُقْرَاطَ فِيْهَا أقْوَالٌ كَثِيْرَةٌ، وإنْ كَانَ الأكْثَرُ أنَّه وُلِدَ عَامَ (٤٦٩ ق. م).

ويَخْتَلِفُ سُقْرَاطُ عَنِ السُّفُسْطائِيِّينَ: في أنَّ الأحْكَامَ الَّتِي يُصْدِرُهَا العَقْلُ أحْكَامٌ مَوْضُوْعِيَّةٌ صَادِرَةٌ عَنْ طَبِيْعَةِ الأشْيَاءِ نَفْسِهَا، ولَيْسَتْ أحْكَامًا صَادِرَةً عَنِ الهَوَىٰ الفَرْدِي، كَما انْتَهَىٰ إلىٰ ذَلِكَ السُّفُسْطائِيُّوْنَ!

ويُذْكَرُ أنَّ سُقْرَاطَ انْصَرَفَ عَنِ البَحْثِ فِيْما يَتَّصِلُ بالطَّبِيْعَةِ والآلِهَةِ، مُؤْثِرًا أنَّ يَدْرُسَ الإنْسَانَ نَفْسَهُ أوَّلًا، ثُمَّ يَدْرُسَ المُتَّصِلَ بالإنْسَانِ، وكَانَ يَرَىٰ أنَّ عَقْلَ الإنْسَانِ لا يَسْتَطِيْعُ أنْ يَصِلَ إلىٰ البَحْثِ في الطَّبِيْعَةِ والإلهِيَّاتِ.

* * *

❑ طَرِيْقَةُ سُقْرَاط في التَّرْبِيَةِ:

قَامَتِ (التَّرْبِيَةُ) عِنْدَ سُقْرَاط علىٰ الحِوَارِ والسُّؤالِ والجَوَابِ، وكَانَتْ تَنْقَسِمُ إلىٰ مَرْحَلَتَيْنِ:

الأوْلىٰ: مَرْحَلَةُ التَّهَكُّمِ، وفِيْهَا يَدْفَعُ مَنْ يُحَاوِرُهُ إلىٰ الشَّكِّ في نَفْسِهِ، وفي مُعْتَقَدَاتِهِ حَتَّىٰ يَنْتَهِي إلىٰ حَقِيْقَةٍ ثَابِتَةٍ لا تَحْتَمِلُ الشَّكَّ ولا النَّقْدَ ولا الجَدَلَ.

الثَّانِيَةُ: مَرْحَلَةُ تَوْلِيْدِ الأفْكَارِ، حَيْثُ يُلْقِي الأسْئِلَةَ علىٰ مَنْ يُحَاوِرُهُ، حَتَّىٰ يَصِلَ إلىٰ الحَقِيْقَةِ النِّهَائِيَّةِ[١].

* * *

(١) «ذَيْلُ المِلَلِ والنِّحَلِ» لمُحَمَّدٍ الكَيْلانيِّ (٨٣)، و«أفْلاطُوْنُ» لعَبْدِ الرَّحمنِ بَدَوِي (٢٨)، و«تَارِيْخُ تَطَوُّرِ اتِّجاهاتِ الفِكْرِ التَّربَوِيِّ» لسُهَامٍ العِرَاقِيَّةِ (٦٣).

❑ وَفَاةُ سُقْرَاط:

اتُّهِمَ سُقْرَاطُ بإنْكَارِهِ لآلهَةِ اليُوْنَانِ، وبإفْسَادِ الشَّبَابِ بآرَائِهِ، وبمُهَاجَمَتِهِ للدِّيْمُقْرَاطِيَّةِ، كَما أَغْضَبَ الارُسْتُقْرَاطِيِّيْنَ لمَا يَبْدُوْنَهُ مِنِ اسْتِبْدَادٍ وظُلْمٍ، فَحُكِمَ عَلَيْهِ بالمَوْتِ، ووَقَفَ أمَامَ قُضَاتِهِ مُدافِعًا عَنْ نَفْسِهِ، ومُشْفِقًا علىٰ القُضَاةِ مِنْ مَوْقِفِهِم المُخْزِي، ومُتَألِّما لما صَارَتْ إلَيْهِ الأمُوْرُ مِنْ فَسَادٍ، وسُجِنَ ثَلاثِيْنَ يَوْمًا، وكَانَ الغُرُوْبُ مَوْعِدَ مَوْتِهِ، فَأُمِرَ سُقْرَاطُ بالسُّمِّ، وتَنَاوَلَ الكَأسَ بثَبَاتٍ، وبَكَىٰ تَلامِيْذُهُ عَلَيْهِ، فَنَهَرَهُم بَيْنَما السُّمُّ يَسْرِي في أوْصَالِهِ، حَتَّىٰ غَشَتْهُ بُرُوْدَةٌ في جِسْمِهِ وعِنْدَهَا فَقَدَ الإحْسَاسَ تَدْرِيْجِيًّا، ثُمَّ مَاتَ(١).

* * *

❑ أفْلاطُوْنُ:

هُوَ أفْلاطُوْنَ بنُ أرُسْطُنْ، ومَعْنَاهُ الفَسِيْحُ، وذَكَرَ بَعْضُهُم أنَّ أبَاهُ يُقَالُ لَهُ: (أسْطُوْنْ) وأنَّه كَانَ مِنْ أشْرَافِ اليُوْنَانِ.

ويُذْكَرُ أنَّ أفْلاطُوْنَ وُلِدَ بَيْنَ سَنَتَي (٤٢٩- ٤٢٧ ق.م) مِنْ أسْرَةٍ أُرُسْتُقْرَاطِيَّةٍ مُوْسِرَةٍ، وكَانَ علىٰ النَّقِيْضِ مِنْ أُسْتَاذِهِ الَّذِي تَتَلْمَذَ عَلَيْهِ في السَّنَوَاتِ الثَّمانِيَةِ الأخِيْرَةِ مِنْ عُمُرِهِ، وبَيْنَما كَانَ سُقْرَاطُ دَمِيْمَ الخِلْقَةِ قَبِيْحَ الوَجْهِ، كَانَ أفْلاطُوْنَ حُلْوَ المُحَيَّا ذَا جِسْمٍ رِيَاضِيٍّ مَمْشُوْقٍ، وكَانَ عُمُرَهُ عِشْرِيْنَ عَامًا، عِنْدَمَا تَتَلْمَذَ علىٰ سُقْرَاط، وجَلَسَ إلَيْهِ، بِيْنَما كَانَتِ الحَرْبُ

(١) انْظُرْ «قِصَّةَ الفَلْسَفَةِ اليُونَانِيَّةِ» لأحْمَدَ أمِيْنَ، وزَكي نَجِيْبٍ (١٢٨).

بَيْنَ اسْبَرْطَةَ وأثِيْنَا مُشْتَعِلَةً، وزَعْزَعَتْ هَذِهِ الحَرْبُ (البَلَلِيبُونِيْزِيَّةَ) دَعَائِمَ القُوَّةِ في أثِيْنَا، بَلْ وَزَادَتْ الدِّيْمُقْرَاطِيَّةُ في سِيَادَتِها فَأمْسَكَ الدُّهَمَاءُ بمَقَالِيْدِ الأمُوْرِ، وعَاثُوا فَسَادًا حَتَّىٰ إذَا انْتَهَتِ الحَرْبُ دَانَتِ السِّيَادَةُ للأرُسْتُقْراطِيِّينَ المُمَثِّلِيْنَ في ثَلاثِيْنَ طَاغِيَةٍ، وأرَادَ هَؤلاءِ أنْ يُصْلِحُوا مَا فَسَدَ، فَعَمَدُوا إلىٰ البَطْشِ والقَسْوَةِ وعَاشَتْ أثِيْنَا تَرْتَجِفُ!

وقَدْ شَهِدَ أفْلاطُوْنُ حُكْمَ الدُّهَمَاءِ، وحُكْمَ الأرُسْتُقْراطِيِّينَ، وكِلاهُما فَشِلَ، وكَانَ ذَلِكَ قَبْلَ أنْ يَجْلِسَ إلىٰ أُسْتَاذِهِ سُقْرَاط كَي يُحَاوِرَهُ، ولَمَّا لم يَكُنْ هُنَاكَ إلَّا أحَدَ أمْرَيْنِ في السِّيَاسَةِ: الدِّيْمُقْرَاطِيَّةِ أو حُكْمِ الأقَلِّيَّةِ، اشْتَغَلَ أفْلاطُوْنُ بأُسْتَاذِهِ!

وقَدْ وَلَّىٰ أفْلاطُوْنُ وَجْهَهُ شَطْرَ الشِّعْرِ يَنْظِمُهُ، فَلَّما حَضَرَ مَجْلِسَ سُقْرَاط، فَرَآهُ يَثْلِبُ ويَطْعَنُ في الشِّعْرَ أحْرَقَهُ وتَرَكَهُ[1].

وبَعْدَ مَوْتِ أسْتَاذِهِ رَحَلَ، بَعْدَ أنْ لَفَتَ الأنْظَارَ إلَيْهِ بدِفَاعِهِ عَنْهُ ومُنَادَاتِهِ ببَرَاءتِهِ وعَظَمَتِهِ وعَبقَرِيَّتِهِ، إلَّا أنَّ هُنَالِكَ بَعْضَ الأقَاوِيْلِ قَامَتْ حَوْلَ أفْلاطُوْنَ دَفعَتْهُ إلىٰ التِّرْحَالِ والسَّفَرِ!

* * *

❑ وَظَائِفُ التَّربيَةِ عِنْدَ أفْلاطُوْنَ:

يَرَىٰ أفْلاطُوْنُ أنَّ للتَّربِيَةِ وَظَائِفَ مُتَعَدِّدَةً: فَهِي تَعْمَلُ علىٰ تَحْقِيْقِ وِحْدَةِ

(١) «الفِهْرِسْتُ» لابنِ النَّدِيْمِ (٣٠٥).

الدَّوْلَةِ، وتَنْمِيَةِ رُوْحِ الجماعَةِ بَدَلًا مِنَ الفَرْدِيَّةِ الَّتي تَفَشَّتْ في أثِيْنَا، وأدَّتْ إلىٰ هَدْمِ الدِّيْمُقْراطِيَّةِ.

وقَدْ غَلَبَتْ علىٰ آراءِ أفْلاطُوْنَ التَّربَوِيَّةِ آراؤهُ في عِلْمِ النَّفْسِ الَّتي تَصِفُ الرُّوْحَ البَشَرِيَّةَ أو الشَّخْصِيَّةَ، وآراؤهُ عَنِ المُجْتَمَعِ البَشَرِيِّ، وعَنِ الفَرْدِ والمُجْتَمَعِ والعِلاقَاتِ بَيْنَهُما.

ويَرَىٰ أفْلاطُوْنُ أنَّ (التَّرْبِيَةَ): هِيَ عَمَلِيَّةُ تَوْجِيْهِ وجَذْبِ الأطْفَالِ إلىٰ الطَّرِيْقِ الَّذِي رَسَمَتْهُ القَوانِيْنُ.

* * *

وقَدْ تَعرَّضَتْ آراءُ أفْلاطُوْنَ لكَثِيرٍ مِنَ التَّأيِيْدِ والنَّقْدِ، فالمُفَكِّرُوْنَ وأنْصارُ الثَّقافَةِ تَرُوْقُهم فِكْرَةُ الحُكَّامِ الفَلاسِفَةِ، وعُلَماءُ الدِّيْنِ يَقِفُوْنَ عِنْدَ آرائِهِ الدِّيْنِيَّةِ ويُخَطِّئُونَها لمَا فِيْهَا مِنْ فَسَادٍ وضَلالٍ، وأصْحَابُ الاتِّجاهَاتِ السِّيَاسِيَّةِ يَسْتَنِدُوْنَ إلىٰ تَأكِيْدِ اتِّجاهَاتِهم، فَالدِّيْمُقْراطِيُّوْنَ يَعُدُّوْنَهُ دِيْمُقْراطيًّا، والَّذِيْنَ يُؤيِّدُوْنَ القُوَّةَ العَسْكَرِيَّةِ يَعُدُّوْنَهُ حُجَّةً يَدْعَمُوْنَ بِهِ آراءَهُم!

وقَدَ نَظَرَ كَثِيرٌ مِنَ المُفكِّرِيْنَ إلىٰ آراءِ أفْلاطُوْنَ التَّربَوِيَّةِ علىٰ أنَّها أفْكَارٌ خَيالِيَّةٌ، تَقْصُدُ عالمًا مِثاليًّا كالمَدِيْنَةِ المِثالِيَّةِ الَّتي كَانَ أفلاطُوْنَ يَحْلُمُ بِها[١].

* * *

(١) انْظُرْ «قِصَّةَ الفَلْسَفَةِ اليُونانِيَّةِ» لأحْمَدَ أمِيْنٍ، وزَكي نَجِيْبٍ (١٢٨)، و«تَطَوُّرَ الفِكْرِ التَّرْبويِّ» لسَعْدِ مَرْسَىٰ (١٥٣)، و«التَّرْبِيَةَ عَبْرَ التَّارِيْخِ» لعَبْدِ الله بنِ عَبْدِ الدَّائِمِ (٧١).

❑ أَرُسْطُو:

تَرَبَّىٰ أَرُسْطُو مَعَ فِيْلِيْبْ أبي الإِسْكَنْدَرِ الأَكْبرِ المِقْدُونيِّ، وكَانَتْ وِلادَتُهُ في سَنَةِ (٣٨٤ ق.م) مِنْ عَائِلَةٍ ثَرِيَّةٍ، فَكَانَ أَبُوْهُ طَبِيْبًا لمَلِكِ مَقْدُوْنِيَا، وقَدْ تَرَكَ أَرُسْطُو (مَقْدُوْنِيَا) إلىٰ (أثِيْنَا) في السَّابِعَةِ عَشَرَةَ مِنْ عُمُرِهِ لِيَنَالَ تَعْلِيْمَهُ، وفِيْهَا الْتَحَقَ بأَكَادِيْمِيَّةِ أفْلاطُوْنَ، وتَتَلْمَذَ عَلَيْهِ مُدَّةَ عِشْرِيْنَ سَنَةً، وبَعْدَ وَفَاةِ أفْلاطُوْنَ تَرَكَ أَرُسْطُو (أثِيْنَا) إلىٰ (آسُوْسْ)؛ حَتَّىٰ دَعَاهُ فِيْلِيْبْ لِيَقُوْمَ علىٰ تَرْبِيَةِ ابْنِهِ الإِسْكَنْدَرِ، وكَانَ وَلِيًّا للعَهْدِ.

وعِنْدَمَا اعْتَلَىٰ الإِسْكَنْدَرُ عَرْشَ مَقْدُوْنِيَا عَادَ أَرُسْطُو إلىٰ أثِيْنَا، وأنْشَأَ بِهَا مَدْرَسَتَهُ الَّتِي سُمِّيْتَ: (اللِّيْسِيْه) نِسْبَةً إلىٰ المَكَانَ الَّذِي أنْشِئَتْ فِيْهِ، كَمَا سَمَّىٰ: أتْبَاعَهُ بالمشَّائِيْنَ، لأنَّهم أخَذُوا عَنْهُ عَادَةَ المَشِي أثْنَاءَ تَعْلِيْمِهِ، ثُمَّ مَاتَ الإِسْكَنْدَرُ عَامَ (٣٢٣ ق. م) في (بَابِلَ)، وهُوَ في أوْجِ نَصْرِهِ العَسْكَرِيِّ، وبمَوْتِهِ تَحَطَّمَ ذَلِكَ السِّيَاجُ المَتِيْنُ الَّذِي كَانَ يَحْمِي أَرُسْطُو مِنْ أعْدَائِهِ الحَاقِدِيْنَ وخُصُوْمِهِ المُغْرِضِيْنَ، فانْتَهَزُوا الفُرْصَةَ وأغْرَوُا بِهِ العَامَّةَ والجَماهِيْرَ واتَّهمُوْهُ بالإلْحَادِ، وأنَّهُ لا يُؤمِنُ بآلهَتِهِم، ولا يُقَدِّمُ لهُم القَرَابِيْنَ، ولمَّا اشْتَدَّ هِيَاجُ الجَماهِيرِ ضِدَّهُ غَادَرَ (أثِيْنَا) قَائِلًا: إنَّه يَخْشَىٰ مِنْ جِنَايَةِ الأثِيْنِيِّيْنَ علىٰ الفَلْسَفَةِ مَرَّتَيْنِ:

أوْلاهُمَا: بالعُدْوَانِ علىٰ سُقْرَاط.

وثَانِيَتُهُما: بالعُدْوَانِ عَلَيْهِ، ولم يَلْبَثْ أنْ مَرِضَ بَعْدَ هَرَبِهِ مِنْ (أثِيْنَا) بعَامٍ أو بَعْضِ عَامٍ شَاكِيًا مِنْ مِعْدَتِه، ثُمَّ عَاجَلَتْهُ المَنِيَّةُ سَرِيْعًا في العَامِ التَّالي مِنْ

هَرَبِهِ أي في سَنَةِ (٣٢٢ ق.م)، وكَانْ قَدْ بَلَغَ الثَّالِثَةَ والسِّتِّيْنَ.

* * *

يُمثِّلُ أرُسْطُو الفِكْرَ الوَاقِعيَّ عِنْدَ اليُوْنَانِ إذَ كَانتْ نَظْرَتُهُ إلىٰ التَّربيَةِ أكْثَرَ وَاقِعِيَّةٍ مِنْ نَظْرَةِ أُسْتَاذِهِ أفْلاطُوْنَ، وقَدْ تَأكَّدتْ هَذِهِ الوَاقِعِيَّةُ خِلالَ السَّنَوَاتِ الثَّلاثِ الَّتِي كَانَ فِيْهَا مُرَبِّيًا للإسْكَنْدَرِ الأكْبرِ[1].

وقَدْ آمَنَ أرُسْطُو علىٰ خِلافِ أفْلاطُوْنَ بالدَّوْرِ التَّربَوِيِّ للأسْرَةِ كجُزْءٍ مِنَ الكُلِّ الاجْتِماعِيِّ، وهُوَ الدَّوْلَةُ، فَخَالَفَهُ في تَرْبِيَةِ الأوْلادِ في المُعَسْكَرَاتِ، وفي التَّسْوِيَةِ بَيْنَ الرَّجُلِ والمَرْأةِ في مَدِيْنَتِهِ الفَاضِلَةِ.

ويُوْلِي أرُسْطُو اهْتِمامًا كَبِيرًا بالتَّقْلِيْدِ في التَّربِيَةِ ويَعْتَبِرُهُ أسَاسَ الفُنُوْنِ الجَمِيْلَةِ، ويَرَىٰ أنَّ طَاقَةَ الفَرْدِ في الطُّفُوْلَةِ طَاقَةٌ غَرِيْزِيَّةٌ أكْثَرَ مِنْ خُضُوْعِهَا لأحْكَامِ العَقْلِ، ومُهِمَّةَ المُرَبِّىٰ أنْ تَكُوْنَ للنَّزَاعَاتِ الفَاضِلَةِ والرَّغَبَاتِ النَّبِيْلَةِ.

وفي رَأيِ أرُسْطُو؛ أنَّ التَّربِيَةَ يَجِبُ أنْ تَخْدِمَ النِّظَامَ السِّيَاسِي القَائِمِ، وأنْ تَتَّفِقَ مَعَ طَبِيْعَةِ المُتَعَلِّمِيْنَ.

ويَرَىٰ أرُسْطُو أنَّ كُلَّ مَلَكَاتِ النَّفْسِ تَفْنَىٰ بفَنَاءِ الجِسْمِ مَا عَدَا العَقْلِ الفَاعِلِ، فَهُوَ أزْلي أبْدِي، لا يَفْنَىٰ ولا يَهْلَكُ، ولا أوَّلَ لَهُ ولا نِهَايَةَ، وقَدْ

---

(١) «أرِسْطُو طَالِيس المُعَلِّمُ الأوَّلُ» لماجِدِ فَخْري (١٠)، و«تَارِيْخُ وتَطَوُّرُ اتِّجاهاتِ الفِكْرِ التَّربَوِيِّ» لسُهَامِ العِرَاقِيَّةِ (٧١).

جَاءَ مِنَ الله لأنَّ الله هُوَ العَقْلُ المُطْلَقُ، ويَعُوْدُ إلىٰ الله بَعْدَ المَوْتِ، أيْ عِنْدَمَا يَنْقَطِعُ الجِسْمُ عَنِ العَمَلِ![1].

* * *

❑ آرَاءُ أرُسْطُو التَّربَوِيَّةُ:

يَتَّفِقُ أرُسْطُو مَعَ أسْتَاذِهِ أفْلاطُوْنَ في كَثِيرٍ مِنَ الآرَاءِ التَّربَوِيَّةِ، فَقَدْ أوْرَدَ أرُسْطُو في كِتَابِهِ (السِّيَاسَةِ) عَنِ العِلاقَةِ بَيْنَ الدَّوْلَةِ والتَّربِيَةِ، ويَظْهَرُ في كِتَابَاتِهِ أنَّهُ مُتأثِّرٌ بأفْلاطُوْنَ، ويَنْظُرُ كِلاهُمَا إلىٰ التَّربِيَةِ علىٰ أنَّها مِنْ مَهَامِّ الدَّوْلَةِ، ولِذَلِكَ فَلَمْ يُعْجِبْهُما عَدَمُ وُجُودِ نِظَامٍ تَرْبَوِيٍّ عَامٍّ مُوَحَّدٍ في أثِيْنَا، وطَالَبَا بثَوْرَةٍ شَامِلَةٍ في طَرَائِقِ تَرْبِيَةِ الأجْيَالِ الصَّاعِدَةِ الأثِيْنِيَّةِ.

ويَتَّفِقُ أرُسْطُو مَعَ أفْلاطُوْنَ في أنَّ تَرْبِيَةَ الرَّجُلِ الحُرِّ تَرْتَكِزُ علىٰ عَامِلَيْنِ بَدَنِيَّيْنِ.

أوَّلُهما: جِسْمٌ صَحِيْحٌ سَلِيْمٌ، **وثَانِيْهُما**: تَكْوِيْنُ عَادَاتٍ مُنَاسِبَةٍ.

بَلْ إنَّ أرُسْطُو يَرَىٰ أنَّ التَّربِيَةَ عَنْ طَرِيْقِ تَكْوِيْنِ العَادَاتِ الصَّالحَةِ يَجِبُ أنْ تَسْبِقَ تَرْبِيَةَ العَقْلِ، وعَنْ طَرِيْقِ العَادَاتِ تُنْقَشُ قِيَمُ الحَيَاةِ النَّبِيْلَةِ في عُقُوْلِ الصِّغَارِ مُنْذُ بَوَاكِيرِ طُفُولَتِهِم.

واهْتَمَّ أرُسْطُو كَما اهْتَمَّ أفْلاطُوْنَ بتَنْمِيَةِ العَقْلِ إلىٰ جَانِبِ تَنْمِيَةِ الجِسْمِ، والتَّنْمِيَةُ العَقْلِيَّةُ انْعِكَاسُ القُوَّةِ الإلهِيَّةِ، ولِذَلِكَ فَإنَّ سَعَادَةَ الإنْسَانِ تُوْجَدُ في

---

(١) انْظُرْ «تَطوُّرَ الفِكْرِ التَّربَويِّ» لسَعْدِ مَرْسَىٰ (١٦٠)، و«وَقَفَاتٍ إسْلامِيَّةٍ» لفُوْقِيَّةَ شَهْبَة (٨٥).

إيْمانِهِ ووَحْدَتِهِ مَعَ هَذِه القَوَّةِ العُلْيَا، والإيْمانُ البَشَرِي لقُوَّةِ الإلَهِ كَفِيْلَةٌ بتَمْكِيْنِهِ إصْدَارَ القَرَارَاتِ الحَكِيْمَةَ في مُخْتَلَفِ سُبُلِ الحَيَاةِ.

ومَعَ أوْجُهِ الاتِّفَاقِ بَيْنَ أرَسْطُو وأفْلاطُوْنَ فَإنَّ هُنَاكَ جَبَهَاتٍ ظَهَرَ التَّعَارُضَ فِيْما بَيْنَهُما وَاضِحًا، فَبَيْنَما كَانَ تَفْكِيْرُ أفْلاطُوْنَ في الاتِّجَاهِ المِثَالي نَجِدُ أرُسْطُو أكْثَرَ مَيْلًا للوَاقِعِ، وإذَا كَانَ أفْلاطُوْنَ قَدْ هَامَ في سُحُبِ (اليُوتُوْبِيَا) مِنْ خِلالِ مُحَاوَرَاتِهِ العَدِيْدَةِ، فَإنَّ أرُسْطُو كَتَبَ مَا أقْنَعَ رَجُلَ العُصُوْرِ الوُسْطَىٰ بآرَائِهِ، فَنَسَجَ حَوْلَهَا مَشَاكِلَهُ الفَلْسَفِيَّةَ، بَلْ إنَّ أسَاتِذَةَ بجَامِعَاتِ (بَارِيْسَ)، و(بُوْلُوْنِيَا) و(أكْسُزْيُوْرْد) في عُهُوْدِها الأوْلَىٰ اعْتَمَدُوا علَىٰ كِتَابَاتِ أرُسْطُو، وخَاصَّةً في المَنْطِقِ، وفي تَحْدِيْدَاتِهِ الدَّقِيْقَةِ في العُلُوْمِ، كَما أنَّ التَّرجَماتِ اللَّاتِيْنِيَّةَ لكِتَابَاتِ أرُسْطُو كَانَتْ رَكَائِزَ للدَّارِسِيْنَ مِنَ المَسِيْحِيِّيْنَ في الفَلْسَفَةِ وفي الطَّبِيْعَةِ.

* * *

❑ أثَرُ آرَاءِ أرُسْطُو التَّربَوِيَّةِ:

كَانَ لأرُسْطُو آرَاءُ وفُلْسَفَاتٌ تَرْبَوِيَّةٌ كَثِيرَةٌ، قَدْ أخَذَتْ أهَمِّيَّتَها عِنْدَ كَثِيْرٍ مِنَ المُفَكِّرِيْنَ مِثْلِ: (تُومَاسْ الأكْوِيْنِي)، و(البَرْتُوْسْ مَاجُنُوْسُ) لوَضْعِ فَلْسَفَةٍ مَسِيْحِيَّةٍ مُنَظَّمَةٍ، بَلْ إنَّ آرَاءَ أرُسْطُو كَانَتِ الأسَاسَ الَّذِي بَنَىٰ عَلَيْهِ مَنَاهِجَ التَّعْلِيْمِ في أوَاخِرِ العُصُوْرِ القَدِيْمَةِ، كَما أنَّ مَنَاهِجَ المَدَارِسِ الثَّانَوِيَّةِ والمَعَاهِدِ العُلْيَا اليَوْمَ تَظْهَرُ دَلائِلُ علَىٰ تَأثِيْرِ أرُسْطُو، فَإنَّ تَصْنِيْفَ الكُتُبِ في بَعْضِ مَكْتَبَاتِ الجَامِعَاتِ القَدِيْمَةِ في أورُوْبَا يَتَّبِعُ تَقْسِيْمَ أرُسْطُو للمَعْرِفَةِ،

ونَعْرِفُ أنَّ الفُنُوْنَ العَقْلِيَّةَ الحُرَّةَ السَّبْعَةَ الَّتِي دُرِسَتْ في مَعَاهِدِ العُصُوْرِ الوُسْطَىٰ واسْتَمَرَّتْ إلىٰ القَرْنِ الثَّالِثِ عَشَرَ ومَا زَالَتْ مُؤثِّرَةً إلىٰ اليَوْمِ مُسْتَمَدَّةً مِنْ أعْمالِ أرُسْطُو، وتَشْتَمِلُ الفُنُوْنُ العَقْلِيَّةُ السَّبْعَةُ: علىٰ النَّحْوِ والمُحَاوَرَةِ والبَيَانِ والمُوسِيْقَىٰ والحِسَابِ والهَنْدَسَةِ والفَلَكِ، وتُسَمَّىٰ الفُنُوْنُ الثَّلاثَةُ الأوْلىٰ بالثُّلاثِيَّةِ، والأرْبَعَةُ الأخِيْرَةُ بالرُّبَاعِيَّةِ.

ومَعَ إعْجَابِ المُفَكِّرِيْنَ في العُصُوْر القَدِيْمَةِ والوُسْطَىٰ بكَلِماتِ أرُسْطُو وآرَائِهِ ومَنْطِقِهِ إلَّا أنَّهم وَجَدُوا في جَوْهَرِ فَلْسَفَتِهِ غَرَابَةً عَنْهُم، فَلَمْ يَسْتَطِيْعُوا الإبْقَاءَ علىٰ رُوْحِ البَحْثِ المُسْتَقِلِّ، ولم يَتَمَكَّنُوا مِنْ تَنْفِيْذِ آرائِهِ في التَّربِيَةِ.

ثُمَّ اهْتَزَّتْ بَعْضُ آراءِ أرُسْطُو في عَصْرِ النَّهْضَةِ بظُهُوْرِ التَّجْرُبَةِ والبَحْثِ العِلْمِيِّ، وأصَابَ آرَاءَهُ (خَاصَّةً في الطَّبِيْعَةِ) نَقْدٌ كَبِيرٌ.

ومَهْما ذَكَرْنَا أو تَرَكْنَا شَيْئًا عَنْ آراءِ أرُسْطُو أو سُقْرَاط أو أفْلاطُوْنَ أو غَيرِهِم: فَهُم ضِغْثًا علىٰ إبَّالَةٍ: مَا بَيْنَ إلحَادٍ أو شِرْكٍ أو كُفْرٍ!!

❑ ❑ ❑

الفِكْرُ التَّربَوِيُّ
عِنْدَ الرُّوْمَانِ والشَّرْقِ الأوْسَطِ

تَرْوِي الأنْبَاءُ عَنِ التَّارِيْخِ القَدِيْمِ أنَّ رُوْمَا تَأَسَّسَتْ عَامَ (٧٥٣ ق.م)، وبمُرُوْرِ السِّنِيْنَ أصْبَحَتْ رُوْمَا جَمْهُوْرِيَّةً أُرُسْتُقْرَاطِيَّةً في غُضُوْنِ القَرْنِ السَّادِسِ قَبْلَ المِيْلادِ، وكَانَ بِها طَبَقَةُ السَّادَةِ مِنَ الأسَرِ الكَبِيْرَةِ (البَطَارِقَةِ)؛ حَيْثُ هَيْمَنَتْ وتَسَلَّطَتْ علىٰ عَامَّةِ الشَّعْبِ (البَلْبِيانِ)، ثُمَّ مَرَّتْ أجْيَالٌ مِنَ الصِّرَاعِ بَيْنَ البَطَارِقَةِ والشَّعْبِ؛ حَتَّىٰ انْتَهَىٰ الأمْرُ بأنْ حَطَّمَ العَامَّةُ مُعْظَمَ مَا كَانَ للعَائِلاتِ القَدِيْمَةِ مِنِ امْتِيَازَاتٍ[1].

أخَذَ الرُّوْمَانُ هَذَا الاسْمَ نِسْبَةً إلىٰ مَدِيْنَتِهِم رُوْمَا، وهِيَ بِدَوْرِهَا أخَذَتِ الاسْمَ نِسْبَةً إلىٰ القَائِد (رُوْمِيلُوْس) الَّذِي أنْشَأهَا عَامَ (٧٥٣ ق. م).

وعِنْدَمَا خَلَعَ الرُوْمَانُ آخِرَ مُلُوْكِهِم عَامَ (٥٠٩ ق. م)، أصْبَحَ الحُكْمُ في الرُوْمَانِ جَمْهُوْرِيًّا، وفي عَامِ (٢٧٥ ق. م)، تَمكَّنَتْ رُوْمَا مِنْ تَوْحِيْدِ إيْطَالِيَا، وبَدَأتْ رُوْمَا تَدْخُلُ عَهْدَهَا الإمْبِرَاطُوْرِي، وامْتَدَّ سُلْطَانُها في عَهْدِ الإمْبِراطُوْرِ تَرَاجَانَ مِنْ عَامِ (٩٨-١١٧م) مِنْ اسْكُتْلَنْدَا شَمالًا إلىٰ السُّوْدَانِ جَنُوبًا، ومِنْ غَرْبِ المُحِيْطِ الأطْلَسِيِّ إلىٰ نَهْرِ الفُرَاتِ شَرْقًا، ومُنْذُ القَرْنِ

---

(١) انْظُرْ «قِصَّةَ الفَلْسَفَةِ اليُونَانِيَّةِ» لأحْمَدَ أمِيْنَ، وزَكِي نَجِيْبٍ (١٨٥)، و«تَطَوُّرَ الفِكْرِ التَّرْبَوِيِّ» لسَعْدِ مَرْسَي (١٦٠).

الثَّالِثِ المِيْلادِي بَدأ الضَّعْفُ يَدُبُّ في أوْصَالِ الإمْبَرَاطُوْرِيَّةِ الرُّومَانِيَّةِ، فانْقَسَمَتْ إلىٰ قِسْمَيْنِ:

الأوَّلُ: القِسْمُ الغَرْبي، وعَاصِمَتُهُ رُوْمَا.

الثَّاني: القِسْمُ الشَّرقِي، وعَاصِمَتُهُ القُسْطُنْطِيْنِيَّةُ.

ثُمَّ انْهَارَ القِسْمُ الغَرْبي مِنَ الإمْبَرَاطُوْرِيَّةِ الرُّوْمَانِيَّةِ، بَعْدَ أنِ احْتَلَّتِ القَبَائِلُ الجِرْمَانِيَّةُ إيْطَالِيَا، وقَامَتْ علىٰ أنْقَاضِهَا المَمَالِكُ البَرْبَرِيَّةُ الَّتِي انْبَعَثَتْ مِنْهَا الدُّوَلُ الأوْرُبِّيَّةُ: كفَرَنْسَا، وهُوْلَنْدَا، وسُوَيْسِرَا، وإنْجِلْترا[١].

* * *

❑ **ومَرَّتِ الرُّوْمَانُ بأرْبَعِ مَرَاحِلَ أثَّرَتْ في التَّربِيَةِ الرُّومَانِيَّةِ[٢]:**

الأوْلىٰ: مَرْحَلَةُ الوَطَنِيِّيْنَ، مُنْذُ تَأسِيْسِ رُوْمَا سَنَةَ (٦٠٠ ق. م)، وكَانَتِ التَّربِيَةُ فِيْهَا تَابِعَةً للأسْرَةِ.

الثَّاني: مَرْحَلَةُ الانْتِقَالِ، وانْتَهَتْ حَوَالي سَنَةَ (٥٥ ق. م)، وانْتَقَلَتْ مِنْهَا الثَّقَافَةُ اليُونَانِيَّةُ إلىٰ رُوْمَا، وأثَّرَتْ في الثَّقَافَةِ الرُّومَانِيَّةِ.

الثَّالِثَةُ: مَرْحَلَةُ المَعَاهِدِ، وقَدْ نَهَضَتْ فِيْهَا المَعَاهِدُ الرُّومَانِيَّةُ المُتَأثِّرَةُ بالطَّابعِ اليُونَاني.

---

(١) «تَطَوُّرُ الفِكْرِ التَّرْبَوِيِّ» لفَخْرِي رَشِيْدٍ (٦٩).

(٢) «في أُصُولِ التَّربيَةِ وتَارِيخِها» لأحْمَدَ بنِ عَبْدِ الرَّحمنِ عِيْسَىٰ (٢١٦).

الرَّابِعَةُ: فَتْرَةُ الانْحِلالِ والسُّقُوْطِ، وانْتَهتْ سَنَةَ (٥٢٩م) بسِيَادَةِ التَّربِيَةِ المَسِيْحِيَّةِ!

* * *

❑ ويُقَسِّمُ المُؤرِّخُوْنَ التَّربِيَةَ الرُّومَانِيَّةَ إلىٰ مَرَاحِلَ أرْبَعٍ:

المَرْحَلَةُ الأوْلىٰ: ويُطْلَقُ عَلَيْهَا مَرْحلَةُ الوَطَنِيِّيْنَ: وفِيْهَا اسْتَخْدَمتْ رُوْمَا الحُرُوْفَ الهِجَائِيَّةَ اليُونَانِيَّةَ، ويَتَميَّزُ النِّصْفُ الأخِيْرُ مِنْ هَذِهِ الفَتْرَةِ بتَرْجَمَةِ (الأوْدْسَا) إلىٰ اللَّاتِيْنِيَّةِ في حَوَالي (٢٥٠ ق. م) علىٰ يَدِ (لِيْفِيَاسْ أنْدُرُونِيكَاسْ) وهُوَ يُونَانيٌّ قَطَنَ رُوْمَا.

المَرْحَلَةُ الثَّانِيَةُ: وهِيَ مَرْحَلَةُ الانْتِقَالِ: وفِيْهَا قَدِمَتِ الثَّقَافَةُ والمُثُلُ الإغْرِيْقِيَّةُ إلىٰ رُوْمَا علىٰ الرَّغْمِ مِنْ مُعَارَضَةِ الرُّوْمَانِيِّيْنَ المُتَحَفِّظِيْنَ، وانْتَهَتْ هَذِهِ الفَتْرَةُ في حَوَالي (٥٥ ق. م)، بسِيَادَةِ المُثُلِ العُلْيَا اليُونَانِيَّةِ بمُوَافَقَةِ (شِيشْرُوْن).

المَرْحَلَةُ الثَّالِثَةُ: مَرْحَلَةُ المَعَاهِدِ الرُّومَانِيَّةِ: وفِيْهَا نَهْضَةٌ وتَوَسُّعٌ في مَعَاهِدِ التَّعْلِيْمِ الرُّومَانِيَّةِ ذَاتِ الشَّكْلِ اليُونَانِيِّ، أمَّا مَضْمُوْنُها فَقَدْ تَأثَّرَ بالحَيَاةِ الشَّكْلِيَةِ الرُّومَانِيَّةِ الَّتِي لم تَتَّفِقْ مَعَ مِثَالِيَّةِ اليُونَانِ الأدَبِيَّةِ، وتَنْتَهِي هَذِهِ الفَتْرَةُ حَوَالي عَامَ (٢٠٠م).

المَرْحَلَةُ الرَّابِعَةُ: فَتْرَةُ الانْحِلالِ والسُّقُوْطِ: مُسْتَتْبِعَةً تَدَهْوُرَ الإمْبرَاطُوْرِيَّةِ الرُّومَانِيَّةِ، وانْتَهتْ هَذِهِ الفَتْرَةُ حَوَالي (٥٢٩م)، عِنْدَمَا أقْفَلَ الإمْبرَاطُوْرُ (جِسْتَنِيَانْ) جَامِعَةَ (أثِيْنَا) الوَثَنِيَّةِ، ومُعْتَرِفًا رَسْمِيًّا بسِيَادَةِ (التَّرْبِيَةِ) المَسِيْحِيَّةِ

الَّتِي كَانَتْ قَدْ بَدَأَتْ تَنْتَشِرُ مُنْذُ قَرْنَيْنِ مِنَ الزَّمَانِ، وفي هَذِهِ الفَتْرَةِ الأَخِيْرَةِ بَدَأَتِ (التَّرْبِيَةُ) بِهَدَفِ إعْدَادِ الأَفْرَادِ لحَيَاةٍ عَمَلِيَّةٍ نَفْعِيَّةٍ في المُجْتَمَعِ الرُّومَانيِّ.

* * *

نَعَم؛ لَقَدْ غَزَتْ رُوْمَا بجُيُوْشِهَا أَرْضَ الإغْرِيْقِ، إلَّا أنَّ الثَّقَافَةَ الإغْرِيْقِيَّةَ غَزَتْ رُوْمَا وإمْبَراطُوْرِيَّتَهَا، ويُطْلِقُ المُهْتَمُّوْنَ بتَارِيْخِ التَّربِيَةِ تَعْبِيْرَ (التَّربِيَةِ الهِيْلِّينِيَّةِ) علىٰ سِيَادَةِ الثَّقَافَةِ الإغْرِيْقِيَّة في فَتْرَةٍ سَادَتْ فِيْهَا رُبُوْعُ الشَّرْقِ الأَوْسَطِ، وامْتَدَّتْ شَرْقًا إلىٰ الهِنْدِ، وغَرْبًا مُغَطِّيَةً الإمْبِرَاطُوْرِيَّةَ الرُّومَانِيَّةَ، وقَدْ بَدَأَتْ هَذِهِ الفَتْرَةُ قَبْلَ غَزْوِ الرُّومَانِ بِلادَ الإغْرِيْقِ، وانْتَهَتْ عَامَ (٥٢٩م)، وعِنْدَمَا أَغْلَقَ الإمْبَرَاطُوْرُ (جِسْتَنيَانْ) أَكَادِيْمِيَّاتِ (أَثِيْنَا)، ووَضَعَ (التَّرْبِيَةَ) المَسِيْحِيَّةَ تَحْتَ الإشْرَافِ المُبَاشِرِ للكَنِيْسَةِ، وفي خِلالِ هَذِهِ الفَتْرَةِ الطَّوِيْلَةِ صَارَ للثَّقَافَةِ الإغْرِيْقِيَّةِ صَدًىٰ عَالميًا، بَلْ إنَّها تَوَسَّعَتْ وانْتَشَرَتْ بِما قَدَّمَتْهُ الفَلْسَفَاتُ: مِنَ الإسْكَنْدِرِيَّةِ، وسُوْرِيَا، وفَارِسَ، والهِنْدِ[١].

❑ ❑ ❑

(١) «تَطَوُّرَ الفِكْرِ التَّرْبَويِّ» لسَعْدِ مَرْسَىٰ (١٧٦، ١٨٦).

الفِكْرُ التَّربَويُّ
عِنْدَ أوْرُوْبَا

يَرَىٰ بَعْضُ المُؤَرِّخِيْنَ أنَّ العُصُوْرَ الوُسْطَىٰ تَتَضَمَّنُ القُرُوْنَ الثَّمانِيَةَ الَّتِي تَقَعُ بَيْنَ قِمَّتَيْنِ:

أحَدُهُما: تُمَثِّلُ العُصُوْرَ القَدِيْمَةَ.

والأخْرَىٰ: تُمَثِّلُ العُصُوْرَ الحَدِيْثَةَ، وهِيَ تَمْتَدُّ ما بَيْنَ عامِ (٥٠٠م إلىٰ ٦٩٩هـ) مِنَ الهِجْرَةِ.

ويُطْلَقُ علىٰ الفَتْرَةِ ما بَيْنَ عامِ (٥٠٠ وعامِ ٩٠٠ أو ١٠٠٠): العُصُوْرَ المُظْلِمَةَ، أمَّا الفَتْرَةُ مِنْ عامِ (٣٩٠ أو عامِ ٦٩٩هـ) فَتُسَمَّىٰ: بالعُصُوْرِ الوُسْطَىٰ الحَقِيْقِيَّةِ[١].

وعِنْدَمَا نَقُوْلُ: العُصُوْرُ الوُسْطَىٰ يَنْسَحِبُ التَّفْكِيرُ إلىٰ أُوْرُوبا بشَكْلٍ خاصٍّ، إذْ قَدْ شَهِدَتِ العُصُوْرُ الوُسْطَىٰ أحْدَاثًا سِياسِيَّةً مُهِمَّةً أثَّرتْ في تَشْكِيْلِ الحَيَاةِ الأوْرُوْبِيَّةِ في تِلْكَ الفَتْرَةِ.

(وانْقَسَمَ المُجْتَمَعُ الأوْرُوبِّي مِنَ النَّاحِيَةِ الاجْتِماعِيَّةِ في العُصُوْرِ الوُسْطَىٰ إلىٰ ثَلاثِ طَبقَاتٍ، هِيَ:

---

(١) «تارِيخُ وتَطَوُّرُ اتِّجاهاتِ الفِكْرِ التَّربَوِي» لسِهَامِ العِرَاقِيَّةِ (٩٢).

طَبقَةُ الأحْرَارِ.

طَبقَةُ رَقِيْقِ الأرْضِ.

طَبقَةُ العَبِيْدِ.

وتَشْتَمِلُ الطَّبَقَةُ الأوْلىٰ: علىٰ الأعْيَانِ ورِجَالِ الدِّيْنِ والجُنُوْدِ النِّظَامِيِّيْنَ وأصْحَابِ المِهَنِ ومُعْظَمِ التُّجَّارِ والصُّنَّاعِ والفَلاحِيْنَ الَّذِيْنَ يَمْلِكُوْنَ أرْضَهُم ولا يَلْتَزِمُوْنَ بِشَيءٍ علىٰ الإطْلاقِ لأيِّ سَيِّدٍ إقْطَاعِيٍّ!

أمَّا طَبقَةُ رَقِيْقِ الأرْضِ: فَكَانُوا يُؤَجِّرُوْنَ قِطَعًا مِنْ أرَاضِي البَارُوْنَاتِ طَوَالَ حَيَاتِهم ويتَمَتَّعُوْنَ بحِمَايَتِهم نَظِيرَ دَفْعِ جُزْءٍ مِنْ عَائِدِ الأرْضِ مِنَ الغَلَّاتِ أو المَالِ.

أمَّا طَبقَةُ العَبِيْدِ: فيَأتُوْنَ في نِهَايَةِ السُّلَّمِ الطَّبقِي؛ حَيْثُ يقُوْمُوْنَ بالأعْمالِ المَنْزِلِيَّةِ لَدىٰ النُّبلاءِ والإقْطَاعِيِّيْنَ(١).

* * *

❑ أمَّا عَنِ الحَيَاةِ الدِّيْنِيَّةِ فقَدْ تَمَرْكَزَتْ في العُصُوْرِ الوُسْطَىٰ حَوْلَ مِحْوَرَيْنِ:

الأوَّلُ: البَابَوِيْه، باعْتِبَارِ أنَّها الرِّيَاسَةُ العُلْيَا للكَنِيْسَةِ.

والثَّاني: التَّنْظِيمَاتُ الكَهَنُوتِيَّةُ(٢).

---

(١) «تَارِيْخُ وتَطَوُّرُ اتِّجاهاتِ الفِكْرِ التَّربَوِي» لسِهَامِ العِرَاقِيَّةِ (٩٢، ٩٦)، و«وَقَفَاتٌ إسْلامِيَّةٌ» لفَوْقِيَّةَ شَهْبَة (١٠٥-١٠٦).

(٢) «تَطَوُّرَ الفِكْرِ التَّرْبَويِّ» لسَعْدِ مَرْسَىٰ (٣٤٢).

وقَدْ كَانَتِ الكَنِيْسَةُ في الجُزْءِ الأَوَّلِ مِنَ العُصُوْرِ الوُسْطَىٰ هَيْئَةً إقْطَاعِيَّةً مَالِكَةً للأَرَاضِي، وبَدَأ الأبَاطِرَةُ والنُّبَلاءُ يُطَالِبُوْنَ بحَقِّهِم في تَعْيِيْنِ الأَسَاقِفَةِ الجُدُدِ ورُؤسَاءِ الأَدْيِرَةِ، وقَدْ تَرَاكَمَتِ الثَّرْوَةُ في قَبْضَةِ الكَنِيْسَةِ؛ حَتَّىٰ قِيْلَ: إنَّ ثُلُثَيْ ثَرْوَةِ ألمَانِيَا كَانَتْ في قَبْضَةِ رِجَالِ الكَنِيْسَةِ كمِثَالٍ علىٰ هَذَا النُّفُوْذِ الإقْطَاعِيِّ، ومَارَسَتِ الكَنِيْسَةُ في سَبِيْلِ الحُصُوْلِ علىٰ المَالِ: الكَثِيْرَ مِنْ مَظَاهِرِ الظُّلْمِ الاقْتِصَادِي.

وقَدْ سَوَّغَتْ ظُلْمَهَا الاقْتِصَادِي مِنْ خِلالِ عَقِيْدَةٍ فَاسِدَةٍ، تَقُوْلُ: إنَّ الخَلاصَ مِنَ الذُّنُوْبِ يَأتِي بالهَدَايَا والمِنَحِ الَّتِي تُغْدَقُ علىٰ الكَنَائِسِ والرُّهْبَانِ وأمْرَاءِ الإقْطَاعِ(١).

* * *

وقَدِ اصْطَبَغَتِ الثَّقَافَةُ في العُصُوْرِ الوُسْطَىٰ بالصِّبْغَةِ الدِّيْنِيَّةِ، فَكَانَ العُلَمَاءُ: هُم رِجَالُ الدِّيْنِ! ومَا يَقُوْلُهُ رِجَالُ الدِّيْنِ حِيْنَئِذٍ يَفْعَلُهُ النَّاسُ، ولا يَرْفِضُوْنَهُ، وكُلُّ تَعَالِيْمِهِم مُسَلَّمٌ بِهَا لا تَقْبَلُ النَّقْضَ ولا تَحْتَمِلُ الجَدَلَ.

وإذَا كَانَتِ الأوْضَاعُ الدِّيْنِيَّةُ في أوْرُوبَا قَدْ أثَّرَتْ تَأثِيْرًا وَاضِحًا علىٰ الحَيَاةِ والفِكْرِ بصِفَةٍ عَامَّةٍ، فَكَانَ مِنَ الطَّبِيْعِي أنْ تُؤثِّرَ علىٰ (الفِكْرِ التَّرْبَوِيِّ)، وعلىٰ مُؤسَّسَاتِ التَّعْلِيْمِ في أُوروبَا في ذَلِكَ الوَقْتِ(٢).

---

(١) «تَارِيْخُ وتَطَوُّرُ اتِّجاهاتِ الفِكْرِ التَّربَوِي» لسِهَامِ العِرَاقِيَّةِ (٩٧).

(٢) «وَقَفَاتٌ إسْلامِيَّةٌ» لفَوْقِيَّةَ شَهْبَة (١٠٧)، و«التَّارِيْخُ الأورُبِّي الحَدِيْثُ مِنْ عَصْرِ النَّهْضَةِ إلىٰ مُؤتَمرِ فِينَّا» لعَبْدِ الحَمِيدِ البِطْرِيْقِ، وعَبْدِ العَزِيزِ نَوَارٍ (١٤).

الفِكْرُ التَّرْبَويُّ في العَصْرِ الحَدِيْث

وحِيْنَ بَدَأَتْ مَقُوْلاتُ الكَنِيْسَةِ تُصَادِمُ بمُكْتَشَفَاتِ العِلْمِ التَّجْرِيْبِي، واشْتَعَلَ الخِلافُ بَيْنَ رِجَالِ الكَنِيْسَةِ والعُلَماءِ الطَّبِيْعِيِّيْنَ انْتَهَىٰ هَذَا الخِلافُ بانْحِسَارِ النُّفُوْذِ الكَنَسِي، ووَجَدَ المُشْرِفُوْنَ الجُدُدُ علىٰ (التَّرْبِيَةِ) أنْفُسَهم أمَامَ الحَاجَةِ إلىٰ بَدِيْلٍ في (التَّرْبِيَةِ) والتَّوْجِيْهِ، فَأَدَّىٰ البَحْثُ عَنِ البَدِيْلِ إلىٰ ظُهُوْرِ مَدْرَسَتَيْنِ في فَلْسَفَةِ (التَّرْبِيَةِ):

الأُوْلىٰ: المَدْرَسَةُ المِثَالِيَّةُ.

والثَّانِيَةُ: المَدْرَسَةُ الوَاقِعِيَّةُ.

وتَعُوْدُ أُصُوْلُ الفَلْسَفَةِ المِثَالِيَّةِ إلىٰ أيَّامَ أفْلاطُوْنَ، ثُمَّ تَنْحَدِرُ عَبْرَ اللَّاهُوْتِ اليَهُوْدِيِّ المَسِيْحِيِّ، وتَتَلَوَّنُ بتَلْوِيْنِهِ، وهِيَ تُؤمِنُ بأنَّ جَوْهَرَ العَالمِ: هُوَ العَقْلُ والأفْكَارُ، والمَوْجُوْدَاتُ الكَبِيْرَةُ والصَّغِيْرَةُ، والأشْكَالُ ظِلالُها، وتُؤمِنُ أنَّ العَقْلَ المُطْلَقَ أو (عَقْلَ الإلَهِ): هُوَ الَّذِي يَخْلُقُ الحَقِيْقَةَ والأفْكَارَ، وهُوَ أَسَاسُ المَعْرِفَةِ!

والقِيَمُ عِنْدَهُم تَظْهَرُ في أشْكَالٍ وأعْمالٍ إنْسَانِيَّةٍ غَيْرِ كَامِلَةٍ، ولِذَلِكَ يَجِبُ

أنْ يُرَكِّزَ التَّطْبِيْقُ التَّربَوِيُّ علىٰ تَدْرِيْبِ العَقْلِ، وتَنْمِيَةِ الرُّوْحِ وإحْكَامِ الأفْكَارِ.

* * *

❑ فَحِيْنَهَا تَشَعَّبَتِ الفَلْسَفَةُ المِثَالِيَّةُ إلىٰ فَرْعَيْنِ طِبْقًا لاخْتِلافِ تَصَوُّرَاتِها عَنِ الإنْسَانِ:

الفَرْعُ الأوَّلُ: الَّذِيْنَ يُؤمِنُوْنَ بَأنَّ الإنْسَانَ جِسْمٌ وعَقْلٌ.

والفَرْعُ الثَّاني: الَّذِيْنَ يُؤمِنُوْنَ بأنَّ الإنْسَانَ هُوَ جِسْمٌ وعَقْلٌ ورُوْحٌ.

وانْطِلاقًا مِنَ التَّصَوُّرِ الأوَّلِ: يَكُوْنُ أسْمَىٰ مَا في الإنْسَانِ: هُوَ العَقْلُ، لِذَا اتَّجَهُوا إلىٰ تَرْبِيَةِ وتَدْرِيْبِ العَقْلِ!

أمَّا حَسَبَ التَّصَوُّرِ الثَّاني: يَكُوْنُ أسْمَىٰ مَا في الإنْسَانِ: هُوَ الرُّوْحُ، لِذَا اتَّجَهُوا إلىٰ تَرْبِيَةِ وتَدْرِيْبِ الرُّوْحِ!

ولِذَلِكَ فالمِنْهَاجُ التَّربَوِيُّ عِنْدَ الفَلْسَفَةِ المِثَالِيَّةِ: هُوَ تَلْقِيْنُ الأفْكَارِ، وتَدْرِيْبُ التَّفْكِيْرِ العَقْلِيِّ، وتَنْمِيَةُ القِيَمِ الرُّوحِيَّةِ.

* * *

❑ **أمَّا المَدْرَسَةُ الوَاقِعِيَّةُ**: فَهِي تَعُوْدُ كَذَلِكَ إلىٰ أيَّامِ أرُسْطُو، وتَنْحَدِرُ عَبْرَ تُوْمَاس الأكْوِيني، وعَدَدٍ مِنَ الفَلاسِفَةِ الطَّبِيْعِيِّيْنَ.

أمَّا في العُصُوْرِ الحَدِيْثَةِ فَتَبْدَأ مِنَ: (مَايْكِلْ دِي مُوْنْتِيْه) الفَرَنْسِي، و(رِيْتْشَارْد مُولِكَاسْتَر) الإنْجِلِيْزِي، و(جُوْن مِلْتُونْ)، ثُمَّ اسْتَمَرَّتْ في أحْضَانِ

الكَنِيْسَةِ الكَاثُولِيْكِيَّةِ الرُّومَانِيَّةِ، وانْتَشَرَتْ حِيْثُما انْتَشَرَتْ.

ولَقَدْ انْقَسَمَتِ الوَاقِعِيَّةُ إلىٰ ثَلاثَةِ اتِّجاهَاتٍ:

الاتِّجَاهُ الأوَّلُ: الوَاقِعِيَّةُ المُتَدَيِّنَةُ، وهِيَ تُؤمِنُ أنَّ المَادَّةَ والعَقْلَ، أو الرُّوْحَ: مَوْجُوْدَانِ، وهُمَا مَخْلُوْقَانِ مُقَدَّسَانِ مِنْ خَلْقِ الإلَهِ، وهُما يَعْمَلانِ بانْتِظَامٍ.

أمَّا الاتِّجَاهُ الثَّاني: فَهُو لا يَرَىٰ ضَرُوْرَةً للتَّدَخُّلِ الإلهِي في تَفْسِيْرِ أصْلِ الكَوْنِ، وإنَّما يَفْصِلُ بَيْنَهُما فَصْلًا تَامًّا.

وأمَّا الاتِّجَاهُ الثَّالِثُ: فَهُوَ يَرَكِّزُ علىٰ الوُجُوْدِ المَادِي، بَعِيْدًا عَنِ العَقْلِ، والعَقْلُ لا دَخْلَ لَهُ بوُجُوْدِ المَحْسُوْسَاتِ.

ثُمَّ تَفَرَّعَتِ الفَلْسَفَةُ الوَاقِعِيَّةُ، وأصْبَحَتْ مَظَلَّةً انْضَوَىٰ تَحْتَهَا فَلْسَفَاتٌ تَرْبَوِيَّةٌ، ومَدَارِسُ فِكْرِيَّةٌ عَدِيْدَةٌ، اتَّفَقَتْ كُلُّهَا علىٰ أنَّ الوُجُوْدَ الحَقِيْقِيَّ: هُوَ الوَاقِعُ المَادِي، ولكِنَّهَا اخْتَلَفَتْ في مَصْدَرِ هَذَا الوُجُوْدِ.

والتَّربِيَةُ عِنْدَ هَذِهِ المَدْرَسَةِ يَجِبُ أنْ تَهتَمَّ بكَشْفِ قَوَانِيْنِ الطَّبِيْعَةِ، والَّتِي تَحْكُمُ المَادَّةَ والمَخْلُوْقَاتِ العُضْوِيَّةَ.

وعَالَمُ العَقْلِ، واكْتِشَافُ التَّنَاسُقِ بَيْنَ مَظَاهِرِ الوُجُوْدِ، والمِنْهَاجِ هُوَ مُلائَمَةٌ بَيْنَ المَوادِّ الإنْسانِيَّةِ والمَوَادِّ العِلْمِيَّةِ.

ويَجِبُ اسْتِعْمالُ الطُّرُقِ العِلْمِيَّةِ وطُرُقِ المَنْطِقِ والرِّيَاضِيَّاتِ، ومِمَّنْ مَثَّلَ

هَذِهِ المَدَارِسِ المُخْتَلِفَةِ في العَصْرِ الحَدِيْثِ: (بِرَانْد رِسِلْ)، و(أَلْفِرْد نُورْث وَايْتِهِد).

* * *

❑ وبَعَدْ زَمَنٍ غَيْرِ قَلِيْلٍ ظَهَرَتْ فَلْسَفَةٌ تَرْبَوِيَّةٌ ثَالِثَةٌ: هِيَ فَلْسَفَةُ التَّربِيَةُ البَرْجَمَاتِيَّةُ، ويَرَىٰ مُؤرِّخُو (التَّرْبِيَةِ) أنَّها بَدَأَتْ مِنْ: (شَارْلِسْ س بِيرسِي)، ثُمَّ ازْدَهَرَتْ في القَرْنِ التَّاسِعِ عَشَرَ علىٰ يَدِ كُلٍّ مِنَ: (وِلْيَمْ جِيْمس)، عَامَ (١٢٥٨- ١٣٢٨هـ)، و(جُوْنَ دِيُوي)، (١٢٧٥-١٣٧١هـ)، ولَقَدْ كَانَتْ أهَمُّ مَصَادِرِ هَذِهِ المَدْرَسَةِ هِيَ كِتَابَاتُ (شَارِلْ دَارُوْن).

وتَقُوْمُ البَرْجَمَاتِيَّةُ علىٰ العَمَلِ والمُمَارَسَةِ، أمَّا الأفْكَارُ فَهِي تَابِعَة للعَمَلِ ونَتِيْجَةٌ مِنَ نَتَائِجِهِ، ولِذَلِكَ فَإنَّ الفِكْرَةَ الصَّحِيْحَةَ هِي الَّتِي يُمْكِنُ قِيَاسُهَا وتَطْبِيْقُهَا، والعَقْلُ لَيْسَ لَهُ مَوْقِعٌ ولا وُجُوْدٌ، وإنَّما الوُجُوْدُ هُوَ المُخُّ وعَمَلِيَّاتُهُ، وتُوْجَدُ القِيَمُ بمِقْدَارِ أثَرِهَا في حَيَاةِ الإنْسَانِ، فإذَا لم تُؤثِّرْ أصْبَحَ لا وُجُوْدَ لهَا ولا فَائِدَةَ، ولِذَلِكَ فالثَّقَافَةُ والفَنُّ والأخْلاقُ هِيَ أمُوْرٌ نِسْبِيَّةٌ.

والعَالَمَ في نَظَرِ البَرْجَمَاتِيَّةِ: هُوَ المَادَّةُ المُتَحَرِّكَةُ، والتَّطَوُّرُ المُسْتَمِرُّ الَّذِي يَعْتَرِي المَادَّةَ، والقِيَمُ، والحَقَائِقُ، والزَّمَانُ، والمَكَانُ.

ولِذَلِكَ كُلِّهِ يَجِبُ أنْ تُرَكِّزَ التَّربِيَةُ علىٰ الطَّرِيْقَةِ أكْثَرَ مِنَ المَادَّةِ الدِّرَاسِيَّةِ، وأنْ تُعَلِّمَ المُتَعَلِّمَ كَيْفَ يَتَعَلَّمُ وكَيْفَ يُفَكِّرُ بطَرِيْقَةٍ عِلْمِيَّةٍ.

والإنْسَانُ عِنْدَ البَرْجَماتِيَّةِ: يَخْلُقُ عَالمَهُ مِنْ خِلالِ إعَادَةِ تَنْظِيْم الخِبْرَاتِ المُسْتَمِرَّةِ، ومِنْ خِلالِ التَّفَاعُلِ الاجْتِماعِيِّ والبُيُولُوجِيِّ مَعَ البِيْئَةِ، لِذَلِكَ

يَجِبُ علىٰ المُعَلِّمِيْنَ أن يُدَرِّبُوا التَّلامِيْذَ علىٰ بِنَاءِ خِبْرَاتِهِم، وأنْ تُوَفِّرَ لِلتَّلامِيْذِ بِيْئَةَ التَّعْلِيْمِ للتَّفَاعُل مَعَ مَنْ حَوْلَهُم، وأنْ يَجْرِيَ التَّأكِيْدُ علىٰ الطَّرِيْقَةِ العِلْمِيَّةِ، وأُسْلُوْبِ حَلِّ المُشْكِلاتِ.

والمِنْهَاجُ يَدُوْرُ حَوْلَ رَغَبَاتِ التِّلْمِيْذِ، والمُشْكِلاتُ أكْثَرُ ممَّا تَدُوْرُ حَوْلَ مَجْمُوْعَةِ الحَقَائِقِ الثَّابِتَةِ المُسْبَقَةِ.

* * *

الصِّرَاعُ بَيْنَ الفَلْسَفَاتِ التَّربَوِيَّةِ الثَّلاثِ الرَّئِيْسِيَّةِ (المِثَالِيَّةِ، الوَاقِعِيَّةِ، البَرْجَماتِيَّةِ):

نَشَبَ الصِّرَاعُ بَيْنَ الفَلْسَفَاتِ التَّربَوِيَّةِ الثَّلاثِ، وتَبَارَىٰ أنْصَارُهَا في تَسْفِيْهِ مَفَاهِيْمِ الفَلْسَفَاتِ المُقَابِلَةِ؛ حَيْثُ شَنَّ (جُوْن دِيْوِي) أشْهَرُ فَلاسِفَةِ البَرْجَمَاتِيَّةِ هُجُوْمًا شَدِيْدًا علىٰ كُلٍّ مِنَ الفَلْسَفَةِ المِثَالِيَّةِ والوَاقِعِيَّةِ، واعْتَبَر كُلاًّ مِنْهُما فَلْسَفَةً قَدِيْمَةً تُقَدِّمُ تَرْبِيَةً تَقْلِيْدِيَّةً تَعْمَلُ علىٰ أسَاسٍ رُوْتِيْنِي، وتُقَدِّمُ بَرَامِجَ انْحَدَرَتْ مِنَ المَاضِي لا تُسْهِمُ في تَنْمِيَةِ الخِبْرَةِ، ولا تُمثِّلُ أيَّ مَظْهَرٍ لِلخِبْرَةِ، كَذَلِكَ انْتَقَدَ الفَلْسَفَةَ المِثَالِيَّةَ والفَلْسَفَةَ الوَاقِعِيَّةَ لأنَّهُما يَفْصِلانِ بَيْنَ الخِبْرَةِ العَقْلِيَّةِ والخِبْرَةِ الجَسَدِيَّةِ، وأضَافَ أنَّ هَذِهِ الثُّنَائِيَّةَ هِيَ أسْوَأ شُرُوْرِ التَّربِيَةِ التَّقْلِيْدِيَّةِ.

* * *

ولَقَدْ نَاصَرَ (دِيْوِي) في هَذَا الهُجُوْم علىٰ الفَلْسَفَةِ المِثَالِيَّةِ والوَاقِعِيَّةِ عَدَدٌ

مِنْ مُمثِّلي الفَلْسَفَةِ البَرْجماتِيَّةِ مِنْهُم: (بُوِيد هِنْرِي بُوْد)، و(وِلْيَم هَارْد كَلْبَاتِرْك): وهُمَا مِنْ أشْهَرِ شُرَّاحِ آراءِ (دِيْوِي)، وكَذَلِكَ (جُوْن لُورَانِس تِشِلْد) الَّذِي دَرَسَ علىٰ كُلٍّ مِنْ (دِيْوِي)، و(كِلْبَاتِرْيك)، وأهْدَىٰ لهُما كِتَابَهُ: (التَّربِيَةُ والأخْلاقُ).

* * *

ولَقَدْ شَنَّ مُمثِّلُو الفَلْسَفَةِ المِثَالِيَّةِ هُجُومًا مُعَاكِسًا علىٰ (جُوْن دِيْوِي)، والفَلْسَفَةِ البَرْجَماتِيَّةِ، ومِنْ أشْهَرِ مُمثِّلي المِثَالِيَّةِ: (هِيْرمَانْ هَارِلْ هُورُنْ)، الَّذِي اشْتَبَكَ مَعَ (دِيْوِي) نَفْسِهِ، ومِنْهُم (ثِيُودُوْر مَايْر جِرِيْن) وغَيْرُهُ.

وشَارَكَ في هَذِهِ المَعْرَكَةِ مُمثِّلُو الفَلْسَفَةِ الوَاقِعِيَّةِ، وهَاجَمُوا البَرْجماتِيَّةِ، ومِنْ أشْهَرِ هَؤلاءِ: (فَرْدرِيْك سِ)، والَّذِي حَاوَلَ في كِتَابَاتِهِ إظْهَارَ تَفَوُّقِ الوَاقِعِيَّةِ علىٰ البِرْجماتِيَّةِ، ومِنْ مُمثِّلي الفَلْسَفَةِ الوَاقِعِيَّةِ أيْضًا (ألْفَرْد نُورَثْ وْايتْهِد) صَاحِبُ كِتَابِ: (أهْدَافِ التَّربِيَةِ) الَّذِي أصْدَرَهُ عَامَ (١٣٤٧هـ)، ولَقَدْ عَمِلَ في بِرِيْطَانِيَا، وأمْرِيكَا، وشَارَكَ في الجَدَلِ الدَّائِرِ حَوْلَ الفَلْسَفَاتِ التَّربَوِيَّةِ.

وكَذَلِكَ (جُون دَانِيَال وَايْلِد)، و(مُورتِيْمُر جِيْروم أدْلْ)، و(رُوْبِرْت مِيْنَارْد هُوتَشْنِز)، وقَدِ اشْتَهَر الأخِيْرُ بكِتَابِهِ: (الصِّرَاعِ في التَّربِيَةِ) الَّذِي أصْدَرَهُ عَامَ (١٣٧٠هـ).

* * *

❑ **تَعَدُّدُ الفَلْسَفَاتِ التَّربَوِيَّةِ، وتنَاقُضُهَا:**

أدَّىٰ هَذَا الصِّرَاعُ التَّربَوِيُّ حوْلَ فَلْسَفَةِ (التَّرْبِيَةِ) إلىٰ مِيْلادِ عَدَدٍ آخَرَ مِنْ مَدَارِسِ الفَلْسفَةِ التَّربَوِيَّةِ، فَقَدِ أنْجبَتِ الفَلْسَفَةُ البَرْجمَاتِيَّةُ وَلِيْدَيْنِ آخَرَيْنِ، هُمَا:

الأوْلىٰ: الفَلْسَفَةُ التَّقَدُّمِيَّةُ.

والثَّانِيَةُ: الفَلْسَفَةُ التَّجْدِيْدِيَّةُ.

وتَعُوْدُ أصُوْلُ الفَلْسَفَةِ التَّقَدُّمِيَّةِ للتَّربِيَةِ إلىٰ أيَّامِ المُرَبِّي الرُّومَانيِّ (كُونِيْتَلْيَانْ)، (٣٥-٩٥ ق. م) الَّذِي انْتَقَدَ أسَالِيْبَ اليُوْنَانِ، وقَسْوَتِها علىٰ الطِّفْلِ، ودَعَا إلىٰ مُرَاعَاةِ قُدُرَاتِهِ ومُسَاعَدَتِهِ علىٰ النُّمُوِّ.

ثُمَّ جَاءَ الفَيْلَسُوْفُ الفَرَنْسِي (جَانْ جَاكْ رُوْسُو)، فَدَعَا في كِتَابِهِ (إمِيْل) إلىٰ تَمركُزِ التَّربِيَةِ حَوْلَ الطِّفْلِ.

وتَبعَهُ في ذَلِكَ الفَيْلَسُوْفُ السُّوَيْسِرِيُّ (جُوهَانْ هِنْرِيْك بِسْتَالُوْزِي) الَّذِي كَانَ لَهُ أثَرُهُ في أوْرُوبَا وأمْرِيْكَا.

ثُمَّ تَمركَزَتِ الفَلْسَفَةُ التَّقَدُّمِيَّةُ في الوِلايَاتِ المُتَّحِدَةِ، وأصْبَحَ لهَا مُفكِّرُوْهَا مِنَ أمْثَالِ (جُوْن دِيْوِي)، وفي عَامَ (١٣٣٦هـ) تَأسَّسَتْ جَمْعِيَّةُ التَّربِيَةُ التَّقَدُّمِيَّةُ، برِئَاسَةِ: (وِلْيَمْ إلْيُوت)، مِنْ جَامِعَةِ (هَارْفَارْد).

* * *

ولَقَدْ نَشِطَتِ الفَلْسَفَةُ التَّقَدُّمِيَّةُ في مُعَارَضَةِ الفَلْسَفَةِ المِثَالِيَّةِ والفَلْسَفَةِ

الوَاقِعِيَّةِ اللَّتَيْنِ صارَ يَجْمَعُهما اسْمٌ مُشْتَرَكٌ: هُوَ فَلْسَفَاتُ المَوَادِ الأساسِيَّةِ، واتِّهَمَتُهما بالانْحِرَافِ بالدِّيْمُقْراطِيَّةِ الأمْرِيْكِيَّةِ عَنْ مَسَارِهَا، مِنْ خِلالِ المَدْرَسَةِ الأمْرِيْكِيَّةِ الَّتي تَظْلِمُ الشَّبَابَ والأطْفَالَ.

وبَيْنَما كَانَتِ الفَلْسَفَةُ التَّقَدُّمِيَّةُ في رَوَاجِهَا وقُوَّتِها، إلَّا أنَّ رُكُوْدًا اقْتِصَادِيًّا حَلَّ في الثَّلاثِيْنَاتِ مِنَ القَرْنِ العِشْرِيْنِ، أحْدَثَ رُكُوْدًا وضِيْقًا ببَعْضِ فَلاسِفَةِ التَّقَدُّمِيَّةِ، فَدَعُوا إلىٰ إعَادَةِ النَّظَرِ في الفَلْسَفَةِ التَّقَدُّمِيَّةِ، وهَكَذَا أصْبَحَ هَؤلاءِ المُنْتَقِدِيْنَ نَوَاةً لِقِيَامِ فَلْسَفَةٍ جَدِيْدَةٍ: وهِيَ التَّجْدِيْدِيَّةُ.

* * *

❑ **أمَّا الفَلْسَفَةُ التَّجْدِيْدِيَّةُ:** فَتَرىٰ أنَّ نَمُوْذَجَ المُجْتَمَعِ المِثَاليِّ يَجِبُ أنْ يَكُوْنَ مِحْوَرَ التَّربِيَةِ، وتَنْظِيْمِ بَرَامِجِهَا وأهْدَافِهَا، وأنَّ علىٰ المَدَارِسِ أنْ تَعْمَلَ علىٰ إعْدَادِ مُوَاطِنِ المُسْتَقْبَلِ لمَجْتَمَعِ المُسْتَقْبَلِ الَّذِي يَجْري بِنَاؤُهُ لا المُجْتَمَعُ القَائِمُ.

* * *

❑ **فَلْسَفَةُ الدَّيْمُوْمَةِ:**

كَذَلِكَ أفْرَزَتِ الفَلْسَفَةُ المِثَالِيَّةُ وَلِيْدًا جَدِيْدًا: هُوَ فَلْسَفَةُ الدَّيْمُوْمَةِ، وهِيَ كَسَابِقَتِهَا الثَّالِثَةِ مِنَ المَدَارِسِ المُحَافِظَةِ، وتَمْقُتُ كَثِيرًا مِنِ اتِّجاهَاتِ العَالَمِ المُعَاصِرِ: مِثْلُ نَتَائِجِ الثَّوْرَةِ الصِّنَاعِيَّةِ، والثَّوْرَةِ العِلْمِيَّةِ، وقِيَمِ العَلْمانِيَّةِ، وقِيَمِ (البُرُولِيْتَارِيا) المَارِكْسِيَّةِ، والثَّوْرَةِ التِّكْنُولُوجِيَّةِ والالِكْتُرونِيَّةِ.

وفَلْسَفَةُ الدَّيْمُوْمَةِ: هِيَ فَلْسَفَةٌ تَرْبَوِيَّةٌ تُرَكِّزُ علىٰ المَاضِي وسُمُوِّهِ، وتُؤَكِّدُ علىٰ دَيْمُوْمَةِ الكَوْنِ، وعَدَمِ تَغيرِ الطَّبِيْعَةِ الإنْسَانِيَّةِ، والحَقِيْقَةُ والمَعْرِفَةُ والفَضِيْلَةُ والجمالُ، فالمَرْغُوْبُ هُوَ الثَّابِتُ.

* * *

وهَكَذَا مَا زَالَتِ الفَلْسَفَاتُ تَتَوَالَدُ مِنْ سِفَاحٍ، لا يَنْتُجُ إلَّا مَوَالِيْدَ مُشَوَّهِيْنَ عَقِيْدَةً وأخْلاقًا، ومِنْ تِلْكُمُ الفَلْسَفَاتِ مَا أفْرَزَتْهُ الفَلْسَفَةُ الوَاقِعِيَّةُ؛ حَيْثُ نَتَجَ مِنْهَا فَلْسَفَةُ الأسُسِ الجَوْهَرِيَّةِ، وتُوْجَدُ هَذِهِ الفَلْسَفَةُ في أمْرِيْكَا.

وإلىٰ جَانِبِ الفَلْسَفَاتِ التَّرْبَوِيَّةِ السَّبْعِ الَّتِي مَرَّ ذِكْرُهَا: (المِثَالِيَّةُ، الوَاقِعِيَّةُ، البَرْجماتِيَّةُ، التَّقَدُّمِيَّةُ، التَّجْدِيْدِيَّةُ، الدَّيْمُوْمَةُ، الجَوْهَرِيَّةُ) ظَهَرَتْ فَلْسَفَةٌ ثَامِنَةٌ: هِيَ الفَلْسَفَةُ الوُجُوْدِيَّةُ، وهَذِهِ الفَلْسَفَةُ أوْرُوبِّيَّةُ الأصْلِ، اشْتَهَرَتْ خِلالَ الحَرْبِ العَالمِيَّةِ الثَّانِيَةِ وبَعْدَهَا، وهِيَ فَلْسَفَةٌ فَرْدِيَّةٌ تَعْتَمِدُ علىٰ العَوَامِلِ الذَّاتِيَّةِ، والإدْرَاكِ، والالْتِزَامِ العَاطِفِيِّ، والشُّعُوْرِ بالوِحْدَةِ.

وهَكَذَا لم تَنْتَهِ الفَلْسَفَاتُ التَّرْبَوِيَّةُ في إفْرازَاتِها وفُرُوْعِهَا وتَعَدُّدِهَا، ومَا ذَاكَ إلَّا لكَوْنِها نَظَرِيَّاتٌ مُسْتَمِدَّةٌ مِنَ العُقُوْلِ البَشَرِيَّةِ ممَّنْ حُرِمُوا نُوْرَ الرِّسَالَةِ الإيْمانِيَّةِ الَّتِي جَاءَتْ بِها الرُّسُلُ، لاسِيَّما نُوْرُ الإسْلامِ الَّذِي جَاءَ بِهِ مُحمَّدٌ ﷺ!

* * *

ومَا مِنْ فَلْسَفَاتٍ مُتَوَالِدَةٍ، وأفْكَارٍ مُتَنَاقِضَةٍ عِنْدَ مَنْ هُم أضَلُّ سَبِيْلًا مُنْذُ

غَابِرِ الأَزْمَانِ وقِدَمِ الوَقْتِ، إلَّا أنَّها أيْضًا في صِرَاعَاتٍ ومُهَاتَرَاتٍ لا تَنْتَهِي ولا تَكِلُّ؛ حَيْثُ ازْدَادَتِ حِدَّةُ الصِّرَاعِ بَيْنَ الفَلْسَفَاتِ التَّربَوِيَّةِ المُخْتَلِفَةِ صِرَاعًا كَبِيْرًا.

وهَذَا (دِيْوِي) فَقَدَ نَهَضَ بِما أوْتيَ مِنْ نُفُوْذٍ فَلْسَفِيٍّ وتَرْبَوِيٍّ لِيَدْعُو إلىٰ إقَامَةِ التَّعْلِيْمِ علىٰ أُسُسِ الفَلْسَفَةِ البَرْجماتِيَّةِ الَّتِي اسْتَمَدَّتْ أُصُولَهَا مِنَ الدَّارُوْنِيَّةِ الاجْتِماعِيَّةِ، هَذَا إذَا عَلِمْنَا أنَّ (دِيْوِي) نَفْسَهُ كَانَ ممَّنْ أسْهَمَ في إرْسَاءِ هَذِهِ الأصُوْلِ، كَما أشْعَلَ (دِيْوِي) الحَمَاسَ عِنْدَ المُؤَيِّدِيْنَ، وأثَارَ حَمِيَّةَ المُعَارِضِيْنَ بخَاصَّةِ الجَانِبَ الكَاثُولِيْكِي، وتَرَتَّبَ علىٰ هَذِهِ الخُصُوْمَةِ ذَلِكَ الفَيْضُ مِنَ الكِتَابَاتِ حَوْلِ (فَلْسَفَةِ التَّربِيَةِ)!

* * *

☐ ومَعَ اشْتِدادِ حِدَّةِ الجِدَالِ؛ اشْتَدَّتِ الفَوَارِقُ بَيْنَ مُمثِّلي الاتِّجاهَاتِ المُخْتَلِفَةِ لفَلْسَفَةِ التَّربِيَةِ، فَقَدْ أخَذَ الكَثِيرُ بالاتِّجاهِ البَرْجماتِيِّ التَّقَدُّمِيِّ، وظَلَّ الكَثِيرُ في صَفِّ الاتِّجاهِ التَّقْلِيْدِيِّ، وكَذَلِكَ انْقَسَمَ البَرْجماتِيُّوْنَ أنْفُسُهُم إلىٰ أقْسَامٍ، مِنْهَا:

القِسْمُ الأوَّلِ: الرُّوْمَانسِيُّ الَّذِي اسْتَمَدَّ آرَاءَهُ مِنْ أفْكَارٍ، أمْثَالِ: (سِتَانْلي هُوْل)، و(فِرْوِيْد).

ومِنْهَا القِسْمُ الثَّاني: الَّذِي يَصِفُهُ (بُرُوبَاخِرْ) بالهُدُوءِ والاعْتِدَالِ، وأنَّهُ اسْتَنَدَ في آرَائِهِ إلىٰ كِتَابَاتِ (جُوْنْ دِيْوِي)[1].

---

(١) «فَلْسَفَةُ التَّربِيَةِ الإسْلامِيَّةِ» لماجِدِ بنِ عُرْسَانَ الكِيلانيِّ (٢٩-٣٩).

الفَصْلُ الثَّانِي

بِدَايَاتُ (الفِكْرِ التَّرْبَوِيِّ) عِنْدَ المُسلِمِيْنَ

لا شَكَّ أنَّ مَنْ قَرأ تَارِيْخَ الأمَّةِ الإسْلامِيَّةِ عَلِمَ يَقِيْنًا أنَّ (الفِكْرَ التَّرْبَوِيَّ) لم يَكُنْ يَوْمًا مِنَ الأيَّامِ شَيْئًا مَذْكُوْرًا، ولم يَكُنْ ذَا شَأنٍ عِنْدَ حَملَةِ الشَّرِيْعَةِ وعُلَماءِ الأمَّةِ مُنْذُ فَجْرِ الإسْلامِ إلىٰ القَرْنِ الرَّابعِ عَشَرَ أو يَزِيْدُ . . . فَلَمْ تَكُ أبْعَادُ (التَّرْبِيَةِ) في مَنْظُوْرِ وعِلْمِ السَّالِفِيْنَ كَما هُوَ الآنَ عِنْدَ أصْحَابِهِ وعُشَّاقِهِ ممَّنْ سَقَطُوا صَرْعَىٰ أمَامَ (الفِكْرِ التَّرْبَوِيِّ) الَّذِي ألْقَتْهُ بَيْنَ ظَهْرَانَيْنَا عُلُوْمُ الإغْرِيْقِ واليُوْنَانِ والرُّوْمَانِ وعُصُوْرِ الظُّلَمِ والانْحِلالِ ومِنْ وَرَائِهَا الإغَارَةُ الصَّلِيْبِيَّةُ ومِنْ بَعْدِهَا الاحْتِلالِ (الاسْتِعْمارِ) الأوْرُبِّي الغَاشِمُ، ومَا خَلَّفَهُ مِنْ غَزْوٍ فِكْرِيٍّ، وبِما تَرَكَهُ مِنْ عُمَلاءَ ومُسْتَشْرِقِيْنَ ومُسْتَغْرِبِيْنَ ومُنْهَزِمِيْنَ . . . وهَكَذَا كَانَ قَدَرُ الله تَعَالىٰ، حَتَّىٰ ظَهَرَتْ بَيْنَنَا أعْلامُ المُنْهَزِمِيْنَ تُرَفْرِفُ فَوْقَ سَماءِ تُرَاثِنَا العِلْمِي، وتَلُوْحُ يَمِيْنًا وشِمالًا رَافِعَةً كُتُبَ (الفِكْرِ التَّرْبَوِيِّ) الَّذِي أُشْرِبَ بمُخَلَّفَاتِ الفَلْسَفَاتِ التَّرْبَوِيَّةِ الوَثَنِيَّةِ في عُصُوْرِهَا الغَابِرَةِ ومُرُوْرًا بعُصُوْرِ الانْحِطَاطِ الأوْرُبِّي!

نَعَم؛ لَنْ نَذْهَبَ بَعِيْدًا ولَنْ نَقُوْلَ شَطَطًا: وذَلِكَ إذَا عَلِمَ الجَمِيْعُ أنَّ (التَّربِيَةَ) لم تَكُنْ في تَارِيْخِنَا العِلْمِي بهَذِهِ الصُّوْرَةِ المُنْكَرَةِ، اللَّهُمَّ كَانَتْ شَيْئًا

آخَرَ ولَوْنًا مُغَايِرًا ممَّا عَلَيْهِ (التَّربَوِيُّوْنَ!) اليَوْمَ، حَيْثُ كَانَتْ في تَارِيخِنَا: لا تَزِيْدُ عَنْ حُدُوْدِ تَعْلِيْمِ الطِّفْلِ وتَأدِيْبِهِ!

* * *

❑ فَعَوْدًا علىٰ بَدْءٍ؛ فَمِنْ وَادٍ غَيرِ ذِي زَرْعٍ بَدَأَ الإسْلامُ يَغْمُرُ الكَوْنَ هَادِيًا وبَشِيرًا، يَوْمَ كَانَتِ الصَّحْرَاءُ أرْضَ حِلٍّ وتِرْحَالٍ، وكَانَتْ تَظُمُّ الجِبَالَ والوِدْيَانَ، والرِّمَالَ الصَّفْرَاءَ، والكُثْبَانَ والخِيَامَ، وكَثِيرًا مَا أُرِيْقَتِ الدِّمَاءُ علىٰ الرِّمَالِ، فالقَبَائِلُ تَتَنَاحَرُ، وتَتَفَاخَرُ بالأحْسَابِ، وتَطْعَنُ الأنْسَابَ، وتَمْدَحُ وتَهْجُو بالشِّعْرِ والقَوَافي.

حَقًّا لم تَكُنْ جَزِيْرَةُ العَرَبِ وِحْدَةً سِيَاسِيَّةً، ولكِنْ كَانَتْ هُنَاكَ وِحْدَةُ اللُّغَةِ والاهْتِمامِ بالشِّعْرِ وقَوَافِيْهِ وأوْزَانِهِ، حَتَّىٰ إنَّ العَرَبَ أنْزَلُوا الشُّعَرَاءَ بَيْنَهُم مَنْزِلَةً حَسَنَةً، وقَدْ تَخيَّرتِ القَبَائِلُ أرْجَحَ رِجَالاتِهَا عَقْلًا وأعْلىٰ حِكْمَةً، ليَكُوْنُوا شُيُوخًا فِيْهَا يَحْكُمُوْنَ بَيْنَ النَّاسِ، وتَرَابَطَتِ القَبَائِلُ فِيما بَيْنَهَا برَوَابِطِ التِّجَارَةِ والأسْوَاقِ الأدَبِيَّةِ، حَتَّىٰ إنَّه يُقَالُ إنَّ قَصَائِدَ الشُّعَرَاءِ السَّاحِرَةِ كَانَتْ تُنَزَّلُ في أوَّلِ الأمْرِ مَنْزِلَةَ وَحِي الكُهَّانِ!

* * *

ثُمَّ جَاءَ الإسْلامُ، ونَزَلَتْ أوَّلُ آيَةٍ علىٰ النَّبيِّ ﷺ، وهُوَ يَتَعَبَّدُ في غَارِ حِرَاءٍ: ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ۝١ خَلَقَ ٱلْإِنسَـٰنَ مِنْ عَلَقٍ ۝٢ ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ ۝٣ ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ ۝٤ عَلَّمَ ٱلْإِنسَـٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾ [العلق: ١-٥]، ثُمَّ بَدَأَ الإسْلامُ يَنْتَشِرُ في

رُبُوْعِ الجَزِيْرَةِ العَرَبِيَّةِ، وتَحمَّلَ النَّبِيُّ ﷺ وصَحَابَتُهُ الأذَىٰ والألم حَتَّىٰ كَتَبَ الله لهُم نَصْرًا مُبِيْنًا.

واسْتَطَاعَ النَّبِيُّ ﷺ، ومَنْ بَعْدَهُ مِنَ الخُلَفَاءِ الرَّاشِدِيْنَ أنْ يَبْعَثُوا في نُفُوْسِ أبْنَاءِ العَرَبِ، وفي نُفُوْسِ كَثِيرٍ مِنْ أهْلِ البِلادِ الوَاقِعَةِ في الأطْرَافِ آدَابَ الإسْلامِ، وهَكَذَا حَتَّىٰ فَتَحَ المُسْلِمُوْنَ بِلادَ فَارِسَ والرُّوْمَ، وغَيْرِهَا مِنَ البِلادِ، حَتَّىٰ وَصَلَتْ رِسَالةُ الإسْلامِ مَشَارِقَ الأرْضِ ومَغَارِبِها!

* * *

ثُمَّ جَاءَ بَعْدَ النَّبِيِّ ﷺ الخُلَفَاءُ الرَّاشِدُوْنَ: أبُو بَكْرٍ، وعُمَرَ، وعُثْمانَ، وعَلِيٌّ ﷺ أجْمَعِيْنَ، فَكَانَتْ لهُمُ الخِلافَةُ مِنَ السَّنَةِ الحَادِيَةَ عَشْرَةَ إلىٰ السَّنَةِ الأرْبَعِيْنَ.

ثُمَّ جَاءَ مُعَاوِيَةُ بنُ أبي سُفْيَانَ ﷺ، فَكَانَتِ الدَّوْلَةُ الأمَوِيَّةُ في دِمِشْقَ مِنْ سَنَةِ (٤٠) إلىٰ سَنَةِ (١٣٢)، وإبَّانَ الدَّوْلَةِ الأمَوِيَّةِ رَفْرَفَتْ ألْوِيَةُ المُسْلِمِيْنَ علىٰ رِقْعَةٍ مِنَ الأرْضِ كَبِيرَةٍ، امْتَدَّتْ مِنَ المُحِيْطِ الأطْلَسِي غَرْبًا إلىٰ مَا وَرَاءَ حُدُوْدِ الهِنْدِ والتُّرْكُسْتَانِ شَرْقًا، ثُمَّ إلىٰ بِلاد القُوْقَازِ وأسْوَارِ القُسْطُنْطِيْنِيَّةِ شَمالًا، وسَادَتِ اللُّغَةُ العَرَبِيَّةُ فَأصْبَحَتْ لُغَةَ الدِّيْنِ والدَّوْلَةِ، والعِلْمِ والشِّعْرِ، وإبَّانَ الدَّوْلَةِ الأمَوِيَّةِ ازْدهَرَتِ البَصْرَةُ والكُوْفَةُ كمَرْكَزَيْنِ للعِلْمِ والثَّقَافَةِ، وذَلِكَ في وَقْتٍ كَانَتْ فِيْهِ أوْرُوْبا تَغُطُّ في نَوْمٍ مِنَ الجَهالَةِ يَزْدَادُ عُمْقًا سَنَةً بَعْدَ أُخْرَىٰ!

* * *

وبَعْدَ سُقُوْطِ الدَّوْلَةِ الأمَوِيَّةِ جاءتِ الدَّوْلَةُ العَبَّاسِيَّةُ مِنْ سَنَةِ (١٣٢) إلىٰ سَنَةِ (٦٥٦)، وأُطْلِقَ علىٰ فَتَرَاتٍ مِنْهَا بالعُصُوْرِ الذَّهَبِيَّةِ، وقَدْ بَنَىٰ المَنْصُوْرُ ثَاني خُلَفَاءِ العَبَّاسِيِّيْنَ، بَغْدَادَ عَامَ (١٤٥)، ثُمَّ خَلَفَهُ ابْنُهُ المَهْدِيُّ، ثُمَّ خَلَفَهُ أيْضًا ابْنُهُ الهَادِي، وهَكَذَا حَتَّىٰ جَاءَ هَارُوْنُ الرَّشِيْدُ، وهَكَذَا حَتَّىٰ تَأَلَّقَتْ بَغْدَادُ، وأصْبَحَتْ: كَعْبَةَ العِلْمِ والثَّقَافَةِ، والأدَبِ، ولم يَبْخَلِ الخُلَفَاءُ علىٰ النَّهْضَةِ العِلْمِيَّةِ.

ثُمَّ بَدَأ الوَهَنُ يَتَطَرَّقُ إلىٰ الدَّوْلَةِ العَبَّاسِيَّةِ المُتَماسِكَةِ، فَاسْتَقَلَّتْ بَعْضُ أجْزَائِهَا، فَكَانَتْ هُنَاكَ دَوْلَةُ بني أُمَيَّةَ في الأنْدَلُسِ، ودَوْلَتَا الطُّوْلُوْنِيِّيْنَ والفَاطِمِيِّيْنَ في مِصْرَ، وأقَامَ بَنُو حَمْدَانَ مُلْكًا في الشَّامِ والجَزِيْرَةِ، كَما قَامَ الظَّاهِرِيُّوْنَ في المَشْرِقِ، ومَعَ هَذَا الوَهَنِ والانْفِصَالِ إلَّا أنَّ العِلْمَ لم يَزَلْ رَكِيْزَةً ووُجْهَةً مَقْصُوْدَةً عِنْدَ المُسْلِمِيْنَ، فَفِي الأنْدَلُسِ قَامَتْ مَرَاكِزُ عِلْمِيَّةٌ، وفي القَاهِرَةِ أُنْشِئ جَامِعُ (الأزْهَرِ)، وهُوَ بَاقٍ إلىٰ اليَوْمِ.

وهَكَذَا كَانَتِ الدَّوْلَةُ العَبَّاسِيَّةُ في اشْتِدَادٍ وعُنْفُوَانٍ مِنْ عَامِ (١٣٢) إلىٰ عَامِ (٦٥٦) تَقْرِيْبًا.

* * *

ثُمَّ خَلَفَتْهَا دُوَلُ المَمالِيْكِ والإمَارَاتُ مِنْ عَامِ (٦٤٨) إلىٰ عَامِ (٩٢٣) تَقْرِيْبًا، وهِيَ مَا بَيْنَ: أدَارِسَةٍ، وأغَالِبَةٍ، وزَيْدِيِّيْنَ، وطُوْلُونِيِّيْنَ، وفَاطِمِيِّيْنَ، وحَمْدَانِيِّيْنَ، وبُوَيْهِيِّيْنَ، وسَلاجِقَةٍ، ومُرَابِطِيْنَ، وزِنْكِيِّيْنَ، وأيُّوْبِيِّيْنَ، ومُوَحِّدِيْنَ، ومَمالِيْكٍ، وصَفَوِيِّيْنَ ... إلَخ.

وأخِيْرًا؛ جاءَتِ الدَّوْلَةُ العُثْمانِيَّةُ العَلِيَّةُ مِنْ عَامِ (٦٨٧) إلىٰ عَامِ (١٣٤٣) تَقْرِيْبًا، فَكَانَتْ خِلافَةً إسْلامِيَّةً عَظِيْمَةً عَرِيْقَةً شَهِدَ لهَا القَاصِي والدَّاني، وخَافَهَا العَالَمُ بأسْرِهِ (شَرْقِيُّهُ وغَرْبِيُّهُ، شَمالُهُ وجَنُوْبُهُ)، حَتَّىٰ كَانَ آخِرُ خُلَفَائِهَا أصَابَها الوَهَنُ والضَّعْفُ شَيْئًا فَشَيْئًا، ودَخَلَهَا شَيءٌ مِنَ الانْحِرَافِ في مَنَاهِجِهَا وتَصَوُّرَاتِها الإسْلامِيَّةِ فَظَهَرَتِ الجماعَاتُ والأفْكَارُ والبِدَعُ . . . حَتَّىٰ أصْبَحَتْ أثرًا بَعْدَ عَيْنٍ، والله يُعِزُّ مَنْ يَشَاءُ ويَنْزِعُ المُلْكَ مِمَّنْ يَشَاءُ، وهُوَ القَادِرُ علىٰ كُلِّ شَيءٍ!

وعِنْدَ إسْقَاطِ الخِلافَةِ الإسْلامِيَّةِ في تُرْكِيَا عَامَ (١٣٤٣)؛ قَامَتْ دُوَيْلاتٌ إسْلامِيَّةٌ كَثِيرَةٌ، وكَانَ بَعْضُهَا صَنِيْعَةَ الاحْتِلالِ (الاسْتِعْمارِ) الأوْرُبِّي، حَتَّىٰ جَاءَتِ الدَّوْلَةُ السُّعُوْدِيَّةُ في مَرَاحِلِهَا الثَّلاثِ مُجَدِّدَةً للتَّوْحِيْدِ، والعِلْمِ صُرُوْحًا وصُوَىٰ!

* * *

ومِنْ هُنَا لم يَزَلِ التَّارِيْخُ يَكْتُبُ ويُدَوِّنُ حَوَادِثَ وكَوَائِنَ لم تَزَلْ في تَتَابُعٍ وتَفَاقُمٍ، ورُبَّما احْتَجَبَ التَّارِيْخُ واسْتَتَرَ إلَّا أنَّ أقْلامَهُ لا تَكِلُّ ولا تَمَلُّ، وأوْرَاقَهُ لا تَنْقُصُ ولا تَقِلُّ، ورِجَالَهُ في يَقْظَةٍ وتَأهُّبٍ مَا بَيْنَ حَيٍّ يَكْتُبُ، أو مَيِّتٍ قَدْ دَوَّنَ، إنَّه التَّارِيْخُ لا يَحْكُمُهُ قَانُوْنٌ ولا دَوْلَةٌ!

هُوَ التَّارِيْخُ إنْ رَحِمْتَهُ لا يَرْحَمُ، وإنْ ظَلَمْتَهُ لا يَظْلِمُ، هُوَ التَّارِيْخُ يَكْتُبُ ولا يُسْتَكْتَبُ، كُلُّ مَا فِيْه بقَضَاءٍ وقَدَرٍ، قَدْ كُتِبَ في اللُّوْحِ المَحْفُوْظِ، وقَدْ عَلِمَهُ المَوْلىٰ الحَفِيْظُ؟!

* * *

إنَّ تَأثُّرَنا بالثَّقافَةِ الغَرْبِيَّةِ مُنْذُ بِدايَةِ القَرْنِ الثَّالِث عَشرَ، حتَّىٰ نِهايَةِ الرَّابِعَ عَشَرَ؛ جَعَلَنا نَخْضَعُ لمُؤثِّراتِ الثَّقافاتِ التَّربَويَّةِ المَاضِيَةِ ما بَيْنَ مُسْتَقِلٍّ ومُسْتَكْثِرٍ!

فَمُنْذُ أنْ افْتُتِحَ (مَعْهَدُ التَّربِيَةِ للمُعَلِّمِيْنَ) سَنَةَ (١٣٣٩) في مِصْرَ هَبَّتْ علىٰ المَنْطَقَةِ العَرَبِيَّةِ تَأثِيراتُ الفَلْسَفَةِ البَرْجماتِيَّةِ؛ لأنَّه اسْتَضَافَ مَجْمُوْعَةً مِنْ عُلَماءِ هَذِهِ الفَلْسَفَةِ التَّربَوِيَّةِ!

كَما أرْسَلَتْ كَثِيرًا مِنَ البَعَثَاتِ الَّتِي تَتَلْمَذَتْ علىٰ يَدِ «جُوْنْ دِيْوِي»، و«تَشَايْلِدْز»، و«كَلْبَاتِرِك»، و«كُوْنْتِسْ»، و«بُوْد»، و«رِجْ» وغَيرِهِم.

ولَمَّا كَانَ أكْثَرُ هَؤلاءِ المُفَكِّرِيْنَ قَدِ اسْتَأثَرَتْ أعْمَالُهُم باهْتِمامِ مُخْتَلَفِ الدَّوَائِرِ التَّربَوِيَّةِ العَالمِيَّةِ؛ فَقَدْ حَاوَلَ المُفَكِّرُوْنَ التَّربَوِيُّوْنَ المِصْرِيُّوْنَ أنْ يَفِيْدُوا مِنْ هَذِه الجُهُوْدِ الفِكْرِيَّةِ والتَّطْبِيْقِيَّةِ في مَجالِ التَّربِيَةِ، فَحَلَّتْ هَذِهِ الفَلْسَفَةُ مَحَلَّ الفِكْرِ الأورُبِّي.

ومَا أنْ عَادَ البَاحِثُوْنَ والمُبْتَعَثُوْنَ المِصْرِيُّوْنَ إلىٰ أرْضِ مِصْرَ العَرَبِيَّةِ حَتَّىٰ تَرْجَمُوا وكَتَبُوا وكَيَّفُوا التَّجارُبَ والكُتُبَ الَّتِي كَتَبَتْهَا هَذِهِ المَدْرَسَةُ وتَلامِيْذُهَا وشَكَّلَتْ هَذِهِ المُؤثِّرَاتُ تَأثِيرًا كَبِيْرًا علىٰ المُرَبِّيْنَ العَرَبِ[1].

* * *

(١) «مَسِيْرَةُ الفِكْرِ التَّربَوِيِّ» لمَحْمُودِ بنِ سُلْطَان (٢٣٤).

ولَمَّا انْفَصَلَتْ بَعْضُ الدُّوَلِ العَرَبِيَّةِ عَنِ الحُكْمِ العُثْماني بَعْدَ الحَرْبِ العَالِمِيَّةِ الأولىٰ (١٣٣٢- ١٣٣٦) دَخلَتْ مَنَاهِجُهَا التَّربَوِيَّةُ في طَوْرٍ جَدِيْدٍ، وسَبَبُ ذَلِكَ أنَّ الأوُرُبِّيِّينَ تَوَازَعُوا هَذِهِ الوِلايَاتِ العَرَبِيَّةَ، باسْمِ نِظَامٍ أطْلَقُوا عَلَيْهِ اسْمَ: (نِظَامِ الانْتِدَابِ).

❑ فشَمِلَ الانْتِدَابُ الفِرنْسِي: سُوْرِيا ولِبْنَانَ.

❑ وشَمِلَ الانْتِدَابُ الإنْجِليْزِيُّ: العِرَاقَ والأرْدُنَ وفِلِسْطِيْنَ، أضِفْ إلىٰ ذَلِكَ أنَّ مِصْرَ كَانَتْ قَدْ وَقَعَتْ تَحْتَ الاحْتِلالِ الإنْجِليْزِي مُنْذُ عَامَ (١٢٩٩).

❑ وهَكَذَا انْقَسَمَتِ البُلْدَانُ العَرَبِيَّةُ إلىٰ ثَلاثِ مَنَاطِقَ ثَقَافِيَّةٍ:

الأوْلىٰ: فَرَنْسِيَّةٌ، وتَشْمَلُ سُوْرِيا ولِبْنَانَ وتُوْنِسَ والجَزَائِرَ والمَغْرِبَ.

والثَّانِيَةُ: إنْجِلِيْزِيَّةٌ، وتَشْمَلُ العِرَاقَ والأرْدُنَ وفِلِسْطِيْنَ ومِصْرَ والسُّوْدَانَ وإمَارَاتِ الخَلِيْجِ العَرَبي وجَنُوْبَ الجَزِيْرَةِ العَرَبِيَّةِ (اليَمَنَ).

والثَّالِثَةُ: إيْطَالِيَّةٌ، وتَشْمَلُ لِيْبِيا.

❑ أمَّا القِسْمُ البَاقِي مِنَ الجَزِيْرَةِ العَرَبِيَّةِ: كشَمالِ اليَمَنِ، والمَمْلَكَةِ العَرَبِيَّةِ السُّعُوْدِيَّةِ، فَبَقِيَ مَعْزُوْلًا عَنِ التَّطَوُّرَاتِ الثَّقَافِيَّةِ العَالمِيَّةِ، حَيْثُ حَفِظَهَا الله تَعَالىٰ مِنْ كُلِّ تَأثِيْرٍ ومُتَغَيِّرٍ أجْنَبِيٍّ.

❑ وقَدْ نَشَأَ عَنِ الاحْتِلالِ الأوُرُوبِّي الجَدِيْدِ نَتَائِجُ خَطِيرَةٌ أثَّرَتْ في مَنَاهِجِ التَّعْلِيْمِ:

مِنْهَا: أنَّ اللُّغَةَ الفَرَنْسِيَّةَ أصْبَحَتْ إلْزَامِيَّةً في مَنْطَقَةِ النُّفُوْذِ الفَرَنْسِي،

كاللُّغَةِ الإنْجِلِيْزِيَّةِ في مِنْطَقَةِ النُّفُوْذِ الإنْجِلِيْزِي، وكاللُّغَةِ الإيْطالِيَّةِ في مِنْطَقَةِ النُّفُوْذِ الإيْطَالي.

ومِنْهَا: أنَّ كُلَّ مِنْطَقَةٍ مِنْ هَذِهِ المَنَاطِقِ كَانَتْ تَسْتَمِدُّ نُظُمَهَا وكُتُبَهَا، وتَقْتَبِسُ اتِّجَاهَاتِها الثَّقَافِيَّةَ مِنَ الدَّوْلَةِ الأجْنَبِيَّةِ الَّتي تَخْضَعُ لها، فَأفْضَىٰ ذَلِكَ كُلُّهُ إلىٰ اخْتِلافِ مَنَاهِجِ التَّعْلِيْمِ في الأقْطَارِ الإسْلامِيَّةِ.

* * *

يُوَضِّحُهُ؛ أنَّه لمَّا نَالَتِ الأقْطَارُ الإسْلامِيَّةُ اسْتِقْلالها بَعْدَ الحَرْبِ العَالمِيَّةِ الثَّانِيَةِ، وَجدَتْ أمَامَهَا تَرِكَةً صَعْبَةً لم يَكُنْ مِنَ السَّهْلِ عَلَيْهَا اسْتِقْصاءُ جَمِيْعَ مُشْكِلاتِها، وأهَمُّ هَذِهِ المُشْكِلاتِ: اخْتِلافُ اتِّجاهَاتِ (التَّرْبِيَةِ) باخْتِلافِ الأقْطارِ العَرَبِيَّةِ، وفُقْدَانِ المُلائَمَةِ بَيْنَ مَنَاهِجِ التَّعْلِيْم وحَاجَاتِ المُجْتَمَعِ، واسْتِخْدَامِ اللُّغَاتِ الأجْنَبِيَّةِ في جَمِيْعِ مَرَاحِلِ التَّعْلِيْمِ أو في بَعْضِهَا، وقُصُوْرِ التَّخْطِيْطِ، وانْتِشَارِ الأمِيَّةِ، وغَيْرِ ذَلِكَ ممَّا كَانَ دَافِعًا قَوِيًّا لاتِّخاذِ مَوْقِفًا تَرْبَوِيًّا جَدِيْدًا يُوَائِمُ الوَضْعَ الجَدِيْدَ، ومِنْ هُنَا جَاءَ الانْحِرَافُ التَّربَوِيُّ والخَلَلُ المَنْهَجِيُّ في مُعْظَمِ بِلادِ المُسْلِمِيْنَ!

* * *

لهَذَا أصْبَحَتِ (التَّرْبِيَةُ) في غَالِبِ دِيَارِ الإسْلامِ لا تَنْطَلِقُ مِنْ مُنطَلَقَاتٍ إسْلامِيَّةٍ، بَلْ هِيَ مُتَأرْجِحَةٌ بَيْنَ الفَلْسَفَاتِ التَّرْبَوِيَّةِ الشَّرْقِيِّ مِنْهَا والغَرْبِيِّ، سَوَاءٌ كَانَتْ مِثَالِيَّةً أو وَاقِعِيَّةً أو بَرْجماتِيَّةً أو غَيْرَهَا، فَقَلَّدَتِ الشُّعُوْبُ

المُسْلِمَةُ أعْدَاءَهَا في كُلِّ شَيءٍ، في نُظُمِ التَّرْبِيَةِ والتَّعْلِيْمِ ومَسَارِ الثَّقَافَةِ، وأسَالِيْبِ التَّفْكِيْرِ إلَّا مَا رَحِمَ رَبِّي[١].

* * *

وهَكَذَا بَدأ الضَّعْفُ في الأمَّةِ الإسْلامِيَّةِ يَأخُذُ في مَفَاصِلِهَا سَوَاءٌ في التَّعْلِيْمِ أو السِّيَاسَةِ أو التِّجَارَةِ أو غَيْرِهَا مِنْ شُؤوْنِ الحَيَاةِ . . . وهَكَذَا حَتَّىٰ إذَا ظَهَرَتْ آثَارُ الانْهِزَامِ النَّفْسِي في طَرِيْقِهَا إلىٰ الكُتُبِ والكُتَّابِ، والمَحْكُوْمِيْنَ والحُكَّامِ إلاَّ مَا رَحِمَ رَبِّي، وقَلِيْلٌ مَا هُم، فَكَانَ مِنْ أخْرَيَاتِ هَذِهِ الهَزَائِمِ والقَوَاصِمِ مَا كَانَ مِنْ ظَاهِرَةِ (الفِكْرِ التَّرْبَوِيِّ) في ثَوْبِها الجَدِيْدِ تُحَاكِي مَا لَفَظَتْهُ أوْرُبَّا مِنْ فَوْضَىٰ فِكْرِيَّةٍ وتَرْبَوِيَّةٍ!

❑ ❑ ❑

---

(١) «التَّرْبِيَةُ المُقارَنَةُ» لمَلِكَةَ أبْيَض (١٤٦-١٤٧)، و «الفِكْرُ التَّربَوِيُّ عِنْدَ ابنِ القَيِّمِ» لحسَنَ الحَجَّاجِيِّ (٢٤).

البَابُ الرَّابِعُ

- الفَصْلُ الأَوَّلُ: بِدَايَاتُ الانْهِزَامِ النَّفْسِيِّ عِنْدَ المُسْلِمِيْنَ.
- الفَصْلُ الثَّانِي: تَارِيْخ بِدَايَاتِ الفِرَقِ.
- الفَصْلُ الثَّالِثُ: العِلاقَةُ بَيْنَ جَماعَةِ (الإِخْوَانَ المُسْلِمُونَ) وبَينَ أنْصَارِ (التَّربِيَةِ)، وأَدْعِيَاءِ السَّلَفِيَّةِ.
- الفَصْلُ الرَّابِعُ: الانْهِزَامُ الدَّعْوِيُّ.

الفَصلُ الأوّلُ

بِدَايَاتُ الانهِزَامِ النَّفْسِيِّ عِندَ المُسلِمِينَ

وبَادِي ذِيْ بَدْءٍ؛ فلْيَعْلَمْ كُلُّ مُسْلِمٍ أنَّ الله تَعَالىٰ أكْمَلَ لَنَا الدِّيْنَ؛ كَمَا قَالَ تَعَالىٰ: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةُ وَٱلدَّمُ وَلَحْمُ ٱلْخِنزِيرِ وَمَآ أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦ وَٱلْمُنْخَنِقَةُ وَٱلْمَوْقُوذَةُ وَٱلْمُتَرَدِّيَةُ وَٱلنَّطِيحَةُ وَمَآ أَكَلَ ٱلسَّبُعُ إِلَّا مَا ذَكَّيْتُمْ وَمَا ذُبِحَ عَلَى ٱلنُّصُبِ وَأَن تَسْتَقْسِمُواْ بِٱلْأَزْلَٰمِ ذَٰلِكُمْ فِسْقٌ ٱلْيَوْمَ يَئِسَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن دِينِكُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَٱخْشَوْنِ ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا فَمَنِ ٱضْطُرَّ فِي مَخْمَصَةٍ غَيْرَ مُتَجَانِفٍ لِّإِثْمٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [المائدة: ٣].

وقَالَ تَعَالىٰ: ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا طَٰٓئِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّآ أُمَمٌ أَمْثَالُكُم مَّا فَرَّطْنَا فِي ٱلْكِتَٰبِ مِن شَيْءٍ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ﴾ [الأنعام: ٣٨].

وعَنِ العِرْبَاضِ بنِ سَارِيَةَ ﵁ قَالَ: وَعَظَنَا رَسُوْلُ الله ﷺ مَوْعِظَةً ذَرَفَتْ مِنْهَا العُيُوْنُ، ووَجِلَتْ مِنْهَا القُلُوْبُ . فَقُلْنَا يَا رَسُوْلَ الله ﷺ: إنَّ هَذِهِ لَمَوْعِظَةُ مُوَدِّعٍ . فَمَا تَعْهَدُ إلَيْنَا؟ قَالَ: «**قَدْ تَرَكْتُكُم علىٰ البَيْضَاءِ لَيْلُهَا كَنَهَارِهَا، لا يَزِيْغُ عَنْهَا بَعْدِي إلاَّ هَالِكٌ، مَنْ يَعِشْ مِنْكُم فَسَيَرَ اخْتِلافًا كَثِيرًا، فَعَلَيْكُم بِمَا عَرَفْتُم مِنْ سُنَّتِي وسُنَّةِ الخُلَفَاءِ الرَّاشِدِيْنَ المَهْدِيِّيْنَ، عَضُّوا عَلَيْهَا بالنَّوَاجِذِ، وعَلَيْكُم بالطَّاعَةِ، وإنْ عَبْدًا حَبَشِيًّا، فَإنَّمَا المُؤمِنُ**

كالجَمَلِ الأنِفِ حَيْثُما قِيْدَ انْقَادَ» أخْرَجَهُ أحمَدُ، وابنُ مَاجَه، وهُوَ صَحِيْحٌ.

وقَوْلُهُ ﷺ: «تَرَكْتُ فِيْكُم أمْرَيْنِ لَنْ تَضِلُّوا مَا تَمسَّكْتُم بِهما: كِتَابَ الله، وسُنَّةَ نبيِّهِ» أخْرَجَهُ مَالِكٌ، وهُوَ صَحِيْحٌ.

وعَنْ عَبْدِ الله بنِ عَمْرِو بنِ العَاصِ رضي الله عنهما قَالَ: كُنَّا مَعَ رَسُوْلِ الله ﷺ في سَفَرٍ فَنَزَلْنَا مَنْزِلًا فَمِنَّا مَنْ يُصْلِحُ خِبَاءَهُ، ومِنَّا مَنْ يَنْتَضِلُ (المُرَامَاةُ بالنُّشَّابِ)، ومِنَّا مَنْ هُوَ في جَشَرِهِ (الدَّوَابِ الَّتِي تَرْعَىٰ وتَبِيْتُ مَكَانِها)، إذْ نَادَىٰ مُنَادِي رَسُوْلِ الله ﷺ الصَّلاةَ جَامِعَةً! فاجْتَمَعْنَا إلىٰ رَسُوْلِ الله ﷺ فَقَالَ: «إنَّه لم يَكُنْ نَبِيٌّ قَبْلي إلاَّ كَانَ حَقًّا عَلَيْهِ أنْ يَدُلَّ أُمَّتَهُ علىٰ خَيْرِ مَا يَعْلَمُهُ لهُم، ويُنْذِرَهُم شَرَّ مَا يَعْلَمُهُ لهُم، وإنَّ أُمَّتَكُم هَذِهِ جُعِلَ عَافِيَتُهَا في أوَّلِها، وسَيُصِيْبُ آخِرَهَا بَلاءٌ وأُمُوْرٌ تُنْكِرُوْنَها، وتَجِيءُ فِتْنَةٌ فَيُرَقِّقُ بَعْضُهَا بَعْضًا، وتَجِيءُ الفِتْنَةُ فَيَقُوْلُ المُؤمِنُ هَذِهِ مُهْلِكَتِي، ثُمَّ تَنْكَشِفُ وتَجِيءُ الفِتْنَةُ فَيَقُوْلُ المُؤمِنُ هَذِهِ هَذِهِ! فَمَنْ أحَبَّ أنْ يُزَحْزَحَ عَنِ النَّارِ ويَدْخُلَ الجَنَّةَ فَلْتَأتِهِ مَنِيَّتُهُ وهُوَ يُؤمِنُ بالله واليَوْمِ الآخِرِ، ولْيَأتِ إلىٰ النَّاسِ الَّذِي يُحِبُّ أنْ يُؤتَىٰ إلَيْهِ، ومَنْ بَايَعَ إمَامًا فَأعْطَاهُ صَفْقَةَ يَدِهِ وثَمَرَةَ قَلْبِهِ فلْيُطِعْهُ إنِ اسْتَطَاعَ، فَإنْ جَاءَ آخَرُ يُنَازِعُهُ فاضْرِبُوا عُنُقَ الآخَرِ» أخْرَجَهُ مُسْلِمٌ.

وعَنْ سَلْمانَ الفَارِسِيِّ رضي الله عنه، قَالَ: قَالَ لَهُ بَعْضُ المُشْرِكِيْنَ وهُم يَسْتَهْزِئُوْنَ بِهِ: إنِّي أرَىٰ صَاحِبَكُم (أي: رَسُوْلَ الله) يُعَلِّمُكُم كُلَّ شَيءٍ حَتَّىٰ الخَرَاءَةِ، قَالَ: «أجَلْ؛ أمَرَنَا أنْ لا نَسْتَقْبِلَ القِبْلَةَ، ولا نَسْتَنْجِي بأيْمانِنَا، ولا نَكْتَفِي بدُوْنِ ثَلاثَةِ أحْجَارٍ؛ لَيْسَ فِيْهَا رَجِيْعٌ ولا عَظْمٌ» أخْرَجَهُ مُسْلِمٌ.

وعَنْ أبي ذَرٍّ ﵁ قَالَ: «تَركْنَا رَسُوْلُ الله ﷺ، ومَا طَائِرٌ يَطِيْرُ بجَناحَيْهِ إلاَّ عِنْدَنَا مِنْهُ عِلْمٌ» أخْرَجَهُ أحمَدُ (٥/ ١٦٢)، وابنُ حِبَّانَ (١/ ٢٦٧)، وهُوَ صَحِيْحٌ.

بَلْ كَانَ مِنْ قَوَاعِدِ الإسْلامِ: أنَّ الشَّرِيْعَةَ لا تَأمُرُ إلَّا بخَيْرٍ، ولا تَنْهَىٰ إلَّا عَنْ شَرٍّ، فالشَّرِيْعَةُ قَدْ جَاءتْ بتَحْصِيْلِ المَصَالِحِ وتَكْمِيْلِهَا، وتَعْطِيْلِ المَفَاسِدِ وتَقْلِيْلِهَا، وهَذَا ممَّا أجْمَعَتْ عَلَيْهِ الأمَّةُ كَافَّةً، فَالحَمْدُ لله رَبِّ العَالمِيْنَ.

* * *

ومِنْ نَافِلَةِ الحُزْنِ والأسَىٰ؛ أنَّ المُسْلِمِيْنَ في غُرْبَتِهِم (هَذِهِ الأيَّامَ) أشَدُّ وأعْظَمُ مِنْ غُرْبَتِهِم الأوْلىٰ، كَما أنَّ الغُرَبَاءَ اليَوْمَ في مُنَاصَرَةِ الحقِّ ومُنَاجَزَةِ البَاطِلِ: هُمْ أقَلُّ عُدَّةً وعَدَدًا ممَّا عَلَيْهِ مُنَاوِئُوهُم . . . والله نَاصِرٌ دِيْنَهُ ومُعِزٌّ أوْلِيَاءه!

فعَنْ أبي هُرَيْرَةَ ﵁ قَالَ: قَالَ رَسُوْلُ الله ﷺ: «**بَدَأ الإسْلامُ غَرِيْبًا، وسَيَعُوْدُ غَرِيْبًا، فَطُوْبَىٰ للغُرَبَاءِ**» أخْرَجَهُ مُسْلِمٌ، وزَادَ ابنُ مَاجَه: وقِيْلَ: ومَنِ الغُرَبَاءُ؟ قَالَ «النُّزَّاعُ مِنَ القَبَائِلِ» أخْرَجَهُ ابنُ مَاجَه (٣٩٨٨)، وهُوَ صَحِيْحٌ.

ومَهْما تَطَاوَلَتْ بِنَا العُصُوْرُ ونَاءتْ بِنَا الدُّوْرُ . . . فَإنَّ لَنَا في غُرْبَةِ اليَوْمَ لتَسْلِيَةً وأجْرًا، فَإذَا كَانَ أصْحَابُ رَسُوْلِ الله ﷺ قَدْ حَازُوا فَضْلَ الصُّحْبَةِ، وأجْرَ الغُرْبَةِ، فلْتَكُنْ غُرْبَةُ اليَوْمِ فضْلًا وأجْرًا، وإلَّا فَلْيُرَاجعْ الوَاحِدُ مِنَّا إيْمانَهُ!

* * *

وآربَّاهُ؛ يَوْمَ تَبَدَّدَتِ الخِلافَةُ إلىٰ خِلافَاتٍ، والدَّوْلَةُ إلىٰ دُوَيْلاتٍ، والجَماعَةُ إلىٰ جَماعَاتٍ، والمَغْرِبُ إلىٰ مَغَارِبَ، والمَشْرِقُ إلىٰ مَشَارِقَ ... وهَكَذَا في سُعَارٍ مُتَوَهِّجٍ يَقْذِفُ بشَرَرٍ كاللَّهَبِ في مَفَاصِلِ الأُمَّةِ وقُوَاهَا، فَأضْحَىٰ المُسْلِمُوْنَ علىٰ أنْقَاضِهَا فَرِيْسَةَ مَا اسْتَشْرَىٰ فِيْهِم: مِنَ الإشْرَاكِ، والفَسَادِ، والذُّلِّ، والهَوَانِ، والضَّيَاعِ في مَوْجَاتٍ عَارِمَةٍ مِنْ تَيَّارَاتِ التَّغْرِيْبِ: عَزْلًا للدِّيْنِ عَنِ الحَيَاةِ، وتَقْلِيْصًا لظِلِّ الإسْلامِ عَنِ الدَّارِ ... عَمِلَتْهَا أيْدِي كَبَاكِبَ مِنْ دُعَاةٍ مُنْهَزِمِيْنَ، وأعْدَاءٍ مُعْتَدِيْنَ لضَرْبِ الإسْلامِ، وتَصْفِيَةِ العَامِلِيْنَ في كُلِّ مَكَانٍ.

* * *

ومَهْمَا يَكُنْ مِنْ أمْرٍ؛ فَحَسْبُنَا قَوْلُ الله تَعَالىٰ: ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ ٱلْأَشْهَـٰدُ ۝٥١ يَوْمَ لَا يَنفَعُ ٱلظَّـٰلِمِينَ مَعْذِرَتُهُمْ ۖ وَلَهُمُ ٱللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوٓءُ ٱلدَّارِ﴾ [غافر: ٥١-٥٢].

وقَوْلُهُ تَعَالىٰ: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ رُسُلًا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ فَجَآءُوهُم بِٱلْبَيِّنَـٰتِ فَٱنتَقَمْنَا مِنَ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُوا۟ ۖ وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الروم: ٤٧].

وعَنْ ثَوْبَانَ ﷺ قَالَ: قَالَ رَسُوْلُ الله ﷺ: **«لا تَزَالُ طَائِفَةٌ مِنْ أُمَّتِي ظَاهِرِيْنَ علىٰ الحَقِّ لا يَضُرُّهُم مَنْ خَذَلَهُم حَتَّىٰ يَأتِي أمْرُ الله، وهُمْ كَذَلِكَ»** مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ.

وعَنْ ثَوْبَانَ ﷺ قَالَ: قَالَ رَسُوْلُ الله ﷺ: **«إنَّ الله زَوَىٰ لي الأرْضَ**

فَرأيْتُ مَشارِقَهَا ومَغارِبَها وإنَّ أمَّتِي سَيَبْلُغُ مُلْكُهَا مَا زُوِيَ لي مِنْهَا وأعْطِيْتُ الكَنْزَيْنِ الأحْمَرَ والأبْيَضَ، وإنِّي سَألْتُ رَبِّي لأمَّتِي أنْ لا يُهْلِكُهَا بسَنَةٍ عَامَّةً، وأنْ لا يُسَلِّط عَلَيْهِم عَدُوًّا مِنْ سِوَىٰ أنْفُسِهِم فَيَسْتَبِيْحَ بَيْضَتَهُم، وإنَّ رَبِّي قَالَ: يَا مُحَمَّدُ إنِّي إذَا قَضَيْتُ قَضَاءً فَإنَّه لا يُرَدُّ، وإنِّي أعْطَيْتُكَ لأمَّتِكَ أنْ لا أهْلِكَهُم بسَنَةٍ عَامَّةً، وأنْ لا أسَلِّط عَلَيْهِم عَدُوًّا مِنْ سِوَىٰ أنْفُسِهِم يَسْتَبِيْحُ بَيْضَتَهُم، ولَوِ اجْتَمَعَ عَلَيْهِم مَنْ بأقْطَارِهَا -أو قَالَ مَنْ بَيْنَ أقْطَارِهَا- حَتَّىٰ يَكُوْنَ بَعْضُهُم يَهْلِكُ بَعْضًا، ويُسْبِي بَعْضُهُم بَعْضًا» أخْرَجَهُ مُسْلِمٌ.

وعَنْ خَبَّابِ بنِ الأرَتِ رضي الله عنه قَالَ: أتَيْنَا رَسُوْلَ الله ﷺ وهُوَ في ظِلِّ الكَعْبَةِ مُتَوَسِّدًا بُرْدَةً لَهُ فَقُلْنَا: يَا رَسُوْلَ الله ادْعُ الله تَبَارَكَ وتَعَالىٰ لَنَا واسْتَنْصِرْهُ؟ قَالَ: فاحْمَرَّ لَوْنُهُ أو تَغَيَّرَ، فَقَالَ: «لَقَدْ كَانَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُم يُحْفَرُ لَهُ حُفْرَةٌ، ويُجَاءُ بالمِنْشَارِ فَيُوْضَعَ علىٰ رَأسِهِ فَيُشَقُّ؛ مَا يَصْرِفُهُ عَنْ دِيْنِهِ، ويُمْشَطُ بأمْشَاطِ الحَدِيْدِ مَا دُوْنَ عَظْمٍ مِنْ لَحمٍ أو عَصَبٍ مَا يَصْرِفُهُ عَنْ دِيْنِهِ، ولَيُتِمَّنَ الله تَبَارَكَ وتَعَالىٰ هَذَا الأمْرَ حَتَّىٰ يَسِيْرَ الرَّاكِبُ مَا بَيْنَ صَنْعَاءَ إلىٰ حَضْرَمُوْتَ لا يَخْشَىٰ إلاَّ الله تَعَالىٰ، والذِّئْبَ علىٰ غَنَمِهِ، ولكِنَّكُم تَعْجَلُوْنَ» البُخَارِيُّ.

وعَنْ تَمِيْمٍ الدَّارِيِّ رضي الله عنه قَالَ: سَمِعْتُ رَسُوْلَ الله ﷺ يَقُوْلُ: «لَيَبْلُغَنَّ هَذَا الأمْرُ مَا بَلَغَ اللَّيْلُ والنَّهَارُ، ولا يَتْرُكُ الله بَيْتَ مَدَرٍ ولا وَبَرٍ إلاَّ أدْخَلَهُ الله هَذَا الدِّيْنَ بعِزِّ عَزِيْزٍ أو بذُلِّ ذَلِيْلٍ، عِزًّا يُعِزُّ الله بِهِ الإسْلامَ، وذُلاًّ يُذِلُّ الله بِهِ الكُفْرَ» وكَانَ تَمِيْمٌ الدَّارِيُّ يَقُوْلُ قَدْ عَرَفْتُ ذَلِكَ في أهْلِ بَيْتِي لَقَدْ أصَابَ مَنْ

أَسْلَمَ مِنْهُم الخَيْرَ والشَّرَفَ والعِزَّ، ولَقَدْ أَصَابَ مَنْ كَانَ مِنْهُم كَافِرًا الذُّلَّ والصِّغَارَ والجِزْيَةَ . أَخْرَجَهُ أَحمَدُ (١٦٩٥٧) وهُوَ صَحِيْحٌ.

* * *

فَعِنْدَئِذٍ لا تَعْجَبَنَّ؛ إذَا قِيْلَ: إنَّ الانْهِزَامَ النَّفْسِي قَدْ أَخَذَ طَرَائِقَ شَتَّىٰ في حَيَاتِنَا الإسْلامِيَّةِ أَفْرَادًا وجَمَاعَاتٍ، حَتَّىٰ أَخَذَتِ الهَجْمَةُ الانْهِزَامِيَّةُ طَرِيْقَهَا إلىٰ بَعْضِ المُنْتَسِبِيْنَ إلىٰ قَبِيْلِ العِلْمِ الشَّرْعِيِّ: مِنَ العُلَماءِ وطُلَّابِ العِلْمِ والدُّعَاةِ، إلَّا مَا رَحِمَ الله!

وإنَّ مِنْ أَشَدِّ آثَارِ الانْهِزَامِ النَّفْسِي في حَيَاتِنَا اليَوْمَ، مَا نَجِدُهُ مَاثِلًا رَأيَ العَيْنِ، وتَكَادُ تَلْمَسُهُ اليَدُ: في ظَاهِرَةِ (الفِكْرِ التَّرْبَويِّ) الَّتِي لم تَزَلْ تَصُوْغُ أَجْيَالَ الأمَّةِ، وتَطْبَعُهَا بطَابِعِهَا، وذَلِكَ مِنْ خِلالِ دُعَاةِ (التَّرْبِيَةِ)، ومَا يَتْرُكُوْنَهُ مِنْ أثَرٍ وتَأثِيْرٍ في أبْنَاءِ الأمَّةِ، وهُوَ كَذَلِكَ.

* * *

ومِنَ المُؤسِفِ بمَكَانٍ؛ أنَّ كَثِيرًا مِنْ أَنْصَارِ ودُعَاةِ (الفِكْرِ التَّرْبَويِّ) اليَوْمَ وَقَفُوا أَمَامَ كُلِّ مَا يَنْظُرُ إلَيْهِ أعْدَاءُ الإسْلامِ بعَيْنِ التَّحْقِيْرِ أو التَّعْيِيْرِ مِنْ وَقَائِعِ التَّارِيْخِ الإسْلامِيِّ، وأحْكَامِ الشَّرْعِ الإلهِيِّ، وآثَارِ الكِتَابِ والسُّنَّةِ، بِشَيءٍ مِنَ الاعْتِذَارِ والإغْمَاضِ بدَافِعِ الانْهِزَامِ النَّفْسِيِّ!

لأجَلْ هَذَا؛ طَفِقُوا يُحَاوِلُوْنَ أنْ يَمْحُوا تِلْكَ السُّبَةَ عَنْ أنْفُسِهِم أوَّلًا، ثُمَّ عَنْ دِيْنِهِم ثَانِيًا.

وذَلِكَ عِنْدَمَا اعْتَرَضَ عَلَيْهِم رِجَالُ الغَرْبِ وفُرُوْخُهُم مِنَ العَلْمانِيِّيْنَ وغَيْرُهُم: في الحُكْمِ بالكِتَابِ والسُّنَّةِ، فَقَالُوا لهُم: هَذِهِ أحْكَامٌ كَانَتْ لأهْلِ القُرُوْنِ الأوْلىٰ، أو هَذِهِ نَصِّيَّةٌ حَرْفِيَّةٌ، أو هَذِهِ مَتْرُوْكَةٌ لاخْتِيَارِ الشُّعُوْبِ والحُكُوْمَاتِ!

واعْتَرَضُوا أيْضًا علىٰ الجِهَادِ الإسْلامِيِّ، فَقَالُوا لهُم: مَا لَنَا وللجِهَادِ إنَّهُ عَيْنُ الإرْهَابِ؛ بَلْ هُوَ هَمَجِيَّةٌ ضِدَّ الإنْسَانِيَّةِ!

واعْتَرَضُوا أيْضًا علىٰ الرِّقِّ، فَقَالُوا: إنَّما هُوَ حَرَامٌ عِنْدَنَا أصْلًا، لأنَّهُ اسْتِعْبَادٌ وضِدُّ حُقُوْقِ الإنْسَانِ، وأطَالُوا لِسَانَ القَدْحِ في تَعَدُّدِ الزَّوْجَاتِ، فَجَاءَ هَؤلاءِ يَنْسَخُوْنَ آيَاتِ القُرْآنِ، ويُحَرِّفُوْنَ الكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ!

ثُمَّ قَالَ أولَئِكَ: لا بُدَّ مِنْ مُسَاوَاةِ الرَّجُلِ والمَرْأةِ في جَمِيْعِ نَوَاحِي الحَيَاةِ، فَوَافَقَهُم هَؤلاءِ بقَوْلِهِم: هَذَا هُوَ الَّذِي يُعَلِّمُهُ دِيْنُنَا أيْضًا، وطَعَنَ القَوْمُ في أحْكَامِ الزَّوَاجِ والطَّلاقِ في الإسْلامِ، فَقَالَ هَؤلاءِ عُذْرًا؛ الزَّوَاجُ والطَّلاقُ حُقُوْقٌ شَخْصِيَّةٌ لَيْسَ للإسْلامِ فَيْهَا شَيءٌ، ولمَّا عَابُوا الإسْلامَ بِأنَّهُ عَدُوٌّ للغِنَاءِ والفُنُوْنِ الجَمِيْلَةِ، اسْتَدْرَكَ هَؤلاءِ قَائِلِيْنَ: لا بَلْ مَا زَالَ الإسْلامُ مُنْذُ كَانَ يُشْرِفُ علىٰ الرَّقْصِ والمُوْسِيْقَىٰ والتَّصْوِيْرِ ونَحْتِ التَّماثِيْلِ، واعْتَرَضُوا أيْضًا علىٰ قِيَادَةِ المَرْأةِ للسَّيَّارَةِ وكَشْفِ وَجْهِهَا وحِجَابِها، فَقَالُوا: هَذِهِ أمُوْرٌ مَتْرُوْكَةٌ لرَغْبَةِ المَرْأةِ، ولعَادَاتِ مُجْتَمَعِهَا، ولَيْسَ للإسْلامِ فِيْهَا شَيءٌ، واعْتَرَضُوا أيْضًا علىٰ اللِّحْيَةِ والسِّوَاكِ وتَقْصِيْرِ الثِّيَابِ، فَقَالُوا: هَذِهِ رَجْعِيَّةٌ أصُولِيَّةٌ!

وهَكَذَا لم يَزَلْ أنْصارُ (الفِكْرِ التَّرْبَويِّ) تَحْتَ وَطْأةِ الانْهِزَامِ الدَّعْوِيِّ يَتَوَارُوْنَ عَنْ رِجَالِ الغَرْبِ ممَّا وُصِمُوا بِهِ مِنْ ثَلْبٍ وطَعْنٍ بأحْكَامِ دِيْنِهِم الإسْلامِيِّ، ومِنْهُ قَامُوا يَرْكُضُوْنَ وَرَاءَ تَحْرِيْفِ النُّصُوْصِ وتَأوِيْلِ الحَقَائِقِ، فالله المُسْتَعَانُ، فَقَدْ تَغَيَّرَ حَالهُم وتبَدَّلَ وَاقِعُهُم، وارْتَكَسُوا في حَمَأةِ الهَزِيْمَةِ النَّفْسِيَّةِ، الَّتي لا يَزَالُوْنَ يَعِيْشُوْنَ في أُتُونِها ويَتَلَظُّوْنَ بنَارِهَا!

* * *

والسُّؤالُ هُنَا: مَتَىٰ بَدَا الانْهِزَامُ النَّفْسِي عِنْدَ أكْثَرِ المُسْلِمِيْنَ اليَوْمَ لاسِيَّما أنْصارِ (الفِكْرِ التَّرْبَويِّ)؟ ومَا جُذُوْرُهَا الأوْلىٰ؟

ولَنَا؛ قَبْلَ أنْ نَمُدَّ أيْدِي الدِّرَاسَةِ إلىٰ مَعْرِفَةِ بِدَايَاتِ ظَاهِرَةِ الهَزِيْمَةِ النَّفْسِيَّةِ عِنْدَ أكْثَرِ دُعَاةِ المُسْلِمِيْنَ اليَوْمَ، كَانَ لَنَا أنْ نَقِفَ ولَوْ بشَيءٍ مِنَ الاخْتِصَارِ مَعَ تَارِيْخِ نُشُوْءِ الفِرَقِ المُنْتَسِبَةِ إلىٰ الإسْلامِ؛ لأنَّ ظُهُوْرَ هَذِهِ الفِرَقِ في تَارِيْخِ الأمَّةِ كَانَ سَبَبًا رَئِيْسًا في وُجُوْدِ هَذِهِ الهَزِيْمَةِ النَّفْسِيَّةِ المَاحِقَةِ الشَّاقَّةِ في عَقَائِدِ وأخْلاقِ المُسْلِمِيْنَ أخَادِيْدَ غَائِرَةً، فإلىٰ المَوْعُوْدِ، والله خَيْرُ مَقْصُوْدٍ.

❑ ❑ ❑

الفَصْلُ الثَّاني

تَارِيْخُ بِدَايَاتِ الفِرَقِ

أَمَّا بِدَايَات نَشْأةِ الفِرَقِ المُنْتَسِبَةِ إلىٰ الإسْلامِ؛ فَتَارِيْخٌ طَوِيْلٌ لمَنْ أرَادَ تَتبُّعَ تَفَاصِيْلِهِ، وبَحْثٌ عَرِيْضٌ لمَن رَامَ دِرَاسَتَهُ دِرَاسَةً وَافِيَةً، ولكِنْ كَما قِيْلَ: يَكْفِي مِنَ القِلادَةِ مَا أحَاطَ بالعُنُقِ!

❑ فَهَذِهِ وَمَضَاتٌ مُخْتَصَرَةٌ تُضِيءُ لَنَا الطَّرِيْقَ في بَيَانِ نَشْأةِ الفِرَقِ علىٰ وَجْهِ الاخْتِصَارِ، وذَلِكَ مِنْ خِلالِ ثَمانِ مَرَاحِلَ:

❑ **المَرْحَلَةُ الأوْلىٰ**: مَضَىٰ الرَّعِيْلُ الأوَّلُ مِنَ الصَّحَابَةِ في ضَوْءِ نُوْرِ الرِّسَالَةِ، لم تُطْفِئْهُ عَوَاصِفُ الأهْوَاءِ، ولم تَلْتَبِسْ بِهِ ظُلَمُ الآرَاءِ.

ثُمَّ نَجِدُهُم قَدْ أوْصَوْا مَنْ بَعْدَهُم أنْ لا يُفَارِقُوا النُّوْرَ الَّذِي اقْتَبَسُوْهُ مِنْهُم وأنْ لا يَخْرُجُوا عَنْ طَرِيْقِهِم، فَلَّما كَانَ في أوَاخِرِ عَصْرِ الصَّحَابَةِ حَدَثَتِ: الشِّيْعَةُ، والخَوَارِجُ، والقَدَرِيَّةُ، والمُرْجِئَةُ، فَبَعَدُوا عَنِ النُّوْرِ الَّذِي كَانَ عَلَيْهِ أوَائِلُ الأئِمَّةِ، ومَعَ هَذَا فَلَمْ يُفَارِقُوْهُ بالكُلِّيَّةِ؛ بَلْ كَانُوا للنُّصُوْصِ مُعَظِّمِيْنَ، وبِهَا مُسْتَدِلِّيْنَ ولهَا علىٰ العُقُوْلِ والآرَاءِ مُقَدِّمِيْنَ، ولم يَدَّعِ أحَدٌ مِنْهُم أنَّ عِنْدَهُ عَقْلِيَّاتٍ تُخَالِفُ النُّصُوْصَ، وإنَّما أُتُوا مِنْ سُوْءِ الفَهْمِ فِيْهَا، والاسْتِبْدَادِ بما ظَهَرَ لهُم مِنْهَا، دُوْنَ مَنْ قَبْلَهُم، ورَأوا أنَّهم إنْ اقْتَفُوا أثَرَهُم كَانُوا مُقَلِّدِيْنَ لهُم، فَصَاحَ بِهِم مَنْ أدْرَكَهُم مِنَ الصَّحَابَةِ وكِبَارِ التَّابِعِيْنَ، مِنْ كُلِّ

قُطْرٍ، ورَمَوْهُم بالعَظَائِمِ وتبرَّؤوا مِنْهُم، وحَذَّرُوا مِنْ سَبِيْلِهِم أشَدَّ التَّحْذِيْرِ، ولا يَرَوْنَ السَّلامَ عَلَيْهِم ولا مُجالَسَتَهُم، في غَيْرِهَا مِنَ الهَجْرِ والتَّحْذِيْرِ.

وأهْلُ الأهْوَاءِ والبِدَعِ في هَذِهِ المَرْحَلَةِ هُمْ أقْرَبُ إلىٰ الحَقِّ ممَّنْ يَلِيْهِم، وذَلِكَ أنَّ عِنْدَهُم تَعْظِيمًا للنُّصُوْصِ، واسْتِدْلالًا بِها، وتَقْدِيْمًا لَهَا علىٰ العُقُوْلِ والآرَاءِ.

كَما أنَّ الإسْلامَ في هَذِهِ المَرْحَلَةِ كَانَ في مَنَعَةٍ وقُوَّةٍ، لقُرْبِهِم مِنْ صَدْرِ الإسْلامِ، ووُجُوْدِ القُرُوْنِ المُفَضَّلَةِ، الَّتِي اسْتَطَاعَتْ بفَضْلِ الله مُحَارَبَتَهُم ومُحَاوَرَتَهُم بشَتَّىٰ الوَسَائِلِ؛ حَتَّىٰ انْطَفَأتْ بِدْعَتُهُم، وظَهَرَ الحَقُّ، والحَمْدُ لله.

* * *

❑ **المَرْحَلَةُ الثَّانِيَةُ**: ثُمَّ جاءَتِ الجَهمِيَّةُ في أوَاخِرِ عَصْرِ التَّابِعِيْنَ فَكَانُوا هُمْ أوَّلَ مَنْ عَارَضَ الوَحْيَ بالرَّأيِ، ومَعَ هَذَا كَانُوا قَلِيْلِيْنَ، مَقْمُوْعِيْنَ مَذْمُوْمِيْنَ عِنْدَ الأئِمَّةِ، فَأوَّلُهُم شَيْخُهُم: الجَعْدُ بنُ دِرْهَمٍ المُتَوَفَّىٰ سَنَةَ (١١٨)، وإنَّما نَفَقَ عِنْدَ النَّاسِ بَعْضَ الشَّيءِ لأنَّه كَانَ مُعَلِّمَ مَرْوَانَ بنِ مُحمَّدٍ وشَيْخَهُ، وعلىٰ رَأسِهِ سَلَبَ الله بَنِي أُمَيَّةَ المُلْكَ والخِلافَةَ، وشَتَّتَهُم في البِلادِ ببَرَكَةِ شَيْخِ المُعَطِّلَةِ النُّفَاةِ، فَلَمَّا اشْتَهَرَ أمْرُهُ في المُسلِمِيْنَ طَلَبَهُ خَالِدُ بنُ عَبْدِالله القَسْرِيُّ المُتَوَفَّىٰ (١٢٦)، وكَانَ أمِيْرًا علىٰ العِرَاقِ حَتَّىٰ ظَفَرَ بِهِ، فَخَطَبَ النَّاسَ في يَوْمِ عِيْدِ الأضْحَىٰ، وكَانَ آخِرَ مَا قَالَهُ في خُطْبَتِهِ: أيُّهَا النَّاسُ ضَحُّوْا تَقَبَّلَ الله ضَحَايَاكُم فَإنِّي مُضَحٍّ بالجَعْدِ بنِ دِرْهَمَ؛ فإنَّهُ زَعَمَ أنَّ الله لم يُكَلِّمْ مُوْسَىٰ تَكْلِيْمًا، ولم يَتَّخِذْ إبْرَاهِيْمَ خَلِيْلًا، تَعَالىٰ الله عَمَّا يَقُوْلُ

الجَعْدُ بنُ دِرْهَمَ عُلُوًّا كَبِيْرًا(١)!

ثُمَّ نَزَلَ فَذَبَحَهُ في أصْلِ المِنْبَرِ، ثُمَّ طُفِئَتْ تِلْكَ البِدْعَةُ، فَكَانَتْ كَأَنَّها حَصَاةٌ رُمِيَ بِها، والنَّاسُ إِذْ ذَاكَ عُنُقٌ وَاحِدٌ: إنَّ الله فَوْقَ سَماوَاتِهِ علىٰ عَرْشِهِ، بَائِنٌ مِنْ خَلْقِهِ، مَوْصُوْفٌ بِصِفَاتِ الكَمالِ، ونُعُوْتِ الجَلالِ، وأنَّهُ كَلَّمَ عَبْدَهُ ورَسُوْلَهُ مُوْسَىٰ تَكْلِيْمًا، وتَجلَّىٰ للجَبَلِ فَجَعَلَهُ دَكًّا هَشِيْمًا.

وأنَّ الله يُوْصَفُ بِما وَصَفَ بِهِ نَفْسَهُ في الكِتَابِ والسُّنَّةِ كَما يَلِيْقُ بِهِ تَعَالىٰ: مِنْ غَيْرِ تَحْرِيْفٍ ولا تَعْطِيْلٍ، ومِنْ غَيْرِ تَكْيِيْفٍ ولا تَمْثِيْلٍ.

* * *

❑ المَرْحَلَةُ الثَّالِثَةُ: حَتَّىٰ كَانَ أوَّلُ المائَةِ الثَّالِثَةِ، وَلِيَ علىٰ النَّاسِ عَبْدُ الله المأمُوْنُ المُتَوَفَّىٰ سَنَةَ (٢١٨)، وكَانَ يُحِبُّ أنْوَاعَ العُلُوْمِ، وكَانَ مَجْلِسُهُ عَامِرًا بأنْوَاعِ المُتَكَلِّمِيْنَ في العُلُوْمِ، فَغَلَبَ عَلَيْهِ حُبُّ المَعْقُولاتِ!

فَأَمَرَ عِنْدَهَا بتَعْرِيْبِ كُتُبِ اليُوْنَانِ، وأقْدَمَ لهَا المُتَرْجِمِيْنَ مِنَ البِلادِ فَعُرِّبَتْ، واشْتَغَلَ بِها النَّاسُ، والمُلْكُ سُوْقٌ مَا سُوْقَ فِيْهِ جُلِبَ إلَيْهِ، فَغَلَبَ علىٰ مَجْلِسِهِ جَمَاعَةٌ مِنَ الجَهْمِيَّةِ مِمَّنْ كَانَ أبُوْهُ هَارُوْنُ الرَّشِيْدُ قَدْ أقْصَاهُم، وتَبِعَهُم بالحَبْسِ والقَتْلِ، فَحَشُوا بِدْعَةَ التَّجَهُّمِ في أُذُنِهِ وقَلْبِهِ فَقَبِلَهَا، واسْتَحْسَنَهَا ودَعَا النَّاسَ إلَيْهَا، وعَاقَبَهُم عَلَيْهَا فَلَمْ تَطُلْ مُدَّتُهُ.

فَصَارَ الأمْرُ بَعْدَهُ للمُعْتَصِمِ المُتَوَفَّىٰ سَنَةَ (٢٢٧)، وهُوَ الَّذِي ضَرَبَ الإمَامَ

(١) وفي سَنَدِ هَذِهِ القِصَّةِ مَقَالٌ، لَيْسَ هَذَا مَحلَّ بَسْطِهَا.

أحمَدَ بنَ حَنْبَلٍ، فَقَامَ بالدَّعْوَةِ بَعْدَهُ، والجَهمِيَّةُ تُصَوِّبُ فِعْلَهُ، وتَدْعُوْهُ إِلَيْهِ، وتُخْبِرُهُ: أنَّ ذَلِكَ هُوَ تَنْزِيْهُ الرَّبِّ عَنِ التَّشْبِيْهِ والتَّمْثِيْلِ والتَّجْسِيْمِ، وهُم الَّذِيْنَ غَلَبُوا علىٰ قُرْبِهِ، ومَجْلِسِهِ، والقُضاةُ والوُلاةُ مِنْهُم، فَإِنَّهُم تَبَعٌ لمُلُوْكِهِم.

ومَعَ هَذَا فَلَمْ يَكُوْنُوا يَتَجَاسَرُوْنَ علىٰ إلْغَاءِ النُّصُوْصِ، وتَقْدِيْمِ الآرَاءِ والعُقُوْلِ عَلَيْهَا، فَإِنَّ الإسْلامَ كَانَ في ظُهُوْرٍ وقُوَّةٍ، وسُوْقَ الحَدِيْثِ نَافِقَةٌ، ورُؤُوْسَ السُّنَّةِ علىٰ ظَهْرِ الأرْضِ.

ولكِنَّ الجَهمِيَّةَ لمَّا غَلَبَتْ وظَهَرَتْ قَامُوا بَأخْذِ النَّاسِ بالرَّغْبَةِ والرَّهْبَةِ فمِنْ بَيْنِ أعْمَىٰ مُسْتَجِيْبٍ، ومِنْ بَيْنِ مُكْرَهٍ مُقَيَّدٍ نَفْسَهُ مِنْهُم بإعْطَاءِ مَا سَألُوْهُ، وقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بالإيمانِ، وثَبَّتَ الله أقْوَامًا، جَعَلَ قُلُوْبَهُم في نُصْرَةِ دِيْنِهِ أقْوَىٰ مِنَ الصَّخْرِ، وجَعَلَهُم أئِمَّةً يُقْتَدَىٰ بِهِمُ المُؤمِنُوْنَ لمَّا صَبَرُوا وكَانُوا بآيَاتِهِ يُوْقِنُوْنَ، فَصَبَرُوا مِنَ الجَهمِيَّةِ علىٰ الأذَىٰ الشَّدِيْدِ، ولم يَتْرُكُوا سُنَّةَ رَسُوْلِ الله ﷺ لِمَا أرْغَبُوْهُم بِهِ مِنَ الوَعْدِ، ومَا تَهَدَّدُوْهُم بِهِ مِنَ الوَعِيْدِ!

فَكَانَ علىٰ رَأسِ هَؤلاءِ الأئِمَّةِ الثَّابِتِيْنَ: إمَامُ أهْلِ السُّنَّةِ والجَماعَةِ أحْمَدُ بنُ حَنْبَلٍ رَحِمَهُ اللهُ المُتوَفَّىٰ سَنَةَ (٢٤١)، ثُمَّ أطْفَأ الله برَحْمَتِهِ تِلْكَ الفِتْنَةَ، وأخْمَدَ تِلْكَ الكَلِمَةَ، ونَصرَ السُّنَّةَ نَصْرًا عَزِيْزًا، وفَتَحَ لأهْلِهَا فَتْحًا مُبِيْنًا، ودُعِيَ إِلَيْهَا في كُلِّ بَادٍ وحَاضِرٍ، وصُنِّفَ في ذَلِكَ الزَّمَانِ في السُّنَّةِ مَا لا يُحْصِيْهِ إلَّا الله!

* * *

❑ **المَرْحَلَةُ الرَّابِعَةُ:** ثُمَّ انْقَضَىٰ ذَلِكَ العَصْرُ وأهْلُهُ مِنْ أهْلِ السُّنَّةِ والجماعَةِ، وقَامَ بَعْدَهُم ذُرِّيَّتُهُم يَدْعُوْنَ إلىٰ كِتَابِ الله وسُنَّةِ رَسُوْلِهِ ﷺ علىٰ

بَصِيْرَةٍ إلىٰ أنْ جَاءَ مَا قِبَلَ لأحَدٍ بِهِ، وهُمْ جُنُوْدُ إبْلِيْسٍ حَقًّا المُعَارِضُوْنَ لما جَاءَتْ بِهِ النُّصُوْصُ بعُقُوْلِهم وآرَائِهِم مِنَ القَرَامِطَةِ والبَاطِنيَّةِ والعُبَيْدِيَّةِ والفَاطِمِيَّةِ والمَلاحِدَةِ!

فكَانَتْ دَعْوَتُهُم إلىٰ العَقْلِ المُجَرَّدِ، وأنَّ أُمُوْرَ الرُّسُلِ ومَا جَاءوا بِهِ تُعَارِضُ المَعْقُوْلَ، فَادَّعُوا أنَّهُم: هُمَ القَائِمُوْنَ بِهَذِهِ الطَّرِيْقَةِ حَقَّ القِيَامِ بالقَوْلِ والفِعْلِ، فَجَرَىٰ علىٰ الإسْلامِ وأهْلِهِ مِنْهُم مَا جَرَىٰ، وكَسَرُوا عَسْكَرَ الخَلِيْفَةِ مِرارًا، وقَتَلُوا الحُجَّاجَ قَتْلًا ذَرِيْعًا، وانْتَهَكُوا حُرْمَةَ مَكَّةَ، وقَلَعُوا الحَجَرَ الأسْوَدَ، واسْتَفْحَلَ أمْرُهُم، وعَظُمَتْ بِهِمُ الرَّزِيَّةُ، واشْتَدَّتْ بِهِمُ البَلِيَّةُ!

* * *

وأصْلُ طَرِيْقَتِهِم أنَّ العَقْلَ عِنْدَهُم (زعموا) قَدْ عَارَضَ مَا جَاءتْ بِهِ الرُّسُلُ، وإذَا تَعَارَضَ العَقْلُ والنَّقْلُ قَدَّمُوا العَقْلَ، وفي زَمَانِهِم اسْتَولَىٰ الكُفَّارُ علىٰ كَثِيْرٍ مِنْ بِلادِ الإسْلامِ في الشَّرْقِ والغَرْبِ، وكَادَ الإسْلامُ أنْ يَنْهَدَّ رُكْنُهُ بَعْدَ أنِ اسْتَولَىٰ أهْلُهَا علىٰ كَثِيْرٍ مِنَ البِلادِ، لاسِيَّما مَدِيْنَةُ القَاهِرَةِ الَّتِي بَنَوْهَا؛ حَيْثُ صَرَّحُوا بِبِدْعَتِهِم هُمْ ووُلاتُهُم وقُضَاتُهُم وأتْبَاعُهُم، وصُنِّفَ في زَمَانِهِم «رَسَائِلُ إخْوَانِ الصَّفَا»، و«الإرْشَادَاتُ»، و«الشِّفَا»، وكُتُبُ ابنِ سِيْنَا المُتَوَفَّىٰ سَنَةَ (٤٢٨)، فَإنَّه قَالَ عَنْ نَفْسِهِ: كَانَ أبِي مِنْ أهْلِ الدَّعْوَةِ الحَاكِمِيَّةِ!

وعُطِّلَتْ في زَمَانِهِم السُّنَّةُ والآثَارُ جُمْلَةً إلَّا في الخِفْيَةِ، بحَيْثُ يَكُوْنُ

قَارِئُها وذَاكِرُهَا وكَاتِبُهَا علىٰ أعْظَمِ خَطرٍ، فَأهْلُ السُّنَّةِ فِيْهِم كأهْلِ الذِّمَّةِ بَيْنَ المُسْلِمِيْنَ، بَلْ كَانَ لأهْلِ الذِّمَّةِ مِنَ الأمَانِ والجَاهِ والعِزِّ عِنْدَهُم مَا لا يَصِلُ إلَيْهِ أحَدٌ مِنْ أهْل السُّنَّةِ ولا يَطْمَعُ فِيْهِ!

حَتَّىٰ اسْتَنْقَذَ الله الأمَّةَ والمِلَّةَ مِنْ أيْدِيْهِم في أيَّامِ نُوْرِ الدِّيْنِ زَنْكِي المُتَوَفَّىٰ سَنَةَ (٥٦٩)، وابنِ أخِيْهِ صَلاحِ الدِّيْنِ الأيُّوبيِّ المُتَوَفَّىٰ سَنَةَ (٥٨٩)، فَظَهَرَ الإسْلامُ وانْتَعَشَ بَعْدَ طُوْلِ خُمُوْلٍ، وعَلَتْ كَلِمَةُ الإسْلامِ والسُّنَّةِ، وأُذِّنَ بِها علىٰ رُؤوْسِ الأشْهَادِ، واسْتُنْقِذَ بَيْتُ المَقْدِسِ مِنْ عَبَدَةِ الصَّلِيْبِ، ونَادَىٰ المُنَادِي يَا عِبَادَ الله لا تَنْكِلُوا عَنِ الجِهَادِ فَإنَّه أبْلَغُ الزَّادِ لِيَوْمِ المَعَادِ.

وهَذِهِ المَرْحَلَةُ: هِيَ أمَرُّ وأنْكَىٰ مِنَ المَرَاحِلِ السَّابِقَةِ، لما فِيْهَا مِنْ تَعْطِيْلِ النُّصُوْصِ الشَّرْعِيَّةِ، وإلْغَاءِ ظَوَاهِرِهَا!

* * *

❑ **المَرْحَلَةُ الخَامِسَةُ**: فَعَاشَ النَّاسُ في ذَلِكَ النُّوْرِ مُدَّةً؛ حَتَّىٰ اسْتَوْلَتِ الظُّلْمَةُ علىٰ بِلادِ المَشْرِقِ، وطُفِئ نُوْرُ النُّبُوَّةِ والوَحْيِ، وقُدِّمَتِ العُقُوْلُ والآرَاءُ والسِّيَاسَةُ والأذْوَاقُ علىٰ الوَحْيِ، فَظَهَرَتْ فِيْهِمُ الفَلْسَفَةُ والمِنْطِقُ وتَوَابِعُهَا، فَبَعَثَ الله عَلَيْهِم عِبَادًا أُوْلِي بَأسٍ شَدِيدٍ فَجَاسُوا خِلالَ الدِّيَارِ، وعَاثُوا في القُرَىٰ والأمْصَارِ، وكَادَ الإسْلامُ أنْ يَذْهَبَ اسْمُهُ ويَنْمَحِي رَسْمُهُ، وهُوَ مَا حَدَثَ في القَرْنِ السَّابعِ الهِجْرِيِّ مِنَ الاجْتِيَاحِ المَغُولِيِّ التَّتَرِيِّ الغَاشِمِ لأمَّةِ الإسْلامِ، حَيْثُ أغَارُوا علىٰ عَاصِمَةِ الإسْلامِ بَغْدَادَ آنَذَاكَ عَامَ (٦٥٦)؛ حَيْثُ أهْلَكُوا الحَرْثَ والنَّسْلَ، وعَثَوْا في الأرْضِ فَسَادًا، واجْتَاحُوا مَدِيْنَةَ الخِلافَةِ، وقَتَلُوا خَلِيْفَةَ المُسْلِمِيْنَ، وأصِيْبَ فِيْهَا

المُسْلِمُوْنَ كُلَّ مُصِيْبَةٍ، حَتَّىٰ أصْبَحَتْ عَارًا في جَبِيْنِ الأُمَّةِ إلىٰ قِيَامِ السَّاعَةِ، فَعِنْدَهَا بَكَىٰ التَّارِيْخُ وتبَاكَىٰ المُؤرِّخُوْنَ المُسْلِمُوْنَ مِنْهُمْ والكَافِرُوْنَ، لِهَذَا الغَزْوِ المَغُوليِّ البَرْبَرِيِّ الوَحْشِيِّ، الَّذِي لم يَنْظُرْ للإسْلامِ حُرْمَةً، ولا للإنْسَانِيَّةِ حَقًّا، ولا للعِلْمِ صُوْنًا!

ولَيْسَ هُنَا؛ مَحلَّ بَسْطِ وَقَائِعِ وفَجَائِعِ هَذَا الغَزْوِ المَغُوليِّ؛ وحَسْبُكَ مَا كَتَبَهُ ابنُ الأثِيرِ رَحِمَهُ اللهُ في كِتَابِهِ العُجَابِ «الكَامِلِ في التَّارِيْخِ»؛ حَيْثُ أرَّخَ كَوَائِنَ وحَوَادِثَ هَذَا الغَزْوِ البَرْبَرِيِّ بِمَا لم يُؤرِّخْهُ مُؤرِّخٌ، حَيْثُ بَكَىٰ وأبْكَىٰ، فَدُوْنَكَ إيَّاهُ غَضًّا طَرِيًّا قَدْ مُزِجَ بحَرَارَةِ قَلَمِ مُؤلِّفِهِ ودُمُوْعِ عَيْنِهِ!

* * *

وكَانَ عَالِمُ هَذِهِ الفِرْقَةِ البَاطِنِيَّةِ المَغُولِيَّةِ الَّذِي يَرْجِعُوْنَ إلَيْهِ، وزَعِيْمُهُم الَّذِي يَصْدِرُوْنَ عَنْهُ، وشَيْخُ شُيُوْخِ المُعَارِضِيْنَ بَيْنَ الوَحْي والعَقْلِ، وإمَامُهُم في وَقْتِهِ: نَصِيْرَ الكُفْرِ والشِّرْكِ أبَا جَعْفَرٍ محمَّدًا نَصِيرَ الدِّيْنِ الطُّوسِيَّ المُتَوَفَّىٰ سَنَةَ (٦٧٢) لا رَحِمَ الله فِيْهِ مَغْرزَ إبْرَةٍ، فَرَامَ إبْطَالَ الكِتَابِ والسُّنَّةِ بالكُلِّيَّةِ، وإقَامَةَ الدَّعْوَةَ الفَلْسَفِيَّةَ، وجَعَلَ كِتَابَ «الإشَارَاتِ» بَدَلًا عَنِ السُّوَرِ والآيَاتِ، وقَالَ: هَذِه عَقْلِيَّاتٌ قَطْعِيَّةٌ بُرْهَانِيَّةٌ قَدْ عَارَضَتْ تِلْكَ النَّقْلِيَّاتِ الخِطَابِيَّةَ، واسْتَعْرَضَ أهْلَ القُرْآنِ والسُّنَّةِ علىٰ السَّيْفِ فَلَمْ يُبْقِ مِنْهُم إلَّا مَنْ أعْجَزَهُ قَصْدًا، لإبْطَالِ الدَّعْوَةِ الإسْلامِيَّةِ، وجَعَلَ مَدَارِسَ المُسْلِمِيْنَ وأوْقَافَهُم للنَّجِسَةِ السَّحَرَةِ والمُنَجِّمِيْنَ والفَلاسِفَةِ والمَلاحِدَةِ والمَنْطِقِيِّيْنَ!

ورَامَ إبْطَالَ الأذَانِ، وتَحْوِيْلَ الصَّلاةِ إلىٰ القُطْبِ الشَّماليِّ، فَحَالَ بَيْنَهُ

وبَيْنَ ذَلِكَ أُوْلي بَقِيَّةٍ مِنْ أَهْلِ السُّنَّةِ؛ حَيْثُ حَفِظَ الله بِهِمُ الإسْلامَ وأهْلَهُ، وهَذَا كُلُّهُ كَانَ بسَبَبِ المُعَارِضِيْنَ بَيْنَ الوَحْي والعَقْلِ، وتَقْدِيْمِ العَقْلِ علىٰ النَّقْلِ!

* * *

ولْتَكُنْ قِصَّةُ الطُّوسِي شَيْخِ هَؤلاءِ البَاطِنِيِّيْنَ مِنْكَ علىٰ ذُكْرٍ كُلَّ وَقْتٍ؛ فَإنَّه أوَّلُ مَنْ عَارَضَ بَيْنَ العَقْلِ والنَّقْلِ، ووَرِثَ هَذِهِ المُعَارَضَةَ مِنَ هَذَا الشَّيْخِ الضالِّ الزِّنْدِيْقِ تَلامِذَتُهُ مِنْ بَعْدِهِ، فَلَمْ يَزَلْ يَجْرِي علىٰ أتْبَاعِ الأنْبِيَاءِ مِنْهَا كُلُّ مِحْنَةٍ وبَلِيَّةٍ، وأَصْلُ كُلِّ بَلِيَّةٍ في العَالَمِ. كَما قَالَ محَمَّدٌ الشَّهْرَسْتَانيُّ . مِنْ مُعَارَضَةِ النَّصِّ بالرَّأي، وتَقْدِيْمِ الهَوَىٰ علىٰ الشَّرْعِ!

ثُمَّ إنَّهُ خَرَجَ مَعَ هَذَا الشَّيْخِ الضَّالِّ المُتَأخِّرِ أشْيَاءُ لم تَكُنْ تُعْرَفُ قَبْلَهُ: مِثْلُ «حَقَائِقِ» ابنِ عَربيٍّ الطَّائِيِّ المُتَوَفَّىٰ سَنَةَ (٦٣٨)، و«تَشْكِيْكَاتِ» الرَّازِي فَخْرِ الدِّيْنِ المُتَوَفَّىٰ سَنَةَ (٦٠٦)، وقَامَ سُوْقُ الفَلْسَفَةِ والمَنْطِقِ وعُلُوْمِ أعْدَاءِ الرُّسُلِ، حَتَّىٰ فَرِحُوا وصَارتِ الدَّوْلَةُ والدَّعْوَةُ لأرْبَابِ العُلُوْمِ!

* * *

ومَهْمَا يَكُنْ مِنْ خَبَرٍ؛ فَإنَّ غَزْوًا مِثْلَ هَذَا الغَزْوِ المَغُوليِّ كَانَ إيْذَانًا بانْهِيَارِ السَّدِّ النَّفْسي لَدَىٰ كَثِيرٍ مِنَ المُسْلِمِيْنَ، لكِنَّهُ لم يُؤَدِّ رُغْمَ فَظَاعَتِهِ وشَرَاسَتِهِ إلىٰ اسْتِئْصَالِ شَجَرَةِ الإيْمانِ مِنْ سَائِرِ قُلُوْبِ الأمَّةِ، ولم يَقْضِ علىٰ رَكِيْزَةِ العَقَائِدِ والأخْلاقِ الضَّارِبَةِ بجُذُوْرِهَا في عُمْقِ الكَيَانِ الإسْلامِيِّ!

ومَا ذَاكَ إِلَّا أَنَّ العَدُوَّ كَانَ وَاضِحَ العَدَاءِ، نَافِقَ الكُفْرِ والفَسَادِ، ولم يَكُنْ آنَذَاكَ إِلَّا فِسْطَاطَيْنِ: مُؤمِنٌ وكَافِرٌ!

ثُمَّ نَظَرَ الله لعِبَادِه، وانْتَصَرَ لكِتَابِهِ ودِيْنِهِ، وأقَامَ جُنْدًا تَغْزُو مُلُوْكَ هَؤلاءِ بالسَّيْفِ والسِّنَانِ، وجُنُوْدًا تَغْزُو عُلَماءَهُم بالحُجَّةِ والبُرْهَانِ.

ثُمَّ نَبَغَتْ نَابِغَةٌ مِنْهُم في رَأسِ القَرْنِ الثَّامِنِ، فَأقَامَ الله لدِيْنِهِ: شَيْخَ الإسْلامِ أبَا العَبَّاسِ أحمَدَ ابنَ تَيْمِيَّةَ ﵀ المُتَوَفَّىٰ سَنَةَ (٧٢٨)، فَأقَامَ علىٰ غَزْوِهِم مُدَّةَ حَيَاتِهِ باليَدِ والقَلْبِ واللِّسَانِ، وكَشَفَ للنَّاسِ بَاطِلَهُم، وبَيَّنَ تَلْبِيْسَهُم وتَدْلِيْسَهُم، وقَابَلَهُم بصَحِيْحِ المَنْقُوْلِ وصَرِيْحِ المَعْقُوْلِ، وشَفَىٰ واسْتَشْفَىٰ، وبَيَّنَ مُنَاقَضَتَهُم ومُفَارَقَتَهُم لحُكْمِ العَقْلِ الَّذِي بِهِ يَدُلُّوْنَ وإلَيْهِ يَدْعُوْنَ، وأنَّهُم أتْرَكُ النَّاسِ لأحْكَامِهِ وقَضَايَاهُ، فَلا وَحِيٌ ولا عَقْلٌ، فَأرْدَاهُم في حُفَرِهِم، ورَشَقَهُم بسِهَامِهِم، وبَيَّنَ أنَّ صَحِيْحَ مَعْقُولاتِهِم خَدَمٌ لنُصُوْصِ الأنْبِيَاءِ، شَاهِدٌ لهَا بالصِّحَّةِ[1].

* * *

☐ **المَرْحَلَةُ السَّادِسَةُ:** وكَانَتْ في أوَاخِرِ القَرْنِ الثَّالِثَ عَشَرَ الهِجْرِيِّ: وهِيَ مَرْحَلَةُ الإغَارَةِ الأوْرُبِّيَّةِ في حُرُوْبِها الصَّلِيْبِيَّةِ علىٰ الأمَّةِ الإسْلامِيَّةِ، أو مَا يُسَمَّىٰ في أحَايِيْنَ كَثِيْرَةٍ: بالغَزْوِ الثَّقَافيِّ والفِكْرِيِّ الغَرْبيِّ لدِيَارِ الإسْلامِ، فَإنَّه في حَقِيْقَتِهِ يُعْتَبرُ المِعْوَلَ الَّذِي أتَىٰ علىٰ تِلْكَ البَقِيَّةِ البَاقِيَةِ مِنْ شَجَرَةِ

---

(١) انْظُرْ «الصَّوَاعِقَ المُرْسَلَةَ» لابنِ القَيِّمِ (٣/ ١٠٦٩-١٠٨٠) بِتَصَرُّفٍ، و«مَنْهَجَ ابنِ القَيِّمِ في الدَّعْوَةِ إلىٰ الله تَعَالىٰ» لأحمَدَ بنِ عبْدَ العَزِيزِ الخَلَفِ (٤٠٦).

الإيْمانِ، ورَكِيْزَةِ العَقَائِدِ والأخْلاقِ فَدمَّرَهَا تَدْمِيْرًا، وأهْلَكَ حَرْثَهَا بنَسْلِهَا، وذَلِكَ مَكْمَنُ خُطُوْرَتِهِ، وسِرُّ شَنَاعَتِهِ، بَلْ كَانَ في حَقِيْقَتِهِ: بِدَايَةَ النِّهَايَةِ؛ لَكِنَّ الله سَلَّمْ!

ومَعَ وُجُوْدِ الهَجْمَةِ الصَّلِيْبِيَّةِ، ومَا رَافَقَهَا مِنَ الفِرَقِ والنِّحَلِ الهَدَّامَةِ، والأيْدِي العَمِيْلَةِ المُنَافِقَةِ، إلَّا أنَّ بَقِيَّةَ أهْلِ العِلْمِ الرَّبَّانِيِّيْنَ لم تَزَلْ رَافِعَةً للحَقِّ أعْلامًا: في بَيَانِ الحَقِّ، وكَشْفِ البَاطِلِ، والله مِنْ وَرَائِهِم نَاصِرٌ ومُعِيْنٌ.

* * *

❑ فَهَذِهِ مَرْحَلَةُ الضَّعْفِ والهَوَانِ والذُّلِّ والبَلاءِ، وذَلِكَ عِنْدَمَا أغَارَ أهْلُ الصَّلِيْبِ الحَاقِدِ علىٰ الخِلافَةِ العُثْمانِيَّةِ، وذَلِكَ مِنْ خِلالِ هَجْمَتِهِمُ الحَاقِدَةِ الغَاشِمَةِ علىٰ بِلادِ المُسْلِمِيْنَ تَحْتَ مَا يُسَمَّىٰ: بالاسْتِعْمارِ الأوْرُبِّي، وهُوَ في حَقِيْقَتِهِ: الدَّمَارُ الصَّلِيْبِيُّ الحَاقِدُ!

❑ حَيْثُ اسْتَوْلَتْ فَرَنْسَا: علىٰ سُوْرِيَا، ولِبْنَانَ، وتُوْنِسَ، والجَزَائِرِ، والمَغْرِبِ.

❑ واسْتَوْلىٰ الإنْجِلِيْزُ: علىٰ العِرَاقِ، والأرْدُنِ، وفِلِسْطِيْنَ، ومِصْرَ، والسُّوْدَانِ وإمَارَاتِ الخَلِيْجِ العَرَبيِّ، واليَمَنِ.

❑ واسْتَوْلَتْ إيْطَالِيَةُ: علىٰ لِيْبِيَا.

* * *

وقَدْ نَشَأ عَنِ الاحْتِلالِ الأوْرُوبِّي الجَدِيْدِ نَتَائِجُ خَطِيْرَةٌ أثَّرَتْ: في مَنَاهِجِ التَّعْلِيْمِ والفِكْرِ وغَيْرِهَا.

فَكَانَتْ هَذِهِ المَرْحَلَةُ الحَاقِدَةُ المُدَمِّرَةُ، إِيْذَانًا صَارِخًا بتَحْطِيْمِ السَّدِّ النَّفْسِي عِنْدَ طَائِفَةٍ مِنَ المُسْلِمِيْنَ، حَيْثُ خَيَّمَتْ سَحَابَةُ التَّشَبُّهِ والتَّقْلِيْدِ والانْبِهَارِ، ومِنْ ورَائِهَا العَمالَةُ في وَلاءٍ للكُفَّارِ، والتَّنَكُّرُ مِنَ الانْتِسَابِ إلىٰ الإِسْلامِ في عَقَائِدِهِ وأحْكَامِهِ إلَّا مَا رَحِمَ الله!

وأخَذَ اليَأسُ والقُنُوْطُ مِنْ نَصْرِ الله تَعَالىٰ يَسْرِي في نُفُوْسِ كَثِيرٍ مِنْ أبْنَاءِ المُسْلِمِيْنَ، وعَادَتِ الجَاهِلِيَّةُ الأوْلىٰ جَذَعَةً في أكْثَرِ بِلادِ المُسْلِمِيْنَ، في أسَفٍ وحَسْرَةٍ مُعْتَلِجَانِ!

وكَانَتْ هَذِهِ المَرْحَلَةُ مَنَاخًا مُنَاسِبًا لنُمُوٍّ وانْتِشَارٍ وظُهُوْرِ كَثِيْرٍ مِنَ الطَّوَائِفِ والمَذَاهِبِ الَّتِي لا تُعَدُّ ولا تُحْصَىٰ، فَمِنْهَا:

فَتَاةُ تُرْكِيَا، والمَاسُوْنِيَّةُ، والعَلْمَانِيَّةُ، والقَوْمِيَّةُ العَرَبِيَّةُ، والبَعْثُ العَرَبِيُّ، والوَطَنِيَّةُ، والاشْتَرَاكِيَّةُ، والمَارِكْسِيَّةُ، والحَدَاثَةُ، وغَيْرُهَا كَثِيرٌ، لا كَثَّرَهُمُ الله!

* * *

ومَا أنْ آذنَنَا الاحْتِلالُ الصَّلِيْبِيُّ بالرَّحِيْلِ؛ حَتَّىٰ وَسَّدَ أمْرَ بَعْضِ بِلادِ المُسْلِمِيْنَ في أيْدِي عِصَابَةٍ مُنَافِقَةٍ قَدْ صُنِعُوا علىٰ أعْيُنِهِم، وتَخَرَّجُوا علىٰ أيْدِيْهِم، وتَخَلَّقُوا بأخْلاقِهِم، وأُشْرِبُوا أفْكَارَهُم وثَقَافَتَهُم، وفَوْقَ هَذَا كَانُوا مِنْ جِلْدَتِنَا ويَتَكَلَّمُوْنَ بألْسِنَتِنَا، ويَسْتَظِلُّوْنَ بسَمائِنَا!

* * *

فَعِنْدَهَا؛ تَغَيَّرَتْ حَقَائِقُ مِنَ الدِّيْنِ مَعْلُوْمَةٌ، والْتُبِسَ الحَقُّ بالبَاطِلِ، وعُطِّلَتْ أحْكَامُ الشَّرْيعَةِ في أكْثَرِ بِلادِ المُسْلِمِيْنَ، وتَغَرَّبَتْ أخْلاقُ المُسْلِمِيْنَ، وتَلَوَّثَتْ عَقَائِدُهُم، وأضْحَىٰ أكْثَرُ المُسْلِمِيْنَ في أمْرٍ مَرِيْجٍ؛ حَيْثُ زُيِّنَتْ لَهُمُ الشَّهَوَاتُ، ولُبِّسَتْ عَلَيْهِمُ الشُّبُهَاتُ، فَأصْبَحُوا صَرْعَىٰ: ذَلِكَ الغَزْوِ الفِكْرِيِّ، والضَّلالِ الخُلُقِيِّ، والانْهِزَامِ النَّفْسيِّ.

وحَسْبُكَ؛ أنَّ التَّنَازُعَ العَامَ بَيْنَ جَمَاعَاتِ المُسْلِمِيْنَ لم يَكُنْ إلَّا إبَّانَ هَذِهِ المَرْحَلَةِ الهَالِكَةِ، ولم تَأخُذِ الدُّوَيْلاتُ تَمرُّدَهَا واسْتِقْلالَهَا إلَّا في وَقْتِهَا، ولم تَرْتَسِمِ الحُدُوْدُ بَيْنَ المُسْلِمِيْنَ إلَّا فِيْهَا، فَعِنْدَئِذٍ كَانَ الصَّغَارُ والعَارُ والهَوَانُ والذِّلَّةُ!

إلَّا أنَّ الله تَعَالىٰ قَيَّضَ لهَذِهِ الأمَّةِ عُلَماءَ رَبَّانِيِّيْنَ مِنْ أهْلِ السُّنَّةِ والجَمَاعَةِ:

كشَيْخِ الإسْلامِ محَمَّدِ بنِ عَبْدِ الوَهَّابِ، والإمَامِ محَمَّدِ بنِ سُعُوْدٍ رَحِمَهُما الله، فَكَانَا دُعَاةَ إصْلاحٍ، ونَوَاةَ خَيْرٍ في قِيَامِ الدَّوْلَةِ السُّعُوْدِيَّةِ الأوْلىٰ علىٰ مَنْهَجِ السَّلَفِ الصَّالِحِ في تَحْقِيْقِ التَّوْحِيْدِ، ومُنَابَذَةِ الشِّرْكِ.

* * *

ومَعَ هَذَا إلَّا أنَّ الانْهِزَامَ النَّفْسيَّ قَدْ أخَذَ بحَيَاةِ أكْثَرِ المُسْلِمِيْنَ مَأخَذًا شَائِنًا، وطَبَعَهَا بطَابعٍ طَافِحٍ بالأخْطَارِ والآثَارِ والأضْرَارِ؛ حَيْثُ شَمِلَ أكْثَرَ مَنَاحِي الحَيَاةِ لَدَىٰ المُسْلِمِيْنَ، ومَا ذَاكَ إلَّا أنَّ الاحْتَلالَ الصَّلِيْبِيَّ الغَاشِمَ

يُعْتبَرُ وَقْتَئِذٍ فِتْنَةً هَوْجَاءَ عَاتِيَةً؛ حَيْثُ نَشَأَ فِيْهَا صَغِيْرُ المُسْلِمِيْنَ، وهَرَمَ فِيْهَا كَبِيْرُهُم، إلَّا مَا رَحِمَ الله!

* * *

☐ المَرْحَلَةُ السَّابِعَةُ: وهَذِهِ مِنْ أخْطَرِهَا إنْ لم تكُنْ أخْطرَهَا، وذَلِكَ عِنْدَمَا أُسْقِطَتِ الخِلافَةُ الإسْلامِيَّةُ في تُرْكِيَا عَامَ (١٣٤٣) علىٰ يَدِ الهَالِكِ مُصْطَفَىٰ كَمالِ أتَاتُوْرْكَ المَاسُونِيِّ رَبِيْبِ اليَهُوْدِ، فَعِنْدَهَا تَحارَبَ المُسْلِمُوْنَ مَعَ بَعْضِهِم بَعْضًا، وتَقَاتَلَ أبْنَاؤُهَا، وكَانَ أكْثَرُ حُكَّام المُسْلِمِيْنَ ألْعُوْبَةً في أيْدِي عَدُوِّهِم مِنْ دُوَلِ الاحْتِلالِ الصَّلِيْبيِّ، لاسِيَّما دَوْلَةِ الصَّلِيْبِ والانْحِلالِ والفَسَادِ والهَمَجِيَّةِ والبَرْبَرِيَّةِ والظُّلْمِ والقَهْرِ: أمْرِيْكَا!

* * *

وفِيْهَا خَرَجَتْ فِرَقٌ ومَذَاهِبُ بَاطِنِيَّةٌ لَيْستْ مِنَ الإسْلامِ في شَيءٍ، وعلىٰ رَأسِهَا:

البَهَائِيَّةُ، والقَادْيَانِيَّةُ، والأحمَدِيَّةُ، والقُرْآنِيُّوْنَ، والأحْبَاشُ في غَيْرِهَا مِنْ فِرَقِ الشِّيْعَةِ والصُّوْفِيَّةِ البَاطِنِيَّةِ.

كَما خَرَجَتْ أيْضًا جَماعَاتٌ وفِرَقٌ إسْلامِيَّةٌ ممَّنْ تُرِيْدُ أنْ تَنْهَضَ بالأمَّةِ، ولكِنْ علىٰ فِكْرِهَا ومَنَاهِجِها هِيَ!

وعلىٰ رَأسِهَا: جَماعَةُ (الإخْوَانَ المُسْلِمُونَ)، وجمَاعَةُ التَّبْلِيْغِ، وحِزْبُ التَّحْرِيْرِ، وجماعَةُ الجِهَادِ، وجمَاعَةُ الهِجْرَةِ والتَّكْفِيرِ، ومُنَظَّمَةُ أمَلٍ، وفَتْحٍ، وحِزْبُ الله (حِزْبُ الشَّيْطَانِ!) وغَيْرُهَا، كَما غَلَتِ الشِّيْعَةُ في رَفْضِهَا

وكُفْرِهَا، وغَلَتِ الصُّوْفِيَّةُ في بِدْعَتِهَا و بَاطِنِيَّتِهَا!

* * *

إلَّا أنَّ الله تَعالىٰ لا يَزَالُ يَغْرِسُ لهَذِهِ الأمَّةِ المَرْحُوْمَةِ عُلماءَ رَبَّانِيِّيْنَ، يَذُوْدُوْنَ عَنْ حِيَاضِهَا، ويُبيِّنُوْنَ الحَقَّ لهَا، ويَرَدُّوْنَ البَاطِلَ عَنْهَا، ومِنْ هَؤلاءِ:

أئِمَّةُ الدَّعْوَةِ، والإبْرَاهِيْمِيُّ، وابنُ بَادِيْسٍ، والخِضْرُ حُسَيْنٍ، والقَاسِمِيُّ، ومحَمَّدُ رَشِيْدُ رِضَا، والسَّعْدِيُّ، والأمِيْنُ الشِّنْقِيطِيُّ، وآلُ شَاكِرٍ، ومحمَّدٌ فَقِي، وابنُ بَازٍ، وابنُ عُثَيْمِيْنَ، والألْبَانيُّ وغَيْرُهُم كَثِيرٌ، ومَا زَالَتْ قَوَافِلُهُم تَتْرَىٰ، وجُهُوْدُهُم قَائِمَةٌ حَيَّةٌ!

* * *

❑ **المَرْحَلَةُ الثَّامِنَةُ**: وهِيَ مَا نَحْنُ فِيْهِ اليَوْمَ، ولليَوْمِ تَارِيْخٌ سَيأتي، ومِنْ ورَائِهِ مُؤرِّخُوْنَ يَتربَّصُوْنَ بِهِ، ويَنْتَظِرُوْنَ الدَّقَائِقَ والسَّاعَاتِ لكِتَابَتِهِ، لم يَحِنْ لهُم الوَقْتُ بَعْدُ، ومَا ذَاكَ إلَّا لحَاجَةٍ في أنْفُسِهِم لَيْسَ مِنَ الحِكْمَةِ، ولا مِنْ أمَانَةِ التَّارِيْخِ ذِكْرُهَا اليَوْمَ، ولكِنَّ الصُّبْحَ قَرِيْبٌ!

فَعِنْدَهَا ظَهَرَتْ جَمَاعَاتٌ ومَذَاهِبُ كَثِيْرَةٌ جِدًّا، فَكَانَ علىٰ رَأسِهَا خَمْسُ جَمَاعَاتٍ إسْلامِيَّةٍ، وهِيَ كَمَا يَلِي:

الحَرَكَاتُ الجِهَادِيَّةُ، وجَمَاعَةُ التَّبْلِيْغِ، وجَمَاعَةُ (الإخْوَانَ المُسْلِمُونَ)، ثُمَّ أهْلُ (التَّرْبِيَةِ)، ثُمَّ أدْعِيَاءُ السَّلَفِيَّةِ، وسَيَأتي الكَلامُ عَنْ هَذِه الجَمَاعَاتِ الثَّلاثِ الأخِيْرَةِ باخْتِصَارٍ في الفَصْلِ الآتي، إنْ شَاءَ الله.

* * *

أَمَّا إذَا سَأَلْتَ أخِي المُسْلِمُ عَنْ أَوَّلِ الجماعَاتِ الإسْلامِيَّةِ الَّتِي تَأَثَّرَتْ بـ(التَّرْبِيَةِ) الغَرْبِيَّةِ؛ بَلْ كَانَتْ أوَّلَ مَنْ نَطقَ وفَتَقَ (التَّرْبِيَة) في جِسْمِ الأمَّةِ الإسْلامِيَّةِ كمُصْطَلَحٍ حَادِثٍ: إنَّها الصُّوْفِيَّةُ، كَما هُوَ ظَاهِرُ عِلْمِي، بَعْدَ التَّتَبُّعِ والاسْتِقْرَاءِ، والله أعْلَمُ!

فَكَانَتِ التَّرْبِيَةُ عِنْدَهُم: سُلُوْكًا وأخْلاقًا أكْثَرَ مِنْ كَوْنِها مَنْهَجًا وظَاهِرَةً، لِذَا لم تكُنِ التَّرْبِيَةُ لَدَيْهِم فِكْرًا ذَا كُتُبٍ ومُنَظِّرِيْنَ؟!

وهَكَذَا بَقِيْتِ التَّرْبِيَةُ في زَوَايَا الصُّوْفِيَّةِ تُمَارَسُ بقَصْدِ تَحْسِيْنِ السُّلُوْكِ والجَمْعَةِ والتَّزْكِيَةِ والخَلْوَةِ؛ حتَّىٰ جَاءَتِ جَمَاعَةُ (الإخْوَانَ المُسْلِمُوْنَ) مُتَأثِّرَةً بالصُّوْفِيَّةِ في بَعْضِ طَرَائِقِهَا، فَكَانَ حَظُّهُم مِنَ (التَّرْبِيَةِ): أنَّهُم أشْهَرُوْهَا وأظْهَرُوْهَا كمَنْهَجٍ وظَاهِرَةٍ؛ حَيْثُ أخَذَتْ هَذِهِ الجَمَاعَةُ في نَشْرِ وبَعْثِ (التَّرْبِيَةِ) بَيْنَ مُرْشِدِيْهَا وأتْبَاعِهَا وشَبَابِها هُنَا وهُنَاكَ مَا يَقْطَعُ بِهَذَا، وكَذَا كَانَ عُلَماؤُهَا وكُتَّابُها هُمْ أوَّلَ مَنْ صَنَّفَ وألَّفَ عَنِ (التَّرْبِيَةِ)، بَلْ هُم أوَّلُ مَنْ حَاضَرَ ونَاظَرَ وخَطَبَ عَنِ (التَّرْبِيَةِ)، كَما هُوَ ظَاهِرُ عِلْمِهِم وعَمَلِهِم، مُنْذُ بِدَايَتِهِم إلىٰ يَوْمِنَا هَذَا، والوَاقِعُ شَاهِدٌ ومَشْهُوْدٌ!

* * *

(وشَاهِدُ ذَلِكَ أنَّ مُؤسِّسَ جماعَةِ (الإخْوَانَ المُسْلِمُونَ) هُوَ أوَّلُ مَنْ تكَلَّمَ وأشَادَ بـ (التَّرْبِيَةِ) الصُّوفِيَّةِ، وهَذَا مَا نَصَّ عَلَيْهِ الأسْتَاذُ الشَّهِيْدُ (نَحْسِبُهُ كَذَلِكَ) حَسَنُ البَنَّا رَحِمَهُ اللهُ رَحْمَةً وَاسِعَةً؛ إذْ يَقُوْلُ في «مُذَكِّرَاتِهِ»(٢٥): «فَكَانَتْ طَائِفَةٌ في النَّاسِ مَعْرُوْفَةً بهَذِهِ الدَّعْوَةِ إلىٰ ذِكْرِ الله واليَوْمِ الآخِرِ، والزَّهَادَةِ

في الدُّنْيَا، وتَرْبِيَةِ النُّفُوْسِ علىٰ طَاعَةِ الله وتَقْوَاهُ.

وطَرَأ علىٰ هَذِهِ الحَقَائِقِ مَا طَرأ علىٰ غَيْرِهَا مِنْ حَقَائِقِ المَعَارِفِ الإسْلامِيَّةِ، فأخَذَتْ صُوْرَةَ العِلْمِ الَّذِي يَنْظِمُ سُلُوْكَ الإنْسَانِ، ويَرْسُمَ لَهُ طَرِيْقًا لَهُ مِنَ الحَيَاةِ خَاصًّا: مَرَاحِلِ الذِّكْرِ والعِبَادَةِ ومَعْرِفَةِ الله ونِهَايَةِ الوُصُوْلِ إلىٰ الجَنَّةِ ومَرْضَاةِ الله.

وهَذَا القِسْمُ مِنْ عُلُوْمِ التَّصَوُّفِ، واسْمُهُ: «عُلُوْمُ التَّربِيَةِ والسُّلُوْكِ»، لا شَكَّ أنَّه مِنْ لُبِّ الإسْلامِ وصَمِيْمِهِ، ولا شَكَّ أنَّ الصُّوْفِيَّةَ قَدْ بَلَغُوا بِهِ مَرْتَبَةً مِنْ عِلاجِ النُّفُوْسِ ودَوَائِهَا، والطِّبِّ لهَا، والرُّقِيِّ بِها لم يَبْلُغْ إلَيْهَا غَيْرُهُم مِنَ المُرَبِّيْنَ، ولا شَكَّ أنَّهُم حَمَلُوا النَّاسَ بِهَذَا الأسْلُوْبِ علىٰ خِطَّةٍ عَمَلِيَّةٍ مِنْ حَيْثُ أدَاءِ فَرَائِضِ الله، واجْتِنَابِ نَوَاهِيْهِ، وصِدْقِ التَّوَجُّهِ إلَيْهِ، وإنْ كَانَ ذَلِكَ لم يَخْلُ مِنَ المُبَالَغَةِ في كَثِيرٍ مِنَ الأحْيَانِ تَأثُّرًا برُوْحِ العُصُوْرِ الَّتِي عَاشَتْ فِيْهَا هَذِهِ الدَّعْوَاتُ».

إلىٰ أنْ قَالَ رَحِمَهُ اللهُ: ولا شَكَّ أنَّ الأخْذَ بقَوَاعِدِ التَّصَوُّفِ في نَاحِيَةِ (التَّرْبِيَةِ والسُّلُوْكِ) لَهُ الأثَرُ القَوِيُّ في النُّفُوْسِ، ولِكَلامِ الصُّوْفِيَّةِ في هَذَا البَابِ صَوْلَةٌ لَيْسَ لكَلامِ غَيْرِهِم مِنَ النَّاسِ ... ولكِنَّ هَذَا الخَلْطَ أفْسَدَ كَثِيرًا مِنْ هَذِهِ الفَوَائِدِ، وقَضَىٰ عَلَيْهَا» انْتَهَىٰ.

وفي كَلامِهِ هَذَا رَحِمَهُ اللهُ مَا فِيْهِ مِنِ اسْتِدْرَاكَاتٍ ومَلْحُوْظَاتٍ عِلْمِيَّةٍ، لَيْسَ هَذَا مَحَلَّ بَسْطِهَا!

* * *

❑ ونَخْتِمُ مَدْخَلَ التَّأثُّرِ والتَّأْثِيرِ بالانْهِزَامِ النَّفْسي الجَاثِمِ علىٰ كَثِيرٍ مِنْ أنْصَارِ (الفِكْرِ التَّرْبَويِّ) هَذِهِ الأيَّامَ، وذَلِكَ مِنْ خِلالِ بَعْضِ الصُّوَرِ والوَقَائِعِ الَّتِي أخَذَتْ عِنْدَ بَعْضِ المُنْهَزِمِيْنَ مِنْ أبْنَاءِ المُسْلِمِيْنَ مَأخَذًا بَعِيْدًا، وبَوْنًا شَاسِعًا إلىٰ أرْضِ تِيْهٍ، ودَرْبِ غَيْهٍ، ومِنْ وَرَاءِ ذَلِكَ: تَجَاهُلٌ لِمَا عَلَيْهِ المُسْلِمُوْنَ مِنْ عَقِيْدَةٍ وأخْلاقٍ، وكَذَا تَغْيِيْبٌ وتَنَكُّرٌ لتَارِيْخِ الإسْلامِ، ومِنْ أمَامِهَا أيْضًا: تَصَاغرٌ وهَوَانٌ أمَامَ صَنَائِعِ الغَرْبِ الكَافِرِ، وإكْبَارٌ وإجْلالٌ لتَارِيْخِهِم البَائِرِ المُظْلِمِ، وهَكَذَا في غَيْرِ ضَلالٍ وإضْلالٍ مِنْ إفْرَازَاتِ الانْهِزَامِ النَّفْسِي!

هَذَا؛ إذَا عَلِمْنَا أنَّ صُوَرَ الانْهِزَامِ الَّتِي أخَذَتْ طَرِيْقَهَا في حَيَاتِنَا العِلْمِيَّةِ والعَمَلِيَّةِ مَعًا، لا تُحَدُّ ولا تُعَدُّ، لِذَا كَانَ مِنْ شَرْطِ كِتَابِنَا هُنَا أنْ نَقْتَصِرَ علىٰ بَعْضِهَا، فَمِنْ ذَلِكَ مَا يَلي:

الانْهِزَامُ الدَّعْوِيُّ، وظَاهِرَةُ الإعْجَازُ العِلْمِيُّ، وعِلْمُ الاجْتِماعِ، وعِلْمُ الطِّبِّ وغَيْرُهَا[١].

أمَّا مَا وَرَاءهَا مِنْ عُلُوْمٍ مَشْبُوْهَةٍ فَكَثِيرَةٌ جِدًّا: مِثْلُ عِلْمِ النَّفْسِ، وعِلْمُ الجُيُولُوْجِيَا، وعِلْمُ الهَيْئَةِ والفَلَكِ وغَيْرِهَا، ولَنَا مَعَ هَذِهِ العُلُوْمِ الطَّبِيْعِيَّةِ بَسْطُ ذِكْرٍ في رِسَالَةٍ أخْرَىٰ؛ إنْ شَاءَ الله.

❑ ❑ ❑

---

(١) لَقَدْ تَكَلَّمْتُ ولله الحَمْدُ والمنَّةُ: عَنْ ظَاهِرَةِ الإعْجَازِ العِلْمِيِّ، وعِلْمِ الاجْتِماعِ، وعِلْمِ الطِّبِّ بِشَيءٍ مِنَ البَسْطِ، حَيْثُ بَيَّنْتُ مَخَاطِرَهَا وآثَارَهَا علىٰ المُسْلِمِيْنَ لاسِيَّما المُنْبَهِرِيْنَ بِها، والله أسْألُ أنْ يُيَسِّرَ طَبْعَهَا قَرِيْبًا!

الفَصْلُ الثَّالِثُ
العِلاقَةُ بينَ جَمَاعَةِ (الإخْوَانَ المُسْلِمُونَ) وبَينَ أنْصَارِ (التَّربِيَةِ)، وأدْعِيَاءِ السَّلفِيَّةِ

لا شَكَّ أنَّ سُقُوْطَ الخِلافَةِ الإسْلامِيَّةِ في تُرْكِيَا عَامَ (١٣٤٣)، كَانَ مَنَاخًا مُنَاسِبًا، ومَسْرَحًا وَاسِعًا لظُهُورِ كَثِيرٍ مِنَ الجمَاعَاتِ والمَذَاهِبِ الإسْلامِيَّةِ، فكَانَ يَهِمُّنا مِنْهَا الآنَ ثَلاثُ جَماعَاتٍ؛ حَيْثُ خَرَجَتْ مِنْ رَحِمٍ وَاحِدٍ، إلَّا أنَّها جَاءَتْ بأفْكَارٍ، ومَنَاهِجَ مُتبَايِنَةٍ، مَا بَيْنَ مُسْتَقِلٍ مِنْهَا ومُسْتَكْثِرٍ: وهِيَ جماعَةُ (الإخْوَانَ المُسْلِمُونَ)، ثمَّ أهْلُ (التَّرْبِيَةِ)، ثُمَّ أدْعِيَاءُ السَّلَفِيَّةِ.

❑ فكَانَ أوَّلُها وأكْثرُهَا اتِّبَاعًا: جمَاعةُ (الإخْوَانَ المُسْلِمُونَ)، وهَذِهِ الجَمَاعَةُ لهَا جُذُوْرٌ وتَارِيْخٌ، وأفْكَارٌ ومَنَاهِجُ، ومُرْشِدُوْنَ وأعْلامٌ، ولهَا وُجُوْدٌ عَرِيْضٌ في أكْثرِ بِلادِ العَالمِ، فتَكْثُرُ وتَظْهَرُ في مَكَانٍ، وتَقِلُّ وتَسْتَتِرُ في آخَرَ.

كَما لهَا جُهُوْدٌ دَعَوِيَّةٌ مَشْكُوْرَةٌ، ولهَا أخْطَاءٌ مَرْدُوْدَةٌ، إلَّا أنَّها (للأسَفِ!) مُنْذُ بِدَايَتِهَا، لا تَزَالُ تَدْفَعُ بأرْبَابِها وأتْبَاعِهَا إلىٰ بَعْضِ المَزَالِقِ الشَّرْعِيَّةِ، والبِدَعِ المَنْهَجِيَّةِ، وحَتَّىٰ سَاعَتِي هَذِهِ (للأسَفِ) لم تُخْرِجْ هَذِهِ الجَماعَةُ مُنْذُ عَشَرَاتِ السِّنْيْنَ: رَجُلًا وَاحِدًا مِنْهَا يُجَدِّدُ لَها مَنْهَجَهَا، ويُصَحِّحُ لها فِكْرَهَا،

ويُنَقِّحُ لها كُتُبَهَا ومُؤلَّفاتِهَا، ويُسَدِّدُ لها طَرِيْقَهَا؟!

إنَّهُ سُؤالٌ يَحارُ عِنْدَهُ الجَوابُ، فَإنْ كَانَ مِنْ جَوابٍ: فلَعَلَّهُ أو عَسَاهُ كَانَ ممَّا كَسَبَتْهُ أيْدِي هَذِهِ الجَماعَةِ، يَوْمَ أنَّها لا تُحْسِنُ مِنَ المَنَاهِجِ والتَّعْلِيْمِ لأفْرادِهَا إلَّا مَا تُمْلِيْهِ هِيَ عَلَيْهِم: مِنْ قَدِيْمِ فِكْرِهَا وعَتِيْقِ كُتُبِهَا لَيْسَ إلَّا، فَكَانَ والحَالَةُ هَذِهِ مُمَانَعَةُ خُرُوْجِ هَذَا الرَّجُلِ مِنْ بَيْنِهِم، مَا لم تَجْتَهِدْ هَذِهِ الجَماعَةُ إلىٰ تَصْحِيْحِ فِكْرِهَا ومَنَاهِجِهَا بَادِي ذِي بَدْءٍ، لأنَّ بَقَاءَهَا علىٰ هَذِهِ المَنْهَجِيَّةِ في التَّعْلِيْمِ؛ لَنْ تَكُوْنَ مُؤهَّلَةً لخُرُوْجِ بَعْضِ أفْرادِهَا ممَّنْ سَيُجَدِّدُ لهَا مَسِيرَتَها العِلْمِيَّةِ والعَمَلِيَّةِ علىٰ حَدٍّ سَوَاءٍ، قُلْتُ: لَعَلَهُ هَذَا، أو عَسَاهُ آخَرَ!

* * *

ومَهْما يَكُنْ مِنْ تَأوِيْلٍ أو تَحْلِيْلٍ، فَإنَّ هَذِهِ الجَماعَةَ لم تَزَلْ تَتَجرَّعُ البَلايَا والآذَايَا: مَا بَيْنَ سِجْنٍ وتَعْذِيْبٍ، ومُسَائَلَةٍ ومُطَارَدَةٍ، وعلىٰ الله أجْرُهُم!

ومَعَ هَذَا أيْضًا لَيْسَ لهُم وَرَاءَ هَذَا كُلِّهِ كَبِيرُ تَقَدُّمٍ في الدَّعْوَةِ، ولا في تَغْيِيرِ الوَاقِعِ، ولا شَيءٌ ممَّا رَجَوْهُ وأرَادُوْهُ لاسِيَّما الخِلافَةُ (المَزْعُومَةَ!)، فَهُم كَالمُنْبَتِّ لا أرْضًا قَطَعَ ولا ظَهْرًا أبْقَىٰ، ولَيْسَ هَذَا مَحَلَّ الحَدَيْثِ عَنْ هَذِه الجَماعَةِ: تَأسِيْسًا وفِكْرًا ومَنْهَجًا!

* * *

❑ قُلْتُ: فَلمَّا طَالَ الأمَدُ بهَذِهِ الجماعَةِ، وذَهَبَ رِيْحُهَا، وتَخَطَّفَهَا

النَّاسُ إلَّا بحَبْلٍ مِنْهُم، إذْ بِها تُخْرِجُ مِنْ رَحِمِهَا: جَمَاعَةً تَرَبَّتْ علىٰ فِكْرِهَا ومَنْهَجِهَا، قَدْ رَضِعَتْ مِنْ لَبَنِهَا، ولَبِسَتْ ثَوْبَها، فَخَرَجَتْ علىٰ المُسْلِمِيْنَ باسِمِ: (التَّرْبِيَةِ)!

فَحِيْنَئِذٍ لا تَغْتَرَّ بِما يَقُوْلُهُ أنْصارُ (الفِكْرِ التَّرْبَوِيِّ) أو يَتَقَوَّلُوْنَهُ: إنَّهُم وجَمَاعَةُ (الإخْوَانَ المُسْلِمُونَ) لا يَجْتَمِعُوْنَ ولا يَلْتَقُوْنَ، فَهُم عَدْنَانِيَّةٌ وأوْلَئِكَ قَحْطَانِيَّةٌ، لا وكَلاَّ؛ فالوَلَدُ للفِرَاشِ!

* * *

ومَا مَثَلُ أهْلِ (التَّرْبِيَةِ)، ومَثَلُ جَمَاعَةِ (الإخْوَانَ المُسْلِمُونَ) إلَّا كَبَيْتٍ عَامِرٍ قَدْ قَامَ وارْتَسَمَ علىٰ أيْدِي جَماعَةِ (الإخْوَانَ المُسْلِمُونَ) في بِلادِ التَّوْحِيْدِ علىٰ غَفْلَةٍ مِنْ أهْلِهَا؛ حَيْثُ أحْسَنُوا بِنَاءَهُ ونَظَّمُوا بَرَامِجَهُ، ورَصُّوا كُتُبَهُ، وأوْجَدُوا قَادَتَهُ، وطَوَّقُوا جُسُوْرَهُ . . . حَتَّىٰ إذَا اسْتَيْقَظَ أهْلُ العِلْمِ الرَّبَّانِيُّونَ علىٰ مِثْلِ هَذِهِ الأبْنِيَةِ الَّتِي لم تَزَلْ في تَطاوُلٍ وتَكَاثُرٍ في بَلَدِ التَّوْحِيْدِ، قَامُوا في التَّحْذِيْرِ مِنْهَا ومِنْ مُزَاحمَتِهَا للمَنْهَجِ السَّلَفِيِّ في هَذِهِ البِلادِ، ومِنْ أخْذِ شَبَابِها وأبْنَائِهَا في مَوْجَاتِ التَّحَزُّبِ والتَّفْرِقَةِ الَّتِي لم نَزَلْ في عَافِيَةٍ مِنْهَا . . . فَعِنْدَمَا أخَذَتْ هَذِهِ الجماعَةُ في حَمْلِ أمْتِعَتِهَا، والرَّحِيْلِ مِنْ هَذِهِ الأبْنِيَةِ تَارِكَةً وَرَاءَهَا كُلَّ صَغِيرٍ وكَبِيرٍ: مِنْ فِكْرٍ وكُتُبٍ وتَنْظِيْمٍ . . . حَتَّىٰ إذا خَلَتِ الأدْيِرَةُ مِنْهُم، أقْبَلَ عَلَيْهَا بَعْضُ دُعَاتِنَا وأبْنَائِنَا ممَّنْ تَأثَّرُوا بإخْوَانِهِمُ الرَّاحِلِيْنَ، فوَجَدُوْهَا في غَايَةِ الحُسْنِ والأثَاثِ، فلَمْ يَكُنْ مِنْهُم شَيءٌ؛ اللَّهُمَّ أنَّهم تَلَبَّسُوا بثِيَابِ التَّقْلِيْدِ والتَّشَبُّهِ مِنْ حَيْثُ لا يَشْعُرُوْنَ، فَقَامُوا

بنَفْسِ الأدْوَارِ والأفْكَارِ الَّتِي خَلَّفَهَا أهْلُهَا الأوَّلُوْنَ، فَظَنَّ هَؤلاءِ الدُّعَاةُ أنَّهم قَدْ كَسَوْهَا بثَوْبِ السَّلَفِيَّةِ، فعِنْدَهَا غَدَتِ السَّلَفِيَّةُ عِنْدَهُم يَتِيْمَةً قَدْ ألْبَسُوْهَا ثَوْبًا مُرَقَّعًا باسِمِ: (التَّرْبِيَةِ)!

وهَكَذَا أخَذَتِ (التَّرْبِيَةُ) اليَوْمَ غَيْرَ طَرِيْقِهَا؛ حَتَّىٰ أصْبَحَ أرْبَابُها مِنْ مُنَظِّرِي (الفِكْرِ التَّرْبَوِيِّ) فُرُوْخًا لجَماعَةِ (الإخْوَانَ المُسْلِمُونَ) عَلِمُوا أمْ جَهِلُوا؟!

* * *

فحِيْنَئِذٍ لمَّا قَامَ أنْصَارُ (الفِكْرِ التَّرْبَوِيِّ) يَحْلِفُوْنَ بالله جَهْدَ أيْمَانِهم أنَّهُم لَيْسُوا مِنْ جَماعَةِ (الإخْوَانَ المُسْلِمُونَ) ومَا هُمْ مِنْهُم: رَاجَ فِكْرُهَا، ودَرَجَ مَنْهجُهَا، ونَفَقَ سُوْقُهَا: في تَرَاتِيْبَ دَعَوِيَّةٍ، ومَسَالِكَ مَنْهَجِيَّةٍ، قَدْ زَيَّنُوْهَا بلَحْنِ القَوْلِ، وزَخْرَفُوْهَا بظَاهِرِ الفِعْلِ، ممَّا كَانَ سَبَبًا كَبِيْرًا في تَقَاطُرِ أبْنَاءِ المُسْلِمِيْنَ عَلَيْهِم وُحْدَانًا وزَرَافَاتٍ؛ لا يَلْوُنَ علىٰ أحَدٍ مِنَ النَّاصِحِيْنَ، فَعِنْدَهَا كَثُرَ أتْبَاعُهَا واتَّسَعَ طَرْحُهَا حَتَّىٰ أخَذَتْ بمَجَامِعِ الدَّعْوَةِ بيْنَ شَبَابِ المُسْلِمِيْنَ؛ حَتَّىٰ غَزَتْ صُرُوْحَ العِلْمِ وأهْلَهُ، وأغَارَتْ بخَيْلِهَا ورَجْلِهَا علىٰ حِمَىٰ المُسْلِمِيْنَ في حَيَاتِهِم العِلْمِيَّةِ والعَمَلِيَّةِ مَعًا!

* * *

❑ فَلمَّا طَالَ الأمَدُ بأنْصَارِ (التَّرْبِيَةِ) هُنَا وهُنَاكَ، وغَلَتْ مَرَاجِلُهَا دَاعِيَةً إلىٰ فِكْرِهَا ومَنَاهِجِهَا علىٰ غَيْرِ بَصَائِرِ مَنْهَجِ السَّلَفِ الصَّالِحِ؛ حَيْثُ فَرَّطَتْ في عُلُوْمِ السَّلَفِ، وأفْرَطَتْ في عُلُوْمِ الخَلَفِ، وأخَذَتْ ذَاتَ الشِّمالِ: عَنْ مَنْهَجِ ودَعْوَةِ السَّلَفِ الصَّالِحِ، وأعْرَضَتْ عَنْهَا إلَّا بشَيْءٍ مِنَ الذِّكْرَىٰ

والتَّذْكِيرِ والانْتِسَابِ والادِّعَاءِ، وأقْبَلَتْ بنَفْسِهَا وأنْفَاسِهَا، وأخَذَتْ ذَاتَ اليَمِينِ تَدْفَعُ أبْنَاءَ المُسلِمِيْنَ: إلىٰ مَنَاهِجَ ودَعَاوِي الخَلَفِ، عِنْدَهَا صَاحَ بِهِم مَنْ لا قِبَلَ لَهُم بِهِم، ونَادَوْا بِهِم علىٰ رُؤوْسِ الأشْهَادِ: تَحْذِيْرًا وتَنْفِيرًا: إنَّهُم أدْعِيَاءُ السَّلَفِيَّةِ!

وحَقِيْقَةُ أمْرِ أدْعِيَاءِ السَّلَفِيَّةِ اليَوْمَ: أنَّ ظُهُوْرَهُم لم يَكُنْ مِنْ بَسْطَةِ عِلْمٍ، أو كَبِيرِ تَأصِيْلٍ، أو حُبِّ سَلَفٍ، بقَدْرِ مَا كَانَ ظُهُوْرُ أكْثَرِهِم بِدَافِعِ رَدَّةِ فِعْلٍ لأنْصَارِ (التَّرْبِيَةِ)، فَقَابَلُوا الخَطَأ بخَطَأ، فَهُم مِنْ تَحْتِ جِنَاحِ ومَظَلَّةِ (التَّرْبِيَةِ) خَرَجُوا، ومِنْ أفْكَارِهِم فَرُّوا، ومِنْ مَنَاهِجِهِم هَرَبُوا، وأدَلُّ شَيءٍ علىٰ ذَلِكَ أنَّ أكْثَرَ أدْعِيَاءِ السَّلَفِيَّةِ اليَوْمَ: كَانُوا مِنْ أتْبَاعِ جماعَةِ (الإخْوَانَ المُسْلِمُونَ)، أو كَانُوا مِنْ مُنَظِّرِي (التَّرْبِيَةِ)؟!

فَلا يَهُولَنَّكَ مَا هُنَا؛ فَلَوْلا المَلامَةُ والتَّشْهِيْرُ؛ لَذَكَرْتُ مِنْ مَشَاهِيرِ أدْعِيَاءِ السَّلَفِيَّةِ اليَوْمَ مَنْ كَانُوا يَوْمًا مِنَ الأيَّامِ أتْبَاعًا لجمَاعَةِ (الإخْوَانَ المُسْلِمُونَ)، أو مِنْ مُنَظِّرِي (التَّرْبِيَةِ)؟!

* * *

❑ فَعَوْدًا علىٰ بَدْءٍ، أقُوْلُ: لَقَدَ خَرجَ عِنْدَئِذٍ أدْعِيَاءُ السَّلَفِيَّةِ، يَتَحَسَّسُوْنَ مَوَاضِعَ أقْدَامِهِم، ويَسْتَبْصِرُوْنَ مَرَامِي أبْصَارِهِم، مُقَلِّبِيْنَ مُنَقِّبِيْنَ كُتُبَ السَّلَفِ بَحْثًا ومُبَاحَثَةً لَعَلَّ وعَسَىٰ أنْ يَجِدُوا مَا يُجَرِّحُوْنَ ويُجَرِّمُوْنَ بِهِ أنْصَارَ (الفِكْرِ التَّرْبوِيِّ).

فَعِنْدَهَا حَمِي الوَطِيْسُ، واسْتَعَرَتْ حَرْبُ التَّجْرِيْحِ والتَّحْذِيْرِ، وقَامَتْ

سُوْقُ الرُّدُوْدِ بَيْنَ أَنْصَارِ (الفِكْرِ التَّرْبَوِيِّ) وأدْعِيَاءِ السَّلَفِيَّةِ علىٰ قَدَمٍ وسَاقٍ، وتَحَزَّبَ النَّاسُ حَوْلَهُم طَرَائِقَ شَتَّىٰ، وانْضَمَّ إِلَيْهِمُ الأحْبَاشُ والأَوْبَاشُ، وأخَذُوا في التَّحْرِيْشِ بَيْنَهُم، والتَّجْيِيْشِ مَعَهُم، وهَدَىٰ الله أهْلَ الحَقِّ للحَقِّ، وكَفَاهُم شَرَّ الفَرِيْقَيْنِ!

❑ فَظَاهَرَتْ جماعَةُ (الإخْوَانُ المُسْلِمُونَ) إخْوَانَهُم أنْصارَ (الفِكْرِ التَّرْبَوِيِّ) ونَاصَرُوْهُم في حَرْبِهِم علىٰ مُخَالِفِيْهِم مِنْ أدْعِيَاءِ السَّلَفِيَّةِ، وتَحَزَّبُوا تَحْتَ رَايَةِ التَّحْذِيْرِ والتَّنْفِيرِ مِنْهُم، ورَمَوْهُم عَنْ قَوْسٍ وَاحِدَةٍ!

حَتَّىٰ اسْتَطَالُوا حِمَىٰ السَّلَفِ في مَنْهَجِهِم ودَعْوَتِهِم، ظَنًّا مِنْهُم أنَّهُم يَرُدُّوْنَ علىٰ أدْعِيَاءِ السَّلَفِيَّةِ؛ حَتَّىٰ إنَّهُم إذَا ذُكِرَ السَّلَفُ عِنْدَهُم اقْشَعَرَّتْ جُلُوْدُهُم وضَاقَتْ قُلُوْبُهُم، وإذَا ذُكِرَ الَّذِيْنَ مِنْ دُوْنِهِم اسْتَبْشَرُوا خَيْرًا، واطْمَأنَّتْ قُلُوْبُهُم، فَرَدُّوا حَقَّ مَا عِنْدَ غَيْرِهِم بباطِلِ مَا عِنْدَهُم!

* * *

❑ وهَكَذَا لم يَفْتَأ أنْصارُ (الفِكْرِ التَّرْبَوِيِّ) في مُنَاصَرَةِ جمَاعَةِ (الإخْوَانَ المُسْلِمُونَ)، والوُقُوْفِ مَعَهُم، فقَدَّمُوْهُم علىٰ غَيْرِهِم حُبًّا وذِكْرًا وثَنَاءً، كَما أشَادُوا بجُهُوْدِهِم، ونَشَرُوا صَبْرَ مَوَاقِفِهِم؛ غَاضِّيْنَ الطَّرْفَ عَنْ أخْطَائِهِم في الدَّعْوَةِ والمَنْهَجِ، كَما أخَذُوا بِما يَبُثُّوْنَهُ مِنْ فِكْرٍ ودَعْوَةٍ سَوَاءٌ في كُتُبِهِمُ الدَّعْوِيَّةِ، أو التَّنْظِيرِيَّةِ، أو الفِكْرِيَّةِ، أو السِّيَاسِيَّةِ، أو الإدَارِيَّةِ، أو العَصَبِيَّةِ . . . وكَذَا في أعْلامِهِم ودُعَاتِهِم وشَخْصِيَّاتِهِم ومُفَكِّرِيْهِم . . . إلَخ!

حَتَّىٰ اسْتَطَالُوا علىٰ مَنْهَجِ السَّلَفِ: في جَرْحِهِم وتَعْدِيْلِهِم، وحُبِّهِم وبُغْضِهِم، وثُنَائِهِم وذَمِّهِم، وتَعْلِيْمِهِم ودَعْوَتِهِم؛ بَحَيْثُ إنَّهُم أطْلَقُوا للِّسَانِ والبَنَانِ: الثَّنَاءَ والتَعْدِيْلَ لأهْلِ البِدَعِ والأهْوَاءِ، كُلُّ ذَلِكَ خَوْفًا مِنْ خَدْشِ مَشَاعِرِ إخْوَانِهِم جماعَةِ (الإخْوَانَ المُسْلِمُونَ)، لأنَّ الحَرْبَ لم تَضَعْ أوْزَارَهَا بَعْدُ بَيْنَهُم وبَيْنَ أدْعِيَاءِ السَّلَفِيَّةِ!

حَتَّىٰ إنَّهُم إذَا ذُكِرَ جَرْحُ وبُغْضُ وتَحْذِيْرُ السَّلَفِ مِنْ أهلِ البِدَعِ والأهْوَاءِ، اقْشَعَرَّتْ جُلُوْدُهُم، وإذَا ذُكِرَ الَّذِيْنَ مِنْ دُوْنِهِم اسْتَبْشَرُوا، فَرَدُّوا حَقَّ مَا عِنْدَ غَيْرِهِم بِبَاطِلِ مَا عِنْدَهُم!

* * *

❑ فعِنْدَهَا، قَامَ أدْعِيَاءُ السَّلَفِيَّةِ أخِذِيْنَ حَقَّهُم في الرَّدِّ والتَّحْذِيْرِ مِنْ أنْصَارِ (التَّرْبِيَةِ)، وجَماعَةِ (الإخْوَانَ المُسْلِمُونَ)، فَرَمَوْهُم بِبَعْضِ أقْوَالِ السَّلَفِ المُحَذِّرَةِ مِنْ أهلِ البِدَعِ والأهْوَاءِ، والدَّاعِيَةِ إلىٰ هَجْرِهِم ومُهَاجَرَتِهِم، فَنَقَّبُوا كُتُبَ السِّيَرِ والطَّبقَاتِ، وكُتُبَ السُّنَّةِ المُسْنَدَةِ، وهَكَذا تَجِدُهُم قَدِ افْتَرَشُوا كُتُبَ السَّلَفِ وتَوَسَّدُوْهَا بَحْثًا وتَنْقِيْبًا، وعلىٰ رَأسِهَا: كِتَابُ اللَّالَكَائِيِّ، والآجُرِّي، وابنِ بَطَّةَ، وابنِ مَنْدَةَ، وابنِ خُزَيْمَةَ، والخَلَّالِ، وابنِ أبي عَاصِمٍ في غَيْرِهَا مِنَ الكُتُبِ الَّتِي حَفِظَتْ للمُسْلِمِيْنَ عَقَائِدَ أهْلِ السُّنَّةِ، لاسِيَّمَا مَوَاقِفُهُم مَعَ أهْلِ البِدَعِ والأهْوَاءِ كَما يُرِيْدُهُ أدْعِيَاءُ السَّلَفِيَّةِ اليَوْمَ.

ومَا عَلِمَ أدْعِيَاءُ السَّلَفِيَّةِ؛ أنَّ عُلَماءَ السُّنَّةِ في جَرْحِهِم وطَرْحِهِم وتَحْذِيْرِهِم وتَنْفِيْرِهِم مِنْ أهْلِ البِدَعِ والأهْوَاءِ، لم يَكُنْ عَبَثًا وبَاطِلًا، ولم يَكُنْ اسْتِطَالَةً وتَطَاوُلًا، ولم يَكُنْ هَوًىٰ أو حَظًّا للنَّفْسِ، بَلْ كَانَ هَذَا مِنْهُم

رَحِمَهُمُ الله تَعالىٰ: نُصْرَةً للسُّنَّةِ، وتَحْذِيْرًا مِنَ البِدْعَةِ، وكَانَ هَذَا مِنْهُم أيْضًا بِقَدَرٍ وتَقْدِيْرٍ، لاعْتِبَارَاتٍ وحَالاتٍ بحَسَبِ زَمَانِهِم ومَكَانِهِم، لِذَا كَانَتِ الحِكْمَةُ عِنْدَهُم رَحِمَهُمُ الله: مُنَاطَةً بقُوَّةِ وظُهُوْرِ أهْلِ السُّنَّةِ وقِلَّتِهِم، وقُوَّةِ وظُهُوْرِ أهْلِ البِدَعِ وقِلَّتِهِم؛ خِلافًا لما يَدَّعِيْهِ أدْعِيَاءُ السَّلَفِيَّةِ اليَوْمَ!

* * *

والحَالَةُ هَذِهِ، لمَّا كَانَ مَنْهَجُ أدْعِيَاءِ السَّلَفِيَّةِ: التَّجْرِيْحَ والتَّشْهِيْرَ والتَّفْسِيْقَ ورُبَّما التَّبْدِيْعَ، والنَّيْلَ مِنْ أهْلِ العِلْمِ والدَّعْوَةِ، فُتِحَ حِيْنَهَا البَابُ علىٰ مِصْرَاعَيْهِ لكُلِّ مُوَافِقٍ لأدْعِيَاءِ السَّلَفِيَّةِ مُنَاصَرَةً لهُم ومُؤَازَرَةً مَعَهُم، فَدَخَلَ في حِلْفِهِم الصَّادِقُ والكَاذِبُ والنَّاصِحُ والمُعَيِّرُ، والتَّقِيُّ والشَّقِيُّ، والأوْبَاشُ والغَشَّاشُ.

كَما نَبَتَتْ بَيْنَهُم نابِتَةٌ مُخَذِّلَةٌ ومُرْجِفَةٌ، لَبِسَتْ ثَوْبَ الإرْجَاءِ، ونَادَتْ بِقَوْلِ الجَهْمِيَّةِ، وخَالَفَتْ أبْجَدِيَّاتِ مَنْهَجِ السَّلَفِ قَوْلًا وعَمَلًا، بَلْ إنَّ بَعْضَهُم إذَا مَا انْتَهَىٰ مِنْ دَوْرِهِ في ادِّعَاءِ السَّلَفِيَّةِ: خَلَعَ جِلْبَابَ الحَيَاءِ، وتَعَالَنَ بفِسْقِهِ ومُجُوْنِهِ!

وهَكَذَا لم تَنْتَهِ بِهِم هَذِهِ المُنَاكَدَةُ المُؤْذِيَةُ؛ حَتَّىٰ ظَهَرَ في صَفِّهِم أُنَاسٌ لَيْسُوا مِنْهُم ولا مِنَّا، مَا بَيْنَ عَلْمانيٍّ ولِبْراليٍّ وعِصْرَانيٍّ وحَدَاثيٍّ، وكَذَا بفَوَاسِقِ المُسْلِمِيْنَ وأرَاذِلِ النَّاسِ . . . فَأصْبَحْنَا نَسْمَعُ بمَنْ هُوَ أجْهَلُ مِنْ حِمَارِ أهْلِهِ يَرُدُّ ويُخَطِّئ عُلماءَنَا الكِبَارَ، (لاسِيَّما هَيْئَةُ كِبَارِ العُلَماءِ)، ورَأيْنَا لُكَعَ بنَ لُكَعٍ ممَّنْ يَتَبَجَّحُ ويَسْتَهْزِأ بشَعَائِرِ الإسْلامِ، وقَرَأنَا لمَنْ يَطْعَنُ في

مَنْهَجِ ابنِ تَيْمِيَّةَ، ومُحَمَّدِ بنِ عَبْدِ الوَهَّابِ، ويُحَذِّرُ مِنْ كُتُبِهِم، وهَكَذَا في صَرِيْفِ أَقْلامِ كَثِيرٍ مِنَ الكُتَّابِ اليَوْمَ، والله مِنْ وَرَائِهِم مُحِيْطٌ!

نَعَم؛ هَذِهِ نَفَثَاتُ أَدْعِيَاءِ السَّلَفِيَّةِ، باسْمِ: مَنْهَجِ السَّلَفِ في التَّحْذِيْرِ مِنَ أَهْلِ البِدَعِ والأَهْوَاءِ؟!

وهَكَذَا؛ لَمَّا تَحزَّبَ وتَجمْهَرَ أَشْيَاعُ أَدْعِيَاءِ السَّلَفِيَّةِ، قَامَتْ حِيْنَهَا حُظُوْظُ النَّفْسِ تَأْخُذُ سَبِيْلَهَا، وذَهَبَتِ الأَهْوَاءُ تَطْرُقُ بَابَها، فَعِنْدَهَا عَلَتِ الأَصْوَاتُ، وظَهَرَتِ القَالاتُ في تَضْلِيْلِ وتَجْرِيْحِ أَهْلِ العِلْمِ والدَّعْوَةِ، وكُلُّ ذَلِكَ باسْمِ: مَنْهَجِ السَّلَفِ في التَّحْذِيْرِ!

فَلَيْتَ شِعْرِي؛ فإنَّ الإسْلامَ مَا أُوتيَ في أيَّامِنَا هَذِهِ إلَّا مِنْ بَابِهِم، ومَا سِيْمَ إلَّا في سُوْقِ مَنْهَجِهِم؛ حَيْثُ ذَهَبَتْ هَيْبَةُ أهْلِ العِلْمِ مِنْ صُدُوْرِ أكْثَرِ المُسْلِمِيْنَ، يَوْمَ اسْتَطَالَ عَلَيْهُمُ سَفْلَةُ النَّاسِ مَا بَيْنَ صُحُفِيٍّ وإعْلامِيٍّ وبَيْنَ مُتَعَالِمٍ وعَامِيٍّ، فَحَسْبُنَا الله ونِعْمَ الوَكِيْلُ!

* * *

وهَكَذَا؛ أخَذَتِ الظُّنُوْنُ ببَعْضِ أدْعِيَاءِ السَّلَفِيَّةِ كُلَّ مَأخَذٍ، حَتَّىٰ اسْتَطَالُوا علىٰ حِمَىٰ السَّلَفِ الصَّالِحِ، يَوْمَ لم يَعْرِفُوا ولم يَأخُذُوا مِنْ كُتُبِهِم: إلَّا الجَرْحَ والطَّرْحَ، والتَّحْذِيْرَ والتَّنْفِيْرَ، والهَجْرَ والبُغْضَ، واللَّعْنَ والسَّبَّ، حَتَّىٰ وَصَلَ بِهِم الحَالُ والمَقَالُ إلىٰ مَا يَنْدَىٰ لَهُ جَبِيْنُ كُلِّ مُسْلِمٍ: وهُوَ أنَّهُم غَلَوْا في كَلام بَعْضِ رِجَالِ أهْلِ السُّنَّةِ مِنَ السَّلَفِ الصَّالِحِ، وكَذَا غَلَوْا في بَعْضِ مَوَاقِفِهِم؛ بِحَيْثُ غَدَتْ أقْوَالُ ومَوَاقِفُ الرِّجَالِ عِنْدَهُم تَخْصِيْصًا

لعُمُوْمَاتِ الوَحْيَيْنِ (الكِتَابِ والسُّنَّةِ)، وتَقْيِدًا لمُطْلَقِهِما، وتَفْسِيْرًا لمُحْكَمِهِما، وهَكَذَا في سِلْسِلَةٍ نَكِدَةٍ حَتَّىٰ قَدَّمُوا أقْوَالَ الرِّجَالِ علىٰ ظَاهِرِ الوَحْيَيْنِ، وجَعَلُوْا مِنْ أقْوَالِ الرِّجَالِ مَنْهَجًا وشِرْعَةً، ضَارِبِيْنَ بالوَحْيَيْنِ عُرْضَ الذَّاكِرَةِ، نَاسِيْنَ الاسْتِشْهَادَ والاسْتِدْلالَ بِهما، وبأقْوَالِ الصَّحَابَةِ ﷺ، إلاَّ مَا نَدَرَ وقَلَّ!

فَلا يَسْتَشْهِدُوْنَ غَالِبًا إلاَّ بأقْوَالِ الرِّجَالِ، ولا يُقَرِّرُوْنَ مَنْهَجَ أهْلِ السُّنَّةِ إلاَّ بمَوَاقِفِ بَعْضِ الرِّجَالِ، والخَطأ كُلُّ الخطأ إذا عَلِمَ الجَمِيْعُ أنَّ القَوْمَ (للأسَفِ!) قَدْ ظَنُّوْا بأنْفُسِهم أنَّ مَا يَقُوْلُوْنَهُ أو يَتَقَوَّلُوْنَهُ مِنْ أُغْلُوْطَاتٍ مَنْهَجِيَّةٍ: هِي حَقِيْقَةُ مَنْهَجِ السَّلَفِ، فالله المُسْتَعانُ علىٰ مَا يَصِفُوْنَ!

* * *

وهَكَذَا أخَذَ الغُلُوُّ مِنْهُم مَأخَذَهُ، فَجرَّهُم ـ بَعْدَ أنْ أخَذُوا في الطَّعْنِ والنَّيْلِ والتَّجْرِيْحِ والتَّحْذِيرِ والتَّفْسِيْقِ والتَّبْدِيْعِ ببَعْضِ إخْوَانِهم مِنْ أهْلِ العِلْمِ والدَّعْوَةِ ـ إلىٰ الأخْذِ بِلَوَازِمِ ما يَدَّعُوْنَ ويَتَقَوَّلُوْنَ مِنِ ادِّعاءِ مَنْهَجِ السَّلَفِ فِيْما هُمْ فِيْهِ: مِنْ تَجْرِيْحٍ وتَفْسِيْقٍ وتَبْدِيْعٍ وتَضْلِيْلٍ . . . وذَلِكَ بالنَّيْلِ والتَّجْرِيْحِ مِنْ بَعْضِ عُلَماءِ الإسْلامِ الكِبَارِ ممَّنْ لم يُصِبْ اجْتِهَادُ بَعْضِهِم في بَعْضِ مَسَائِلِ العَقِيْدَةِ، فَأرْدَاهُم في ضِيْقِ الصَّدْرِ، وإكْفَارِ الوَجْهِ، وسُوْءِ الظَّنِّ، وهَكَذَا تَسَلَّطُوْا علىٰ كُتُبِهِم: حَرْقًا ومُصَادَرَةً وتَحْذِيْرًا، وبَسَطُوْا ألْسِنَتَهُم في أعْرَاضِهِم وأغْرَاضِهِم، والله طَلِيْبُهُم!

* * *

حَتَّىٰ إنَّهم إذَا ذُكِرَتْ عِنْدَهُم: أَلْفَاظُ التَّعْدِيْلِ والثَّنَاءِ والتَّرحُّمِ، أو ذُكِرَ عِنْدَهُم: أَهْلُ الثُّغُوْرِ والمُجَاهِدُوْنَ، أو طُلَّابُ العِلْمِ، وأَهْلُ الدَّعْوَةِ مِنْ أَهْلِ زَمَانِنَا؛ اقْشَعَرَّتْ جُلُوْدُهُم وضَاقَتْ قُلُوْبُهُم، وإذَا ذُكِرَ التَّجرِيْحُ والتَّحْذِيْرُ والتَّفْسِيْقُ والتَّبْدِيْعُ اسْتَبْشَرُوا خيرًا، واطْمَأَنَّتْ قُلُوْبُهُم، فَرَدُّوا حَقَّ مَا عِنْدَ غَيْرِهِم بِبَاطِلِ مَا عِنْدَهُم!

وقَدْ تكَلَّمْنَا عَنْ هَذِهِ النَّابِتَةِ العَصْرِيَّة وشَيءٍ مِنْ أَخْطَائِهَا في أَوَّلِ كِتَابِنَا(١).

* * *

❑ ويْكَأَنَّ الطَّائِفَتَيْنِ في أَمْرٍ مَرِيْجٍ؛ حَيْثُ غَلَتْ دَفَائِنُ الصُّدُوْرِ، وانْتَفَخَتْ أَوْدَاجُ مَوْتُوْرٍ، فَحِيْنَهَا قَامَتْ بَيْنَهُم حَرْبٌ لا هَوَادَةَ لهَا؛ حَيْثُ غَبَّرَت بأَقْدَامِهَا، فَثَارَ نَقْعُهَا، وجَعْجَعَتْ بأَصْواتِهَا، فَعَلا خَطْبُهَا ... حَتَّىٰ أَخَذَتْ (للأسَفِ) بِبَعْضِ الصَّالحِيْنَ مِنْ أَهْلِ السُّنَّة والجماعَةِ في حَمِئَةِ النِّزَالِ، ومُعتَرَكِ القِتَالِ؛ فَعِنْدَئِذٍ أَرْخُوا الأعِنَّةَ لأقْلامِهِم فَخَرَجَتِ الكُتُبُ والتَّصَانِيْفُ الرَّادَّةُ والمُحَذِّرَةُ مِنْ بَعْضِهِم بَعْضًا!

❑ فَأَهْلُ (التَّرْبِيَةِ) يَكْتُبُوْنَ ويَخْطُبُوْنَ عَنْ: مَوْقِفِ ثَنَاءِ السَّلَفِ مِنَ الرِّجَالِ والكُتُبِ، فَاقْتَصَرُوا علىٰ مَوْقِفِ السَّلَفِ في ثَنَائِهِم ومَدْحِهِم لعُمُوْمِ أَهْلِ العِلْمِ، وتَحْذِيْرِهِم مِنَ الطَّعْنِ فِيْهِم، فَهَؤلاءِ أَرَادُوا بِما يَكْتُبُوْنَ ويَقُوْلُوْنَ: التَّصْحِيْحَ والائْتِلافَ، مَعَ نَوْعٍ مِنَ التَّفْرِيْطِ!

---

(١) انْظُرْها ص ٢٧ وما بعدها.

لأجْلِ هَذَا نَجِدُهُم قَدْ فَتَحُوا البَابَ في إطْلاقِ المَدْحِ والثَّنَاءِ علىٰ أهْلِ البِدَعِ والأهْوَاءِ، ممَّن هُم لَيْسُوا علىٰ مَنْهَجِ أهْلِ السُّنَّةِ والجَماعَةِ!

لِذَا لا يَرْضَوْنَ مِنْ أحَدٍ أنْ يَذْكُرَ شَيْئًا مِنْ أخْطَاءِ أهْلِ العِلْمِ والدَّعْوَةِ وأغْلاطِهِم العِلْمِيَّةِ أو العَمَلِيَّةِ، ولَوْ بَعَيْنِ النَّقْدِ والتَّصْحِيْحِ والتَّحْذِيْرِ، ومَنْ رَأوْهُ تَنَكَّبَ تَنْبِيْتَ مَنْهَجِهِم التَّرْبَوِيِّ رَمَوْهُ بالعَظَائِمِ: بِأنَّهُ مُفَرِّقٌ لجماعَةِ المُسْلِمِيْنَ، ومُفَارِقٌ لأهْلِ السُّنَّةِ في تَعَامُلِهِم مَعَ أهْلِ العِلْمِ والدَّعْوَةِ، ورُبَّما اتَّهَمُوْهُ بالتَّعَالُمِ أو العَمَالَةِ، فيَجْتَهِدُوْنَ في إسْقَاطِهِ والتَّحْذِيْرِ مِنْ عِلْمِهِ وكُتُبِهِ!

❏ فعِنْدَهَا أشْغَلُوا أنفُسَهم ومَنْ وَرَاءَهُم مِنَ النَّاشِئَةِ والأغْمارِ مِنْ أبْنَاءِ المُسْلِمِيْنَ بالكَلامِ عَنْ مَسَائِلَ كَثِيرَةٍ، مِنْهَا:

العُذْرُ بالجَهْلِ، وحُرْمَةُ الغِيْبَةِ، والأصْلُ في المُسْلِمِ العَدَالَةُ، وحَقُّ الأخُوَّةِ، وأهَمِّيَّةُ الاجْتِماعِ والائْتِلافِ، والتَّحْذِيْرُ مِنَ الخِلافَاتِ، والاجْتِماعُ فِيْما اتَّفَقْنَا والعُذْرُ فِيْما اخْتَلَفْنَا، وتَأصِيْلُ الثَّوَابِتِ والمُتَغَيِّرَاتِ، وتَغيرُ الفَتوَىٰ بتَغْيِيرِ الزَّمَانِ، والاهْتِمامُ بخَطَرِ مُخَطَّطَاتِ وعَدَاوَةِ العَدُوِّ الكَافِرِ، والاجْتِهَادُ في وَسَائِلِ الدَّعْوَةِ، وكَذَا اشْتَرَطُوا ذِكْرَ حَسَنَاتِ أهْلِ العِلْمِ عِنْدَ ذِكْرِ أخْطَائِهِم . . . وهَكَذَا في نَهَجَاتٍ وطَرَائِقَ يَضُمُّهَا قَوْلُ العَرَبِ: كَلِمَةُ حَقٍّ أرِيْدَ بِها بَاطِلٌ!

❏ كُلَّ هَذَا مِنْهُم (للأسَفِ) كَي يَسْلَمَ لجَماعَةِ (الإخْوَانَ المُسْلِمُونَ): فَتْحُ البَابِ للتَّقْمِيْشِ والتَّجْمِيْعِ حَوْلَ الطَّالِبِ والمَطْلُوْبِ؟!

❏ وكَذَا ليَسْلَمَ لأهْلِ (التَّرْبِيَةِ): التَّكْبِيْتُ والرَّدُّ علىٰ إخْوانِهِم أدْعِيَاءِ السَّلَفِيَّةِ فِيْما يُحذِّرُوْنَ ويُجرِّحُوْنَ ويُخَالِفُوْنَ!

مَعَ العِلْمِ أنَّ الثَّنَاءَ الحَسَنَ والأُخُوَّةَ والمَحَبَّةَ والائْتِلافَ والاجْتِماعَ: غَايَةٌ شَرْعِيَّةٌ، لكِنَّهُم أخْطَئُوا في تَصْحِيْحِ الوَسِيْلَةِ بتَحْقِيْقِ الغَايَةِ.

* * *

❑ وقَابَلَهُم أدْعِيَاءُ السَّلَفِيَّةِ فَكَتَبُوا وخَطَبُوا عَنْ: مَوْقِفِ السَّلَفِ مِنْ أهْلِ البِدَعِ والأهْوَاءِ، ونَقْدِهِم للكُتُبِ، فاقْتَصَرُوا علىٰ مَوْقِفِ السَّلَفِ في الجَرْحِ والتَّحْذِيْرِ والتَّفْسِيْقِ واللَّعْنِ ورُبَّما التَّكْفِيرِ، وتَحْذِيْرِهِم مِنَ مَدْحِ عُمُوْمِ المُنْتَسِبِيْنَ للعِلْمِ والدَّعْوَةِ، وقِيَامِهِم بالطَّعْنِ فِيْهِم، فَهَؤلاءِ أرَادُوا بِما يَكْتُبُوْنَ ويَقُوْلُوْنَ: التَّجْرِيْحَ والاخْتِلافَ، مَعَ نَوْعٍ مِنَ الإفْرَاطِ!

لأجْلِ هَذَا نَجِدُهُم قَدِ اسْتَطَالُوا في أعْرَاضِ إخْوَانِهِم مِنْ أهْلِ العِلْمِ والدَّعْوَةِ، ممَّنْ هُم علىٰ مَنْهَجِ أهْلِ السُّنَّةِ والجَماعَةِ!

لِذَا لا يَرْضَوْنَ مِنْ أحَدٍ أنْ يَمْدَحَ أو يُثْنِي علىٰ أهْلِ العِلْمِ والدَّعْوَةِ في عِلْمِهِم أو عَمَلِهِم دُوْنَ أنْ يُبيِّنَ أخْطَاءَهُم وأغْلاطَهُم، ومَنْ رَأوْهُ تَنَكَّبَ تَنْبِيْتَ مَنْهَجِهِم السَّلَفِيِّ رَمَوْهُ بالعَظَائِمِ: بِأنَّهُ مُبْتَدِعٌ خَارِجِيٌّ غيرُ سَلَفِيٍّ، وأنَّهُ مُفَارِقٌ لأهْلِ السُّنَّةِ في تَعَامُلِهِم مَعَ أخْطَاءِ وأغْلاطِ أهْلِ العِلْمِ والدَّعْوَةِ، ورُبَّما اتَّهمُوْهُ بأنَّهُ حَرَكِيٌّ، أو إخْوانِيٌّ . . . فَيَجْتَهِدُوْنَ في إسْقَاطِهِ والتَّحْذِيْرِ مِنْ عِلْمِهِ وكُتُبِهِ، ولَوْ باسْتِعْدَاءِ السُّلْطَانِ عَلَيْهِ!

❑ فعِنْدَهَا أشْغَلُوا أنْفُسَهَم ومَنْ وَرَاءَهُم مِنَ التُّبَّاعِ والأغْمارِ مِنْ لُفُوْفِ القَبَائِلِ والشُّعُوْبِ المُسْتَضْعَفَةِ: بالكَلامِ عَنْ مَسَائِلَ كَثِيرَةٍ، مِنْهَا:

عَدَمُ العُذْرِ بالجَهْلِ، وذِكْرُ شُرُوْطِ جَوَازِ الغِيْبَةِ، والعَدَالَةُ لَيْسَتْ أصْلًا في

المُسْلِمِ، والاهْتِمامُ بخَطَرِ وأفْكَارِ الجَماعَاتِ الإسْلامِيَّةِ، والمَطالَبَةُ بالتَّصْفِيَّةِ والتَّربِيَةِ، وطَاعَةُ وَليِّ الأمْرِ، وتَوْقِيْفُ وَسَائِلِ الدَّعْوَةِ، وكَذَا اشْتَرَطُوا ذِكْرَ أخْطاءِ أهْلِ العِلْمِ عِنْدَ ذِكْرِ حَسَناتِهِم . . . وهَكَذَا في تَنْبِيْتِ وتَنْهِيْجِ يَضُمُّهَا قَوْلُ العَرَبِ: كَلِمَةٌ عَادِلَةٌ يُرَادُ بِهَا جَوْرٌ!

❑ كُلَّ هَذَا مِنْهُم (للأسَفِ) كَي يَسْلَمَ لهُم: الثَّلْبُ والنَّيْلُ والتَّجْرِيْحُ والطَّعْنُ، ورُبَّما اللَّعْنُ والتَّفْسِيْقُ والتَّكْفِيرُ لأهْلِ العِلْمِ والدَّعْوَةِ الأحْيَاءِ مِنْهُم والأمْوَاتِ ممَّنْ شَابَهُم خَطَأٌ أو اجْتِهَادٌ في شَيءٍ مِنْ مُعْتَقَدِ أهْلِ السُّنَّةِ والجَماعَةِ، أو تَرْسِيْمِ مَنْهَجِ الدَّعْوَةِ!

مَعَ العِلْمِ أنَّ التَّجْرِيْحَ والطَّعْنَ في أهْلِ البِدَعِ والأهْوَاءِ: وَسِيْلَةٌ شَرْعِيَّةٌ، لكِنَّهُم أخْطَئُوا في تَصْحِيْحِ الغَايَةِ بتَحْقِيْقِ الوَسِيْلَةِ.

* * *

❑ **قُلْتُ**: وفي بَعْضِ مَا كَتَبَهُ وقَالَهُ أهْلُ الطَّائِفَتَيْنِ: خَيْرٌ وحَقٌّ لكِنَّ العَدْلَ عَزِيْزٌ، والرَّحْمَةُ عَزِيْزَةٌ، فالعَدْلُ لا يَشْفِي، والرَّحْمَةُ لا تَكْفِي، بَلْ لابُدَّ مِنْ عَدْلٍ في رَحْمَةٍ، فالأوَّلُوْنَ عِنْدَهُم: رَحْمَةٌ يَنْقُصُهَا عَدْلٌ، والآخَرُوْنَ: عِنْدَهُم عَدْلٌ يَنْقُصُهُ رَحْمَةٌ، وأهْلُ السُّنَّةِ أعْلَمُ الخَلْقِ بالحَقِّ، وأرْحَمُ الخَلْقِ بالخَلْقِ، فَعَدْلُهُم برَحْمَةٍ، ورَحْمَتُهُم بعَدْلٍ، فَما زَادَ علىٰ العَدْلِ فَفَضْلٌ، ومَا زَادَ علىٰ الرَّحْمَةِ فشَفَقَةٌ، وفي كُلٍّ خَيْرٌ لمنْ أعْطَاهُ الله بَصِيْرَةً فِيما يَأتي ويَذَرُ!

ومَا نَقَصَ عَنِ العَدْلِ فَظُلْمٌ، ومَا نَقَصَ عَنِ الرَّحْمَةِ فغِلْظَةٌ، والله تَعالىٰ لا يُحِبُّ الظُّلْمَ، ولا يُحِبُّ الغِلْظَةَ.

كَما قَالَ الله تَعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ لِلَّهِ شُهَدَآءَ بِٱلْقِسْطِۖ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعْدِلُواْۚ ٱعْدِلُواْ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرُۢ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ [المائدة: ٨]، وقَالَ تَعالىٰ: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٧]، وقَالَ تَعالىٰ: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْۖ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّواْ مِنْ حَوْلِكَۖ فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي ٱلْأَمْرِۖ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَوَكِّلِينَ﴾ [آل عمران: ١٥٩].

وقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «مَنْ لا يَرْحَمُ لا يُرْحَمُ» مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ.

وقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «مَنْ لا يَرْحَمْ مَنْ فِي الأَرْضِ، لا يَرْحَمُهُ مَنْ في السَّمَاءِ» أَخْرَجَهُ الطَّبرانيُّ في «المُعْجَمِ الكَبِيرِ» (٣/ ٢٤)، وهُوَ جَيِّدُ الإسْنَادِ، ونْظُرْ «صَحِيْحَ التَّرغِيبِ والتَّرهِيْبِ» للألْبانيِّ (٢٢٥٥).

وقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «الرَّاحِمُونَ يَرْحَمُهُمْ الرَّحْمَنُ، ارْحَمُوا أَهْلَ الأَرْضِ، يَرْحَمْكُمْ مَنْ في السَّمَاءِ» أَخْرَجَهُ أَبُو دَاوُدَ (٤٩٤١)، والتِّرمِذِيُّ (١٩٢٤) وهُوَ صَحِيْحٌ.

وقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «إنَّ الرِّفْقَ لا يَكُونُ في شَيْءٍ إلاَّ زَانَهُ، ولا يُنْزَعُ مِنْ شَيْءٍ إلاَّ شَانَهُ» أَخْرَجَهُ مُسْلِمٌ.

وعَلَيْهِ فَقَدْ جَاءَتْ مَقَاصِدُ الشَّرِيْعَةِ القَاطِعَةِ في تَكَاثُرِ أَدِلَّتِهَا بتَحْقِيْقِ العَدْلِ والرَّحمَةِ، ومُنَابَذَةِ الظُّلْمِ والغِلْظَةِ، ومِنَ الله طَلَبُ العَوْنِ والتَّوْفِيْقِ.

* * *

فالحَمْدُ الله الَّذِي هَدَىٰ أَهْلَ الحَقِّ للحَقِّ، وجَنَّبَهُم شَرَّ الفَرِيْقَيْنِ بخَاصَّةٍ، وأهْلِ الأهْوَاءِ والبِدَعِ بعَامَّةٍ، فَأهْل السُّنَّةِ: هُمْ أعْلَمُ الخَلْقِ بالحَقِّ، وأرْحَمُ الخَلْقِ بالخَلْقِ!

فَأهْلُ الحَقِّ مِنْ أهْلِ زَمَانِنَا أتْبَاعُ السَّلَفِ: هُمْ أبْعَدُ النَّاسِ عَنْ أفْكَارِ (الإخْوَانَ المُسْلِمُونَ)، وطَرَائِقِ التَّرْبَوِيِّيْنَ، ومَنَاهِجِ أدْعِيَاءِ السَّلَفِيَّةِ!

فانْظُرْهُم في عِلْمِهِم وعَمَلِهِم، واذْكُرْهُم في أسْمائِهِم: كمُحَمَّدِ بنِ عَبْدِ الوَهَّابِ، وأئِمَّةِ الدَّعْوَةِ، والإبْرَاهِيْمِي، وابنِ بَادِيْسٍ، والخِضْرِ حُسَيْنٍ، والقَاسِمِيِّ، ومحَمَّدِ رَشِيْدِ رِضَا، والسَّعْدِيِّ، والأمِيْنِ الشِّنْقِيطِيِّ، وآلِ شَاكِرٍ، ومحمَّدِ فَقِي، وابنِ بَازٍ، وابنِ عُثَيْمِيْنَ، والألْبَانِيِّ، والبَسَّامِ، وحمُوْدٍ العُقْلاءِ، وابنِ عَقِيْلٍ، والجِبْرِيْنِ، وغَيْرِهِم ممَّنْ لم تَأخُذْهُم مَوْجَاتُ الجَماعَاتِ في مَنَاهِجِهَا وفِكْرِهَا وتَحزُّبَاتِها.

وهَلْ كَانَ هَؤلاءِ العُلَماءُ يَوْمًا مِنَ الأيَّامِ: مِنْ جَماعَةِ (الإخْوَانَ المُسْلِمُونَ)، أو مِنْ أنْصَارِ (التَّرْبِيَةِ)، أو مِنْ أدْعِيَاءِ السَّلَفِيَّةِ؟، اللَّهُمَّ لا!

❑ ❑ ❑

الفَصْلُ الرَّابِعُ

الانْهِزَامُ الدَّعْوِيُّ

لا شَكَّ أنَّ الله تَعَالىٰ كَتَبَ الابْتَلاءَ والفِتَنَ علىٰ عِبَادِهِ المُؤمِنِيْنَ، فَمَنْ صَبَرَ مِنْهُم ورَضِيَ فَلَهُ الرِّضَا، ومَنْ جَزَعَ وسَخِطَ فَلَهُ السُّخْطُ، ومَا زَالَتْ أقْدَارُ الله تَعَالىٰ تَأخُذُ في ابْتِلاءِ الخَلْقِ ابْتِداءً بالأنْبِيَاءِ، ثُمَّ الأمْثَلِ فالأمْثَلِ، وانْتِهَاءً بأقَلِّ النَّاسِ إيمانًا وصَبرًا.

قَالَ تَعَالىٰ: ﴿الٓمٓ ۝١ أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتۡرَكُوٓاْ أَن يَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا وَهُمۡ لَا يُفۡتَنُونَ ۝٢ وَلَقَدۡ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۖ فَلَيَعۡلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ وَلَيَعۡلَمَنَّ ٱلۡكَٰذِبِينَ﴾ [العنكبوت: ١-٣]. وقَالَ تَعَالىٰ: ﴿أَمۡ حَسِبۡتُمۡ أَن تَدۡخُلُواْ ٱلۡجَنَّةَ وَلَمَّا يَأۡتِكُم مَّثَلُ ٱلَّذِينَ خَلَوۡاْ مِن قَبۡلِكُمۖ مَّسَّتۡهُمُ ٱلۡبَأۡسَآءُ وَٱلضَّرَّآءُ وَزُلۡزِلُواْ حَتَّىٰ يَقُولَ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ مَتَىٰ نَصۡرُ ٱللَّهِۗ أَلَآ إِنَّ نَصۡرَ ٱللَّهِ قَرِيبٞ﴾ [البقرة: ٢١٤].

وعَنْ مُصْعَبَ بنِ سَعْدٍ عَنْ أبِيْهِ قَالَ: قُلْتُ يَا رَسُوْلَ الله: أيُّ النَّاسِ أشَدُّ بَلاءً؟ قَالَ: «الأنْبِيَاءُ، ثُمَّ الأمْثَلُ فَالأمْثَلُ، فَيُبْتَلَىٰ الرَّجُلُ علىٰ حَسَبِ دِيْنِهِ فَإنْ كَانَ دِيْنُهُ صُلْبًا اشْتَدَّ بَلاؤُهُ، وإنْ كَانَ في دِيْنِهِ رِقَّةٌ ابْتُلِيَ علىٰ حَسَبِ دِيْنِهِ، فَما يَبْرَحُ البَلاءُ بالعَبْدِ حَتَّىٰ يَتْرُكَهُ يَمْشِي علىٰ الأرْضِ مَا عَلَيْهِ خَطِيئَةٌ» أخْرَجَهُ التِّرْمِذِيُّ (٢٣٩٨) وهُوَ صَحِيْحٌ.

وعَنِ الحَسَنِ البَصْرِيِّ عَنِ النُّعمانِ بنِ بَشِيْرٍ رضي الله عنه قَالَ: صَحِبْنَا النَّبيَّ ﷺ وسَمِعْنَاهُ يَقُوْلُ: «**إنَّ بَيْنَ يَدَي السَّاعَةِ فِتَنًا كَأنَّها كَقِطَعِ اللَّيْلِ المُظْلِمِ، يُصْبِحُ الرَّجُلُ فِيْهَا مُؤمِنًا ثُمَّ يُمْسِي كَافِرًا، ويُمْسِي مُؤمِنًا ثُمَّ يُصْبِحُ كَافِرًا، يَبِيْعُ أقْوَامٌ خَلَاقَهُم بعَرَضٍ منَ الدُّنْيا يَسِيْرٍ، أو بعَرَضِ الدُّنيا**»، قَالَ الحَسَنُ رحمه الله: «والله لَقَدْ رَأيْنَاهُم صُوَرًا ولا عُقُوْلٌ، أجْسَامًا ولا أحْلامٌ، فَرَاشَ نَارٍ وذِبَّانَ طَمَعٍ يَغْدُوْنَ بدَرْهَمَيْنِ ويَرُوْحُوْنَ بدَرْهَمَيْنِ، يَبِيْعُ أحَدُهُم دِيْنَهُ بثَمَنِ العَنْزِ» أخْرَجَهُ أحْمدُ (١٨٤٠٤) وهُوَ صَحِيْحٌ.

وعَنْ أنَسِ بنِ مَالكٍ رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رَسُوْلُ الله ﷺ: «**إذَا أرَادَ الله بعَبْدِهِ الخيرَ عَجَّلَ لَهُ العُقُوْبَةَ في الدُّنْيا، وإذَا أرَادَ الله بعَبْدِهِ الشَّرَّ أمْسَكَ عَنْهُ بذَنْبِهِ حَتَّى يُوَافي بِهِ يَوْمَ القِيامَةِ**»، وبِهَذَا الإسْنَادِ عَنِ النَّبيِّ ﷺ قَالَ: «**إنَّ عِظَمَ الجَزَاءِ مَعَ عِظَمِ البَلاءِ، وإنَّ الله إذَا أحَبَّ قَوْمًا ابْتَلاهُم، فَمَنْ رَضِيَ فَلَهُ الرِّضَا ومَنْ سَخِطَ فَلَهُ السَّخَطُ**» أخْرَجَهُ التِّرمِذِيُّ (٢٣٩٦)، وهُوَ صَحِيْحٌ.

وعَنْ مُعَاوِيَةَ بنِ أبي سُفْيَانَ رضي الله عنه قَالَ: سَمِعْتُ النَّبِيَّ ﷺ يَقُوْلُ: «**لم يَبْقَ مِنَ الدُّنْيَا إلاَّ بَلاءٌ وفِتْنَةٌ، فَأعِدُّوا للبَلاء صَبْرًا**» أخْرَجَهُ أحْمدُ (٤/ ٩٤)، وابنُ مَاجَه (٤٠٣٥)، وأبو عَمْرٍو الدَّانِي في «الفِتَنِ» (٣) واللَّفْظُ لَهُ، وهُوَ صَحِيْحٌ، انْظُرْ «صَحِيْحَ ابنِ مَاجَه» لِلألْبَانِيِّ (٣٢٦٠).

* * *

فَإنَّ مِنْ أعْظَمِ مَا يَجِدُهُ المُسْلِمُ هَذِهِ الأيَّامَ؛ هُوَ مَا اسْتَجَدَّ واسْتَحْدَثَ

بالأمَّةِ الإسْلامِيَّةِ المَرْحُومَةِ الَّتِي تَنكَّرَ لها بَعْضُ عُلَمائِهَا، وعَقَّهَا أكْثَرُ أبْنَائِهَا؛ حتَّىٰ غَدَتْ رَهِيْنَةَ مُهاتَرَاتٍ ومُسَاوَمَاتٍ ومُغَالَطَاتٍ، كُلُّ ذَلِكَ باسْمِ: الحِكْمَةِ، أو السَّلامَةِ، وبِاسْمِ: الوَسَطِيَّةِ أو التَّيْسِيْرِ، وبِاسْمِ: التَّسَامُحِ أو التَّعَايُشِ، وبِاسْمِ: الفِكْرِ أو فِقْهِ الوَاقِعِ، وبِاسْمِ: مُوَاكَبَةِ العَصْرِ أو العَوْلَمَةِ، وبِاسْمِ: الحَضَارَاتِ أو التَّقَارُبِ . . . في غَيْرِ ذَلِكَ مِنْ مُزَايَدَاتٍ رَخِيْصَةٍ، واجْتِهَادَاتٍ بَارِدَةٍ قَدْ بَانَ عُوَارُهَا، وانْكَشَفَ سِتَارُهَا!

* * *

❑ وكَانَ لَنَا؛ قَبْلَ أنْ نَجُرَّ القَلَمَ في بَيَانِ الانْهِزَامِ الدَّعْوِيِّ؛ أنْ نُلْقِي نَظْرَةً سَرِيْعَةً في تَارِيْخِ الدَّعْوَةِ والدُّعَاةِ، لِنَسْتَلْهِمَ بَعْضَ الخُطُوْطِ العَرِيْضَةِ الَّتِي نَسْتَطِيْعُ مِنْ خِلالِهَا مَعْرِفَةُ الخَلَلِ في مَنْهَجِ الدَّعْوَةِ عِنْدَ كَثِيرٍ مِنْ أنْصَارِ (الفِكْرِ التَّرْبَوِيِّ)، وغَيْرِهِم مِنْ أدْعِيَاءِ السَّلَفِيَّةِ اليَوْمَ، فَمِنْهَا[١]:

أوَّلًا: أنَّ المُنْكَرَاتِ لا تَخْرُجُ في جُمْلَتِهَا عَنْ نَفَقَيْنِ مُظْلِمَيْنِ: نَفَقِ الشُّبُهَاتِ، ونَفَقِ الشَّهَوَاتِ.

ثانِيًا: أنْ تَكُوْنَ الحِكْمَةُ هِيَ مَنَاطُ الدَّعْوَةِ إلىٰ الله تَعَالىٰ؛ لِذَا كَانَ مِنَ الخَطَأ الدَّعْوِيِّ أنْ تَكُوْنَ الدَّعْوَةُ الإسْلامِيَّةُ: هِيَ الَّتِي تَفْرِضُ نَفْسَهَا بنَفْسِهَا كَما تَشَاءُ وبِما تَشَاءُ، دُوْنَ اعْتِبَارٍ لحَالِ المَدْعُوِّيْنَ مِنَ المُسْلِمِيْنَ وغَيْرِهِم مِنَ الكَافِرِيْنَ؛ بَلِ الدَّعْوَةُ مُتَوَقِّفَةٌ علىٰ تَحْقِيْقِ التَّوْحِيْدِ ومُنَابَذَةِ الشِّرْكِ أوَّلًا

---

(١) للدَّعْوَةِ السَّلَفِيَّةِ: خُطُوطٌ مَنْهَجِيَّةٌ، وطَرَائِقُ عِلْمِيَّةٌ، لَيْسَ هَذا مَحلَّ بَسْطِها، غيرَ أنَّني اكْتَفَيْتُ بِذِكْرِ بَعْضِها ممَّا له عُلاقَةٌ ببَحْثِنا هُنا، فانْتَبِه!

فَأوّلًا، مَعَ اعْتِبَارِ المُنْكَرَاتِ الظَّاهِرَةِ سَوَاءٌ في الشُّبُهَاتِ أو الشَّهَوَاتِ، فَما كَانَ ظَاهِرًا مِنْهُما كَانَتِ الدَّعْوَةُ أظْهَرَ فِيْهِ وهَكَذَا، بمَعْنَىٰ أنَّها لا تُغَلِّبُ جَانِبًا علىٰ جَانِبٍ.

لِذَا مِنَ الخَطأ بمَكَانٍ أنْ نَحْكُمَ علىٰ دَعْوَةٍ مَّا بِأنَّها صَائِبَةٌ أو خَاطِئَةٌ دُوْنَ اعْتِبَارٍ لتَشْخِيْصِ المُنْكَرِ المَوْجُوْدِ شُبْهَةً كَانَ أو شَهْوَةً، وهَذَا مَا يُسَمَّىٰ في مِيْزَانِ الدَّعْوَةِ الشَّرْعِيِّ: بالحِكْمَةِ، كَما قَالَ تَعَالىٰ: ﴿ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ ۖ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ ۖ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ﴾ [النحل: ١٢٥]، وقَالَ تَعَالىٰ: ﴿يُؤْتِى ٱلْحِكْمَةَ مَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِىَ خَيْرًا كَثِيرًا ۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [البقرة: ٢٦٩].

فَعِنْدَ ذَلِكَ كَانَ مِنَ الخَطَأ الدَّعْوِيِّ عِنْدَ العُلَماءِ والدُّعَاةِ مَعًا: الإغْرَاقُ (مَثَلًا) في التَّحْذِيْرِ والتَّنْفِيْرِ مِنَ الشَّهَوَاتِ: علىٰ حِسَابِ تَقْرِيْرِ التَّوْحِيْدِ، والتَّحْذِيْرِ مِنَ الشِّرْكِ ووَسَائِلِهِ في قَوْمٍ كَانَ الشِّرْكُ بَيْنَهُم ظَاهِرًا سَائِرًا: كالمزَارَاتِ والقُبُوْرِ والمَشَاهِدِ والنُّذُورِ ... إلَخْ.

وهَذه الدَّعْوَةُ للأسَفِ كَانَتْ مَبْلَغَ دَعْوَةِ جَماعَةِ (الإخْوَانَ المُسْلِمُون) وأنْصَارِ (الفِكْرِ التَّرْبَوِيِّ)، ودُعَاةِ التَّبْلِيْغِ اليَوْمَ إلَّا مَا رَحِمَ الله.

* * *

ومِنَ الخَطَأ أيْضًا أنْ يَغْرَقَ العُلَماءُ، والدُّعَاةُ مَعًا في تَقْرِيْرِ التَّوْحِيْدِ،

والتَّحْذِيْرِ مِنَ الشِّرْكِ: علىٰ حِسَابِ التَّحْذِيْرِ والتَّنْفِيْرِ مِنَ الشَّهَوَاتِ في قَوْمٍ كَانَتِ المُنْكَرَاتِ الشَّهْوَانِيَّةِ بَيْنَهُم ظَاهِرَةً وسَائِرَةً، مَعَ اخْتِفَاءِ الشِّرْكِ في الجُمْلَةِ: كظُهُوْرِ الرِّبَا والخَنَا والاخْتِلاطِ والسُّفُوْرِ والفُجُوْرِ ... إلَخْ، وهَذَا للأَسَفِ كَانَ مَبْلَغَ دَعْوَةِ أدْعِيَاءِ السَّلَفِيَّةِ اليَوْمَ إلَّا مَا رَحِمَ الله.

حَتَّىٰ إذَا قِيلَ لبَعْضِهِم: إنَّ المُنْكَرَاتِ والمَعَاصِي هُنَا وهُنَاكَ قَدِ انْتَشَرَتْ وظَهَرَتْ، وجَاهَرَ بِها أهْلُهَا وتَعَالَنُوا؟!

قَالَ بَدِيْهَةً: التَّوْحِيْدُ أوَّلًا، والاشْتِغَالُ بِهِ أوْلىٰ مِنَ الكَلامِ عَنِ هَذِهِ المُنْكَرَاتِ؟! وهِيَ: كَلِمَةُ حَقٍّ أرِيْدَ بِها بَاطِلٌ!

ثَالِثًا: أنَّ العُلَماءَ والدُّعَاةَ لَنْ يَكُوْنَ لهُم قَبُوْلٌ بَيْنَ النَّاسِ، ولَنْ يَبْقَىٰ لهُم أثَرٌ في جَبِيْنِ التَّارِيْخِ إلَّا إذَا كَانَتْ دَعْوَتُهُم مُنَاطَةً بالحِكْمَةِ الشَّرْعِيَّةِ، وذَلِكَ بمُسَايَرَةِ المُنْكَرَاتِ ظُهُوْرًا وخَفَاءً وبحَسَبِ مَا هُنَالِكَ مِنْ شُبُهَاتٍ أو شَهَوَاتٍ (كَما تَقَدَّمَ بَيَانُهُ)، وهَذَا مَبْلَغُ دَعْوَةِ أهْلِ العِلْمِ الرَّبَّانِيِّيْنَ السَّلَفِيِّيْنَ في كُلِّ عَصْرٍ ومِصْرٍ.

وأدَلُّ شَيءٍ علىٰ ذَلِكَ باخْتِصَارٍ: أنَّ الدَّعْوَةَ في عَهْدِ الخِلافَةِ الرَّاشِدَةِ، لم تَخْرُجْ قَدْرَ أُنْمُلَةٍ عَنْ مَنْهَجِ النُّبُوَّةِ، حَذْوَ القُذَّةِ بالقُذَّةِ، لِذَا نَجِدُهَا لم تُغَلِّبْ جَانِبًا علىٰ جَانِبٍ؛ بَلْ كَانَتْ دَعْوَةُ العُلَماءِ والدُّعَاةِ آنَذَاكَ: في اعْتِدَالٍ واقْتِصَادٍ، فالدَّعْوَةُ بَيْنَهُم لم تَزَلْ في سِجَالٍ بَيْنَ مُنْكَرَاتِ الشُّبُهَاتِ والشَّهَوَاتِ؛ لا تَفْرِيْقَ بَيْنَهُما إلَّا مَا فَرَّقَتْهُ هِيَ، فَما كَانَ ظَاهِرًا مِنْهَا ظَهَرَتْ دَعْوَتُهُم، والعَكْسُ بالعَكْسِ، وهَكَذَا مَا زَالَتِ الدَّعْوَةُ في العُصُوْرِ الفَاضِلَةِ

علىٰ الجَادَّةِ والاسْتِقَامَةِ: لا إِفْرَاط ولا تَفْرِيْط؛ لا في الدَّعْوَةِ ولا عِنْدَ الدُّعَاةِ.

* * *

❑ يُوضِّحُهُ: أنَّ النَّبيَّ ﷺ مَكَثَ في مَكَّةَ قَرَابَةَ ثَلاثَةَ عَشَرَ سَنَةً يَدْعُو إلىٰ تَحقِيْقِ التَّوْحِيْدِ، ومُنَابَذَةِ الشِّرْكِ؛ لأنَّ الشِّرْكَ كَانَ في أهْلِ مَكَّةَ ظَاهِرًا سَائِرًا، إلَّا أنَّهُ ﷺ في هَذِهِ الفَتْرَةِ لم يُغْفِلْ جَانِبَ إنْكَارِ المُنْكَرَاتِ.

لِذَا كَانَ مِنْ مَعِيْنِ الحِكْمَةِ الدَّعْوِيَّةِ أنَّهُ ﷺ غَلَّبَ جَانِبَ إنْكَارِ الشُّبُهَاتِ علىٰ جَانِبِ الشَّهَوَاتِ، وهَذَا بخِلافِ دَعْوَتِهِ في المَدِيْنَةِ النَّبَوِيَّةِ؛ حَيْثُ كَانَ تَغْلِيْبُ جَانَبِ المُنْكَرَاتِ الظَّاهِرَةِ وَاضِحًا ظَاهِرًا، لأنَّ شَرَائِعَ الإسْلامِ وأحْكَامِهِ لم تَزَلْ في تَدَرُّجٍ واكْتِمالٍ، ومَعَ هَذَا كُلِّهِ إلَّا أنَّهُ ﷺ لم يُغْفِلْ جَانِبَ التَّوْحِيْدِ بَيْنَ الحِيْنِ والآخَرِ، مَا بَيْنَ تَذْكِيْرٍ وتَحْذِيْرٍ وتَأكِيْدٍ، لاسِيَّما التَّحْذِيْرِ مِنَ شِرْكِ الألْفَاظِ الَّتِي جَاءَتْ مِنْ أقْوَامٍ كَانُوا قَرِيْبِي عَهْدٍ بكُفْرٍ، أو مِمَّنْ لم يَأخُذِ التَّوْحِيْدُ حَقَّهُ مِنْهُم بحُكْمِ الجَهْلِ أو غَيْرِهِ.

فقَوْلُهُ ﷺ لأهْلِ مَكَّةَ حِيْنَ جَمعَهُم: قُوْلُوا لا إلَهَ إلَّا الله، لم يَكُنْ والحَالَةُ هَذِهِ مَعَ أهْلِ المَدِيْنَةِ، وكَذَا عِنَايَتُهُ ﷺ بإنْكَارِهِ المُنْكَرَاتِ الظَّاهِرَةِ في المَدِيْنَةِ لم يَكُنْ شَأنُهُ مَعَ أهْلِ مَكَّةَ، وكَذَا يَأتِيْهِ الرَّجُلُ فَيَسْألَهُ عَنْ أمْرٍ أو وَصِيَّةٍ أو مَوْعِظَةٍ أو عَمَلٍ أو قَوْلٍ في الإسْلامِ:

فمَرَّةً يُجِيْبُهُ ﷺ: بتَحْقِيْقِ الشَّهَادَتَيْنِ، والتَّوْحِيْدِ، والإيْمانِ، والاسْتِقَامَةِ،

وعِبَادَةِ الله، ومَرَّةً بعَدَمِ الإشْرَاكِ بالله . . . وغَيْرِ ذَلِكَ ممَّا يَكُوْنُ الجَوَابُ فِيْهَا طَرِيْقًا إلىٰ تَحْقِيْقِ التَّوْحِيْدِ ومُنَابَذَةِ الشِّرْكِ.

ومَرَّةً يُجِيْبُهُ ﷺ: بتَقْوَىٰ الله، وذِكْرِ الله، وبِرِّ الوَالِدَيْنِ، وحُسْنِ الخُلُقِ، والصَّلاةِ علىٰ وَقْتِهَا، والجِهَادِ، وإفْشَاءِ السَّلامِ، وإطْعَامِ الطَّعَامِ، وقِيَامِ اللَّيْلِ، والصَّدَقَةِ، ومَرَّةً بعَدَمِ الغَضَبِ، وعَدَمِ عُقُوْقِ الوَالِدَيْنِ، وتَحْرِيْمِ الغِيْبَةِ، والسَّرِقَةِ، ومَنْعِ قِيْلَ وقَالَ، وإضَاعَةِ المَالِ، وكَثْرَةِ السُّؤَالِ . . . وغَيْرِ ذَلِكَ ممَّا يَكُوْنُ الجَوَابُ فِيْهَا طَرِيْقًا إلىٰ تَحْقِيْقِ فَضَائِلِ الأعْمالِ، ومَحَاسِنِ الأخْلاقِ، والبِرِّ، والصِّلَةِ، والإحْسَانِ.

فإنْ سَأَلْتَ أخِي المُسْلِمُ عَنِ اخْتِلافِ الجَوَابِ مِنْ سَائِلٍ لآخَرَ: فَهُوَ أنَّ الحِكْمَةَ الدَّعْوِيَّةَ هِيَ مَنَاطُ دَعْوَةِ الرُّسُلِ، وذَلِكَ بحَسَبِ حَالِ المَدْعُوِّ، وقَرَائِنِ الحَالِ؟!

هَذَا إذَا عَلِمْنَا أنَّ الكَلامَ هُنَا كَانَ علىٰ وَجْهِ الاخْتِصَارِ، وإلَّا فَالأدِلَّةُ في تَفْصِيْلِ هَذَا المُقَامِ وتَحْرِيْرِهِ مُسْتَفِيْضَةٌ لا يَسَعُهَا هَذَا الكِتَابِ، فَكُنْ علىٰ عِلْمٍ!

* * *

وبَعْدَ هَذَا التَّأصِيْلِ الشَّرعِي، إلَّا أنَّ خِلافًا حَصَلَ (للأسَفِ) عِنْدَ بَعْضِ أهْلِ العِلْمِ والدَّعْوَةِ: في تَحْقِيْقِ الحِكْمَةِ الدَّعْوِيَّةِ في قَوْمٍ كَانَتِ المُنْكَرَاتُ بَيْنَهُم ظَاهِرَةً، مَعَ اخْتِفَاءِ الشِّرْكِ في الجُمْلَةِ، فَكَانُوا علىٰ ثَلاثَةِ أقْوَالٍ:

فَالأوَّلُ مِنهُم: مَنْ غَلَّبَ جَانِبَ التَّحْذِيرِ مِنَ المُنْكَرَاتِ، مَعَ إغْفَالِ تَقْرِيْرِ التَّوْحِيْدِ، ظَنًّا مِنهُم أنَّ النَّاسَ لَيْسُوا في حَاجَةٍ إلىٰ تَقْرِيْرِ التَّوْحِيْدِ بقَدْرِ احْتِيَاجِهِم مِنْ تَرْكِ المُنْكَرَاتِ الَّتِي عَمَّتْ وطَمَّتْ بَيْنَهُم.

والثَّاني مِنهُم: مَنْ غَلَّبَ جَانِبَ تَقْرِيْرِ التَّوْحِيْدِ، والتَّحْذِيْرِ مِنَ الشِّرْكِ، مَعَ إغْفَالِ التَّحْذِيْرِ مِنَ المُنْكَرَاتِ الظَّاهِرَةِ، ظَنًّا مِنْهُم أنَّ التَّوْحِيْدَ أوْلىٰ وأهَمُّ.

والثَّالِثُ مِنْهُم: مَنْ غَلَّبَ جَانِبَ التَّحْذِيْرِ مِنَ المُنْكَرَاتِ، مَعَ عَدَمِ إغْفَالِ تَقْرِيْرِ التَّوْحِيْدِ والتَّحْذِيْرِ مِنَ الشِّرْكِ؛ لأنَّهم يَعْلَمُوْنَ أنَّ حَاجَةَ النَّاسِ إلىٰ تَصْحِيْحِ العَقِيْدَةِ والتَّوْحِيْدِ، وتَصْفِيَتِهِ مِنَ الشَّوَائِبِ الشِّرْكِيَّةِ الظَّاهِرَةِ مِنْهَا والخَفِيَّةِ. أعْظَمُ مِنْ حَاجَتِهِم للطَّعَامِ والشَّرَابِ، وكَذَا عِلْمُهُم أنَّ أحَدًا مِنَ المُسْلِمِيْنَ لا يَأمَنُ مِنَ الوُقُوْعِ فِيْما يُنَاقِضُ التَّوْحِيْدَ أو يُنْقِصُهُ، إلأنَّ أبَا الأنْبِيَاءِ إبْرَاهِيْمَ ﷺ خَافَ مِنَ الوُقُوْعِ في الشِّرْكِ، كَما قَالَ تَعَالىٰ عَنْهُ: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا ٱلْبَلَدَ ءَامِنًا وَٱجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعْبُدَ ٱلْأَصْنَامَ ﴿٣٥﴾ رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ فَمَن تَبِعَنِي فَإِنَّهُۥ مِنِّي وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [إبراهيم: ٣٥-٣٦]، وهَذَا القَوْلُ هُوَ أصْوَبُ الأقْوَالِ وأحَقُّهَا، لأنَّه مِنْ مَعِيْنِ الحِكْمَةِ الدَّعْوِيَّةِ النَّبَوِيَّةِ، والله أعْلَمُ. انْظُرْ كِتَابَ: «البَيَانِ» (٢/ ٧٧) للشَّيْخِ صَالِحِ الفَوْزَانِ حَفِظَهُ الله.

وبِهَذَا نَعْلَمُ؛ أنَّ أصْحَابَ القَوْلِ الأوَّلِ والثَّاني علىٰ خَطأ ظَاهِرٍ لمُجَانَبَتِهِمَا الحِكْمَةَ في الدَّعْوَةِ، والله المُوَفِّقُ والهَادِي إلىٰ سَوَاءِ السَّبِيْلِ.

* * *

❑ وهَكَذَا مَا زَالَتِ الدَّعْوَةُ في طَرِيْقِهَا وتَلْقِيْنِهَا علىٰ الاقْتِصَادِ والاسْتِقَامَةِ؛ حَتَّىٰ إذَا غَلَبَتِ الأهْوَاءُ والشَّهَوَاتُ بأصْحَابِهَا مِنْ حُكَّامٍ ومَحْكُوْمِيْنَ، وعُلَماءِ ودُعَاةٍ، وتَغَايَرَتْ مَسَالِكَ الدَّعْوَةِ، واخْتَلَفَتْ مَفَاهِيْمُ الدُّعَاةِ: فَعِنْدَهَا ظَهَرَ الخَلَلُ والفَسَادُ في الحَيَاةِ الإسْلامِيَّةِ، وهَذَا الخَلَلُ لَهُ أسْبَابٌ كَثِيْرَةٌ لا تَخْرُجُ في غَالِبِهَا عَنْ أمْرَيْنِ: الغُلُوِّ، والتَّفْرِيْطِ.

الأوَّلُ: ظُهُوْرُ الغُلُوِّ، وهُوَ كَامِنٌ في فِرْقَةِ الخَوَارِجِ، فالخَوَارِجُ غَلَوْ في الإنْكَارِ علىٰ أهْلِ المُنْكَرَاتِ؛ حَتَّىٰ أنَّهم كَفَّرُوا مَنْ لم يُكَفِّرْهُ الله، ولا رَسُوْلُهُ ﷺ.

الثَّاني: ظُهُوْرُ التَّفْرِيْطِ، وهُوَ كَامِنٌ في مُعْتَقَدِ المُرْجِئَةِ، فالمُرْجِئَةُ فَرَّطَتْ في الإنْكَارِ علىٰ أهْلِ المُنْكَرَاتِ؛ حَتَّىٰ أنَّهم لم يُكَفِّرُوا مَنْ كَفَّرَهُ الله، ورَسُوْلُهُ ﷺ.

وهَاتَانَ الطَّائِفَتَانِ في حَقِيْقَتِهِما لم تَكُوْنَا وَلِيْدَتَا فِكْرٍ بِقَدْرِ مَا هُمَا خَلِيْطُ أفْكَارٍ مَمْزُوْجَةٍ بصِفَاتٍ رَدِيْئَةٍ، كَانَ مِنْ أهَمِّهَا: انْتِشَارُ الجَهْلِ، وقِلَّةُ العِلْمِ، واتِّبَاعُ الهَوَىٰ، ومُخَالَفَةُ السَّلَفِ عِلْمًا وعَمَلًا وفَهْمًا للأدِلَّةِ الشَّرْعِيَّةِ!

* * *

❑ وعِنْدَ النَّظَرِ والتَّمْحِيْصِ: نَجِدُ المُرْجِئَةَ أشَرَّ الطَّائِفَتَيْنِ، وأضَرَّهَا علىٰ الإسْلامِ والمُسْلِمِيْنَ.

قَالَ ابنُ تَيْمِيَّةَ رَحِمَهُ اللهُ: «ضَلالُ المُرْجِئَةِ صَارَ سَبَبًا لخَطَأٍ عَظِيْمٍ في العَقَائِدِ والأعْمَالِ، ولهَذَا عَظُمَ القَوْلُ في ذَمِّ الإرْجَاءِ؛ حَتَّىٰ قَالَ إبْرَاهِيْمُ النَّخَعِيُّ:

«لفِتْنَتُهُم عِنْدِي أخْوَفُ علىٰ هَذِهِ الأمَّةِ مِنْ فِتْنَةِ الأزَارِقَةِ. يَعْنِي المُرْجِئَةِ»، وقَالَ الزُّهْرِيُّ رَحِمَهُ اللهُ: «مَا ابْتَدعَتْ بِدْعَةٌ أضَرَّ علىٰ أهْلِهِ مِنَ الأهْوَاءِ شِيءٌ أو أخْوَفَ علىٰ الأمَّةِ مِنَ الإرْجَاءِ»، وقَالَ الأوْزَاعِيُّ رَحِمَهُ اللهُ: كَانَ يَحْيَىٰ وقَتَادَةُ يَقُوْلانِ: «لَيْسَ مِنَ الأهْوَاءِ شَيءٌ أخْوَفَ علىٰ الأمَّةِ مِنَ الإرْجَاءِ»، وقَالَ سَعِيْدُ بنُ جُبَيْرٍ رَحِمَهُ اللهُ: «المُرْجِئَةُ يَهُوْدُ القِبْلَةِ»، انْظُرْ «الإبَانَةَ» للعُكْبَرِيِّ (٢/ ٨٨٥)، و«السُّنَّةَ» لعبْدِ الله بنِ أحمَدَ (١/ ١١٣)، و«مَجْمُوعَ الفَتَاوَىٰ» لابنِ تَيْمِيَّةَ (٧/ ٣٩٤).

وقَالَ ابنُ عَقِيْلٍ رَحِمَهُ اللهُ: «فَهُم (المُرْجِئَةُ) أشَرُّ طَائِفَةٍ علىٰ الإسْلامِ»، انْظُرْ «تَلْبِيسَ إبْلِيسَ» لابنِ الجَوْزِيِّ (٨٤).

وهَكَذَا لم يَزَلِ السَّلَفُ يُحَذِّرُوْنَ مِنَ المُرْجِئَةِ لاسِيَّما الغَالِيَةِ مِنْهَا، ومَا ذَاكَ إلَّا لهَدْمِهَا لمَعَالمِ الإسْلامِ، وحَسْرِهَا الأعْمالَ عَنِ الإيْمانِ.

قَالَ ابنُ تَيْمِيَّةَ رَحِمَهُ اللهُ في «مَجْمُوعِ الفَتَاوَىٰ» (٧/ ١٦٤) «كَثِيرٌ مِنَ المُتَأخِّرِيْنَ لا يُمَيِّزُوْنَ بَيْنَ مَذَاهِبِ السَّلَفِ وأقْوَالِ المُرْجِئَةِ الجَهْمِيَّةِ لاخْتِلاطِ هَذَا بِهَذَا في كَلامٍ كَثِيرٍ».

هَذَا إذَا عَلِمْنَا: أنَّ الخَوَارِجَ لا يُبْدَؤونَ بِقِتَالٍ مَا لم يَبْدَؤوْنَا حَقِيْقَةً أو حُكْمًا، خِلافًا للمُرْجِئَةِ؛ فقِتَالُهُم مَشْرُوْعٌ ابْتِداءً، لاسِيَّما إذَا عَطَّلُوا بَعْضَ شَعَائِرِ الإسْلامِ الظَّاهِرَةِ: مِثْلَ الصَّلاةِ، أو الزَّكَاةِ، أو الأذَانِ، أو غَيْرِهَا؛ فافْهَمْ هَذَا!

* * *

❑ ومِنْ هُنَا سَوْفَ نَجُرُّ تَارِيْخَ الدَّعْوَةِ الإسْلامِيَّةِ إلىٰ وَقْتِنَا الحَاضِرِ؛ قَاطِعِيْنَ علىٰ المُسْلِمِ النَّاظِرِ: تَارِيْخَ ومَعَالمَ الدَّعْوَةِ ابْتِدَاءً بالدَّوْلَةِ الأمَوِيَّةِ، ومُرُوْرًا بالعَبَّاسِيَّةِ، وكَذَا دُوَلِ المَمالِيْكِ، وانْتِهَاءً بالدَّوْلَةِ العُثْمانِيَّةِ، ومَا ذَاكَ إلَّا طَلَبًا للاخْتِصَارِ، كَما هُوَ شَرْطُ كِتَابِنَا، والله المُوَفِّقُ .

* * *

فأقُوْلُ: لمَّا بَدَأ الخَلَلُ عِنْدَ بَعْضِ أهْلِ العِلْمِ والدُّعَاةِ في عَصْرِنَا ومِصْرِنَا، واسْتَحْكَمَ الانْهِزَامُ الدَّعْوِيُّ عَلَيْهِم: وذَلِكَ بالتَّوَسُّعِ والإغْرَاقِ في مُحَارَبَةِ جَانِبِ الشُّبُهَاتِ، والتَّهْوِيْنِ والتَّقْلِيْلِ في جَانَبِ الشَّهَوَاتِ، في زَمَنٍ وبَلَدٍ قَلَّ في أهْلِهِ الشِّرْكُ الظَّاهِرُ، وانْتَشَرَتْ بَيْنَهُمُ المُنْكَرَاتُ والشَّهَوَاتُ الظَّاهِرَةُ . . . فَعِنْدَهَا ظَهَرَ الإرْجَاءُ الخَفِيُّ بتَدَسُّسٍ إلىٰ بَعْضِ الدُّعَاةِ مِنْ أهْلِ العِلْمِ، وهُم في وَظَائِفِهِم غَافِلُوْنَ، أو في بُيُوْتِهِم نَائِمُوْنَ، وذَلِكَ بالتَّفْرِيْقِ بَيْنَ إنْكَارِ الشُّبُهَاتِ وتَرْكِ الشَّهَوَاتِ ظَنًّا مِنْهُم أنَّ تَرْسِيْخَ العَقِيْدَةِ أوْلىٰ (وهِيَ: كَلِمَةُ حَقٍّ أرِيْدَ بِها بَاطِلٌ)!

وهَكَذَا في مَسَارِبَ خَفِيَّةٍ لفِكْرِ الإرْجَاءِ؛ حَتَّىٰ قَامَتْ سُوْقُ الجَامِعَاتِ في التَّسَابُقِ لتَسْجِيْلِ الأطَارِيْحِ العِلْمِيَّةِ المُقَرَّرَةِ لمَذْهَبِ أهْلِ السُّنَّةِ والجمَاعَةِ، أو المُحذِّرَةِ مِنْ طَرَائِقِ ومَذَاهِبِ أهْلِ البِدَعِ . . . فَعِنْدَهَا أصْبَحَ الرَّجُلُ في زَمَانِنَا ممَّنْ يُحْسِنُ الكَلامَ عَنِ «التَّوْحِيْدِ»، أو يُحْسِنُ تَحْقِيْقَ مَخْطُوْطَةٍ في «العَقِيْدَةِ»: عَالمًا سَلَفِيًّا في سُوْقٍ رَاجَتْ فِيْهِ العَقِيْدَةُ علىٰ حِسَابِ: التَّخَاذُلِ عَنِ القِيَامِ بوَاجِبِ الإنْكَارِ علىٰ أهْلِ الشَّهَوَاتِ إلَّا مَا رَحِمَ الله!

وممَّن تنَبَّه لِذَلِكَ الأمْرِ الشَّيْخُ سَفَرُ حَفِظَهُ الله بقَوْلِهِ في «ظَاهِرَةِ الإرْجَاءِ» (١٣): «ولكِنَّ الأمَّةَ وهِي تَتَراخَىٰ عَنِ العَمَلِ بالتَّدرِيْجِ وتَنْفَلِتُ مِنَ الوَاجِبَاتِ، وتَنْحدِرُ عَنْ قِمَّةِ الامْتِثَالِ رُوَيْدًا رُوَيْدًا كَانَتْ تَجِدُ في الإرْجَاءِ تَفْسِيرًا مُرِيحًا يُبرِّرُ لها تَرَاخِيْهَا وتَفْرِيْطَها. وهَذِهِ حَقِيْقَةٌ نَفْسِيَّةٌ مَعْرُوْفَةٌ. فكُلُّ مَا انْحَسَرَ عَنْهُ العَمَلُ وَاقِعِيًّا سَتَرَهُ ثَوْبُ الإرْجَاءِ الوَاسِعِ نَظَرِيًّا».

وهَكَذَا حَتَّىٰ وَصلَ الشَّيْخُ إلىٰ هَذِهِ النَّتِيْجَةِ المَخُوْفَةِ: «ولكِنَّ الحَالَ تَغَيَّرَ بَعْدَ انْتِشَارِ الظَّاهِرَةِ وسَيْطَرَتِهَا؛ إذْ أصْبَحَتِ الأمَّةُ في القُرُوْنِ الأخِيْرَةِ تَتَبَنَّىٰ الإرْجَاءَ عَقِيْدَةً ومَنْهَجًا، وتَعَدُّ مُخَالِفَهُ خَارِجًا مَارِقًا، وتَضْبِطُ دِيْنَهَا وأحْكَامَهُ، وإيْمانَها بأصُوْلِهِ وقَوَاعِدِهِ».

وهَذَا مَا ذَكَرَهُ أيْضًا بقَوْلِهِ (١١): «وإنْ تَعْجَب فَاعْجَبْ لكَوْنِ النَّظْرَةِ الغَالِبَةِ علىٰ كَثِيرٍ مِنْ شَبَابِ الدَّعْوَةِ الإسْلامِيَّةِ اليَوْمَ هِيَ أنَّ عَقِيْدَةَ أهْلِ السُّنَّةِ والجَماعَةِ لا تَعْدُو أنْ تَكُوْنَ تَصَوُّرَاتٍ نَظَرِيَّةٍ صَحِيْحَةٍ لعَالمِ الغَيْبِ، وقَضَايَا الاعْتِقَادِ، ولَيْسَتْ ـ مَعَ ذَلِكَ ـ مَنْهَجًا للدَّعْوَةِ والإصْلاحِ والتَّغْيِيرِ!

ويَجِبُ أنْ تَعْتَرِفَ بَأنَّ السَّبَبَ في هَذَا الفَهْمِ القَاصِرِ، هُوَ حَمَلَةُ هَذِهِ العَقِيْدَةِ ـ قَبْلَ كُلِّ شَيءٍ ـ الَّذِيْنَ لم يُوَضِّحُوا مَعَالمَهَا، ويَكْشِفُوا عَنْ كَمالِهَا الَّذِي هُوَ حَقِيْقَةُ كَمالِ الإسْلامِ نَفْسِهِ» انْتَهَىٰ.

* * *

وأشَدُّ مِنْ ذَلِكَ؛ أنَّ الإرْجَاءَ لم يَعُدْ ظَاهِرَةً؛ بَلْ أصْبَحَ أهْلُهُ (للأسَفِ!)

خُصُوْمًا للدُّعاةِ النَّاصِحِيْنَ، ومُخَذِّلِيْنَ لكُلِّ مَنْ يَعْمَلُ لهَذَا الدِّيْنِ، وهَذَا في حَقِيْقَتِهِ فَسَادٌ عَرِيْضٌ، وهَذَا مَا أكَّدَهُ الشَّيْخُ سَفَرٌ أيْضًا بِقَوْلِهِ (١٢): «أمَّا حِيْنَ نَبْحَثُهُ (الإرْجَاءَ) علىٰ أنَّهُ ظَاهِرَةٌ فِكْرِيَّةٌ نَشَأتْ ثُمَّ تَطَوَّرَتْ إلىٰ وَاقِعٍ ضَخْمٍ يُوَاجِهُ كُلَّ دَعْوَةٍ تَجْدِيْدِيَّةٍ، ونُفَسِّرُ بِهِ كَثِيْرًا مِنْ أسْبَابِ التَّخَاذُلِ والتَّرَدِّي الَّذِي تُعَاني مِنْهُ الأمَّةُ عَامَّةً، والدَّعْوَةُ خَاصَّةً، فَإنَّ نَتَائِجَ الإيجَابِيَّةِ لِذَلِكَ سَيَنْهَالُ عَلَيْنَا مِنْ كُلِّ جَانَبٍ، وحَسْبُنَا إنْ لم نُعْطِ القَضِيَّةَ حَقَّهَا أنْ نُثِيرَهَا ونَبْعَثَهَا ونَخْطُوَ في سَبِيْلِهَا مَا اسْتَطَعْنَا، ثُمَّ الله يَهْدِي لهَا مَنْ يَشَاءُ» انْتَهىٰ.

إلَّا أنَّنَا مَعَ هَذَا؛ نُقِرُّ ونَشْهَدُ أنَّ طَائِفَةً لَيْسَتْ بالقَلِيْلَةِ مِنْ أهْلِ العِلْمِ الرَّبَّانِيِّيْنَ، قَدْ قَامُوا بحَقِيْقَةِ الدَّعْوَةِ علىٰ مَنْهَجِ أهْلِ السُّنَّةِ والجماعَةِ، لاسِيَّما عُلَماؤنَا الكُبَارُ مِنْ أهْلِ هَذِهِ البِلادِ وغَيْرِهَا.

* * *

فَعِنْدَئِذٍ؛ لمَّا قَامَ كَثِيرٌ مِنْ أهْلِ العِلْمِ والدَّعْوَةِ مُؤخَّرًا في الجَمْعِ بَيْنَ العِلْمِ والعَمَلِ والتَّذْكِيْرِ والتَّحْذِيْرِ، ونَشْرِ السُّنَّةِ وقَمْعِ البِدْعَةِ ... كَانَ قَدَرُ الله تَعَالىٰ سَابِقًا؛ حَيْثُ كَانَ مَصِيرُ أصْحَابِها التَّوْقِيْفَ، أو الحَبْسَ، أو المُسَائَلَةَ في غَيْرِهَا ممَّا كَتَبَهُ الله علىٰ عِبَادِهِ الصَّالحِيْنَ، إلَّا أنَّ هَذَا الابْتِلاءَ لم يَنْتَهِ إلىٰ هَذَا الحَدِّ والعَدِّ بِهَؤلاءِ الدُّعَاةِ؛ بَلْ تَعَدَّاهُ إلىٰ بَعْضِ طُلَّابِهِم مِمَّنْ لهُم تَأثُّرٌ بِهِم وبدَعْوَتِهم: فِكْرًا ومَنْهَاجًا، فَعِنْدَ ذَلِكَ؛ تَسَاقَطَتْ هَيْشَاتُ الجماهِيْرِ الغَفِيْرَةِ، وافْتَرَقَتِ الجُمُوْعُ الكَثِيْرةُ، وتَنَكَّرَتِ القُلُوْبُ عِنْدَ جَمْهَرَةٍ لَيْسَتْ بالقَلِيْلَةِ، إلَّا أنَّ هَذَا لم يَكُنْ شَرًّا مَحْضًا؛ بَلْ كَانَ مِنَ الخَيْرِ العَمِيْمِ،

والتّمايُزِ السَّلِيْمِ، لِمَا تَنْتَظِرُهُ الأمّةُ الإسْلامِيَّةُ مِنْ أيَّامٍ قَادِمَةٍ، مِنْ فِتَنٍ وحُرُوْبٍ ومَلاحِمَ.

كَما قَالَ تَعالىٰ: ﴿مَّا كَانَ ٱللَّهُ لِيَذَرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ ٱلْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ ۗ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى ٱلْغَيْبِ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَجْتَبِى مِن رُّسُلِهِۦ مَن يَشَآءُ ۖ فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ ۚ وَإِن تُؤْمِنُواْ وَتَتَّقُواْ فَلَكُمْ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ [آل عمران: ١٧٩]. وغَيْرُهَا مِنَ الأدِلَّةِ الشَّرْعِيَّةِ الدَّالَةِ علىٰ وجُوْبِ التَّمايُزِ والتَّفارُقِ بَيْنَ جماعَةِ المُسْلِمِيْنَ لِيَحْيَ مَنْ يَحْيَ علىٰ بيِّنَةٍ، ويَهْلَكَ مَنْ يَهْلَكَ عَنْ بيِّنَةٍ!

* * *

وهَكَذَا كَانَ قَدَرُ الله مَقْدُوْرًا؛ حَتَّىٰ إذَا أحْكَمَتِ القَبْضَةُ الانهِزامِيَّةُ علىٰ بَعْضِ أهْلِ العِلْمِ والدَّعْوَةِ، وأخَذَتْ في رَوْعِهِم الوَجَلَ والمَسَائَلَةَ - فَعِنْدَهَا اخْتَفَىٰ واسْتَخْفَىٰ نَفَرٌ كَثِيْرٌ مِنْ أهْلِ العِلْمِ عَنْ مَيَادِيْنِ الدَّعْوَةِ (للأسَفِ) باسْمِ: الحِكْمَةِ!

حَتَّىٰ إذَا ظَهَرَتِ المَعَاصِي، وانْتَشَرَتِ المُنْكَرَاتُ، خَرَجَ خَلْقٌ كَثِيْرٌ مِنْ أنْصَارِ (الفِكْرِ التَّرْبَوِيِّ) مِمَّنْ أخَذَتْهُمُ الغَيْرَةُ والحَمِيَّةُ علىٰ الإسْلامِ، فَخَرَجُوا مُتَحَسِّسِيْنَ خَبَرَ السَّالِفِيْنَ، إلَّا أنَّ أكْثَرَهُم (للأسَفِ!) كَانُوا دُعَاةً أكْثَرَ مِنْ كَوْنِهِم أهْلَ عِلْمٍ، فَعِنْدَهَا خَرَجُوا للأمَّةِ باسْمِ: الوَعْظِ والتَّذْكِيْرِ في ثَوْبِ المُحَاضَرَاتِ والنَّدَوَاتِ؛ حَتَّىٰ غَلَبَ عَلَيْهِمُ الوَعْظُ، كُلُّ ذَلِكَ خَوْفًا مِنْ مُوَاجَهَةِ أهْلِ المَعَاصِي، وهَكَذَا أكْثَرُوا وغَلَوْا في وَعْظِهِم نَاسِيْنَ وَرَاءَهُم بَعْضَ الأخْطَاءِ الشَّرْعِيَّةِ . . . فَلا إنْكَارًا أنْكَرُوْهُ، ولا بَاطِلًا فَضَحُوْهُ (في

الجُمْلَةِ) اللَّهُمَّ تَحْذِيْرَاتٌ ونَصَائِحُ، وتَرْهِيْبٌ مِنَ المَعَاصِي ومَا أعَدَّ الله لأصْحَابِها، وتَرْغِيْبٌ في الطَّاعَةِ ومَا أعَدَّ الله لأصْحَابِها، في غَيْرِ ذَلِكَ مِنَ الوَعْظِ والتَّذْكِيْرِ، الَّذِي كَانَ يُسَمَّىٰ أصْحَابُهُ في مِيْزَانِ السَّلَفِ: القَصَّاصُوْنَ والوُعَّاظُ، ومَعَ هَذَا الوَعْظِ أيْضًا لم تَزَلِ المَعَاصِي والمُنْكَرَاتُ في اسْتِمْرَارٍ ورَوَاجٍ، وتَعَالُنَ مِنْ أصْحَابِها، ومُجَاهَرَةٍ بِها، وتَزْيِيْنٍ مِنْ أهْلِ الشَّهَوَاتِ والفَسَادِ، وحُبٌّ لإشَاعَتِهَا بَيْنَ المُسْلِمِيْنَ، والمَيْلِ بِهِم عَنْ طَاعَةِ الله!

* * *

❑ فَأمَّا إذَا سَألْتَ عَنِ القَصَّاصِيْنَ: فَهُمُ الوُعَّاظُ الَّذِيْنَ يَعْقِدُوْنَ المَجَالِسَ والحِلَقَ الوَعْظِيَّةَ الَّتِي تُضَاهِي مَجَالِسَ العِلْمِ، يَعِظُوْنَ النَّاسَ فِيْهَا بالحِكَايَاتِ والإسْرَائِيْلِيَّاتِ ونَحْوِهَا ممَّا لا أصْلَ لَهُ.

لأجْلِ هَذَا قَامَتْ كَلِمَةُ السَّلَفِ الصَّالِحِ في التَّحْذِيْرِ مِنْ بِدْعَةِ القُصَّاصِ، كَمَا حَذَّرُوا مِنْهُم، ونَادُوا عَلَيْهِم في كُلِّ نَادٍ ووَادٍ.

وأوَّلُ مَا حَدَثَتْ بِدْعَةُ القُصَّاصِ، كَانَتْ في عَهْدِ عَليِّ بنِ أبي طَالِبٍ ﷺ، فأنْكَرَهَا الصَّحَابَةُ ﷺ، والتَّابِعُوْنَ.

فَقَدْ رَوَىٰ ابنُ وَضَّاحٍ في كِتَابِهِ: «البِدَعِ والنَّهْيِ عَنْها» (٢٠) عَنْ عُبَيْدِ الله بنِ نَافِعٍ قَالَ: «لم يُقَصَّ علىٰ عَهْدِ النَّبِيِّ ﷺ، ولا أبي بَكْرٍ وعُمَرَ ولا عُثْمانَ، وأوَّلُ مَا كَانَ القَصَصُ حِيْنَ الفِتْنَةِ».

ورَوَىٰ أيْضًا (١٦) أنَّ عَليَّ بنَ أبي طَالِبٍ ﷺ كَانَ يَمْنَعُ القُصَّاصَ،

لأنَّهم أخذُوا يُحدِّثُوْنَ النَّاسَ بالغَرَائِبِ والمُتَشابِهَاتِ ومَا لا تُدرِكُهُ عُقُوْلُهُم ومَا لا يَعْرِفُوْنَ.

ورَوَىٰ أيْضًا (٢٠): أنَّ ابنَ عُمَرَ كَانَ يَأمُرُ الشُّرْطَةَ بإخْرَاجِ القُصَّاصِ مِنَ المَسَاجِدِ!

ورَوَىٰ أيْضًا (١٩): أنَّ عُمَرَ بنَ عَبْدِ العَزِيْزِ كَانَ يَسْجُنُ القُصَّاصَ، ومَنْ يَجْلِسُ إلَيْهِم.

فانْظُرْ أخْبَارَهُم وتَحْذِيْرَ السَّلَفِ مِنْ قَصَصِهِم ومَوَاعِظِهِم في كِتَابِ «البِدَعِ والنَّهْيِ عَنْها» لابنِ وَضَّاحٍ، و«تَحْذِيرِ الخَوَاصِ» للسُّيُوطيِّ رَحِمَهُما الله تَعالىٰ.

* * *

قُلْتُ: فأمَّا الوُعَّاظُ مِنْ أهْلِ العِلْمِ: فمَجَالِسُهُم مِنْ أصْلِ الدِّيْنِ، وآيَةِ المُؤمِنِيْنَ، كَمَا قَالَ تَعالىٰ: ﴿وَذَكِّرْ فَإِنَّ ٱلذِّكْرَىٰ تَنفَعُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الذاريات: ٥٥].

فَالمَوْعِظَةُ والتَّذْكِيْرُ عِنْدَ السَّلَفِ الصَّالِحِ لا تَخْرُجُ في مَجْمُوْعِهَا عَنْ أدِلَّةِ التَّرْغِيْبِ والتَّرْهِيْبِ، كَمَا أنَّها كَانَتْ في حُدُوْدٍ مَعْرُوْفَةٍ خَوْفًا مِنَ السَّآمَةِ، ولم تَكُنْ تُضَاهِي مَجَالِسَ أهْلِ العِلْمِ، كَما أنَّها لم تَكُنْ أيْضًا هِيَ الحَصِيْلَةَ العِلْمِيَّةَ الَّتِي يَعِيْشُ وَرَاءَهَا الشَّابُ العَائِدُ إلىٰ الله تَعالىٰ صَبَاحَ مَسَاءَ!

* * *

فَعِنْدَ ذَلِكَ لا تَعْجَبْ إِذَا قُلْتُ: إِنَّ الأَمْرَ وَصَلَ بِهَذِهِ الدَّعْوَاتِ الوَعْظِيَّةِ أَنَّها قَدْ أُصِيْبَتْ بِضَعْفٍ وتَبَعِيَّةٍ؛ ومَا ذَاكَ إِلَّا أَنَّها رَضِيَتْ أَنْ تَدْعُو إِلىٰ الله تَعَالىٰ علىٰ اسْتِحْيَاءٍ وخَوْفٍ مِنَ المُسَائَلَةِ الَّتِي أَصْبَحَتْ هَاجِسًا مُؤرِّقًا لها، فَعِنْدَهَا اسْتَكَانَتْ نُفُوْسُهُم، وخَنَعَتْ قُلُوْبُهُم للوَاقِعِ المَرِيْرِ، والأَمْرِ العَسِيْرِ، فَلَنَا ولهُمُ الله!

وهَكَذَا سَارَتْ عَجَلَةُ هَذِهِ الدَّعْوَاتِ في طَرِيْقٍ وَحِيْدٍ مُوْحِشٍ، في أَرْضٍ مُسْبِعَةٍ؛ حَتَّىٰ رَضَوْا أَنْ يُشَارِكُوا أَهْلَ المَعَاصِي في مُنْتَدَيَاتِهِم وحَفَلاتِهِم، ونَوَادِيْهِم كَمَا سَيَأتي ذِكْرُهُ.

* * *

❑ **أَمَّا أَخْبَارُهُم فَخُذْهَا لا شِيَةَ فِيْهَا باخْتِصَارٍ:**

فَكَمْ نَادٍ ثَقَافيٍّ أو رِيَاضِيٍّ أَقَامَ أَصْحَابُهُ الحَفَلاتِ الغِنَائِيَّةَ، والأَمْسِيَّاتِ المُظْلِمَةَ دُوْنَ نَكِيْرٍ ولا رَقِيْبٍ!

ومَعَ هَذَا كُلِّهِ نَجِدُ أَصْحَابَ هَذِهِ النَّوَادِي لم يَبْخَلُوا بصَدَقَاتِهِم علىٰ المُسْتَضْعَفِيْنَ مِنْ أَهْلِ الدَّعَوَاتِ (الطَّيِّبَةِ!) حِيْنَ جَعَلُوا لهُم فَتَرَاتٍ هَامِشِيَّةً في بَرَامِجِ الحَفْلِ، كَي يَقُوْمُوا بوَعْظِ النَّاسِ . . . فالله أَعْلَمُ هَلْ أَرَادُوا بِهَذَا الصَّنِيْعِ أَنْ يَضْفُوْا الصِّبْغَةَ الشَّرْعِيَّةَ علىٰ مَا يُرَوِّجُوْنَهُ في نَوَادِيْهِم، وتَهْوِيْنَ المُنْكَرَاتِ في قُلُوْبِ النَّاسِ بحُكْمِ التَّقَارُبِ بَيْنَ أَهْلِ المَعَاصِي وأَهْلِ الطَّاعَةِ، أو لَعَلَّ شَيْئًا غَيْرُ ذَلِكَ؟

فَكَمْ مَسْرَحٍ أُقِيمَ للسِّيَاحَةِ وقَدْ أُجلِبَتْ فِيْهِ المُنْكَرَاتُ مِنْ غِنَاءٍ ورَقْصٍ، واخْتِلاطٍ ... إلَخْ، ومَعَ هَذَا السُّفُوْرِ والفُجُوْرِ لم يَبْخَلْ أصْحَابُهُ بصَدَقَةٍ وَقْتِيَّةٍ هَامِشِيَّةٍ للوُعَّاظِ، وهَكَذَا في غَيْرِ مُخَيَّمٍ ثَقَافِيٍّ، ومِنْ أسْوَئِهَا مَا يَكُوْنُ مِنِ اسْتِضَافَاتٍ ومُسَاوَمَاتٍ تُقَامُ في المَسَارِحِ العَامَّةِ!

وهَكَذَا ظَهَرَتْ هَذِهِ الدَّعْوَاتُ بَرِيْئَةً (طَيِّبَةً!)، قَدْ غُلِبَتْ علىٰ أمْرِهَا، ولَكِنْ لَعَلَّ الله يُحْدِثُ بَعْدَ ذَلِكَ أمْرًا، في حِيْنَ أنَّها تَعْلَمُ أنَّ هَذَا الطَّرْحَ والمَنْهَجَ الخَاضِعَ للوَاقِعِ لَيْسَ مِنَ الجِدِّيَّةِ بشَيءٍ، كَما أنَّهُ لَيْسَ مِنَ التَّأثِيْرِ بشَيءٍ، فَكَمْ حَضَرَ لهُمُ الجَمُّ الغَفِيرُ!

إلَّا أنَّه لم يَكُنْ هُنَاكَ تَغْيِيرٌ مَلْمُوْسٌ بقَدْرِ هَذَا الاجْتِماعِ؛ بَلْ مَا زَادَ النَّاسُ إلَّا خَوْضًا في مُسْتَنْقَعَاتِ الرَّذِيْلَةِ، ومَا ذَاكَ إلَّا لكَوْنِ هَذَا الدَّاعِي لا يُرِيْدُ أن يَمَسَّ مُنْكَرَاتِهِم في هَذَا المُنْتَدَىٰ خَوْفًا مِنَ الحَرَجِ، كَما لا يُرِيْدُ أنْ يَخْدُشَ مَشَاعِرَهُم ولَوْ بِشَيءٍ مِنَ الإنْكَارِ، والله تَعَالىٰ أعْلَمُ!

* * *

فَلَيْسَ مِنْ حِكْمَةِ الدَّعْوَةِ إلىٰ الله تَعَالىٰ؛ أنْ يَأخُذَ دُعَاةُ اليَوْمِ طَرِيْقَهُم إلىٰ الدَّعْوَةِ بالتَّذْكِيْرِ والوَعْظِ دُوْنَ اعْتِبَارٍ للمُنْكَرَاتِ والمَعَاصِي بالتَّحْذِيْرِ والإنْكَارِ وقَطْعِ كُلِّ طَرِيْقٍ يُؤدِّي إلَيْهَا، وإلَّا كَانَ التَّنَاقُضُ والخَلَلُ في الدَّعْوَةِ حِيْنَئِذٍ، كَمَا عَلَيْهِم ألَّا يَنْظُرُوا إلىٰ كَثْرَةِ الحُضُوْرِ للمَوَاعِظِ والمُحَاضَرَاتِ فَقَطْ؛ بَلْ عَلَيْهِم أنْ يَنْظُرُوا أيْضًا إلىٰ عَدَدِ التَّائِبِيْنَ إلىٰ الله تَعَالىٰ، وإلىٰ مَا أحْدَثَتْهُ هَذِهِ

المَوَاعِظُ: مِنْ تَحْصِيْلِ المَصَالِحِ وتَكْمِيْلِهَا، وتَعْطِيْلِ المَفَاسِدِ وتَقْلِيْلِهَا!

* * *

ومَعَ مُرُوْرِ الأيَّامِ، وقِلَّةِ النَّصِيْرِ، وضَعْفِ التَّأصِيْلِ العِلْمِيِّ؛ إذْ بِأصْحَابِ هَذِهِ الدَّعْوَاتِ الوَعْظِيَّةِ، يَتَشرَّبُوْنَ هَذِهِ الدَّعْوَةَ الهَزِيْلَةَ، ويَتَسَرْبَلُوْنَ بِثِيَابِهَا، ويَألَفُوْنَ ضَعْفَهَا شَيْئًا فَشَيْئًا؛ حَتَّىٰ أصْبَحَتْ هَذِهِ الطَّرَائِقُ المُنْهَزِمَةُ عِنْدَهُم شَيْئًا مَذْكُوْرًا، وآلَ بِهِمُ الأمْرُ والحَالُ أنْ أصْبَحُوا يَرَوْنَ في ضَعْفِهِم قُوَّةً، وفي إذْلالِهِم عِزَّةً، وفي انْهِزَامِهِم حِكْمَةً، وفي تَرَاجُعِهِم تَقَدُّمًا؛ حَتَّىٰ شَبَّ الصَّغِيْرُ بَيْنَهُم، وهَرِمَ الكَبِيْرُ عِنْدَهُم علىٰ هَذَا الطَّرْحِ الدَّعْوِيِّ المُنْهَزِمِ، فَكَانَ مِنَ العَسِيْرِ أنْ يَتَرَاجَعُوا عَنْ هَذَا المَنْهَجِ الدَّعْوِيِّ، ومَا ذَاكَ إلَّا أنَّ كَثِيرًا مِنْ أصْحَابِ هَذِهِ الدَّعْوَاتِ قَدْ دَفَعَتْهُم عَجلَةُ الشُّهْرَةِ، واسْتَحْوَذَتْ عَلَيْهِمُ الضُّغُوْطُ العَصْرِيَّةُ الآخِذَةُ بِرِقَابِهِم إلىٰ مَهْزَلَةٍ دَعَوِيَّةٍ كَبَيْتِ العَنْكَبُوْتِ، فَعِنْدَهَا قَامُوا سِرَاعًا إلىٰ احْتِضَانِ كُلِّ مَا مِنْ شَأنِهِ الظُّهُوْرُ ... حَتَّىٰ إنَّهم لم يَسْتَأخِرُوا لَحْظَةً في المُشَارَكَةِ في القَنَوَاتِ الفَضَائِيَّةِ، والصُّحُفِ اليَوْمِيَّةِ، والمَجَلَّاتِ المَحَلِيَّةِ، والنَّوَادِي الرِّيَاضِيَّةِ، والمَوَاقِعِ العَنْكَبُوْتِيَّةِ ... مَعَ مَا فِيْهَا مِنِ اسْتِهَانَةٍ بالتَّصْوِيْرِ، والتَّرْقِيْعِ، والتَّمْيِيْعِ، والتَّرْخِيْصِ، والتَّلْطِيْفِ ... في غَيْرِ ذَلِكَ مِنْ ضَرِيْبَةِ الشُّهْرَةِ في مُجْتَمَعٍ قَدْ أخَذَتْ بِرِقَابِهِ المُنْكَرَاتُ إلىٰ مَهَاوٍ لا قَرَارَ لهَا، إلَّا مَا رَحِمَ الله!

* * *

وهَكَذَا؛ عَلَتْ أصْوَاتُ هَذِهِ الدَّعْوَاتِ، وامْتَدَّتْ مِنْهُمُ الأعْنَاقُ، وتَشَرَّفَتْ بِهِمُ المَجَالِسُ، وعَضَّتْهُمُ الشُّهْرَةُ بأنْيابِها . . . في غَيْرِ مَا ارْتِقَاءٍ واشْتِهَارٍ، إلَّا أنَّ الشُّهْرَةَ لم تَنْتَهِ بِهِم إلىٰ الوَعْظِ والتَّذْكِيْرِ؛ بَلْ تَجَاسَرُوا وتَجَرَّؤا علىٰ اسْتِمْرَارِ الهَزِيْمَةِ والدُّوْنِ؛ حَتَّىٰ تَمرَّدُوا علىٰ المَنْهَجِ الدَّعْوِيِّ السَّلَفِيِّ، وذَلِكَ بالتَّصَدُّرِ للفَتَاوَىٰ، والتَّنْظِيْرِ والتَّرْشِيْدِ لأبْنَاءِ المُسْلِمِيْنَ، وطَرْحِ الأفْكَارِ والآرَاءِ الشَّاذَّةِ المَغْلُوْطَةِ، وهَكَذَا حَتَّىٰ أُشْرِبَتْ دَعَوَاتُهُم وأطَارِيْحُهُم قُلُوْبَ المُسْلِمِيْنَ، فَلَهُمُ الله!

هَذَا إذَا عَلِمْنَا أنَّ سَاحَةَ المُسْلِمِيْنَ هَذِهِ الأيَّامِ قَدْ حَلَّ بِهَا أمْرٌ خَطِيْرٌ، ونَكْسَةٌ عَظِيْمَةٌ، وفِتَنٌ هَوْجَاءُ مِمَّا أُصِيْبَ فِيْهَا كَثِيْرٌ مِنْ عُقلاءِ المُسْلِمِيْنَ بِحَيْرَةٍ ودَهْشَةٍ؛ إنَّها فِتَنٌ يُرَقِّقُ بَعْضُهَا بَعْضًا!

ولَعَمْرُ الله؛ لَوْ أنَّ هَذِهِ النَّوَازِلَ عُرِضَتْ علىٰ عُمَرَ بنِ الخَطَّابِ ﷺ لَجمَعَ لهَا أهْلَ بَدْرٍ قَطُّ، فَهُم في أمْرٍ لا يُنَادَىٰ وَلِيْدُهُ، ومَا ذَاكَ إلَّا أنَّها نَوَازِلُ مَصِيْرِيَّةٌ مُهْلِكَةٌ، سَتَجُرُّ الأمَّةَ إلىٰ أوْدِيَةِ تِيْهٍ، ومَسَالِكَ ضَلالٍ، لا تُبْقِي ولا تَذَرُ!

وعِنْدَ هَذَا؛ إذْ بِنَا نَجِدُ أصْحَابَ هَذِهِ الدَّعْوَاتِ الضَّعِيْفَةِ، لا يَسْتَأخِرُوْنَ سَاعَةً في الكَلامِ عَنْ هَذِهِ النَّوَازِلِ الهَالِكَةِ، دُوْنَ خَوْفٍ أو وَرَعٍ، أو حَتَّىٰ تَأصِيْلٍ عِلْمِيٍّ رَاسِخٍ؛ بَلْ نَرَاهُم يَتَدَافَعُوْنَ علىٰ القَنَوَاتِ الإعْلامِيَّةِ للظُّهُوْرِ والتَّنْظِيرِ، وهَكَذَا لم تَقِفْ عَجلَةُ الظُّهُوْرِ تَدْفَعُ كَثِيرًا مِنْهُم إلىٰ اسْتِصْدَارِ

فَتَاوَىٰ ظَالمَةٍ، وأحْكَامٍ قَاصِمةٍ، أوْرَدَتِ الأمَّةَ مَوَارِدَ الفِتْنَةِ؛ فَيَا للإسْلامِ والمُسْلِمِيْنَ!

* * *

❑ إنَّ ظُهُوْرَ مِثْلِ هُؤلاءِ القَصَّاصِيْنَ والوُعَّاظِ الَّذِيْنَ تَسَارَعُوا في التَّوْقِيْعِ عَنْ رَبِّ العَالمِيْنَ في مِثْلِ هَذِهِ المَوَاقِفِ المَصِيْرِيَّةِ العَصِيْبَةِ الَّتِي تَمُرُّ بالأمَّةِ الإسْلامِيَّةِ؛ مِمَّا لا يُقِرُّه نَقْلٌ صَحِيْحٌ، ولا عَقْلٌ صَرِيْحٌ؛ إنَّ ظُهُوْرَ مِثْلِ هَذِهِ الدَّعْوَاتِ الجَرِيْئَةِ في هَذَا الوَقْتِ العَصِيْبِ لهُوَ كَارِثَةٌ عَمْيَاءُ؛ حَيْثُ تَرَكَتْ وَرَاءَهَا آثَارًا سَيِّئَةً، مِنْهَا:

مُصَادَرَةُ فَتَاوَىٰ أهْلِ العِلْمِ الرَّبَّانِيِّيْنَ؛ ورُبَّما مُعَارَضَتُها، وتَضْلِيْلُ المُسْلِمِيْنَ عَنْ بَيَانِ الحَقِّ، وتَلْبِيْسُ الحَقِّ بالبَاطِلِ، وتَشْوِيْهُ كَثِيرٍ مِنَ الحَقَائِقِ الشَّرْعِيَّةِ المَعْلُوْمَةِ مِنَ الدِّيْنِ بالضَّرُورَةِ عِنْدَ عَامَّةِ المُسْلِمِيْنَ، وفَتْحُ بَابٍ كَبِيْرٍ للرُّوَيْبِضَاتِ، وكَذَا الجُهَّالِ مِنْ أنْصَافِ المُثَقَّفِيْنَ للحَدِيْثِ عَنْ قَضَايَا الأمَّةِ الإسْلامِيَّةِ، وفَتْحُ بَابِ الاجْتِهَادِ والنِّقَاشِ حَوْلَ مَسَائِلَ وأحْكَامٍ شَرْعِيَّةٍ قَدْ وَقَعَ فِيْهَا إجْمَاعُ أئِمَّةِ السَّلَفِ والخَلَفِ، والتَّوَسُّعُ والإغْرَاقُ في الكَلامِ عَنِ التَّنْظِيْرِ والتَّرْشِيْدِ، والتَّنْظِيْمِ والتَّحْلِيْلِ . . . كُلُّ ذَلِكَ كَانَ (للأسَفِ) علىٰ حِسَابِ الوَاجِبِ الشَّرْعِيِّ تُجاهَ القَضَايَا المَصِيْرِيَّةِ الحَالِكَةِ الَّتِي ألَمَّتْ بالأمَّةِ الإسْلامِيَّةِ!

* * *

كَمَا أنَّ الانْحِرَافَ عِنْدَ أصْحَابِ هَذِهِ الدَّعْوَاتِ الوَعْظِيَّةِ لم يَنْتَهِ إلىٰ هَذَا

الحَدِّ، بَلْ سَارَتْ عَجلَةُ الانْهِزَامِ ببَعْضِ الكُتَّابِ المُعَاصِرِيْنَ، نَاسِيْنَ وَرَاءَهُم كُلَّ مَا سَطَّرَهُ عُلُماءُ الأمَّةِ مِنَ السَّلَفِ والخَلَفِ، ضَارِبِيْنَ بأقْلامِهِم عُرْضَ الحَائِطِ، مُسْتَخِفِّيْنَ بعُقُوْلِ أبْنَاءِ المُسْلِمِيْنَ، يَوْمَ ثَقُلَتْ عَلَيْهُمُ الشُّقَّةُ، وغَرَبَتْ عَنْهُم أنْوَارُ كُتُبِ السَّلَفِ في غَيرِ طَرِيْقٍ للتَّنكُّرِ والتَّغْرِيْبِ لتُرَاثِ الأمَّةِ الإسْلامِيَّةِ: مِنْ نَوْرٍ، وعِلْمٍ، وتَوْجِيْهٍ، وتَهْذِيْبٍ ... وهَكَذَا حَتَّىٰ سَقَطُوا في مُسْتَنْقَعَاتِ الغَرْبِ ليَنْهَلُوا مِنْ كُتُبِهِم، ويَسْتَبْصِرُوا بآرَائِهِم، ويَسْتَنِيْرُا بأفْكَارِهِم، وذَلِكَ بتَسْرِيْبِ كُتُبِهِم المُتَرْجَمَةِ في أسْوَاقِ المُسْلِمِيْنَ، وتَغْلِيْفِ عُقُوْلِ النَّاشِئَةِ بِما كَسَبَتْ أيْدِيْهِم، تَحْتَ عَنَاوِيْنَ: كُتُبِ عَلْمِ النَّفْسِ، والاجْتِماعِ، والبَرْمَجَةِ العَصَبِيَّةِ، والإدَارَةِ، والاتِّصَالِ، والإبْدَاعِ ... إنَّها والله إحْدَىٰ الكُبَرِ: ﴿قَالَ أَتَسْتَبْدِلُونَ ٱلَّذِى هُوَ أَدْنَىٰ بِٱلَّذِى هُوَ خَيْرٌ﴾ [البقرة: ٦١]، وقال تعالىٰ: ﴿وَلَا تَتَبَدَّلُوا۟ ٱلْخَبِيثَ بِٱلطَّيِّبِ﴾ [النساء: ٢].

* * *

وحَيْثُ أصَابَتْ جُهُوْدُ هَؤلاءِ الدُّعَاةِ في دَعَوَاتِهِم، إلَّا أنَّها ضَعِيْفَةٌ هَشَّةٌ، وهُمْ وإيَّاهُم مَعَ هَذِهِ الدَّبْدَبَةِ الدَّعْوِيَّةِ والمَوَاعِظِ الإيْمانِيَّةِ إلَّا أنَّ أمَلًا وهَاجِسًا يَلُوحُ في أُفُقِ السَّماءِ لم يَزَلْ يُمنِّيْهِم ويَعِدُهُم بخُرُوْجِ عُلَمائِهِم ودُعَاتِهِم بَيْنَ لحْظَةٍ وعَشِيَّةٍ!

وهَكَذَا لمَّا تَمدَّدَتِ الآمَالُ وأقْبَلَتِ النَّسَائِمُ تَزُفُّ البُشْرَىٰ بخُرُوْجِ عُلَماءِ ومَشَايِخِ هَؤلاءِ الدُّعَاةِ الَّذِيْنَ غَابُوا عَنْ مَيادِيْنِ الدَّعْوَةِ أو غُيِّبُوا؛ حَتَّىٰ إذَا قَوِيَ الأمَلُ إذْ بعُلَمائِهِم ودُعَاتِهِم يَظْهَرُوْنَ ويَخْرُجُوْنَ بَعْدَ طُوْلِ انْتِظَارٍ وكَبِيْرِ

شَوْقٍ؛ فَكَانَ النَّاسُ نَحْوَهُم كالعُنُقِ والعَيْنِ الوَاحِدَةِ مُتَطَلِّعِيْنَ ونَاظِرِيْنَ إِلَيْهِم، لَعَلَّ وعَسَىٰ تَرْجِعُ الدَّعْوَةُ جَذعَةً طَرِيَّةً قَوِيَّةً كَما كَانَتْ أو فَوْقَهَا!

وهَكَذَا؛ كَانَ الانْتِظَارُ بالنَّاسِ علىٰ السَّدَادِ وحُسْنِ الظَّنِّ؛ إِلَّا أَنَّهُم خُذِلُوا فِيْما ظَنُّوْهُ وفِيْمَا رَجَوْهُ؛ حَيْثُ خَرَجَ عَلَيْهِم مَنْ كَانُوا يَنْتَظِرُوْنَهُم علىٰ غَيْرِ مَا أَرَادُوا وخِلافِ مَا كَانُوا، فَجَاءوهُم: بمَنْهَجٍ مُضْطَرِبٍ، وانْهِزَامٍ دَعَوِيٍّ، فَكَانَتْ طَلائِعُ التَّنَازُلِ مِنْهُم ظَاهِرَةً سَائِرَةً، مَا بَيْنَ تَمْيِيْعٍ وتَقْمِيْشٍ، واحْتِوَاءٍ للآخَرِيْنَ علىٰ عَلَّاتِهِم!

فَمَا كَانَ بالأَمْسِ عِنْدَهُم حَرَامًا أَصْبَحَ حَلالًا، ومَا كَانَ حَلالًا أَصْبَحَ سُنَّةً، ومَا كَانَ جِهَادًا أَصْبَحَ مُقَاوَمَةً، ومَا كَانَ مَعْلُوْمًا مِنَ الدِّيْنِ أَصْبَحَ مَحلًّا للخِلافِ، وهَكَذَا في تَرَاجُعٍ مَقِيْتٍ، وتَوَاضُعٍ بَارِدٍ؛ فَلا شَيءَ لَهُمُ اليَوْمَ مِنَ الدَّعْوَةِ إِلَّا التَّرَاجُعَ والتَّقَهْقُرَ، والله وَلِيُّ الصَّالِحِيْنَ!

فمَنْ كَانَ مِنْهُم بالأَمْسِ عَدُوًّا لأَهْلِ الأَهْوَاءِ والبِدَعِ، أَصْبَحَ اليَوْمَ أَخًا للشِّيْعَةِ والصُّوْفِيَّةِ، صَدِيْقًا لأَهْلِ الحَدَاثَةِ والعَلْمَنَةِ، ومَنْ كَانَ دَاعِيًا مُنَافِحًا عَنْ أَهْلِ السُّنَّةِ، أَصْبَحَ مُلَمِّعًا لأَهْلِ البِدْعَةِ، ومَنْ كَانَ فَقِيْهًا ثِقَةً، أَصْبَحَ مميِّعًا مُرخِّصًا، ومَنْ كَانَ دَاعِيًا لمَنْهَجِ السَّلَفِ، أَصْبَحَ مُنَاوِئًا لمَنْهَجِ ابنِ تَيْمِيَّةَ وابنِ عَبْدِ الوَهَّابِ، ومَنْ كَانَ بالعِلْمِ سَامِيًا أَصْبَحَ مُدَاعٍ مُحَامِيًا، ومَنْ كَانَ دَاعِيًا مُفوَّهًا، أَصْبَحَ مُذِيْعًا مُحَاوِرًا، ومَنْ كَانَ طَالِبَ عِلْمٍ، أَصْبَحَ مُبَرْمِجًا عَصَبِيًّا، ومَنْ كَانَ عَاقِلًا، أَصْبَحَ عَقْلانيًّا، وغَيْرَ ذَلِكَ مِنْ مَنْظُوْمَةِ

الهزائمِ الدَّعْوِيَّةِ ... والأيَّامُ حُبْلَىٰ بالمُتَغيِّراتِ والانْكِسَارَاتِ، والله الهَادِي إلىٰ سَوَاءِ السَّبِيْلِ!

* * *

□ ومِنْ هَذِه المُوَاضَعَاتِ المَاسِخَةِ؛ مَا أجْلَبَتْهُ هَذِهِ الدَّعْوَاتُ الانْهِزَامِيَّةُ، تَحْتَ عَنَاوِيْنَ قَدْ اجْتُثَّتْ مِنْ فَوْقِ أرْضٍ بَقِيعَةٍ، يَوْمَ قَلَّبُوا لنَا الأمُوْرَ في مُسَمَّياتِ مُحَاضَرَاتِهِم، وعَنَاوِيْنِ تَآلِيْفِهم مِمَّا ظَاهِرُها الحقُّ، وفي بَاطِنِهَا دَخَائِلُ نَفْسِيَّةٍ، وهَزَائمُ دَعَوِيَّةٍ:

حَيْثُ اسْتَبْدَلُوا: الحَدِيْثَ عَنِ الإيْمَانِ والكُفْرِ: بنَحْنُ والآخَرِ، والوَلاءِ والبَرَاءِ: بالتَّعَايُشِ والتَّسَامُحِ، ومُجَادَلَةِ أهْلِ الكِتَابِ: بحِوَارِ الأدْيَانِ، وأحَقِّيَّةِ الإسْلامِ: بحُرِّيَّةِ الأدْيَانِ، وقَدَاسَةِ الخِطَابِ الدِّيْنِي: بتَجْدِيْدِ الخِطَابِ الدِّيْنِي، وأصَالَةِ وتَزْوِيْدِ المَنَاهِجِ الشَّرْعِيَّةِ: بتَغْيِرِ وتَطْوِيْرِ المَنَاهِجِ الدِّرَاسِيَّةِ، والإنْكَارِ علىٰ المُخَالِفِ: باحْتِرَامِ قَوْلِ المُخَالِفِ، والرَّدِّ علىٰ المُخَالِفِ: بحُرِّيَّةِ الرَّأي، والمُقَاطَعَةِ التِّجَارِيَّةِ: بالعَوْلَمَةِ والتَّطْبِيْعِ.

والموتِ في سَبِيْلِ الله: بالحَيَاةِ في سَبِيْلِ الله، والجِهَادِ: بالمُقَاوَمَةِ، والجِهَادِ في سَبِيْلِ الله: بجِهَادِ النَّفْسِ، وإرْهَابِ عَدُوِّ الله: بالتَّسَامُحِ والرَّحمَةِ، وشُهَدَاءِ الإسْلامِ: بشُهَدَاءِ الوَطَنِ، والأمْرِ بالمَعْرُوْفِ والنَّهْي عَنِ المُنْكَرِ: بالأمْرِ بالمَعْرُوفِ فَقَطْ، والتَّحْذِيْرِ مِنَ المُنْكَرَاتِ: بالتَّحْذِيْرِ مِنَ الغُلُوِّ في الدِّيْنِ، ووَاجِبَاتِ أهْلِ الحُسْبَةِ: بصَلاحِيَّاتِ رِجَالِ الهَيْئَةِ.

ودُرُوسِ المسَاجِدِ: بدَوْراتِ الفَنَادِقِ، وذِكْرِ الأحْكَامِ الشرعيَّةِ:

بالاسْتِفْتَاءَاتِ والتَّصويْتَاتِ، والأخْذِ بالعَزِيْمَةِ: بالمَشَقَّةِ تَجْلِبُ التَّيْسيرَ، وسَدِّ الذَّرائِعِ: بفَتْحِ الذَّرائِعِ، والأخْذِ بالدَّلِيْلِ: بالأخْذِ بالتَّعْلِيْلِ، والفِقْهِ الشَّرْعِي: بفِقْهِ التَّرَخُّصَاتِ والتَّسَاهُلِ.

وحُبِّ النَّبيِّ ﷺ لعَائِشَةَ ﵂: بأعْظَمِ حُبِّ شَهِدَهُ التَّارِيْخُ، وحُبِّ النَّبيِّ ﷺ لزَوْجَاتِهِ رضي الله عنهن: بنَهْرِ الحُبِّ، وفَضْلِ الحَيَاءِ والعَفَافِ والآدَابِ: بالثَّقَافَةِ الجِنْسِيَّةِ، والبُكَاءِ مِنْ خَشْيَةِ الله: بفَوائِدِ الضَّحِكِ علىٰ الصِّحَّةِ وطُوْلِ العُمُرِ، وحُبِّ الدِّيْنِ: بِحُبِّ الوَطَنِ.

ووَاجِباتِ المَرأةِ: بحُقُوقِ المَرأةِ، وحُقُوْقِ المُسْلِمِينَ: بحُقُوْقِ الإنْسَانِيَّةِ، وحُقُوقِ وَليِّ الأمْرِ: بحُقُوْقِ السُّلْطَةِ التَّنْفِيْذِيَّةِ.

وأهْلِ العِلْمِ: برِجَالِ الدِّيْنِ، والعُلَمَاءِ: بالمُفَكِّرِيْنَ، والعَالِمِ: بالمُرَبِّي، والمُسْلِمِ الصَّالِحِ: بالمُوَاطِنِ الصَّالِحِ، والمُسْلِمِيْنَ: بالإسْلامِيِّيْنَ.

وفَنِّ الخَطَابَةِ: بفَنِّ الإلْقَاءِ، والدَّوْرَاتِ العِلْمِيَّةِ الشَّرْعِيَّةِ: بدَوْرَاتِ البَرْمَجَةِ اللُّغَوِيَّة العَصَبِيَّةِ، ودِرَاسَةِ التَّارِيْخِ الإسْلامِيِّ: بدِرَاسَةِ الحَضَارَاتِ وتَبَادُلِ الثَّقَافَاتِ، والآدَابِ الشَّرْعِيَّةِ: بالآدَابِ الحَضَارِيَّةِ، والأحْكَامِ الشَّرْعِيَّةِ: بالتَّقَالِيْدِ والعَادَاتِ، والكُتُبِ: بالكُتَيِّبَاتِ والمَطْوِيَّاتِ . . . في غَيرِها مِمَّا سَيَكُونُ عَارًا في جَبِينِ تَارِيْخِ الأمَّةِ، بَلْ عَسَاهُ يَكُونُ لَعْنَةً علىٰ لِسَانِ مَنْ يَأتي بَعْدَنا بسَبَبِ ما كَسَبَتْهُ أيْدِينَا؟ اللَّهُمَّ رُحْمَاكَ، اللَّهُمَّ غُفْرَانَكَ!

* * *

❑ لِذَا كَانَ مِنَ الخَطأ الشَّرْعِيِّ، أَنَّ نَنْسَاقَ وَرَاءَ هَذِهِ المُسَمَّيَاتِ عُمْيًا وصُمًّا . . . فإطْلاقُ مِثْلِ هَذِهِ المُسَمَّيَاتِ: لَهُوَ مِنْ تَغْرِيْبِ الألْفَاظِ الشَّرْعِيَّةِ، وتَفْرِيْغِهَا مِنْ مَعْنَاهَا الصَّحِيْحِ، كَمَا فِيْهِ تَحْرِيْفٌ للكَلِمِ عَنْ مَوَاضِعِهِ، وتَلْبِيْسٌ للحَقِّ بالبَاطِلِ، كَمَا فِيْهِ مُتَابَعَةٌ وتَقْلِيْدٌ لأفْكَارِ وأقْلامِ كَثِيْرٍ مِنَ رُؤوْسِ المُسْتَغْرِبِيْنَ والمُسْتَشْرِقِيْنَ والمُنْهَزِمِيْنَ.

* * *

ومِنْ بَقَايَا الأسَفِ، وخَبَايَا الضَّعْفِ أنَّ طَائِفَةً مِنَ المُنْتَسِبِيْنَ إلىٰ العِلْمِ الشَّرعِيِّ هَذِهِ الأيَّامِ قَدْ رَقَّ دِيْنُهُم، وانْكَشَفَ ضَعْفُهُم يَوْمَ حَرَّفُوا الكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ، ورَكَنُوا إلىٰ المُرَاوَغَةِ والمماحَلَةِ في تَغْرِيْبِ الألْفَاظِ الشَّرعِيَّةِ، تَحتَ غَاشِيَةِ الهَجْمَةِ الشَّرِسَةِ الَّتِي أطْلَقَتْهَا أنْظِمَةُ دُوَلِ الكُفْرِ مِنَ اليَهُوْدِ والنَّصَارَىٰ، يَوْمَ تَرَاهُم يَنْظُرُوْنَ إلىٰ الألْفَاظِ الشَّرعِيَّةِ بطَرْفٍ خَفِيٍّ، لا يَسْتَطِيْعُوْنَ حِيْلَةً ولا سَبِيْلًا، فَتَرَاهُم في كِتَابَاتِهِم ولقَاءاتِهِم لا يَقْدِرُوْنَ أنْ يَتَفَوَّهُوا، أو أنْ يَصِفُوا مَا يَحْدُثُ في أرْضِ فِلِسْطِيْنَ وغَيرِهَا مِنْ بِلادِ المُسْلِمِيْنَ: بأنَّهُ جِهَادٌ شَرْعِيٌّ، بَلْ يَصِفُوْنَهُ بالمُقَاوَمَةِ، ورُبَّمَا قَيَّدُوْهَا بالشَّرعِيَّةِ، غَيْرَ أنَّهُم يَقْصِدُوْنَ بالشَّرعِيَّةِ هُنَا: الشَّرعِيَّةَ الدُّوَلِيَّةَ!

هَذَا إذَا عَلِمَ الجَمِيْعُ أنَّ الاسْتِعَاضَةَ بكَلِمَةِ «المُقَاوَمَةِ» عَنِ الجِهَادِ الشَّرعِيِّ فِيْهِ مُتَابَعَةٌ وتَقْلِيْدٌ لكَثِيْرٍ مِنَ الأنْظِمَةِ والقَوَانِيْنِ الوَضْعِيَّةِ الكَافِرَةِ في مَعَاجِمِهَا الدُّوَلِيَّةِ! حَيْثُ نَصَّتْ أكْثَرُ المُنَظَّماتِ والحُقُوْقِ الدُّوَلِيَّةِ: أنَّ كُلَّ جَمَاعَةٍ تُدَافِعُ عَنْ أرْضِهَا المُحْتَلَّةِ، فَلَهَا الحَقُّ في الدِّفَاعِ عَنْ أرْضِهَا، وأنَّ مَا تَقُوْمُ بِهِ يُسَمَّىٰ: مُقَاوَمَةً نِظَامِيَّةً!

ونَحْنُ وإيَّاهُم نَعْرِفُ مَعْنَىٰ كَلِمَةِ «الجِهادِ»! فالجِهادُ كَلِمَةٌ شَرْعِيَّةٌ قِتالِيَّةٌ لها وَقْعُها وأثَرُها وتأثِيرُها وتارِيْخُها وحَقَائِقُها الشَّرعِيَّةُ والتَّارِيخِيَّةُ، والقَوْمُ أيْضًا يَعْلَمُوْنَ ما لِهَذِهِ الكَلِمَةِ مِنْ أثَرٍ في نُفُوْسِهِم وتارِيخِهِم مَعَ المُسْلِمِيْنَ المُجاهِدِيْنَ علىٰ مَرِّ التَّارِيْخِ، فتأمَّلْ!

وقَدْ وَقَعَتْ عَيْنِي مُؤخَّرًا علىٰ كِتَابٍ لأحَدِهِم، وقَدْ حَشَرَهُ مِنْ بابِهِ إلىٰ مِحْرَابِهِ، ومِنْ أوَّلِهِ إلىٰ آخِرِه بكَلِمَةِ المُقَاوَمَةِ، مُسْتَنْكِفًا عَنْ لَفْظَةِ الجِهادِ الشَّرْعِيَّةِ، فالله يَهْدِيْنَا وإيَّاهُ آمِيْنَ!

فكُلَّ هَذَا كَانَ مِنْهُم (للأسَفِ!) خَوْفًا مِنَ المُسَائَلَةِ الأمْنِيَّةِ، أو رُبَّما مِنَ المُطَالَبَةِ الدُّوَلِيَّةِ؛ لأنَّهُ قَدْ بَاتَ في رَوْعِهِم أنَّ مَنْ أطْلَقَ لَفْظَ الجِهادِ، سَوْفَ يُصَنَّفُ في قَائِمَةِ الإرْهَابِيِّيْنَ، فالله الهَادِي إلىٰ سَوَاءِ السَّبِيْلِ، وقَدْ قَالَ الله تَعالىٰ: ﴿أَتَسْتَبْدِلُونَ ٱلَّذِى هُوَ أَدْنَىٰ بِٱلَّذِى هُوَ خَيْرٌ﴾ [البَقَرَةُ: ٦١].

ومِنْ خِزْيِ مَوَاقِفِ صَاحِبِ هَذَا الكِتَابِ (هَدَاهُ الله!) أنَّنِي سَمِعْتُهُ يَوْمًا في إحْدَىٰ القَنَوَاتِ الإسْلامِيَّةِ؛ حِيْنَما قَالَ لَهُ المُحَاوِرُ أمَامَ المُشَاهِدِيْنَ: لِمَاذَا أنْتَ مُصِرٌّ علىٰ قَوْلِكَ أنَّ مَا يَحْدُثُ في أرْضِ فِلِسْطِيْنَ لاسِيَّما في أرْضِ غَزَّةَ ضِدَّ اليَهُوْدِ: هُوَ مُقَاوَمَةٌ ولَيْسَ جِهَادًا؟! فَحَارَ وخَارَ، وحَرَّفَ وخَرَّفَ!

ضَعِيْفٌ هَذَا المِسْكِيْنُ! ضَعِيْفٌ في مَوْقِفِهِ، رَكِيْكٌ في كَلامِهِ، ومَا عَلِمَ هَذَا المِسْكِيْنُ أنَّ الأمَّةَ هَذِهِ الأيَّامَ لَنْ تُرَاهِنَ علىٰ مَوَاقِفِهَا وقَضَايَاهَا المَصِيرِيَّةِ مِنْ خِلالِ ضَعْفِ المَسَاكِيْنِ، أو مَوَاقِفِ المُنْهَزِمِيْنَ . . . !

فالأمَّةُ هَذِهِ الأيَّامَ (ولله الحَمْدُ) قَدْ خَطَّتْ طَرِيْقَهَا وشَقَّتْ سَبِيْلَهَا في

مَعْرِفَةِ العُلَماءِ الرَّبَّانِيِّيْنَ، وطُلَّابِ العِلْمِ الصَّادِقِيْنَ، والدُّعَاةِ المُصْلِحِيْنَ، والمُحْتَسِبِيْنَ الصَّابِرِيْنَ، فَلَيْسَ عِنْدَهَا اليَوْمَ للمَصَالِحِ الشَّخْصِيَّةِ، والمَوَاقِفِ الانْتِهَازِيَّةِ نَصِيبٌ يُرْتَجىٰ، أو مُسَاوَمَةٌ تُبْتَغىٰ!

ومِنْ هُنَا؛ فلْيَعْلَمِ الجَمِيْعُ أنَّ المُقَاوَمَةَ الَّتِي يَقُوْمُ بِهَا المُسْلِمُوْنَ ضِدَّ اليَهُوْدِ والنَّصَارَىٰ مِنْ أجْلِ الدِّفَاعِ عَنْ دِيْنِهِم وأرْضِهِم لاسِيَّما في أرْضِ فِلِسْطِيْنَ وغَيرِهَا مِنْ بِلادِ المُسْلِمِيْنَ: هُوَ في حَقِيْقَتِهِ جِهَادٌ شَرْعِيٌّ، عَرِيْقُ الأصْلِ، وَثِيْقُ الوَصْلِ بتَارِيْخِ الأمَّةِ العِلْمِيِّ والعَمَليِّ، ومَنْ خَالَفَ ذَلِكَ فَقَدْ خَالَفَ إجمَاعَ الأمَّةِ سَلَفًا وخَلَفًا، والله المُوَفِّقُ، والهَادِي إلىٰ سَوَاءِ السَّبِيلِ!

* * *

☐ وهَذِهِ أيْضًا مُرَقِّقَةٌ وَاثِبَةٌ في مِسْلاخِ العلْمِ؛ حَيْثُ أخَذَتْ قُرُوْحُ الانْهِزَامِ تَمَسُّ أفْئِدَةَ بَعْضِ رُوَّامِ العِلْمِ وطُلَّابِ الأثَرِ في مَاجْرَيَاتِ عُلُوْمِهِم ودَعَوَاتِهِم، فَكَانَ مِنْ تَضْبِيْبِ هَذِهِ القُرُوْحِ مَا تَرَكَتْهُ مِنْ خُدُوْشٍ ولَمَمٍ في أطَارِيْحِ مُعَنْوَنَاتِ كُتُبِهِم ولِقَاءَاتِهِم، كَمَا هُوَ ظَاهِرُ صَرِيْفِ أقْلامِهِم، وصَوَارِفِ مُحَاضَرَاتِهِم، فَكَانَ ذَلِكُم أخْذُ أسَفٍ ووَثْبَةُ فَجْأةٍ، لَيْسَ لهَا مِنْ رَاقٍ إلَّا الدُّعَاءُ لَنَا ولهُم بالثَّبَاتِ والسَّدَادِ علىٰ الأمْرِ الأوَّلِ، والسُّنَّةِ ظَاهِرًا وبَاطِنًا!

فَكَانَ مِنْ هَذِهِ الانْهِيَارَاتِ المُؤْذِيَةِ، والانْكِسَارَاتِ المُزْعِجَةِ الَّتِي تَرَكُوْهَا نَاقِعَةً في قُلُوْبِ إخوانِهِمُ المُسْلِمِيْنَ؛ كَأنَّها سَحَابَةٌ سَوْدَاءُ وعَقَبَةٌ كَأْدَاءُ: هُوَ مَا جَرَّهُ القَلَمُ هُنَا في حَيَاءٍ:

فمَرَّةً في بَسْطِ التَّخْذِيْلِ العِلْمِيِّ، وأخْرَىٰ في نَشْرِ التَّهْوِيْنِ الخِلافيِّ، وتَارَةً في تَنْبِيْتِ الخِلافَاتِ للْمُسَلَّماتِ العِلْمِيَّةِ، وهَكَذَا في مَنْظُوْمَةِ الآذَايَا السَّاعِيَةِ في الوَشَايَةِ والاسْتِعْدَاءِ علىٰ إخْوانِهِم مِنَ أهْلِ العِلْمِ الرَّبَّانِيِّيْنَ، والدُّعَاةِ النَّاصِحِيْنَ، عِنْدَ رَزَقَاتِ المُرْجِفِيْنَ والمُتَعَالِمِيْنَ، ومِنْ وَرَائِهِم سَمَّاعُوْنَ طُغَامٌ!

فكَانَ مِنْ تَنْهِيْجِ هَذِهِ الفَوَاقِرِ:

أنَّهُم لم يَزَالُوا في تَغَابِيْرِ هَذَا الزَّمَانِ في شُغُلٍ شَاغِلٍ وقَوْلٍ قَائِلٍ؛ حَيْثُ انْقَلَبُوا علىٰ قَضِيَّةِ الوَلاءِ والبَرَاءِ: بِقَّصِة حَاطِبِ بنِ أبي بَلْتَعَةَ ﷺ، تَأصِيْلًا وتَدْلِيلًا: رَامِيْنَ وَرَاءَهُم مُحْكَمَاتِ مَسْأَلَةِ الوَلاءِ والبَرَاءِ المَنْظُوْمَةِ في عَقَائِدِ أهْلِ السُّنَّةِ والجَماعَةِ، بَلْ لَيْسَ لَهُم مِنْ أدِلَّةِ الوَلاءِ والبَرَاءِ إلَّا مُتَشَابِهَاتُ حُكْمِ الجَاسُوْسِ، وأقْوالِ الرِّجَالِ!

وانْقَلَبُوا علىٰ نُصْرَةِ المُسْلِمِيْنَ للنَّبيِّ ﷺ: بمَسْألَةِ إبَاحَةِ التَّعَامُلِ مَعَ الكَافِرِ؛ رَامِيْنَ وَرَاءَهُم مُحْكَمَاتِ مَسائِلِ أصُوْلِ العَقِيْدَةِ، بِمُبَاحَاتِ عَارِضَةٍ!

وانْقَلَبُوا علىٰ مُقَاطَعَةِ المُسْلِمِيْنَ لسِلَعِ دُوَلِ الكُفْرِ المُحَارِبَةِ: بمَسْألَةِ تَأصِيلِ إبَاحَةِ البَيْعِ والشِّرَاءِ مَعَ الكَافِرِ!

وهُنَاكَ مُرَقِّقَاتٌ غَلَّابَةٌ لا تَزَالُ في تَنْبِيْتٍ وتَعْرِيْضٍ لمُسَلَّماتِ أهْلِ السُّنَّةِ عِنْدَ هَؤلاءِ النَّفَرِ هَدَانَا الله وإيَّاهُم، قَدْ أعْرَضْنَا عَنْهَا قَصْدًا!

* * *

❑ فأصْحَابُ هَذِهِ الدَّعْوَاتِ العَائِمَةِ فَوْقَ بِحَارٍ هَائِجَةٍ، وأمْوَاجٍ مُتَلاطِمَةٍ، لم تَكُ في حَقِيْقَتِهَا إلَّا فَوْضَوِيَّةٌ في الدَّعْوَةِ؛ حَيْثُ ألْبَسَتِ الأمَّةَ ثَوْبًا مِنَ التَّنَاقُضِ والتَّبايُنِ، مِمَّا جَعَلَهُم يَدُوْرُوْنَ في فَلَكِ الحَيْرَةِ والشُّكُوْكِ، فَمِنْ ذَلِكَ:

أوَّلًا: أنَّ أصْحَابَ هَذِهِ الدَّعْوَاتِ (الضَّعِيْفَةِ!)، لم يَنْصُرُوا حَقًّا، ولم يَكْسِرُوا بَاطِلًا، فَهُمْ كَشَاةٍ عَائِرَةٍ بَيْنَ الغَنَمَيْنِ تَعِيْرُ إلىٰ هَذِهِ مَرَّةً، وإلىٰ هَذِهِ مَرَّةً!

ثَانِيًا: أنَّهم بقَدْرِ اجْتِهَادِهِم في سَبِيْلِ كَسْبِ الأطْرَافِ؛ مَا ازْدَادُوا إلَّا خَسَارَةً وتَفْرِيْقًا للأطْرَافِ.

ثَالِثًا: أنَّهُم بقَدْرِ اجْتِهَادِهِم في سَبِيْلِ احْتِوَاءِ الأطْرَافِ؛ مَا ازْدَادُوا إلَّا بُغْضًا مِنَ الجَمِيْعِ.

رَابِعًا: أنَّهُم لم يَكْسَبُوا مَوْقِفًا وَاحِدًا في جَمِيْعِ المَوَاقِفِ الَّتِي طَرَقُوْهَا وطَرَحُوْهَا أمَامَ الجَمِيْعِ، وذَلِكَ بشَهَادَةِ الجَمِيْعِ، وأدَلُّ شَيءٍ علىٰ ذَلِكَ: أنَّ كِلا الطَّرَفَيْنِ (أهلَ الحقِّ، وأهلَ البَاطِلِ) لم يَأخُذُوا بشَيءٍ مِنْ آرَائِهِم، ولم يَصْدُرُوا عَنْ أوَامِرِهم لا مِنْ قَرِيْبٍ ولا مِنْ بَعِيْدٍ؛ بَلْ إنَّ حَقِيْقَةَ الأمْرِ أنَّ كِلا الطَّرَفَيْنِ لا يُرِيْدَانِ مِنْهُم هَذِهِ الدَّعْوَةِ (التَّجْمِيْعِيَّةِ التَّقْمِيْشِيَّةِ)؛ لأنَّ كُلًّا مِنْهُما يُرِيْدُ فَرْضَ رَأيِهِ، وتَثْبِيْتَ مَوْقِفِهِ، فَلا مَكَانَ بَيْنَهُما وقْتَئِذٍ للمُرَاوَغَةِ والمُدَاهَنَةِ.

خَامِسًا: أنَّهُم وَضَعُوا أنْفُسَهُم في مَوَاقِفَ مَشْبُوْهَةٍ بغَيْضَةٍ، لأنَّ كِلا

الطَّرَفَيْنِ لم يَرْضَ لهُم حَلًّا ، وهُوَ اجْتِهَادُهُم في جَمْعِ النَّقِيْضَيْنِ (أهْلِ الحَقِّ، وأهْلِ البَاطِلِ)، وقَدْ قِيْلَ: مَنْ أكَلَ علىٰ مَائدَتَيْنِ اخْتَنَقَ!

سَادِسًا: أنَّهُم أفْقَدُوا الأمَّةَ الإسْلامِيَّةَ كَثِيْرًا مِنْ عُلَمائِهَا ودُعَاتِها الصَّادِقِيْنَ، الَّذِيْنَ لا تَأخُذُهُم في الله لَوْمَةُ لائِمٍ؛ وذَلِكَ باحْتِوَائِهِم وجَرِّهِم إلىٰ خَنَادِقِهِم الهَشَّةِ، وحِكْمَتِهِم البَارِدَةِ!

سَابِعًا: أنَّهُم أخْرَجُوا للأمَّةِ الإسْلامِيَّةِ شَبَابًا مُنْهَزِمًا، تَحْتَ دَعَوَاتٍ هَزِيْلَةٍ مَا أنْزَلَ الله بِها مِنْ سُلْطَانٍ، باسْمِ: التَّرْبِيَةِ، والحِفَاظِ علىٰ الرَّصِيْدِ، ورَأسِ المالِ مِنَ الشَّبَابِ!

ثَامِنًا: أنَّهُم أسْقَطُوا هَيْبَةَ الدِّيْنِ وأحْكَامَهِ مِنْ قُلُوْبِ كَثِيرٍ مِنَ المُسْلِمِيْنَ، ومَيَّعُوْهُ باسْمِ الدِّينِ؛ وقَدْ قِيْلَ: لا يَفُلُّ الحَدِيْدَ إلَّا الحديدُ، فَعِنْدَ ذَلِكَ جَاءَتِ الفَتَاوىٰ المُغْتَصَبَةُ الَّتِي فُضَّتْ بَكَارَتُها اغْتِصَابًا، وكُتِبَتْ شَهَادَتُها غِلابًا!

إلىٰ غَيْرِ ذَلكَ مِنْ خَسَائرَ بَائِرَةٍ، ومَفَاسِدَ سَافِرَةٍ، مُنِيَتْ بِها الأمَّةُ هَذِهِ الأيَّامَ، فَحَسْبُنَا الله، ونِعْمَ الوَكِيْلُ!

* * *

ومِنْ قَبْلُ؛ فَمَا أحْسَنَ مَا جَادَ بِه قَلَمُ سَيِّدِ قُطْبٍ ﷺ تَعَالىٰ حِيْنَ وَصَفَ لَنَا أصْحَابَ هَذِه الدَّعْوَاتِ (التَّجْمِيْعِيَّةِ!) في كِتَابِهِ «في ظِلالِ القُرْآنِ» (٢٢٤٥) عِنْدَ تَفْسِيْرِه لِقَوْلِهِ تَعَالَىٰ: ﴿وَإِن كَادُواْ لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ ٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ

لِتَفۡتَرِيَ عَلَيۡنَا غَيۡرَهُۥۖ وَإِذٗا لَّٱتَّخَذُوكَ خَلِيلٗا﴾ [الإسراء: ٧٣]: «يُعَدِّدُ السِّيَاقُ مُحاوَلاتِ المُشْرِكِيْنَ مَعَ الرَّسُوْلِ صَلَّىٰ الله عَلَيْهِ وسَلَّمَ، وأوَّلُها مُحَاوَلَةُ فَتْنِه عَمَّا أوْحَىٰ الله إلَيْه، ليفْتَرِيَ عَلَيه غَيْرَه، وهُوَ الصَّادِقُ الأمِيْنُ.

لَقَدْ حَاوَلُوا هَذِه المُحَاوَلَةَ فِي صُوَرٍ شَتَّىٰ ... هَذِه المُحَاوَلاتُ الَّتِي عَصَمَ الله مِنْها رَسُوْلَه، هِيَ مُحَاوَلاتُ أصْحَابِ السُّلْطَانِ مَعَ أصْحَابِ الدَّعْوَاتِ دَائِمًا، مُحَاوَلَةَ إغْرَائِهِم حَتَّىٰ يَنْحَرِفُوا ـ ولَوْ قَلِيْلًا ـ عَنِ اسْتِقَامَةِ الدَّعْوَةِ وصَلابَتِها، ويَرْضَوْا بالحُلُوْلِ الوَسَطِ الَّتِي يَغْرُوْنَهُم بِهَا فِي مُقَابِلَ مَغَانِمَ كَثِيْرَةٍ، ومِنْ حَمَلَةِ الدَّعْوَاتِ مَنْ يُفْتَتَنْ بِهَذا عَنْ دَعْوَتِه؛ لأنَّه يَرَىٰ الأمْرَ هَيِّنًا، فأصْحَابُ السُّلْطَانِ لا يَطْلُبُوْنَ إليْه أنْ يَتْرُكَ دَعْوَتَه كُلِيَّةً، إنَّما هُمْ يَطْلُبُوْنَ تَعْدِيْلاتٍ طَفِيْفَةً لِيَلْتَقِيَ الطَّرفَانِ فِي مُنْتَصَفِ الطَّرِيْقِ، وقَدْ يَدْخُلُ الشَّيْطَانُ عَلَىٰ حَامِلِ الدَّعْوَةِ مِنْ هَذِه الثَّغْرَةِ، فيَتَصَوَّرُ أنَّ خَيْرَ الدَّعْوَةِ فِي كَسْبِ أصْحَابِ السُّلْطَانِ إلَيْها؛ ولَوْ بالتَّنَازُلِ عَنْ جَانِبٍ مِنْها !

ولَكِنَّ الانْحِرَافَ الطَّفِيْفَ فِي أوَّلِ الطَّرِيْقِ يَنْتَهِي إلىٰ الانْحِرَافِ الكَامِلِ فِي نِهَايَةِ الطَّرِيْقِ، وصَاحِبُ الدَّعْوَةِ الَّذِي يَقْبَلُ التَّسْلِيْمَ فِي جُزْءٍ مِنْها ولَوْ يَسِيْرٍ، وفِي إغْفَالِ طَرَفٍ مِنْها ولَوْ ضَئِيْلٍ، لا يَمْلِكُ أنْ يَقِفَ عِنْدَ مَا سَلَّمَ بِه أوَّلَ مَرَّةٍ؛ لأنَّ اسْتِعْدَادَهُ للتَّسْلِيْمِ يَتَزَايَدُ كُلَّمَا رَجَعَ خُطْوَةً إلىٰ الوَرَاءِ!

والمَسْألَةُ مَسْألَةُ إيْمَانٍ بالدَّعْوَةِ كُلِّها، فالَّذِي يَنْزِلُ عَنْ جُزْءٍ مِنْها ولَوْ صَغُرَ، والَّذِي يَسْكُتُ عَنْ طَرَفٍ مِنْها مَهْمَا ضَئُلَ، لا يُمْكِنُ أنْ يَكُوْنَ مؤْمِنًا بدَعْوَتِه حَقَّ الإيْمَانِ ... وأصْحَابُ الشَّيْطانِ يَسْتَدْرِجُوْنَ أصْحَابَ الدَّعْوَاتِ

فإذا سَلَّمُوا بالجُزْءِ فَقَدُوا هَيْبَتَهم وحَصَانَتَهُم، وعَرَفَ المُتَسَلِّطُوْنَ أنَّ اسْتِمْرَارَ المُسَاوَمَةِ، وارْتِفَاعَ السِّعْرِ يَنْتَهِيَانِ إلىٰ تَسْلِيْمِ الصَّفْقَةِ كُلِّها!

والتَّسْلِيْمُ فِي جَانِبٍ ولَوْ ضَئِيْلٍ مِنْ جَوَانِبِ الدَّعْوَةِ لِكَسْبِ أصْحَابِ السُّلْطَانِ إلىٰ صَفِّها، هُوَ هَزِيْمَةٌ رُوْحِيَّةٌ للاعْتِمَادِ عَلَىٰ أصْحَابِ السُّلْطَانِ فِي نُصْرَةِ الدَّعْوَةِ، والله وحَدَه هُوَ الَّذِي يُعْتَمَدُ عَلَيْه المُؤْمِنُوْنَ في دَعْوَتِهم، ومَتَىٰ دَبَّتِ الهَزِيْمَةُ فِي أعْمَاقِ السَّرِيْرَةِ؛ فَلَنْ تَنْقَلِبَ الهَزِيْمَةُ نَصْرًا!» انتهىٰ باخْتِصَارٍ.

* * *

(ومَهْما ذَهَبَتْ بِنَا الظُّنُوْنُ ببَعْضِ إخْوانِنَا الدُّعَاةِ اليَوْمَ، أو جَنَحَ القَلَمُ بِنَا يَمْنَةً أو يَسْرَةً: فَوَ الله إنَّ لهُم في النَّفْسِ لذِكْرَىٰ، وإنَّ لهُم في القَلْبِ لمَحَبَّةٍ، وإنَّ حَرَارَةَ مَوَاعِظِهِم لم تَزَلْ تُخَالِطُ بَشَاشَةَ القَلْبِ في غَيْرِهَا مِنْ حَنَانٍ وإيْمانٍ ...!

ومَهْما ابْتَعَدَ بِنَا النِّسْيَان عَنْهُم: إلَّا أنَّنا لا نُنْكِرُ لهُم تِلْكُمُ الجُهُوْدَ الدَّعْوِيَّةَ، وقَوَافِلَ التَّائِبِيْنَ يَوْمَ كَانَتْ تِلْكَ المُحَاضَرَاتُ الإيْمانِيَّةُ الخَالِصَةُ مِنْهُم، وتِلْكُمُ المَوَاعِظُ والرَّقَائِقُ الزُّهْدِيَّةُ: فَلا تَسْمَعُ للحَاضِرِيْنَ عِنْدَهُم إلَّا أنِيْنًا في بُكَاءٍ، أو نَحِيْبًا في عَزَاءٍ، والنَّاسُ أفواجٌ في أمْوَاجٍ مَا بَيْنَ قَاعِدٍ وقَائِمٍ، ونَاظِرٍ وسَامِعٍ، ونَادِمٍ وحَازِمٍ ... والكلُّ لا يَزِيْدُوْنَ علىٰ قَولِهِم: إنَّا مُنْتَهُوْنَ إنَّا تَائِبُوْنَ، فَسَقَىٰ الله تِلْكَ الأيَّامَ الخَوالِيَا، يَوْمَ لم يَكُنْ لهُم في الدَّعْوَةِ سِوَىٰ الأجْرِ والاحْتِسَابِ، يَوْمَ كَانَتْ مَجَالِسُهُم عَامِرَةً، وبِيُوتُهُم

مَفْتُوْحَةً، وأشْرِطَتُهُم مَبْثُوْثَةً لكُلِّ مُسْلِمٍ دُوْنَ حُقُوْقٍ أو تَحْجِيْرٍ!

* * *

وهَكَذَا كَانَتْ سِيَرُهُم مَرْضِيَّةً، وأعْمالُهُم سَنِيَّةً؛ حَتَّىٰ إذَا جَاءتِ الأقْضِيَةُ التَّربَوِيَّةُ بتَدَسُّسٍ إلَيْهِم لتَأخُذَهم في مَزالِقِ العِلْمِ، ومَضَايِقِ الدَّعْوَةِ: حَيْثُ زَيَّنُوا لهُمُ الحَيَاةَ الدُّنْيَا، وعَمَّرُوا لهُمُ القُصُوْرَ الفَاخِرَةَ، وقَرَّبُوا لهُمُ المَرَاكِبَ الفَارِهَةَ، وأشْرَكُوْهُم في الإعْلامِ والمَجَلَّاتِ، ومِنْ وَرَائِها (الإنْتَرْنِتْ)، وأظْهَرُوْهُم في زِيِّ أهْلِ الدُّنْيَا، ولَقَّنُوْهُم لُغَةَ الحِوَارِ والإلْقَاءِ، وغَيَّبُوْهُم عَنْ لُغَةِ الشَّرِيْعَةِ الغَرَّاءِ، فَلَمْ يَعُدْ تَسْمَعُ: بالحُمَيْدِيِّ، ولا مُغْلَطَاي، ولا ابنِ مَاكُولا، ولا الشَّهْرَزُوْرِيِّ، ولا اللَّالَكَائِيِّ، ولا غَيْرِهِم ممَّنْ بَقِيَتْ أسْماؤهُم غُرَّةً في جَبِيْنِ التَّارِيْخِ، وعُلْقَةً في ذَاكِرَةِ المُسْلِمِيْنَ!

بَل لا تَسْمَعُ مِنْهُمُ اليَوْمَ: إلَّا بهُوَيْدِي، وحَنَفِي، ودِيْفِيْد، وكُرُوْمَر، ولُوِيْس، وأدُوْنِيْس، وغَيْرِهِم مِنَ العِصْرَانِيِّيْنَ والمُسْتَشْرِقِيْنَ والعَلْمانِيِّيْنَ والحَدَاثِيِّيْنَ . . . !

كُلُّ ذَلِكَ مِنْهُم: لصَالِحِ الدَّعْوَةِ (زَعَمُوا)، وكَسْبِ الآخَرِيْنَ، والتَّيْسِيْرِ، أو عَسَاهُ يَكُوْنُ لمُحَارَبَةِ الإرْهَابِيِّيْنَ!

فعِنْدَئِذٍ لم تَعُدْ تَرَىٰ صُوَرَهُم إلَّا في مَجَلَّةٍ، ولا أشْبَاحَهُم إلَّا في قَنَاةٍ إعْلامِيَّةٍ، ولا تَسْمَعُ لهم صَوْتًا إلَّا في نَادٍ، ولا تَحْظَىٰ لهُم بزِيَارَةٍ إلَّا في فُنْدُقٍ أو قَصْرٍ!

وهَكَذَا حَتَّىٰ إذَا أَرَّقَتْهُم ذِكْرَىٰ المُحَاضَرَاتِ القَدِيْمَةِ: أَقَامُوْهَا حِيْنَئِذٍ علىٰ قَدَمِ التَّنْسِيْقِ والتَّنْظِيْمِ تَأَثُّرًا بِفُرُوْخِ الغَرْبِ في دَوْرَاتِهم الإدَارِيَّةِ، ومِنْ ورَائِهَا تُفتَحُ لهُم أُجُوْرُ العَاجِلَةِ في تَسْوِيْقِ عِلْمِهِم وعَمَلِهِم، فَعِنْدَهَا يَحْتَاطُوْنَ لمُحَاضَرَاتِهِم بفَرْضِ عُقُوْبَاتٍ جَزَائِيَّةٍ لِكُلِّ مَنْ تُسَوِّلُ لَهُ نَفْسُهُ سَماعَ أَشْرِطَتِهِم دُوْنَ الْتِزَامٍ بحُقُوْقِ الطَّبْعِ والجَشَعِ!

ومَهْما يَكُنْ مِنْ أمْرٍ؛ فَهَلْ كَسِبَتْ دَعْوَتُهُم هَذِهِ الأَيَّامَ مَا كَانَتْ تَكْسِبُهُ بالأَمْسِ؟ مِنْ تَائِبِيْنَ بَعْدَ مَعْصِيَةٍ، وعَائِدِيْنَ بَعْدَ غَفْلَةٍ؟ أو قَلَّتِ المُنْكَرَاتُ بعَامَّةٍ أو خَاصَّةٍ؟ فَهَلْ شَيءٌ مِنْ ذَلِكَ؟ نَرْجُو ذَلِكَ ونَتَمَنَّاهُ!

* * *

نَعَم؛ لَقَدْ رَضِيَ كَثِيْرٌ مِنْ أَهْلِ العِلْمِ والدَّعْوَةِ اليَوْمَ، أنْ يَبْقَوْا مَعَ أَنْصَارِ (الفِكْرِ التَّرْبَويِّ)، ومَعَ أَهْلِ الشَّهَادَاتِ الجَامِعِيَّةِ (الأَكَادِيْمِيَّةِ)، ورِجَالِ الفِكْرِ، ومُحَلِّلِي السِّيَاسَةِ، ومَعَ صِغَارِ العِلْمِ ممَّنْ لم يَتَشَرَّبُوا الكِتَابَ والسُّنَّةَ قَوْلًا وعَمَلًا، ولم يُدْمِنُوا كُتُبَ السَّلَفِ مُطَالَعَةً وتَحْرِيْرًا!

* * *

فَإنْ كَانَ للذِّكْرَىٰ عِنْدَ هَؤلاءِ الدُّعَاةِ مِنْ بَقِيَّةٍ، أم للأَطْلالِ لدَيْهِم مِنْ وُقُوْفٍ؛ فَحُقَّ لهُم اليَوْمَ أنْ يَعْلِنُوْهَا هُنَا وهُنَاكَ: بَأَنَّهُم كَانُوا يَوْمًا مِنَ الأَيَّامِ أَصْحَابَ دَعْوَةٍ وأَتْبَاعٍ، وأَصْحَابَ إيْذَاءٍ وابْتِلاءٍ إلىٰ غَيْرِ ذَلِكَ مِنَ المُغَالَطَاتِ الَّتِي تُعْتَبَرُ في حَقِيْقَتِهَا تَسْوِيْقًا لرَصِيْدِهِم الدَّعْوِيِّ القَدِيْمِ، فَما

هِيَ إِلَّا أَيَّامٌ مَعْدُوْدَاتٌ حَتَّىٰ يَنْتَهِيَ بِهِمُ الرَّصِيْدُ، فَحِيْنَئِذٍ لا رَأسَ مَالٍ سَيَبْقَىٰ، ولا مَكَاسِبَ دَعَوِيَّةً سَتَرْقَىٰ؛ فَضْلًا عَنْ تَنْمِيَتِهَا وتَفْعِيْلِهَا!

ومَا البَذْلُ الدَّعْوِيُّ والجُهْدُ الفِكْرِي الَّذِي يَبْذِلُهُ هَؤلاءِ الدُّعَاةُ اليَوْمَ؛ إِلَّا مُسَارَقَةٌ لمَاضٍ تَلِيْدٍ، وتِذْكَارٍ لأطْلالِ لَيْلَىٰ، وجَرٌّ لأيَّامٍ خَالِيَةٍ ... فَلا ارْتِقَاءَ بالدَّعْوَةِ، ولا حَتَّىٰ احْتِفَاظٍ بِهَا، والله المُوَفِّقُ والهَادِي إلىٰ سَواءِ السَّبِيْلِ.

* * *

(ومِنْ خَطِيْئَةِ بَعْضِهِم (هَدَاهُ الله!) ممَّنْ كَانَ لَهُ صَوْلَةٌ وجَوْلَةٌ في العِلْمِ والدَّعْوَةِ؛ أَنَّهُ لمَّا سُئِلَ عَنْ هَذِهِ التَّمْتمات والتَّفَقُّهاتِ الارْتجَالِيَّةِ، والتَّرَاجُعَاتِ الانْهِزَامِيَّةِ اليَوْمَ، عمَّا كَانَ عَلَيْهِ مِنَ السَّدَادِ والاسْتِقَامَةِ، والدَّلِيْلِ الشَّرْعِيِّ، قَالَ: إِنَّها تَجْرُبَةٌ قَدْ خِضْنَاهَا، فَرَأيْنَا مِنَ المَصْلَحَةِ الدَّعْوِيَّةِ اليَوْمَ تَرْكَهَا، لأنَّ الوَقْتَ يَفْرِضُهَا، والجُمْهُوْرَ يَطْلُبُهَا!

ومِنْ عَرِيْضِ فَسَادِ هَذِهِ التَّرَاجُعَاتِ؛ أَنَّهم يَجْعَلُوْنَ مِنَ الدِّيْنِ مَحَلًا للتَّجَارُبِ، ومِنَ الدَّعْوَةِ مَكَاسِبَ جَمْهُوْرِيَّةٍ! وهَلْ هَذَا مِنْهُم إِلَّا بَيْعًا وشِرَاءً بآيَاتِ الله ثَمنًا قَلِيْلًا؟!

فَمَنْ هَذِهِ حَالُهُ مَعَ الدَّعْوَةِ إلىٰ الله: فَلَيْسَ لَهُ حَقٌّ أَنْ يُجرِّبَ مَرَّةً ثَانِيَةً؛ لأنَّ الدِّيْنَ مُحْكَمٌ مُنَزَّلٌ لا يَأتِيْهِ البَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ ولا مِنْ خَلْفِهِ تنزيل مِنْ حَكِيْمٍ عَلِيْمٍ، فَمَنْ أجَازَ علىٰ نَفْسِهِ أَنْ يَخُوضَ بأبْنَاءِ المُسْلِمِيْنَ في تَجَارُبِهِ

يَوْمًا مِنَ الأَيَّامِ فَلَيْسَ لَهُ أَنْ يَعْبَثَ بِهِم مَرَّةً ثَانِيَةً لِيُقَامِرَ بِهِم فِي مَيْدَانِ تَجَارُبِهِ.

ومِنْ آخِذَاتِ الأَسَفِ؛ أَنَّهُم لا يَتَراجَعُوْنَ إِلَّا إِلىٰ الوَرَاءِ، وإِلىٰ الضَّعْفِ، وإِلىٰ الهَوَانِ، وإِلىٰ الانْكِسَارِ، ثُمَّ إِلىٰ هُوَّةِ هَزَائِمِ النَّفْسِ المُتَدَثِّرَةِ بثَوْبِ الدَّعْوَةِ!

ومَنْ هَذِهِ حَالُهُم؛ فَقَدْ صَاحُوا ونَادُوا بأَنَّهُم إِلىٰ الدَّعْوَةِ أَحْوَجُ مِنْهُم إِلىٰ أَنْ يَكُوْنُوا دُعَاةً، وإِلىٰ حِفْظِ مَاءِ الوُجُوْهِ أَقْرَبُ مِنْهُم أَنْ يَكُوْنُوا وُجَهَاءَ، وإِلىٰ مُتَفَكِّرِينَ أَوْلىٰ مِنْ أَنْ يَكُوْنُوا مُفَكِّرِينَ، ونَاظِرِينَ خَيْرًا مِنْ أَنْ يَكُوْنُوا مُنَظِّرِينَ!

وحَسْبُكَ هَذَا الأَثَرُ الشَّافِي الَّذِي يَصِفُ حَالَ كَثِيرٍ مِنْ دُعَاةِ عَصْرِنَا مِمَّنْ هَذِهِ حَالُهُم، فعَنْ حُذَيْفَةَ بنِ اليَمَانِ ﷺ قَالَ: «تُعْرَضُ الفِتْنَةُ علىٰ القُلُوْبِ، فَأَيُّ قَلْبٍ كَرِهَها نُكِتَتْ فِيْهِ نُكْتَةٌ بَيْضَاءُ، وأَيُّ قَلْبٍ أُشْرِبَهَا نُكِتَتْ فِيْهِ نُكْتَةٌ سَوْدَاءُ، فمَنْ أَحَبَّ أَنْ يَعْلَمَ أَصَابَتْهُ الفِتْنَةُ أَمْ لا؟ فَلْيَنْظُرْ هَلْ يَرَىٰ شَيْئًا حلالًا كَانَ يَرَاهُ حَرَامًا، أو يَرَىٰ شَيْئًا حَرَامًا كَانَ يَرَاهُ حلالًا» أَخْرَجَهُ الحَاكِمُ في «المُسْتَدْرَكِ» (٤/ ٤٦٧)، وابنُ أَبي شَيْبَةَ في «المُصَنَّفِ» (١٥/ ٨٨)، وأَبُو عُمْرٍو الدَّانِيُّ في «الفِتَنِ» (١/ ٢٢٧)، وصَحَّحَهُ الحَاكِمُ، ووَافَقَهُ الذَّهَبِيُّ.

وعَنْ أَبي مَسْعُوْدٍ ﷺ قَالَ: «أَنَّهُ دَخَلَ علىٰ حُذَيْفَةَ بنِ اليَمَانِ ﷺ فَقَالَ: أَوْصِنَا يَا أَبَا عَبْدِ الله! فَقَالَ حُذَيْفَةُ أَمَا جَاءَكَ اليَقِيْنُ؟! قَالَ: بَلىٰ ورَبِّي! قَالَ: فَإِنَّ الضَّلالَةَ حَقَّ الضَّلالَةِ أَنْ تَعْرِفَ اليَوْمَ مَا كُنْتَ تُنْكِرُ قَبْلَ اليَوْمَ، وأَنْ تُنْكِرَ اليَوْمَ مَا كُنْتَ تَعْرِفُ قَبْلَ اليَوْمَ، وإِيَّاكَ والتَّلَوُّنُ في الدِّيْنِ، فَإِنَّ دِيْنَ الله

وَاحِدٌ» أخْرَجَهُ عَبْدُ الرَّزَّاقِ في «المُصَنَّفِ» (٢٠٤٥٤)، والبَيْهَقِيُّ في «السُّنَنِ الكُبْرَىٰ» (١٩٦٨١).

وأخْرَجَهُ أبُو نُعَيْمٍ في «الحِلْيَةِ» (١/ ٢٧٤) بلَفْظِ: «أو لم يأتِكم اليَقِيْنُ، كِتَابُ الله ﷻ؟»، وفي لَفْظٍ لَهُ (١/ ٢٧٨): «إنَّ أخْوَفَ مَا أخَافُ علىٰ هَذِهِ الأمَّةِ أنْ يُؤثِرُوا مَا يَرَوْنَ علىٰ مَا يَعْلَمُوْنَ».

وعَنْ أبي مَسْعُوْدٍ الأنْصَارِيِّ ﷺ قَالَ: «اتَّقُوا اللهَ! أعُوْذُ مِنْ صَبَاحِ النَّارِ، وإيَّاكُم والتَّلَوُّنُ في الدِّيْنِ، مَا عَرَفْتُم اليَوْمَ فَلا تُنْكِرُوْهُ غَدًا، ومَا أنْكَرْتُمُوْهُ اليَوْمَ فَلا تَعْرِفُوْهُ غَدًا» أخْرَجَهُ أحْمَدُ في «الزُّهْدِ» (١/ ١٨٢)، ورِجَالُ الإسْنَادِ ثِقَاتٌ، وفِيْهِ عَطَاءُ بنُ السَّائِبِ، وقَدِ اخْتَلَطَ، وسَماعُ خَالِدٍ الوَاسِطيِّ مِنْهُ كَانَ بَعْدَ الاخْتِلاطِ.

وعَنْ إبْرَاهِيْمَ النَّخَعِيِّ ﵀ قَالَ: «كَانُوا يَرَوْنَ التَّلَوُّنَ في الدِّيْنِ مِنْ شَكِّ القُلُوْبِ في الله» أخْرَجَهُ ابنُ بَطَّةَ في «الإبَانَةِ» (٢/ ٨٥).

وعَنْ مَالِكِ بنِ أنَسٍ ﵀ قَالَ: «الدَّاءُ العُضَالُ التَّنَقُّلُ في الدِّيْنِ» أخْرَجَهُ ابنُ بَطَّةَ «الإبَانَة» (٢/ ٨٦).

* * *

وهَكَذَا لم تَنْتَهِ عَجَلَةُ الانْهِزَامِ الدَّعْوِي ببَعْضِ دُعَاتِنَا اليَوْمَ؛ حَيْثُ خَرَجَ عَلَيْنَا طَائِفَةٌ مِنَ الخُطَبَاءِ أهْلِ المَنَابِرِ والتَّذْكِيْرِ، ممَّنْ أخَذَتْهُم الغَيْرَةُ والحَمِيَّةُ الإسْلامِيَّةُ في غَيْرِ مَا مَوْقِفٍ وقَضِيَّةٍ إسْلامِيَّةٍ، فَكَانُوا عِنْدَهَا أهْلَ فَصَاحَةٍ

وبَيَانٍ، فَعِنْدَئِذٍ ارْتَفَعَتْ أصْوَاتُهُم الجَهْوَرِيَّةُ، مُحَذِّرِيْنَ الأمَّةَ المَعَاصِي والفَسَادَ، وكَذَا سُوْءَ فِعَالِ وأقْوَالِ أعْدَاءِ الدِّيْنِ، وهَكَذَا مَا بَيْنَ تَذْكِيْرٍ وتَحْذِيْرٍ، فَجَزَاهُمُ الله خَيْرًا.

حَتَّىٰ إذَا اشْتَهَرَتْ خُطَبُهُم، ولمَعَتْ أسْماؤهُم، أنْزَلَهُم أنْصَارُ (الفِكْرِ التَّرْبَوِيِّ) مِنْ مَنَابِرِهِم؛ آخِذِيْنَ بِهِم إلىٰ مَنَاصِبَ وكَرَاسِي المُحَاضَرَاتِ والتَّنْظِيْرِ للأمَّةِ، ورُبَّما للإفْتَاءِ، فأصْبَحُوا حِيْنَئِذٍ عُلَماءَ ومُنَظِّرِيْنَ؛ بَعْدَ أنْ كَانُوا أهْلَ تَذْكيرٍ ومَوَاعِظَ، لا تَخرُجُ عَنْ حُدُوْدِ المِنْبرِ.

فَنَحْنُ نَقُوْلُ لهُم ولغَيْرِهِم: العِلْمُ أوَّلًا، ثُمَّ العَمَلُ ثَانِيًا، فَمَنْ كَانَ يُحْسِنُ العِلْمَ الشَّرعِيَّ فَحَيْهلا، ومَنْ كَانَ لا يُحسِنُ إلَّا مَوَاقِعَ الخُطَبِ مِنْ فَوْقِ المَنَابِرِ، فَلا يَتَعَدَّهَا!

* * *

ومِنْ آخِرِ دَبِيْبِ القَصَّاصِيْنَ والوُعَّاظِ ومُزَايَدَاتِ دُعَاةِ التَّربَوِيِّيْنَ: ظُهُوْرُ طَائِفَةٍ ممَّنْ هُمْ قَرِيْبُو عَهْدٍ بالتَّوْبَةِ في مَيَادِيْنِ الدَّعْوَة ومَسَارِحِ الوَعْظِ؛ وهُمْ بَعْدُ لم يَرْفَعُوا للعِلْمِ رَأسًا، بَلْ لم تَأخُذِ التَّوْبَةُ ببَعْضِهِم مَأخَذَهَا؛ حَيْثُ نَجِدُهُم مَا بَيْنَ عَشِيَّةٍ وضُحَاهَا يَتَصَدَّرُوْنَ مَقَامَاتِ الوَعْظِ والتَّذْكِيْرِ سَوَاءٌ في المُحَاضَرَاتِ أو اللِّقَاءَاتِ أو النَّدَوَاتِ.

فَكَمْ سَمِعْنَا ورَأيْنَا؛ عَنِ امْرَأةٍ ممَّنْ ذَاعَ اسْمُهَا، وشَاعَ ذِكْرُهَا في ظُلُمَاتِ المَعَاصِي والسُّفُوْرِ؛ حَتَّىٰ إذَا أعْلَنَتْهَا تَوْبَةً لله تَعَالىٰ، قَامَ أنْصَارُ (الفِكْرِ

التَّرْبَوِيِّ) يَزُفُّوْنَ البُشْرَىٰ للمُسْلِمِيْنَ بتَوْبَتِهَا، حَتَّىٰ إذَا ظَنَّتْ هَذِهِ المَسْكِيْنَةُ بهَذِهِ الهَالَةِ الدِّعَائِيَّةِ أنَّها مِنْ أهْلِ الحلِّ والعَقْدِ، أخَذَهَا التَّربَوِيُّوْنَ أخْذَةَ غَافِلٍ، فعِنْدَئِذٍ لا يَدَعُوْنَها طَرْفَةَ عَيْنٍ حَتَّىٰ يُخْرِجُوْهَا للنَّاسِ وَاعِظَةً مُذَكِّرَةً، ورُبَّما مُفْتِيَةً في أحْكَامِ الدِّيْنِ والدُّنْيا، وهِيَ بَعْدُ لم تَأخُذِ التَّوْبَةُ مِنْهَا مَأخَذَهَا، فَضْلًا عَنْ تَأصِيْلِ العِلْمِ الشَّرعِي لدَيْها، فَمَرَّةً يُقَدِّمُوْنَها للوَعْظِ، وأخْرَىٰ يَسْألُوْنَها عَنْ رَأيِها في قَضِيَّةِ الحِجَابِ، أو تَعَدُّدِ الزَّوْجَاتِ، أو قِيَادَةِ المرْأةِ للسَّيَّارَةِ، وهَكَذَا في غَيْرِ مَهْزَلَةٍ دَعَوِيَّةٍ يَتَقَاذَفُهَا أنْصَارُ (الفِكْرِ التَّرْبَوِيِّ) بَيْنَ أبْنَاءِ المُسْلِمِيْنَ، ويَلْقُوْنَها في سَاحَاتِ أمَّةِ الإسْلامِ!

* * *

وقِسْ علىٰ هَذِهِ أيْضًا؛ بَعْضَ أهْلِ زَمَانِنَا ممَّنْ هُم قَرِيْبُو عَهْدٍ بالمَعَاصِي والغَفْلَةِ؛ حَتَّىٰ إذَا تَابُوا إلىٰ الله تَعَالىٰ، نَجِدُ أنْصَارَ (الفِكْرِ التَّرْبَوِيِّ) لا يَتَأخَّرُوْنَ في تَصْدِيْرِهِم للتَّذْكِيْرِ والوَعْظِ هُنَا وهُنَاكَ، كُلُّ ذَلِكَ كَانَ (للأسَفِ) علىٰ حِسَابِ تَرْسِيْخِ تَوْبَتِهِم، وطَلَبِهِم للعِلْمِ الشَّرْعِي، فكَانَ الأوْلىٰ والأحْرَىٰ بأنْصَارِ (الفِكْرِ التَّرْبَوِيِّ) أنْ يَسْعَوْا جَاهِدِيْنَ في دَفْعِ مَنْ هَذِه حَالُهُم: إلىٰ تَحْقِيْقِ التَّوْبَةِ، وتَعْظِيْمِ عِبَادَةِ الله تَعَالىٰ، وتَأصِيْلِ العِلْمِ الشَّرْعِي، ومِنْ قَبْلِهَا تَرْسِيْخُ التَّوْحِيْدِ، ومُنَابَذَةُ الشِّرْكِ والمَعَاصِي في غَيْرِهَا ممَّا يَجِبُ ويُسْتَحَبُّ شَرْعًا!

* * *

نَعَم؛ إنَّنَا لا نَشُكُّ أنْ ظُهُوْرَ مِثْلِ هَؤلاءِ العَائِدِيْنَ إلىٰ الله تَعَالىٰ المَرَّةَ أو

المَرَّتَيْنِ للتَّذْكِيْرِ والتَّحْذِيْرِ باسْمِ: الوَعْظِ، لهُوَ مِنَ الخَيْرِ العَمِيْمِ والحِكْمَةِ الدَّعْوِيَّةِ كَي يَحْذَرَ الغَافِلُ والسَّاهِي مَسَالِكَهُم المُظْلِمَةَ، ومَا كَانُوا عَلَيْهِ مِنْ ضَلالٍ وفَسَادٍ، ويَعْتَبِرُوا بمَنْ هَذِهِ حَالَهُم، نَعَم مِثْلُ هَذَا الصَّنِيْعِ هُوَ مَوْعِظَةٌ وذِكْرَىٰ.

لَكِنَّ الخَطَأ كُلَّهُ هَهُنَا: هُوَ ظُهُوْرُ مِثْلِ هَذِه النَّماذِجِ والطَّرَائِقِ في الوَعْظِ سِنِيْنَ عَدَدًا، وبَقَاؤُهَا دَيْدَنًا وسِمَةً في مَجَالِسِ الوَعْظِ والتَّذْكِيْرِ؛ بحَيْثُ تُزَاحِمُ حِلَقَ أهْلِ العِلْمِ والتَّدْرِيْسِ، ومَجَالِسَ أهْلِ الدَّعْوَةِ النَّاصِحِيْنَ المَشْهُوْدِ لهُم بالعِلْمِ والتَّقْوَىٰ والسِّيْرَةِ المَرْضِيَّةِ، فمِثْلُ هَذَا الطَّرْحِ الدَّعْوِي الهَزِيْلِ، وبِهَذِهِ الصُّوْرَةِ الظَّاهِرَةِ السَّائِرَةِ هُنَا وهُنَاكَ، لهُوَ مِنَ الخَطَأ الدَّعْوِي في الحِكْمَةِ والمَوْعِظَةِ لَدَىٰ أنْصَارِ (الفِكْرِ التَّرْبَوِيِّ)!

هَذَا إذَا عَلِمْنَا جَمِيْعًا أنَّ أكْثَرَ أبْنَاءِ المُسْلِمِيْنَ اليَوْمَ (للأسَفِ!) لا يَعْرِفُوْنَ مِنْ مَجَالِسِ الوَعْظِ إلَّا مَا يَقُوْلُهُ ويَنْشُرُهُ هَؤلاءِ العَائِدُوْنَ إلىٰ الله تَعَالَىٰ، فعِنْدَئِذٍ أُشْرِبَتْ قُلُوْبُهُم وامْتَلأتْ عُيُوْنُهُم بطَرَائِقِ هَؤلاءِ التَّائِبِيْنَ إلىٰ الله في الوَعْظِ والتَّذْكِيْرِ ممَّنْ قلَّ عِلْمُهُم، وضَاقَ فِكْرُهُم . . . حَيْثُ لا تَسْمَعُ في مَجَالِسِ بَعْضِهِم: إلَّا كَثْرَةَ ضَحِكٍ، ومِكْثَارَ مِزَاحٍ، وتَسْوِيقَ مُغَامَرَاتٍ لمَاضِيْهِمُ البَائِرِ، ولَحْنًا في القَوْلِ، وخِفَّةً في المَوَاقِفِ، مَعَ قلَّةِ عِلْمٍ، فَما لَهُم قُلٌّ ولا كُثْرٌ!

* * *

ومِنْ تَذَوُّقَاتِ لِبَاسِ الانْهِزَامِ الدَّعْوِيِّ، وتَلْوِيْنِ دَعْوَةِ الأهْفَاءِ؛ أنَّ طَائِفَةً

مِنْ دَارِسِي العُلُوْمِ الدُّنْيَوِيَّةِ: كالرِّيَاضِيَّاتِ، والكِيْمِيَاءِ، والفِيْزِيَاءِ، والأَحْيَاءِ، والهَنْدَسَةِ، والبَيْطَرَةِ وغَيْرِهَا، ممَّنْ لم يَأخُذُوا حَظَّهُم مِنَ العُلُوْمِ الشَّرْعِيَّةِ، اللَّهُمَّ فَتَاتَ الدَّوْرَاتِ الدَّخِيْلَةِ الهَجِيْنَةِ: كفَنِّ الإلْقَاءِ، والبَرْمَجَةِ العَصَبِيَّةِ اللُّغَوِيَّةِ، والدَّوْرَاتِ الإدَارِيَّةِ . . . فَحِيْنَهَا خَرَجُوا أَشَرًا وبَطَرًا لِيَسْتَبِيْحُوا المَسْرَحَ الدَّعْوِيَّ يُضَاهِئُونَ أَهْلَ العِلْمِ والدَّعْوَةِ، فَعِنْدَهَا قَامُوا للوَعْظِ والتَّذْكِيْرِ في مُنَاسَبَاتٍ مُخْتَصَرَةٍ، ومَجَالِسَ صَغِيْرَةٍ لَيْسَ إلَّا.

حَتَّىٰ إذَا أخَذَتْ عَصَا الشُّهْرَةِ تَقُوْدُهُم في بُنَيَّاتِ الدَّعْوَةِ قَامُوا لِيَمْتَطُوا جَوَادَ الفَتْوَىٰ والتَّنْظِيْرِ والتَّرْشِيْدِ في مُهِمَّاتِ القَضَايَا، وعَوِيْصِ المَسَائِلِ، فَعِنْدَهَا غَصَّتِ المَكْتَبَاتُ بكُتُبِهِم، وشَرِقَتِ التَّسْجِيْلاتُ الإسْلامِيَّةُ بمُحَاضَرَاتِهِم: فَمَرَّةً في قَضَايَا المَرْأةِ، وتَارَةً في الإرْسَالِيَّاتِ والابْتِعَاثَاتِ الخَارِجِيَّةِ، وأُخْرَىٰ في الحَدِيْثِ عَنِ التَّارِيْخِ الإسْلامِيِّ، وثَانِيَةً في تَطْوِيْرِ وتَغْيِرِ المَنَاهِجِ الدِّرَاسِيَّةِ، وثَالِثَةً في تَيْسِيْرِ الفِقْهِ، ورَابِعَةً في تَرْخِيْصِ الفَتَاوَىٰ، وخَامِسَةً في تَقَارُبِ الأدْيَانِ والمَذَاهِبِ البَاطِنِيَّةِ، وهَكَذَا في تَشْقِيْقَاتِ جَهْلاءَ، لَيْسَ لها مِنْ وَاقٍ إلَّا دِرَّةُ عُمَرَ!

* * *

❑ فَكَانَ مِنْ نَقَائِضِ الغَزْلِ بَعْدَ تَمَامِهِ، وإهْدَامِ البِنَاءِ بَعْدَ قِيَامِهِ أنَّ طَائِفَةً مِنْ طُلَّابِ العِلْمِ ممَّنْ شَقُّوا طَرِيْقَهُم يَوْمًا مِنَ الأيَّامِ إلىٰ العِلْمِ والتَّعَلُّمِ والتَّفَقُّهِ في دِيْنِ الله تَعَالىٰ؛ حَتَّىٰ إذَا عَلا كَعْبُهُم، وظَهَرَ عِلْمُهُم: إذَا بِهِمْ يَتَسَاقَطُوْنَ في أوْحَالِ الإذَاعَاتِ والقَنَواتِ الفَضَائِيَّةِ، تَحْتَ أغْلالِ التَّغْرِيْبِ، ومَعَاوِلِ التَّخْرِيْبِ، وذَلِكَ مِنْ خِلالِ اسْمِ: المُذِيْعِ الإعْلامِيِّ!

فعِنْدَهَا غَدَوْا علىٰ حَرْدٍ قَادِرِيْنَ، وتَرَاخُوا ذَابِلِيْنَ، وتَقَنَّعُوا بثِيَابِ الحَيَاءِ ممَّا كَانُوا عَلَيْهِ فَكَأَنَّهم لم يَكُوْنُوا يَوْمًا مِنَ الأيَّامِ أَهْلَ عِلْمٍ بَارِزِيْنَ، أو طُلَّابَ عِلْمٍ نَابِغِيْنَ، يُوَضِّحُهُ هَذِهِ الشُّهْرَةُ العَاجِلَةُ الَّتِي كَانُوا عَنْهَا سَائِلِيْنَ، وهَذِهِ الوِجَادَةُ الضَّالَةُ الَّتِي أَدْرَكُوْهَا بِلا تَعْبٍ أو مَيْنٍ!

وهُوَ أَنَّ الرَّجُلَ مِنْهُم لمَّا كَانَ طَالِبَ عِلْمٍ في ادِّعَائِهِ ودَعْوَتِهِ، وفي عِلْمِهِ وعَمَلِهِ إِذْ بِهِ يَرْتَدُّ علىٰ عَقِبَيْهِ، ويَسْقُطُ بَيْنَ يَدَيْهِ كَأَنَّ شَيْئًا لم يَكُنْ، وذَلِكَ بِمَا أَوْحَاهُ إِلَيْهِ أَنْصَارُ (الفِكْرِ التَّرْبَوِيِّ): بِأَنَّهُ مُفَوَّهٌ في حُجَّتِهِ، ومُمَكَّنٌ في عِلْمِهِ وهَكَذَا حَتَّىٰ إِذَا ظَنَّ هَذَا المَأْخُوْذُ بقَالاتِهِم، ورَكَنَ إلىٰ شَهَادَاتِهِم: أَلْقَوْهُ في الْيَمِّ مَعْصُوْبَ العَيْنَيْنِ، وقَذَفُوْهُ في أُجُوْنِ الإذَاعَاتِ والقَنَوَاتِ مَمْسُوْخَ الهُوِيَّةِ في الدِّيْنِ، فعِنْدَئِذٍ يُقَدِّمُوْنَهُ للنَّاسِ: مُذِيْعًا إعْلامِيًّا، ومُحَاوِرًا بَلِيْغًا، وأَخْبَارِيًّا لامِعًا!

فَتَراهُ بَعْدَ أَنْ كَانَ طَالِبَ عِلْمٍ بَدِيْعًا، أَصْبَحَ مُذِيْعًا وَدِيْعًا، فَهَذِهِ مِنْ لَوْثَاتِ طَأْطَأَتِ الرُّؤوسِ بَعْدَ رَفْعِهَا، وخَفْضِ الأجْنِحَةِ بَعْدَ صَفِّهَا، فَكَانَ مِنْ مَآخِذِ هَذِهِ التَّشَرُّفَاتِ الجَهْلاءِ بالمُتَسَنِّمِيْنَ علىٰ مَنَابِرِ الإذَاعَاتِ والقَنَواتِ، ومَسَارِحِ الحِوَارَاتِ الإعْلامِيَّةِ، مَا يَلِي:

أَنَّ بَعْضَهُم هَدَاهُ الله؛ مِمَّنْ نَصَبُوْهُ مُذِيعًا مُحَاوِرًا: تَرَاهُ إِذَا اسْتَضَافَ بَعْضَ أَهْلِ العِلْمِ للحِوَارِ حَوْلَ قَضِيَّةٍ شَرْعِيَّةٍ كحِجَابِ المَرْأَةِ، أو تَعَدُّدِ الزَّوْجَاتِ مَثَلًا: جَعَلَ مِنْ نَفْسِهِ مُذِيْعًا مُحَايِدًا، ومُحَاوِرًا مُجَادِلًا، كَأَنَّهُ خَصْمٌ للقَضِيَّةِ، وعَدُوٌّ للحَقِّ، ومُنَاصِرٌ للبَاطِلِ، فَمَرَّةً يَقْذِفُ بالشُّبَهِ

والاعْتِرَاضاتِ علىٰ الشَّيْخِ الَّذِي يُحَاوِرُهُ، ومَرَّةً يُرَوِّجُ ويُلَمِّعُ حُجَجَ أهْلِ البَاطِلِ في رَدِّهِم للحَقِّ، وثَانِيَةً يُهَوِّنُ مِنْ أمْرِ القَضِيَّةِ وشَرْعِيَّتِهَا، وأُخْرَىٰ يُثْنِي علىٰ المَرْأةِ المُنْحَرِفَةِ ويُزَيِّنُهَا، وهَكَذَا في تَنَاقُضَاتٍ ومُرَاوَغَاتٍ مَاسِخَاتٍ لَيْسَ لهَا في مِيزَانِ الحِوَارِ الشَّرْعِيِّ إلَّا قَذْفُ الشُّبَهِ، ودَحْضُ الحَقِّ، وتَرْوِيْجُ البَاطِلِ، وتَزْيِنُ المُنْكَرِ، وإفْحَامُ الشَّيْخِ المِسْكِيْنِ بِكُلِّ تَحَايُلٍ وتَقَاوُلٍ، وبِكُلِّ جِدَةٍ وحَيْدَةٍ!

فَإذَا سُئِلَ هَذَا المُذِيْعُ الصَّلِيْعُ عَنْ هَذِهِ المَحْذُوْرَاتِ والتُّرهَاتِ الَّتِي ارْتَكَبَهَا في حَقِّ هَذِهِ القَضِيَّةِ الشَّرعِيَّةِ، لاسِيَّما وأنَّهُ يُجَادِلُ أمَامَ المُشَاهِدِيْنَ والسَّامِعِيْنَ مِنَ عُمُوْمِ المُسْلِمِيْنَ وغَيْرِهِم، قَالَ: إنَّما أرَدْتُ بِهَذَا الصَّنِيْعِ أنْ أُثِيْرَ النِّقَاشَ، وأُثْرِيَ اللِّقَاءَ، وأُصَعِّدَ المُنَاظَرَةَ والمُحَاوَرَةَ، وأُهَيِّجَ الكَلامَ، وأُوَسِّعَ الخِلافَ!

فَإذَا قِيْلَ لَهُ أنَّىٰ لَكَ هَذِهِ الشُّبَهُ والاعْتِرَاضَاتُ؟ ولَكَأنَّكَ أحَدُ أعْلامِ أهْلِ البَاطِلِ في تَرْوِيجِ بَاطِلِهِم؟ قَالَ لَكَ: نَعَم؛ فَنَحْنُ لا نَتَصَدَّرُ لنِقَاشِ أيِّ قَضِيَّةٍ شَرْعِيَّةٍ أمَامَ المُشَاهِدِيْنَ إلَّا وقَدِ اطَّلَعْنَا وقَرَأنَا الشَّيءَ الكَثِيْرَ عَنْ مَقَالاتِ أهْلِ الحَقِّ والبَاطِلِ حَوْلَ هَذِهِ القَضِيَّةِ؛ كَيْ نَكُوْنَ مُلِمِّيْنَ ومُطَّلِعِيْنَ علىٰ أطْرَافِ القَضِيَّةِ؛ حَتَّىٰ يَظْهَرَ اللِّقَاءُ والحِوَارُ الإعْلامِيُّ مُتَكَامِلًا عَرْضًا ونَقْدًا.

ثُمَّ يُعَرِّجُ قَائِلًا: إنَّ هَذَا الصَّنِيْعَ الَّذِي فَعَلْتُهُ هُنَا، هُوَ جَرْيًا وتَمَاشِيًا مَعَ الأسْلُوْبِ الإعْلامِيِّ المُمَيَّزِ في إدَارَةِ الحِوَارَاتِ واللِّقَاءَاتِ، لِذَا كَانَ الأسْلُوْبُ الإعْلامِيُّ المُتَعَارَفُ بِهِ عِنْدَنَا نَحْنُ الإعْلامِيِّيْنَ: هُوَ أنْ لا يَكُوْنَ

المُحَاوِرُ مُحَايِدًا فَقَطُ، بَلْ لا بُدَّ أنْ يَكُوْنَ مُمَثِّلًا لأهْلِ البَاطِلِ في حُجَّتِهِم ونِقَاشِهِم، وأنْ يكُوْنَ مُتَكَلِّمًا علىٰ لِسَانِهِم؛ لكَي تَنْكَشِفَ الحَقِيْقَةُ، وتَظْهَرَ الحُجَّةُ!

فَإذَا قِيلَ لَهُ: كَانَ الأوْلىٰ بِكَ أنْ تكُوْنَ مُمَثِّلًا لأهْلِ الحَقِّ، ومُتَكَلِّمًا علىٰ لِسَانِهِم، ونَاصِرًا للقَضِيَّةِ، ولاسِيَّما وأنَّ القَضِيَّةَ شَرْعِيَّةٌ، وأنتَ أيْضًا مُسْلِمٌ، ومَحْسُوْبٌ علىٰ أهْلِ العِلْمِ؟!

قَالَ لَكَ: أنَا أتَعَامَلُ مَعَ طَرَائِقِ الإعْلامِ، وأسَالِيْبِ الحِوَارِ، فَلَيْسَ هَذَا مَحلًّا لمُنَاصَرَةِ القَضِيَّةِ، فَالإعْلامُ لَهُ نِظَامُهُ وكَلامُهُ، فَإذَا خَرَجَ الحِوَارُ عَنْ أسَالِيْبِهِ الإعْلامِيَّةِ لا يُعْتَبَرُ لِقَاءً إعْلامِيًّا، ولا حِوَارًا نَاجِحًا!

ثُمَّ يُعَرِّجُ هَذَا المِسْكِيْنُ قَائِلًا: فالرَّجُلُ الإعْلامِيُّ لا يُعَدُّ مُذِيْعًا مُحَاوِرًا في عَالم الإعْلامِ إلَّا إذَا كَانَ في أقَلِّ أحْوَالِهِ، وأضْعَفِ أقْوَالِهِ مُحَايِدًا في عَرْضِ القَضِيَّةِ، أمَّا المُذِيْعُ البَارِزُ النَّاجِحُ فَهُوَ مَنْ كَانَ مُمَثِّلًا لأهْلِ البَاطِلِ، ومُتَكَلِّمًا علىٰ لِسَانِهِم، وهُم مَا يُسَمَّوْنَ: بأصْحَابِ الوَجْهِ الآخَرِ!

قُلْتُ: سُبْحَانَ الله! ومَنْ قَالَ لَكَ أيُّهَا المُذِيْعُ الصَّرِيْعُ: إنَّ نِظَامَ الإعْلامِ، ومَسَالِكَ الإعْلامِيِّيْنَ قَاضِيَةٌ علىٰ أحْكَامِ الشَّرْعِ؟ ومَنْ قَالَ: إنَّ المُسْلِمَ لاسِيَّما طَالِبَ العِلْمِ يَحِلُّ لَهُ أنْ يَكُوْنَ مُتَكَلِّمًا ولِسَانًا عَنْ أهْلِ البَاطِلِ؟ سُبْحَانَكَ هَذَا بُهْتَانٌ عَظِيْمٌ!

بَلْ مَنْ فَرَضَ علىٰ أبْنَاءِ المُسْلِمِيْنَ أنْ يَجْعَلُوا مِنْ أنْفُسِهِم أدَاةً مَجَرَّدَةً مِنَ القِيَمِ والأخْلاقِ الإسْلامِيَّةِ؛ كَي يَسْلَمَ لَهُمُ الحِوَارُ الإعْلامِيُّ؟!

ثُمَّ أيُّها المُذيْعُ الفَرِيْعُ! مَنْ هُمْ هَؤلاءِ الَّذِيْنَ تُرِيْدُ أنْ تتَكَلَّمَ علىٰ لِسَانِهِم، وتُشْهِرَ حُجَجَهُم وشُبَهَهُم؟! ألَيْسُوا هُم أهْلُ البَاطِلِ مِنْ أهْلِ الأهْوَاءِ والبِدَعِ، بَلْ رُبَّما كَانُوا مِنَ المُنَافِقِيْنَ، أو مِنَ الزَّنَادِقَةِ العَلْمَانِيِّيْنَ؟!

فَهَلْ بَلَغَ بِكَ أيُّها المُذِيْعُ: الضَّعْفُ والهَوَانُ والانْهِزَامُ مَبْلَغَهُ؛ حَتَّىٰ أصْبَحْتَ وَكِيْلًا عَنْ أهْلِ البَاطِلِ في مُنَابَذَةِ الحَقِّ، ومُجَانَبَةِ الصَّوَابِ، باسْمِ: الإعْلامِ وحِوَارِهِ؟!

ثُمَّ ألم تَعْلَمْ أخِي المُذِيْعُ أنَّ وَاجِبَ المُسْلِمِ لاسِيَّما طُلَّابَ العِلْمِ أنْ يَكُوْنُوا مِنْ أتْبَاعِ النَّبِيِّ ﷺ في طَرِيْقَةِ الدَّعْوَةِ، ونَشْرِ الإسْلامِ، وبَيَانِ الحَقِّ، وكَشْفِ البَاطِلِ، ودَحْضِ حُجَجِهِ؟ لِذَا كَانَ الأصْلُ في الدَّعْوَةِ إلىٰ الله تَعالىٰ: هُوَ عَرْضُ الإسْلامِ وسَماحَتِهِ عَرْضًا صَافِيًا نَقِيًّا، كُلَّ هَذَا ليَحْيَ مَنْ يَحْيَ عَنْ بيِّنَةٍ، ويَهْلَكَ مَنْ يَهْلَكَ عَنْ بيِّنَةٍ!

* * *

❑ وبَعْدَ هَذَا؛ فَإذَا أرَدْتَ أنْ تَسْأَلَ أخِي المُسْلِمُ عَنْ هَؤلاءِ المُذِيْعِيْنَ المُحَاوِرِيْنَ فَهُم طِبَاقٌ ثَلاثَةٌ، وألْسِنَةٌ غَثَاثَةٌ، فأمَّا أمْثَلُهُم طَرِيْقَةً، وأبْلَغُهُم سَلِيْقَةً: فَهُوَ الَّذِي جَعَلَ مِنْ نَفْسِهِ مُحَايِدًا لا إلىٰ هَؤلاءِ ولا إلىٰ هَؤلاءِ، فَهُوَ كَأدَاةٍ صَمَّاءَ بَكْماءَ لَيْسَ لَهُ أثَرَةُ فَضْلٍ في الحِوَارِ إلَّا ما كَانَ مَنْ تَوْزِيْعِ للابْتِسَامَاتِ، وعَرْضٍ للمُكَالَمَاتِ، وتَرْتِيْبٍ للمُدَاخلاتِ، فكَأنَّ هَذَا المِسْكِيْنُ بصَنِيْعِهِ هَذَا قَدْ نَجا وسَلِمَ، ومَا عَلِمَ أنَّه كالتَّيْسِ المُسْتَعَارِ الَّذِي يُحَلِّلُ بِهِ أهْلُ البَاطِلِ بَاطِلَهُم!

❑ أمَّا إنْ سَألْتَ أخِي المُسْلِمُ عَنْ أسْوأ المُذِيْعِيْنَ حَالًا: فَهُوَ مَنْ كَانَ

بُوْقًا لأعْدَاءِ الدِّيْنَ، ومُلَمِّعًا للعَلْمَانِيِّيْنَ، وصَوْتًا للمُنْحَرِفِيْنَ . . . كُلَّ هَذَا مِنْهُ علىٰ حِسَابِ أهْلِ العِلْمِ الصَّالِحِيْنَ، يُوَضِّحُهُ:

أنَّ غُمْرًا مِنْ بَنَاتِ طَبَقِ هَذِهِ الأيَّامِ ممَّنْ بَرزَ وظَهَرَ مُؤخَّرًا في عَالمِ الإعْلامِ، ممَّنْ كَانَ مَحْسُوبًا علىٰ طُلَّابِ العِلْمِ، بِلْ كَانَ أحَدَ المُشَارِكِيْنَ في جِهَادِ أفْغَانِسْتَانَ أيَّامَ الاتِّحَادِ السُّوْفِيْتِيِّ: نَجِدُهُ هَذِهِ الأيَّامَ مُوْلَعًا في تَلْمِيْعِ رُمُوْزِ العَلْمَانِيِّيْنَ، ومَشْدُوْهًا بِفِكْرِهِم الفَاسِدِ، بَلْ نَرَاهُ لا يَفْتأ صَبَاحَ مَسَاءَ يَذْكُرُ مَحاسِنَ أخْلاقِهِم، وكَرِيْمَ خِصَالِهِم، وسِعَةَ ثَقَافَاتِهِم، زِيَادَةً مِنْهُ في الغِشِّ والتَّلْبِيْسِ علىٰ أبْنَاءِ المُسْلِمِيْنَ، ﴿الله يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور﴾ الآيَةَ، ولي مَعَ هَذَا الغُمْرِ وَقَفَاتٌ في كِتَابِهِ (؟)، أسْألُ الله الإعَانَةَ عَلَيْهَا والتَّوفِيْقَ!

وأسْوَأ مِنْهُمَا حُكْمًا، بَلْ أجْرَأ مِنْهُمَا ظُلْمًا: ذَاكَ المُرْتَكِسُ بَعْدَ الاسْتِقَامَةِ، والمُنْتَكِسُ بَعْدَ القِوَامَةِ، ممَّنْ كَانَ يَوْمًا مِنَ الأيَّامِ طَالِبَ عِلْمٍ، بَلْ ومُجَاهِدًا في سَبِيْلِ الله، مِمَّنْ تَبَوَّأ مَقْعَدَ جَوْرٍ في بَعْضِ القَنَوَاتِ الهَابِطَةِ: حَيْثُ جَعَلَ مِنْ نَفْسِهِ حَرْبًا علىٰ الإسْلامِ والمُسْلِمِيْنَ، وذَلِكَ بالاسْتِهْزَاءِ بشَرَائِعِ الإسْلامِ، والغَمْزِ في الصَّالِحِيْنَ، مَعَ تَعْظِيْمِهِ للحَيَاةِ الغَرْبِيَّةِ الكَافِرَةِ الفَاجِرَةِ، والدَّعْوَةِ الصَّرِيْحَةِ إلىٰ الانْحِلالِ الخُلُقِي، والدَّعْوَةِ النَّكْرَاءَ إلىٰ خُرُوْجِ المَرْأةِ وتَبرُّجِهَا في غَيْرِ ذَلِكَ مِنْ مُوْبِقَاتِ هَذَا القَزْمِ اللُّكَعِ، فالله مُحِيْطٌ بالظَّالِمِيْنَ!

* * *

❑ ومِنْ بَقَايا تَمَوُّجَاتِ صَنَائِعِ (الفِكْرِ التَّرْبَوِيِّ) أنَّ طَائِفَةً مِنْ دُعاةِ عِلْم النَّفْسِ (النَّقْصِ!) مِمَّنِ احْتَضَنَتْهُم القَنَوَاتُ الفَضائِيَّةُ، والصُّحُفُ المَقْرُوءَةُ مِمَّنْ تَصدَّرُوا للفَتْوَىٰ والتَّرْشِيْدِ والتَّوْجِيْهِ، تَحْتَ عَنَاوِيْنَ مُرتَجَلَةٍ: كَحَلِّ المَشَاكِلِ الزَّوْجِيَّةِ، وعَوَائِقِ الأُسْرِيَّةِ، وأُسُسِ تَرْبِيَةِ الطِّفْلِ، والتَّعامُلِ مَعَ سِنِّ المُرَاهَقَةِ . . . إلَخْ.

وهُنَا تَكُونُ الَّتَيَّا والَّتِي؛ إذَا عَلِمَ الجَمِيْعُ أنَّ مُعْظَمَ الأسْئِلَةِ المُوَجَّهةِ إلَيْهِم لا تَخْرُجُ عَنْ كَونِها أسْئِلَةً شَرْعِيَّةً: ما بَيْنَ قَضَايَا زَوْجِيَّةٍ، وأحْكَامٍ أُسْرِيَّةٍ، لا يَفْصِلُ فِيْها عِنْدَ التَّحْقِيْقِ إلَّا العُلَماءُ الرَّبَّانِيُّوْنَ أهْلُ الدَّلِيْلِ الشَّرعِي، لا غَرَابِيْبُ عِلْمِ النَّفسِ؟!

(وقَدْ قِيْلَ:

تَصَدَّرَ للتَّدْرِيْسِ كُلُّ مُهَوَّسِ جَهُوْلٌ يُسَمَّىٰ بالفَقِيْهِ المُدَرِّسِ
فَحُقَّ لأهْلِ العِلْمِ أنْ يَتَمَثَّلُوا بِبَيْتٍ قَدِيْمٍ شَاعَ في كُلِّ مَجْلِسِ
لَقَدْ هَزُلَتْ حَتَّىٰ بَدَا مِنْ هُزَالِهَا كُلاهَا وحَتَّىٰ سَامَهَا كُلُّ مُفْلِسِ

والحَمْدُ لله رَبِّ العَالِمِيْنَ

❑ ❑ ❑

البَابُ الخَامِسُ

المَدَارِسُ الإسْلامِيَّةُ

- الفَصْلُ الأوَّلُ: تَارِيْخُ المَدَارِسِ الإسْلامِيَّةِ.
- الفَصْلُ الثَّاني: الفَرْقُ بيْنَ مَدَارِسِ السَّلَفِ ومَدَارِسِ الخَلَفِ.

الفَصْلُ الأوَّلُ

تَارِيخُ المَدَارِسِ الإسلامِيَّةِ

لا شَكَّ أنَّ المَدَارِسَ الشَّرْعِيَّةَ مُنْذُ فَجْرِ الإسْلامِ إلىٰ مَا قَبْلَ إسْقَاطِ الخِلافَةِ العُثْمانِيَّةِ قَدْ أخَذَتْ طَابِعًا مميَّزًا، لم يُخْرِجْهَا في حَقِيْقَةِ الأمْرِ عَنْ صُوْرَتَيْنِ: مَدَارِسِ الكَتَاتِيْبِ، ومَدَارِسِ العِلْمِ.

❑ **فَأمَّا مَدَارِسُ الكَتَاتِيْبِ**: فَهِيَ مَحَاضِنُ ومَجَامِعُ لتَعْلِيْمِ وتَرْبِيَةِ الصِّغَارِ؛ تَرْبِيَةً عِلْمِيَّةً وأخْلاقِيَّةً، وذَلِكَ مِنْ خِلالِ تَلْقِيْنِهِم حِفْظَ القُرْآنِ الكَرِيْمِ، وبَعْضَ السُّنَّةِ، والآدَابَ الشَّرْعِيَّةَ، والنَّحْوَ، وبَعْضَ الأشْعَارِ العَرَبِيَّةِ وغَيْرَهَا ممَّا هُوَ في قُدَرَاتِ هَؤلاءِ الصِّغَارِ.

كَما أنَّ هَذِهِ المَدَارِسَ لم تَكُنْ يَوْمًا مِنَ الأيَّامِ مَرْحَلَةً مَقْصُوْدَةً لذَاتِها، بمَعْنَىٰ أنَّ الصَّغِيْرَ مِنْهُم يَكْتَفِي بهَذِهِ الحَصِيْلَةِ العِلْمِيَّةِ والأخْلاقِيَّةِ الَّتِي يَتَلَقَّاهَا ويَتَعَلَّمُهَا في هَذِهِ المَحَاضِنِ؛ بَلْ مَا هَذِهِ المَرْحَلَةُ إلَّا طَرِيْقًا ووَسِيْلَةً تَدْفَعُ بِهَذَا الصَّغِيْرِ إلىٰ الالْتِحَاقِ بمَدَارِسِ وحِلَقِ أهْلِ العِلْمِ الكِبَارِ؛ لِيُصْبِحَ عَالمًا كَبِيْرًا.

وفي مِثْلِ هَذِهِ المَدَارِسِ؛ يُسَمَّىٰ المُعَلِّمُ فِيْهَا والمُدَرِّسُ: بالمُؤدِّبِ، والمُربِّي.

كما أنَّ مَدَارِسَ الكَتَاتِيْبِ كَانَتْ آنَذَاكَ علىٰ قِسْمَيْنِ:

الأوَّلُ مِنْهَا: مَدَارِسُ عَامَّةٌ، وهِيَ مَحَاضِنُ وجَوَامِعُ يَشْتَرِكُ فِيْهَا جَمِيْعُ الصِّغَارِ، وهَذِهِ تُعْتَبَرُ في جُمْلَتِهَا حَاضِنَةً لِكُلِّ طَبقَاتِ أبْنَاءِ المُسْلِمِيْنَ الفُقَرَاءِ مِنْهُم والأغْنِيَاءِ، وتَكُوْنُ هَذِهِ المَحَاضِنُ غَالِبًا في المَسَاجِدِ، ورُبَّما تَكُوْنُ في بَعْضِ المَدَارِسِ العَامَّةِ مِنْهَا والخَاصَّةِ، سَوَاءٌ كَانَتْ تَحْتَ نَظَرِ وتَبرُّعَاتِ الدَّوْلَةِ، أو تَحْتَ نَظَرِ ورِعَايَةِ بَعْضِ أهْلِ العِلْمِ، أو أهْلِ المَالِ المُحْسِنِيْنَ.

الثَّاني مِنْهَا: مَدَارِسُ خَاصَّةٌ، بِحَيْثُ تَهْتَمُّ ببَعْضِ الأبْنَاءِ لاسِيَّما أبْنَاءِ الخُلَفَاءِ والمُلُوْكِ والوُزَرَاءِ وغَيْرِهِم مِنْ عِلْيَةِ القَوْمِ، وتُقَامُ هَذِهِ المَحَاضِنُ غَالِبًا في بُيُوْتِ الأبْنَاءِ، كُلُّ ذَلِكَ كَي يَنْفَرِدَ الطَّالِبُ بعُلُوْمٍ وَفِيْرَةٍ وآدَابٍ سَامِيَةٍ، هَذَا إذَا عَلِمْنَا أنَّ المُعَلِّمَ في مِثْلِ هَذِهِ المَدَارِسِ يَكُوْنُ مُتَفَرِّغًا للغُلامِ الصَّغِيْرِ: عِلْمًا وتَعَلُّمًا وتَأدُّبًا وأخْلاقًا وفُرُوْسِيَّةً شَرْعِيَّةً ... وهَذَا خِلافًا للمُعَلِّمِ الَّذِي يُدَرِّسُ في المَحَاضِنِ العَامَّةِ.

* * *

❑ **أمَّا مَدَارِسُ العِلْمِ**: فَهِيَ مَحَاضِنُ أهْلِ العِلْمِ الكِبَارِ، وطُلَّابِ العُلُوْمِ الشَّرْعِيَّةِ، فَفِيْهَا يَكُوْنُ: القُرْآنُ حِفْظًا وتَفْسِيْرًا، والسُّنَّةُ رِوَايَةً ودِرَايَةً، وكَذَا دُرُوْسُ الفِقْهِ وخِلافِهِ العَالي، والتَّفَنُّنُ في عُلُوْمِ اللُّغَةِ والأدَبِ، وكَذَا تُقَامُ فِيْهَا مَجَالِسُ المُنَاظَرَاتِ والمُحَاوَرَاتِ، وتُمْلَىٰ فِيْهَا الأجْزَاءُ الحَدِيْثِيَّةُ إلىٰ غَيْرِ ذَلِكَ مِنْ مُخْتَلَفِ العُلُوْمِ الإسْلامِيَّةِ.

* * *

وهَذِهِ وَقْفَةٌ سَرِيْعَةٌ مَعَ تَارِيْخ المَدَارِسِ الإسْلامِيَّةِ تُنْبِئُكَ بِما هُنَالِكَ مِنْ عِلْمٍ وعُلَماءِ، ودَعْوَةٍ ودُعَاةٍ، واجْتِهَادٍ وجِهَادٍ، وعَمَلٍ ومُعَامَلَةٍ، وهِمَمٍ وهُمُوْمٍ إلىٰ غَيْرِ ذَلِكَ مِنْ مَنَارَاتِ العِلْمِ والإيْمانِ.

فَإنَّ الوُقُوْفَ مَعَ رِجَالِ هَذِهِ المَدَارِسِ ولَوْ بِشَيءٍ مِنَ الذِّكْرَىٰ؛ لهُوَ تَسْلِيَةٌ لِكُلِّ مُصَابٍ مِنْ أدْعِيَاءِ العِلْمِ اليَوْمَ، وتَعْزِيَةٌ للتَّارِيْخِ يَوْمَ أظْلَمَ مِنْ ذِكْرِ أهْلِ زَمَانِنَا، ودَمْعَةٌ مُهْرَاقَةٌ لمَنْ تَدَثَّرَ ثِيَابَ الغُرْبَةِ، يَوْمَ قَلَّ الغُرَبَاءُ، ونَسْمَةٌ لأهْلِ السُّنَّةِ يَوْمَ قَلَّ أهْلُ السُّنَّةِ، أمَا والله إنَّ في ذِكْرَاهُم شَحْذَ هِمَّةٍ، وتَنْبِيْهَ غَافِلٍ، وإيْقَاظَ جَاهِلٍ، فَمَا الطَّرِيْقُ إلَّا طَرِيْقَهُم، ومَا السَّبِيْلُ إلَّا سَبِيْلَهُم، فَلا تَرْكَنَنَّ إلىٰ الَّذِيْنَ مِنْ دُوْنِهِم فَتَمَسَّكَ النَّارُ!

فَيَا طَالِبَ العِلْمِ لا تَسْتَثْقِلَنَّ مَا هُنَا مِنْ ذِكْرِ رِجَالاتِ المَدَارِسِ الإسْلامِيَّةِ، وذِكْرِ أسْمائِهِم: فَهُم والله البَصَرُ والبَصِيْرَةُ، وهُم غُرَرُ تَارِيْخِنَا، ونُجُوْمُ أرْضِنَا، وأعْلامُ دِيْنِنَا، فَهُم والله وَرَثَةُ الأنْبِيَاءِ، وحُجَّةُ الله علىٰ خَلْقِهِ، فَالله الله لا يَغْلِبَنَّكَ المِلالُ مِنْ سَرْدِ أسْمائِهِم، ولا تَأخُذَنَّكَ السَّآمَةُ مِنْ ذِكْرِ مَعَالِمِ مَدَارِسِهِم، يَوْمَ كَانَتِ المَدَارِسُ؟!

قَالَ تَعَالىٰ: ﴿تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْـَٔلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [البقرة: ١٣٤]، فَهَيَّا إلىٰ مَرَابِعِ القَوْمِ لَعَلَّ وعَسَىٰ!

* * *

أقُوْلُ: لَقَدْ نَهَضَ الصَّحَابَةُ ﷺ بَعْدَ وَفَاةِ النَّبِيِّ ﷺ بالعِلْمِ الشَّرْعِي؛ حَتَّىٰ

صَارُوا أسَاتِذَةَ الدُّنْيَا، وسَادَةَ النَّاسِ؛ حَتَّىٰ إِذَا فَتَحُوا البِلادَ، الْتَفَّ حَوْلَهُم طُلَّابُ العِلْمِ لِيَتَفَقَّهُوا في دِيْنِ الله، فَحَمَلُوا عَنْهُمُ العِلْمَ، وحَفِظُوا فَتَاوَاهُم، فَأصْبَحُوا أهْلَ مَدَارِسَ كُبْرَىٰ: تُخَرِّجُ الأئِمَّةَ، وتُعَلِّمُ النَّاسَ، واصْطَبَغَتْ كُلُّ مَدْرَسَةٍ بعِلْمِ شَيْخِهَا مِنَ الصَّحَابَةِ وفِقْهِهِ ودَعْوَتِهِ، وكُلُّهَا تَلْتَقِي علىٰ مَائِدَةِ الكِتَابِ والسُّنَّةِ، فَمِنْهَا يَنْهَلُوْنَ، وعَنْهَا يُصْدِرُوْنَ، وتَوَالَتِ الأجْيَالُ المُبَارَكَةُ تَقْتَفِي آثَارَهُم، وتَنْهَلُ مِنْ عُلُوْمِهِم، فَكَانَ الخَيْرُ في أتْبَاعِهِم، والشَّرُّ في مُخَالَفَتِهِم، فَكَانَتْ مَدَارِسُهُم كَثِيْرَةً، فَمِنْ ذَلِكَ: مَدْرَسَةُ الحِجَازِ، والعِرَاقِ، والشَّامِ، ومِصْرَ، وإفْرِيْقِيَا، والأنْدَلُسِ، وغَيْرِهَا مِنَ المَدَارِسِ الإسْلامِيَّةِ.

فَإنْ هَزَّكَ الطَّرَبُ، وأضْنَاكَ القَلْبُ إلىٰ الوُقُوْفِ علىٰ أطْلالِ مَدَارِسِهِم، ودُوْرِ أمَاكِنِهِم، وسَماعِ أخْبَارِهِم؛ فانْظُرْهُم لِزَامًا في كِتَابِ «الدَّارِسَ في تَارِيْخِ المَدَارِسِ» لعَبْدِ القَادِرِ النُّعَيْمِيِّ الدِّمِشْقِيِّ الشَّافِعِيِّ المُتَوَفَّىٰ سَنَةَ (٩٢٧)، وغَيْرِهِ مِنَ كُتُبِ السِّيَرِ والطِّبَاقِ والتَّرَاجِمِ والتَّارِيْخِ.

* * *

❏ فأمَّا مَدْرَسَةُ الحِجَازِ:

فَقَدْ تَمَثَّلَتْ مَدْرَسَةُ الحِجَازِ في: مَكَّةَ والمَدِيْنَةِ، كَمَا هُوَ مَعْلُوْمٌ للجَمِيْعِ.

فَالمَدْرَسَةُ الحِجَازِيَّةُ وإنِ اتَّفَقَتْ . في مَكَّةَ والمَدِيْنَةِ . مِنْ حَيْثُ الأُسُسِ والأهْدَافِ، إلَّا أنَّ كُلَّ وَاحِدَةٍ مِنْهُما قَدِ اشْتَهَرَتْ بجَانِبٍ مِنَ جَوَانِبِ العِلْمِ والدِّيْنِ.

❑ فَأَمَّا مَدْرَسَةُ المَدِيْنَةِ: فَهِيَ نَوَاةُ المَدَارِسِ وأصْلِهَا، ومَرْكَزُهَا الأوَّلُ الَّذِي تَفَرَّعَتْ مِنْهُ سَائِرُ المَدَارِسِ الأخْرَىٰ في جَمِيْعِ الأمْصَارِ الإسْلامِيَّةِ.

وقَدِ اشْتَهَرَ رِجَالُ مَدْرَسَةِ المَدِيْنَةِ: بالحَدِيْثِ والفِقْهِ، وعلىٰ رَأسِهِم فُقَهَاءُ المَدِيْنَةِ السَّبْعَةِ، عُلَماءُ المِلَّةِ والدِّيْنِ، وحُفَّاظِ الدُّنْيَا، وكَذَا الزُّهْرِيُّ ومَالِكٌ وغَيْرُهُم مِنْ أهْلِ الحَدِيْثِ والفِقْهِ.

ومِنْ أشْهَرِ عُلَماءِ المَدِيْنَةِ بَعْدَ الخُلَفَاءِ الرَّاشِدِيْنِ: زَيْدُ بنُ ثَابِتٍ المُتَوَفَّىٰ سَنَةَ (٤٥)، وعَبْدُ الله بنُ عَبَّاسٍ المُتَوَفَّىٰ سَنَةَ (٦٨)، قَبْلَ تَحَوُّلِهما إلىٰ مَكَّةَ، وأُبيُّ بنُ كَعْبٍ المُتَوَفَّىٰ سَنَةَ (٣٠)، وعَبْدُ الله بنُ عُمَرَ بنِ الخَطَّابِ المُتَوَفَّىٰ سَنَةَ (٧٤)، وعَائِشَةُ أمُّ المُؤمِنِيْنَ المُتَوَفَّاة سَنَةَ (٥٨) ﷺ أجْمَعِيْنَ.

ونَقَلَ الصَّحَابَةُ رُضْوَانُ الله عَلَيْهِم مَا وَرِثُوْهُ مِنْ عِلْمٍ وفِقْهٍ إلىٰ التَّابِعِيْنَ الَّذِيْنَ سَارُوا علىٰ نَهْجِ أسْلافِهِم، فَكَانَ مِنْهُمُ الأئِمَّةُ في التَّفْسِيْرِ والحَدِيْثِ والفِقْهِ، وفي مُقَدِّمَتِهِم: فُقَهَاءُ المَدِيْنَةِ السَّبْعَةِ: وهُم سَعِيْدُ بنُ المُسَيِّبِ المُتَوَفَّىٰ سَنَةَ (٩٣)، وعُرْوَةُ بنُ الزُّبَيْرِ المُتَوَفَّىٰ سَنَةَ (٩٤)، وعُبَيْدُ الله بنُ عَبْدِ الله بنِ عُتْبَةَ المُتَوَفَّىٰ سَنَةَ (٩٤)، وسُلَيْمانُ بنُ يَسَارٍ المُتَوَفَّىٰ سَنَةَ (١٠٠)، وخَارِجَةُ بنُ زَيْدِ بنِ ثَابِتٍ المُتَوَفَّىٰ سَنَةَ (١٠٠)، والقَاسِمُ بنُ مُحَمَّدِ بنِ أبي بَكْرٍ المُتَوَفَّىٰ سَنَةَ (١٠٦)، وسَالِمُ بنُ عَبْدِ الله بنِ عُمَرَ بنِ الخَطَّابِ المُتَوَفَّىٰ سَنَةَ (١٠٦).

ثُمَّ جَاءَ بَعْدَهُم: نَافِعُ مَوْلىٰ عَبْدِ الله بنِ عُمَرَ المُتَوَفَّىٰ سَنَةَ (١١٧)، ومُحَمَّدُ بنُ شِهَابٍ الزُّهْرِيُّ، قَبْلَ رِحْلَتِهِ إلىٰ الشَّامِ المُتَوَفَّىٰ سَنَةَ (١٢٤)،

ورَبِيْعَةُ بنُ أبي عَبْدِ الرَّحْمَنِ فَرُّوْخٌ، المَعْرُوْفُ برَبِيْعَةِ الرَّأي المُتَوَفَّىٰ سَنَةَ (١٣٦)، ويَحْيىٰ بنُ سَعِيْدٍ المَدَنيُّ الأنْصارِيُّ المُتَوَفَّىٰ سَنَةَ (١٤٣)، وجَعْفَرٌ الصَّادِقُ بنُ محمَدٍ بنِ عليٍّ المُتَوَفَّىٰ سَنَةَ (١٤٨)، ومحَمَّدُ بنُ عَبْدِ الرَّحمَنِ بنِ أبي ذِئْبٍ المُتَوَفَّىٰ سَنَةَ (١٥٩)، ومَالِكُ بنُ أنَسٍ، إمَامُ دَارِ الهِجْرَةِ المُتَوَفَّىٰ سَنَةَ (١٧٩)، وغَيْرُهُم.

* * *

❑ **فأمَّا مَدْرَسَةُ مَكَّةَ**: فَقَدِ اشْتَهَرَتْ بالتَّفْسِيْرِ وعُلُوْمِ القُرْآنِ، ومَصْدَرُ ذَلِكَ عَبْدُ الله بنُ عَبَّاسٍ رضي الله عنهما وتَلامِيْذُهُ، أمْثَالُ مُجَاهِدٍ وعَطَاءٍ وغَيْرِهِمَا.

ومِنْ أشْهَرِ عُلَمائِهَا مُنْذُ نَشْأتِها الصَّحَابِيَّانِ: زَيْدُ بنُ ثَابِتٍ الفَرَضِيُّ، وعَبْدُ الله بنُ عَبَّاسٍ رضي الله عنهما، وذَلِكَ بَعْدَ انْتِقَالِهِمَا مِنَ المَدِيْنَةِ زَمَنَ الخَلِيْفَةِ عُثْمانَ رضي الله عنه.

ثُمَّ جَاءَ عَصْرُ التَّابِعِيْنَ، وعُرِفَ مِنْهُم: مُجَاهِدُ بنُ جَبْرٍ المُتَوَفَّىٰ سَنَةَ (١٠٤)، الَّذِي عَرَضَ القُرْآنَ الكَرِيْمَ علىٰ ابنِ عَبَّاسٍ رضي الله عنهما غَيْرَ مَرَّةٍ، يَسْألُهُ عَنْ كُلِّ آيَةٍ فِيْما نَزَلَتْ، وكَيْفَ كَانَتْ؟

وعَطَاءُ بنُ رَبَاحٍ المُتَوَفَّىٰ سَنَةَ (١١٤)، وعَمْرُو بنُ دِيْنَارٍ المُتَوَفَّىٰ سَنَةَ (١٢٦)، وعَبْدُ المَلِكِ بنِ عَبْدِ العَزِيْزِ بنِ جُرَيْجٍ المُتَوَفَّىٰ سَنَةَ (١٥٠)، ومُسْلِمُ بنُ خَالِدٍ الزِّنْجِي المُتَوَفَّىٰ سَنَةَ (١٨٠)، والفُضَيْلُ بنُ عِيَاضٍ المُتَوَفَّىٰ سَنَةَ

(١٨٧)، وسُفْيَانُ بنُ عُيَيْنَةَ المُتَوَفَّىٰ سَنَةَ (١٩٨)، وغَيْرُهُم مِنَ العُلَماءِ والمُحَدِّثِيْنَ.

* * *

❑ أمَّا مَدْرَسَةُ العِرَاقِ:

فتَمَثَّلَتْ في الكُوْفَةِ، والبَصْرَةِ، وبَغْدَادَ.

❑ فأمَّا المَدْرَسَةُ الكُوفِيَّةُ: فَقَدْ نَالَتِ الكُوْفَةُ عِنَايَةً كَبِيْرةً، وحَظِيَتْ بِعَدَدٍ كَبِيْرٍ مِنَ العُلَماءِ الأجْلَّاءِ مُنْذُ أنْ دَخَلَهَا الصَّحَابَةُ، ومِنَ الَّذِيْنِ نَزَلُوْهَا عَدَدٌ كَبِيْرٌ يَبْلُغُ الثَّلاثمائَةَ مِنْ أهْلِ بَيْعَةِ الرَّضْوَانِ، وسَبْعُوْنَ مِنْ أهْلِ بَدْرٍ.

ومِنْ أشْهَرِ الصَّحَابَةِ الَّذِيْنَ عَاشُوا في الكُوْفَةِ: عَبْدُ الله بنُ مَسْعُوْدٍ المُتَوَفَّىٰ سَنَةَ (٣٢)، وعَمَّارُ بنُ يَاسِرٍ المُتَوَفَّىٰ سَنَةَ (٣٧) رضي الله عنهما، اللَّذَانِ بَعَثَهُما أمِيْرُ المُؤمِنِيْنَ عُمَرُ بنُ الخَطَّابِ رضي الله عنه إلىٰ الكُوْفَةِ لتَعْلِيْمِ أهْلِهَا وتَثْقِيْفِهِم.

وقَدْ ذَكَرَ ابنُ سَعْدٍ في «الطَّبَقَاتِ» (٦/ ٧)، والذَّهَبِيُّ في «تَذْكِرَةِ الحُفَّاظِ» (١/ ١٤)، أنَّ عُمَرَ بنَ الخَطَّابِ رضي الله عنه بَعَثَ مَعَهُما كِتَابًا إلىٰ الكُوْفَةِ، قَالَ فِيْهِ: «إنِّي قَدْ بَعَثْتُ إلَيْكُم عَمَّارَ بنَ يَاسِرٍ أمِيْرًا، وعَبْدَ الله بنَ مَسْعُوْدٍ مُعَلِّمًا ووَزِيْرًا، وهُمَا مِنَ النُّجَبَاءِ مِنْ أصْحَابِ محَمَّدٍ ﷺ مِنْ أهْلِ بِدْرٍ فَاقْتَدُوا بِهِما، واسْمَعُوا، وقَدْ آثَرْتُكم بعَبْدِ الله بنِ مَسْعُوْدٍ علىٰ نَفْسِي!».

وكَانَ عَبْدُ الله بنُ مَسْعُوْدٍ الأسْتَاذُ الأوَّلُ للكُوْفَةِ، والمُؤَسِّسُ الكَبِيْرُ لمَدْرَسَتِهَا، وشَهِدَ لَهُ ولأصْحَابِهِ رِجَالٌ كِبَارٌ، مِثْلُ عَليِّ بنِ أبي طَالِبٍ رضي الله عنه، وغيره.

وقَدْ ذَكَرَ ابنُ سَعْدٍ في «الطَّبقَاتِ» (٦/ ١١) أنَّ عَليَّ بنَ أبي طَالِبٍ قَالَ عَنْهُم: «أصْحَابُ عَبْدِ الله: سُرُجُ هَذِهِ القَرْيَةِ».

وكَذَا قَالَ الشَّعبيُّ عَنْهُم: «مَا دَخَلَ الكُوْفَةَ أحَدٌ مِنْ أصْحَابِ محَمَّدٍ ﷺ أنْفعَ عِلْمًا، ولا أفْقَهَ مِنْهُ»، يَعْنِي: ابنَ مَسْعُوْدٍ.

ثُمَّ جَاءَ التَّابِعُوْنَ مِنْ بَعْدِهِم، فَكَانَ مِنْ أشْهَرِهِم: عَلْقَمَةُ بنُ قَيْسٍ النَّخَعِيُّ المُتَوَفَّىٰ سَنَةَ (٦٢)، ومَسْرُوْقُ بنُ الأجْدَع الهَمَدَانيُّ المُتوَفَّىٰ سَنَةَ (٦٣)، وشُرَيْحُ بنُ الحَارِثِ الكِنْدِي المُتَوَفَّىٰ سَنَةَ (٧٨)، وإبْرَاهِيْمُ بنُ يَزِيْدٍ النَّخَعِيُّ المُتَوَفَّىٰ سَنَةَ (٩٥)، وسَعِيْدُ بنُ جُبَيْرٍ الوَابِليُّ المُتَوَفَّىٰ سَنَةَ (٩٥)، وعَامِرُ بنُ شَرَاحِيْلٍ الشَّعْبِيُّ المُتَوَفَّىٰ سَنَةَ (١٠٤).

وجَاءَ بَعْدَهُم حَمَّادُ بنُ أبي سُلَيْمانَ المُتَوَفَّىٰ سَنَةَ (١٢٠)، وكَانَ قَدْ تَفَقَّهَ علىٰ النَّخَعِيِّ والشَّعْبِيِّ.

وأشْتَهَرَ بَعْدَ ذَلِكَ تَلْمِيْذُهُ: أبُو حَنِيْفَةَ النُّعْمانُ بنُ ثَابِتٍ المُتَوَفَّىٰ سَنَةَ (١٥٠)، وسُفْيَانُ الثَّوْرِيُّ المُتَوَفَّىٰ سَنَةَ (١٦١)، وشَرِيْكُ بنُ عَبْدِ الله المُتَوَفَّىٰ سَنَةَ (١٧٧)، وأبُو يُوْسُفَ القَاضِي المُتَوَفَّىٰ سَنَةَ (١٨٢)، وذَلِكَ قَبْلَ رِحْلَتِهِ إلىٰ بَغْدَادَ، ومحَمَّدُ بن صُبَيْحٍ، المَعْرُوْفُ بابنِ السَّماكِ الوَاعِظ المُتَوَفَّىٰ سَنَةَ (١٨٣)، ووَكِيْعُ بنُ الجَرَّاحِ الحَافِظُ المُتَوَفَّىٰ سَنَةَ (١٩٧)، وغَيْرُهُم كَثِيْرٌ جِدًّا.

* * *

❑ **أمَّا المَدْرَسَةُ البَصْرِيَّةُ**: فَفِيْهَا مَشَاهِيْرُ الصَّحَابَةِ، وعلىٰ رَأسِهِم: عِمْرَانُ

بنُ الحُصَيْنِ المُتوفَّىٰ سَنَةَ (٥٢)، الَّذِي وَلِيَ قَضاءَ البَصْرَةِ بَعْدَ ذَلِكَ، وأبُو مُوْسَىٰ الأشْعَرِيُّ المُتَوَفَّىٰ سَنَةَ (٦٠)، وأنَسُ بنُ مَالِكٍ المُتوفَّىٰ سَنَةَ (٩٣)، وكَانَ النَّاسُ يَرْجِعُوْنَ إلَيْهِ إذَا اخْتَلَفُوا، وإذَا خَالَفَهُم رَجلٌ مِنْ أهْلِ الأهْوَاءِ قَالُوا لَهُ: تَعالَ إلىٰ مَنْ سَمِعَ الحَدِيْثَ مِنْ رَسُوْلِ الله ﷺ فَيأتُوْنَ بِهِ إلىٰ أنَسٍ رضي الله عنه.

ثُمَّ جَاءَ مِنَ التَّابِعِيْنَ: الحَسَنُ البَصْرِيُّ المُتوفَّىٰ سَنَةَ (١١٠)، وعَبْدُ الله بنُ عَوْنٍ المُتَوَفَّىٰ سَنَةَ (١٥١)، وحَمَّادُ بنُ سَلَمَةَ المُتَوَفَّىٰ سَنَةَ (١٦٧)، وعَبْدُ الرَّحمَنِ بنِ مَهْدِي المُتَوَفَّىٰ سَنَةَ (١٩٨)، وغَيْرُ هَؤلاءِ كَثِيْرٌ.

* * *

❑ أمَّا المَدْرَسَةُ البَغْدادِيَّةُ: فَقَدْ بَدأتِ الحَرَكَةُ العِلمِيَّةُ فِيْهَا بَعْدَ أنْ تَمَّ بِناؤهَا علىٰ يَدِ الخَلِيْفَةِ أبي جَعْفَرٍ المَنْصُوْرِ المُتَوَفَّىٰ سَنَةَ (١٥٨)، وذَلِكَ في سَنَةِ سَتٍّ وأرْبَعِينَ ومَائَةٍ، وكَثُرَ فِيْهَا العُلَماءُ وازْدَادُوا في زَمَنِ الخَلِيْفَةِ هَارُوْنَ الرَّشِيْدِ المُتَوَفَّىٰ سَنَةَ (١٩٣)؛ حَيْثُ أسَّسَ (بَيْتَ الحِكْمَةِ) وزَوَّدَهُ بالكُتُبِ المُخْتَلِفَةِ، وصَارَتْ بَغْدَادُ مَقْصَدَ رِجَالِ العِلْمِ، وخَزِيْنَةَ عِلْمِيَّةً لمُؤلَّفَاتِهِم.

ثُمَّ جَاءَ الخَلِيْفَةُ المَأمُوْنُ المُتَوَفَّىٰ سَنَةَ (٢١٨)، وهُوَ الَّذِي امْتَحَنَ العُلَماءَ في مَسْألَةِ خَلْقِ القُرْآنِ؛ حَيْثُ قَامَ بحَرَكَةِ تَرْجَمةِ كُتُبِ اليُوْنَانِ والفَلاسِفَةِ، الَّتِي أدْخَلَتْ علىٰ المُسْلِمِيْنَ عُلُوْمًا أضَرَّتْ بعَقَائِدِهِم وأخْلاقِهِم، ثُمَّ جَاءَ أخُوْهُ الخَلِيْفَةُ المُعْتَصِمُ المُتَوَفَّىٰ سَنَةَ (٢٢٧)، وكَانَ علىٰ نَفْسِ الطَّرِيْقَةِ المُبْتَدَعَةِ: مَسْألَةِ خَلْقِ القُرْآنِ، وحَصَلَتْ فِتْنَةٌ كَبِيْرَةٌ بسَبَبِ هَذِهِ المَسْألَةِ، وأوْذِيَ فِيْهَا كِبَارُ عُلَماءِ السَّلَفِ، لاسِيَّما إمَامُ أهْلِ السُّنَّةِ والجَمَاعَةِ أحْمَدُ بنُ

حَنْبَلٍ؛ حَيْثُ حُبِسَ فِيْهَا وضُرِبَ!

وهَكَذَا ظَلَّتِ الحَرَكَةُ العِلْمِيَّةُ في بَغْدَادَ تَتَأرْجَحُ وتَمِيْلُ عَنْ مَنْهَجِ أهْلِ السُّنَّةِ والجَماعَةِ في مَسْألَةِ القُرْآنِ، إلىٰ أنْ قَامَتِ الاضْطِرَابَاتُ الدَّاخِلِيَّةُ نَاقِمَةً علىٰ الجَيْشِ التُّركِيِّ في عَهْدِ المُعْتَصِمِ، الَّذِي ضَايَقَ النَّاسَ في أسْوَاقِهِم، وآذَاهُم في مُعَامَلاتِهِم، فانْتَقَلَ المُعْتَصِمُ بجَيْشِه إلىٰ (سَامُرَّاءَ) سَنَةَ إحْدَىٰ وعِشْرِيْنَ ومَائَتَيْنِ.

ثُمَّ بَدَأتِ الحَرَكَةُ العِلْمِيَّةُ في بَغْدَادَ تَضْعَفُ شَيْئًا فَشَيْئًا، ثُمَّ إنَّها ازْدَادَتْ أيْضًا رُكُوْدًا وضَعْفًا في أيَّامِ الخَلِيْفَةِ الوَاثِقِ المُتوَفَّىٰ سَنَةَ (٢٣٢)، وهَكَذَا دَبَّ الضَّعْفُ فِيْهَا حَتَّىٰ انْتَهَىٰ العَصْرُ العَبَّاسِي الأوَّلُ بانْتِهَاءِ خِلافَةِ الوَاثِقِ، وبِدَايَةِ خِلافَةِ المُتَوَكِّلِ المُتَوَفَّىٰ سَنَةَ (٢٤٧): وهُوَ الَّذِي أظْهَرَ السُّنَّةَ، وقَمَعَ البِدْعَةَ، وحمَلَ النَّاسَ في مَسْألَةِ القُرْآنِ علىٰ مَنْهَجِ أهْلِ السُّنَّةِ والجَماعَةِ: وهُوَ أنَّ القُرْآنَ كَلامُ الله غَيْرُ مَخْلُوْقٍ.

ومِنْ أشْهَرِ رِجَالِ المَدْرَسَةِ البَغْدَادِيَّةِ: هُشَيْمُ بنُ بَشِيْرٍ الوَاسِطِيُّ، نَزِيْلُ بَغْدَادَ المُتَوَفَّىٰ سَنَةَ (١٨٣)، وأبُو عُبَيْدٍ القَاسِمُ بنُ سَلَّامٍ البَغْدَادِيُّ المُتَوَفَّىٰ سَنَةَ (٢٢٤)، ويَحْيَىٰ بنُ مَعِيْنٍ البَغْدَادِيُّ المُتَوَفَّىٰ سَنَةَ (٢٣٣)، وأحمَدُ بنُ حَنْبَلٍ الشَّيْبَانيُّ البَغْدَادِيُّ المُتَوَفَّىٰ سَنَةَ (٢٤١)، وغَيْرُهُم مِنْ عُلَماءِ السَّلَفِ الكِبَارِ.

ومَنْ أرَادَ أنْ يَقِفَ مَعَ رِجَالاتِ هَذِهِ المَدْرَسَةِ البَغْدَادِيَّةِ، وأنْ يَتَعَرَّفَ علىٰ ذَخَائِرِهِم العِلْمِيَّةِ: مِنْ قُرْآنٍ، وحَدِيْثٍ، ورِوَايَةٍ ودِرَايَةٍ، بَلْ في شَتَّىٰ العُلُوْمِ

الإسْلامِيَّةِ، فلْيأخُذْ حظًّا مِنَ النَّظَرِ والقِرَاءَةِ في الكِتَابِ المُسْتَطابِ، والبَحْرِ العُبَابِ: «تَارِيخِ دَارِ السَّلامِ»، المُسَمَّىٰ «تَارِيْخُ بَغْدَادَ» للخَطِيْبِ البَغْدَاديِّ، ولَوْ لم يَكُنْ لأهْلِ بَغْدَادَ إلَّا أحمَدُ بنُ حَنْبَلٍ، و«تَارِيْخُ دَارِ السَّلامِ»: لكَفَىٰ لهُم شَرَفًا وفَخْرًا!

* * *

❏ أمَّا مَدْرَسَةُ الشَّامِ:

فَقَدْ حَظِيَتْ بِلادُ الشَّامِ بَعْدَ فُتُوحِها بنُخْبَةٍ مِنَ الصَّحابَةِ الأجِلَّاءِ الَّذِيْنَ دَخلُوْهَا فَاتِحِيْنَ، ثُمَّ انْطلَقَتِ الدَّعْوَةُ الإسْلامِيَّةُ تَنْمُو وتَنْتَشِرُ، والحَرَكَةُ العِلْمِيَّةُ تَقْوَىٰ وتَتَزَايَدُ، وكَانَ لمَسْجِدِ دِمِشْقَ الأثَرُ القَوِيُّ في بَثِّ الدَّعْوَةِ، ونَشْرِ العِلْمِ.

ومِنْ أشْهَرِ رِجَالِ هَذِهِ المَدْرَسَةِ: مُعاذُ بنُ جَبَلٍ الخَزْرَجِيُّ المُتَوفَّىٰ سَنَةَ (١٨)، العَالمُ بالحَلالِ والحَرَامِ، وكَانَ قَاضِيًا علىٰ الجُنْدِ في اليَمَنِ، ثُمَّ انْتَقَل إلىٰ الشَّامِ في خِلافَةِ عُمَرَ بنِ الخَطَّابِ ﷺ، وأبُو عُبَيْدَةَ عامِرُ بنُ الجَرَّاحِ المُتَوفَّىٰ سَنَةَ (١٨)، الَّذِي وَلَّاهُ عُمَرُ بنُ الخَطَّابِ ﷺ بِلادَ الشَّامِ، وأبُو الدَّرْدَاءِ عُوَيْمِرُ بنُ زَيْدٍ الأنْصَارِيُّ المُتَوفَّىٰ سَنَةَ (٣٢)، وكَانَ يُقْرَنُ بمُعَاذِ بنِ جَبَلٍ في العِلْمِ، ووَلَّاهُ مُعَاوِيَةُ بنُ أبي سُفْيَانَ ﷺ: قَضَاءَ دِمِشْقَ في خِلافَةِ عُمَرَ بنِ الخَطَّابِ ﷺ.

ثُمَّ جَاءَ التَّابعُوْنَ مِنْ بَعْدِهِم، فَكَانَ مِنْ أشْهَرِهِم: أبُو مُسْلِمٍ الخَوْلانيُّ المُتَوفَّىٰ سَنَةَ (٤٤)، العَابِدُ الزَّاهِدُ، وعَبْدُ الرَّحمَنِ بنُ غَنْمٍ الأشْعَرِيُّ

المُتَوَفَّىٰ سَنَةَ (٧٨)، فَقِيْهَ الشَّامِ، وشَيْخُ فِلِسْطِيْنَ، وأبُو إدْرِيْسَ الخَوْلانِيُّ المُتَوَفَّىٰ سَنَةَ (٨٠)، قَاضِي دِمِشْقَ ووَاعِظُهَا.

ثُمَّ جَاءَ مِنْ بَعْدِهِم: عُمَرُ بنُ عَبْدِ العَزِيْزِ المُتَوَفَّىٰ سَنَةَ (١٠١)، وذَلِكَ بَعْدَ انْتِقَالِهِ إلىٰ الشَّامِ وقِيَامِهِ بأعْبَاءِ الخِلافَةِ، وكَانَ مَعْرُوْفًا بالفِقْهِ، بَصِيْرًا بالسُّنَّةِ، يَرْجِعُ إلَيْهِ القُضَاةُ في الأمُوْرِ الَّتِي يَخْتَلِفُوْنَ فِيْهَا، ورَجَاءُ بنُ حَيْوَه المُتَوَفَّىٰ سَنَةَ (١١٢)، المَشْهُوْرُ بالفَضْلِ وحُسْنِ الرَّأي، ومَكْحُوْلُ بنُ أبي مُسْلِمٍ الهُذَلِيُّ المُتَوَفَّىٰ سَنَةَ (١١٣)، عَالِمُ الشَّامِ الَّذِي كَانَ يُعَدُّ فِيْهَا كَسَعِيْدِ بنِ المُسَيَّبِ في المَدِيْنَةِ، والشَّعْبِيِّ في الكُوْفَةِ، والحَسَنِ في البَصْرَةِ!

ثُمَّ جَاءَ مِنْ بَعْدِهِم: أبُو عَمْرٍو عَبْدُ الرَّحمَنِ بنُ عَمْرٍو الأوْزَاعِيُّ المُتَوَفَّىٰ سَنَةَ (١٥٧)، الَّذِي كَانَ مِنَ الأئِمَّةِ المُجْتَهِدِيْنَ، ولَهُ مَذْهَبٌ مُتَّبَعٌ، وإبْرَاهِيْمُ بنُ أدْهَمَ الخُرَاسَانيُّ البَلْخِيُّ المُتَوَفَّىٰ سَنَةَ (١٦١)، نَزِيْلُ الشَّامِ، المَشْهُوْرِ بعِبَادَتِه وزُهْدِهِ!

وقَدْ ذَكَرَ الذَّهبِيُّ في «السِّيَرِ»(٧/ ٣٨٧) أنَّ سُفْيَانَ الثَّوْرِيَّ أثْنَىٰ عَلَيْهِ بقَوْلِهِ: «كَانَ إبْرَاهِيْمُ بنُ أدْهَمَ يُشْبِهُ إبْرَاهِيْمَ الخَلِيْلَ».

ومِنْ شُيُوْخِ الشَّامِ أيْضًا: سَعِيْدُ بنُ عَبْدِ العَزِيْزِ التَّنُوْخِيُّ المُتَوَفَّىٰ سَنَةَ (١٦٧)، فَقِيْهُهَا بَعْدَ الأوْزَاعِيِّ، وأبُو سُلَيْمانَ الدَّارَانيُّ المُتَوَفَّىٰ سَنَةَ (٢٠٥)، الصَّالِحُ الزَّاهِدُ العَابِدُ، الرَّافِضُ للأهْوَاءِ والبِدَعِ، والدَّاعِي إلىٰ تَحْكِيْمِ الكِتَابِ والسُّنَّةِ في الأقْوَالِ والأفْعَالِ.

ومَنْ أرَادَ أنْ يَقِفَ مَعَ رِجَالاتِ مدرسة الشام، وأنْ يَتَعَرَّفَ علىٰ تاريخهم

العلمي والعملي، فلْيأخُذْ حَظًّا مِنَ النَّظَرِ والقِرَاءَةِ في الكِتَابِ المِنْهَاجِ، والبَحْرِ الثَّجَّاجِ: «تَارِيْخِ دِمِشْقَ»، لابنِ عَسَاكرَ الدِّمِشْقِيِّ،، ولَوْ لم يَكُنْ لأهْلِ الشام بعد الصحابة إلَّا عُمَرُ بنُ عَبْدِ العَزِيْزِ، والأوْزَاعِيُّ، و«تَارِيْخُ دِمِشْقَ»: لكَفَىٰ لهُم شَرَفًا وفَخْرًا!

* * *

❑ أمَّا مَدْرَسَةُ مِصْرَ:

فَقَدْ كَانَ شُيُوْخُهَا مِنَ الصَّحَابَةِ الَّذِيْنَ رَحَلُوا إلَيْهَا أيَّامَ الفَتْحِ، ونَزَلُوا في مَوْضِعِ الفُسْطَاطِ والإسْكَنْدرِيَّةِ، ومِنْ هَؤلاءِ: أبُو ذَرٍّ الغِفَارِيُّ ﷺ المُتَوَفَّىٰ سَنَةَ (٣٢)، والزُّبَيْرُ بنُ العَوَّامِ ﷺ المُتَوَفَّىٰ سَنَةَ (٣٦)، وسَعْدُ بنُ أبي وَقَّاصٍ ﷺ المُتَوَفَّىٰ سَنَةَ (٥٥)، وعَمْرُو بنُ العَاصِ ﷺ المُتَوَفَّىٰ سَنَةَ (٤٣)، وعَبْدُ الله بنُ عَمْرِو بنِ العَاصِ ﷺ المُتَوَفَّىٰ سَنَةَ (٧٧)، وغَيْرُ هُؤلاءِ مِنْ أصْحَابِ رَسُوْلِ الله ﷺ الَّذِيْنَ يَرْجِعُ إلَيْهِمُ الفَضْلُ في دَعْوَةِ النَّاسِ، وتَعْلِيْمِهِم أمُوْرَ دِيْنِهِم.

ثُمَّ جَاءَ التَّابِعُوْنَ مِنْ بَعْدِهِم، فَكَانَ مِنْ أشْهَرِهِم: يَزِيْدُ بنُ أبي حَبِيْبٍ المُتَوَفَّىٰ سَنَةَ (١٢٨)، صَاحِبُ الفَتْوَىٰ في مِصْرَ، وإلَيْهِ يَرْجِعُ أهْلُهَا في مَسَائِلِ الحَلالِ والحَرَامِ، وهُوَ أوَّلُ مَنْ أظْهَرَ الاهْتِمامَ بهَذَا البَابِ مِنَ العِلْمِ، وكَانُوا مِنْ قَبْلُ يُحَدِّثُوْنَ النَّاسَ في التَّرْغِيْبِ والتَّرْهِيْبِ والمَلاحِمِ والفِتَنِ.

وعَمْرُو بنُ الحَارِثِ بنِ يَعْقُوْبَ الأنْصارِيُّ المُتَوَفَّىٰ سَنَةَ (١٤٨)، وكَانَ أحْفَظَ أهْلِ زَمَانِهِ .

وقَدْ ذَكَرَ الذَّهَبِيُّ في «تَذْكِرَةِ الحُفَّاظِ» (١/ ١٨٣) أنَّ بَعْضَ تَلامِيْذِهِ، قَالَ فِيْهِ: «لَوْ بَقِيَ عَمْرُو بنُ الحَارِثِ مَا احْتَجْنَا إلىٰ مَالِكٍ»، قُلْتُ: وهَذِهِ مِنْ عِبَارَاتِ الثَّنَاءِ علىٰ الأئِمَّةِ، وإنْ كَانَتْ مِنْ ضُرُوْبِ المُبَالَغَةِ!

وقَدْ ذَكَرَ ابنُ سَعْدٍ في «الطَّبَقَاتِ«(٧/ ٥١٥)، والذَّهَبِيُّ في «تَذْكِرَةِ الحُفَّاظِ» (١/ ٨٣)، أنَّه كَانَ يَخْرُجُ مِنْ بَيْتِهِ فَيَجِدُ النَّاسَ صُفُوْفًا فَيسألُوْنَهُ عَنِ القُرْآنِ والحَدِيْثِ والفِقْهِ والشِّعْرِ والعَرَبِيَّةِ والحِسَابِ!

ثُمَّ جَاءَ: اللَّيْثُ بنُ سَعْدٍ المُتَوَفَّىٰ سَنَةَ (١٧٥)، بعِلْمِهِ وفِقْهِهِ، وكَانَ يُدْعَىٰ عَالمُ مِصْرَ ورَئِيْسُهَا، وهُوَ الَّذِي أثْنَىٰ عَلَيْهِ الشَّافِعِيُّ بقَوْلِهِ: «هُوَ أفْقَهُ مِنْ مَالِكٍ إلَّا أنَّ أصْحَابَهُ لم يَقُوْمُوا بِهِ»، قَالَهُ ابنُ سَعْدٍ في «الطَبقَاتِ» (٧/ ٥١٧)، والخَطِيْبُ البَغْدَاديُّ في «تَارِيْخِ بَغْدَادَ» (١٣/ ٣).

وغَيْرُ هَؤلاءِ مِنْ رِجَالِ المَدْرَسَةِ وعُلَمائِهَا، كعَبْدِ الرَّحْمَنِ بنِ القَاسِمِ المُتَوَفَّىٰ سَنَةَ (١٩١)، وغَيْرِهِ.

واشْتَهَرَ بَعْدَ اللَّيْثِ: محَمَّدِ بنِ إدْرِيْسَ الشَّافِعِي المُتَوَفَّىٰ سَنَةَ (٢٠٤)، صَاحِبِ المَذْهَبِ والإتِّبَاعِ، ونَاصِرِ السُّنَّةِ والحَدِيْثِ، وأوَّلُ مَنْ كَتَبَ في أصُوْلِ الفِقْهِ، وأقَامَ في مِصْرَ بَعْدَ تِطْوَافٍ طَوِيْلٍ، ورَحَلاتٍ في الجَمْعِ والتَّحْصِيْلِ، ثُمَّ في التَّعْلِيْمِ والتَّدْرِيْسِ.

ويُعَدُّ الإمَامُ الشَّافِعِيُّ رَحِمَهُ اللهُ مِنْ أعْلامِ مَدْرَسَةِ مِصْرَ لأقَامَتِهِ الأخِيرَةِ فِيْهَا،

وتَدوِيْنِ مَذْهَبِهِ الجَدِيْدِ فِيْهَا، وفِيْهَا صَحَّحَ ونَقَّحَ رِسَالَتَهُ الأُصُوْلِيَّةِ، واتَّسَمَ مَذْهَبُهُ بطَابِعِ النُّضجِ بَعْدَ التَّعْدِيْلِ والتَّجْدِيْدِ الَّذِي طَرأ عَلَيْهِ في مِصْرَ.

ومِنْ شُيُوْخِ المَدْرَسَةِ المِصْرِيَّةِ: أَشْهَبُ بنُ عَبْدِ العَزِيْزِ المُتَوَفَّىٰ سَنَةَ (٢٠٤)، وكَانَ مِنْ أصْحَابِ مَالِكٍ، وهُوَ أكْبَرُ سِنًّا مِنَ الشَّافِعِيِّ، ولكِنَّهُ مَاتَ بَعْدَهُ بقَلِيْلٍ، وقَدْ أثْنَىٰ عَلَيْهِ الأئِمَّةُ الأعْلامُ، فَقَدْ ذَكَرَ ابنُ فَرْحُوْنَ المالِكيُّ في «الدِّيبَاجَ المُذْهِبَ» (٩٨)، أنَّ الشَّافِعِيَّ قَالَ عَنْهُ: «مَا رَأيْتُ أفْقَهَ مِنْ أشْهَبَ!».

* * *

❑ أمَّا مَدْرَسَةُ شَمَالِ أفْرِيْقِيا:

فَلا شَكَّ أنَّ الصَّحَابَةَ الَّذِيْنَ دَخَلُوا إفْرِيْقِيَا هُمُ القُوَّادُ الفَاتِحُوْنَ: كعَمْرِو بنِ العَاصِ، وعَبْدِ الله بنِ سَعْدِ بنِ أبي السَّرْحِ رضي الله عنهما، وهَكَذَا تَتَابَعَتِ الفُتُوْحَاتِ الإسْلامِيَّةِ علىٰ يَدَيْهِمَا، ثُمَّ تَابَعَ مُعَاوِيَةُ بنُ حُدَيْجٍ المُتَوَفَّىٰ سَنَةَ (٥٢) فَتْحَ إفْرِيْقِيا، ووَلَّاهُ مُعَاوِيَةُ بنُ أبي سُفْيَانَ علىٰ مِصْرَ وإفْرِيْقِيا.

ثُمَّ جَاءَ بَعْدَهُ: عُقْبَةُ بنُ عَامِرٍ الفِهْرِيُّ المُتَوَفَّىٰ سَنَةَ (٥٨)، فَاخْتَطَّ مَدِيْنَةَ القَيْرَوَانِ، وسَارَ في النَّاسِ سَيْرَةً حَسَنَةً، وكَانَ مِنْ خِيَارِ الوُلاةِ والدُّعَاةِ، الَّذِيْنَ جَاهَدُوا في الله حَقَّ الجِهَادِ، ودَعَوْا إلىٰ الله بالسَّيْفِ والكَلِمَةِ.

وفي عَهْدِ عُمَرَ بنِ عَبْدِ العَزِيْزِ بَعَثَ إسْمَاعِيْلَ بنَ أبي المُهَاجِرِ المُتَوَفَّىٰ سَنَةَ (١٣٢)، وَاليًا علىٰ إفْرِيْقِيا سَنَةَ مَائَةٍ، فَكَانَ دَاعِيَةً إلىٰ الإسْلامِ، بلِسَانِهِ

وأعْمالِهِ وأخْلاقِهِ، فَأَحَبَّهُ النَّاسُ، وأَحَبُّوا دِيْنَهُ، وحَرِصَ علىٰ دَعْوَةِ البَرْبَرِ إلىٰ الإسْلامِ، وكَانَ قَدْ بَعَثَ مَعَهُ عُمَرُ بنُ عَبْدِ العَزِيْزِ عَشَرَةً مِنَ التَّابِعِيْنَ مِنْ أَهْلِ العِلْمِ والفَضْلِ، وأَهْلِ إفْرِيْقِيا يَوْمَئِذٍ مِنَ الجَهْلِ بحَيْثُ لا يَعْرِفُوْنَ أَنَّ الخَمْرَ حَرَامٌ! حَتَّىٰ وَصَلَ هَؤلاءِ فَعَلَّمُوا النَّاسَ الحَلالَ والحَرَامَ.

وجَاءَ بَعْدَهُم: عَبْدُ الرَّحمَنِ بنُ زِيَادِ بنِ أَنْعَمَ الإفْرِيْقِيُّ المُتَوَفَّىٰ سَنَةَ (١٥٦)، عَالِمُ إفْرِيْقِيا ومُحَدِّثُهَا وقَاضِيْهَا، وأَوَّلُ مَوْلُوْدٍ في الإسْلامِ بَعْدَ فَتْحِ المُسْلِمِيْنَ لهَا، وعَبْدُ الله بنُ فَرُّوْخٍ المُتَوَفَّىٰ سَنَةَ (١٧٦)، إمَامُ القَيْرَوَانِ وفَقِيْهُ أَهْلِهَا، ورَبَاحُ بنُ يَزِيْدَ اللَّخْمِيُّ المُتَوَفَّىٰ سَنَةَ (١٨٣)، العَالِمُ الصَّالِحُ، والبَهْلُوْلُ بنُ رَاشِدٍ القَيْرَوَانيُّ المُتَوَفَّىٰ سَنَةَ (١٨٣)، المَشْهُوْرُ بالعِلْمِ والوَرَعِ.

ثُمَّ جَاءَ: أَسَدُ بنُ الفُرَاتِ المُتَوَفَّىٰ سَنَةَ (٢١٣)، صَاحِبُ الإمَامِ مَالِكٍ، ومُصَنِّفُ «الأَسَدِيَّةِ» في الفِقْهِ علىٰ مَذْهَبِهِ، وقَاضِي القَيْرَوَانِ آنَذَاكَ، والأَمِيْرُ علىٰ الجَيْشِ الإسْلامِيِّ الَّذِي اتَّجه إلىٰ (صِقِلِّيَّةَ) وفتَحَهَا، وغَيْرُ هَؤلاءِ مِنْ أَعْلامِ الهُدَىٰ والدِّيْنِ.

ومِنْ شُيُوْخِ المَدْرَسَةِ أَيْضًا: سُحْنُوْنُ بنُ سَعِيْدٍ التَّنُوْخِيُّ المُتَوَفَّىٰ سَنَةَ (٢٤٠)، الَّذِي أَظْهَرَ السُّنَّةَ، ونَشَرَ عِلْمَ أَهْلِ المَدِيْنَةِ وفِقْهَ الإمَامِ مَالِكٍ في بِلادِ المَغْرِبِ.

* * *

❑ أمَّا مَدْرَسَةُ الأنْدَلُسِ:

فَلمَّا فَتحَ الله علىٰ المُسْلِمِيْنَ الأنْدَلُسَ، هَاجَرَتْ أعَدادٌ كَبِيْرةٌ مِنْ مُخْتَلَفِ الأقْطارِ الإسْلامِيَّةِ لاسِيَّما مِنْ أهْلِ البَرْبَرِ الَّذِيْنَ أسْلَمُوا، واسْتَقَرُّوا في كُلِّ نَاحِيَةٍ، وكَانَ هَمَّهُمُ الوَحِيْدُ: نَشْرَ دِيْنِ الله بَيْنَ العِبَادِ.

ومِنْ أوَائِلِ الَّذِيْنَ دَخَلُوا الأنْدَلُسَ مِنَ الدُّعَاةِ والفَاتِحِيْنَ: عَبْدُ الله بنُ نَافِعِ بنِ عَبْدِ القَيْسِ الفِهْرِيُّ، وعَبْدُ الله بنُ الحُصَيْنِ الفِهْرِيُّ، وذَلِكَ زَمَنَ الخَلِيْفَةِ عُثْمانَ بنِ عَفَّانَ ﷺ، ثُمَّ دَخَلَهَا مُوْسَىٰ بنُ نُصَيْرٍ المُتَوَفَّىٰ سَنَةَ (٩٧)، عَامَ وَاحِدٍ وتَسْعِيْنَ، وأنَابَ مُوْسَىٰ عَنْهُ: طَارِقَ بنَ زِيَادٍ المُتَوَفَّىٰ سَنَةَ (١٠٢)، في إكْمَالِ الفَتْحِ، فَكَانَ قَائِدًا بَطَلًا ودَاعِيًا حَكِيمًا.

ثُمَّ مَرَّتِ الأنْدَلُسَ بعُهُوْدٍ مُخْتَلِفَةٍ كعَهْدِ الوُلاةِ، ثُمَّ إمَارَةِ عَبْدِ الرَّحمَنِ بنِ مُعَاوِيَةَ بنِ هِشَامِ بنِ عَبْدِ المَلِكِ المُلَقَّبِ بـ (الدَّاخِلِ) المُتَوَفَّىٰ سَنَةَ (١٧٢)، وكَانَ لَهُ جُهْدٌ كَبِيْرٌ في نَشْرِ الإسْلامِ، وتَعْلِيْمِ أحْكَامِهِ، وإقَامَةِ حُدُوْدِهُ، والجِهَادِ في سَبِيْلِ الله تَعَالىٰ، وكَانَ عَالمًا عَادِلًا وزَاهِدًا، وأثْنَىٰ عَلَيْهِ الإمَامُ مِالِكُ بنُ أنَسٍ إمَامِ دَارِ الهِجْرَةِ، وقَالُوا لَهُ: إنَّ بالمَغْرِبِ مَلِكًا قَائِمًا بالشَّرَائِعِ يَلْبَسُ الصُّوْفَ، ويَأكُلُ الشَّعِيْرَ، ويُجَاهِدُ أعْدَاءَ الدِّيْنِ مِنَ المُشْرِكِيْنَ الَّذِيْنَ يُجَاوِرُوْنَهُ!

فَقَالَ مَالِكٌ: مَا أحْوَجَ بَلْدَتُنَا إلىٰ وَاحِدٍ مِثْلِهِ تَتزَيَّنُ بِهِ!

فَوَصَلَتْ هَذِهِ الكَلِمَةُ إلىٰ عَبْدِ الرَّحمَنِ في الأنْدَلُسِ، فَجَمَعَ النَّاسَ في مَمْلَكَتِهِ، ونَادَىٰ أنْ لا يُدَانَ إلَّا بمَذْهَبِ مَالِكٍ، تَقْدِيْرًا ومَحْبَّةً ورَدًّا للجَمِيْلِ،

ومِنْ ثَمَّ كَانَ أَهْلُ المَغْرِبِ علىٰ مَذْهَبِ الإمَامِ مَالِكٍ، كَما كَانَ لِهَذِهِ الكَلِمَةِ رَدُّ فِعْلٍ لَدَىٰ الخَلِيْفَةِ المَنْصُوْرِ تُجَاهَ الإمَامِ مَالِكٍ.

وهَذَا مَا ذَكَرَهُ عبْدُ المَلِكِ بنُ حُسَيْنٍ في «سِمْطِ النُّجُومِ العَوَالي» (٣/ ٢٥٣)، والكُتْبِيُّ في «فَوَاتِ الوَفَيَاتِ» (٢/ ٣٠٢).

ومِنْ شُيُوْخِ الأنْدَلُسِ في تِلْكَ الحُقْبَةِ: صَعْصَعَةُ بنُ سَلَّامٍ الدِّمِشْقِيُّ، نَزِيْلُ الأنْدَلُسِ المُتَوَفَّىٰ سَنَةَ (١٩٢)، وأوَّلُ مَنْ أدْخَلَ الحَدِيْثَ، وفِقْهَ الأوْزَاعِيِّ إلىٰ تِلْكَ البِلادِ.

وزِيَادُ بنُ عَبْدِ الرَّحمَنِ القُرْطُبِيُّ، المُلَقَّبُ بـ (شَبْطُوْنَ) المُتَوَفَّىٰ سَنَةَ (١٩٣)، فَقِيْهُ الأنْدَلُسِ، الَّذِي سَمِعَ المُوَطَّأَ مِنْ مَالِكٍ، ورَوَاهُ عَنْهُ في الأنْدَلُسِ، والغَازِي بنِ قَيْسٍ القُرْطُبِيُّ المُتَوَفَّىٰ سَنَةَ (١٩٩)، وَارِثُ عُلُوْمِ المَشْرِقِ، الَّذِي رَجَعَ إلىٰ الأنْدَلُسِ بعِلْمٍ عَظِيْمٍ، وعِيْسَىٰ بنُ دِيْنَارٍ المُتَوَفَّىٰ سَنَةَ (٢١٢)، قَاضِي (طُلَيْطِلَةِ) الفَقِيْهُ الوَرِعُ، ويَحْيَىٰ بنُ يَحْيَىٰ اللَّيْثِيُّ المُتَوَفَّىٰ سَنَةَ (٢٣٤)، صَاحِبُ العَقْلِ الكَبِيْرِ، ومَرْجِعُ النَّاسِ في أمُوْرِ الدِّيْنِ، الَّذِي أثْنَىٰ عَلَيْهِ مَالِكُ بنُ أنَسٍ ووَصَفَهُ بأنَّه عَالِمُ الأنْدَلُسِ وعَاقِلُهَا، وعَبْدُ المَلِكِ بنِ حَبِيْبٍ السُّلَمِيُّ المُتَوَفَّىٰ سَنَةَ (٢٣٨)، مُفْتِي الأنْدَلُسِ وعَالِمُهَا بَعْدَ يَحْيَىٰ اللَّيْثِيِّ، الجَامِعِ لأصْنَافِ العُلُوْمِ، والمُهْتَمِّ بالحَدِيْثِ والسُّنَنِ.

* * *

ومِنْ خِلالِ هَذَا العَرْضِ السَّرِيْعِ للمَرْحَلَةِ العِلْمِيَّةِ الَّتِي مَرَّتْ بِها المَدَارِسُ

الإسْلامِيَّةُ في المَشْرِقِ والمَغْرِبِ يَتَّضِحُ لَنَا أنَّ العُلَماءَ آنَذاكَ كَانُوا: دُعَاةً وقَادَةً وقُضَاةً، وغُزَاةً، وأحْيَانًا وُلاةً . . . فَإذَا عُلِمَ هَذَا؛ فَعَلىٰ أهْلِ العِلْمِ اليَوْمَ السَّلامُ، إلَّا مَا رَحِمَ الله!

* * *

أمَّا والحَالَةُ هَذِهِ؛ فَلا تَعْجَبْ إذَا عَلِمْتَ أنَّ عُلَماءَ الإسْلامِ في المَشْرِقِ والمَغْرِبِ كَانَتْ لهُم في تِلْكُمُ المَدَارِسِ الَّتِي خَطَوْهَا ورَسَمُوا طَرَائِقَهَا: مَنَاهِجُ عِلْمِيَّةٌ وعَمَلِيَّةٌ لم يَخْرُجُوا عَنْهَا قَدْرَ أُنْمُلَةٍ، كُلُّ ذَلِكَ مِنْهُم تمسُّكًا: بالكِتَابِ والسُّنَّةِ، واقْتِفَاءً لأثْرِ السَّلَفِ الصَّالِحِ في كُلِّ مَا يَأتُوْنَ ويَذَرُوْنَ.

ومِنْ وَرَاءِ ذَلِكَ كَانُوا أهْلَ عِبَادَةٍ واجْتِهَادٍ مَعَ الله تَعَالىٰ، فَكَانُوا رُهْبَانَ لَيْلٍ، وفُرْسَانَ نَهَارٍ، أهْلَ خَوْفٍ ورَجَاءٍ، وزُهْدٍ ووَرَعٍ.

* * *

أمَّا تمسُّكُهُم بالسُّنَنِ والآثَارِ: فَغَايَةٌ في الاقْتِفَاءِ والمُتَابَعَةِ؛ حَيْثُ اشْتَدَّتْ عِنَايَتُهُم بالرِّوَايَةِ والآثَارِ مَا يَعْجَزُ عَنْهُ البَشَرُ أجْمَعُ؛ حَيْثُ كَانَ ابنُ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يَزْجُرُ تَلامِذَتَهُ عَنِ التَّهَاوُنِ بالسُّنَّةِ؛ حَتَّىٰ في ضَبْطِ ألْفَاظِهَا، ويَتَحَرَّجُ غَايَةَ الحَرَجِ عِنْدَمَا يُحَدِّثُ عَنْ رَسُوْلِ الله ﷺ، فَللَّهِ دَرُّهُم!

ولَيْسَ هَذَا مَقَامَ بَسْطِ الكَلامِ عَنْ ذِكْرِ مَوَاقِفِ السَّلَفِ مِنَ الصَّحَابَةِ والتَّابِعِيْنَ، ومَنْ سَارَ علىٰ نَهْجِهِم في العِنَايَةِ بالسُّنَنِ والآثَارِ، فَدُوْنَكَ كِتَابَ: «جَامِعِ بَيَانِ العِلْمِ وفَضْلِه» لابنِ عَبْدِ البرِّ، و«الجامِعِ لآدَابِ الرَّاوِي»

و«الفَقِيْهِ والمُتَفَقِّهِ»، و«شَرَفِ أصْحَابِ الحَدِيْثِ» و«نَصِيْحَةِ أهْلِ الحَدِيْثِ» وهَذِه الأرْبَعَةُ كُلُّها للخَطِيْبِ البَغْدَادِيِّ، و«أخْلاقِ العُلَماءِ» للآجُرِّي، و«تَذْكِرَةِ السَّامِعِ والمُتَكَلِّمِ» لابنِ جَمَاعَةَ، وغَيْرِهَا كَثِيْرٌ.

وقَدِ اكْتَسَبَتِ المَدَارِسُ الإسْلامِيَّةُ مَنَاهِجَهَا مِنْ شُيُوْخِهَا؛ حَيْثُ اشْتَهَرَتْ مَدْرَسَةُ مَكَّةَ بالتَّفْسِيْرِ، ويُعْتَبَرُ عَبْدُ الله بنُ عَبَّاسٍ ﷺ أسْتَاذُهَا وإمَامُهَا، كَما كَانَ عَبْدُ الله بنُ عُمَرَ ﷺ أحَدَ شُيُوْخِ مَدْرَسَةِ المَدِيْنَةِ الَّتِي عُرِفَتْ باهْتِمامِهَا الكَبِيرِ بالأحَادِيْثِ والسُّنَنِ.

كَما دَعَا السَّلَفُ الصَّالِحُ إلىٰ المُحَافَظَةِ علىٰ السُّنَّةِ والعِنَايَةِ بالحَدِيْثِ، وقَدْ ذَكَرَ ابنُ عَسَاكِرَ في «تَارِيْخِهِ» (٨/ ٤٣٦)، قَوْلَ إسْماعِيْلَ بنِ أبي المُهَاجِرِ: «يَنْبَغِي لَنَا أنْ نَحْفَظَ حَدِيْثَ رَسُوْلِ الله ﷺ، كَمَا نَحْفَظُ القُرْآنَ، لأنَّ الله تَعَالىٰ يَقُوْلُ: ﴿مَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنْ أَهْلِ ٱلْقُرَىٰ فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ كَىْ لَا يَكُونَ دُولَةًۢ بَيْنَ ٱلْأَغْنِيَآءِ مِنكُمْ ۚ وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾ [الحشر: ٧] انْتَهىٰ.

وقَدْ سَارَ أهْلُ العِلْمِ علىٰ نَهجِ أسْلافِهِم في التَّمَسُّكِ بالسُّنَّةِ، وتَتَبُّعِ الآثَارِ فَاتَّجَهُوا إلىٰ تَدْوِيْنِ الحَدِيْثِ وجَمْعِهِ، ومِنْ أوَائِلِ مَنْ فَعَلَ ذَلِكَ: عَبْدُ المَلِكِ بنِ عَبْدِ العَزِيْزِ بنِ جُرَيْجٍ في مَكَّةَ، المُتَوَفَّىٰ سَنَةَ (١٥٠)، ومَالِكُ بنُ أنَسٍ في المَدِيْنَةِ، المُتَوَفَّىٰ سَنَةَ (١٧٩).

* * *

كَما بَلَغَ احْتِكَامُهُم إلىٰ الكِتَابِ والسُّنَّةِ والأثَرِ مَبْلَغًا عَظِيْمًا، فَكَانُوا يَرْجِعُوْنَ إِلَيْهَا في كُلِّ شَيءٍ، فَما وَافَقَهُما عَمِلُوا بِهِ وأقَرُّوْهُ، ومَا خَالَفَهُما رَفَضُوْهُ وحَذَّرُوا النَّاسَ مِنْهُ، ولهُم في ذَلِكَ مُصَنَّفَاتٌ كَثِيْرَةٌ.

وقَدْ صَرَّحَ بذَلِكَ كِبَارُ الأئِمَّةِ: أمْثَالُ أبي حَنِيْفَةَ ومَالِكٍ والشَّافِعِيِّ وأحمَدَ رَحِمَهُمُ الله.

فَقَدْ ذَكَرَ ابنُ عَابِدِيْنَ في «حَاشِيَتِهِ» (١/ ٦٣) قَوْلَ أبي حَنِيْفَةَ رَحِمَهُ اللهُ: «إذَا صَحَّ الحَدِيْثُ فَهُوَ مَذْهَبِي».

وكَذَا ذَكَرَ ابنُ عَبْدِ البرِّ في «جَامِعِهِ» (٢/ ٣٢) قَوْلَ الإمَامِ مَالِكِ بنِ أنَسٍ: «إنَّما أنَا بَشَرٌ أُخْطِئُ وأُصِيْبُ، فانْظُرُوا في رَأيي؛ فكُلُّ مَا وَافَقَ الكِتَابَ والسُّنَّةَ فَخُذُوْهُ، وكُلُّ مَا لم يُوَافِقِ الكِتَابَ والسُّنَّةَ فَاتْرُكُوْهُ».

وأيضًا ذَكَرَ قَوْلَهُ (٢/ ٩١): «لَيْسَ لأحَدٍ بَعْدَ النَّبِيِّ ﷺ إلَّا ويُؤخَذُ مِنْ قَوْلِهِ ويُتْرَكُ؛ إلَّا النَّبِيَّ ﷺ». وقَدْ أخَذَ الإمَامُ مَالِكٌ رَحِمَهُ اللهُ هَذِهِ المَقُوْلَةَ المَشْهُوْرَةَ مِنِ ابنِ عَبَّاسٍ ومُجَاهِدٍ، وعَنْهُم أخَذَهَا أيضًا الإمَامُ أحمَدُ بنُ حَنْبَلٍ رَحِمَهُ اللهُ.

وذَكَرَ ابنُ القَيِّمِ في «إعْلامِ المُوَقِّعِيْنَ» (٢/ ٣٠٢) قَوْلَ الشَّافِعِيِّ رَحِمَهُ اللهُ: «أجْمَعَ المُسْلِمُوْنَ علىٰ أنَّ مَنِ اسْتَبَانَتْ لَهُ سُنَّةٌ عَنْ رَسُوْلِ ﷺ؛ لم يَحِلَّ لَهُ أنْ يَدَعَهَا لقَوْلِ أحَدٍ».

وعَنْهُ النَّوَوِيُّ في «المَجْمُوعِ» (١/ ٦٣) قَوْلَهُ: «إذَا صَحَّ الحَدِيْثُ فَهُوَ مَذْهَبِي».

وذَكَرَ ابنُ القَيِّمِ في «إعْلامِ المُوَقِّعِيْنَ» (٢/ ٣٦١) قَوْلَ الإمَامِ أحمَدَ بنِ حَنْبَلٍ رَحِمَهُ اللهُ: «لا تُقَلِّدْني، ولا تُقَلِّدْ مَالِكًا، ولا الشَّافِعِيَّ، ولا الأوْزَاعِيَّ، ولا الثَّوْرِيَّ، وخُذْ مِنْ حَيْثُ أخَذُوا».

وعَنْهُ ابنُ الجَوْزِي في «تَلْبِيسِ إبْلِيْسَ» (١٨٢) قَوْلَهُ: «مَنْ رَدَّ حَدِيْثَ رَسُوْلِ الله ﷺ؛ فَهُوَ علىٰ شَفَا هَلَكَةٍ».

* * *

أمَّا تَحْذِيْرُ السَّلَفِ مِنَ الرَّأي فَهُوَ أظْهَرُ مِنْ أنْ يُذْكَرَ، وأشْهَرُ مِنْ أنْ يُنْكَرَ، فَكَانُوا يُحَذِّرُوْنَ مِنَ الرَّأي، ويَتَوَقَّفُوْنَ عِنْدَ عَدَمِ وُجُوْدِ نَصٍّ في المَسْألَةِ، وكَانَ هَذَا مِنْهُم مَنْهَجًا سَائِدًا بَيْنَ أئِمَّةِ السَّلَفِ كَافَّةً.

قَالَ ابنُ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: «يُوْشِكُ أنْ تُنَزَّلَ عَلَيْكُم حِجَارَةٌ مِنَ السَّماءِ؛ أقُوْلُ: قَالَ رَسُوْلُ الله ﷺ، وتَقُوْلُوْنَ: قَالَ أبُو بَكْرٍ وعُمَرُ؟!» أخْرَجَهُ أحْمَدُ (٣١٢١)، بإسْنَادٍ حَسَنٍ.

وعِنْدَ ابنِ سَعْدٍ في «الطَبَقَاتِ» (٦/ ٢٥٠)، أنَّه سُئِلَ الشَّعبِيُّ عَنْ مَسْألَةٍ، فَسَكَتَ لأنَّهُ لم يَجِدْ فِيْهَا نَصًّا، ولم يَحْفَظْ فِيْهَا أثَرًا، فَقِيْلَ لَهُ: قُلْ برأيِكَ، قَالَ: ومَا تَصْنَعُ برَأيِي؟ بُلْ علىٰ رَأيي!».

وفي «مَنَاقِبِ أبي حَنِيْفَةَ وصَاحِبِيْهِ» للذَّهَبِيِّ (٢١) أنَّ أبَا حَنِيْفَةَ رَحِمَهُ اللهُ كَانَ يَقُوْلُ في ذَمِّ الرَّأي المَذْمُوْمِ: «البَوْلُ في المَسْجِدِ؛ أحْسَنُ مِنَ بَعْضِ القِيَاسِ»، أيْ: الرَّأيَ.

وقَدْ ذَكَرَ الخَطِيْبُ البَغْدَادِيُّ في «تَارِيْخِه» (١٢/ ٢٦٣) قَوْلَ الإمامِ أحمَدَ بنِ حَنْبَلٍ رَحِمَهُ اللهُ في التَّحْذِيْرِ مِنْ آراءِ الرِّجَالِ ولَوْ كَانُوا عُلَماءَ؛ حَيْثُ قَالَ: «عَجِبْتُ لقَوْمٍ عَرَفُوا الإسْنَادَ وصِحَّتَهُ، يَذْهَبُوْنَ إلىٰ رَأي سُفْيَانَ، والله تَعَالىٰ يَقُوْلُ: ﴿فَلْيَحْذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦٓ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [النور: ٦٣]، أتَدْرِي مَا الفِتْنَةُ؟ الفِتْنَةُ: الشِّرْكُ، لَعَلَّهُ إذَا رَدَّ بَعْضَ قَوْلِهِ، أنْ يَقَعَ في قَلْبِهِ شَيءٌ مِنَ الزَّيْغِ فَيَهْلَكَ».

وعَنْهُ أيْضًا ذَكَرَ ابنُ عَبْدِ البرِّ في «جَامِعِ بَيَانِ فَضْلِ العِلْمِ» (٢/ ١٤٩): «رَأيُ الأوْزَاعيِّ، ورَأيُ مَالِكٍ، ورَأيُ أبي حَنِيْفَةَ كُلُّهُ رَأيٌ، وهُوَ عِنْدِي سَوَاءٌ، وإنَّما الحُجَّةُ في الآثَارِ».

وهَذَا مَا حَذَّرَ مِنْهُ الإمَامُ الأوْزَاعِي رَحِمَهُ اللهُ، كَمَا ذَكَرَهُ عَنْهُ أبُو يَعْلىٰ في «طَبَقاتِ الحَنَابِلَةِ» (١/ ٢٣٦): «وإيَّاكَ ورَأيَ الرِّجَالِ، وإنْ زَخْرَفُوْهُ بالقَوْلِ، وإذَا بَلَغَكَ عَنْ رَسُوْلِ الله ﷺ حَدِيْثٌ، فَإيَّاكَ أنْ تَقُوْلَ بغَيْرِهِ».

وهَكَذَا كَانَ القَوْمُ لا يَرَوْنَ الخُرُوْجَ عَنِ القُرْآنِ أو السُّنَّةِ أو الأثَرِ إلىٰ قَوْلِ أحَدٍ أيًّا كَانَ قَائِلُهُ، فَكُلُّ مَا خَالَفَ آيَةً، أو سُنَّةً أو أثَرًا عَنْ صَحَابيٍّ أو تَابِعيٍّ، يَرُدُّوْنَه رَأسًا، ولا يَقْبَلُوْنَ مِنَ الأقْوَالِ إلَّا مَا اسْتَنَدَ إلىٰ آيَةٍ مُحْكَمَةٍ أو سُنَّةٍ نَاطِقَةٍ، أمَّا المَسَائِلُ الَّتِي لَيْسَ فِيْهَا دَلِيْلٌ مِنَ القُرْآنِ والسُّنَّةِ أو قَوْلِ صَحَابيٍّ فَكَانُوا لا يَجْتَهِدُوْنَ في أخْذِهَا ولا في رَدِّها، فَهِي كَغَيْرِهَا مِنْ أقْوَالِ الرِّجَالِ، وهُم رِجَالٌ!

* * *

وأخيرًا لمَّا وَضَعتِ الحَرَكَةُ العِلْمِيَّةُ جِلْبَابَها إلَّا لُبْسَةَ المُتفَضِّلي، وتَنكَّبَ أكْثَرُ المُسْلِمِيْنَ عُلُوْمَ السَّلَفِ الصَّالِحِ، وأخَذُوا سَرَبًا في مُتَابَعَةِ غَيْرِهِم مِنْ شَقَاشِقِ الغَرْبِ، لاسِيَّما كُتُبِ اليُوْنَانِ في عَقَائِدِهِ الوَثَنِيَّةِ، وغَيْرِهِم مِنْ أهْلِ الكُفْرِ والإلحَادِ فكَانَ مَا كَانَ مِنْ ضَعْفٍ عِلْمِيٍّ، وانْهِزَامٍ دَعَوِيٍّ، وقُصُوْرٍ فِكْرِيٍّ . . . إلَخْ، وهَذَا مَا سَنُوَضِّحُهُ قَرِيْبًا إنْ شَاءَ الله.

* * *

وقَبْلَ الخُرُوْجِ مِنْ هَذَا المَدْخَلِ أحْبَبْتُ أنْ نَقِفَ جَمِيْعًا أمَامَ بَعْضِ الفَوَارِقِ العَامَّةِ بَيْنَ مَدَارِسِ السَّلَفِ، ومَدَارِسِ الخَلَفِ، كَيْ نَعْلَمَ مَا نَحْنُ فِيْهِ مِنْ عَبَثٍ عِلْمِيٍّ، وانْهِزَامٍ دَعَوِيٍّ، ومِنْ وَرَائِهِ جَهْلٌ بأنْفُسِنَا ثُمَّ بحَقِيْقَةِ العِلْمِ الَّذِي كَانَ يَوْمَ كَانَ بَيْنَ أهْلِهِ عَزِيْزًا شَامِخًا!

ومَا ذِكْرُ هَذِهِ الفَوَارِقِ هُنَا؛ إلَّا شَيْئًا حَبَسَنِي عِنْدَهَا الأسَى والحُزْنُ، وعَصَانِي فِيْهَا جُمُوْحُ القَلَمِ، ومَهْمَا يَكُنْ مِنْ تَوَجُّعٍ؛ فَإنَّها ذِكْرَى لنَفْسِي وللمُؤمِنِيْنَ، وتَبْصِرَةٌ لأهْلِ العِلْمِ الرَّبَّانِيِّيْنَ، والله وَليُّ الصَّالِحِيْنَ، فَإلى بَابَةِ المَقْصُوْدِ في مَآتِي الفَصْلِ الجَدِيْدِ.

❑ ❑ ❑

الفَصْلُ الثَّاني

الفَرْقُ بَيْنَ مَدَارِسِ السَّلَفِ ومَدَارِسِ الخَلَفِ

لا شَكَّ أنَّني هُنَا لم أقْصِدْ بهَذِهِ الفَوَارِقِ وُجُودَهَا ضَرُوْرَةً في أهْلِ زَمَانِنَا، بَلْ كَانَ ذِكْرُهَا مِنْ بَابِ: الأعَمِّ الأغْلَبِ، والحَقِيْقَةِ المُشَاهَدَةِ؛ مَعَ عِلْمِنَا أنَّ هُنَاكَ عُلَماءُ رَبَّانِيُّونَ ودُعَاةٌ نَاصِحُونَ قَدْ شَهِدَ لهُم أهْلُ الزَّمَانِ؛ لكِنَّها الذِّكْرَىٰ.

فَالفُرُوْقُ بَيْنَ مَدَارِسِ السَّلَفِ ومَا هُمْ فِيْهِ مِنْ عِلْمٍ وعَمَلٍ، وجُهْدٍ واجْتِهَادٍ، وبَيْنَ مَدَارِسِنَا اليَوْمَ - لهُوَ فَرْقٌ شَاسِعٌ وكَبِيْرٌ، وهَذَا مَا ذَكَرَهُ ابنُ الجَوْزِيِّ في «صِفَةِ الصَّفْوَةِ» (٤/ ١٢٢) عَنْ حَمْدُوْنَ القَصَّارِ رَحِمَهُ اللهُ: «مَنْ نَظَرَ في سِيَرِ السَّلَفِ عَرَفَ تَقْصِيْرَهُ وتَخَلُّفَهُ عَنْ دَرَجَاتِ الرِّجَالِ»!

وذَكَرَ أيضًا (٤/ ٢٦٦) أنَّه لَمَّا ذُكِرَ عِنْدَ مَخْلَدِ بنِ الحُسَيْنِ أخْلاقُ الصَّالِحِيْنَ، قَالَ:

لا تَعْرِضَنَّ لذِكْرِنَا في ذِكْرِهِم لَيْسَ الصَّحِيْحُ إذَا مَشَىٰ كالمُقْعَدِ
وإنْ شِئْتَ فَقُلْ: يَا لِفَرْقٍ بَيْنَ الثَّرَىٰ والثُّرَيَّا، وبَيْنَ الأرْضِ والسَّماءِ!

وحَسْبُنَا مِنْ هَذِهِ الفُرُوْقِ الجَوْهَرِيَّةِ أنَّ بَيْنَنَا وبَيْنَهُم أكْثَرَ مِنْ ألْفِ سَنَةٍ عِجَافٍ، فالله الهَادِي إلىٰ سَوَاءِ السَّبِيْلِ!

* * *

❑ فمِنْ هَذِهِ الفَوَارِقِ علىٰ وَجْهِ الاخْتِصَارِ:

❑ الأوَّلُ: أنَّ السَّلَفَ كَانُوا يَسْتَحْضِرُوْنَ نِيَّةَ الطَّلَبِ في جَمِيْعِ مَرَاحِلِهِ، ابْتِدَاءً مِنَ الالْتِحَاقِ بالكَتَاتِيْبِ، وانْتِهَاءً بالنُّبُوْغِ والبُلُوْغِ العِلْمِيِّ، وهَلْ كَانَ طَلَبُ العِلْمِ عِنْدَهُم إلَّا هَذَا؟!

أمَّا الخَلَفُ: فَقَلِيْلٌ مَا يَسْتَحْضِرُ طَالِبُ العِلْمِ عِنْدَنَا نِيَّةَ الطَّلَبِ لاسِيَّما عِنْدَ طُلَّابِ المَرَاحِلِ الثَّلاثِ: (الابْتِدَائِيَّةِ، والمُتَوَسِّطَةِ، والثَّانَوِيَّةِ)، ومَا بَعْدَهَا كالجَامِعَاتِ وغَيْرِهَا، إلَّا مَا رَحِمَ الله!

* * *

❑ الثَّاني: كَانَ العِلْمُ عِنْدَ السَّلَفِ عَنْ رَغْبَةٍ شَدِيْدَةٍ، وهِمَّةٍ عَالِيَةٍ، لِذَا بَذَلُوا فِيْهِ الغَالي والرَّخِيْصِ، والنَّفْسَ والنَّفِيْسَ، فعِنْدَهَا عَظُمَ العِلْمُ الشَّرعِيُّ في قُلُوْبِهِم وحَيَاتِهِم، وعَظُمَتْ مَكَانَةُ الكُتُبِ العِلْمِيَّةِ لدَيْهِم، فَكَمْ بَذَلُوا فِيْهِ مِنْ أوْقَاتٍ، وكَمْ لهُم فِيْهِ مِنْ رَحَلاتٍ؛ حَتَّىٰ أنَّهُم زَهِدُوا عَنِ الدُّنْيَا لأجْلِ العِلْمِ، لِذَا لم يَرْضَوْا أنْ يَقِفُوا أو يَتْرُكُوا العِلْمَ ولَوْ لحْظَةً وَاحِدَةً خِلافًا لما يُسَمَّىٰ: بالإجَازَاتِ الصَّيْفِيَّةِ والأسْبُوْعِيَّةِ والنِّصْفِيَّةِ الَّتِي يُعْطَاهَا طُلَّابُ العِلْمِ اليَوْمَ، الَّتِي قَدْ تَسْتَغْرِقُ شَهْرًا أو شَهْرَيْنِ أو أكْثَرَ، بَلْ كَانَ القَوْمُ في هِمَمٍ عَلِيَّةٍ ومَطَالِبَ سَنِيَّةٍ، ومَا التَّارِيْخُ إلَّا دَلِيْلٌ لهُم وشَاهِدٌ.

أمَّا الخَلَفُ: فَكَانَ العِلْمُ عِنْدَهُم عَنْ رَهْبَةٍ، وضَعْفِ عَزِيْمَةٍ، لِذَا نَجِدُ أكْثَرَهُم يَرْغَبُوْنَ عَنِ العِلْمِ بكُلِّ مَا يَمْلِكُوْنَ ويتَمَلَّكُوْنَ، فَعِنْدَهَا ابْتَذَلُوا العِلْمَ وذَلُّوا الكُتُبَ، ومَا هَذَا إلَّا رَغْبَةً في العِلْمِ، ودَخَنٌ في نِيَّةِ الطَّلَبِ؟!

وحَسْبُكَ؛ أنَّ أفْضَلَ أوْقَاتِ الطَّالِبِ في زَمَانِنَا: هِيَ الإجَازَاتُ الصَّيْفِيَّةُ،

ثُمَّ تَجِدُهُ إِذَا مَا انْتَهَىٰ مِنِ اخْتِبَارَاتِ المَدْرَسَةِ: أَلْقَىٰ بالكُتُبِ حَيْثُما كَانَ، ومِنْ قَبْلُ عَدَمُ عِنَايَةٍ بالكُتُبِ العِلْمِيَّةِ يَوْمَ تَرَاهَا مَلِيْئَةً بالكِتَابَاتِ والعِبَارَاتِ السَّاذَجَةِ، ورُبَّما السُّوقِيَّةِ!

* * *

❑ **الثَّالِثُ**: كَانَ السَّلَفُ في أَخْذِهِم للعِلْمِ وحِفْظِهِم لَهُ: آيَةً مِنَ الآيَاتِ، وصُوْرَةً مِنْ أَسْمَىٰ الصُّوَرِ علىٰ مَرِّ الأَزْمَانِ؛ حَيْثُ كَانَتْ لَهُم هِمَمٌ عَلِيَّةٌ ونُفُوْسٌ زَكِيَّةٌ، وعُقُوْلٌ قَوِيَّةٌ، ومَدَارِكُ وَاسِعَةٌ؛ لِذَا فَقَدْ ضَرَبُوا في حِفْظِ العُلُوْمِ أَمْثَلَ الصُّوَرِ، ولَوْ لا خَشْيَةُ الإِطَالَةِ لذَكَرْتُ شَيْئًا مِنْ صُوَرِ سُرْعَةِ حِفْظِهِم، وقُوَّةِ فَهْمِهِم.

فمِنْهُم مَنْ حَفِظَ القُرْآنَ في شُهُوْرٍ قَلِيْلَةٍ، ومِنْهُم دُوْنَ ذَلِكَ، ومنْهُم مَنْ حَفِظَ «الصَّحِيْحَيْنِ»، أو «السُّنَنَ الأَرْبَعَ» في شُهُوْرٍ، ومِنْهُم في أَقَلِّ مِنْ ذَلِكَ، ومِنْهُم مَنْ حَفِظَ المُتُوْنَ الفِقْهِيَّةَ والمَنْظُوْمَاتِ العِلْمِيَّةَ في أَيَّامٍ يَسِيْرَةٍ، وهَكَذَا كَانَتْ سِيَرُهُم في سُرْعَةِ الحِفْظِ وقُوَّةِ الفَهْمِ سَامِيَةً عَالِيَةً، فَدُوْنَكَ ذِكْرَهُم في كُتُبِ السِّيَرِ والطِّبَاقِ والتَّرَاجِمِ، ولاسِيَّما كِتَابُ «تَذْكِرَةِ الحُفَّاظِ» للذَّهَبِيِّ وغَيْرَه مِنْ أَهْلِ العِلْمِ.

أَمَّا الخَلَفُ: فَأَكْثَرُهُم في حِفْظِ العُلُوْمِ وفَهْمِهَا ذُوِي هِمَمٍ قَاصِرَةٍ، وقُوَّةٍ فَاتِرَةٍ؛ لِذَا كَانُوا قَلِيْلِي الحِفْظِ قَاصِرِي الفَهْمِ إِلَّا مَا رَحِمَ الله.

يُوَضِّحُهُ؛ أَنَّ غَالِبَ الطُّلَّابِ مِنْهُم يَتخَرَّجُ مِنَ الدِّرَاسَةِ النِّظَامِيَّةِ، وهُوَ إِلىٰ الجَهْلِ أَقْرَبُ مِنْهُ إِلىٰ العِلْمِ، وحَسْبُكَ مِنَ هَذَا أَنَّهُم في المَرْحَلَةِ الابْتِدَائِيَّةِ لا

يَقْرَؤونَ القُرْآنَ في الأُسْبُوْعِ الدِّرَاسِيِّ إلَّا حِصَصًا مَعْدُوْدَةً، أمَّا في المَرْحَلَتَيْنِ المُتَوَسِّطَةِ والثَّانَوِيَّةِ فدِرَاسَتُهُم للقُرْآنِ في حِصَّةٍ وَاحِدَةٍ، بَلْ لا يَحْفَظُوْنَ مِنَ القُرْآنِ في الفَصْلِ الدِّرَاسِيِّ الأوَّلِ إلَّا سُوْرَةً وَاحِدَةً مِنْ سُوَرِ المُفَصَّلِ، أيْ في أرْبَعَةِ أشْهُرٍ تَقْرِيْبًا، ومِثْلُهُ في الفَصْلِ الثَّاني، وقِسْ علىٰ هَذَا دِرَاسَةَ الحَدِيْثِ.

أمَّا دِرَاسَةُ التَّوْحِيْدِ؛ فَيَبْقَىٰ الطَّالِبُ بَيْنَهُم يَدْرُسُ (بِلا حِفْظٍ!) «الأُصُوْلَ الثَّلاثَةَ» لشَيْخِ الإسْلامِ مُحَمَّدِ بنِ عَبْدِ الوَهَّابِ رَحِمَهُ اللَّهُ خِلالَ فَصْلٍ كَامِلٍ، أيْ في أرْبَعَةِ أشْهُرٍ تَقْرِيْبًا، ويَدْرُسُ أيْضًا «كِتَابَ التَّوْحِيْدِ» لَهُ في ثَلاثِ سَنَوَاتٍ، إيْ في جَمِيْعِ سَنَوَاتِ المَرْحَلَةِ المُتَوَسِّطَةِ، أمَّا دِرَاسَةُ الحَدِيْثِ فَلا يُلْزَمُوْنَ بِحِفْظِهِ، اللَّهُمَّ يَدْرُسُوْنَ مِنْهُ عِشْرِيْنَ حَدِيْثًا تَقْرِيْبًا في أرْبَعَةِ أشْهُرٍ، أيْ في فَصْلٍ دِرَاسِيٍّ كَامِلٍ، وهَكَذَا في غَيْرِهَا مِنَ العُلُوْمِ الشَّرْعِيَّةِ.

ومِنْ خِلالِ هَذَا؛ فَقَدْ أصْبَحَ الطَّالِبُ بَيْنَهُم فَاتِرَ العَزِيْمَةِ، ضَعِيْفَ الحِفْظِ، قَلِيْلَ العِلْمِ، ضَيِّقَ المَدَارِكِ، وهَكَذَا يَسِيْرُ الطَّالِبُ بَيْنَهُم سِنِيْنَ عَدَدًا بَيْنَ تَبَلُّدٍ في الحِسِّ، وضَعْفٍ في الدَّرْسِ.

أمَّا في المَرْحَلَةِ الجَامِعِيَّةِ فَحَدِّثْ ولا حَرَجَ؛ حَيْثُ يَقْضِي الطَّالِبُ في الجَامِعَةِ خَمْسَ سَنَوَاتٍ أو يَزِيْدُ، وهُوَ يَقْتَاتُ علىٰ مُذَكِّرَاتٍ مُصَوَّرَةٍ، ونُتَفٍ مِنْ هُنَا وهُنَاكَ، أو كَيْفَمَا يُمْلِيْهَا عَلَيْهِ أسْتَاذُهُ (الدُّكْتُوْرُ)، بَلْ لا يَقْرأ القُرْآنَ خِلالَ هَذِهِ السَّنَوَاتِ الخَمْسِ إلَّا في مُحَاضَرَةٍ أو مُحَاضَرَتَيْنِ.

فَإذَا وَصَلَ الطَّالِبُ مِنْهُم إلىٰ مَرْحَلَةِ الحُصُوْلِ علىٰ الشَّهَادَةِ العَالَمِيَّةِ

(المَاجِسْتَيْر أو الدَّكْتُوْرَاه)، دَفَعُوْهُ إلىٰ تَحْقِيْقِ المَخْطُوْطَاتِ، أو الكِتَابَةِ في عَوِيْصِ المَوْضُوْعَاتِ، لكَوْنِهِ دَرَسَ عِنْدَهُم مَنَاهِجَ البَحْثِ والتَّحْقِيْقِ، ومِنْ ثَمَّ يَقُوْمُ هَذَا المِسْكِيْنُ فَيَهْجُمُ علىٰ إحْدَىٰ المَخْطُوْطَاتِ التَّرَاثِيَّةِ لِيُحَقِّقَهَا فَقَطْ، بغَضِّ النَّظَرِ عَنْ قُدُرَاتِهِ العِلْمِيَّةِ أو أهَمِّيَّةِ مَوْضُوْعِ المَخْطُوْطَةِ؛ اللَّهُمَّ إنَّه اسْتَبَقَ أخْذَهَا مِنْ بَيْنَ أقْرَانِهِ، ولاسِيَّمَا وأنَّهَا مِنَ المَخْطُوْطَاتِ الَّتِي تُوَافِقُ خِطَّةَ الجَامِعَةِ، أو لكَوْنِهَا مَرْضِيَّةً عِنْدَ أعْضَاءِ مَجْلِسِ الجَامِعَةِ، لَيْسَ إلَّا.

ثُمَّ يَبْقَىٰ هَذَا المَسْكِيْنُ في تَحْقِيْقِهَا سِنِيْنَ عَدَدًا، وهِيَ في حَقِيْقَتِهَا لا تَتَجَاوَزُ مِئَةَ صَفْحَةٍ تَقْرِيْبًا.

ورُبَّمَا دَفَعُوْهُ إلىٰ البَحْثِ عَنْ مَوْضُوْعٍ مُعْضِلٍ لا قِبَلَ لَهُ بِهِ، اللَّهُمَّ أنَّ مَجْلِسَ الجَامِعَةِ وَافَقَ علىٰ خِطَّتِه، لَيْسَ إلَّا.

فالطَّالِبُ عِنْدَهُم غالبًا لَيْسَ لَهُ مِنَ الأمْرِ شَيءٌ، إلَّا أنَّه يَبْحَثُ عَنْ أيِّ مَخْطُوْطَةٍ، أو أيِّ مَوْضُوْعٍ شَرِيْطَةَ أنَّ يُوَافِقَ عَلَيْهِ مَجْلِسُ الجَامِعَةِ، لا يَبْحَثُ عَنْهُ لكَوْنِهِ يُجِيْدُ الكَلامَ فِيْهِ، أو يُحْسِنُ البَحْثَ عَنْهُ!

وهُنَاكَ لَوْنٌ آخَرُ مِنَ الطَّلَّابِ مِمَّنْ لا يَتَأخَّرُ مِنْ دَفْعِ مَخْطُوْطَتِهِ الَّتِي اخْتَارَهَا إلىٰ رَجُلٍ آخرَ مَأجُوْرٍ لَهُ دِرَايَةٌ ودُرْبَةٌ في التَّحْقِيْقِ؛ كَيْ يَقُوْمَ بتَحْقِيْقِهَا ودِرَاسَتِهَا، ولَوْنٌ آخَرُ أيْضًا وهُوَ أنَّ بَعْضَهُم قَدِ ادَّعَىٰ أنَّه مُحَقِّقٌ مُدَقِّقٌ أو بَاحِثٌ مُحَرِّرٌ، وهُوَ في الحَقِيْقَةِ لم يَكْتُبْ سَوْدَاءَ في بَيْضَاءَ إلَّا بَعْدَ اسْتِشَارَةٍ مِنْ مُشْرِفِهِ أو مِنْ طَالِبِ عِلْمٍ آخَرَ، فَهُوَ لا يَكْتُبُ إلَّا ما أقَرُّوْهُ، ولا يُرَجِّحُ إلَّا مَا رَجَّحُوْهُ، فَلَيْسَ لهَذَا الطَّالِبِ إلَّا القَصُّ واللَّصْقُ وكِتَابَةُ أفْكَارِ غَيْرِهِ، كُلَّ

هَذَا بِحُجَّةِ مُرَاجَعَةِ المُشْرِفِ واسْتِشَارَةِ طُلَّابِ العِلْمِ، ومَا عَلِمَ هَذَا المِسْكِيْنُ أَنَّهُ باسْتِشَارَتِهِ هَذِهِ قَدْ سُلِبَ مِنْ شَخْصِيَّتِهِ العِلْمِيَّةِ، ومِنْ هُوِيَّتِهِ الجَامِعِيَّةِ!

ومَعَ هَذَا؛ فنَحْنُ وغَيْرُنَا يَعْلَمُ يَقِيْنًا أَنَّ طَائِفَةً مِنَ المُحَقِّقِيْنَ والمُؤلِّفِيْنَ مِنْ طُلَّابِ الجَامِعَةِ لَهُم عِلْمُهُمُ الوَاسِعُ، وفَهْمُهُمُ الثَّاقِبُ، وشَخْصِيَّتُهُمُ العِلْمِيَّةُ، لكنَّنا هُنَا نَتَكَلَّمُ عَنْ كَثِيْرٍ مِنْ أَبْنَاءِ عَصْرِنا، والله عَلِيْمٌ بذَاتِ الصُّدُوْرِ!

* * *

❑ الرَّابعُ: كَانَ طَلَبُ العِلْمِ عِنْدَ السَّلَفِ طَرِيْقًا لرِضَا الله تَعَالىٰ والفَوْزِ بالجَنَّةِ، فَكَانُوا لا يَسْأَلُوْنَ أجْرًا، ولا يَنْتَظِرُوْنَ شُكْرًا.

أَمَّا الخَلَفُ: فَقَدْ أَصْبَحَ العِلْمُ عِنْدَ أَكْثَرِهِم طَرِيْقًا للرِّزْقِ والمَعِيْشَةِ، ولا أدَلُّ شَيءٍ علىٰ ذَلِكَ إلَّا الوَاقِعُ المُشَاهَدُ.

حَيْثُ أَصْبَحَتِ أَكْثَرُ الوَظَائِفِ الحُكُوْمِيَّةِ والأهْلِيَّةِ وغَيْرِهَا مُتَوَقِّفَةً علىٰ الشَّهَادَاتِ العِلْمِيَّةِ، وكَذَلِكَ الشَّهَادَاتُ أيْضًا مُتَوَقِّفَةً علىٰ الدِّرَاسَةِ النِّظَامِيَّةِ، فعِنْدَئِذٍ كَانَتِ الدِّرَاسَةُ مَطْلَبًا للرِّزْقِ والمَعِيْشَةِ عِنْدَ أَهْلِ زَمَانِنَا، إلَّا مَا رَحِمَ رَبِّي وقَلِيْلٌ مَا هُم!

* * *

❑ الخَامِسُ: كَانَ العِلْمُ عِنْدَ السَّلَفِ يُوْرِثُ صَاحِبَهُ: صِدْقًا في الأقْوَالِ، وحُسْنًا في الأعْمالِ، وهَيْبَةً تَكْسُوْهُ، ووَرَعًا يَعْلُوْهُ، وتَجَمُّلًا في الطَّلَبِ، وزُهْدًا عَمَّا في أيْدِي النَّاسِ.

أمَّا الخَلَفُ: فَقَدْ كَانَ أكْثَرُ أهْلِ زَمَانِنَا (للأسَفِ!) إنْ لم يُزِدْهُ عِلْمُهُ وَرَعًا زَادَهُ هَلَعًا، وإن لم يُزِدْهُ زُهَدًا زَادَهُ تَرَفًا، وإنْ لم يُطِعِ الله عَصاهُ، وإنْ لم يَعْمَلْ بما عَلِمَ عَمِلَ بِما لم يَعْمَلْ، يُعَسِّرُوْنَ اليَسِيْرَ، ويُضَيِّقُوْنَ ما وَسَّعَهُ الله، تَتَجَارَىٰ بِهِمُ الدُّنْيَا كَما يَتَجارَىٰ الكَلْبُ بصَاحِبِهِ، يَلْهَثُوْنَ وَرَاءَ الدُّنْيَا والدَّرَاهِمِ والدَّنانِيْرِ، يَبِيْعُ أحَدُهُم دِيْنَهُ بثَمَنِ العَنْزِ، تَرَىٰ فَتَاوِيْهِم تُبَاعُ وتُشْتَرَىٰ في سُوْقِ النَّخَاسِيْنَ، فسُوْقُهُم قَائِمَةٌ لمنْ يَبِيْعُ سَمْحًا ويَشْتَرِي مِلْحًا، فَلا تَقْوَىٰ المُؤمِنِيْنَ ولا عُقُوْلَ الجَاهِلِيْنِ!

ومِنْ أشَدِّ ذَلِكَ وأبْغَضُهُ؛ أنَّ ظَاهِرَ بَعْضِهِم المَعْصِيَةُ: مِنْ فِسْقٍ، ومُجَاهَرَةٍ بالمَعَاصِي، إلَّا مَا رَحِمَ الله!

* * *

❑ السَّادِسُ: كَانَتْ مَجَالِسُ العِلْم، وحِلَقُ التَّدْرِيْسِ عِنْدَ السَّلَفِ الصَّالِحِ: لا يَتَصَدَّرُهَا إلَّا أهْلُ العِلْمِ الرَّبَّانِيُّوْنَ، الثِّقَاتُ المأمُوْنُوْنَ، ممَّنْ شُهِدَ لَهُم بالتَّقْوَىٰ والوَرَعِ، وحُسْنِ السِّيْرَةِ والعَقِيْدَةِ.

أمَّا الخَلَفُ: فَأكْثَرُ مَنْ تَصَدَّرَ للعِلْمِ والتَّدْرِيْسِ اليَوْمَ سَوَاءٌ في المَدَارِسِ أو الجَامِعَاتِ أو المَعَاهِدِ: هُمْ أقَلُّ عِلْمًا، وأكْثَرُ جَهْلًا، بَلْ مِنْهُم مَنْ ظَاهِرُهُ المَعْصِيَةُ، وهَكَذَا حَتَّىٰ أمْسَىٰ التَّعَالُمُ والتَّفَيْقُهُ عِنْدَ بَعْضِهِم سِمَةً بَارِزَةً، فإلَىٰ الله المُشْتَكَىٰ!

* * *

❑ السَّابِعُ: كَانَتِ الشَّهَادَاتُ والتَّزْكِيَاتُ العِلْمِيَّةُ عِنْدَ السَّلَفِ تُؤْخَذُ عَنْ

طَرِيْقِ العُلَماءِ الرَّبَّانِيِّيْنَ، فَكَانُوا لا يُزَكُّوْنَ ولا يَشْهَدُوْنَ لأحَدٍ إلَّا مَنْ كَانَ أهْلًا للعِلْمِ والتَعْلِيْمِ.

أمَّا الخَلَفُ: فَكَانَتِ ا الشَّهادَاتُ العِلْمِيَّةُ عِنْدَهُم، لا تُقْبَلُ إلَّا إذَا كَانَتْ عَنْ طَرِيْقِ مُنَاقَشَةٍ عَلَنِيَّةٍ يَتولَّاهَا كُلُّ مَنْ هَبَّ ودَبَّ صَالحًا كَانَ أو فَاسِقًا، وأمَامَ الحَاضِرِيْنَ، وذَلِكَ دَاخِلَ غُرْفَةِ (قَاعَةِ) المُنَاقَشَةِ، مَعَ مَا فِيْهَا مِنْ تَشْهِيرٍ بخَطأ الطَّالِبِ، وتَجْهِيْلٍ بعِلْمِهِ، ومُجَاهَرَةٍ بتَأنِيْبِهِ وعِتَابِهِ، وقَدْ يُخَالِطُ المُنَاقَشَةَ حِدَّةٌ ورُدُوْدٌ جَدَلِيَّةٌ في ألْفَاظِ هَمْزٍ ولَمْزٍ ورُبَّما تَحْقِيْرٍ، ومَهْمَا يَكُنْ مِنْ فَوْضَىٰ في مِثْلِ هَذِهِ المُنَاقَشَةِ إلَّا أنَّ الطَالِبَ (المِسْكِيْنَ) يُوَزِّعُ الابْتَسَامَاتِ ويُهْدِي النَّظَرَاتِ، ويَقْبَلُ العَثَراتِ وسَيءِ العِبَارَاتِ، ومَا ذَاكَ مِنْهُ إلَّا أنَّهُم قَدْ لَقَّنُوْهُ سَالِفًا: أنَّ في السُّكُوْتِ والخُنُوْعِ تَحصِيلًا علىٰ كَبِيْرِ الدَّرَجَاتِ، وعَالي مَرَاتِبِ النَّجَاحِ!

* * *

❑ الثَّامِنُ: أنَّ غَايَةَ عِلْمِ السَّلَفِ كَانَ في العِلْمِ النَّافِعِ، والعَمَلِ الصَّالِحِ.

فَأمَّا عَمَلُهُم فَتَشْهَدُ لَهُ كُتُبُ التَّارِيْخِ والسِّيَرِ والطَّبَقَاتِ في غَيْرِهَا.

أمَّا عِلْمُهُم فَكَانَ غَايَةً في حُسْنِ التَّلَقِّي، وطَلَبِ التَّحْصِيْلِ، وبَرَاعَةِ التَّألِيْفِ والتَّصْنِيْفِ.

أمَّا الخَلَفُ: فَغَايَةُ أكْثَرِ عِلْمِهِم؛ فَفِي تَنْقِيْبِ مَنَاجِمِ المَخْطُوْطَاتِ بَحْثًا ومُبَاحَثَةً وبَيْعًا وشِرَاءً إلَّا مَا رَحِمَ الله، ونَحْنُ مَعَ هَذَا نَشْكُرُ لهُم هَذِهِ التَّحْقِيْقَاتِ للمَخْطُوْطَاتِ العِلْمِيَّةِ، كما أنَّنَا نُنَادِي بتَتَبُّعِهَا وإخْرَاجِهَا

للمُسْلِمِيْنَ، لكِنَّنا في الوَقْتِ نَفْسِهِ نَعْتَبُ علىٰ مَنْ خَرَجَ بِهَذِهِ الجُهُوْدِ العِلْمِيَّةِ في تَحْقِيْقِ المَخْطُوْطَاتِ إلىٰ مَا يَأتي ذِكْرُهُ هُنَا!

يُوَضِّحُهُ؛ أنَّ كَثِيْرًا مِنْ مُحَقِّقِي المَخْطُوْطَاتِ مِنْ أهْلِ زَمَانِنَا إذَا وَجَدَ مَخْطُوْطَةً لم تُطْبَعْ مِنْ قَبْلُ (بغضِّ النَّظَرِ عَنْ أهَمِّيَّتِهَا أو عَنْ قُدْرَتِهِ العِلْمِيَّةِ في تَحْقِيْقِهَا) قَامَ هَذَا المِسْكِيْنُ يَزُفُّ البُشْرَىٰ، ويُنَادِي بتَحْقِيْقِهَا؛ حَتَّىٰ إذَا خَرَجَتْ مَطْبُوْعَةً، ظَنَّ بنَفْسِهِ أنَّه هُوَ الَّذِي ألَّفَهَا، ومَا عَلِمَ أنَّه هُوَ الَّذِي غَلَّفَهَا!

فَعِنْدَهَا يَتَبَنَّاهَا كَما يَتَبَنَّىٰ الرَّجُلُ ابْنَه، لا يَقْبَلُ طَبْعَها، ولا يَسْمَحُ نَسْخَهَا؛ حَتَّىٰ إذَا أخَذَتِ الظُّنُوْنُ مِنْهُ كُلَّ مَأخَذٍ، كَتَبَ علىٰ غِلافِهَا: حُقُوْقُ الطَّبْعِ مَحْفُوْظَةٌ للمُؤلِّفِ، (أي: يَعْنِي نَفْسَهَ)!

إلَّا أنَّنا نَشْكُرُ لهُم هَذَا الوَضْعَ يَوْمَ كَتَبُوا عَلَيْهَا (نِسيَانًا مِنْهُم): حُقُوْقُ الطَّبْعِ، ولم يَكْتُبُوا عَلَيْهَا حُقُوْقُ التَّألِيْفِ!

فالسَّلَفُ يُؤلِّفُوْنَ والخَلَفُ يُغَلِّفُوْنَ، وحِرْصُ السَّلَفِ في النَّفْعِ، وحِرْصُ الخَلَفِ في الطَّبْعِ، وحُقُوْقُ السَّلَفِ مَعْرُوْضَةٌ، وحُقُوْقُ الخَلَفِ مَحْفُوْظَةٌ!

وإنِّي أعْرِفُ الكَثِيْرَ الكَثِيْرَ ممَّنْ هَذَا شَأنُهم ممَّنْ تَسَنَّمُوا مَرَاتِبَ العِلْمِ والتَّدْرِيْسِ في الجَامِعَاتِ وغَيْرِهَا لَيْسَ لهُم مِنَ العِلْمِ إلَّا تَحْقِيْقُ المَخْطُوْطَاتِ، بَلْ مِنْ بَوَاكِي الزَّمَانِ أنَّني كُنْتُ حَرِيْصًا علىٰ اللُّقِيِّ بِبَعْضِهِم ممَّنْ عَرَفْنَاهُم عَنْ طَرِيْقِ تَحْقِيْقِ الكُتُبِ ومُقَابَلَةِ المَخْطُوْطَاتِ، ممَّنْ ذَاعَ اسْمُهُ في عَالَمِ التَّحْقِيْقِ، فلَمَّا شَاءَ الله لي في مُقَابَلَتِهِ، ودَارَ بَيْنَنا بَعْضُ

المُنَاقَشَاتِ العِلْمِيَّةِ، إذْ بي أجِدُ رَجُلًا أقْرَبُ مَا يَكُوْنُ طَالِبَ عِلْمٍ صَغِيْرٍ، مِنْ أنْ يَكُوْنَ ذَاكَ المُحَقِّقُ المُدَقِّقُ!

وإيَّايَ وإيَّاكَ؛ أنْ نَظُنَّ بِهَذَا المِسْكِيْنِ كُلَّ ظَنٍّ؛ بَلْ هُنَاكَ كَثِيْرٌ مِمَّنْ تَصَدَّرَ لتَحْقِيْقِ مَخْطُوْطَاتِ السَّلَفِ العِلْمِيَّةِ سَوَاءٌ في كُتُبِ العَقِيْدَةِ أو الفِقْهِ أو الحَدِيْثِ أو غَيْرِهَا لا يَقِلُّ قَدْرًا وعِلمًا مِنْ هَذَا المِسْكِيْنِ!

أمَّا إذَا سَأَلْتَ عَنْ عَمَلِ أدْعِيَاءِ العِلْمِ مِنْ أهْلِ زَمَانِنَا فَشِيءٌ تَسْتَقِلُّهُ أعْمالُ العَجَائِزِ، وتَلْفِظُهُ عِبَادَةِ بَعْضِ العَامَّةِ، والله المُسْتَعَانُ.

ولي مَعَ هَؤلاءِ الكُتَّابِ بَقِيَّةُ حَدِيْثٍ في طَرَفٍ مِنَ المُنَاصَحَةِ والتَّصْحِيْحِ إنْ شَاءَ الله، تَحْتَ عُنْوَانِ «صِيَانَةِ الكِتَابِ»، أسْألُ الله تَعَالىٰ تَيْسِيْرَهُ، آمِيْنَ!

* * *

❑ **التَّاسِعُ**: كَانَ السَّلَفُ يُؤمِنُوْنَ بأنَّ الله تَعَالىٰ: هُوَ الَّذِي يَرْفَعُ أهْلَ العِلْمِ دَرَجَاتٍ في الدُّنْيَا والآخِرَةِ، وهُوَ الَّذِي يَكْتُبُ القَبُوْلَ لمَنْ يَشَاءُ مِنْهُم، لِذَا كَانَتْ نِيَّاتُهُم مُتَّجِهَةٌ إلىٰ الله تَعَالىٰ لطَلَبِ الإخْلاصِ، فَكَانُوا بعِلْمِهِم في وَادٍ، والألْقَابِ العِلْمِيَّةِ في وَادٍ آخَرَ لا يَجْتَمِعَانِ ولا يَلْتَقِيَانِ، فللَّهِ دَرُّهُم وعلىٰ الله أجْرُهُم!

أمَّا الخَلَفُ: فَقَدْ آمَنَ كَثِيْرٌ مِنْهُم بَأنَّ الشَّهَادَاتِ العِلْمِيَّةَ: هِيَ الَّتِي تَرْفَعُ وتَخْفِضُ، أيًّا كَانَ صَاحِبُ الشَّهَادَةِ، لِذَا نَجِدُهُم لا يَسْتَأخِرُوْنَ سَاعَةً في الحُصُوْلِ عَلَيْهَا، والبَحْثِ عَنْ ألْقَابِها بِكُلِّ مَا يُمْكِنُ، وهَذَا مَا زَيَّنَهُ وزَخْرَفَهُ أرْبَابُ (الفِكْرِ التَّرْبَوِيِّ) في قُلُوْبِ كَثِيرٍ مِنْ أتْبَاعِهِم، ظَنًّا مِنْهُم أنَّ الدَّعْوَةَ

اليَوْمَ تَحتَاجُ إلىٰ مِثْلِ هَذِهِ الألْقَابِ، وأنَّ فِقْهَ الوَاقِعِ يَتَطَلَّبُ ذَلِكَ، وأنَّ القَبُوْلَ أصْبَحَ اليَوْمَ لأهْلِ هَذِهِ الألْقَابِ والشَّارَاتِ، ﴿كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْۚ إِن يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا﴾ [الكهف: ٥].

وَيْكَأنَّ القَوْمَ؛ لَمْ يَنْصُرُوا حَقًّا، ولَمْ يَكْسِرُوا بَاطِلًا: فَلا أمْرٌ بِمَعْرُوْفٍ ولا نَهْيٌ عَنْ مُنْكَرٍ، ولا جِهادٌ ولا اجْتِهادٌ؛ بَلْ رَأيْنا مِنْ بَعْضِهِم مَنْ كَانَ مُجِدًّا فِي الطَّلَبِ والطَّاعَةِ؛ حَتَّىٰ إذا أوْحَىٰ إلَيْه شَيَاطِيْنُ الإنْسِ والجِنِّ بأهَمِّيَةِ هَذِه الشَّارَاتِ والألْقَابِ . . . إذَا بِهِ يُصْبِحُ فَاتِرَ العَزِيْمَةِ، ذَابِلَ الطَّاعَةِ، قَلِيْلَ الاجْتِهَادِ والمُجَاهَدَةِ؛ أمَّا إذا سَألْتَ عَنِ الزُّهْدِ وجَلَدِ الطَّاعَةِ، وهَيْبَةِ أهْلِ العِلْمِ ووَرَعِهِم: فَلا تَسْألْ؟ فتِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خلَتْ، إلَّا مَنْ رَحِمَ رَبِّي، وقَلِيْلٌ مَا هُم!

ونَحْنُ مَعَ هَذَا لا نَقُوْلُ بطَرْحِ هَذِهِ الألْقَابِ والشَّارَاتِ رَأسًا بِكُلِّ مَا فِيْهَا، كَلَّا! بَلْ نَحْنُ وغَيْرُنَا يُنْكِرُ مَا تَرَتَّبَ عَلَيْهَا مِنْ أخْطَاءٍ عِلْمِيَّةٍ وعَمَلِيَّةٍ عِنْدَ كَثِيْرٍ مِنْ طُلَّابِها، والرُّكُوْنَ إلَيْها، ومَا جَرَىٰ عَلَيْهَا مِنْ ظُنُوْنٍ آخِذَةٍ في التَّشَبُّهِ بمَسَالِكِ الغَرْبِ، مَعَ تَعْطِيْلٍ لمَبَاغِي العِلْمِ ممَّا كَانَ عَلَيْهِ أهْلُ العِلْمِ الرَّبَّانِيِّيْنَ مِنْ سَلَفِنَا الصَّالِحُ!

* * *

ومِنَ المُؤْسِفِ بمَكَانٍ أنَّ حَقِيْقَةَ هَذِهِ الألْقَابِ والشَّارَاتِ الَّتي ارْتَمَىٰ عَلَيْهَا ذُبَابُ طَمَعٍ، وفَرَاشُ نَارٍ لَيْسَتْ مِنَ الإسْلامِ في شَيءٍ، بَلْ إنَّ مَرارَةَ الأسَىٰ أنَّ هَذِهِ الألْقَابَ عِنْدَ أهْلِ الغَرْبِ لها دَلالاتٌ تُصادِمُ الشَّرِيْعَةَ الإسْلامِيَّةَ

رَأْسًا، وقَدْ عُلِمَ مَنْ نُصُوْصِ الشَّرِيْعَةِ المُطَهَّرَةِ: أنَّ مِنْ مَبَانِي الإيْمانِ بُغْضُ أهْلِ الشِّرْكِ، وعَدَمُ مُوَالاتِهِم، والبُعْدُ عَنِ التَّشَبُّهِ بأعْدَاءِ الله الكَافِرِيْنَ حَتَّىٰ في الألْفَاظِ، وكَثِيرٌ مِنْ هَذِهِ الألْقَابِ مِنْ هَذَا القَبِيْلِ، وقَدْ أبَانَ جَمْعٌ مِنَ الكُتَّابِ ذَلِكَ.

فَقَدْ أجْمَعَتْ تَفَاسِيْرُ المَعَاجِمِ الأجْنَبِيَّةِ: أنَّ أصْلَ كَلِمَةِ «الدُّكْتُوْرِ» كَنَسِيٌّ كَنَهُوْتِيٌّ؛ حَيْثُ خَرَجَ مِنْ كَنَائِسِ النَّصَارَىٰ ومَعَابِدِ اليَهُوْدِ.

كَما أنَّ مَعْنَاهَا عِنْدَهُم يَدُوْرُ مَا بَيْنَ عَالم الكَنِيْسَةِ، ورِجَالِ الدِّيْنِ، ودِرَاسَةِ اللَّاهُوْتِ، وتَفْسِيْرِ الكُتُبِ المُقَدَّسَةِ (المُحَرَّفَةِ) عِنْدَ اليَهُوْدِ والنَّصَارَىٰ!

ومِنْهُ مَا قَالَهُ علي جَوَادُ في كِتَابِهِ «مَنْهَجِ البَحْثِ الأدبيِّ» (٣٢): كَثِيْرٌ مِنَ الدَّرَجَاتِ لَدَىٰ الغَرْبِيِّيْنَ مِنْ أصْلٍ إغْرِيْقِيٍّ أو لاتِيْنِيٍّ، ثُمَّ تَبَنَّاهَا الاسْتِعْمالُ الدِّيْنِي فَكَانَتْ مِنْ مُصْطَلَحَاتِ الكَنْسِيَةِ ورِجَالِهَا!

فاللِّيْسَانْس تَعْنِي في الأصْلِ: الإجَازَةُ الَّتِي تَمْنَحُ صَاحِبَهَا حَقًّا بأنْ يَكُوْنَ مُحَامِيًا أو مُعَلِّمًا ... ثُمَّ أُطْلِقَتْ علىٰ السَّنَتَيْنِ اللَّتَيْنِ يَمْضِيْهُما خِرِّيْجُ الدِّرَاسَةِ الثَّانَوِيَّةِ في دِرَاسَةِ اللَّاهُوْتِ قَبْلَ أنْ يُقْبَلَ للدَّكْتُوْرَاه علىٰ مَقَاعِدِ الدِّرَاسَةِ.

والدَّكْتُوْرُ في الأصْلِ هُوَ الَّذِي يُعَلِّمُ عَلَنًا، وأطْلَقَهُ اليَهُوْدُ علىٰ الرَّبَّانِي أو (الحَاخَام) العَالمِ بالشَّرِيعَةِ، وأطْلَقَهُ المَسِيْحِيُّوْنَ علىٰ الَّذِي يُفَسِّرُ الكُتُبَ المُقَدَّسَةَ.

ودَخَلَ اللَّقَبُ الجَامِعَاتِ لأوَّلِ مَرَّةٍ بجَامِعَةِ بُوْلُوْنِيا في إيْطَالِيَا في القَرْنِ

الثَّاني عَشَرَ ثُمَّ تَبِعَتْهَا جَامِعَةُ بَارِيْس بَعْدَ قَلِيْلٍ.

وفي عَامِ (٧٤١) جَعَلَتْ جَامِعَةُ بَارِيْسَ أَرْبَعَ كُلِّيَّاتٍ: هِيَ اللَّاهُوْتَ، القَانُوْنَ، الطِّبَّ، الفُنُوْنَ. أي الآدَابَ والعُلُوْمَ. وبَقِيَ اللَّقَبُ في الكُلِّيَّاتِ الثَّلاثِ الأُوْلىٰ دُوْنَ الفُنُوْنِ، ولا يَمْنَحُ إِلَّا بَعْدَ دِرَاسَةٍ صَعْبَةٍ قَاسِيَةٍ تَسْتَغْرِقُ مَا بَيْنَ (٨-١٤) سَنَةً، تَعْقُبُهَا مُنَاقَشَةٌ عَلَنِيَّةٌ يَحْصُلُ الطَّالِبُ فِيْهَا علىٰ إِثْرِ نَجَاحِهِ فِيْهَا الدَّرَجَةَ. شِعَارَ الدَّكْتُوْرَاه. وهِيَ الجُبَّةُ (الرُّوْبُ) والخَاتَمُ والقُبَّعَةُ المُرَبَّعَةُ، ولم يُسْمَحْ لكُلِّيَّةِ الفُنُوْنِ. الآدَابِ والعُلُوْمِ. بلَقَبِ الدُّكْتُوْرِ إِلَّا بَعْدَ الثَّوْرَةِ الفِرَنْسِيَّةِ بمُوْجِبِ مَرْسُوْمِ (١٩/ ١/ ١٢٢٣)، الَّذِي يَنُصُّ علىٰ نِظَامٍ جَدِيْدٍ للدُّكْتُوْرَاه، تُمْنَحُ بمُقْتَضَاهُ في كُلِّيَّةِ الآدَابِ والعُلُوْمِ والقَانُوْنِ والطِّبِّ، ثُمَّ أَلْغَتِ الجَامِعَةُ كُلِّيَّةَ اللَّاهُوْتِ سَنَةَ (١٣٠٢) انْتَهىٰ.

يَقُوْلُ الشَّيْخُ بَكْرٌ أبو زَيْدٍ في «تَغْرِيْبِ الأَلْقَابِ» (٣١٨): «ولَعَلَّهُ بَعْدُ يَتَّضِحُ أَنَّ في اسْتِمْرَارِ هَذَا اللَّفْظِ والاعْتِزَازِ بِهِ ضَرْبًا مِنْ ضُرُوْبِ التَّشَبُّهِ في الظَّاهِرِ، ونَوْعَ رُكُوْنٍ في البَاطِنِ، ولا يَجْمُلُ بالمُسْلِمِ تَكْثِيرُ سَوَادِهِم، وعَنْ أبي ذَرٍّ ﷺ: «مَنْ كَثَّرَ سَوَادَ قَوْمٍ فَهُوَ مِنْهُم» رَوَاهُ أَبُو يَعْلىٰ، وغَيْرُهُ.

وأَقَلُّ مَا في هَذَا الوَجْهِ مِنَ المُحَاكَاةِ أَنَّهُ مِنْ مَظَاهِرِ الذِّلَّةِ والضَّعَةِ وتَبَعِيَّةِ المَغْلُوْبِ للغَالِبِ، والمُسْلِمُ مُطَالَبٌ بالعِزَّةِ والأَنَفَةِ مِنَ التَّبَعِيَّاتِ المَاسِخَةِ المُجَرَّدَةِ مِنَ العَوَائِدِ النَّافِعَةِ!» انتهىٰ.

يَقُوْلُ العَلَّامَةُ الأَدِيْبُ مُحَمَّدُ الخَضِرُ حُسَيْنٍ في «رَسَائِلِ الإِصْلاحِ» (١٤٨): «وأَيْضًا فَإِنَّهُ مِنْ مَبْنَاهُ (دُكْتُوْر) غَرْبِيٌّ مُحْدَثٌ لا يَمُتُّ إِلىٰ اللِّسَانِ

العَرَبِيِّ بِصَلَةٍ: فَهُوَ آتِيٌّ لا أَصلَ لَهُ.

فَفِي إِطْلاقِهِ نَبْذٌ لِلُغَةِ العَرَبِ فِي سَنَنِ كَلامِهَا، ومَنَاحِي لُغَتِهَا، وغَضٌّ مِنْ شَأْنِهَا؛ فَهُوَ إِذًا مِنْ مَوَاطِنِ التَّخْذِيْلِ، والمُسْلِمُ مُطَالَبٌ بِإِحْيَاءِ لُغَةِ القُرْآنِ، وشَدِّ الأُمَّةِ إِلَيْهَا، وتَحْرِيْرِهَا مِمَّا يَشُوْبُهَا، واللُّغَةُ كَما يَقُوْلُ ابنُ جِنِّي: (أَصْوَاتٌ يُعَبَّرُ بِها كُلُّ قَوْمٍ عَنْ أَغْرَاضِهِم)، فَهَلْ نُعَبِّرُ عَنْ أَغْرَاضِنَا بغَيْرِ لُغَتِنَا؟!» انتهىٰ.

ويَقُوْلُ ابنُ تَيْمِيَّةَ رَحِمَهُ اللَّهُ فِي «اقْتِضَاءِ الصِّرَاطِ المُسْتَقِيْمِ» (٢٠٣): «إنَّ اللِّسَانَ العَرَبِيَّ شِعَارُ الإِسْلامِ وأَهْلِهِ، واللُّغَةُ مِنْ أَعْظَمِ شَعَائِرِ الأُمَمِ الَّتِي بِها يَتَمَيَّزُوْنَ».

يَقُوْلُ البَيْرُوْنِيُّ: محمَّدُ بنُ أحمَدَ الخَوَارِزْمِيُّ المُتَوَفَّىٰ سَنَةَ (٤٤٠): «والله لأَنْ أُهْجَىٰ بالعَرَبِيَّةِ أَحبُّ إِليَّ مِنْ أَنْ أُمْدَحَ بالفَارِسِيَّةِ».

* * *

❑ وأَخِيْرًا؛ فَلا يَنْبَغِي لَنَا بحَالٍ أَنْ نَتَعلَّقَ بزُخْرُفِ الأَلْقَابِ؛ فَنُقِيْمَ النَّاسَ علىٰ حَسَبِ أَلْقَابِهِم، فالعِبْرَةُ بجَوْهَرِ الإِنْسَانِ ومَعْنَاهُ لا بزُخْرُفِ لَفْظِهِ ومَبْنَاهُ، وبِهَذَا نَسْلَمُ مِنَ الدُّخُوْلِ فِي قَالَبِ سُجَنَاءِ الأَلْفَاظِ الَّذِيْنَ عَنَاهُم ابنُ القَيِّمِ رَحِمَهُ اللَّهُ فِي «إِعْلامِ المُوَقِّعِيْنَ» (٦/ ٩٧) بقَوْلِهِ: «وأَكْثَرُ النَّاسِ نَظَرُهُم قَاصِرٌ علىٰ الصُّوَرِ لا يَتَجَاوَزُوْنَها إلىٰ الحَقَائِقِ، فَهُم مَحبُوْسُوْنَ فِي سِجْنِ الأَلْفَاظِ، مَقَيَّدُوْنَ بقُيُوْدِ العِبَارَاتِ، كَما قَالَ تَعَالىٰ: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَٰطِينَ ٱلْإِنسِ وَٱلْجِنِّ يُوحِى بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ ٱلْقَوْلِ غُرُورًا وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ﴾ [الأنعام: ١١٢].

ويَقُوْلُ أيْضًا: «وإذَا لاحتِ الحقَائِقُ فكُنْ أسْعَدَ النَّاسِ بِها، وإنْ جَفَاهَا الأغْمَارُ»(١). انْتَهَىٰ.

* * *

وقَالَ الزَّمخْشَرِيُّ في كِتَابِهِ «رَبِيْعِ الأبْرَارِ» (٢/ ٣٨٤): «قَلَّ مِنَ المَشَاهِيْرِ في الجَاهِلِيَّةِ والإسْلامِ مَنْ لَيْسَ لَهُ لَقَبٌ، ولم تَزَلْ في الأمَمِ كُلِّهَا مِنَ العَرَبِ والعَجَمِ تَجْرِي في المُخَاطَبَاتِ والمُكَاتَبَاتِ مِنْ غَيْرِ نكِيرٍ، غَيْرَ أنَّها كَانَتْ تُطْلَقُ علىٰ حَسَبِ اسْتِحْقَاقِ المُوْسُوْمِيْنَ بِها.

وأمَّا مَا اسْتُحْدِثَ مِنْ تَلْقِيْبِ السَّفَلَةِ بالألْقَابِ العِلْمِيَّةِ؛ حَتَّىٰ زَالَ التَّفَاضُلُ، وذَهَبَ التَّفَاوُتُ، وانْقَلَبَتِ الضَّعَةُ والشَّرَفُ، والفَضْلُ والنَّقْصُ، شَرْعًا وَاحِدًا؛ فَمُنْكَرٌ!

وهَبْ أنَّ العُذْرَ مَبْسُوْطٌ في ذَلِكَ، فَما العُذْرُ في تَلْقِيْبِ مَنْ لَيْسَ لَهُ في الدِّيْنِ بقَبِيْلٍ ولا دَبِيرٍ، ولا لَهُ فِيْهِ نَاقَةٌ ولا جَمَلٌ؟ بَلْ هُوَ مُحْتَوٍ علىٰ مَا يُضَادُّ الدِّيْنَ ويُنَافِيْهِ: بجمالِ الدِّيْنِ، وشَرَفِ الإسْلامِ؟!

هِيَ لعَمْرُ الله الغُصَّةُ الَّتِي لا تُسَاغُ، والغُبْنُ الَّذِي يَتَنَاثَرُ الصَّبْرُ دُوْنَهُ، نَسْأَلُ الله إعْزَازَ دِيْنِهِ، وإعْلاءَ كَلِمَتِهِ، وأنْ يُصْلِحَ فَاسِدَنَا، ويُوْقِظَ غَافِلَنَا.

وكَمْ مِنْ أَسَامٍ تَزْدَهِيْكَ بحُسْنِهَا وصَاحِبُهَا فَوْقَ السَّماءِ اسْمُهُ سَمْجُ»

ويَقُوْلُ ابنُ حَزْمٍ رَحِمَهُ اللهُ تَعالىٰ في كِتَابِهِ «نَقْطِ العَرُوْسِ» (٢/ ١٠١):

---

(١) انْظُرْ: «تَغْرِيْبَ الألْقَابِ العِلْمِيَّةِ» لبَكْرِ أبو زَيْدٍ (٣١٨، ٣٣٣).

«وانْخَرَقَ الأمْرُ، واتَّسَعَ ورَذَلَ جِدًّا؛ حَتَّىٰ سُمِّيَ بهَذِهِ الأَسْماءِ في المَشْرِقِ والمَغْرِبِ السَّماسِرَةُ، واللُّصُوْصُ، والأَنْذالُ، ورَذَالاتُ النَّاسِ، وتَطَايَبَ النَّاسُ بذَلِكَ؛ حَتَّىٰ لعَهْدِي بالعَامَّةِ تُسَمِّي رَجُلًا مِنْ أهْلِ قُرْطُبَةَ يُسَمَّىٰ أُسَيْدُ بنُ حَبِيْبٍ «أيَّامَ المُسْتَكْفِي»: أمَلَ الدَّوْلَةِ! لِيُرِيَ الله عِبَادَهُ هَوَانَ مَا تَنَاحَرُوا عَلَيْهِ، وبَاعُوا دِيْنَهُم وأخْلاقَهُم ومَا غَالَوا بِهِ!

وصَحَّ عَنْ رَسُوْلِ الله ﷺ تَحْقِيْقًا علىٰ الله تَعالىٰ: أنْ لا يَرْفَعَ النَّاسُ شَيْئًا إلَّا وَضَعَهُ (الله)، أو كَلامًا هَذَا مَعْنَاهُ.

ولاحَ أنَّ الحَقِيْقَةَ إنَّما: هِيَ العَمَلُ لدَارِ البَقَاءِ والخُلُوْدِ، بِما يُرْضِي الله تَعَالىٰ، والعَدْلُ في البِلادِ، والعَمَلُ بمَكَارِمِ الأخْلاقِ، وحَمْلُ النَّاسِ علىٰ الكِتَابِ والسُّنَّةِ، والاقْتِصَارُ مِنْ حُطَامِ الدُّنْيَا الفَانِي الرَّذِلِ علىٰ مَا لا بُدَّ مِنْهُ، فَهَذَا هُوَ الَّذِي لا يَقْدِرُ عَلَيْهِ سَخِيْفٌ، ولا يُطِيْعُهُ ضَعِيْفٌ، وبِهَذَا يَتَبَيَّنُ فَضْلُ الفَاضِلِ القَوِي علىٰ السَّاقِطِ المُهِيْنِ، لا بَأسْماءٍ يَقْدِرُ علىٰ التَّسَمِّي بِها كُلُّ نَذْلٍ خَسِيْسٍ وَاهِنٍ، ولا بمَلابِسَ لا تَصْلُحُ إلَّا للجَوَارِي، أو بِكُلِّ مَا يَصِحُّ في الكَفِّ مِنْ نَشَبٍ، أو بمَشَارِبَ تُذْهِبُ عَقْلَ شَارِبِها، وتُلْحِقُه بالمَجَانِيْنِ.

ولَقَدْ كَانَتْ دَوْلَةُ عَبْدِ المَلِكِ، وبَنِيْهِ الوَلِيْدِ ويَزِيْدَ وهِشَامِ بنِ عَبْدِ العَزِيْزِ: لا عَضَدَ لهَا ولا عِمادَ ولا لَقَبَ إلَّا أسْماؤهُم وأسْماءُ آبَائِهِم فَقَطْ، وقَدْ طَبَّقَتِ الدُّنْيَا طَاعَةً واسْتِقَامَةً ونَفَاذَ أمْرٍ، وهِيَ الآن أكْثَرُ مَا كَانَتْ أعْضَادًا وعُمَدًا، وقَدْ طَبَّقَتِ الدُّنْيَا خَسَاسَةً وضَعْفًا ومَهَانَةً، ولله الأمْرُ مِنْ قَبْلُ ومِنْ بَعْدُ، وحَسْبُنَا الله، ونِعْمَ الوَكِيْلُ» انْتَهَىٰ.

وفي مِثْلِ هَذَا يُصَوِّرُ لَنَا الشَّاعِرُ أبو عليٍّ الحَسَنُ بنُ رُشَيْقٍ القَيْرَوانيُّ؛ أحْوَالَ الأنْدَلُسِ في عَهْدِ مُلُوْكِ الطَّوَائِفِ، بقَوْلِهِ:

مِمَّا يُزَهِّدُني في أرْضِ أنْدَلُسٍ أسْمَاءُ مُعْتَمِدٍ فِيْهَا ومُعْتَضِدِ
ألْقَابُ مَمْلَكَةٍ في غَيْرِ مَوْضِعَهَا كَالهِرِّ يَحْكِي انْتِفَاخًا صُوْرَةَ الأسَدِ

وكَذَا يَصِفُ لَنَا حَالَ الأنْدَلُسِ أيْضًا ابنُ الخَطِيْبِ؛ بقَوْلِهِ[1]:

حَتَّىٰ إذَا سِلْكُ الخِلافَةِ انْتَثَرْ وذَهَبَ العَيْنُ جَمِيْعًا والأثَرْ
قَامَ بِكُلِّ بُقْعَةٍ مَلِيْكُ وصَاحَ فَوْقَ كُلِّ غُصْنٍ دِيْكُ

* * *

يَقُوْلُ الشَّيْخُ بَكْرٌ أبو زَيْدٍ (٣٢٧): «إذًا فَفِي هَذَا الإطْلاقِ ضُرُوْبٌ مِنَ التَّعَسُّفِ والمُنَاكَدَةِ، وكَسْرِ اعْتِبَارَاتِ المَفَاهِيْمِ السَّلِيْمَةِ، وتَقْلِيْلٍ ضِمْنِي مِنْ شَأنِ هَذِهِ الألْقَابِ القَوِيْمَةِ في مَبْنَاهَا، الدَّقِيْقَةِ فِيْما تَعْنِيْهِ، ومِنْ وَرَاءِ ذَلِكَ فَفِي هَذَا الإطْلاقِ قَضَاءٌ علىٰ هَذَا السَّنَنِ القَوِيْمِ، والمَنْهَجِ السَّلِيْمِ علىٰ المَدَىٰ البَعِيْدِ، ووَاجِبٌ والله علىٰ الأمَّةِ المُحَمَّدِيَّةِ في يَقْظَتِهَا أنْ تُنَابِذَ التَّبِعَاتِ المَاسِخَةَ قَبْلَ انْطِماسِ مَعَالِمِها الشَّرِيْفَةِ في عَيْنِ فِتْنَةِ التَّغْرِيْبِ الحَمِئَةِ» انتهىٰ.

* * *

(١) «حَاشِيَةُ السَّلاوِيِّ علىٰ الاسْتِقْصَا» (٢/ ٣٣).

❑ العَاشِرُ: كَانَ التَّحصِيْلُ العِلْمِيُّ عِنْدَ السَّلَفِ يَأخُذُ بعُلُوْمِ الشَّرْعِ جُمْلَةً وتَفْصِيلًا، مَعَ تَفَاضُلَ ونُبُوْغٍ في فَنٍّ دُوْنَ آخَرَ.

فَهُم لا يَقْبَلُوْنَ في مَعَالِمِ وقَوَاعِدِ وأسُسِ عُلُوْمِ الشَّرِيْعَةِ نَصِيبًا دَانِيًا، ولا تَفَاضُلًا شَائِنًا، بَلْ تَرَاهُم قَدْ أخَذُوا مِنَ العُلُوْمِ الشَّرْعِيَّةِ نَصْيبًا وَافِرًا؛ تَبْرَأ بِهِ الذِّمَمُ، مَعَ تَخَصُّصٍ وتَفَنُّنٍ فِي أحَدِ أو أكْثَرِ العُلُوْمِ الشَّرْعِيَّةِ.

فَقَدْ جَمَعُوا بَيْنَ القَدْرِ الوَاجِبِ مِنَ العُلُوْمِ الشَّرْعِيَّةِ (الغَائِي مِنْها والآلِي)، وبَيْنَ التَّوَسُّعِ والتَّفَنُّنِ فِي عِلْمٍ مَّا.

أمَّا مَا يُسَمَّىٰ: بالتَّخَصُّصِ العِلْمِيِّ (الجَامِعِيِّ) كَما هُوَ عِنْدَ أهْلِ زَمَانِنَا فَلا يَعْرِفُوْنَهُ فَضْلًا أن يُقِرُّوْهُ!

أمَّا الخَلَفُ؛ فَكَانَ التَّحصِيْلُ العِلْمِيُّ عِنْدَهُم يَدُوْرُ في فَلَكِ التَّخَصُّصِ العِلْمِيِّ (الجَامِعِي) غَالِبًا، لَذَا لم يَكُنْ لَدَيْهِم شُمُوْلِيَّةٌ في العُلُوْمِ الشَّرْعِيَّةِ، فَصَاحِبُ التَّخَصُّصِ العِلْمِيِّ اليَوْمَ غَالبًا: هُوَ الَّذِي لا يُحسِنُ مِنَ العُلُوْمِ الشَّرْعِيَّةِ إلَّا فَنًّا أو فَنَّيْنِ مَعَ جَهْلٍ كَبِيْرٍ بسَائِرِ العُلُوْمِ الشَّرْعِيَّةِ الأخْرَىٰ.

أمَّا إذَا سَألْتَ عَنِ التَّخَصُّصِ العِلْمِيِّ (الجَامِعِي)، فهُوَ مِنَ التَّشَبُّهِ المَقِيْتِ والمَوْرُوْثِ العِلْمِيِّ الوَافِدِ، يَوْمَ قَضَتِ الأقْضِيَةُ فِي زَمَانِنا؛ بنُبُوْغِ نَوَابِتَ فِي صُفُوْفِ أهْلِ العِلْمِ قَدْ ألْبَسُوْهُم ثِيَابَ التَّخَصُّصِ، وتَوَّجُوْهُم ألْقَابًا وشَارَاتٍ مُهَلَّلَةً؛ فانْتَفَخُوا فِي العِلْمِ وهُم خَوَاءٌ، ونَابَذُوا التَّعَالُمَ وهُم سَوَاءٌ، يَوْمَ قَصُرَتْ هِمَمُهُم وبَلَغَتْ عُلُوْمُهُم مِنَ العِلْمِ الشَّرْعِيِّ جَوَانِبَ ونُتَفًا عِلْمِيَّةً، حَامِلِيْنَ فِي شَهَادَاتِهِمُ الجَامِعِيَّةِ تَجْزِئَةً وتَقْطِيْعًا لعُلُوْمِ الشَّرِيْعَةِ، وتَغْيِيْبًا لطَائِفَةٍ

مِنْها عَنْ أحْكَامِ فِقْهِ الوَاقِعِ، وقَضَايَا الأمَّةِ المَصِيرِيَّةِ؛ فَلا عِلْمَ بَلَغُوْه، ولا عَمَلَ نَالُوْه، ولا وَاقِعَ فَهِمُوْه!

* * *

ومِنْ بَعْدُ؛ فإنَّ أصْحَابَ التَّخَصُّصِ العِلْمِيِّ (المَذْمُوْمِ) لَمْ يَنْفكُّوا عَنْ أخْطَاءٍ شَرْعِيَّةٍ وآثَارٍ سيِّئَةٍ؛ قَدْ دَفعَتِ الأمَّةَ الإسْلامِيَّةَ (لاسِيَّما هَذِه الأيَّامِ) إلىٰ مَفَاوِزَ مُهْلِكَةٍ، ومَزَالِقَ عِلْمِيَّةٍ، يَكْفِي بَعْضُها لِمَسْخِ مَا بَقِيَ مِنْ تُرَاثِ أمَّتِنا الإسْلامِيَّةِ، فمِنْ ذَلِكَ:

أنَّ التَّخَصُّصَ العِلْمِيَّ الحَادِثَ بِقِسْمَيْهِ (الغَائِي والآلِي)، كَمَا هُوَ جَارٍ فِي خِطَّةِ تَعْلِيْمِ بِلادِ المُسْلِمِيْنَ الآنَ؛ قَدْ أخَذَ مَنْحَىٰ خَطِيْرًا فِي تَقْطِيْعِ أوَاصِرِ التَّرَابُطِ بَيْنَ العُلُوْمِ الشَّرْعِيَّةِ، وتَقْسِيْمِها إلىٰ أجْزَاءٍ عِلْمِيَّةٍ ومُتَفرِّقَاتٍ مُتَنَاثِرَةٍ هُنَا وهُنَاكَ؛ لا يَجْمَعُها جَامِعٌ بَتَّةً؛ فَعِنْدَها كَانَ الأثَرُ السَّيِّئُ عَلَىٰ الحَيَاةِ العِلْمِيَّةِ والأحْكَامِ الشَّرْعِيَّةِ لَدَىٰ طُلابِ العِلْمِ هَذِه الأيَّامِ.

يُوَضِّحُهُ؛ أنَّه لمَّا أقْبلَتِ الفِتَنُ فِي مَسَارِبَ مُهْلِكَةٍ، مُنْقَادَةً لِتُعِيْدَها حَرْبًا صَلِيْبِيَّةً يَهُوْدِيَّةً عَلَىٰ الإسْلامِ والمُسْلِمِيْنَ فِي بِلادِ فِلَسْطِيْنَ وأفْغَانِسْتَانَ والعِرَاقِ وغَيْرِها، وكَذَا مَا هُنَاكَ مِنْ هُجُوْمٍ سَافِرٍ عَلَىٰ أخْلاقِ المُسْلِمِيْنَ، ومَنَاهِجِهِم الشَّرْعِيَّةِ، إلىٰ غَيْرِ ذَلِكَ مِنْ قَضَايا الأمَّةِ العَصْرِيَّةِ . . . ونَحْنُ مَعَ هَذَا كُلِّهِ لَمْ نَزَلْ نَرَىٰ كَثِيْرًا مِنْ أرْبَابِ التَّخَصُّصِ يَعْتَذِرُوْنَ عَنْ تَخَاذُلِهِم وتَرَاجُعِهِم عَنْ عَدَمِ المُشَارَكَةِ فِي الذَّبِّ عَنْ قضايا أمَّتِهِم بِحُجَّةِ النَّزْعَةِ البَائِسَةِ الَّتِي رَاجَتْ فِي سُوْقِ أهْلِ العِلْمِ باسْمِ: التَّخَصُّصِ العِلْمِيِّ!

يُوَضِّحُه: أنَّ الفَقِيْه مِنْهُم (مَثَلًا) مِمَّنْ لَهُ مُجْمُوْعَةٌ مِنَ التَّآلِيْفِ الفِقْهِيَّةِ، والتَّحْقِيْقَاتِ الجَامِعِيَّةِ الَّتِي نَالَتْ مَرْتَبَةَ الشَّرَفِ ... مَا زَالَ يَعْتَذِرُ عَنِ المُشَارَكَةِ فِي قَضَايا أُمَّتِه الإسْلامِيَّة: بأنَّ مَا يَدُوْرُ هُنَا لَيْسَ مِنْ تَخَصُّصِه، وهَذَا مَا نَجِدُه فِي الأعَمِّ الأغْلَبِ مِنْهُم!

هَذَا إذَا عَلِمْتَ (للأسَفِ) أنَّ أمْثَالَ هَذَا الفَقِيْهِ مِنْ أهْلِ زَمَانِنا قَدْ تَجَاوَزَتْ أعْدَادُهُم المِئَاتِ، وقِسْ عَلَىٰ هَذَا: صَاحِبَ العَقِيْدَةِ والتَّفْسِيْرِ والحَدِيْثِ، واللُّغَةِ وغَيْرِهِم.

وهَذَا الصَّنِيْعُ مِنْهُم مِمَّا يَزِيْدُنا يَقِيْنًا بأنَّ التَّخَصُّصَ العِلْمِيَّ: زَغَلٌ فِي العِلْمِ، ودَسِيْسَةٌ فِي الطَّلَبِ، والله المُوَفِّقُ والهَادِي إلىٰ سَوَاءِ السَّبِيْلِ!

* * *

☐ الحَادِي عَشَرَ: للسَّلَفِ في مَدَارِسِهِم مَدَارِجُ عِلْمِيَّةٌ؛ حَيْثُ يَتَلَقَّىٰ الطَّالِبُ عِنْدَهُم العُلُوْمَ الشَّرْعِيَّةَ تَدْرِيْجيًا أوَّلًا بأوَّلٍ: مِثْلُ حِفْظِ القُرْآنِ، ثُمَّ حِفْظِ السُّنَّةِ، ثُمَّ العَقِيْدَةِ والتَّفْسِيْرِ والفِقْهِ، ثُمَّ إتْقَانُ اللُّغَةِ العَرَبِيَّةِ وغَيْرِهَا، مِنْ غَيْرِ الْتِزَامٍ بوَقْتٍ دُوْنَ آخَرَ، بَلْ كَانَ عَلَيْهِم تَحْصِيْلُ العِلْمِ وإتْقَانِهِ قَبْلَ الانْتِقَالِ إلىٰ غَيْرِهِ، وهَكَذَا كَانَتِ العُلُوْمُ عِنْدَهُم مُتَرابِطَةً مُتَماسِكَةً يَأخُذُ بَعْضُهَا برِقَابِ بَعْضٍ في إتْقَانٍ ورُسُوْخٍ وتَأصِيْلٍ.

وقَدْ قِيْلَ: ازْدِحَامُ العُلُوْمِ مَضَلَّةُ الفُهُوْمِ!

أمَّا الخَلَفُ: فَكَانَتِ الدِّراسَةُ عِنْدَهُم مُتَراكِبَةً مُتَزَاحِمَةً، مُلْتَزِمَةً بوَقْتٍ مُعَيَّنٍ مِنَ الحِصَصِ أو الفُصُوْلِ الزَّمَنِيَّةِ، فَعِنْدَئِذٍ لا تَرْتِيْبَ بَيْنَ العُلُوْمِ الشَّرْعِيَّةِ

بعامَّةٍ، مَعَ مَا فِيْهَا مِنْ مُزاحمَةٍ مِنْ بَعْضِ العُلُوْمِ الدُّنْيَوِيَّةِ، ومِنْهُ لا عِلْمًا حَصَّلُوْهُ، ولا فَنًّا أَصَّلُوْهُ!

فالعُلُوْمُ عِنْدَهُم مُتنَاقِضَةٌ مُتَنَافِرَةٌ، ففِي كُلِّ حِصَّةٍ زَمَنِيَّةٍ يَتَلَقَّىٰ الطَّالِبُ عِلْمًا يُنَاقِضُ مَا قَبْلَهُ أو مَا بَعْدَهُ، فَمرَّةً: تَوْحِيْدٌ وبَعْدَهُ تَبْدِيْدٌ، ومَرَّةً: تَحْرِيْمٌ وبَعْدَهُ غِنَاءٌ وتَصْوِيْرٌ، وهَكَذَا في تَنَاقُضٍ وتَنَافُرٍ، ومِنْ وَرَائِه مَا هُوَ أَشَدُّ خَطَرًا وضَرَرًا علىٰ طُلَّابِنَا مِنْ أَبْنَاءِ المُسْلِمِيْنَ، وهُوَ أَنَّ كَثِيْرًا مِنَ القَائِمِيْنَ علىٰ التَّدْرِيْسِ لَيْسُوا مِنْ أَهْلِ الاسْتِقَامَةِ، بَلْ بَعْضُهُم يُخَالِفُ قَوْلُهُ فِعْلَهُ، والمُصِيْبَةُ كُلَّ المُصِيْبَةِ إِذَا كَانَ هَذَا المُعَلِّمُ يُدَرِّسُ عِلْمًا شَرْعِيًّا!

* * *

❑ الثَّاني عشَرَ: مَصَادِرُ التَّلَقِّي عِنْدَ السَّلَفِ للعُلُوْمِ الشَّرْعِيَةِ مُوَحَّدَةٌ، فَهِيَ سَلَفِيَّةٌ أَصِيْلَةٌ، وصَافِيَةٌ نَقِيَّةٌ، لم تَمُدَّهَا مَوَارِدُ نَكِدَةٌ مِنْ أَهْلِ الأَهْوَاءِ والبِدَعِ، ولم تَمَسَّهَا لَوْثَةُ تَغْرِيْبٍ أو أَفْكَارٌ هَجِيْنَةٌ، بَلْ كَانَتْ عُلُوْمُهُم لا تَخْرُجُ عَنِ القُرْآنِ والسُّنَّةِ والإجْمَاعِ والأَثَرِ والقِيَاسِ الصَّحِيْحِ.

فَلَمْ يَكُوْنُوا يُزَاحِمُوْنَ العُلُوْمَ الشَّرْعِيَّةَ بأَيِّ عِلْمٍ آخَرَ، ولَوْ كَانَ ذَا إِفَادَةٍ في ظَاهِرِ عِلْمِ أَهْلِ الدُّنْيَا، مَعَ اعْتِزَازِهِم بالعُلُوْمِ الشَّرْعِيَّةِ، وتَعْظِيْمِهَا وتَقْدِيْمِهَا علىٰ غَيْرِهَا مِنْ عُلُوْمِ أَهْلِ الدُّنْيَا.

أَمَّا الخَلَفُ؛ فَقَدْ تَنَوَّعَتْ واخْتَلَطَتْ مَصَادِرُ التَّلَقِّي عِنْدَهُم؛ حَيْثُ اخْتَلَطَتِ العُلُوْمُ الشَّرْعِيَّةُ بغَيْرِهَا مِنْ عُلُوْمِ الدُّنْيَا لاسِيَّما مَا تَلْفِظُهُ عُلُوْمُ الغَرْبِ الكَافِرِ اليَوْمَ.

فَكَانَتْ عُلُوْمُ أَهْلِ الدُّنْيَا تُزَاحِمُ العُلُوْمَ الشَّرْعِيَّةَ عِنْدَهُم، مَعَ مَا عِنْدَهُم مِنِ انْبِهَارٍ وتَهْوِيْلٍ وتَعْظِيْمٍ لَهَا.

* * *

واعْلَمْ يَا رَعَاكَ الله: أنَّ العِلْمَ مَا جَاءَ عَنِ الكِتَابِ، والسُّنَّةِ، وأصْحَابِ النَّبِيِّ ﷺ، وهَذَا مَا أجْمَعَ عَلَيْه سَلَفُ الأمَّةِ.

وهَذَا قَوْلُ الإمَامُ الأوْزَاعِيِّ رَحِمَهُ اللهُ كَمَا ذَكَرَهُ ابنُ عَبْدِ البَرِّ عَنْهُ في «جَامِعِ بَيَانِ العِلْمِ» (١/ ٦٤٤): «العِلْمُ مَا جَاءَ عَنْ أصْحَابِ مُحَمَّدٍ، ومَا لَمْ يَجِئ عَنْهُم فَلَيْسَ بِعِلْمٍ».

وهَاكَ يا طَالِبَ العِلْمِ هَذِه القَاعِدَةَ السَّلَفِيَّةَ فِي وِزَانِ عُلُوْمِ السَّلَفِ وعُلُوْمِ الخَلَفِ، وهُوَ مَا ذَكَرَهُ شَيْخُ الإسْلامِ ابنُ تَيْمِيَّةَ رَحِمَهُ اللهُ في «مَجْمُوْعِ الفَتَاوَىٰ» (١٠/ ٦٦٤): «العِلْمُ المَوْرُوْثُ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ؛ فإنَّه هُوَ الَّذِي يَسْتَحِقُّ أنْ يُسَمَّىٰ عِلْمًا، وما سِوَاهُ إمَّا أنْ يَكُوْنَ عِلْمًا فَلا يَكُوْنُ نَافِعًا، وإمَّا أنْ لا يَكُوْنَ عِلْمًا وإنْ سُمِّيَ بِه، ولئِنْ كَانَ عِلْمًا نَافِعًا فَلابُدَّ أنْ يَكُوْنَ فِي مِيْرَاثِ مُحَمَّدٍ ﷺ مَا يُغْنِي عَنْه مِمَّا هُوَ مِثْلُه وخَيْرٌ مِنْه!».

وقَالَ أيْضًا في «الاقْتِضَاءِ» (١/ ١٧٢)، في أهَمِيَّةِ مُخَالَفَةِ أعْمَالِ الكُفَّارِ؛ ولَوْ كَانَ فِيْه إتْقَانٌ: «فإذَا المُخَالَفَةُ لَهُم (أيْ مُخَالَفَةُ الكُفَّارِ) فِيْها مَنْفَعَةٌ وصَلاحٌ لَنا فِي كُلِّ أمُوْرِنا؛ حَتَّىٰ مَا هُم عَلَيْه مِنْ اتْقَانِ بَعْضِ أمُوْرِ دُنْيَاهُم؛

قَدْ يَكُوْنُ مُضِرًا بِأمْرِ الآخِرَةِ، أو بِمَا هُوَ أَهَمُّ مِنْهُ مِنْ أَمْرِ الدُّنْيَا، فالمُخَالَفَةُ فِيْه صَلاحٌ لَنَا».

* * *

وقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «**يَتَقَارَبُ الزَّمَانُ، ويَنْقُصُ العِلْمُ، وتَظْهَرُ الفِتَنُ، ويَكْثُرُ الهَرْجُ، قِيْلَ يَا رَسُوْلَ الله: أَيْمُ هُوَ؟ قَالَ: القَتْلُ القَتْلُ**» البُخَارِيُّ.

وفِي هَذَا الحَدِيْثِ نُكْتَةٌ عِلْمِيَّةٌ نَفِيْسَةٌ ذَكَرَها الإِمَامُ الحَافِظُ أَبُو حَاتِمٍ رَحِمَهُ اللهُ في «مُقَدِّمَةِ المَجْرُوْحِيْنِ» (١٢): «فِي هَذَا الخَبَرِ دَلِيْلٌ عَلَىٰ أَنَّ مَا لَمْ يَنْقُصْ مِنَ العِلْمِ لَيْسَ بعِلْمِ الدِّيْنِ فِي الحَقِيْقَةِ، وفِيْه دَلِيْلٌ عَلَىٰ أَنَّ ضِدَّ العِلْمِ يَزِيْدُ، وكُلُّ شَيْءٍ زَادَ مِمَّا لَمْ يَكُنْ مَرْجِعُه إلىٰ الكِتَابِ والسُّنَّةِ فَهُوَ ضِدُّ العِلْمِ» انْتَهَىٰ.

وقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «**مَنْ يُرِدِ الله بِه خَيْرًا يُفَقِّهْهُ في الدِّيْنِ**» مُتَّفَقٌ عَلَيْه.

ومِنْه نَعْلَمُ قَطْعًا؛ أَنَّ كُلَّ عِلْمٍ لَمْ يَكُنْ مِنَ الدِّيْنِ فَلَيْسَ بفِقْهٍ، ومَنِ اشْتَغَلَ بغَيْرِه فَلَيْسَ مِمَّنْ أَرَادَ الله بِه خَيْرًا أَصَالَةً لا حِوالَةً!

لأنَّ الخَيْرَ يَكُوْنُ فِي العُلُوْمِ الشَّرْعِيَّةِ أَصَالَةً، وفِي غَيْرِه مِنَ عُلُوْمِ الدُّنْيا يَكُوْنُ تِبَاعًا إِذَا حَسُنَتِ النِّيَّةُ!

* * *

وعَلَيْه؛ فاعْلَمْ أَنَّ هَذِه العُلُوْمَ الطَّبِيْعِيَّةَ وغَيْرَها مِمَّا هِيَ مِنْ عُلُوْمِ الدُّنْيا

(الطَّبِيْعيَّةِ، الهَيْئَةِ، الرِّياضِيَّةِ، الهَنْدَسَةِ، الطِّبِّ وغَيْرِها) الَّتِي لَمْ تَزَلْ تَزْدَادُ يَوْمًا بَعْدَ يَوْمٍ؛ بأنَّهَا لَيْسَتْ مِنَ العِلْمِ الشَّرْعِيِّ بِشَيْءٍ، كَمَا أنَّه لا يَضُرُّ الجَهْلُ بِها، ولا يَنْفَعُ العِلْمُ بِها، إلَّا ما كان في شأن الدنيا وعمارتها!

يَقُوْلُ ابنُ تَيْمِيَّةَ رَحِمَهُ اللهُ في «مَجْمُوْعِ الفَتَاوَىٰ» (٢٧/ ٣٩٤): «لَكِنَّ المَقْصُوْدَ أنْ يُعْرَفَ أنَّ الصَّحابَةَ خَيْرُ القُرُوْنِ، وأفْضَلُ الخَلْقِ بَعْدَ الأنْبِياءِ.

فَمَا ظَهَرَ (مِنَ العُلُوْمِ) فِيمَنْ بَعْدَهُم مِمَّنْ يَظُنُّ أنَّها فَضِيْلَةٌ للمُتَأخِّرِيْنَ، ولَمْ تَكُنْ فِيْهِم فإنَّها مِنْ الشَّيْطَانِ، وهِي نَقِيْصَةٌ لا فَضِيْلَةٌ سَوَاءٌ كَانَتْ مِنْ جِنْسِ العُلُوْمِ، أو مِنْ جِنْسِ العِبَادَاتِ، أو مِنْ جِنْسِ الخَوَارِقِ والآيَاتِ، أو مِنْ جِنْسِ السِّيَاسَةِ والمُلْكِ؛ بَلْ خَيْرُ النَّاسِ بَعْدَهُم أتْبَعُهُم لَهُم».

وقَالَ أيْضًا رَحِمَهُ اللهُ (٩/ ١٢٦) فِي مَعْرَضِ رَدِّه عَلَىٰ أرْبَابِ العُلُوْمِ الدُّنْيَوِيَّةِ، لاسِيَّما الفَلْسَفَةُ مِنْهَا: «فإنَّ عِلْمَ الحِسَابِ الَّذِي هُوَ عِلْمٌ بالكَمِّ المُنْفَصِلِ، والهَنْدَسَةِ الَّتِي هِيَ عِلْمٌ بالكَمِّ المُتَّصِلِ عِلْمٌ يَقِيْنِيٌّ لا يَحْتَمِلُ النَّقِيْضَ البَتَّةَ: مِثْلُ جَمْعِ الأعْدَادِ وقِسْمَتِها وضَرْبِها، ونِسْبَةِ بَعْضِها إلىٰ بَعْضٍ ... والمَقْصُوْدُ أنَّ هَذا العِلْمَ الَّذِي تَقُوْمُ عَلَيْه بَرَاهِيْنُ صَادِقَةٌ لَكِنْ لا تَكْمُلُ بِذَلِكَ نَفْسٌ، ولا تَنْجُو مِنْ عَذَابٍ، ولا تُنَالُ بِه سَعَادَةٌ» انْتَهَىٰ.

* * *

يَقُوْلُ ابنُ القَيِّمِ رَحِمَهُ اللهُ في «الفَوَائِدِ» (١٦٠) في بَيَانِ أنواعِ العُلُوْمِ: «نَوْعٌ تَكْمُلُ النَّفْسُ بإدْرَاكِهِ والعِلْمِ بِه، وهُوَ العِلْمُ بالله وأسْمَائِه وصِفَاتِه وأفْعَالِه وكُتُبِه وأمْرِه ونَهْيِه.

ونَوْعٌ لا يَحْصُلُ للنَّفْسِ بِه كَمَالٌ: وهُوَ كُلُّ عِلْمٍ لا يَضُرُّ الجَهْلُ بِه، فإنَّه لا يَنْفَعُ العِلْمُ بِها في الآخِرَةِ.

وكَانَ النَّبِيُّ ﷺ يَسْتَعِيْذُ بالله مِنْ عِلْمٍ لا يَنْفَعُ !، وهَذَا حَالُ أكْثَرِ العُلُوْمِ الصَّحِيْحَةِ المُطَابِقَةِ الَّتِي لا يَضُرُّ الجَهْلُ بِها شَيْئًا: كالعِلْمِ بالفَلَكِ ودَقَائِقِه ودَرَجَاتِه، وعَدَدِ الكَوَاكِبِ ومَقَادِيْرِها، والعِلْمِ بعَدَدِ الجِبَالِ وألْوَانِها ومَسَاحَتِها، ونَحْوِ ذَلِكَ، فَشَرَفُ العِلْمِ بِحَسَبِ شَرَفِ مَعْلُوْمِه، وشِدَّةِ الحَاجَةِ إلَيْه، ولَيْسَ ذَاكَ إلاَّ العِلْمُ بالله وتَوَابِعِ ذَلِكَ».

وقَالَ أيْضًا في «مِفْتَاحِ دَارِ السَّعَادَةِ» (٢/ ١٢٢) في مَعْرَضِ الرَّدِّ علَىٰ عُلَمَاءِ الفَلْسَفَةِ: «وإمَّا عِلْمٌ طَبِيْعِيٌّ صَحِيْحٌ غَايتُه مَعْرِفَةُ العَنَاصِرَ، وبَعْضَ خَوَاصِهَا وطَبَائِعِها، ومَعْرِفَةُ بَعْضَ مَا يَتَرَكَّبُ مِنْها ومَا يَسْتَحِيْلُ مِنَ المُوْجِبَاتِ إلَيْها، وبَعْضَ مَا يَقَعُ فِي العَالَمِ مِنَ الآثَارِ بامْتِزَاجِها واخْتِلاطِها ... وأيُّ كَمَالٍ للنَّفْسِ فِي هَذِا؟ وأيُّ سَعَادَةٍ لَهَا فِيْه؟!» انْتَهَىٰ.

* * *

واعْلَمْ يا رَعَاكَ اللهُ، أنَّ العِلْمَ إذا أُطْلِقَ، فإنَّه لا يَصْدُقُ إلاَّ عَلَىٰ العِلْمِ الشَّرْعِيِّ فَضْلًا وكَمَالاً، أجْرًا ومَآلا، عِزًّا وحَالًا !

ومَا سِوَاهُ مِنْ عُلُوْمِ الدُّنْيا؛ فَهِي عُلُوْمٌ مُقَيَّدَةٌ بِمَا تُضَافُ إلَيْه مِنْ: حِرَفٍ ومِهَنٍ وفِكْرٍ ... كعُلُوْمِ الطَّبِيْعَةِ، والفَلَكِ، والهَيْئَةِ، والحِسَابِ، والصِّنَاعَاتِ، والرِّيَاضِيَّاتِ، والهَنْدَسَةِ، والأحْيَاءِ، و(الكِيْمِيَاءِ)،

و(الفِيْزِيَاءِ)، و(الجُغْرَافِيَا)، وعِلْمِ الأرْضِ (الجِيُوْلُوْجِيا)، وعِلْمِ التِّجَارَةِ، وعِلْمِ السِّيَاسَةِ، وكَذَا حِرَفِ النِّجَارَةِ، والفِلاحَةِ، والصِّنَاعَةِ، والحِيَاكَةِ . . . إلخ.

فَعِنْدَ ذَلِكَ؛ كَانَ مِنَ الخَطأ البَيِّنِ رَصْفُ تِلْكَ العَنَاوِيْنِ الرَّابِضَةِ فَوْقَ بَعْضِ الكُتُبِ العِلْمِيَّةِ، والأطَارِيْحِ الجَامِعِيَّةِ كَقَوْلِهِم: العِلْمُ والإيْمَانُ، العِلْمُ والإسْلامُ، الإيْمَانُ مِحْرَابُ الطِّبِّ، الدِّيْنُ والعِلْمُ التَّجرِيْبِيُّ، القُرْآنُ والإعْجَازُ العِلْمِيُّ . . . وغَيْرُها مِمَّا هُوَ مِنْ زَبَدِ العُلُوْمِ الدَّخِيْلَةِ، والانْهِزَامِ الجَاثِمِ عَلَىٰ عُقُوْلِ وأقْلامِ كَثِيْرٍ مِنَ أنْصَارِ (الفِكْرِ التَّرْبَوِيِّ) هَذِه الأيَّامَ!

ومَا ذَاكَ الخَطَأ الدَّارِجُ هُنَا وهُنَاكَ إلاَّ لِكَوْنِ القَوْمِ قَدْ ظَنُّوا بأنَّ العِلْمَ شَيْءٌ، والدِّيْنَ شَيْءٌ آخَرَ، لِذَا نَجِدُهُم يُفَرِّقُوْنَ بَيْنَ الدِّيْنِ والعِلْمِ، ومَا عَلِمُوا أنَّ الدِّيْنَ الإسْلامِيَّ هُوَ العِلْمُ، والعِلْمَ دِيْنٌ؛ فانْظُرُوا عَمَّنْ تَأخُذُوْنَ دِيْنَكُم!

فإنَّ حَالَ هَذِه العُلُوْمِ الدُّنْيَوِيَّةِ؛ بَلْ أكْثَرِ العُلُوْمِ الصَّحِيْحَةِ المُطَابِقَةِ للعَقْلِ والتَّجْرُبَةِ؛ فإنَّه لا يَضُرُّ الجَهْلُ بِها شَيْئًا، كَمَا أنَّه لا يَنْفَعُ العِلْمُ بِها!

وأخْطَرُ مِنْ ذَلِكَ أنَّ كَثِيرًا مِنَ الجَامِعَاتِ والمَدَارِسِ والمَعَاهِدِ الإسْلامِيَّةِ قَدْ فَصَلَتْ بَيْنَ العُلُوْمِ الدِّيْنِيَّةِ والعُلُوْمِ الدُّنْيَوِيَّةِ فَصْلًا مَشِيْنًا؛ حَيْثُ وَصَفَتِ العُلُوْمَ الشَّرْعِيَّةَ الدِّيْنِيَّةَ بأسْماءَ تَغْرِيْبِيَّةٍ: بأنَّها عُلُوْمٌ أدَبِيَّةٌ، أو عُلُوْمٌ إنْسَانِيَّةٌ، أو أحْوَالٌ شَخْصِيَّةٌ، ومَا سِوَاهَا مِنَ العُلُوْمِ الدُّنْيَوِيَّةِ التَّجرِيْبِيَّةِ الطَّبِيْعِيَّةِ: بأنَّها عِلْمِيَّةٌ!

فَأصْبَحَتِ القِسْمَةُ ضِيْزَىٰ هَكَذَا: أقْسَامٌ أدَبِيَّةٌ، وأقْسَامٌ عِلْمِيَّةٌ، وكَذَا

كُلِّيَّاتُ الآدَابِ والعُلُوْمِ الإنْسَانِيَّةِ، وكُلِّيَّاتِ العُلُوْمِ والتِّكْنُلُوْجِيَا، وهَكَذَا في تَشْقِيْقَاتِ مَا أنْزَلَ الله بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ، اللَّهُمَّ تَقْلِيْدٌ لتَنْهِيْجِ الجَامِعَاتِ الأوْرُوبِيَّةِ في مُقَرَّرَاتِهَا الدِّرَاسِيَّةِ، والحَمَلاتِ الصَّلِيْبِيَّةِ الاحْتِلالِيَّةِ في مُخَطَّطَاتِهَا التَّغْرِيْبِيَّةِ.

* * *

ومَهْمَا قِيْلَ؛ فَلَنْ يَتَعَدَّ أصْحَابُ هَذِه العُلُوْمِ الطَّبِيْعِيَّةِ وغَيْرِها (مِمَّا هِيَ مِنْ عُلُوْمِ الدُّنْيا) مَكَانَهُم مِنَ العِلْمِ؛ فَهُم لا يَعْلَمُوْنَ إلاَّ ظَاهِرًا مِنَ الحَيَاةِ الدُّنْيا؛ بَلْ هَذَا مَبْلَغُهُم مِنَ العِلْمِ، كَمَا أنَّها عُلُوْمٌ يَشْتَرِكُ فِيْها كُلُّ إنْسَانٍ وجَانٍّ (المُؤْمِنُ مِنْهُم والكَافِرُ)، ومَعَ هَذَا فَلَيْسَ لَهُم فِيْها مِنْ الأجْرِ شَيْءٌ، اللَّهُمَّ إلاَّ إذا جَعَلُوا مِنْ هَذِه العُلُوْمِ والصِّنَاعَاتِ قُرُباتٍ، بَعْدَ اسْتِحْضَارِ قَصْدٍ ونِيَّاتٍ!

كَنِيَّةِ: التَّعَاوُنِ عَلَىٰ البِرِّ والتَّقْوَىٰ بَيْنَ المُسْلِمِيْنَ، كَمَا يَنْوِيْهِ النَّجَّارُ والفَلاحُ وغَيْرُهُما مِنْ أهْلِ الحِرَفِ والمِهَنِ، و«إنَّمَا الأعْمَالُ بالنِّيَّاتِ، وإنَّما لِكُلِّ امْرِئٍ مَا نَوَىٰ» مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ.

ومَهْمَا يَكُنْ؛ فالأجْرُ والخَيْرُ: فِي العِلْمِ الشَّرْعِيِّ أصْلٌ وغَايَةٌ، وفِي غَيْرِه مِنَ عُلُوْمِ الدُّنْيا طَارِئٌ ووَسِيْلَةٌ!

وهَذَا الذَّهَبِيُّ رَحِمَهُ اللهُ أيْضًا نَجِدُه يُعِيْبُ عِلْمَ النَّحْوِ الَّذِي هُوَ أفْضَلُ وأكْمَلُ مِنْ عُلُوْمِ (القَوْمِ!) لاسِيَّمَا إذَا خَرَجَ عَنْ حَدِّه المَقْصُوْدِ، وذَلِكَ كَمَا جَاءَ في

كِتَابِهِ «زَغَلِ العِلْمِ» (٣٩): «النَّحْوِيُّوْنَ لا بَأسَ بِهِم، وعَلِمُهُم حَسَنٌ مُحْتَاجٌ إلَيْه، لَكِنَّ النَّحْوِيَّ إذا أمْعَنَ فِي العَرَبِيَّةِ، وعَرِيَ عَنْ عِلْمِ الكِتَابِ والسُّنَّةِ بَقِيَ فَارِغًا بَطَّالًا لَعَّابًا، ولا يَسْألُه الله والحَالَةُ هَذِه عَنْ عِلْمِه فِي الآخِرَةِ؛ بَلْ هُوَ كَصِنْعَةٍ مِنَ الصَّنَائِعِ: كالطِّبِّ والحِسَابِ، والهَنْدَسَةِ لا يُثَابُ عَلَيْها، ولا يُعَاقَبُ إذَا لَمْ يَتَكَبَّرْ عَلَىٰ النَّاسِ، ولا يَتَحَامَقْ عَلَيْهِم، واتَّقَىٰ الله تَعَالَىٰ، وتَوَاضَعْ وَصَانَ نَفْسَهُ» انْتَهَىٰ.

وقَالَ ابنُ رَجَبٍ رَحِمَهُ اللهُ في «بَيَانِ فَضْلِ عِلْمِ السَّلَفِ» (٤٩): «وكَذَلِكَ التَّوَسُّعُ في عِلْمِ العَرَبِيَّةِ لُغَةً ونَحْوًا، وهُوَ ممَّا يُشْغِلُ عَنِ العِلْمِ الأهَمِّ، والوُقُوْفُ مَعَهُ يَحْرِمُ عِلْمًا نَافِعًا.

وقَدْ كَرِهَ القَاسِمُ بنُ مُخَيْمِرَةَ عِلْمَ النَّحْوِ، وقَالَ: أوَّلُهُ شُغْلٌ وآخِرُهُ بَغْيٌ، وأرَادَ بِهِ التَّوَسُّعَ فِيْهِ، ولِذَلِكَ كَرِهَ أحمَدُ التَّوَسُّعَ في ذَلِكَ، وقَالَ: هُوَ يُشْغِلُ عَمَّا هُوَ أهَمُّ مِنْهُ.

ولهَذَا يُقَالُ: إنَّ العَرَبِيَّةَ في الكَلامِ كالمِلْحِ في الطَّعَامِ، يَعْنِي: أنَّهُ يُؤخَذُ مِنْهَا مَا يُصْلِحُ الكَلامَ، كَما يُؤخَذُ مِنَ المِلْحِ مَا يُصْلِحُ الطَّعَامَ، ومَا زَادَ علىٰ ذَلِكَ فَإنَّهُ يُفْسِدُهُ» انْتَهَىٰ.

* * *

❑ وأخِيْرًا؛ فَإنَّنا لا نَقُوْلُ بطَرْحِ العُلُوْمِ الدُّنْيَوِيَّةِ (الطَّبِيْعِيَّةِ والتَّجْرِيْبِيَّةِ) جُمْلَةً وتَفْصِيْلًا؛ كَلاَّ!

بَلْ للتَّفْصِيْلِ اعْتِبَارٌ ومَأخَذٌ، فالنَّاسُ حَوْلها طَرَفَانِ ووَسَطٌ، كَما يَلي:

الطَّرَفُ الأوَّلُ: مَنْ أفْرَط فِيهَا إفْرَاطًا أخْرَجَها مِنْ حَدِّهَا ومَنْزِلَتِهَا إلىٰ التَّقْدِيْسِ والغُلُوِّ؛ فَرَفَعَهَا فَوْقَ غَيْرِها مِنَ العُلُوْمِ، لاسِيَّما العُلُوْمِ الشَّرْعِيَّةِ، وأهْلُ هَذَا الطَّرَفِ فِيْهِمْ غُلُوٌّ وإسْرَافٌ مَذْمُوْمَانِ!

الطَّرَفُ الثَّاني: مَنْ عِنْدَهُ تَفْرِيْطٌ وتَقْصِيْرٌ فِيْهَا؛ حَتَّىٰ قَطَعَ بَعْضُهُم بِحُرْمَتِهَا، ومِنْهُم مَنْ صَرَّحَ بخُلُوِّهَا مِنَ الخَيْرِ والفَائِدَةِ رَأْسًا، وأهْلُ هَذَا الطَّرَفِ فِيْهِم تَفْرِيْطٌ وإجْحَافٌ مَذْمُوْمَانِ!

الوَسَطُ: مَنْ قَالَ بأنَّها عُلُوْمٌ مُبَاحَةٌ: فَمِنْهَا مَا هُوَ حَلالٌ مَقْبُوْلٌ، ومِنْهَا مَا هُوَ حَرَامٌ مَرْدُوْدٌ، فَفِيْهَا الخَيْرُ والشَّرُّ كَغَيْرِهَا مِنَ العُلُوْمِ الدُّنْيَوِيَّةِ، والنَّاسُ إلىٰ الخَيْرِ مِنْهَا في حَاجَةٍ وطَلَبٍ، لاسِيَّما في عِمارَةِ الأرْضِ، وصَلاحِ الدِّيْنِ والدُّنْيَا، فَهِي مِنْ بَابِ الوَسَائِلِ، و«للوَسَائِلِ أحْكَامُ المَقَاصِدِ».

وهُمْ مَعَ هَذَا لا يُخْرِجُوْنَها عَنْ حَدِّهَا وحَجْمِهَا، فَلا يَذْهَبُوْنَ بِها إلىٰ الغُلُوِّ ولا إلىٰ التَّفْرِيْطِ، كَما أنَّهم لا يُسَامُوْنَ بِها العُلُوْمَ الشَّرْعِيَّةَ؛ فَضْلًا عَنْ أفْضَلِيَّتِها، فَلَهَا قَدْرُهَا وتَقْدِيْرُهَا، والله أعْلَمُ.

* * *

❑ الثَّالِثَ عَشَرَ: كَانَ السَّلَفُ يُحَذِّرُوْنَ في مَدَارِسِهم وغَيْرِهَا مِنْ كُلِّ لُغَةٍ تُزَاحِمُ اللُّغَةَ العَرَبِيَّةَ، سَوَاءٌ كَانَتْ لُغَةً أجْنَبِيَّةً دَخِيْلَةً علىٰ اللِّسَانِ العَربيِّ، أو لَهْجَةً عَامِّيَّةً، مَعَ السَّعْي الحَثِيْثِ في تَصْحِيْحِ اللَّحْنِ المُتَسَرِّبِ علىٰ ألْسِنَةِ بَعْضِ المُسْلِمِيْنَ ممَّنْ فَسَدَتْ ألْسِنَتُهُم، وهَذَا مَا دَرَجَتْ عَلَيْهِ مَدَارِسُهُم سَلَفًا.

أَمَّا الخَلَفُ: فَقَدَ شَجَّعُوا اللُّغَاتِ الأَجْنَبِيَّةَ، وزَاحَمُوا بِهَا اللُّغَةَ العَرَبِيَّةَ، وهَذَا مَاثِلٌ فِي أَكْثَرِ مَدَارِسِ المُسْلِمِيْنَ اليَوْمَ، فَهُم مَا بَيْنَ مُسْتَكْثِرٍ ومُسْتَقِلٍّ، وحَسْبُكَ اللُّغَةُ الإنْجِلِيْزِيَّةُ الَّتِي أَخَذَتْ فِي لِسَانِ كَثِيْرٍ مِنْ أَبْنَاءِ المُسْلِمِيْنَ لاسِيَّما أَنْصَارِ (الفِكْرِ التَّرْبَوِيِّ) مَأخَذًا لا شَفَاءَ بَعْدَهُ إلَّا أنْ يَسْتَغْفِرُوا الله مِنْهَا فِي كُلِّ مَا يَقُوْلُوْنَ أو يَكْتُبُوْنَ!

يَقُوْلُ ابنُ تَيِّمِيَّةَ رَحِمَهُ اللهُ فِي «مَجْمُوْعِ الفَتَاوَىٰ» (٣٢/ ٢٥٢): «ومَعْلُوْمٌ أَنَّ «تَعَلُّمَ العَرَبِيَّةَ، وتَعْلِيْمَ العَرَبِيَّةِ» فَرْضٌ علىٰ الكِفَايَةِ؛ وكَانَ السَّلَفُ يُؤَدِّبُوْنَ أَوْلادَهُم علىٰ اللَّحْنِ، فَنَحْنُ مَأْمُوْرُوْنَ أَمْرَ إيْجَابٍ، أو أَمْرَ اسْتِحْبَابٍ أَنْ نَحْفَظَ القَانُوْنَ العَرَبيَّ؛ ونُصْلِحَ الأَلْسُنَ المَائِلَةَ عَنْهُ، فَيَحْفَظَ لَنَا طَرِيْقَةَ فَهْمِ الكِتَابِ والسُّنَّةِ، والاقْتِدَاءَ بالعَرَبِ فِي خِطَابِهَا».

وقَالَ أيْضًا: «ومَازَالَ السَّلَفُ يَكْرَهُوْنَ تَغْيِيرَ شَعَائِرِ العَرَبِ؛ حَتَّىٰ فِي المُعَامَلاتِ، وهُوَ «التَّكَلُّمُ بغَيْرِ العَرَبِيَّةِ» إلَّا لحَاجَةٍ؛ كَما نَصَّ علىٰ ذَلِكَ مَالِكٌ، والشَّافِعِيُّ، وأحمَدُ؛ بَلْ قَالَ مَالِكٌ: مَنْ تَكَلَّمَ فِي مَسْجِدِنَا بغَيْرِ العَرَبِيَّةِ أُخْرِجَ مِنْهُ، مَعَ أَنَّ سَائِرَ الأَلْسُنِ يَجُوْزُ النُّطْقُ بِهَا لأَصْحَابِهَا؛ ولَكِنْ سَوَّغُوْهَا للحَاجَةِ، وكَرِهُوْهَا لغَيْرِ الحَاجَةِ، ولحِفْظِ شَعَائِرِ الإسْلامِ؛ فَإنَّ الله أَنْزَلَ كِتَابَهُ باللِّسَانِ العَرَبيِّ، وبَعَثَ بِهِ نَبِيَّهُ العَرَبيَّ، وجَعَلَ أُمَّةَ العَرَبِيَّةِ خَيْرَ الأُمَمِ، فَصَارَ حِفْظُ شِعَارِهِم مِنْ تَمَامِ حِفْظِ الإسْلامِ.

إلىٰ قَوْلِهِ: والَّذِيْنَ يُبَدِّلُوْنَ اللِّسَانَ العَرَبيَّ ويُفْسِدُوْنَهُ، لهُم مِنْهُ هَذَا الذَّمُّ والعِقَابُ بقَدْرِ ما يَفْتَحُوْنَهُ، فَإنَّ صَلاحَ العَقْلِ واللِّسَانِ ممَّا يُؤمَرُ بِهِ الإنْسَانُ،

ويُعِيْنُ علىٰ تمَامِ الإيْمانِ، وضَدُّ ذَلِكَ يُوْجِبُ الشِّقَاقَ والضَّلالَ والخُسْرَانَ، والله أعْلَمُ» انْتَهىٰ.

كَمَا أنَّني ولله الحَمْدُ قَدْ أجْرَيْتُ القَلَمَ في تَدْوِيْنَ صَحَائِفَ بَيْضَاءَ مُبَيِّنًا بِهِ أخْطَاءَ وأخْطَارَ اللَّهَجَاتِ العَامِّيَّةِ لاسِيَّما الشِّعْرُ النَبِطيُّ السَّائِرُ في جَزِيْرَةِ العَرَبِ بِلا وُجْهَةٍ ولا قِبْلَةٍ؛ حَيْثُ تَسَاقَطَ في مَنَاقِعِهِ كَثِيرٌ مِنْ أبْنَاءِ الجَزِيْرَةِ العَرَبِيَّةِ، ممَّا يُرَغِّبُ في مُطالَعَتِهِ تَحتَ عُنْوَانِ: «كَفُّ المُخْطِئ عَنِ الدَّعْوَةِ إلىٰ الشِّعْرِ النَّبَطِي»، وقَدْ خَرَجَ في مُجَلَّدٍ.

* * *

☐ الرَّابعَ عشَرَ: كَانَ السَّلَفُ أبْعَدَ النَّاسِ عَنْ كُلِّ عِلْمٍ دَخِيْلٍ، فَهُمْ مَعَ الكِتَابِ والسُّنَّةِ عِلمًا وعَمَلًا لا يَزِيْدُوْنَ ولا يَسْتَزِيْدُوْنَ، ومَنْ زَادَ فَقَدْ أرْبىٰ، فَحِيْنَئِذٍ لم يَكُنْ للتَّعْرِيْبِ والتَّرجَمَةِ عِنْدَهُم في شَيءٍ يُذْكَرُ، كَما أنَّهُم لم يَلْتَفِتُوا لمَا عِنْدَ الأمَمِ السَّابِقَةِ مِنْ عُلُوْمٍ وفُهُوْمٍ، ولَوْ كَانَ كِتَابًا مُنَزَّلًا قَدْ شَابَهُ التَّحْرِيْفُ!

وقَدْ صَحَّ عَنْهُ ﷺ أنَّ عُمَرَ بنَ الخَطَّابِ أتَىٰ النَّبِيَّ ﷺ بكِتَابٍ أصَابَهُ مِنْ بَعْضِ أهْلِ الكِتَابِ، فَقَرَأهُ النَّبِيُّ ﷺ فَغضِبَ فَقَالَ: «أمُتَهَوِّكُوْنَ فِيْهَا يا ابنَ الخَطَّابِ، والَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَقَدْ جِئْتُكُم بِها بَيْضَاءَ نَقِيَّةً لا تَسْألُوْهُم عَنْ شَيءٍ فيُخْبِرُوْكُم بحَقٍّ فَتُكَذِّبُوا بِهِ أو بباطِلٍ فتُصَدِّقُوا بِهِ، والَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَوْ أنَّ مُوْسَىٰ ﷺ كَانَ حَيًّا مَا وَسِعَهُ إلَّا أنْ يَتَّبِعَنِي» أخْرَجَهُ أحْمَدُ (١٥١٥٦)، ورِجَالُه مَوَثَّقُوْنَ، انْظُرْ «مَجمَعَ الزَّوائِدِ» للهَيْثَمِيِّ (١/ ١٧٤).

أمَّا الخَلَفُ: فَلمَّا طَالَ الأمَدُ بكَثِيْرٍ مِنْهُم، وقَسَتْ قُلُوْبُهُم وانْحَرَفَتْ أَلْسِنَتُهُم قَامُوا كالَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ المسِّ في تَعْرِيْبِ كُتُبِ اليُوْنَانِ والفُرْسِ وغَيْرِهَا ظَنًّا مِنْهُم أنَّ فِيْهَا خَيْرَيْ الدِّيْنِ والدُّنْيَا، فَعِنْدَهَا تَعَرَّبَتْ كُتُبُ اليُوْنَانِ والفَلْسَفَةِ إلىٰ اللُّغَةِ العَرَبِيَّةِ، فَألْقَتْ بعَصَاهَا في أشْيَاعِ (الفِكْرِ التَّرْبَوِيِّ) لتَشُقَّ في اللِّسَانِ العَرَبِيِّ شُقُوْقًا غَائِرَةً، ولتَأخُذَ بألْفَاظِ الشَّرِيْعَةِ مَآخِذَ خَطِيْرَةً؛ لأجْلِ هَذَا كَانَ لَنَا أنْ نَقِفَ مَعَ تَارِيْخِ حَرَكَةِ التَّعْرِيْبِ عِنْدَ المُسْلِمِيْنَ بشَيءٍ مِنَ الاخْتِصَارِ لعُمُوْمِ الفَائِدَةِ، وهُوَ كَذَلِكَ.

* * *

فَكَانَ مِنْ أشَدِّ مَا كَانَ وَقْعًا علىٰ الحَيَاةِ العِلْمِيَّةِ في تَارِيْخِ الإسْلامِ مَا كَانَ مِنْ تَعْرِيْبٍ لعُلُوْمِ الفَلْسَفَةِ اليُوْنَانِيَّةِ والعَقَائِدِ الوَثَنِيَّةِ، الَّتِي عُرِّبَتْ في عَهْدِ الخَلِيْفَةِ المَأمُوْنِ، ثُمَّ أخَذَهَا أهْلُ الكَلامِ، وتَصَرَّفُوا فِيْهَا مِنْ أنْوَاعِ البَاطِلِ في الأمُوْرِ الإلهِيَّةِ مَا ضَلَّ بِهِ كَثِيْرٌ مِنْهُم، وصَارَ النَّاسُ فِيْهَا أشْتَاتًا:

قَوْمٌ قَبِلُوْهَا، وقَوْمٌ يُجِلُّوْنَ مَا فِيْهَا، وقَوْمٌ يَعْرِضُوْنَها علىٰ أُصُولِهِم وقَوَاعِدِهِم، فَيَقْبَلُوْنَ مَا وَافَقَ ذَلِكَ دُوْنَ مَا خَالَفَهُ، وقَوْمٌ يَعْرِضُوْنَها علىٰ مَا جَاءَتْ بِهِ الرُّسُلِ مِنَ الكِتَابِ والحِكْمَةِ[1].

* * *

---

(١) انْظُرْ «بَيَانَ تَلْبِيْسِ الجَهمِيَّةِ» لابنِ تَيْمِيَّةَ (١/ ٣٢٤)، و«الدَّعْوَةَ إلىٰ الله تَعَالىٰ في العَصْرِ العَبَّاسِي» لعَلي مَشَاعِلَ (٢/ ٦١١).

فكَلِمَةُ (الفَلْسَفَةِ) في أصْلِهَا دَخِيْلَةٌ علىٰ اللُّغَةِ العَرَبِيَّةِ، فَهِيَ مَأخُوْذَةٌ مِنَ الكَلِمَةِ اليُونَانِيَّةِ (فَيْلاسُوْفِيَا)، ومَعْنَاهَا: مَحَبَّةُ الحِكْمَةِ أو إيْثَارُهَا.

واسْتِعْمالُ العَرَبِ للفَظْةِ (الفَلْسَفَةِ)، وهِيَ يُونَانِيَّةٌ يُشْعِرُ بأنَّ مَصْدَرَ ا الفَلْسَفَةِ غَرِيْبٌ عَنْهُم(١).

ويَبْدُو أنَّ الفَلاسِفَةَ في الإسْلامِ وَافَقُوا فَلاسِفَةَ اليُوْنَانِ في أنَّ مُهِمَّةَ الفَيْلَسُوْفِ: هِيَ التَّعَرُّفُ علىٰ حَقَائِقِ الوُجُوْدِ، وعِلَلِهِ ومَاهِيَّتِهِ عَنْ طَرِيْقِ العَقْلِ!

فاحْذَرْ أيُّها السُّنِّيُّ السَّلَفِيُّ: كَلامَ الفَلاسِفَةِ: فَهُوَ السُّمُّ الزُّعَافُ، لمَا فِيْهِ مِنْ جِنَايَةٍ علىٰ الشَّرِيْعَةِ الإسْلامِيَّةِ، وعلىٰ مَصَادِرِ التَّلَقِّي عِنْدَ أهْلِ السُّنَّةِ والجَماعَةِ، فَلا تَلْتَفِتْ إلَيْهِ ولا تَفْرَحْ!

* * *

نَعم؛ لَقَدْ كَانَتِ الأمَّةُ العَرَبِيَّةُ أمَّةً أُمِّيَّةً، لا تَتَعَلَّقُ بشَيءٍ مِنَ الصِّنَاعَاتِ والعُلُوْمِ إلَّا قَلِيْلًا، فَلَّما جاءَهَا الإسْلامُ، ودَخَلَ النَّاسُ فِيْهِ أفْوَاجًا اتَّجَهَ المُسْلِمُوْنَ نَحْوَ تَعَلُّمِ دِيْنِهِم، والدَّعْوَةِ إلَيْهِ.

وهَكَذَا؛ حَتَّىٰ انْتَهَتِ الخِلافَةُ الرَّاشِدَةُ، ولَيْسَ عِنْدَهُم مِنَ العُلُوْمِ إلَّا مَا كَانَ مِنْ كِتَابٍ وسُنَّةٍ، وفِيْهِما الخَيْرُ كُلُّهُ، ولم يَكُنْ لَدَيْهِم اهْتِمامٌ بعُلُوْمِ الأمَمِ الأخْرَىٰ وثَقَافَاتِها.

---

(١) «عُيُونُ الأنْبَاءِ في طَبقَاتِ الأطِبَّاءِ» لابنِ أبي أصَيْبِعَةَ (٦٠٤).

وهَكَذَا كَانَتِ الحَالَةُ العِلْمِيَّةُ فَتِيَّةً نَقِيَّةً إلىٰ صَدْرِ الخِلافَةِ الأُمَوِيَّةِ؛ حَتَّىٰ وُجِدَ مِنْ رِجَالِهِم مَنْ عُنِيَ ببَعْضِ الصِّنَاعَاتِ الَّتِي عَرَفَتْهَا الأمَمُ السَّابِقَةُ، فَتَرجَمُوا شَيْئًا مِنْ كُتُبِهَا، وأوَّلُ مَنْ عُرِفَ عَنْهُ ذَلِكَ: خَالِدُ بنُ يَزِيْدَ بنِ مُعَاوِيَةَ المُتَوَفَّىٰ سَنَةَ (٥٨)، الَّذِي كَانَ يُسَمَّىٰ: حَكِيْمُ آلِ مَرْوَانَ، وقَدِ اهْتَمَّ بتَرْجَمَةِ كُتُبِ الصَّنْعَةِ: كالطِّبِّ والكِيْمِيَاءِ دُوْنَ العُلُوْمِ الفَلْسَفِيَّةِ الأخْرَىٰ.

ولمَّا جَاءَتِ الدَّوْلَةُ العَبَّاسِيَّةُ، وكَانَ اخْتِلاطُهَا بالفُرْسِ أكْثَرَ، لأنَّ دَوْلَتَهُم قَامَتْ علىٰ أكْتَافِ المُسْلِمِيْنَ مِنَ المَوَالي والخُرَاسَانِيِّيْنَ، وهَذَا الاخْتِلاطُ جَعَلَ نُفُوْسَ العَبَّاسِيِّيْنَ تَصْبُوا إلىٰ الاطِّلاعِ علىٰ عُلُوْمِ الفُرْسِ واليُوْنَانِ، فَكَانَ أبُو جَعْفَرٍ المَنْصُوْرُ، هُوَ أوَّلُ مَنْ عُنِيَ بِذَلِكَ، واتَّجَهَتْ عِنَايَتُهُ إلىٰ كُتُبِ الطِّبِّ أكْثَرَ مِنْ غَيْرِهَا، وازْدَادَتْ حَرَكَةُ التَّرجَمَةِ في زَمَنِ الخَلِيْفَةِ هَارُوْنَ الرَّشِيْدِ؛ حَيْثُ عُثِرَ علىٰ بَعْضِ كُتُبِ اليُوْنَانِ عِنْدَ فَتْحِ المُسْلِمِيْنَ للمُدُنِ الرُّوْمِيَّةِ: كأنْقَرَةَ وغَيْرِهَا، فَأمَرَ بتَرْجَمَتِهَا، كَما كَانَ للبَرامِكَةِ في عَصْرِهِ جُهُوْدٌ كَبِيْرَةٌ في تَعْرِيْبِ كُتُبِ الأوَائِلِ!

ولمَّا وَلِيَ المَأمُوْنُ الخِلافَةُ اهْتَمَّ بحَرَكَةِ التَّرجَمَةِ مِنَ اللُّغَاتِ الأخْرَىٰ، وبخَاصَّةٍ اليُونَانِيَّةِ والفَارِسِيَّةِ إلىٰ العَرَبِيَّةِ، فَتُرجِمَتِ الكُتُبُ في جَمِيْعِ العُلُوْمِ: في الطِّبِّ والكِيْمِيَاءِ والفَلْسَفَةِ والأخْلاقِ وغَيْرِهَا، بَعْدَ أنْ كَانَتْ مِنْ قَبْلُ قَاصِرَةً علىٰ الطِّبِّ والكِيْمِيَاءِ!

ونَالَتْ كُتُبُ أُرْسُطُو علىٰ اخْتِلافِ فُنُونِها نَصِيبًا كَبِيرًا مِنَ التَّرجَمَةِ، فَتُرْجِمَتْ كُتُبُهُ في الإلهِيَّاتِ والمُغَيَّبَاتِ الَّتِي تَخَبَّطَ العَقْلُ فِيْهَا واخْتَلَطَ حَيْنَ

بَحثَهَا بَعِيْدًا عَنْ عِلْمِ الرُّسُلِ.

* * *

يَقُوْلُ الأسْتَاذُ أبو الحَسَنِ النَّدْوِيُّ ﷺ في كِتَابِهِ «رِجَالِ الفِكْرِ» (١/ ١٦٣): «والحَقُّ أنَّ هَذِهِ البُحُوْثَ في الإلهِيَّاتِ إنَّما هِيَ عِلْمُ الأصْنَامِ عِنْدَ اليُوْنَانِ، ومَا هِيَ إلَّا وَثَنِيَّتُهُم الَّتِي تَرْجَمُوْهَا في لُغَتِهِم الفَلْسَفِيَّةِ، وأضْفُوا عَلَيْهَا صِبْغَةً مِنَ الفَنِّ، ومَا العُقُوْلُ والأفْلاكُ إلَّا رُمُوْزٌ للوَثَنِيَّةِ الإغْرِيْقِيَّةِ القَدِيْمَةِ، ومَا أفْعَالهَا وحَرَكَاتُها وتَصرُّفَاتُها إلَّا عَقَائِدُ تَوَارَثْتَهَا الأجْيَالُ عِنْدَهُم، ووَثَنِيَّةٌ تُعَارِضُ التَّوْحِيْدَ، وتَحِلُّ مَحَلَّ عَقِيْدَةِ الصِّفَاتِ الإلهِيَّةِ» انْتَهَىٰ.

وهَذِهِ الفَلْسَفَةُ المُتَرْجَمَةُ والَّتِي أُعْجِبَ بِها فَرِيْقٌ مِنَ النَّاسِ: هِيَ في حَقِيْقَتِهَا ظُنُوْنٌ وتَخمِيْنَاتٌ وطَلاسِمُ لَفْظِيَّةٌ لا حَقِيْقَةَ لهَا ولا مَعْنَىٰ، ولا وُجُوْدَ لهَا في الخَارِجِ، وقَدْ كَانَتْ أمَّةُ الإسْلامِ غَنِيَّةً بِدِيْنِهَا وأصُوْلِهِ وعُلُوْمِهِ. الَّتِي لا ظَنَّ فِيْهَا ولا تَخْمِيْنَ. عَنْ تِلْكَ العُلُوْمِ الَّتِي هِيَ نَتَاجُ عُقُوْلٍ عَاشَتْ في ظَلامِ الكُفْرِ، وظَلَالِ الوَثَنِيَّةِ.

«ولكِنَّ الَّذِيْنَ بَهَرَتْهُمُ بَرَاعَةُ اليُوْنَانُ في المَنْطِقِ والطَّبِيْعِيَّاتِ والرِّيَاضِيَّاتِ أقْبَلُوا علىٰ هَذِه الفَلْسَفَةِ والإلهِيَّةِ في شَيءٍ مِنَ التَمْجِيْدِ والتَّقْدِيْسِ، وتَلَقَّوْهَا كصَحِيْفَةٍ سَماوِيَّةٍ، كَأَنَّهُم لا عَهْدَ لهُم بالرِّسَالَةِ والبِعْثَةِ المَحمَّدِيَّةِ، وكَأَنَّهُم لَيْسُوا أصْحَابَ كِتَابٍ: ﴿لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ ۖ تَنزِيلٌ مِّنْ

حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾ [فُصِّلَت: ٤٢]، وكَأَنَّهُم أُمَّةٌ جَاهِلِيَّةٌ فَقِيْرَةٌ في المَعَاني الدِّيْنِيَّةِ والحَقَائِقِ الإلهِيَّةِ!»[١].

* * *

ومَهْما كَانَ؛ فَإِنَّ الأُمَّةَ في خُلَفَائِهَا وعُلَمائِهَا كَانُوا حَذِرِيْنَ كُلَّ الحذَرِ مِنْ كُلِّ مَا يُخَالِفُ عَقِيْدَتَهُم وأَخْلاقَهُم وآدَابَهُم، وكُلَّ دَخِيْلٍ وَافِدٍ عَلَيْهِم، ولهَذَا فَقَدْ أعْرَضُوا عَنْ تَرْجَمَةِ كُتُبِ الأُمَمِ السَّابِقَةِ المَحْشُوْرَةِ بالأَسَاطِيْرِ والخُرَافَاتِ الوَثَنِيَّةِ.

وقَدْ كَانَتِ التَّرجَمَةُ قَبْلَ عَصْرِ المَأمُوْنِ مَقْصُوْرَةً علىٰ العُلُوْمِ الطَّبِيْعِيَّةِ والرِّيَاضِيَّةِ والطِّبِّ والكِيمِياءِ، لكِنَّ الإيْغَالَ في التَّبَعِيَّةِ المَاسِخَةِ، والانْهِزَامَ النَّفْسِي كَانَ قَائِدًا بحُجزِ المَأمُوْنِ إلىٰ بُنَيَّاتِ تَرْجَماتِ كُتُبْ اليُونَانِ الإلهِيَّةِ، فالله طَلِيْبُهُ!

نَعَمْ، فَقَدِ اتَّسَعَتْ دَائِرَةُ التَّرْجَمَةِ في عَصْرِ المَأمُوْنِ، فَشَمِلَتْ جَمِيْعَ العُلُوْمِ والآدَابِ؛ حَتَّىٰ الفَلْسَفَةِ المُخْتَصَّةِ بالعَقَائِدِ، والَّتِي أُطْلِقَ عَلَيْهَا: الفَلْسَفَةُ الإلهِيَّةُ، ممَّا أدَّىٰ إلىٰ الابْتِدَاعِ في الدِّيْنِ، وإدْخَالِ نَتَاجِ الفَلاسِفَةِ في مَسَائِلِ العَقِيْدَةِ، فانْحَرَفَ أصْحَابُها عَنْ عَقِيْدَةِ السَّلَفِ الصَّالِحِ، وازْدَادَتِ الخِلافَاتُ بَيْنَ الفِرَقِ الإسْلامِيَّةِ، وقَوِيَ مَذْهَبُ الاعْتِزَالِ، وأيَّدَهُم المَأمُوْنُ في اتِّجاهَاتِهِم العَقْلِيَّةِ وتَأويْلاتِهِم الكَلامِيَّةِ، فَكَشَفُوا القِنَاعَ

---

(١) «الدَّعْوَةُ إلىٰ الله تَعَالىٰ في العَصْرِ العَبَّاسِي» لعَلي مُشَاعِلَ (١/ ١٦٤)، و(٢/ ٦١٤).

للكَلامِ فِيْما كَانَ السَّلَفُ لا يَتجرَّؤوْنَ علَيْهِ، بَلْ يَقِفُوْنَ عِنْدَ حَدِّ التَّسْلِيْمِ لله ﷺ، والتَّصْدِيْقِ بكُلِّ مَا أُخْبِرَ(١).

* * *

قَالَ ابنُ القَيِّمِ رَحِمَهُ اللهُ في «مَدَارِجِ السَّالِكِيْن» (١/ ٨): «لكِنْ عَضَّتْ علىٰ القُلُوْبِ هَذِهِ الأَهْوَاءُ فأَطْفَأَتْ مَصَابِيْحَهَا، وتمَكَّنَتْ مِنْهَا آرَاءُ الرِّجَالِ، فأُغْلِقَتْ أبْوَابُها، وأَضَاعَتْ مَفَاتِيْحَهَا.

واعَجَبًا لهَا! كَيْفَ جَعَلَتْ غِذَاءَهَا مِنْ هَذِهِ الآرَاءِ الَّتِي لا تُسْمِنُ ولا تُغْنِي مِنْ جُوْعٍ، ولم تَقْبَلِ الاغْتِذَاءَ بكُلامِ رَبِّ العَالمِيْنَ، ونُصُوْصِ حَدِيْثِ نَبِيِّهِ المَعْصُوْمِ؟! أَمْ كَيْفَ اهْتَدَتْ في ظُلَمِ الآرَاءِ إلىٰ التَّمْيِيْزِ بيْنَ الخَطَأَ والصَّوَابِ، وخَفِيَ عَلَيْهَا ذَلِكَ في مَطَالِعِ الأَنْوَارِ مِنَ الكِتَابِ والسُّنَّةِ؟!» انتهىٰ.

* * *

وأخِيْرًا فإلىٰ مَا يَقُوْلُهُ حَافِظُ إبْرَاهِيْمُ في مُقَدِّمَةِ كِتَابِ «البُؤسَاءِ» إذْ يَقُوْلُ كَما نَقَلَهُ عَنْهُ المَنْفَلُوْطِيُّ في «مُختَارَاتِهِ» (٦٢) في كَلِمَةٍ لَهُ حَافِلَةٍ في التَّعْرِيْبِ والتَّرجَمَةِ، قَالَ: «وَاهًا لهَذِهِ اللُّغَةِ الَّتِي أصْبَحَتْ بيْنَ أعْجَمِيٍّ يُنَادِي بوَأْدِهَا، وعَرَبِيٍّ يَعْمَلُ علىٰ كَيْدِهَا.

---

(١) «الفِكْرُ السَّامِي في تَارِيْخِ الفِقْه الإسْلامي» لمُحَمَّدِ الحَجَويِّ (٢/ ١١).

ومَنْ نَظَرَ في بُطُوْنِ تِلْكَ الكُتُبِ الَّتِي تُتَرْجَمُ اليَوْمَ رَأَىٰ هَذِهِ الغَادَّةَ الشَّرْقِيَّةَ (اللُّغَةَ العَرَبِيَّةَ)، وهِيَ علىٰ فِرَاشِ مَوْتِها تَنْدُبُ خِدْرًا قَدْ ابْتَذَلَتْهُ الأَقْلامُ، وسِتْرًا قَدْ هَتَكَتْهُ الأَوْهَامُ، وقَدْ فَتَحُوا لهَا في بُطُوْنِ هَذِهِ الكُتُبِ قُبُوْرًا، وخَاطُوا لهَا مِنْ تِلْكَ الصُّحُفِ أَكْفَانًا، وهَيَّئُوا مِنْ هَذِهِ الأَقْلامِ أَعْوَادًا، ومَا هُوَ إِلَّا أَنْ يَثْنِي ذَلِكَ الغَرْبِيُّ بدَعْوَتِهِ؛ حَتَّىٰ يَسْرِعَ إِلىٰ جَنَازَتِها أَهْلُهَا، وذُو قَرَابَتِهَا» انتهىٰ.

* * *

ولِيَعْلَمْ حُمَاةُ الشَّرِيْعَةِ، ودُعَاةُ الإِصْلاحِ و(التَّرْبِيَةِ): أَنَّ التَّارِيْخَ الإِسْلامِيَّ شَاهِدٌ بظُهُوْرِ بَعْضِ المُصْطَلَحَاتِ الوَافِدَةِ، ظَاهِرُهَا الرَّحْمَةُ وبَاطِنُهَا العَذَابُ، لِيَلُوْكَهَا أَبْنَاءُ المُسْلِمِيْنَ اسْتِمْرَاءً واسْتِحْلاءً؛ حَتَّىٰ إِذَا أَخَذَتْ صَفَّهَا ورَصْفَهَا بَيْنَ بَعْضِ الكُتَّابِ وأَغْتَامِ الكَتَاتِيْبِ؛ أَلْبَسُوْهَا شَرِيْعَةَ الإِسْلامِ . . . فَعِنْدَهَا كَانَ التَّحْرِيْفُ والتَّأْوِيْلُ، والتَّغْيِيرُ والتَّعْطِيْلُ، والله المُسْتَعَانُ!

فَكَانَ مِنْ تِلْكُمُ الفَجَائِعِ والوَقَائِعِ مَا تَسَرَّبَ مِنْ أُغْلُوطاتٍ بَائِدَةٍ وتَسَنُّنَاتٍ بَارِدَةٍ في أَقْلامِ بَعْضِ كُتَّابِنَا، وقُلُوْبِ أَبْنَائِنَا مِنْ خِلالِ مُوَاضَعَةِ (الفِكْرِ التَّرْبَوِيِّ) السَّائِمِ في وَادِي تُضُلِّلَ، والرَّابِضِ علىٰ عنَاوِيْنِ أَكْثَرِ كُتُبِ المُسْلِمِيْنَ اليَوْمَ، والمُرَفْرِفِ فَوْقَ أَكْثَرِ مَحَاضِنِ (التَّرْبَوِيِّيْنَ!).

فعِنْدَ ذَلِكَ نَسْتَطِيْعُ تَشْخِيْصَ كَلِمَةِ (التَّرْبِيَةِ) الَّتِي أَخَذتْ تَنْتَشِرُ في فِكْرِ الأُمَّةِ وثَقَافَتِهَا انْتِشَارًا يَزِيْدُنَا خَوْفًا بَعْدَ خَوْفٍ: وهُوَ مَا نَرَاهُ ونَسْمَعُهُ مِنْ أَفْوَاهِ أَنْصَارِ (الفِكْرِ التَّرْبَوِيِّ)، ومِنْ تَحْتِ طَعْنِ أَقْلامِهِم الجَارِحَةِ في صَحَائِفِ

تَارِيْخِنَا العِلْمِيِّ والعَمَليِّ علىٰ حَدٍّ سَوَاءٍ، والله أعْلَمُ.

* * *

❑ ومِنْ آخِرِ نَحسَاتِ أدْعِيَاءِ العِلْمِ الشَّرْعِيِّ هَذِه الأيَّام، أنَّ نَابِتَةً مِنْهُم لَمْ تَزَلْ تَنْفُخُ فِي رَوْعِ شَبَابِ المُسْلِمِيْنَ بَعْضَ العُلُوْمِ التَّجْرِيْبِيَّةِ، الوَافِدَةِ مِنْ مُسْتَنْقَعَاتِ الفِكْرِ الغَرْبِي (الكَافِرِ)، ضَارِبِيْنَ بِعُلُوْمِ وكُتُبِ السَّلَفِ الصَّالِحِ عُرْضَ الحَائِطِ، مُزَاحِمِيْنَ مَا كَانَ عَلَيه المُسْلِمُوْنَ مِنَ الأمْرِ الأوَّلِ: إنَّها العُلُوْمُ الإدَارِيَّةُ، والنَّفْسِيَّةُ (البَرْمَجةُ العَصَبِيَّةُ اللُّغَوِيَّةُ)، وغَيْرُها!

فَلَيْتَ شِعْرِي؛ هَلْ نَسِيَ هُؤلاءِ (المُنْهَزِمُوْنَ) أنَّ الأمَّةَ الإسْلامِيَّةَ هَذِه الأيَّامَ فِي حَالٍ لا يُنَادَىٰ وَلِيْدُها؟ مِنْ جَهْلٍ بِدِيْنِهِم، وتَفَرُّقٍ بَيْنَهُم، وضَعْفٍ لَدَيْهِم...؟! فإنْ كَانُوا عَلَىٰ عِلْمٍ بِهَذا؛ فلِمَاذا هَذِه العُلُوْمُ الدَّخِيْلَةُ الَّتِي تُرَوَّجُ وتُسَوَّقُ بيْنَ شَبَابِ المُسْلِمِيْنَ؛ حتَّىٰ أخَذَتْ (للأسَفِ!) أخَادِيْدَ فِي قُلُوْبِ بَعْضِ طُلابِ العِلْمِ؟!

* * *

قَالَ الله تَعَالَىٰ: ﴿قَالَ أَتَسْتَبْدِلُونَ ٱلَّذِى هُوَ أَدْنَىٰ بِٱلَّذِى هُوَ خَيْرٌ﴾ [البقرة: ٦١]، وقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِٱلْأَخْسَرِينَ أَعْمَٰلًا ۝١٠٣ ٱلَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا﴾ [الكهف: ١٠٣-١٠٤].

وقَالَ عَبْدُ الله بنِ مَسْعُوْدٍ رضي الله عنه: «كَيْفَ أنْتُم إذا لَبِسَتْكُم فِتْنَةٌ يَهْرَمُ فِيْها الكَبِيْرُ، ويَرْبُو فِيْها الصَّغِيْرُ، ويَتَّخِذُها النَّاسُ سُنَّةً، فإذا غُيِّرَتْ قَالُوا: غُيِّرَتِ السُّنَّةُ!

قَالُوا: ومَتَىٰ ذَلِكَ يا أبا عَبْدِ الرَّحْمَنِ؟ قَالَ: إذا كَثُرَتْ قُرَّاؤكُم، وقَلَّتْ فُقَهَاؤُكُم، وكَثُرَتْ أمَرَاؤُكُم، وقَلَّتْ أُمَنَاؤُكُم، والْتُمِسَتِ الدُّنْيا بعَمَلِ الآخِرَةِ» أخْرَجَهُ الدَّارِمِيُّ فِي «مُسْنَدِه» (١٩١)، والحَاكِمُ فِي «المُسْتَدْرَكِ» (٤/ ٥١٤) وهُوَ صَحِيْحٌ.

* * *

❑ فإنِّي أُعِيْذُكَ بالله يا مَنْ تَسْعَىٰ فِي نَشْرِ هَذِه العُلُوْمِ الدَّخِيْلَةِ الهَجِيْنَةِ فِي بِلادِ المُسْلِمِيْنَ، مِمَّا يَلِي:

أوَّلًا: أنْ يَنالَكَ نَصِيبٌ مِنْ قَوْلِه ﷺ: «... **ومَنْ سَنَّ فِي الإسْلامِ سُنَّةً سَيِّئَةً، فَعَلَيْه وِزْرُها ووِزْرُ مَنْ يَعْمَلُ بِها مِنْ غَيْرِ أنْ يَنْقُصَ مِنْ أوْزَارِهِم شَيْئًا**» أخْرَجَهُ مُسْلِمٌ.

وبَعْدَئِذٍ؛ فَلا تَنْسَ يَا رَعَاكَ اللهُ!، مَا فَعَلَه المَأمُوْنُ يَوْمَ عُرِّبَتْ فِي عَهْدِه عُلُوْمُ اليُوْنانِ، والفَلاسِفَةِ مِنَ اليَهُوْدِ والنَّصارَىٰ والهِنْدِ: مِثْلُ الطِّبِّ، والحِسَابِ، والطَّبِيْعَةِ، والهَيْئَةِ، والمَنْطِقِ ... فَلَمَّا دَرَسَها النَّاسُ، وتَنَاقَلُوْها فِيْمَا بَيْنَهُم؛ ظَهَرَتْ بِسَبَبِها البِدَعُ والأهْوَاءُ، وضَلَّ وابْتَعَدَ النَّاسُ عَنْ عِلْمِ النُّبُوَّةِ ... فعِنْدَها كَانَ الضَّلالُ والانْحِرَافُ، والشَّرُّ الكَبِيْرُ، والفَسَادُ العَرِيْضُ!

لأجْلِ هَذا؛ كَانَ عَلَيْكَ أنْ تَقِفَ بِخَوْفِكَ عِنْدَ هَذَا العِلْمِ، لاسِيَّما إذَا عَلِمْتَ أنَّ الَّذِيْنَ ضَلُّوا وأضَلُّوا بِهَذِه العُلُوْمِ الوَافِدَةِ وَقْتَئِذٍ: هُم مِنَ العُلَمَاءِ! فَكَيْفَ والحَالَةُ هَذِه إذا عَلِمَ الجَمِيْعُ أنَّ مُعْظَمَ الَّذِيْنَ يَتَجارُوْنَ وَرَاء هَذِه

العُلُوْمِ النَّكِدَةِ، ويَتَقَاطَرُوْنَ عَلَىٰ دَوْرَاتِها: هُمُ الشَّبَابُ مِنْ أبْنَاءِ المُسْلِمِيْنَ؟ فالله الله فِيْهِم!

ثَانِيًا: لا يَخْفَاكَ يَا رَعَاكَ اللهُ؛ أنَّ الأُمَّةَ بعامَّةٍ تَعِيْشُ هَذِه الأيَّامِ جَهْلًا بدِيْنِها، لِذَا كَانَ الأوْلَىٰ بِنا أنْ نَسْعَىٰ حَثِيْثًا فِي عَوْدَةِ الأُمَّةِ إلىٰ دِيْنِها أوَّلًا، ثُمَّ إذا كَانَ فِي الأمْرِ مُتَّسَعٌ فَعِنْدَئِذٍ يَكُوْنُ للكَلامِ فِي مِثْلِ هَذِه العُلُوْمِ الوَافِدَةِ شَيْءٌ مِنَ البَسْطِ والتَّحْرِيْرِ!

فَكُلُّ يَدٍ مُدَّتْ إلَىٰ هَذِه العُلُوْمِ الوَافِدَةِ لِتَنْبُشَها بَعْدَ أنْ أُقْبِرَتْ، وأصْبَحَتْ عِظَامًا نَخِرَةً، فَلَيْسَ لَها أنْ تُرَوِّجَها بَيْنَ أبْنَاءِ المُسْلِمِيْنَ، ظَنًّا مِنْها أنَّ الأسْمَاعَ فِي صَمَمٍ، وأنَّ العُيُوْنَ فِي سُباتٍ، وأنَّ الأقْلامَ والأنَامِلَ لا تَجْتَمِعَانِ؟!

ثَالِثًا: ألَمْ يَأْنِ لَنا أنْ تَخْشَعَ قُلُوْبُنا لِمَا يَذْكُرُه أهْلُ هَذِه العُلُوْمِ التَّجْرِيْبِيَّةِ مِنَ الغَرْبِ والشَّرْقِ عَلَىٰ حَدٍّ سَوَاءٍ؟ فَلَمْ يَزَلْ عُقَلاؤُهُم حتَّىٰ سَاعَتِي هَذِه وهُم يَصِيْحُونَ بِخُطُوْرَةِ هَذِه العُلُوْمِ فِي غَيْرِ نَدْوَةٍ، أو لِقَاءٍ، أو دَوْرَةٍ تَدْرِيْبِيَّةٍ!

* * *

❑ **الخَامِسَ عَشَرَ**: كَانَ السَّلَفُ أهْلَ رِحْلَةٍ وتِجْوَالٍ للبَحْثِ عَنِ العِلْمِ الشَّرعِيِّ وتَقْيِيْدِهِ، لِذَا فَقَدْ تَنَافَسُوا في الرِّحْلَةِ لطَلَبِ عُلُوِّ الإسْنَادِ، وشَرَفِ اللُّقِيِّ، وبَرَكَةِ أخْذِ العِلْمِ عَنِ لأشْيَاخِ الأثْبَاتِ في العِلْمِ والدَّعْوَةِ، ولهُم في هَذِهِ الرَّحلاتِ قِصَصٌ عَجِيْبَةٌ، وتَوَارِيْخُ مُشَرِّفَةٌ، ومَنْ أرَادَ أنْ يَقِفَ عَلَيْها فلْيَنْظُرْهَا في كُتُبِ السِّيَرِ والتَّراجِمِ والطِّباقِ، وكَذَا قَدْ جَاءَ أكْثَرُهَا في الكِتَابِ

العُجابِ»الرِّحْلَةُ في طَلَبِ الحَدِيْثِ«للخَطِيْبِ البَغْدَادِيِّ رَحِمَهُ اللَّهُ (٤٦٣)، وفي غَيْرِهِ مِنْ جَادَّةِ هَذِهِ الكُتُبِ المَعْنِيَّةِ.

وقَدْ مَرَّ مَعَنَا في الفَصْلِ السَّابِقِ تَارِيْخُ ومَوَاطِنُ المَدَارِسِ الإسْلامِيَّةِ، وشَيءٌ مِنْ ذِكْرِ أعْلامِهَا ومَشَاهِيْرِهَا مِنْ أهْلِ العِلْمِ والدَّعْوَةِ، وكَيْفَ كَانَتْ هِمَمُهُم في الرِّحْلَةِ والتَّلَقِّي واللُّقِي والمُجاهَدَةِ والمُدَارَسَةِ وغَيْرِ ذَلِكَ.

ومَنَ نَظَرَ في سِيَرِ أهْلِ العِلْمِ مِنْ سَلَفِنَا الصَّالِحِ عَلِمَ يَقِيْنًا أنَّ القَوْمَ لم يَخْرُجُوا لَحْظَةً وَاحِدَةً عِنْدَ أخْذِهِم للعِلْمِ عَنْ بِلادِ المُسْلِمِيْنَ، ولم تُخْطِ أقْدَامُهُم مَدَارِسَ المُسْلِمِيْنَ شَرْقًا أو غَرْبًا، بَلْ لا يُؤثَرُ أنَّ أحَدَهُم (وحَاشَاهُم!) أنَّهُ رَحَلَ إلىٰ بِلادِ الكُفْرِ لطَلَبِ العِلْمِ وأخْذِ المُدَارَسَةِ، وهَذَا مِنْهُم إجْمَاعٌ قَوْلِيٌّ وعَمَلِيٌّ لم يُخَالِفُ فِيْهِ إلَّا طُلَّابُ عَصْرِنَا كَما سَيَأتِي.

أمَّا الخَلَفُ: فَكَانَتْ عِنْدَهُم الرِّحْلَةُ مُشَرِّقَةً مُغَرِّبَةً إلىٰ غَيْرِ وُجْهَةٍ سَوَاءٌ كَانَتْ نَافِعَةً أو ضَارَّةً، صَحِيْحَةً أو بَاطِلَةً؛ بَلْ تَجَاسَرَ كَثِيْرٌ مِنْ أدْعِيَاءِ العِلْمِ هَذِهِ الأيَّامِ علىٰ الرِّحْلَةِ إلىٰ بِلادِ الكُفْرِ والفُجُوْرِ، وذَلِكَ تَحْتَ مُسَمَّيَاتِ: الابْتِعَاثَاتِ والإرْسَالِيَّاتِ الأجْنَبِيَّةِ إلىٰ بِلادِ الكُفْرِ، أو تَحْتَ مَا يُسَمَّىٰ: بالمَدَارِسِ الأجْنَبِيَّةِ الَّتِي أنْشِئَتْ دَاخِلَ بِلادِ المُسْلِمِيْنَ، فالله المُسْتَعَانُ!

ومِنْ هُنَا فَقَدْ فَتَحَ كَثِيْرٌ مِنْ حُكَّامِ المُسْلِمِيْنَ البَابَ علىٰ مِصْرَاعَيْهِ للمَدَارِسِ الأجْنَبِيَّةِ لتَعْثُوا فَسَادًا في هُوِيَّةِ بِلادِهِم وأخْلاقِ أبْنَائِهِم، ومَا عَلِمُوا أنَّ حَقِيْقَةَ هَذِهِ المَدَارِسِ الأجْنَبِيَّةِ: أنَّها مَدَارِسُ تَنْصِيْرِيَّةٌ تَغْرِيْبِيَّةٌ، مَاسِخَةٌ قَاضِيَةٌ علىٰ الدِّيْنِ والأخْلاقِ، وأنَّها عَيْنٌ جَاسُوْسِيَّةٌ، وعَمالَةٌ مَفْضُوْحَةٌ، ومَعَاوِلُ

هَدْمٍ خَطِيْرَةٍ تَنْخُرُ في البِلادِ والعِبَادِ!

وأسْوَأ مِنْ هَذَا، تَشْجيعُ بَعْضِهِم لأبْنَاءِ المُسْلِمِيْنَ علىٰ الابْتِعَاثَاتِ والإرْسَالِيَّاتِ إلىٰ بِلادِ الكُفْرِ، وتَسْهِيْلُ سَفَرِهِم، ووَضْعُ الحَوَافِزِ والجَوَائِزِ، وبَذْلُ الأمْوَالِ السَّخِيَّةِ لمُرِيْدِي الابْتِعَاثِ إلىٰ بِلادِ الكُفْرِ، تَحْتَ دَعْوَىٰ الاسْتِفَادَةِ مِنْ عُلُوْمِ الغَرْبِ (زَعَمُوا!).

ومِنْ أسْوَئِهَا خَطَرًا وأكْبَرِهَا شَرًّا، فَتْحُ الابْتِعَاثِ لبَنَاتِ المُسْلِمِيْنَ العَفِيْفَاتِ إلىٰ بِلادِ الكُفْرِ والفُجُوْرِ، فلَكُمُ الله يَا أهْلَ الغِيْرَةِ!

وقَدْ أجْمَعَ أهْلُ العِلْمِ في جَمِيْعِ بِلادِ المُسْلِمِيْنَ علىٰ تَحْرِيْمِ هَذِهِ الابْتِعَاثَاتِ والإرْسَالِيَّاتِ لأبْنَاءِ المُسْلِمِيْنَ، كَما أجْمَعُوا علىٰ تَحْرِيْمِ فَتْحِ هَذِهِ المَدَارِسِ الأجْنَبِيَّةِ في بِلادِ المُسْلِمِيْنَ، وقَدْ صَدَرَتْ في هَذَا الشَّأنِ الفَتَاوِي والبَيَانَاتُ والرَّسَائِلُ والكُتُبُ العِلْمِيَّةُ مِنَ آحَادِ العُلَماءِ وطُلَّابِ العِلْمِ، ومِنْ الهَيْئَاتِ والمَجَامِيْعِ والمُؤسَّسَاتِ العِلْمِيَّةِ والخَيْرِيَّةِ وغَيْرِهَا مِنَ الرَّسَائِلِ القَاطِعَةِ بتَحْرِيْمِ هَذِهِ البِعْثَاتِ المَفْتُوْحَةِ بلا قَيْدٍ أو ضَابِطٍ، وهَذِهِ المَدَارِسِ الأجْنَبِيَّةِ.

كَما أطْبَقَ عَامَّةُ عُقَلاءِ المُسْلِمِيْنَ أنَّ أكْثَرَ الانْحِرَافَاتِ العَقَدِيَّةِ والأخْلاقِيَّةِ، وأنَّ أكْثَرَ الشُّرُوْرِ والفَسَادِ الَّذِي مُنِيَتْ مِنْهُ الأمَّةُ الإسْلامِيَّةُ مُؤَخَّرًا كَانَ علىٰ أيْدِي أبْنَائِهَا الَّذِيْنَ أخَذَتْهُم مَوْجَاتُ التَّغْرِيْبِ في بِعْثَاتِهِم إلىٰ بِلادِ الكُفْرِ، أو تَعْلِيْمِهِم في المَدَارِسِ الأجْنَبِيَّةِ، وهَذَا ممَّا هُوَ مَعْلُوْمٌ للقَاصِي والدَّاني، والمَعْصُوْمُ مَنْ حَفِظَهُ الله، وقَلِيْلٌ مَا هُم!

وهُنَا كِتَابَانِ مُهِمَّانِ في بَيَانِ خَطَرِ هَذِهِ المَدَارِسِ الأَجْنَبِيَّةِ، أَوْصِي بِقِرَاءتِهِما لمَنْ أَلْقَىٰ السَّمْعَ وهُوَ شَهِيْدٌ، وهُمَا: «المَدَارِسُ العَالمِيَّةُ الأَجْنَبِيَّةُ» لشَيْخِنَا بَكْرِ أَبُو زَيْدٍ رَحِمَهُ اللَّهُ، و«المَدَارِسُ الأَجْنَبِيَّةُ في الخَلِيْجِ» للشَّيْخِ عَبْدِ العَزِيْزِ البَداحِ.

* * *

❑ السَّادِسَ عَشَرَ: كَانَ السَّلَفُ في مَدَارِسِهِم وخَارِجِهَا أَبْعَدَ النَّاسِ عَنِ الفَسَادِ العَرِيْضِ، لاسِيَّما الاخْتِلاطِ المُحَرَّمِ بَيْنَ الرِّجَالِ والنِّسَاءِ.

أَمَّا الخَلَفُ: فَقَدِ اسْتَهَانَ كَثِيرٌ مِنْهُم في قَضِيَّةِ الاخْتِلاطِ المُحَرَّمِ، فَتَجِدُ كَثِيرًا مِنْ مَدَارِسِ الخَلَفِ اليَوْمَ (للأَسَفِ!) لا تَتَأَخَّرُ في اخْتِلاطِ الرِّجَالِ بالنِّسَاءِ، سَوَاءٌ كَانَ ذَلِكَ بَيْنَ المُدَرِّسِيْنَ والمُدَرِّسَاتِ، أو بَيْنَ الطُّلَّابِ والطَّالِبَاتِ!

بَلْ مِنْ مَخَازِي أَكْثَرِ مَدَارِسِ بِلادِ المُسْلِمِيْنَ اليَوْمَ: أَنَّك تَجِدُ الرَّجُلَ مِنْهُم يُدَرِّسُ الطَّالِبَاتِ وهُنَّ كَاشِفَاتٍ سَافِرَاتٍ، وكَذَا المَرْأَةُ السَّافِرَةُ مِنْهُنَّ تُدَرِّسُ الرِّجَالَ، ولَيْسَتْ عَنَّا الجَامِعَاتُ والمَعَاهِدُ والمَدَارِسُ العِلْمِيَّةُ مِنْهَا والطِّبِّيَّةِ بِبَعِيْدٍ، والله المُسْتَعَانُ!

* * *

❑ السَّابِعَ عَشَرَ: كَانَ السَّلَفُ في تَشْجِيْعِهِم لطُلَّابِ العِلْمِ، ورَفْعِ هِمَمِهِم مِنْ أَبْعَدِ النَّاسِ عَنِ التَّصْفِيْقِ والتَّصْفِيْرِ ممَّا هُوَ مِنْ عَادَاتِ أَهْلِ الجَاهِلِيَّةِ الأُوْلَىٰ، ومِنْ عَادَاتِ النِّسَاءِ وشَأْنِهِم، بَلْ كَانُوا إذَا رَأَوا خَيْرًا أو جَاءتْهُم

البُشْرَىٰ كَبَّرُوا الله، وسَبَّحُوْهُ، لَيْسَ إلَّا، ومَنْ قَرأَ تَارِيْخَهُم عَلِمَ حَقِيْقَةَ ذَلِكَ دُوْنَ شَكٍّ أو رَيْبٍ.

يُوَضِّحُهُ: أنَّه مِنْ خِلَالِ هَذَا التَّتَبُّعِ والاسْتِقْرَاءِ لم يُؤْثَرْ أنَّ أحَدًا مِنَ الصَّحَابَةِ أو أهْلِ العِلْمِ المُعْتَبرِيْنَ صَفَّقَ أو صَفَّرَ، ويَدُلُّ علىٰ ذَلِكَ:

مَا صَحَّ عَنْهُ ﷺ كَمَا جَاءَ في الصَّحِيْحَيْنِ مِنْ حَدِيْثِ سَهْلِ بنِ سَعْدٍ رضي الله عنه أنَّ رَسُوْلَ الله ﷺ ذَهَبَ إلىٰ بَنِي عَمْرِو بنِ عَوْفٍ لِيُصْلِحَ بَيْنَهُم؛ فَحَانَتِ الصَّلاةُ؛ فَصَلَّىٰ أبُو بَكْرٍ بالنَّاسِ، فَجَاءَ رَسُوْلُ الله ﷺ، وهُم في الصَّلاةِ فَصَفَّقَ النَّاسُ، وأكْثَرُوا مِنَ التَّصْفِيْقِ، حَتَّىٰ الْتَفَتَ أبو بَكْرٍ، فَرَأىٰ النَّبيَّ ﷺ؛ فتَأخَّرَ وتَقَدَّمَ النَّبيُّ ﷺ . . . ثُمَّ قَالَ النَّبيُّ ﷺ: **«مَا لِي أرَاكُم أكْثَرْتُم مِنَ التَّصْفِيْقِ؟! مَنْ نَابَهُ شَيءٌ في صَلاتِهِ؛ فلْيُسَبِّحْ فَإنَّهُ إذَا سَبَّحَ الْتُفِتَ إلَيْهِ، وإنَّمَا التَّصْفِيْقُ للنِّسَاءِ»**.

وكَذَا مَا أخْرَجَهُ البُخَارِيُّ وغَيْرُهُ عَنْ أبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أنَّهُ قَالَ: **«التَّسْبِيْحُ لِلرِّجَالِ، والتَّصْفِيقُ للنِّسَاءِ»**.

فَهَؤُلَاءِ شُرَّاحُ الحَدِيثِ كَافَّةً نَجِدُهُم يَجْعَلُونَ التَّصْفِيقَ مِنْ خَصَائِصِ النِّسَاءِ فِي الصَّلَاةِ، كَمَا هُوَ ظَاهِرُ الأحَادِيْثِ.

لِهَذَا قَالَ الإمَامُ البَغَوِيُّ رحمه الله فِي «شَرْحِ السُّنَّةِ» (٣/ ٢٧٤): «وَمِنْهَا أنَّ التَّصْفِيقَ سُنَّةُ النِّسَاءِ فِي الصَّلَاةِ إذَا نَابَ واحِدَةً مِنْهُنَّ شَيْءٌ فِي الصَّلَاةِ، وهُوَ أنْ تَضْرِبَ بِظُهُورِ أصَابِعِ اليُمْنَىٰ صَفْحَ الكَفِّ اليُسْرَىٰ، قَالَ عِيسَىٰ بْنُ أيُّوبَ: تَضْرِبُ بِإصْبَعَيْنِ مِنْ يَمِينِهَا عَلَىٰ كَفِّهَا اليُسْرَىٰ» انْتَهَىٰ.

وقَالَ ابنُ حَجَرٍ رَحِمَهُ اللهُ «الفَتْحُ» (٣/ ٧٧): «ومَنْعُ الرِّجَالِ مِنَ التَّصْفِيْقِ؛ لأنَّهُ مِنْ شَأنِ النِّسَاءِ» انْتَهَىٰ.

وقَالَ ابنُ الجَوْزِيُّ رَحِمَهُ اللهُ «تَلْبِيْسُ إبْلِيْسَ» (١/ ٣١٦): «وفِيْهِ (التَّصْفِيْقُ) أيْضًا تَشَبُّهٌ بالنِّسَاءِ، والعَاقِلُ يَأنَفُ مِنْ أنْ يَخْرُجَ عَنِ الوَقَارِ إلىٰ أفْعَالِ الكُفَّارِ والنِّسْوَةِ» انْتَهَىٰ.

* * *

وقَدْ قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ عِندَ ٱلْبَيْتِ إِلَّا مُكَآءً وَتَصْدِيَةً فَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ﴾ [الأنفال: ٣٥].

قَالَ ابنُ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: «كَانَتْ قُرَيْشٌ تَطُوْفُ بالبَيْتِ عُرَاةً يُصَفِّقُوْنَ ويُصَفِّرُوْنَ، فَكَانَ ذَلِكَ عِبَادَةً في ظَنِّهم، والمُكَاءُ: الصَّفيرُ، والتَّصْدِيَةُ: التَّصْفيقُ، قَالَه عَطِيَّةُ، ومُجَاهِدٌ، والضَّحَّاكُ، والحَسَنُ، وقَتَادَةُ، والسُّدِّيُّ رَحِمَهُم الله، وابنُ عَبَّاسٍ، وابنُ عُمَرَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا.

قَالَ ابنُ الجَوْزِيِّ رَحِمَهُ اللهُ في«تَبْيِيْسِ إبْلِيْسَ» (١/ ٣١٦): «والتَّصْفِيْقُ مُنْكَرٌ يُطْرِبُ، ويُخْرِجُ عَنِ الاعْتِدَالِ، وتَتَنَزَّهُ عَنْ مِثْلِهِ العُقَلاءُ، ويَتَشَبَّهُ فَاعِلُهُ بالمُشْرِكِيْنَ فِيْمَا كَانُوا يَفْعَلُوْنَهُ عِنْدَ البَيْتِ مِنَ التَّصْدِيَةِ، وهِيَ الَّتي ذَمَّهُمُ الله عَزَّ وَجَلَّ بِهَا، فَقَالَ: «ومَا كان صلاتهم عند البيت إلا مكاء وتصدية»، فالمُكَاءُ: الصَّفِيْرُ، والتَّصْدِيَةُ: التَّصْفِيْقُ» انتهىٰ.

* * *

ومِنْ خِلالِ مَا ذَكَرْنَاهُ هُنَا؛ بأنَّ التَّصْفِيْقَ كَانَ مِنْ فِعْلِ المُشْرِكِيْنَ في عِبادَتِهِم عِنْدَ البَيْتِ؛ فَكَانَ والحَالَةُ هَذِهِ تَحْرِيْمُ فِعْلِهِ علىٰ المُسْلِمِ مُطْلقًا، سَوَاءٌ كَانَ علىٰ وَجْهِ العِبَادَةِ، أو العَادَةِ.

وَقَدْ صَحَّ عَنْهُ ﷺ أنَّهُ قَالَ: «مَنْ تَشَبَّهَ بِقَوْمٍ فَهُوَ مِنْهُمْ» أحْمَدُ، وأبُو دَاوُدَ، وغَيْرُهُمَا عَنِ ابنِ عُمَرَ رضي الله عنهما، وهُوَ صَحِيحٌ.

فَقَدْ تَوَاتَرَ عَنْ أهْلِ الصَّدْرِ الأوَّلِ مِنَ الصَّحَابَةِ، والتَّابِعِيْنَ، ومَنْ تَبِعَهُم بإحْسَانٍ؛ أنَّهُم كَانُوا إذَا اسْتَحْسَنُوا شَيْئًا أو تَعَجَّبُوا مِنْهُ: كَبَّرُوا الله، أو سَبَّحُوْهُ، والأدِلَّةُ علىٰ ذَلِكَ كَثِيْرَةٌ، فمِنْهَا:

مَا أخْرَجَهُ البُخَارِيُّ ومُسْلِمٌ مِنْ حَدِيْثِ عَبْدِ الله بنِ مَسْعُوْدٍ رضي الله عنه قَالَ: قَالَ لَنَا رَسُوْلُ الله ﷺ: «أمَا تَرْضَوْنَ أنْ تَكُوْنُوا رُبْعَ أهْلِ الجَنَّةِ؟»، فَكَبَّرْنَا، ثُمَّ قَالَ: «أمَا تَرْضَوْنَ أنْ تَكُوْنُوا ثُلُثَ أهْلِ الجَنَّةِ»، فكَبَّرْنا، ثُمَّ قَالَ: «إنِّي لأرْجُو أنْ تكُوْنُوا شَطْرَ أهْلِ الجَنَّةِ!».

ومَا أخْرَجَهُ مُسْلِمٌ عَنْ جَابِرِ بنِ سَمُرَةَ رضي الله عنه قَالَ: سَمِعْتُ رَسُوْلَ الله ﷺ يَقُوْلُ: «لا يَزَالُ هَذَا الدِّيْنُ عَزِيْزًا إلىٰ اثْنَيْ عَشَرَ خَلِيْفَةً»، وزَادَ أبو دَاوُدَ (٤٢٨٠): «فَكَبَّرَ النَّاسُ، وضَجُّوا!»، ثُمَّ قَالَ كَلِمَةً خَفِيْفَةً، فقُلْتُ لأبي: يَا أبَةِ مَا قَالَ؟ قَالَ: «كُلُّهُمْ مِنْ قُرَيْشٍ»، والحَدِيْثُ صَحِيْحٌ.

ومَا أخْرَجَهُ البُخَارِيُّ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رضي الله عنه عَنْ عُمَرَ رضي الله عنه أنَّهُ قَالَ: قُلْتُ لِلنَّبِيِّ ﷺ: «طَلَّقْتَ نِسَاءَكَ؟ قَالَ: لَا، قُلْتُ: الله أكْبَرُ».

وقَدْ تَرْجَمَ النَّوَوِيُّ رحمه الله في كِتَابِهِ «الأذْكَارِ» (بَابَ جَوَازِ التَّعَجُّبِ بلَفْظِ

التَّسْبِيْحِ والتَّهْلِيْلِ ونَحْوِهِمَا).

ثُمَّ قَالَ: رُوِّيْنَا في صَحِيْحَي البُخَارِيِّ ومُسْلِمٍ؛ عَنْ أبي هُرَيْرَةَ ﷺ أنَّ النَّبِيَّ ﷺ لَقِيَهُ وهُوَ جُنُبٌ، فانْسَلَّ، فَذَهَبَ فاغْتَسَلَ، فتَفَقَّدَهُ النَّبِيُّ ﷺ، فلَمَّا جَاءَ قَالَ: «أيْنَ كُنْتَ يَا أبَا هُرَيْرَةَ؟» قَالَ: يَا رَسُوْلَ الله لَقِيْتَنِي وأنَا جُنُبٌ فكَرِهْتُ أنْ أجَالِسُكَ حَتَّىٰ أغْتَسِلَ، فَقَالَ: «سُبْحَانَ الله، إنَّ المُؤمِنَ لا يَنْجَسُ!»، انْتَهَىٰ.

ومَا أخْرَجَهُ البُخَارِيُّ ومُسْلِمٌ عَنْ أبي هُرَيْرَةَ ﷺ مَرْفُوْعًا: «بَيْنَمَا رَاعٍ في غَنَمِهِ عَدا الذِّئْبُ فَأخَذَ مِنْهَا شَاةً، فطَلَبَهَا حَتَّىٰ اسْتَنْقَذَهَا فالتَفَتَ إلَيْهِ الذِّئْبُ فَقَالَ لَهُ: مَنْ لَهَا يَوْمَ السَّبُعِ لَيْسَ لَهَا رَاعٍ غَيْرِي؟ فَقَالَ النَّاسُ: سُبْحَانَ الله! فَقَالَ: فَإنِّي أُومِنُ بِهِ وأبُو بَكْرٍ وعُمَرُ!».

* * *

ومِنْ هُنَا دَلَّتِ الأدِلَّةُ الشَّرْعِيَّةُ، عَلَىٰ سُنِّيَّةِ التَّكْبِيْرِ والتَّسْبِيْحِ في مَوَاطِنِ التَّعَجُّبِ والسُّرُوْرِ والتَّشْجِيْعِ، ومُنَابَذَةِ طَرَائِقِ المُشْرِكِيْنَ وأهْلِ البِدَعِ والتَّخَنُّثِ مِنَ المُغَنِّيْنَ، ومُفَارَقَةِ صَنَائِعِ النِّسَاءِ في الصَّلاةِ، والله وَلِيُّ الصَّالِحِيْنَ.

* * *

قَالَ شَيْخُ الإسْلامِ ابْنُ تَيْمِيَّةَ رَحِمَهُ اللهُ فِي «مَجْمُوعِ الفَتَاوَىٰ» (١١/ ٥٦٥): «وَأمَّا الرِّجَالُ عَلَىٰ عَهْدِهِ فَلَمْ يَكُنْ أحَدٌ مِنْهُمْ يَضْرِبُ بِدُفٍّ ولَا يُصَفِّقُ بِكَفٍّ،

بَلْ قَدْ ثَبَتَ عَنْهُ فِي الصَّحِيحِ أَنَّهُ قَالَ: «التَّصْفِيقُ لِلنِّسَاءِ والتَّسْبِيحُ لِلرِّجَالِ»، «وَلَعَنَ المُتَشَبِّهَاتِ مِنَ النِّسَاءِ بِالرِّجَالِ والمُتَشَبِّهِينَ مِنَ الرِّجَالِ بِالنِّسَاءِ».

وَلَمَّا كَانَ الغِنَاءُ والضَّرْبُ بِالدُّفِّ والكَفِّ مِنْ عَمَلِ النِّسَاءِ، كَانَ السَّلَفُ يُسَمُّونَ مَنْ يَفْعَلُ ذَلِكَ مِنَ الرِّجَالِ مُخَنَّثًا، ويُسَمُّونَ الرِّجَالَ المُغَنِّينَ مَخَانِيثَ، وهَذَا مَشْهُورٌ فِي كَلَامِهِمْ» انتهىٰ.

* * *

وَكَذَلِكَ سُئِلَ سَمَاحَةُ شَيْخِنَا العَلَّامَةُ: عَبْدُ العَزِيزِ بْنُ بَازٍ رحمه الله تعالىٰ عَنْ حُكْمِ التَّصْفِيقِ لِلرِّجَالِ، وهَذَا نَصُّ السُّؤَالِ، كَمَا جَاءَ فِي «كِتَابِ الدَّعْوَةِ» (١/ ٢٢٧): «سُؤَالٌ: التَّصْفِيقُ بِالمُنَاسَبَاتِ والحَفَلَاتِ هَلْ هُوَ جَائِزٌ أَوْ مَكْرُوهٌ؟

الجَوَابُ: التَّصْفِيقُ فِي الحَفَلَاتِ مِنْ أَعْمَالِ الجَاهِلِيَّةِ وأَقَلُّ مَا يُقَالُ فِيهِ الكَرَاهَةُ، والأَظْهَرُ فِي الدَّلِيلِ تَحْرِيمُهُ لأَنَّ المُسْلِمِيْنَ مَنْهِيُّونَ عَنِ التَّشَبُّهِ بِالكَفَرَةِ، وقَدْ قَالَ الله سُبْحَانَهُ فِي وصْفِ الكُفَّارِ مِنْ أَهْلِ مَكَّةَ: «وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ عِنْدَ البَيْتِ إلاَّ مُكَاءً وتَصْدِيَةً»، قَالَ العُلَمَاءُ: المُكَاءُ الصَّفِيرُ، والتَّصْدِيَةُ: التَّصْفِيقُ، والسُّنَّةُ لِلْمُؤْمِنِ إذَا رَأَىٰ أَوْ سَمِعَ مَا يُعْجِبُهُ أَوْ مَا يُنْكِرُهُ أَنْ يَقُولَ: سُبْحَانَ الله، أَوْ يَقُولَ: الله أَكْبَرُ، كَمَا صَحَّ ذَلِكَ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ فِي أَحَادِيثَ كَثِيرَةٍ، ويُشْرَعُ التَّصْفِيقُ لِلنِّسَاءِ خَاصَّةً إذَا نَابَهُنَّ شَيْءٌ فِي الصَّلَاةِ وكُنَّ مَعَ الرِّجَالِ فَسَهَا الإمَامُ فِي الصَّلَاةِ فَإِنَّهُنَّ يُشْرَعُ لَهُنَّ التَّنْبِيهُ بِالتَّصْفِيقِ، أَمَّا الرِّجَالُ فَيُنَبِّهُونَهُ بِالتَّسْبِيحِ، كَمَا صَحَتْ بِذَلِكَ السُّنَّةُ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ، وبِهَذَا

يُعْلَمُ أنَّ التَّصْفِيقَ مِنَ الرِّجَالِ فِيْهِ تُشَبُّهٌ بِالكَفَرَةِ والنِّسَاءِ، وكِلَاهُمَا مَنْهِيٌّ عَنْهُ، والله وليُّ التَّوْفِيقِ» انتهىٰ.

وَكَذَلِكَ سُئِلَ شَيْخُنَا العَلَّامَةُ مُحَمَّدُ بْنُ صَالِحٍ العُثَيْمِينَ رحمه الله تعالىٰ عَنْ حُكْمِ التَّصْفِيقِ لِلرِّجَالِ وهَذَا نَصُّ السُّؤَالِ، كَمَا جَاءَ فِي «فَتَاوىٰ الشَّيْخِ مُحَمَّدِ الصَّالِحِ العُثَيْمِينَ» (٢/ ٩٣٤)، جَمعَهُ أَشْرَفُ بْنُ عَبْدِ المَقْصُودِ.

«سُؤَالٌ: مَا هُوَ الحُكْمُ فِيمَا يَفْعَلُهُ النَّاسُ فِي الحَفْلَاتِ مِنَ التَّصْفِيقِ والصَّفِيرِ؟

الفَتْوىٰ: الحُكْمُ فِي هَذَا أَنَّهُ مُتَلَقَّىٰ مِنْ غَيْرِ المُسْلِمِيْنَ فِيمَا يَظْهَرُ فَلِذَلِكَ لَا يَنْبَغِي لِلْمُسْلِمِ أَنْ يَسْتَعْمِلَهُ، وإنَّمَا إذَا أَعْجَبَهُ شَيْءٌ يُكَبِّرُ أَوْ يُسَبِّحُ الله ﷻ، ولَيْسَ أَيْضًا عَلَىٰ سَبِيلِ التَّكْبِيرِ الجَمَاعِيِّ، كَمَا يَفْعَلُهُ بَعْضُ النَّاسِ إِنَّمَا يُسَبِّحُ الإنْسَانُ بَيْنَهُ وبَيْنَ نَفْسِهِ، وأَمَّا التَّكْبِيرُ الجَمَاعِيُّ أَوِ التَّسْبِيحُ الجَمَاعِيُّ عِنْدَمَا يَأْتِي شَيْءٌ يَدْعُو لِلْعَجَبِ فَهَذَا لَا أَعْلَمُ لَهُ أَصْلًا» انتهىٰ.

* * *

وهَاكَ مَا قَرَّرَهُ ابْنُ القَيِّمِ رَحِمَهُ اللهُ فِي «إغَاثَةِ اللَّهْفَانِ» (١/ ٤٤٠): «وَالمَقْصُودُ أَنَّ المُصَفِّقِينَ والصَّفَّارِينَ فِي يَرَاعٍ أَوْ مِزْمَارٍ ونَحْوِهِ فِيهِمْ شَبَهٌ مِنْ هَؤُلَاءِ أي المُشْرِكِينَ، ولَوْ أَنَّهُ مُجَرَّدُ الشَّبَهِ الظَّاهِرِ، فَلَهُمْ قِسْطٌ مِنَ الذَّمِّ، بِحَسْبِ تُشَبُّهِهِمْ بِهِمْ، وإِنْ لَمْ يَتَشَبَّهُوا بِهِمْ فِي جَمِيعِ مُكَائِهِمْ وتَصْدِيَتِهِم.

وَالله سُبْحَانَهُ لَمْ يَشْرَعِ التَّصْفِيقَ لِلرِّجَالِ وَقْتَ الحَاجَةِ إِلَيْهِ فِي الصَّلَاةِ إِذَا

نَابَهُمْ أمْرٌ، بَلْ أُمِرُوا بِالعُدُولِ عَنْهُ إِلَىٰ التَّسْبِيحِ، لِئَلَّا يَتَشَبَّهُوا بِالنِّسَاءِ، فَكَيْفَ إذَا فَعَلُوهُ لَا لِحَاجَةٍ وقَرَنُوا بِهِ أنْوَاعًا مِنَ المَعَاصِي قَوْلًا وفِعْلًا؟!»، انْتَهَىٰ.

* * *

أمَّا الخَلَفُ: فتَحْسِبُهُم هَذِهِ الأيَّامَ لا يُحْسِنُوْنَ مِنَ التَّشْجِيْعِ لطُلَّابِهِم إلَّا التَّصْفِيْقَ ورُبَّما التَّصْفِيْرَ، وهَذَا لا يَنْفَكُّ عَنْهُ أكْثَرُ أبْنَاءِ المُسْلِمِيْنَ في مَدَارِسِهِم، بَلْ أمْسَىٰ التَّصْفِيْقُ سِمَةً بَارِزَةً في المَحَافِلِ والمَجَامِعِ الكَبِيْرَةِ، سَوَاءٌ أكَانَتْ علىٰ المُسْتَوَىٰ الرَّسْمي أو الدِّرَاسِي، في حِيْنَ لا تَسْمَعُ للتَّكْبِيْرِ والتَّسْبِيْحِ صَوْتًا ولا هَمْسًا!

ومَنْ أخَذَتْهُ العِزَّةُ بالحَقِّ في رَفْعِ صَوْتِهِ بالتَّكْبِيْرِ أو التَّسْبِيْحِ في مَحَافِلِ التَّكْرِيْمِ والتَّتْوِيْجِ قَامُوا يَنْظُرُوْنَ إلَيْهِ نَظَرَ المَغْشِيِّ عَلَيْهِ، بَلْ يَكَادُوْنَ يُزْلِقُوْنَهُ مِنْ حِدَّةِ النَّظَرِ والتَّعَجُّبِ!

ومَنْ أرَادَ زِيَادَةَ تَفْصِيْلٍ عَنْ حُكْمِ التَّصْفِيْقِ؛ فَعَلَيْهِ بكِتَابي «الرِّيْحِ القَاصِفِ» ففِيْهِ بَحْثٌ مُفَصَّلٌ، وقَوْلٌ فَصْلٌ، والله المُوَفِّقُ والهَادِي إلىٰ سَوَاءِ السَّبِيْلِ.

* * *

☐ الثَّامِنَ عَشَرَ: كَانَ السَّلَفُ من أبْعَدَ النَّاسِ عَنْ وَسَائِلِ الشِّرْكِ وذَرَائِعِهِ، كَما هُوَ مَاثِلٌ في التَّماثِيْلِ والتَّصَاوِيْرِ!

لِذَا فَإنَّنا نَجِدُ أهْلَ العِلْمِ مِنْ سَلَفِنَا الصَّالِحِ في مَدَارِسِهِم العِلْمِيَّةِ مِنْ أبْعَدِ

النَّاسِ عَنِ اتِّخَاذِ الصُّوَرِ والتَّماثِيْلِ، وأيْضًا مِنْ أبْعَدِهِم عَنِ امْتِهَانِهَا كحِرْفَةٍ أو تَدْرِيْسٍ، بَلْ كَانُوا يَعُدُّوْنَ التَّصْوِيْرَ والتَّماثِيْلَ مِنْ كَبَائِرِ الذُّنُوْبِ، ومِنَ المُحرَّمَاتِ الشَّرْعِيَّةِ، وأنَّها مِنَ الوَسَائِلِ الشِّرْكِيَّةِ ابْتِدَاءً بالغُلُوِّ والتَّعْظِيْمِ، وانْتِهَاءً بالشِّرْكِ الأصْغَرِ ثُمَّ الأكْبَرِ عَيَاذًا بالله، وهَذَا مِنْهُم رَحِمَهُمُ الله اسْتِنَادًا علىٰ الأدِلَّةِ الشَّرْعِيَّةِ المُتَكَاثِرَةِ والقَاطِعَةِ بتَحْرِيْمِ الصُّوَرِ والتَّماثِيْلِ، فَمِنْ ذَلِكَ:

قَوْلُ الله تَعَالَىٰ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُؤۡذُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِ وَأَعَدَّ لَهُمۡ عَذَابٗا مُّهِينٗا﴾ [الأحزاب: ٥٧]، قَالَ عِكْرِمَةُ: هُمُ الَّذِيْنَ يَصْنَعُوْنَ الصُّوَرَ.

وقَالَ ﷺ: «**إنَّ الَّذِيْنَ يَصْنَعُوْنَ هَذِه الصُّوَرَ، يُعَذَّبُوْنَ يَوْمَ القِيَامَةِ؛ يُقَالُ لَهُم: أحْيُوْا مَا خَلَقْتُم**» مُتَّفَقٌ عَلَيْه. وقَوْلُهُ ﷺ لعَائِشَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا: «**أشَدُّ النَّاسِ عَذَابًا عِنْدَ الله تَعَالَىٰ يَوْمَ القِيَامَةِ الَّذِيْنَ يُضاهُوْنَ بِخَلْقِ الله تَعَالَىٰ**» مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ. وقَالَ أيضًا ﷺ: «**إنَّ البَيْتَ الَّذِي فيه الصُّوَرُ لا تَدْخُلُه الملائِكَةُ**» مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ.

وعَنْ ابنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا أنَّه جاءَهُ رَجُلٌ فَقَالَ: إنِّي رَجُلٌ أصَوِّرُ هَذِه الصُّوَرَ، فافْتِنِي فِيْهَا؟ فَقَالَ لَهُ: ادْنُ مِنِّي، فَدَنَا مِنْهُ، ثُمَّ قَالَ: ادْنُ مِنِّي فَدَنَا مِنْهُ حَتَّىٰ وَضَعَ يَدَهُ علىٰ رَأْسِهِ، وقَالَ: أُنَبِّئُكَ بِمَا سَمِعْتُ مِنَ رَسُوْلِ الله ﷺ، سَمِعْتُ رَسُوْلَ الله ﷺ يَقُوْلُ: «**كُلُّ مُصَوِّرٍ في النَّارِ يُجْعَلُ لَهُ بِكُلِّ صُوْرَةٍ صَوَّرَها نَفْسًا تُعَذِّبُه في جَهَنَّمَ**» مُسْلِمٌ، قَالَ ابنُ عَبَّاسٍ: فإنْ كُنْتَ لا بُدَّ فَاعِلًا فاصْنَعْ

الشَّجَرَة، ومَا لا نَفْسَ لَهُ . وفي رِوَايةٍ للبُخَارِيِّ أنَّه قَالَ لَهُ: إنَّمَا مَعِيْشَتِي مِنْ صِنْعَةِ يَدِي، وإنِّي أصْنَعُ هَذِه التَّصَاوِيْرَ . . . وفيه: «عَلَيْكَ بِكُلِّ شَيْءٍ لَيْسَ فيه رُوْحٌ».

* * *

قَالَ النَّوَوِيُّ رَحِمَهُ اللهُ مَا حَاصِلُهُ: «تَصْوِيْرُ صُوْرَةِ الحَيْوَانِ حَرَامٌ مِنَ الكَبَائِرِ للوَعِيْدِ الشَّدِيْدِ، سَوَاءٌ صَنَعَه لِمَا يُمْتَهَنُ أو لِغَيْرِه إذْ فيه مُضَاهَاةٌ لِخَلْقِ الله، وسَوَاءٌ كَانَ بِبِسَاطٍ، أو ثَوْبٍ، أو دِرْهَمٍ، أو دِيْنَارٍ، أو فِلْسٍ، أو إنَاءٍ، أو حَائِطٍ، أو مِخَدَّةٍ، أو نَحْوِها، وأمَّا تَصْوِيْرُ صُوَرِ الشَّجَرِ، ونَحْوِها مِمَّا لَيْسَ بِحَيْوَانٍ فَلَيْسَ بِحَرَامٍ، وأمَّا المُصَوَّرُ صوْرَةَ الحَيْوَانِ فإنْ كَانَ مُعَلَّقًا علىٰ حَائِطٍ، أو مَلْبُوْسٍ: كَثَوْبٍ، أو عِمَامَةٍ، أو نَحْوِها مِمَّا لا يُعَدُّ مُمْتَهَنًا فَحَرَامٌ، أو مُمْتَهَنًا: كبِسَاطٍ يُدَاسُ، ومِخَدَّةٍ، ووِسَادَةٍ، ونَحْوِها فَلا يَحْرُمُ؛ لَكِنْ هَلْ يَمْنَعُ دُخُوْلَ مَلائِكَةِ الرَّحْمَةِ ذَلِكَ البَيْتَ؟ الأظْهَرُ أنَّه عَامٌّ في كُلِّ صُوْرَةٍ؛ لإطْلاقِ قَوْلِهِ ﷺ: «**لا تَدْخُلُ المَلائِكَةُ بَيْتًا فيه كَلْبٌ، ولا صُوْرَةٌ**»، ولا فَرْقَ بَيْنَ مَا لَهُ ظِلٌّ، ومَا لا ظِلَّ لَهُ، هَذَا تَلْخِيْصُ مَذْهَبِ جَمْهُوْرِ عُلَمَاءِ الصَّحَابَةِ، والتَّابِعِيْنَ، ومَنْ بَعْدَهُم كالشَّافِعِيِّ، ومَالِكٍ، والثَّوْرِيِّ، وأبِي حَنِيْفَةَ، وغَيْرِهِم، وأجْمَعُوا علىٰ وُجُوْبِ تَغْيِيْرِ مَا لَهُ ظِلٌّ، قَالَ القَاضِيُّ: إلاَّ مَا وَرَدَ في لُعَبِ البَنَاتِ الصِّغَارِ مِنَ الرُّخْصَةِ، ولَكِنْ كَرِهَ مَالِكٌ شِرَاءَ الرَّجُلِ ذَلِكَ لِبِنْتِهِ، وادَّعَىٰ بَعْضُهم أنَّ إبَاحَةَ اللَّعِبِ بِهِنَّ بِهَا مَنْسُوْخٌ بِمَا مَرَّ» انتهىٰ .

ذَكَرَهُ ابنُ حَجَرِ الهَيْتَمِيُّ في «الزَّوَاجِرِ عَنِ اقْتِرافِ الكَبَائِرِ» (٢/ ٦٩).

* * *

أمَّا الخَلَفُ: فوُجُوْدُ الصُّوَرِ بَيْنَهُم لاسِيَّما في مَدَارِسِهِم؛ فَحَدِّثْ ولا حَرَجَ!

بَلْ لا أبَالِغُ إذَا قُلْتُ: لَقَدَ وَصَلَ الحَالُ ببَعْضِهِم إلىٰ حَدٍّ مَهِيْنٍ مَشِيْنٍ مِنَ المُكَاثَرَةِ في التَّصْوِيْرِ بجَمِيْعِ أشْكَالِها، فَدُوْنَكَ هَذِهِ الصُّوَرَ المَوْجُوْدَةَ المَبْثُوْثَةَ في كُتُبِ التَّعْلِيْمِ عِنْدَهُم!

فَلا تَجِدُ غَالِبًا عَنْدَهُم كِتابًا يَدْرُسُوْنَهُ أو يَتَدارَسُوْنَهُ سَوَاءٌ أكَانَ في أوَّلِ المَرَاحِلِ الابْتِدَائِيَّةِ أو النِّهَائِيَّةِ إلَّا والصُّوَرُ قَدْ أحَاطَتْ بِهِ إحَاطَةَ السِّوَارِ بالمِعْصَمِ، كُلَّ هَذَا مِنْهُم بحُجَّةِ ضَرُوْرَةِ التَّعْلِيْمِ!

ومِنْ هُنَا تَوَسَّعُوا في وَضْعِ الصُّوَرِ في كُلِّ صَغِيرٍ وكَبِيرٍ دُوْنَ اعْتِبَارٍ إلىٰ هَذِهِ الضَّرُوْرَةِ الَّتِي يَدَّعُوْنَها، بَلْ أشَدُّ مِنْ ذَلِكَ وأشَرُّهُ أنَّهم يَجْعَلُوْنَ وَقْتًا مُخَصَّصًا لتَعْلِيْمِ أبْنَاءِ المُسْلِمِيْنَ: فَنَّ التَّصْوِيْرِ، وصِنَاعَةَ التَّماثِيْلِ، كَمَا هُوَ سَائِرٌ ظَاهِرٌ فِيْما يُسَمُّوْنَهُ: مَادَّةَ الفَنِّيَّةِ والرَّسْمِ، بَلْ نَرَاهُم يَعُدُّوْنَ عَمَلَ الطَّالِبَ المُتْقِنِ للرَّسْمِ والمُجَوِّدِ فِيْهِ: إبْدَاعًا ومَوْهِبَةً يُشْكَرُ عَلَيْهَا عِنْدَهُم في مَجَامِعِ الاحْتِفَالاتِ واللِّقَاءَاتِ وغَيْرِهَا، والله الهَادِي إلىٰ سَواءِ السَّبِيْلِ!

* * *

وأخِيْرًا؛ فَهَذِهِ بَعْضُ الفَوَارِقِ بَيْنَ مَدَارِسِ سَلَفِنَا الصَّالِحِ وبَيْنَ مَا نَحْنُ فِيْهِ

مِنْ مَدَارِسَ وتَدْرِيْسٍ، وإلَّا مَا أثْنَيْنَا عَنْهُ القَلَمَ فَشَيءٌ يَزِيْد علىٰ مَا ذَكَرْنَا ومَا سَمِعْنَا، والله الهَادِي إلىٰ سَوَاءِ السَّبِيْلِ.

وقَدْ قِيْلَ:

تَغَيَّرتِ البِلادُ ومَنْ عَلَيْهَا فَوَجْهُ الأرْضِ مُغَبَرٌّ قَبِيْحُ

تَغَيَّرَ كُلُّ ذِي طَعْمٍ ولَوْنٍ وقَلَّ بشَاشَةُ الوَجْهِ المَلِيْحُ

❑ ❑ ❑

البَابُ السَّادِسُ

أخْطَاءُ (الفِكْرِ التَّربَويِّ)

في مَرَاكِزِ ونَوَادِي (التَّربِيَةِ)

وفِيْهِ أرْبَعَةٌ وثَلاثُوْنَ خَطأً

هُنَاكَ بَعْضُ الأمُوْرِ المُهِمَّةِ الَّتِي يَجِبُ بَيَانُها قَبْلَ الشُّرُوْعِ في ذِكْرِ أخْطَاءِ (الفِكْرِ التَّرْبَوِيِّ) في غَيْرِ مَرْكَزٍ ونَادٍ، فَمِنْ ذَلِكَ:

أوَّلًا: أنَّنا لا نَشُكُّ طَرْفَةَ عَيْنٍ أنَّ أكْثَرَ القَائِمِيْنَ علىٰ مَرَاكِزِ ونَوَادِي (التَّرْبِيَةِ) عِنْدَنَا: هُم علىٰ إخْلاصٍ وصِدْقٍ فِيْما يَأتُوْنُ ويَذَرُوْنَ، كَمَا أنَّهم لا يَألُوْنَ جُهْدًا في الأخْذِ بحُجَزِ الشَّبَابِ إلىٰ الله تَعَالىٰ، (والله حَسِيْبُهُم).

ثَانِيًا: أنَّ ذِكْرَ هَذِهِ الأخْطَاءِ لَيْسَ بالضَّرُوْرِي اجْتِماعُهَا في مَجْمَعٍ أو مَرْكَزٍ أو نَادٍ تَرْبَوِيٍّ؛ بَلْ هُم بَيْنَ مُسْتَكْثِرٍ ومَسْتَقِلٍّ.

ثَالِثًا: لا شَكَّ أنَّ هُنَاكَ بَقِيَّةً مِنَ المَجَامِعِ العِلْمِيَّةِ قَدْ سَلِمَتْ مِنْ هَذِهِ الأخْطَاءِ، إلَّا أنَّ في ذِكْرِهَا هُنَا تَذْكِرَةً لهُم وتَحْذِيْرًا مِمَّا في غَيْرِهَا مِنْ مَرَاكِزِ (الفِكْرِ التَّرْبَوِيِّ)، ولَوْ في بَابِ الأسْماءِ، كَما مَرَّ ذِكْرُهُ.

رَابِعًا: أنَّ هَذِهِ الرِّسَالَةَ لم تَأتِ علىٰ جَمِيْعِ أخْطَاءِ (الفِكْرِ التَّرْبَوِيِّ) في

مَرَاكِزِهِ ونَوَادِيْهِ؛ بِلْ في ذِكْرِ بَعْضِهَا دَلِيْلٌ علىٰ ما سِوَاهُ بطَرِيْقِ اللُّزُوْمِ أو المَفْهُوْمِ.

خَامِسًا: فَلْيَعْلَمِ الجَمِيْعُ أنَّ الأخْطَاءِ هُنَا مَا خَطَّتْ سَبِيْلَهَا ولا أخَذَتْ طَرِيْقَهَا إلَّا بسَبِيْلِ النَّصِيْحَةِ الإيْمانِيَّةِ الوَاجِبَةِ، لِذَا كَانَ في ذِكْرِهَا تَبْصِرَةٌ للمُتَّقِيْنَ، ومَوْعِظَةٌ للغَافِلِيْنَ.

❑ يَقُوْلُ أبُو فِرَاسٍ الحَمَدَانيُّ:

عَرَفْتُ الشَّرَّ لا للشَّـرِّ … لَكِنْ لِتَوَقِّيْهِ
ومَنْ لَمْ يَعْرِفِ الشَّرَّ … مِنَ الخَيْرِ يَقَعْ فِيْهِ

كَما لا يَلْزَمُ مِنْ ذِكْرِ هَذِهِ الأخْطَاءِ صِحَّتُهَا، بَلْ هِيَ مَتْرُوْكَةٌ للأخذِ والرَّدِّ، فَما كَانَ مِنْهَا يَقِيْنًا فَحَقُّهُ الأخْذُ، ومَا كَانَ مِنْهَا خَطأً فَحَقُّهُ الرَّدُّ، ومَا كَانَ مِنْهَا مَظْنُوْنًا فَحَقُّهُ الاجْتِهَادُ، والدِّلِيْلُ الشَّرعِيُّ هُوَ المِيْزَانُ، والوَاقِعُ هُوَ البُرْهَانُ، فإلىٰ ذِكْرِ الأخْطَاءِ.

❑ ❑ ❑

الخَطَأ الأوَّلُ

اشْتِقَاقُ كَلِمَةِ (التَّرْبِيَةِ) مِنَ الرَّبِّ

كَانَ مِنَ الخَطَأ اللُّغَوِيِّ أنْ يَشْتَقَّ أنْصَارُ (الفِكْرِ التَّرْبَوِيِّ): التَّربِيَةَ مِنَ الرَّبِّ، أي: بمَعْنَىٰ الرَّبَّاني، وهَذَا مِنْهُم خِلافُ الصَّوَابِ.

فالصَّحِيْحُ: أنَّ الرَّبَّاني مَنْسُوْبٌ إلىٰ رُبَّانِ السَّفِيْنَةِ لا الرَّبِّ، لأُمُوْرٍ:

أوَّلًا: أنَّ كَلِمَةَ (التَّربِيَةِ) مُشْتَقَّةٌ مِنْ رُبَّانِ السَّفِيْنَةِ؛ لأنَّ الأصْلَ عَدَمُ الزِّيَادَةِ في النِّسْبَةِ، لأنَّهُم مَنْسُوْبُوْنَ إلىٰ التَّرْبِيَةِ وهَذِهِ تَخْتَصُّ بِهِم، وأمَّا نِسْبَتُهُم إلىٰ الرَّبِّ فَلا اخْتِصَاصَ لهُم بذَلِكَ، بَلْ كُلُّ عَبْدٍ لَهُ فَهُوَ مَنْسُوْبٌ إلَيْهِ، إمَّا نِسْبَةَ عُمُوْمٍ أو خُصُوْصٍ.

ولَوْ قُدِّرَ أنَّهم مَنْسُوْبُوْنَ إلىٰ الرَّبِّ فَلا تَدُلُّ النِّسْبَةُ علىٰ أنَّهم عُلَماءُ، نَعَمْ تَدُلُّ علىٰ إيْمَانٍ وعِبَادَةٍ وتَألُّهٍ، وهَذَا يَعُمُّ جَمِيْعَ المُؤمِنِيْنَ، فَكُلُّ مَنْ عَبَدَ الله وَحْدَهَ لا يُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا: فَهُوَ مُتَألِّهٌ عَارِفٌ بالله، والصَّحَابَةُ كُلُّهُم كَذَلِكَ.

ثَانِيًا: أنَّ كَلِمَةَ (الرَّبَّاني) لا تُذَمُّ ولا تَمْدَحُ في ذَاتِها، فَمِنَ (الرَّبَّاني) مَا هُوَ حَقٌّ، ومِنْهَا مَا هُوَ بَاطِلٌ، ولهَذَا كَانَ الرَّبَّانِيُّوْنَ يُذَمُّوْنَ تَارَةً ويُمْدَحُوْنَ أخْرَىٰ، ولَوْ كَانُوا مَنْسُوْبِيْنَ إلىٰ الرَّبِّ لم يُذَمُّوا قَطُّ.

ثَالِثًا: أنَّ الله تَعالىٰ لم يُسَمِّ أنْبِيَاءَهُ أو أوْلِيَاءَهُ المُتَّقِيْنَ: رَبَّانِيِّيْنَ، ولا

تَسَمَّىٰ بِهِ الخُلَفَاءُ الرَّاشِدُوْنَ، ولا أحَدٌ مِنَ سَلَفِ الأُمَّةِ، كَمَا أنَّ كَلِمَةَ (التَّربِيَةَ) لم تَكُنْ دَارِجَةً عِنْدَ سَلَفِنَا الصَّالِحِ، ولم تُسَمَّ بِهِ كُتُبُهُم ومُصَنَّفَاتُهُم!

رَابِعًا: أنَّ كَلِمَةَ (التَّربِيَةِ) إذَا قُلْنَا (جَدَلًا) أنَّها مُشْتَقَّةٌ مِنَ الرَّبِّ، أيْ: بمَعْنَىٰ رَبَّاني: فَهِيَ حِيْنَئِذٍ مِنْ شَأنِ أهْلِ العِلْمِ الرَّبَّانِيِّيْنَ الرَّاسِخِيْنَ لا مِنْ شَأنِ التَّربَوِيِّيْنَ اليَوْمَ.

يُوَضِّحُهُ؛ أنَّ ابنَ الحَنَفِيَّةِ رَحِمَهُ اللهُ قَالَ لما مَاتَ ابنُ عَبَّاسٍ: اليَوْمَ مَاتَ رَبَّانيُّ هَذِه الأُمَّةِ، وذَلِكَ لِكَوْنِهِ يُؤدِّبُهُم بِما آتَاهُ الله مِنَ العِلْمِ، وقَالَ إبْرَاهِيْمُ: كَانَ عَلْقَمَةُ مِنَ الرَّبَّانِيِّيْنَ، ولهَذَا قَالَ مُجَاهِدٌ: هُمُ الَّذِيْنَ يُرَبُّوْنَ النَّاسَ بصِغَارِ العِلْمِ قَبْلَ كِبَارِهِ فَهُم أهْلُ الأمْرِ والنَّهْي، وذَلِكَ هُوَ المَنْقُوْلُ عَنِ السَّلَفِ في الرَّبَّانيِّ . كُمَا نُقِلَ عَنْ عَليٍّ قَالَ: هُمُ الَّذِيْنَ يُغَذُّوْنَ النَّاسَ بالحِكْمَةِ، ويُرَبُّوْنَهُم عَلَيْهَا، وعَنِ ابنِ عَبَّاسٍ قَالَ: هُمُ الفُقَهَاءُ المُعَلِّمُوْنَ.

قَالَ ابنُ تَيْمِيَّةَ رَحِمَهُ اللهُ عَنْهُم: أهْلُ الأمْرِ والنَّهْي، هُمُ الفُقَهَاءُ المُعَلِّمُوْنَ.

وقَالَ قَتَادَةُ وعَطَاءٌ رَحِمَهُما الله: هُمُ الفُقَهَاءُ العُلَمَاءُ الحُكَمَاءُ، وقَالَ ابنُ قُتَيْبَةَ رَحِمَهُ اللهُ: وَاحِدُهُم رَبَّانيٌّ، وهُمُ العُلَماءُ المُعَلِّمُوْنَ.

وهَذَا مَا ذَكَرَهُ ابنُ جَرِيْرٍ رَحِمَهُ اللهُ بِقَوْلِهِ في «جَامِعِ البَيَانِ» (٥/ ٥٣١): «فالرَّبَّانِيُّوْنَ إذًا هُمْ عِمَادُ النَّاسِ في الفِقْهِ والعِلْمِ وأُمُوْرِ الدِّيْنِ والدُّنْيَا، ولذَلِكَ قَالَ مُجَاهِدٌ: وهُمْ فَوْقَ الأحْبَارِ لأنَّ الأحْبَارَ هُمُ العُلَمَاءُ، والرَّبَّانيُّ الجَامِعُ إلىٰ العِلْمِ والفِقْهِ: البَصَرَ بالسِّيَاسَةِ، والتَّدْبِيْرَ والقِيَامَ بأمُوْرِ الرَّعِيَّةِ ومَا يُصْلِحُهُم في دُنْيَاهُم ودِيْنِهِم» انْتَهَىٰ.

خَامِسًا: لَيْسَ مِنَ الصَّوَابِ نِسْبَةُ التَّربِيَةِ أو الرَّبَّانيِّ: إلىٰ الرَّبِّ؛ لأنَّهُ يُخَالِفُ الأدَبَ الإسْلامِيَّ في حَسْمِ كُلِّ لَفْظٍ أو طَرِيْقٍ يُوْهِمُ مَعْنىٰ بَاطِلًا، فَقَدْ نَهَىٰ النَّبِيُّ ﷺ عَنِ الانْتِسَابِ إلىٰ الرَّبِّ؛ حَيْثُ رَوَىٰ الشَّيْخَانِ عَنْ أبي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه، أنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «لا يَقُولَنَّ أحَدُكُم: أطْعِمْ رَبَّكَ، وضِئْ رَبَّكَ، ولْيَقُلْ سَيِّدِي ومَوْلايَ، ولا يَقُلْ أحَدُكُم: عَبْدِي وأمَتِي، ولْيَقُلْ: فَتَايَ وفَتَاتي وغُلامِي».

فَهَذِهِ الألْفَاظُ وإنْ كَانَتْ تُطْلَقُ لُغَةً، فالنَّبِيُّ ﷺ نَهَىٰ عَنْهَا تَحْقِيْقًا للتَّوْحِيْدِ، وسَدًّا لذَرَائِعِ الشِّرْكِ، لمَا فِيْهَا مِنَ التَّشْرِيْكِ في الألْفَاظِ بَيْنَ الخَالِقِ والمَخْلُوْقِ!

ومَا ذَكَرْنَاهُ هُنَا هُوَ مَا رَجَّحَهُ ابنُ تَيْمِيَّةَ رحمه الله في كَلامٍ نَفِيْسٍ مَتِيْنٍ قَدْ أتَىٰ علىٰ مَعْنَىٰ (التَّربِيَةِ) لُغَةً واصْطلاحًا، انْظُرْهُ في «مَجْمُوْعِ الفَتَاوَىٰ» (١/ ٦١)، وقَدْ مَرَّ مَعَنَا في أوَّلِ الكتاب[١].

❑ ❑ ❑

---

(١) انْظُرْ ص ٨٤ وما بعدها.

الخَطَأ الثَّاني

تَأوِيلُ كَلِمَةِ (التَّرْبِيَةِ)، وصَرْفُهَا عَنْ ظَاهِرِهَا

لا شَّكَ أنَّ إطْلاقَ كَلِمَةِ (التَّرْبِيَةِ): علىٰ تَوْجِيْهِ وتَعْلِيْم الكِبَارِ مِنْ أبْنَاءِ المُسْلِمِيْنَ مِمَّنْ تَجَاوَزَتْ أعْمارُهُم سِنَّ التَّمْيِيْزِ والبُلُوْغِ، يُعْتَبرُ تَأوِيْلًا فَاسِدًا لمَعْنَىٰ الكَلِمَةِ، وصَرْفًا عَنْ ظَاهِرِ اسْتِعْمالهَا، وقَدْ مَرَّ مَعَنَا أنَّ كَلِمَةَ (التَّرْبِيَةِ) في اللُّغَةِ، وفي اصْطِلاحِ عُقَلاءِ الغَرْبِ والشَّرْقِ لا تُطْلَقُ: إلَّا علىٰ تَعْلِيْمِ وتَوْجِيْهِ الأطْفَالِ والصِّغَارِ.

لِذَا؛ كَانَ في جَرِّ مَعْنَىٰ كَلِمَةِ (التَّرْبِيَةِ) مَعَ الكِبَارِ وكِبَارِ الكِبَارِ، دُوْنَ اعْتِبَارٍ للمَعْنَىٰ الظَّاهِرِ عِنْدَ الاسْتِعْمالِ لَيْسَ مِنَ التَّأصِيْلِ الشَّرعيِّ واللُّغَويِّ في شَيءٍ.

(يُوَضِّحُهُ؛ أنَّ جُمُوْعَ الشَّبَابِ في هَذِهِ المَرَاكِزِ والنَّوَادِي مِنَ الَّذِيْنَ تَجَاوَزَتْ أعْمارُهُم سِنَّ (التَّرْبِيَةِ): هُم غَالبًا مَا بَيْنَ الخَامِسَةَ عَشَرَ إلىٰ العِشْرِيْنَ أو يَزِيْدُ.

لِذَا كَانَ مِنَ الخَطَأ البَيِّنِ؛ أنْ نُطْلِقَ كَلِمَةَ (التَّرْبِيَةِ) في مَا نَأتي ونَذَرُ، دُوْنَ اعْتِبَارٍ للاسْتِعْمالاتِ اللُّغَوِيَّةِ مِنْ إطْلاقٍ أو تَقْيِيْدٍ، ومَنْ نَظَرَ في اسْتِعْمالاتِ كَلِمَةِ (التَّرْبِيَةِ) عِنْدَ الإطْلاقِ سَوَاءٌ كَانَتْ: في المَعَاجِمِ اللُّغَوِيَّةِ أو غَيْرِهَا مِنْ

كُتُبِ السَّلَفِ يَجِدُهَا تَدُوْرُ حَوْلَ: تَرْبِيَةِ الصَّغِيْرِ وصَلاحِهِ، والقِيَامِ بأمْرِهِ حَتَّىٰ التَّمامِ والكَمالِ، كَما هُوَ ظَاهِرُ اللُّغَةِ، وكُتُبِ السَّلَفِ.

ومَا هَذَا الخَطَأُ والخَلْطُ إلَّا أنَّ الانْهِزَامَ أخَذَ ببَعْضِ أنْصَارِ (الفِكْرِ التَّرْبَوِيِّ) في بُنَيَّاتِ طَرِيْقِ الاسْتِعْمالِ الغَرْبي الوَافِدِ؛ حَيْثُ إنَّا لا نَشُكُّ طَرْفَةَ عَينٍ أنَّ كَلِمَةَ (التَّرْبِيَةِ) اليَوْمَ لم تَأخُذْ سَبِيْلَهَا في هَذَا التَّوَسُّعِ والبَعْثِ إلَّا علىٰ أيْدِي رِجَالِ الغَرْبِ، ثُمَّ لاكَهَا هَؤلاءِ مِنْ خِلالِ التَّصَابُبِ علىٰ مَزَالِقِ التَّرجَمَاتِ الَّتي لم تَأتِ الأمَّةَ إلَّا في جُنُحِ الظَّلامِ علىٰ غِرَّةٍ مِنْ عُلَمائِهَا وحُمَاتِها.

❑ ❑ ❑

الخَطَأُ الثَّالِثُ

التَّوَسُّعُ في إطْلاقِ كَلِمَةِ (التَّرْبِيَةِ) والتَّرْبَوِيِّيْنَ

إنَّ التَّوَسُّعَ في إطْلاقِ كَلِمَةِ (التَّرْبِيَةِ)، و(التَّربَوِيِّيْنَ) اليَوْمَ علىٰ كُلِّ مَا مِنْ شَأنِهِ العِلْمُ والتَّعْلِيْمُ يُعْتَبرُ إغَارَةً علىٰ تُرَاثِ الأمَّةِ العِلْمِيِّ والعَمَليِّ، لأنَّ في ذَلِكَ اسْتِبْدَالًا للألْفَاظِ الشَّرعِيَّةِ، فَما كَانَ لهَا ذَلِكَ إلَّا عِنْدَمَا تَسَرَّبَتْ كَلِمَةُ (التَّرْبِيَةِ) و(التَّربَوِيِّيْنَ) بِلا رَقِيْبٍ ولا حَسِيْبٍ.

فمِنْ إيْغَالِ إطْلاقِ كَلِمَةِ (التَّرْبِيَةِ) و(التَّربَوِيِّيْنَ) اليَوْمَ، أنَّها اسْتَبْدَلَتْ:

كَلِمَةَ العَالِمَ: بالمُرَبِّي والمُفَكِّرِ والدَّاعِيَةِ.

والتَّعْلِيْمَ: بالتَّرْبِيَةِ.

والكُتُبَ الشَّرْعِيَّةَ: بالكُتُبِ الإدَارِيَّةِ.

والمُجَلَّدَاتِ: بالمَطْوِيَّاتِ.

وحِلَقَ العِلْمِ: بالمَوَاعِظِ.

ودَوْرَاتِ الحِفْظِ والتَّأصِيْلِ: بدَوْرَاتِ البَرْمَجَاتِ اللُّغَوِيَّةِ العَصَبِيَّةِ (NLP)، ودَوْرَاتِ فَنِّ الإلْقَاءِ والحِوَارِ ... إلَخْ.

الخَطَأُ الرَّابعُ

اجْتِرَارُ كَلِمَةِ (التَّرْبِيَةِ) بَيْنَ شَبَابِ المُسْلِمِيْنَ

إنَّ اجْتِرَارَ كَلِمَةِ (التَّرْبِيَةِ) بَيْنَ شَبَابِ المُسْلِمِيْنَ في كُلِّ مَا يَأتُوْنَ ويَذَرُوْنَ لهُوَ خَطَرٌ جَسِيْمٌ وشَرٌّ عَرِيْضٌ، وذَلِكَ في تَغْيِيْبِ حَقَائِقِ الشَّرِيْعَةِ الغَرَّاءِ عَنْ مَدَارِكِ الشَّبَابِ، وإبْعَادِهِم عَنْ مَصَادِرِ التَّلَقِّي الأصِيْلَةِ؛ حَيْثُ أخَذَتْ هَذِهِ الكَلِمَةُ اليَوْمَ بحُجَزِ أبْنَاءِ المُسْلِمِيْنَ في الجَهْلِ والتَّجَاهُلِ، وفي الغَفْلَةِ والتَّغَافُلِ، فَلا تَكَادُ تَسْمَعُ (غَالِبًا) بأسْماءِ سَلَفِ الأمَّةِ بَيْنَ شَبَابِنَا اليَوْمَ، ولا تَكَادُ تَجِدُ كُتُبَ السُّنَّةِ، ومُصَنَّفَاتِ السَّلَفِ عِنْدَهُم، بَلْ دَارَتْ ثَقَافَاتُهُم اليَوْمَ في فَلَكِ التَّربَوِيِّيْنَ، واسْتَقَرَّتْ بعَصَاهَا بَيْنَ كُتَيِّبَاتِ ومَطْوِيَّاتِ (التَّرْبِيَةِ)، فَلا تَسْمَعُ بَيْنَهُم إلَّا أسْمَاءَ رُمُوْزِ التَّربَوِيِّيْنَ، وعَنَاوِيْنَ كُتُبِ التَّرْبِيَةِ، فَهَلْ بَعْدَ هَذَا مِنْ رَجُلٍ رَشِيْدٍ؟!

❑ ❑ ❑

الخَطَأ الخامسُ

مَنعُ الاستِفَادَةِ مِنْ خَارِجِ المَرْكَزِ والنَّادِي

لَقَدْ أخَذَ دَبِيْبُ الظُّلْمِ بيْنَ بَعْضِ شَبَابِ المُسْلِمِيْنَ مَأخَذًا مَقِيْتًا؛ وذَلِكَ عِنْدَمَا حَجَّرَتْ بَعْضُ مَرَاكِزِ (التَّرْبِيَةِ): وَاسِعَ الإيْمانِ، وفَضَاءَ الإحْسَانِ . . . حَيْثُ وَقَعَتْ صَيْحَاتُ المنْعِ والرَّفْضِ بصَرِيْحِ العِبَارَةِ أو تَلْمِيْحِ الإشَارَةِ: مِنَ الاسْتِفَادَةِ خَارِجِ المَرْكَزِ، فعِنْدَئِذٍ حَرَمُوا شَبَابَهُم مِنْ كُلِّ فَائِدَةٍ لَيْسَتْ مِنْ دَاخِلِ المَرْكَزِ أو النَّادِي، سَوَاءٌ كَانَتْ عِلْمًا، أو أمْرًا بالمَعْرُوْفِ أو نَهْيًا عَنِ المُنْكَرِ، أو دَعْوَةً . . . إلَخْ.

❑ ❑ ❑

الخَطَأ السَّادِسُ
الحِزْبِيَّةُ المَقِيتَةُ، والحَمِيَّةُ الجَاهِلِيَّةُ

لا شَكَّ أنَّ بَعْضَ المَحَاضِنِ والمَرَاكِزِ والنَّوَادِي التَّربَوِيَّةِ قَدْ أخَذَتْ غَيْرَ طَرِيْقِهَا؛ حَيْثُ كَانَ التَّجْمِيْعُ والتَّقْمِيْشُ دَأبَها وهَدَفَهَا، فَعِنْدَئِذٍ أخَذَتِ الحِزْبِيَّةُ المَقِيْتَةُ طَرِيْقَهَا في صُفُوْفِ الشَّبَابِ وهُم في غَفَلاتِهم آمِنُوْنَ.

فَعِنْدَئِذٍ؛ أقْبلَتِ الحِزْبِيَّةُ في تَجْدِيْدٍ؛ لتَنْخُرَ في جِسْمِ الأمَّةِ لاسِيَّما في شَبَابِها، فَكَانَ اللَّتَيَّا والَّتِي؛ حَيْثُ بَدَأتِ العَدَاوَةُ والبَغْضَاءُ تَتَخَفَّىٰ تَحْتَ أثْوَابِ مَرَاكِزِ ونَوَادِي (التَّرْبِيَةِ).

وبَدَأتْ أبْوَاقُ التَّحْذِيْرِ والتَّشْهِيْرِ بَيْنَ أشْيَاعِ وأنْصَارِ هَذِهِ المَرَاكِزِ والنَّوادِي، فَمَرَّةً تَحْذِيْرٌ مِنْ بَعْضٍ، ومَرَّةً تَشْهِيْرٌ ببَعْضٍ، في غَيْرِهَا مِنْ حَرْبِ الكَلامِ والتَّجْرِيْحِ . . . وهَكَذَا جَاءَتِ الحَمِيَّةُ الجَاهِلِيَّةُ تَرْكُضُ في مَيَادِيْنِ المَرَاكِزِ التَّربَوِيَّةِ لتَأخُذَ بِما بَقِي مِنْ صَفْوَةِ أبْنَاءِ المُسْلِمِيْنَ في تَحَرُّشَاتٍ شَيْطَانِيَّةٍ!

ومِنْ بَعْدُ؛ فَإنَّ تحزُّبَاتِ (الفِكْرِ التَّرْبَوِيِّ) لم تَنْتَهِ إلىٰ طَوَائِفِ التَّربَوِيِّيْنَ في نَوادِيْهِم ومَرَاكِزِهِم؛ بَلْ غَلَتْ مَرَاحِلُهَا النَّكِدَةُ لتَأخُذَ بِما بَقِي مِنَ الأخُوَّةِ بَيْنَ عُمُوْمِ المُسْلِمِيْنَ، كَما يُبَيِّنُهُ ما هُنَا.

الخَطَأُ السَّابِعُ
التَّفرِقَةُ بَيْنَ عُمُوْمِ المُسلِمِيْنَ

فلْيَعْلَمِ الجَمِيْعُ؛ أنَّ دَعْوَىٰ المُكَاثَرَةِ والتَّكَاثُرِ بأبْنَاءِ المُسْلِمِيْنَ، والسَّعِي وراءَ تَجْمِيْعِهِم وتَقْمِيْشِهِم في قَوَالِبِ نَوادِي (التَّرْبِيَةِ)، وكَذَا عَزْلُهُم عَنْ جَمَاعَةِ المُسْلِمِيْنَ، وعَنْ إخْوانِهِم وأقْرانِهِم . . . تَحْتَ رُتَبٍ مُحْدَثَةٍ، وشَارَاتٍ دَخِيْلَةٍ: كشَبَابِ التَّربِيَةِ، والمَطَاوِعَةِ، والمُلتَزِمِيْنَ: لهُوَ مِنَ الخَطَأ البَيِّنِ، والشَّرِّ المُسْتَطِيْرِ!

فَإنَّ جَرَّ مِثْلَ هَذِهِ المُسَمَّيَاتِ وبَعْثِهَا في صُفُوْفِ الشَّبَابِ لهِيَ مِنَ الحِنْثِ العَظِيْمِ الَّذِي لَنْ يُبْقِيَ ولَنْ يَذَرَ مَا بَقِي مِنْ أُخُوَّةٍ وائْتِلافٍ بَيْنَ عُمُوْمِ المُسْلِمِيْنَ، وحَسْبُكَ أنَّ آثَارَهُ قَدْ أخَذَتْ في التَّفْتِيْتِ والتَّمْزِيْقِ هُنَا وهُنَاكَ، ونَحْنُ وهُم عَنْهَا غَافِلُوْنَ، فَمِنْهَا:

أوَّلًا: أنَّ بَعْثَ مِثْلِ هَذِهِ الأسْماءِ الدَّخِيْلَةِ: كشَبَابِ التَّربِيَةِ، والمَطَاوِعَةِ، والمُلتَزِمِيْنَ وغَيْرِهَا بَيْنَ صُفُوْفِ الأمَّةِ، كَانَ لَهُ الأثَرُ الكَبِيْرُ في إحْدَاثِ الشُّقَّةِ المَقِيْتَةِ، والفُرْقَةِ المَشْئُومَةِ، وقَطْعِ جُسُوْرِ التَّوَاصُلِ بَيْنَ جماعَةِ المُسْلِمِيْنَ وأبْنَائِهِم؛ حَيْثُ ارْتَسَمَتْ بَيْنَ المُسْلِمِيْنَ اليَوْمَ هَذِهِ الأسْماءُ الَّتِي مَا أنْزَلَ الله

بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ، فعِنْدَهَا أضْحَىٰ المُسْلِمُوْنَ عِنْدَهَا فَرِيْقَيْنِ: صَالِحِيْنَ (مَطَاوِعَةً)، وفَسَقَةً؟!

ثَانِيًا: في بَعْثِ وتَرْوِيْجِ مِثْلِ هَذِهِ الأسْماءِ حِرْمَانٌ لأكْثَرِ المُسْلِمِيْنَ عَنِ العَمَلِ لهَذَا الإسْلامِ ومُنَاصَرَتِهِ في قَضَايَاهُ النَّازِلَةِ؛ حَيْثُ أصْبَحَتْ (للأسَفِ!) غَالِبَ أعْمالِ الخَيْرِ بأيْدِي الصَّالِحِيْنَ (المَطَاوِعَةِ) وإنْ كَانَ هَذَا مِنَ الخَيْرِ، إلَّا أنَّهُ أحْدَثَ في نُفُوْسِ غَيْرِ شَبَابِ التَّرْبِيَةِ (غَيْرِ المَطَاوِعَةِ): عُزُوْفًا عَنْ عَمَلِ الخَيْرِ؛ ظَنًّا مِنْهُم أنَّ عَمَلَ الخَيْرِ لا يَكُوْنُ ولا يُقْبَلُ إلَّا عَنْ طَرِيْقِ الصَّالِحِيْنَ (المَطَاوِعَةِ)، ومِنْ تَتَبَّعَ حَالَ النَّاسَ اليَوْمَ وَجَدَ صِدْقَ مَا أقُوْلُ!

فَأيْنَ نَحْنُ اليَوْمَ مِنَ السِّيْرَةِ النَّبَوِيَّةِ وتَارِيْخِنَا الإسْلامِيِّ المَلِيءِ بالأدْوَارِ الإيْمانِيَّةِ، والأفْعَالِ الخَيْرِيَّةِ والمَوَاقِفِ التَّارِيْخِيَّةِ الَّتِي سَطَّرَهَا العَامَّةُ مِنَ المُسْلِمِيْنَ لأمَّتِهِم؟! أيًّا كَانُوا، وعلىٰ أيِّ قَدْرٍ مِنَ الإيْمانِ كَانُوا؟!

فلَيْتَ شِعْرِي؛ يَوْمَ خُذِلَتِ الأمَّةُ الإسْلامِيَّةُ في أهْلِهَا وأبْنَائِهَا مِنْ غَيْرِ شَبَابِ التَّرْبِيَةِ؛ حِيْنَما تَقَاعَسُوا عَنْ مُنَاصَرَةِ كُبْرَىٰ قَضَايَاهَا المُعَاصِرَةِ، لاسِيَّما في الوَلاءِ والبَراءِ، والمُقَاطَعَةِ التِّجَارِيَّةِ، وبَذْلِ المُسَاعَدَاتِ الخَيْرِيَّةِ لعُمُوْمِ المُسْلِمِيْنَ وغَيْرِهَا!

ثَالِثًا: قَطْعُ جُسُوْرِ التَّوَاصُلِ، وحَبَائِلِ المَوَدَّةِ والتَّآلُفِ بيْنَ جماعَةِ المُسْلِمِيْنَ؛ حَيْثُ نَرَىٰ التَّحَزُّبَ والتَّجَمُّعَ والتَّحَيُّزَ غَيْرَ مَرَّةٍ بيْنَ شَبَابِ التَّرْبِيَةِ (المَطَاوِعَةِ) وبَيْنَ إخْوَانِهِم مِنْ عُمُوْمِ المُسْلِمِيْنَ بطَرِيْقٍ أو آخَرَ.

(يُوَضِّحُهُ: أَنَّكَ تَجِدُ مِثْلَ هَذَا التَّحَيُّزِ والتَّحزُّبِ ظَاهِرًا مَاثِلًا كُلَّ يَوْمٍ، وذَلِكَ مِنْ خِلالِ التَّجمُّعَاتِ والمُنَاسَبَاتِ العَامَّةِ بَيْنَ المُسْلِمِيْنَ: مِثْلِ حَفلاتِ الزَّوَاجِ، والوَلائِمِ، والمَدَارِسِ، والحَجِّ، والعُمْرَةِ، والاعْتِكَافِ، والزِّيَارَاتِ، والرَّحَلاتِ وغَيْرِهَا ممَّا هُوَ نَذِيْرُ تَحَزُّبٍ مَقِيْتٍ، وهَذَا في حَدِّ ذَاتِهِ خَطِيْئَةٌ لا أعْلَمُ مَنْ سَيَتَحَمَّلُهَا اليَوْمَ؟!

رَابِعًا: عَزْلُ وبُعْدُ شَبَابِ (التَّرْبِيَةِ) عَنْ إخْوَانِهِم المُسْلِمِيْنَ، وهَذَا مَا نَرَاهُ ظَاهِرًا في المُنَاسَبَاتِ العَامَّةِ؛ حَيْثُ تَجِدُ التَّحَزُّبَ والتَّجمُّعَ في جُلُوْسِ الشَّبَابِ المُسْتَقِيْمِ مَعَ بَعْضِهِم البَعْضِ، كُلُّ ذَلِكَ بُعْدًا وعُزُوفًا عَنْ إخْوَانِهِم الآخَرِيْنَ، ومِنْهُ قَابَلُ الآخَرُوْنَ (غَيْرُ التَّربَوِيِّيْنَ) هَذِهَ الفَجْوَةَ والعُزْلَةَ بالجُلُوْسِ مَعَ بَعْضِهِم البَعْضِ، فَمِثْلُ هَذَا الصَّنِيْعِ كَانَ سَبَبًا في إحْدَاثِ الفَجْوَةِ، وبُعْدِ الشُّقَّةِ بَيْنَ أبْنَاءِ المُسْلِمِيْنَ بَعْضِهِم بَعْضًا، وكَانَ تَأخِيرًا في الدَّعْوَةِ، وتَمْزِيْقًا لجَمَاعَةِ المُسْلِمِيْنَ، والله أعْلَمُ.

وهَذَا مَا ذَكَرَهُ غَيرُ وَاحِدٍ مِنَ العَائِدِيْنَ إلى الله تَعَالى؛ حَيْثُ اشْتَكَى كَثِيْرٌ مِنْهُم تَأخِيْرَ اسْتِقَامَتِهِم وعَوْدَتِهِم إلى الله تَعَالى: إلى عُزُوْفِ وبُعْدِ شَبَابِ التَّرْبِيَةِ (المَطَاوِعَةِ) عَنْهُم، ممَّا كَانَ لَهُ الأثَرُ السَّيِّئُ في تَأخِيْرِ تَوْبَتِهِم إلى الله تَعَالى.

ومَهْما يَكُنْ؛ فَهَذِهِ حَقَائِقُ تَرْبَوِيَّةٌ قَدْ يَنْشَأ عَلَيْهَا جَمْهَرَةٌ كَبِيْرةٌ مِنْ شَبَابِ (التَّرْبِيَةِ) وهُم لا يَشْعُرُوْنَ!

❑ ❑ ❑

الخَطَأ الثَّامِنُ

قِيَامُ الشَّبابِ بدَوْرِ (التَّرْبِيَةِ)

نَعَم؛ لَقَدْ تَأَسَّسَتِ (التَّرْبِيَةُ) اليَوْمَ علىٰ جُرُفٍ هَارٍ؛ حَيْثُ تَوَلَّىٰ: تَرْبِيَةَ شَبَابِ بَعْضِ المَرَاكِزِ شَبَابٌ أمْثَالُهُم!

فَعِنْدَئِذٍ لَنَا أنْ نَسْأَلَ: كَيْفَ يُرَبِّي الشَّابُ شَابًا مِثْلَه؟ وكَيْفَ رَضِيَ أنْصَارُ (الفِكْرِ التَّرْبَوِيِّ) أنْ يَسْكُتُوا عَنْ مِثْلِ هَذِهِ الأغْلُوْطَاتِ التَّرْبَوِيَّةِ؟!

وقَدْ نَهَىٰ النَّبِيُّ ﷺ عَنْ أخْذِ العِلْمِ عَنِ الأصَاغِرِ، فَعَنْ أبي أُمَيَّةَ الجُمَحِيِّ، قَالَ: سُئِلَ رَسُوْلَ ﷺ عَن أشْرَاطِ السَّاعَةِ، فَقَالَ: «إنَّ مِنْ أشْرَاطِهَا أنْ يُلْتَمَسَ العِلْمُ عِنْدَ الأصَاغِرِ» أخْرَجَهُ الطَّبَرانيُّ في «المُعْجَمِ الكَبِيرِ» (٢٢/ ٩٠٨)، وابنُ المُبارَكِ في «الزُّهْدِ» (٦١)، وابنُ عَبْدِ البَرِّ في «جَامِعِ فَضْلِ العِلْمِ» (١/ ٦١٢)، وهُوَ حَسَنٌ.

وقَالَ عَبْدُ الله بنُ مَسْعُودٍ ﵁: «لا يَزَالُ النَّاسُ صَالِحِيْنَ مُتَماسِكِيْنَ (مُشْتَمِلِيْنَ)؛ مَا أتَاهُمُ العِلْمُ مِنْ أصْحَابِ محَمَّدٍ ﷺ، ومِنْ أكَابِرِهِم، فَإذَا أتَاهُم العِلْمُ مِنْ قِبَلِ أصَاغِرِهِم هَلَكُوا» أخْرَجَهُ عَبْدُ الرَّزَّاقِ في «المُصَنَّفِ» (٢٠٤٤٦)، (١١/ ٢٤٦)، وهُوَ أثَرٌ صَحِيْحٌ.

❑ ❑ ❑

الخَطَأُ التَّاسِعُ

تَغْيِيبُ (التَّربِيَةِ) عَنْ أَهْلِ العِلْمِ

إنَّ تَغْيِيبَ (التَّرْبِيَةِ) عَنْ أَهْلِ العِلْمِ: يُعْتَبَرُ فَوْضَىٰ دَعَوِيَّةٍ، واجْتِهَادَاتٍ ارْتجَالِيَّةً؛ لأنَّها علىٰ غَيْرِ أَسَاسٍ مَتِيْنٍ؛ حَيْثُ كَانَ كَثِيرٌ مِمَّنْ يَقُوْمُوْنَ علىٰ تَرْبِيَةِ شَبَابِ المُسْلِمِيْنَ اليَوْمَ لَيْسُوا مِنَ العُلَماءِ الرَّبَّانِيِّيْنَ، ولا مِنْ طُلَّابِ العِلْمِ النَّابِغِيْنَ، بَلْ لم يَرْفَعْ أكْثَرُهُم رَأْسًا للعِلْمِ الشَّرعِيِّ . . . فَأَيْنَ حِيْنَئِذٍ (التَّرْبِيَةُ) الإسْلامِيَّةُ؟!

فَكَانَ مِنَ الخطأ اليَوْمَ، أنَّكَ تَجِدُ نُظَّارِ (الفِكْرِ التَّرْبَوِيِّ) مُتَّفِقِيْنَ علىٰ أنَّ (التَّربِيَةَ) : هِيَ تَعْلِيْمُ أبْنَاءِ المُسْلِمِيْنَ أمُوْرَ دِيْنِهِم؛ قَوْلًا وعَمَلًا، والحَالَةُ هَذِهِ كَانَ علىٰ الَّذِيْنَ يَتَصَدَّرُوْنَ هَذِهِ الوَظِيْفَةَ أنْ يَكُوْنُوا عُلَماءَ أو طُلَّابَ عِلْمٍ، وإلَّا خَرَجْنَا عَنْ جَادَّةِ الدَّعْوَةِ، وتَنَكَّبْنا بُنَيَّاتِ الطَّرِيْقِ، وهُوَ كَذَلِكَ!

* * *

فإذَا كَانَتِ (التَّرْبِيَةُ): هِيَ تَرْبِيَةُ الشَّبَابِ علىٰ العِلْمِ الشَّرعِي، وزِيَادَةِ الإيْمانِ، وحُسْنِ الأخْلاقِ . . .كَما أجْمعَ عَلَيْهِ أرْبَابُ (الفِكْرِ التَّرْبَوِيِّ) اليَوْمَ، فَعِنْدَئِذٍ؛ كَانَ مِنَ الوَاجِبِ الشَّرعِيِّ، والأمَانَةِ العِلْمِيَّةِ أنْ يَقُوْمَ بـ (التَّرْبِيَةِ) علىٰ حَدِّ تَعْرِيْفِ أصْحَابِها: العُلَماءُ الرَّبَّانِيُّوْنَ، أو طُلَّابُ العِلْمِ

النَّابِغُوْنَ، لا الجَاهِلُوْنَ أو المُتَعَالمُوْنَ، سَوَاءٌ كَانُوا مِنْ خَرِّيْجِي الجَامِعَاتِ، أو السَّابِقِيْنَ الأوَّلِيْنَ في مَرَاكِزِ (التَّرْبِيَةِ)، أو مِنَ المَشَاهِيْرِ . . . !

وقَدْ مرَّ مَعَنَا سَالِفًا أنَّ ابنَ عَبَّاسٍ رضي الله عنه وغَيْرَهُ مِنَ السَّلَفِ الصَّالِحِ، قَدِ اجْتَمَعَتْ كَلِمَتُهُم: أنَّ مَعْنَىٰ قَوْلَهُ تَعَالىٰ: ﴿وَلَٰكِن كُونُواْ رَبَّٰنِيِّۦنَ﴾ [آل عمران: ٧٩]، أي: عُلماءَ حُكَماءَ فُقَهاءَ، كَما جَاءَ في «جَامِعِ البَيانِ» لابنِ جَرِيْرٍ الطَّبَرِيِّ (٥/٥٢٦).

فحِيْنَئِذٍ؛ فَلا تَفْرَحْ بقَوْلِ بَعْضِهِم: أيْنَ العُلَماءُ وطُلَّابُ العِلْمِ في هَذِهِ النَّوَادِي والمَرَاكِزِ؟ لمَاذَا لا يُشَارِكُوْنَنَا في تَرْبِيَةِ الشَّبَابِ؟ نَحْنُ لا نَكْرَهُ وُجُوْدَهُم مَعَنَا، بَلْ نُحِبُّ ذَلِكَ ونَتَمَنَّاهُ!

والجَوَابُ علىٰ هَذَا السُّؤالِ يُبَيِّنُهُ مَا يَلي.

❑ ❑ ❑

الخَطَأ العَاشِرُ

جَهْلُ (التَّرْبَوِيِّيْنَ) بدَوْرِ العُلَمَاءِ ومَكَانَتِهِم

إنَّ مِنَ الجَهْلِ عِنْدَ بَعْضِ أرْبَابِ (التَّرْبِيَةِ) اليَوْمَ أنَّهم لم يَعْرِفُوا للعُلَماءِ دَوْرَهُم، ولم يُقَدِّرُوا لهُم مَكَانَتَهُم بَيْنَ الأمَّةِ؛ لاسِيِّما بَيْنَ شَبَابِها!

لِذَا كَانَ قَوْلهُم: أيْنَ العُلَماءُ وطُلَّابُ العِلْمِ؟ وأيْنَ دَوْرُهُم في تَرْبِيَةِ الشَّبَابِ؟ دَلِيْلًا علىٰ قِلَّةِ عِلْمِهِم بالعُلَماءِ، وذَلِكَ مِنْ خِلالِ أمُوْرٍ:

أوَّلًا: أنَّهُم بقَوْلِهِم هَذَا قَدْ جَعَلُوا المَرَاكِزَ التَّربَوِيَّةَ أصْلًا، وأهْلَ العِلْمِ فَرْعًا؛ حَيْثُ ألْزَمُوا أهْلَ العِلْمِ بأنْ يَكُوْنُوا تبَعًا للمَرَاكِزِ.

ثَانِيًا: أنَّهم أيْضًا حَجَّرُوا دَوْرَ أهْلِ العِلْمِ؛ حَيْثُ ظَنُّوا أنَّ دَوْرَ أهْلِ العِلْمِ لا يَكُوْنُ إلَّا مِنْ خِلالِ مَرَاكِزِهِم ونَوَادِيْهِم، ومِنْهُ إذا لم يَكُنْ دَوْرُ العَالِمِ أو طَالَبِ العِلْمِ في هَذِهِ المَرَاكِزِ والنَّوَادِي: فَهُوَ مِنَ المُتَوَلِّيْنَ يَوْمَ الزَّحْفِ.

ثَالِثًا: أنَّهم أسَاءوا الظَّنَّ بأهْلِ العِلْمِ؛ حَيْثُ ظَنُّوا أنَّ دَوْرَهُم: هُوَ (التَّرْبِيَةُ)، ومَا عَلِمُوا أنَّ دَوْرَ العُلَماءِ: هُوَ العِلْمُ والتَّعْلِيْمُ وفَوْقَ ذَلِكَ . . . أمَّا (التَّرْبِيَةُ) فَلَمْ تكُنْ علىٰ مَرِّ التَّارِيْخِ الإسْلامِيِّ إلَّا عِنْدَ المُؤدِّبِيْنَ وأهْلِ الكَتَاتِيْبِ، فأيْنَ أهْلُ العِلْمِ مِنْ هَذَا؟!

رَابِعًا: عُزُوْفُ شَبَابِ المُسْلِمِيْنَ عَنْ أهْلِ العِلْمِ، وحِرْمَانُهُم مِنْ عِلْمِهِم

وخَيْرِهِم سَوَاءٌ في المَسَاجِدِ أو دُوْرِ العِلْمِ، ممَّا هُوَ خَارِجٌ عَنْ المَرَاكِزِ والنَّوَادِي!

خَامِسًا: جَهْلُ أهْلِ (التَّرْبِيَةِ) بدَوْرِهِم فِيْما نَحْنُ فِيْهِ؛ حَيْثُ غَفِلُوا عَنْ دَوْرِهِم الحَقِيْقِي في مِثْلِ هَذِهِ المَرَاكِزِ التَّربَوِيَّةِ، يُبَيِّنُهُ مَا يلي.

❑ ❑ ❑

الخَطَأ الحَادِي عَشَرَ

جَهْلُ أَهْلِ (التَّرْبِيَةِ) بِدَوْرِهِم التَّربَوِيِّ

إنَّ النَّاظرَ بعَيْنِ التَّحْقِيْقِ والتَّدْقِيْقِ في أدْوَارِ مَرَاكِزِ (التَّرْبِيَةِ) اليَوْمَ؛ ليَعْلَمُ يَقِيْنًا أنَّ أكْثَرَ التَّربَوِيِّيْنَ لم يَقِفُوا مَعَ دَوْرِ (التَّرْبِيَةِ) الحَقِيْقِي؛ حَيْثُ أخَذُوا يَخْلِطُوْنَ بَيْنَ الأدْوَارِ التَّربَوِيَّةِ ممَّا جَعَلَهُم في حَيْصَ بَيْصَ، ممَّا كَانَ لَهُ أثَرٌ سَيِّءٌ علىٰ تَرْبِيَةِ الشَّبَابِ، ومِنْهُ أقْبَلَتِ الأخْطَاءُ والآثَارُ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ، ممَّا حَمَلَ كَثِيْرًا مِنْ عُقَلاءِ (التَّرْبِيَةِ) علىٰ الاعْتِرَافِ بخَطَأ (التَّرْبِيَةِ) لدَيْهِم، كَما أسْقَطَ كَثِيْرًا مِنَ الشَّبَابِ في الفُتُوْرِ، ورُبَّما في الانْتِكَاسَةِ عِيَاذًا بالله!

❑ فالحَقِيْقَةُ تَفرِضُ نَفْسَهَا علىٰ أهْلِ العَقْلِ والحِجَىٰ مِنْ أرْبَابِ (الفِكْرِ التَّرْبَوِيِّ)، بأنَّ دَوْرَ مَرَاكِزِ (التَّرْبِيَةِ) يَنْبَغِي ألَّا تَخْرُجَ عَنْ دَوْرَيْنِ مُهِمَّيْنِ: عَامٍّ، وخَاصٍّ.

❑ **العَامُ**: دَوْرُ التَّصْنِيْفِ والتَّقْيِيْمِ والفَرْزِ للشَّبَابِ، وذَلِكَ بفَرْزِ وتَمْيِيْزِ قُدَرَاتِ وطَاقَةِ وجُهُوْدِ ومَوَاهِبِ الشَّبَابِ العَائِدِ إلىٰ الله تَعَالىٰ أوَّلًا بأوَّلٍ، ثُمَّ دَفْعُهُم ثَانِيًا إلىٰ مَا هُوَ ألْيَقُ بِهِم وبقُدُرَاتِهِم مُبَاشَرَةً دُوْنَ مُسَاوَمَةٍ أو مُقَامَرَةٍ.

فَمَنْ كَانَتْ قُدْرَتُهُ وهِمَّتُهُ عِلْمِيَّةً فإلىٰ العِلْمِ، وإنْ كَانَتْ دَعْوَةً فإلىٰ الدَّعْوَةِ، وإنْ كَانَتْ مُؤَهَّلَةً للحُسْبَةِ فإلَيْهَا، وهَكَذَا في غَيْرِهَا مِنْ شُعَبِ الإيْمانِ!

ومَنْ كَانَ مِنَ الشَّبَابِ لا إلىٰ هَؤلاءِ ولا إلىٰ شَيءٍ ممَّا هُنَا (مَثَلًا) فعَلَيْهِم

أنْ يَدْفَعُوْهُ لأمِّهِ وأبِيْهِ: بِرًّا وطَاعَةً، أو للتِّجَارَةِ: بَيْعًا وشِرَاءً، أو غَيْرِهِ مِنْ أعْمالِ التَّكَسُّبِ والعَمَلِ الدُّنْيَوِيِّ.

هَذَا إذَا عَلِمْنَا أنَّ أكْثَرَ شَبَابِ المُسْلِمِيْنَ اليَوْمَ: هُم لأعْمالِ التَّكَسُّبِ والتِّجَارَةِ وعِمارَةِ الأرْضِ أقْرَبُ مِنْهُم لأعْمالِ (التَّرْبِيَةِ)!

فعِنْدَئِذٍ كَانَ مِنَ الخَطَأ الشَّرعِيِّ أنَّكُم تُلْزِمُوْنَ كُلَّ وَاحِدٍ مِنْ أبْنَاءِ المُسْلِمِيْنَ بالْتِزَامِ مَرَاكِزِ (التَّرْبِيَةِ) اليَوْمَ والانْخِرَاطِ فِيْهَا، بَلْ مِثْلُ هَذَا الصَّنِيْعِ يُعْتَبَرُ تَكْلِيفًا بِما لا يُطَاقُ، وتَعْطِيلًا للحَيَاةِ الدُّنْيَا، لأنَّ النَّبِيَّ ﷺ لم يُلْزِمْ أحَدًا مِنَ المُسْلِمِيْنَ بعَمَلٍ بعَيْنِهِ (غَيْرِ العِبَادَاتِ الوَاجِبَةِ)، ولا أحَدٌ مِنَ الصَّحَابَةِ، ولا مِنَ التَّابِعِيْنَ، ولا مَنْ تَبِعَهُم بإحْسَانٍ . . . فمَنْ قَرَأ تَارِيْخَ الأمَّةِ الإسْلامِي عَلِمَ يَقِيْنًا أنَّ أهْلَ العِلْمِ والدُّعَاةِ و(المُرَبِّيْنَ) كَانُوا قَلِيْلًا، أمَّا غَيْرُهُم مِنَ العَامَّةِ سَوَاءٌ كَانُوا فِي عِبَادَاتِهِم أو تِجَارَاتِهِم أو مَوَاشِيْهِم أو مَزَارِعِهِم أو غَيْرِهَا كَانُوا هُمُ السَّوَادَ الأعْظَمَ!

فَلَيْسَ لَنَا إذَنْ؛ أنْ نُقِيْمَ مَوَازِيْنَ (التَّرْبِيَةِ) لنُحَاكِمَ أبْنَاءَ المُسْلِمِيْنَ حُبًّا وبُغْضًا، صَلاحًا وفَسَادًا، وَلاءً وعَدَاءً؛ بَلْ كُلُّهُم مُسْلِمُوْنَ، وفِي حَقِيْقَةِ الإيْمانِ مُتَفَاوِتُوْنَ!

* * *

❑ **الخَاصُّ**: دَوْرُ المُلازَمَةِ والتَّعْلِيْمِ والتَّوْجِيْهِ بقَدْرِ الإمْكَانِ والاسْتِطَاعَةِ، دُوْنَ تَقْيِيْدٍ بعِلْمٍ دُوْنَ آخَرَ، وذَلِكَ عِنْدَ التَّعَامُلِ مَعَ بَعْضِ الشَّبَابِ الظَّالِمِ لنَفْسِهِ، مِنَ الَّذِيْنَ لا يَسْتَأخِرُوْنَ لحْظَةً فِي الانْبِعَاثِ والجَرْيِ وَرَاءَ المَعَاصِي

صَغِيْرِهَا وكَبِيْرِهَا، فمَنْ هَذِهِ حَالُهُ كَانَ حَقًّا علىٰ أرْبَابِ (التَّرْبِيَةِ) مُلازَمَتُه ومُتَابَعَتُهُ إلىٰ أجَلٍ غَيْرِ مُسَمًّىٰ، وأخْذُهُ بالتَّرغِيْبِ والتَّرهِيْبِ، وشَيءٍ مِنَ التَّرْفِيْهِ والاسْتِجْمامِ . . . حَتَّىٰ إذَا اسْتَقَامَ، واشْتَدَّ سَاعِدُهُ في الطَّاعَةِ، وقَوِيَ عَزْمُهُ علىٰ التَّوْبَةِ . . . دَفَعُوْهُ مُبَاشَرَةً إلىٰ إخْوَانِهِ السَّابِقِيْنَ مِنْ أهْلِ (التَّرْبِيَةِ) العَامَّةِ؛ حَيْثُ يَأخُذُ التَّصْنِيْفُ والتَّمْيِيْزُ مِنْهُ مَأخَذَهُ في تَوْجِيْهِهِ إلىٰ العِلْمِ أو غَيْرِهِ.

* * *

عِلْمًا أنَّ الحَقِيْقَةَ (المُرَّةَ) القَائِمَةَ في مَرَاكِزِ ونَوَادِي (التَّرْبِيَةِ) اليَوْمَ: أنَّ مُعْظَمَ الشَّبَابَ عِنْدَهُم: هُم مِنَ المُسْتَقِيْمِيْنَ في الجُمْلَةِ، بَلْ هُم أكْثَرُ عَدَدًا، وأقْوَىٰ نَاصِرًا، لِذَا كَانَ مِنْ وَاجِبِ (التَّرْبِيَةِ) علىٰ أهْلِهَا أنْ يَأخُذُوا بِهَؤلاءِ الشَّبَابِ إلىٰ مَنَازِلِهِم الَّتِي أنْزَلَهُمُ الله إيَّاهَا: مِنْ عِلْمٍ، أو دَعْوَةٍ، أو جِهَادٍ، أو حِسْبَةٍ، أو عَمَلٍ مِنْ أعْمالِ البِرِّ والصِّلةِ، أو التَّكَسُّبِ والتِّجَارَةِ، أو عُلُوْمِ الدُّنْيَا أو غَيْرِهَا.

كَما قَالَ تَعَالىٰ: ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ﴾ [القمر: ٤٩]، وقَوْلُهُ تَعَالىٰ: ﴿إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّىٰ﴾ [الليل: ٤]، وقَوْلُهُ تَعَالىٰ: ﴿لَتَرْكَبُنَّ طَبَقًا عَن طَبَقٍ﴾ [الانشقاق: ١٩]. وقَوْلُهُ ﷺ: «كُلٌّ مُيَسَّرٌ لما خُلِقَ لَهُ» مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ.

* * *

أمَّا إذَا سَألْتَ عَنِ الشَّبَابِ الظَّالِمِ لنَفْسِهِ عِنْدَهُم: فَهُم أقَلُّ عَدَدًا، وأضْعَفُ نَاصِرًا!

فَعِنْدَ ذَلِكَ كَانَ عَلَيْنَا جَمِيْعًا (نَاصِحِيْنَ ومُرَبِّيْنَ) أنْ نَعْتَرِفَ بخَطَئِنَا الدَّعْوِيِّ الَّذِي لم تَزَلْ تَسْتَمْرِيْهِ مَرَاكِزُ ونَوَادِي (التَّرْبِيَةِ) في التَّعَامُلِ مَعَ أبْنَاءِ المُسْلِمِيْنَ اليَوْمَ، يُوَضِّحُهُ مَا يَلي.

❑ ❑ ❑

الخَطَأُ الثَّاني عَشَرَ

الظَّنُّ بأبْنَاءِ المُسْلِمِيْنَ

نَعَم؛ لَقَدْ أسَاءَتْ بَعْضُ مَرَاكِزِ ونَوَادِي (التَّرْبِيَةِ) اليَوْمَ بالعَائِدِيْنَ إلىٰ الله تَعَالىٰ مِنْ أبْنَاءِ المُسْلِمِيْنَ؛ وذَلِكَ حِيْنَما قَامَرَتْ بقُدُرَاتِ الشَّبَابِ وجُهُوْدِهِم العِلْمِيَّةِ والعَمَلِيَّةِ علىٰ حَدٍّ سَوَاءٍ، وذَلِكَ في تَكْيِيْفِ بَرَامِجِ المَرْكَزِ علىٰ طَرِيْقَةٍ ضَيِّقَةٍ، وقَانُوْنٍ وَاحِدٍ لا يَحْتَمِلُ سِوَىٰ البَرَامِجِ المُعَدَّةِ: مِنْ تَقْسِيْمِ الأوْقَاتِ وتَوْزِيْعِ الأدْوَارِ وتَرْتِيْبِ الأعْمالِ وإقَامَةِ المَوَاعِظِ العَامَّةِ، ووَضْعِ الدُّرُوْسِ المُخْتَصَرَةِ (المُعْتَصَرَةِ) في غَيْرِهَا مِنَ الأعْمالِ والأدْوَارِ الَّتِي يُحْسِنُهَا: المُثَقَّفُ والعَالمُ، الضَّعِيْفُ والقَوِي، المَرِيْضُ والصَّحِيْحُ، الغَبِيُّ والذَّكِيُّ مِنْ أبْنَاءِ المُسْلِمِيْنَ، لِذَا لم يَكُنْ للقُدُرَاتِ والفَوَارِقِ اعْتِبَارٌ عِنْدَ رُوَّادِ (التَّرْبِيَةِ) اليَوْمَ في تَصْنِيْفِ وتَقْيِيْمِ الشَّبَابِ، بَلْ كَادَتْ بَرَامِجُ مَجَامِعِ (التَّرْبِيَةِ) تُصْبِحُ وَصْفَةً طَبِّيَّةً وَاحِدَةً لجَمِيْعِ شَبَابِ المَرْكَزِ أيًّا كَانُوا، ومَهْمَا كَانُوا!

ومِثْلُ هَذِهِ الإسَاءَةِ الظَّنِّيَّةِ، وهَذَا التَّكْيِيْفِ التَّربَوِيِّ يُعْتَبَرُ مُقَامَرَةً بقُدُرَاتِ أبْنَاءِ المُسْلِمِيْنَ، وذَلِكَ عِنْدَمَا ظَنُّوْا ظَنَّ السَّوْءِ بالشَّبَابِ فَحَرَمُوْهُم مَا خُلِقُوا لَهُ: مِنْ عِلْمٍ وتَعَلُّمٍ، وكُلِّ مَا مِنْ شَأنِهِ يَلِيْقُ بطُمُوْحِهِم وقُدُرَاتِهِم.

* * *

ولَيْسَ عَنَّا تَارِيْخُ الإسْلامِ بِبَعِيْدٍ؛ فَقَدْ ضَرَبَ لَنَا التَّارِيْخُ أسْمَىٰ الصُّوَرِ، وأعْلَىٰ المَوَاقِفِ ممَّا كَانَتْ بحَقٍّ: غُرَّةً بَيْضَاءَ في جَبِيْنِ تَارِيْخِنَا.

فَخُذْ مَثَلًا: إسْلامَ الصَّحَابَةِ وغَيْرِهِم مِنَ السَّلَفِ الصَّالِحِ؛ لتَعْلَمَ يَقِيْنًا تِلْكَ القُدُرَاتِ العَالِيَةَ، والعَزَائِمَ الصَّادِقَةَ، وكَذَا مَنْ قَرَأَ عَنِ العَائِدِيْنَ إلىٰ الله تَعَالىٰ مِنْ أبْنَاءِ المُسْلِمِيْنَ عَلِمَ حَقِيْقَةَ تِلْكَ الجُهُوْدِ والمَقَامَاتِ السَّامِيَةِ: مَا بَيْنَ عُلُوِّ كَعْبٍ في العِلْمِ، وكَبِيْرِ دَعْوَةٍ إلىٰ الله تَعَالىٰ، وعِزَّةِ جِهَادٍ لإعْلاءِ كَلِمَةِ الله، في غَيْرِهَا مِنْ دُرَرِ الزَّمَانِ، ونَوَادِرِ الحَدَثَانِ!

* * *

ومَهْما يَكُنْ؛ فَلا تَذْهَبْ بَعِيْدًا؛ فَقَدَ ضَرَبَ أيْضًا العَائِدُوْنَ إلىٰ الله تَعَالىٰ في زَمَانِنَا أرْوَعَ الصُّوَرِ، وأبْلَغَ المَوَاقِفِ، وإخَالُكَ لا تَشُكُّ طَرْفَةَ عَيْنٍ أنَّ أكْثَرَ عُلَماءِ عَصْرِنَا وطُلَّابِهِ وقَادَتِهِ وبُلَغَائِهِ وشُعَرَائِهِ . . . لم تَطَأْ أقْدَامُهُم يَوْمًا مِنَ الأيَّامِ مَرْكَزًا أو نَادِيًا تَرْبَوِيًّا، بَلْ إنَّهُم حِيْنَما عَادُوا إلىٰ الله تَعَالىٰ واسْتَقَامُوا: أخَذَتْهُم هِمَمُهُم وعَزَائِمُهُم إلىٰ السَّدَادِ والسُّمُوِّ والعُلُوِّ، فَلا تَسْمَعُ لهُم رِكْزًا إلَّا في حَلَقَاتِ العِلْمِ، أو مَيَادِيْنِ الدَّعْوَةِ، أو سَاحَاتِ الجِهَادِ، أو أبْوَابِ الخَيْرِ.

ولا أُبَالِغُ إذَا قُلْتُ: إنَّني لا أعْلَمُ أحَدًا مِنْ أهْلِ زَمَانِنَا ممَّنْ بَرَزَ علىٰ أقْرَانِهِ، أو انْفَرَدَ بعُلُوِّ هِمَّتِهِ، أو نَبَغَ في عِلْمٍ، أو قَارَعَ حُفَّاظَ الحَدِيْثِ . . . كَانَ مِنَ الَّذِيْنَ خَالَطُوا نَوَادِي ومَرَاكِزِ (التَّرْبِيَةِ)، أمَّا مَنْ خَاضَ مِنْهُم ولَوْ مَرَّةً

في مِثْلِ هَذِهِ المرَاكِزِ فَلا شَكَّ أَنَّهُ لم يَظْهَرْ أو يُفْلِحْ إلَّا عِنْدَمَا طَلَّقَ مجَامِعَ (التَّرْبيَةِ) طَلاقًا لا رَجْعَةَ فِيْهِ.

وأدَلُّ شَيءٍ علىٰ ذَلِكَ؛ أنَّ كَثِيرًا مِنْ أبْنَاءِ المُسْلِمِيْنَ اليَوْمَ ممَّنْ تَجَارَتْ بِهِم مَرَاكِزُ ونَوَادِي (التَّرْبيَةِ): هُمْ أَقَلُّ هِمَّةٍ في العِلْمِ، وأضْعَفُ عَزِيْمَةٍ في الطَّاعَةِ، ومِنْ وَرَاءِ ذَلِكَ وأمَامِهِ: أنَّ الانْتِكَاسَةَ (عِيَاذًا بالله) غَالِبًا لم تَأخُذْ سَبِيْلَهَا إلَّا في شَبَابِ هَذِهِ المَرَاكِزِ التَّربَوِيَّةِ . . . وهَذَا وغَيْرُهُ لا تَجِدُهُ (غَالبًا) عِنْدَ الَّذِيْنَ أخَذُوا طَرِيْقًا سَرَبًا إلىٰ طَلَبِ العِلْمِ الشَّرعِي: مِنْ قُرآنٍ وسُنَّةٍ وتَفْسِيرٍ وعَقِيْدَةٍ وفِقْهٍ . . . إلَخْ.

وقَدْ قَالَ لي (شَابٌ) مِنْ رُوَّادِ المَرَاكِزِ التَّربَوِيَّةِ: والله (يَا شَيْخُ) إنَّني أعْرِفُ خمْسَةَ عَشَرَ شَابًا مِنْ شَبَابِ المَرْكَزِ الفُلاني (الَّذِي كَانَ فِيْهِ) قَدِ انْتَكَسُوا عِيَاذًا بالله!

فَقُلْتُ: لا تَسْتَغْرِبْ مِنْ مِثْلِ هَذَا؛ لأنَّ (التَّرْبِيَةَ) الضَّعِيْفَةَ إذَا كَانَتْ لا تُغَذِّي الشَّابَ إلَّا في وَقْتٍ دُوْنَ آخَرَ (الصَّيْفِيَّاتِ) ثُمَّ تَتْرُكُهُ علىٰ ضَعْفٍ في الإيْمانِ والعِلْمِ يَعِيْشُ في خِضَمِّ الشَّهَوَاتِ المُحْكَمَةِ، والشُّبُهَاتِ الرَّائِجَةِ، سَيَكُوْنَ غَالِبًا صَرِيْعَ المَعْصِيَةِ، ثُمَّ الانْتِكَاسَةِ عِيَاذًا بالله، إلَّا مَنْ ثَبَّتَهُ الله تَعَالىٰ!

لِذَا كَانَ علىٰ أرْبَابِ (التَّرْبِيَةِ) أنْ يَدْفَعُوا مَنْ يَرَوْنَهُ مِنْ أبْنَاءِ المُسْلِمِيْنَ ذَا هِمَّةٍ عِلْمِيَّةٍ إلىٰ العِلْمِ حَثًّا وتَشْجِيْعًا، وهَكَذَا في غَيْرِهِ مِنْ شُعَبِ الإيْمانِ، أمَّا

أنْ يَتَعَامَلُوا مَعَ الأصِحَّاءِ تَعَامُلَ المَرْضَىٰ، والمُتَّقِيْنَ تَعَامُلَ الظَّالِمِيْنَ، وأهْلِ العَزِيْمَةِ تَعَامُلَ ضَعِيْفي العَزِيْمَةِ، كُلُّ ذَلِكَ تَحْتَ وَصَفْةٍ طِبِّيَّةٍ وَاحِدَةٍ يَصْرِفُهَا صَيَادِلَةُ (الفِكْرِ التَّرْبَويِّ)، إنَّ مِثْلَ هَذَا التَّعَامُلِ يُعْتَبَرُ مُغَالَطَةً دَعَوِيَّةً في حَقِّ أبْنَاءِ المُسْلِمِيْنَ!

❑ ❑ ❑

الخَطَأ الثَّالث عَشَرَ

تَرْبِيَةُ الشَّبَابِ علىٰ المُلازَمَةِ الصُّوفِيَّةِ

وهَذَا مَا قَرَّره أحَدُ كِبَارِ التَّرْبَوِيِّيْنَ ومُنَظِّرِيْهِم، وهُوَ الأسْتَاذُ الفَاضِلُ محَمَّدُ قُطْبِ حَفِظَهُ الله؛ حِيْنَما سُئِلَ عَنْ فَتْرَةِ التَّربِيَةِ، وعَنِ الَّذِيْنَ يَسْتَطِيْلُوْنَ طَرِيْقَهَا، ويُرِيْدُوْنَ قَطْفَ ثَمَرَةَ (التَّربِيَةِ) بَيْنَ الشَّبَابِ، فَقَالَ مَا نَصُّهُ في كِتَابِهِ «وَاقِعِنا المُعَاصِرِ» (٤٨٦): «أمَّا الَّذِيْنَ يَسْألُوْنَ إلىٰ مَتَىٰ نَظَلُّ نُرَبِّي، دُوْنَ أنْ نَعْمَلَ؟ فَلا نَسْتَطِيْعُ أنْ نُعْطِيَهُم مَوْعِدًا مُحَدَّدًا، فَنَقُوْلُ لهُم: عَشْرَ سَنَوَاتٍ مِنَ الآنِ، أو عِشْرِيْنَ سَنَةً مِنَ الآنَ، فَهَذَا رَجْمٌ بالغَيْبِ لا يَعْتَمِدُ علىٰ دَلِيْلٍ وَاضِحٍ، وإنَّما نَسْتَطِيْعُ أنْ نَقُوْلَ لهُم: نَظَلُّ نُرَبِّي حَتَّىٰ تتَكَوَّنَ القَاعِدَةُ المَطْلُوْبَةُ بالحَجْمِ المَعْقُوْلِ» انْتَهَىٰ.

وهَذَا مِنْهُ حَفِظَهُ الله دَعْوَةٌ ضِمْنِيَّةٌ للمُلازَمَةِ المَذْمُوْمَةِ، لأنَّ مُلازَمَةَ الطَّالِبِ للشَّيْخِ إذَا لم تكُنْ طَلَبًا للعِلْمِ والتَّعَلُّمِ: فَهِيَ صُوفِيَّةٌ مُبْتَدَعَةٌ، والله أعْلَمُ.

هَذَا إذَا عَلِمْنا أنَّ (التَّربِيَةَ) عِنْدَ الشَّيْخِ محَمَّدِ قُطْبِ حَفِظَهُ الله، وعِنْدَ غَيْرِهِ مِنْ نُظَّارِ التَّربِيَةِ: هِيَ مُلازَمَةُ الشَّابِ للمُرَبِّيْنَ مِنْهَم إلىٰ أجَلٍ غَيْرِ مُسَمَّىٰ، سَوَاءٌ دَاخِلَ مَحَاضِنِهِم أو غَيْرِهَا.

أمَّا مُلازَمَةُ الشَّابِ لأهْلِ العِلْمِ، وحِلَقِ العِلْمِ، فَما أرَادُوْهُ، كَما هُوَ ظَاهِرُ دَوْرِ التَّرْبِيَةِ، وأقْوَالِ أكْثَرِ رُمُوْزِهَا ومُنَظِّرِيْهَا، والله أعْلَمُ.

ومَا نَقْلِي هُنَا عَنِ الأسْتَاذِ محمَّدٍ قُطْبٍ حَفِظَهُ الله إلَّا أنَّ كَثِيْرًا ممَّنْ ألَّفَ في «التَّرْبِيَةِ» اجْتَرُّوا هَذِهِ الكَلِمَةَ مِنْهُ في مُصَنَّفَاتِهِم ومُحَاضَرَاتِهِم كَأنَّها قَضِيَّةٌ مُسَلَّمَةٌ، لا تَقْبَلُ الشَّكَّ، لِذَا كَانَ التَّنْبِيْهُ!

* * *

ثُمَّ لا شَكَّ أنَّ مُعْظَمَ مَرَاكِزِ (التَّرْبِيَةِ) اليَوْمَ لَمَّا جَهِلَتْ دَوْرَهَا الدَّعْوِي، حَيْثُ لم تُقَيِّمْ قُدُرَاتِ أبْنَاءِ المُسْلِمِيْنَ، ولم تُقَدِّرِ الفَوَارِقَ بَيْنَهُم، ولم تُفَرِّقْ بَيْنَ تَرْبِيَةٍ عَامَّةٍ وبَيْنَ خَاصَّةٍ[(١)]، كَانَ الخَطَأ؛ حَيْثُ نَرَىٰ أكْثَرَ رُوَّادِ هَذِهِ المَرَاكِزِ التَّرْبَوِيَّةِ اليَوْمَ لا يَسْتَأخِرُوْنَ سَاعَةً ولا يَسْتَقْدِمُوْنَ في إبْقَاءِ الشَّابِ مَعَهُم السِّنِيْنَ الخَوَالِيَا دُوْنَ اعْتِبَارٍ لشَيءٍ، اللهمَّ المُلازَمَةُ والبَقَاءُ مُرِيْدًا مُطِيْعًا لقَادَةِ (التَّرْبِيَةِ) في مَرَاكِزِهِم، ويَشْهَدُ لِذَلِكَ: أنَّ مِيْزَانَ التَّقْدِيْمِ والتَّأخِيْرِ لَدَىٰ الشَّبَابِ عِنْدَهُم هُوَ أقْدَمُهُم تَرْبِيَةً، وأكْثَرُهُم مُلازَمَةً، وأسْهَلُهُم طَاعَةً . . . لِذَا تَجِدُهُم لا يَسْتَأخِرُوْنَ لحَظَةً في شِرَاءِ السَّيَّارَاتِ الكَبِيْرَةِ المُسَمَّاةِ: الحَافِلاتُ (البَاصَاتُ)، واسْتِئْجَارِ البُيُوْتِ والدُّوْرِ، وأخْذِ رُخَصِ التَّحْجِيْجِ وغَيْرِ ذَلِكَ ممَّا هُوَ شَأنُ الاحْتِوَاءِ والحِفَاظِ علىٰ إبْقَاءِ الشَّبَابِ مَعَهُم، ومُلازَمَتُهُم للمَرَاكِزِ التَّرْبَوِيَّةِ بقَدْرِ مَا يَمْلِكُوْنَ مِنْ تَجْمِيْعٍ وتَرْفِيْهٍ وسِيَاحَةٍ!

---

(١) انْظُرْ الفَرْقَ بَيْنَ التَّرْبِيَةِ الخاصَّةِ والعَامَّةِ ص.

ومِنْ وَرَاءِ ذَلِكَ؛ أَنَّكَ إذَا سَأَلْتَ عَنِ الفَتْرَةِ التَّرْبَوِيَّةِ الَّتِي قَضَاهَا الشَّابُ الفُلاني مَعَهُم، لقَالُوا مِلءَ أفْوَاهِهِم: هَذَا الشَّابُ مَعَنَا (ولله الحَمْدُ) مُنْذُ سَنَةٍ، وهَذَا مُنْذُ سَنَتَيْنِ، وهَذَا مِنْ مُؤَسِّسِي المَرْكَزِ، وهَذَا قَدِيْمٌ مُنْذُ أنْ خَلَقَ الله (التَّرْبِيَةَ) في بِلادِنَا، وهَكَذا يَكِيْلُوْنَ هَذِهِ المَدَائِحِ، ويَلُوْكُوْنَها دُوْنَ رَقِيْبٍ أو حَسِيْبٍ!

ومِنَ الحَقَائِقِ الغَائِبَةِ علىٰ أرْبَابِ (الفِكْرِ التَّرْبَويِّ) في مَرَاكِزِ (التَّرْبِيَةِ) اليَوْمَ، أنَّهُم خَلَطُوا بَيْنَ المُلازَمَةِ الشَّرْعِيَّةِ والمُلازَمَةِ البِدْعِيَّةِ!

(يُوَضِّحُهُ: أنَّ المُلازَمَةَ الشَّرْعِيَّةَ للمُسْلِمِ لا تَكُوْنُ إلَّا عِنْدَ أهْلِ العِلْمِ لأخْذِ العِلْمِ عَنْهُم، أو عِنْدَ الأبَوَيْنِ لأخْذِ البِرِّ فِيْهِم، أمَّا مُلازَمَةُ (المُرَبِّي)، أو شَبَابِ (التَّرْبِيَةِ)، أو ممَّنْ لَيْسَ مِنْ أهْلِ العِلْمِ فَهَذِهِ مِنْ إفْرَازَاتِ الصُّوْفِيَّةِ وبِدَعِهِم في حَقِّ المُرِيْدِ عِنْدَهُم (أبَيْنَا أم ارتَضَيْنَا!)

ومِنْ خِلالِ هَذَا كَانَ علىٰ شَبَابِ (التَّرْبِيَةِ) بعَامَّةٍ، والمُرَبِّيْنَ بخَاصَّةٍ أنْ يَتَّقُوا الله تَعَالىٰ في تَسْوِيْقِ هَذِهِ المُلازَمَةِ، وأنْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ مَا هُوَ شَرْعِيٌّ ومَا هُوَ بِدْعِيٌّ!

❑ ❑ ❑

الخَطَأ الرَّابعَ عَشَرَ

تَقْدِيسُ الأشْخَاصِ

إنَّ تَقْدِيْسَ الأشْخَاصِ أيًّا كَانَتْ مَكَانَتُهُم الاجْتِمَاعِيَّةِ، أو مَنْزِلَتُهُم العِلْمِيَّةِ مِنَ الضَّلالِ والفَسَادِ الَّذِي حَذَّرَ الله تَعَالىٰ مِنْهُ في كِتَابِهِ بِقَوْلِهِ:

﴿ٱتَّخَذُوٓاْ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعْبُدُوٓاْ إِلَٰهًا وَٰحِدًا لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ سُبْحَٰنَهُۥ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [التوبة: ٣١].

وكَذَا لَمَّا قَرَأَ النَّبِيُّ ﷺ هَذِهِ الآيَةَ لعَدِيِّ بنِ حَاتِمٍ رضي الله عنه، فَقَالَ لَهُ عَدِيٌّ: إنَّا لَسْنَا نَعْبُدُهُم، قَالَ: «ألَيْسَ يُحَرِّمُوْنَ مَا أحَلَّ الله فَتُحَرِّمُوْنَهُ، ويُحِلُّوْنَ مَا حَرَّمَ الله فَتُحَلِّلُوْنَهُ؟»، فَقُلْتُ: بَلىٰ! قَالَ: «فَتِلْكَ عِبَادَتُهُم» أخْرَجَهُ أحْمَدُ (٤/ ٢٥٧، ٣٧٨)، وهُوَ صَحِيْحٌ.

وقَوْلُهُ ﷺ: «... **وإيَّاكُم والغُلُوَّ في الدِّيْنِ، فإنَّما هَلَكَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُم بالغُلُوِّ في الدِّيْنِ**» أخْرَجَهُ أحْمَدُ (١٨٥١)، وهُوَ صَحِيْحٌ.

* * *

وقَالَ شَيْخُ الإسْلامِ ابنُ تَيْمِيَّةَ رحمه الله في «مَجمُوعِ الفَتَاوىٰ» (٢٠/ ١٦٤):

«فَدِيْنُ المُسْلِمِيْنَ مَبْنِيٌّ علىٰ اتِّبَاعِ كِتَابِ الله وسُنَّةِ نَبِيِّهِ ومَا اتَّفَقَتْ عَلَيْهِ الأمَّةُ

فَهٰذِهِ الثَّلاثَةُ هِيَ أُصُوْلٌ مَعْصُوْمَةٌ، ومَا تَنَازَعَتْ فِيْهِ الأُمَّةُ رَدُّوْهُ إلىٰ الله والرَّسُوْلِ.

ولَيْسَ لأحَدٍ أنْ يُنَصِّبَ للأُمَّةِ شَخْصًا يَدْعُو إلىٰ طَرِيْقَتِه، ويُوَالي ويُعَادِي عَلَيْهَا غَيْرِ النَّبِيِّ، ولا يُنَصِّبُ لهُم كَلامًا يُوَالي عَلَيْهِ ويُعَادِي غَيْرَ كَلامِ الله ورَسُوْلِهِ وما اجْتَمَعَتْ عَلَيْهِ الأُمَّةُ، بَلْ هَذَا مِنْ فِعْلِ أهْلِ البِدَعِ الَّذِيْنَ يُنَصِّبُوْنَ لهُم شَخْصًا أو كَلامًا يُفَرِّقُوْنَ بِهِ بَيْنَ الأُمَّةِ يُوَالُوْنَ بِهِ علىٰ ذَلِكَ الكَلامِ، أو تِلْكَ النِّسْبَةِ ويُعَادُوْنَ» انْتَهىٰ.

* * *

لِذَا كَانَ تَعْظِيْمُ وتَقْدِيْسُ رُمُوْزِ (التَّرْبِيَةِ) في قُلُوْبِ الشَّبَابِ، وتَعَلُّقُهُم بِكُلِّ ما يَقُوْلُوْنَ ويَفْعَلُوْنَ، وتَقْدِيْمُهُم علىٰ أهْلِ العِلْمِ الرَّبَّانِيِّيْنَ، وتَجْرِيْمُ مَنْ يُخَطِّئُهُم، واتِّهَامُ مَنْ يَنْصَحُهُم ولَوْ كَانَ بحَقٍ، إنَّ مِثْلَ هَذَا الصَّنِيْعِ يُعْتَبَرُ نَكْسَةً تَرْبَوِيَّةً في بِنَاءِ أجْيَالِ المُسْلِمِيْنَ، ونَخْرًا في عَقِيْدَتِهِم، والأيام حبلىٰ!

فَإذَا كَانَتِ الرَّافِضَةُ (المَلْعُوْنَةُ) تَدَّعِي العِصْمَةَ لأئِمَّتِهِم بلِسَانِ المَقَالِ، فَإنَّ (التَّرْبِيَةَ) اليَوْمَ تَدَّعِيْهَا بِلِسَانِ الحَالِ . . . فلْيَحْذَرُوا!

* * *

ولَهُم في هَذِهِ (التَّرْبِيَةِ) وَقَائِعُ وفَوَاجِعُ، وذَلِكَ حِيْنَما يَرْبِطُوْنَ الشَّابَ عِنْدَهُم ببَعْضِ رُمُوْزِ (التَّرْبِيَةِ)، ويُحَذِّرُوْنَهُ مِنَ الأخْذِ مِنْ غَيْرِهِم مَهْمَا يَكُنْ، ولَيْسَ لَهُ أيْضًا أنْ يَتَمَرَّدَ علىٰ مَرَاسِيْمِ الطَّاعَةِ الَّتِي يَفْرِضُهَا قَادَةُ (التَّرْبِيَةِ)

عَلَيْهِم، وهَكَذَا؛ حَتَّىٰ كَانَ الحَالُ ببَعْضِهِم أَنَّه إِذَا أَرَادَ أَنْ يَطْلُبَ العِلْمَ مِنْ غَيْرِ رُمُوْزِهِم، ومِنْ خَارِجِ مَرَاكِزِهِم: تَخفَّىٰ في ذِهَابِهِ، وتَلَوَّنَ في إِيَابِهِ، كَأَنَّهُ إِلىٰ طَلَبِ المَعْصِيَةِ أَقْرَبُ مِنْهُ إِلىٰ طَلَبِ الطَّاعَةِ فِيْمَا يَفْعَلُ ويُرِيْدُ، ولا تَظُنَّ أَنَّ هَذَا ضَرْبٌ مِنَ الخَيَالِ أو نَسْجٌ مِنَ الذَّاكِرَةِ؛ بِلْ هُوَ أَظْهَرُ مِنْ أَنْ يُنْكَرَ، وهَلْ وَاقِعُ طُلَّابِ العِلْمِ الَّذِيْنَ لَفَظُوا (التَّرْبِيَةَ) إِلَّا دَلِيْلًا قَائِمًا يَشْهَدُ بذَلِكَ، وفَوْقَهُ!

ومِنْ وَرَاءِ ذَلِكَ؛ أَنَّهُم إِذَا عَلِمُوا بشَابٍّ قَدْ تَمَرَّدَ عَلَيْهِم، أَخَذُوا في التَّحْذِيْرِ والتَّنْفِيْرِ مِنْهُ، ورَمْيِهِ بقَبِيْحِ العِبَارَةِ: فمَرَّةً يَرْمُوْنَهُ بالجَهَالَةِ، ومَرَّةً بالعَمالَةِ، ومَرَّةً بالثَّقَالَةِ؛ حَتَّىٰ إِذَا بَرَزَ ونَبَغَ في العِلْمِ: رَمَوْهُ بِشَقِّ الصَّفِّ، أو بقِلَّةِ العِلْمِ، أو بالجَهْلِ بالوَاقِعِ، أو بالجُمُوْدِ، أو بالتَّشْدِيْدِ، أو بالتَّكْفِيْرِ . . . ومِنْ أَخْطَرِهَا وآخِرِهَا: أَنَّهُ إِرْهَابيٌّ!

❑ ❑ ❑

الخَطَأُ الخَامِسَ عَشَرَ

تَحْجِيرُ ثَقَافَةِ أَبْنَاءِ المُسْلِمِينَ

لا شَكَّ أنَّ الشَّابَ إذَا تَعوَّدَ القِرَاءَةَ علىٰ فِكْرٍ وَاحِدٍ، ومَنْهَجٍ وَاحِدٍ سَيَكُوْنُ ابْنًا لهَذِهِ الثَّقَافَةِ، وحَامِيًا لهَا بِكُلِّ مَا يَمْلِكُ؛ لأنَّها أصْبَحَتْ حَصِيْلَتَهُ العِلْمِيَّةَ، وأيَّامَ حَيَاتِهِ، فَكُلُّ مَنْ نَالهَا ولَوْ بَطَرَفٍ مِنَ التَّصْحِيْحِ، ومَسٍّ مِنَ النَّصِيْحَةِ، فَلا يَلُوْمَنَّ إلَّا نَفْسَهُ، فَعِنْدَئِذٍ تَبْدَأ حَرْبُ الوَلاءِ والبَرَاءِ، والتَّحْذِيْرِ والتَّنْفِيْرِ، والبَغْي بغَيْرِ حَقٍّ، والقَوْلِ بالبَاطِلِ والظَّنِّ، وهَكَذَا يَفْعَلُ الطَّبْعُ بصَاحِبِهِ إذَا خَالَطَهُ الهَوَىٰ.

* * *

والدَّلِيْلُ هُنَا؛ أنَّ قَائِمَةَ الكُتُبِ الَّتِي تَنْشُرُهَا أكْثَرُ مَرَاكِزِ ونَوَادِي (التَّرْبِيَةِ) اليَوْمَ بَيْنَ شَبَابِها لا تَخْرُجُ في جُمْلَتِهَا عَنْ كُتُبِ أرْبَابِ (الفِكْرِ التَّرْبَوِيِّ)، سَوَاءٌ كَانَتْ: كُتُبًا، أو كُتَيِّبَاتٍ، أو مَطْوِيَّاتٍ، أو مُحَاضَرَاتٍ، أو نَدَوَاتٍ، أو لِقَاءَاتٍ أو غَيْرَهَا.

فَحِيْنَئِذٍ؛ تَجِدُ الشَّابَ بَيْنَهُم أصْبَحَ مُقَيَّدًا بسَلاسِلِ (التَّرْبِيَةِ)، دَائِرًا في فَلَكِهَا، خَارِجًا بسَيْلٍ مِنَ الثَّقَافَاتِ التَّرْبَوِيَّةِ: مِنْ دَقَائِقِ مُخَطَّطَاتِ العَدُوِّ، وفِقْهِ الوَاقِعِ، ومُطَالَعَةٍ لشَخْصِيَّاتِ (التَّرْبِيَةِ)، ودِرَاسَةٍ للجمَاعَاتِ

المُعَاصِرَةِ، ودِرَاسَةٍ للفِكْرِ الغَرْبيِّ، وتَحْصِيْلٍ للألْقَابِ العِلْمِيَّةِ، وطَلَبٍ للظُّهُوْرِ والشُّهْرَةِ . . . إلَّا مَا رَحِمَ الله!

ومِنْ وَرَائِهَا: مُسَابَقَاتٌ ثَقَافِيَّةٌ، ودَوْرَاتٌ في فَنِّ الإلْقَاءِ، وفَنِّ الحِوَارِ، وكَسْبِ الآخَرِيْنَ، ومِنْ أمَامِهَا: دَوْرَاتٌ في البَرْمَجَةِ اللُّغَوِيَّةِ العَصَبِيَّةِ (NLP) الَّتِي لم يَزَلْ يَتَقَاطَرُ عَلَيْهَا تُبَّاعُ ومُرِيْدُو (التَّرْبِيَةِ) يَوْمًا بَعْدَ يَوْمٍ!

وعِنْدَ تَمْحِيْصِ أرْبَابِ (الفِكْرِ التَّرْبَويِّ) تَجِدُ أمْثَلَهُم طَرِيْقَةً: مَنْ كَانَ مُفَكِّرًا إسْلامِيًّا، أو مُحَلِّلًا سِيَاسِيًّا، أو عَالِمًا بالفِكْرِ الغَرْبي، أو مُتَابِعًا لدَقَائِقِ مُخَطَّطَاتِ اليَهُوْدِ والنَّصَارَىٰ علىٰ حَدٍّ سَوَاءٍ، أو مُدَرِّبًا لدَوْرَاتِ البَرْمَجَةِ اللُّغَوِيَّةِ العَصَبِيَّةِ!

فَعِنْدَئِذٍ؛ لا تَفْرَحْ بِهِم: عُلَماءُ شَرِيْعَةٍ، أو حُفَّاظُ سُنَّةٍ، أو دُعَاةُ تَوْحِيْدٍ، أو حُذَّارُ شِرْكٍ، أو أمَّارُوْنَ بالمَعْرُوْفِ نَهَّاؤنَ عَنِ المُنْكَرِ، أو شُدَاةُ عِلْمٍ وطُلَّابُهُ، إلَّا مَا رَحِمَ الله!

❑ ❑ ❑

الخَطَأ السَّادِسَ عَشَرَ
تَوْظِيفُ العِلْمِ لتَعْزِيزِ (الفِكْرِ التَّرْبَوِيِّ)

نَعَم؛ إنَّ بَعْضًا مِنْ مَجَامِعِ ومَحَاضِنِ (التَّرْبِيَةِ) اليَوْمَ لهِيَ سَاعِيَةٌ في تَوْظِيْفِ بَعْضِ العِلْمِ في تَعْزِيْزِ مَرَاكِزِهِم التَّرْبَوِيَّةِ بطَرِيْقٍ أو آخَرَ، وذَلِكَ مِنْ خِلالِ بَدَائِلَ وَهمِيَّةٍ أوْجَدُوْهَا، وحَبَائِلَ عَنْكَبُوْتِيَّةٍ حَبَكُوْهَا ليَتَسَلَّلُوا مِنْ خِلالهَا إلىٰ مَسَارِبِ (الفِكْرِ التَّرْبَوِيِّ) القَابِضَةِ علىٰ تَلابِيْبِ أبْنَاءِ المُسْلِمِيْنَ، وذَلِكَ في وُجُوْدِ بَعْضِ الدُّرُوْسِ العِلْمِيَّةِ الَّتِي تُلْقَىٰ مِنْهُم وبَيْنَهُم، لاسِيَّما في شَرْحِ المُخْتَصَرَاتِ (المُعْتَصَرَاتِ) مِنْ كُتُبِ أهْلِ العِلْمِ، وأشَدُّ ضَرَرًا مِنْ ذَلِكَ وفَوْقَهُ أنَّ الَّذِي يَتَوَلَّىٰ مِثْلَ هَذِهِ الحَلَقَاتِ العِلْمِيَّةِ في مُخْتَصَرَاتِها عِنْدَهُم: هُم أغْمَارٌ أطْمارٌ، لَيْسَ لهُم في العِلْمِ الشَّرعِي نَاقَةٌ ولا جَمَلٌ، اللهمَّ أنَّهُم مِنَ السَّابِقِيْنَ الأوَّلِيْنَ في مَحَاضِنِ (الفِكْرِ التَّرْبَوِيِّ)، أو ممَّنْ يَمْلِكُوْنَ دَوْرَةً في فَنِّ الإلْقَاءِ، أو مِنْ خرِّيْجِي الجَامِعَاتِ، أو غَيْرِهَا!

❑ ومَهْما قُلْنا (أو تَقَوَّلْنَا)؛ فَلَنْ نَبْخَس مَرَاكِزَ (التَّرْبِيَةِ) حَقَّهَا في بَثِّ العِلْمِ بَيْنَ شَبَابِها، إلَّا أنَّ النَّاظِرَ بِعَيْنِ النَّقْدِ؛ يَجِدُ تَوْظِيْفَ العِلْمِ عِنْدَهُم ظَاهِرًا في تَعْزِيْزِ وخِدْمَةِ مَرَاكِزِهِم التَّرْبَوِيَّةِ، إلَّا مَا رَحِمَ الله، وذَلِكَ في نَقَدَاتٍ مِنْهَا:

أوَّلًا: أنَّ مُعْظَمَ الدُّرُوْسِ العِلْمِيَّةِ القَائِمَةِ في مَرَاكِزِ (التَّرْبِيَةِ) اليَوْمَ، هِيَ

في حَقِيْقَتِهَا وَصِفَاتٌ طِبِّيَّةٌ يَتَجرَّعُهَا شَبَابُنَا مِنْ أَيْدِي صَيَادِلَةِ (الفِكْرِ التَّرْبَوِيِّ): أيْ أنَّها لم تكُنْ كُتُبًا سَلَفِيَّةَ الأصْلِ، ولا دُرُوْسًا عِنْدَ أهْلِ العِلْمِ والفضْلِ، بَلْ كَانَتْ كُتُبَ (التَّرْبِيَةِ) الحَادِثَةِ، أو بَعْضَ كُتُبِ (الإخْوَانَ المُسْلِمِيْنَ)، أو كُتُبَ الإدَارَةِ، أو دَوْرَاتِ الهَنْدَسَةِ العَصَبِيَّةِ.

فَلا تَسْمَعُ عِنْدَهُم: بكِتَابِ «السُّنَّةِ» لأحمَدَ بنِ حَنْبَلٍ، ولا «السُّنَّةِ» للبَرْبَهَارِيِّ، ولا «السُّنَّةِ» للمَرْوَزِيِّ، ولا «السُّنَّةِ» لابنِ أبي عَاصِمٍ، ولا مَا فَوْقَهَا، ولا مَا قَارَبَها!

ثَانِيًا: أنَّ غَالِبَ الدُّرُوْسِ العِلْمِيَّةِ القَائِمَةِ في مِثْلِ هَذِهِ المَرَاكِزِ والنَّوَادِي لا تَخْرُجُ في جُمْلَتِهَا عَنْ دُرُوْسٍ قَصِيْرَةٍ في كُتُبٍ مُخْتَصَرَةٍ: مِثْلِ التَّجْوِيْدِ، والأرْبَعِيْنَ النَّوَوِيَّةِ، والأصُوْلِ الثَّلاثَةِ وغَيْرِهَا، ومَعَ هَذَا الخَيْرِ إلَّا أنَّها تَكُوْنَ تَحْتَ قَبْضَةِ بَعْضِ التَّرْبَوِيِّيْنَ قَلِيْلي العِلْمِ والتَّحْصِيْلِ، أو مِمَّنْ أُوْتُوا نَصِيْبًا في كَثْرَةِ الكَلامِ مِنْ خِلالِ دَوْرَاتِ فَنِّ الحِوَارِ، وفَنِّ الإلْقَاءِ، ومَهْمَا وُجِدَ بَعْضُ الأخْيَارِ في مِثْلِ هَذِهِ الدُّرُوْسِ فَإنَّها لا تَخْرُجُ عَنْ كَوْنِها دُرُوْسًا مُخْتَصَرَةً، ولَوْ كَانَتْ علىٰ حِسَابِ تَحْصِيْلِ العِلْمِ الأصِيْلِ، لأنَّ حَقِيْقَةَ العِلْمِ الشَّرْعِيِّ وأصَالَتِهِ لَيْسَتْ في مِثْلِ هَذِهِ المَرَاكِزِ والنَّوَادِي، بَلْ هِيَ في مَجَالِسِ وحِلَقِ أهْلِ العِلْمِ الرَّبَّانِيِّيْنَ الكِبَارِ.

ثَالِثًا: أنَّ هُنَاكَ ظَاهِرَةً عَصْرِيَّةً في تَرْسِيْمِ بَعْضِ هَذِهِ الدُّرُوْسِ الَّتِي يَتَلَقَّاهَا أبْنَاؤنَا في مِثْلِ هَذِهِ المَرَاكِزِ والنَّوَادِي، وذَلِكَ عِنْدَ اخْتِيَارِهِم مِنَ الدُّرُوْسِ والمَوَاعِظِ والكُتُبِ مَا يَكُوْنُ في حَقِيْقَتِهِ تَعْزِيْزًا وخِدْمَةً لهَذِهِ المَرَاكِزِ في إبْقَاءِ الشَّبَابِ مَا بَقِيَ عَسِيْبُ!

فَخُذْ مَثَلًا مِنْ هَذِهِ الدُّرُوْسِ والمَوَاعِظِ والكُتُبِ: كُلَّ مَا مِنْ شَأنِهِ يَدْعُو إلىٰ الأُخُوَّةِ الإيْمانِيَّةِ، والمَحَبَّةِ في الله، والتَّعَاوُنِ علىٰ البِرِّ، والزِّيَارَةِ في الله، والإيْثَارِ، والأدَبِ مَعَ أهْلِ العِلْمِ (مَعَ المُرَبِّيْنَ)، في غَيْرِهَا مِنَ المَوَاعِظِ، ورُبَّما كَانَتْ تُبَثُّ هَذِهِ المَوَاعِظُ بَيْنَهُم مِنْ خِلالِ: المَسَارِحِ والتَّمْثِيْلِيَّاتِ، والأنَاشِيْدِ.

* * *

فمِثْلُ هَذِهِ المَوَاعِظِ والدُّرُوْسِ؛ قَدْ تَكُوْنُ (والله أعْلَمُ) تَعْزِيْزًا لهَذِهِ المَرَاكِزِ في إبْقَاءِ شَبَابِها ومُرِيْدِيْها إلىٰ أجَلٍ غَيْرِ مُسَمًّىٰ، لأنَّ الشَّابَ إذَا أشْرِبَ قَلْبُهُ خَيْرَ هَذِهِ المَوَاعِظِ والدُّرُوْسِ؛ فَإنَّهُ سَيَبْقَىٰ وَرَاء هَذِهِ المَرَاكِزِ جَرْيًا للخَيْرِ، وخَوْفًا مِنْ نَكْثِ الأخُوَّةِ والتَّعَاوُنِ بَيْنَهُم، والله المُوَفِّقُ والهَادِي إلىٰ سَوَاءِ السَّبِيْلِ.

* * *

ونَحْنُ وإيَّاهُم؛ لا نُقَلِّلُ قَدَرًا مِنْ هَذِهِ الدُّرُوْسِ، ولا نَعْدَمُ خَيْرًا مِنْهَا، هَذَا إذَا كَانَتْ بقَدَرٍ وحَدٍّ مُنْضَبِطٍ، ولم تَكُنْ علىٰ حِسَابِ دُرُوْسِ العِلْمِ الشَّرعِيِّ الأصِيْلِ، ولم تَكُنْ أيْضًا خَلْطًا بَيْنَ الشَّبَابِ العَائِدِ إلىٰ الله تَعَالىٰ ممَّنْ عَلَتْ هِمَمُهُم، وتَاقَتْ نُفُوْسُهُم للعِلْمِ، وطُرُقِ الخَيْرِ، والعَمَلِ لهَذِهِ الأمَّةِ في مَيادِيْنِ الدَّعْوَةِ والجِهَادِ والخَيْرِ، وبَيْنَ مَنْ ضَعُفَتْ هِمَمُهُم، وخِيفَ عَلَيْهِم مِنَ الحَوْرِ بَعْدَ الكَوْرِ!

الخَطَأُ السَّابِعَ عَشَرَ

الاحْتِوَاءُ التَّرْبَوِيُّ

إنَّ مِنَ المُغَالَطَاتِ الدَّعْوِيَّةِ الَّتِي يَلْعَبُهَا بَعْضُ أرْبَابِ (الفِكْرِ التَّرْبَوِيِّ) في نَوادِيْهِم ومَرَاكِزِهِم أنَّ بَعْضَهُم لا يَسْتَنْكِفُ السَّعْيَ وَرَاءَ الاحْتِوَاءِ التَّعْزِيْزِي والتَّجْمِيْعِي علىٰ حَدٍّ سَوَاءٍ، وذَلِكَ باحْتَوَائِهِم: أهْلَ العِلْمِ وطُلَّابِهِ لتَعْزِيْزِ هَذِهِ المَرَاكِزِ التَّربَوِيَّةِ، وكَذَا احْتِوَاءُ الشَّبَابِ مِنْ هُنَا وهُنَاكَ للتَّجْمِيْعِ والتَّقْمِيْشِ.

وهَكَذَا لَمْ تَزَلْ هَذِهِ الدَّعْوَاتُ (التَّجْمِيْعِيَّةُ التَّقْمِيْشِيَّةُ!) في إقْبَالٍ وانْتِشَارٍ تُسَابِقُ الزَّمَانَ، حَتَّىٰ وَصَلَتْ إلىٰ حِمَىٰ كَثِيْرٍ مِنْ أهْلِ العِلْمِ والدَّعْوَةِ بِشَكْلٍ مُخِيْفٍ، وفي وَقْتٍ سَرِيْعٍ!

وإنَّنا لا نَشُكُّ أنَّ كَثِيْرًا مِنَ أهْلِ العِلْمِ وغَيْرِهِم مِمَّنْ اسْتَشْرَفَتْهُم واحْتَضَنَتْهُم مَجَامِعُ (الفِكْرِ التَّرْبَوِيِّ)، ومَا هُمْ فِيْه مِنْ إطْلالَةٍ بَرِيْئَةٍ؛ لَمْ تَكُنْ بدَافِعِ الحُرِّيَّةِ والاخْتِيَارِ، بِقَدْرِ مَا كَانَتْ مُوَظَّفَةً بحَسَبِ مَا تُمْلِيْهِ مَصَالِحُ (الفِكْرِ التَّرْبَوِيِّ)، كَمَا سَيأتي بَيَانُه إنْ شَاءَ الله.

* * *

❑ فَأمَّا احْتَوَاؤهُم لأهْلِ العِلْمِ، فَذَاكَ أمْرٌ عَجِيْبٌ؛ حَيْثُ نَرَاهُم يَسْتَرِقُوْنَ

غَفْلَةَ كَثِيْرٍ مِنْ أَهْلِ العِلْمِ وطُلَّابِهِ في تَرْوِيْجِ وتَعْزِيْزِ (التَّرْبِيَةِ) مِنْ خِلالِ: الاسْتِضَافَاتِ الدَّعْوِيَّةِ، والاسْتِقْبَالاتِ الكَرِيْمِةِ، وإنْ كُنَّا لا نَشُكُّ أنَّ هَذَا الصَّنِيْعَ مِنْ حَقِّ أهْلِ العِلْم عَلَيْهِم، ومِنَ الخَيْرِ الكَبِيْرِ عَلَيْهِم وعلىٰ الأمَّةِ، إلَّا أنَّنا نَأخُذُ عَلَيْهِم في فِعْلِهِم هَذَا أمُوْرًا:

الأوَّلُ: أنَّهم يَخْتَارُوْنَ مِنْ أهْلِ العِلْمِ فُلانًا دُوْنَ فُلانٍ، وذَلِكَ بحَسَبِ تَوَجُّهَاتِهِم الدَّعْوِيَّةِ.

ثَانِيًا: أنَّهم في مِثْلِ هَذَا الصَّنِيْعِ يُوهِمُوْنَ شَبَابَهُم وآخَرِيْنَ مِنْ وَرَائِهِم لا نَعْلَمُهُم: بأنَّ هَذِهِ المَرَاكِزَ والنَّوَادِي قَدْ أخَذَتِ الصِّبْغَةَ الشَّرْعِيَّةَ مِنْ خِلالِ حُضُوْرِ أهْلِ العِلْمِ، وأنَّ أحَدًا إذَا أرَادَ أنْ يَنَالهَا ولَوْ بنَصِيْحَةٍ سَيكُوْنُ عُرْضَةً للنَّقْدِ والتَّجْرِيْحِ، ورُبَّما للاتِّهَامِ والتَّجْهِيْلِ.

ثَالِثًا: أنَّهُم يَقُوْمُوْنَ باخْتِيَارِ وإمْلاءِ عَنَاوِيْنَ المُحَاضَرَاتِ الَّتِي تُلْقَىٰ علىٰ أهْلِ العِلْمِ، وعِنْدَ التَّمْحِيْصِ إذْ بِنَا نَجِدُ هَذِهِ العَنَاوِيْنَ لا تَخْرُجُ في أكْثَرِهَا عمَّا مِنْ شَأنِهِ يُعَزِّزُ ويُرَوِّجُ هَذِهِ المَرَاكِزَ التَّرْبَوِيَّةَ، مِثْلُ المُحَاضَرَاتِ الَّتِي تَتَكَلَّمُ: عَنِ الأُخُوَّةِ، والإيْثَارِ، والمَحَبَّةِ في الله، والتَّعَاوُنِ والاجْتِماعِ علىٰ البِرِّ والدَّعْوَةِ، والزِّيَارَةِ في الله، والأدَبِ مَعَ أهْلِ العِلْمِ (مَعَ المُرَبِّيْنَ)، ومَوْقِفِ المُسْلِمِ مِنَ الفِتَنِ، وفَضَائِلِ الأعْمالِ، والتَّرغِيْبِ والتَّرهِيْبِ، وفَضْلِ القُرْآنِ، والقِصَصِ المُؤَثِّرَةِ.

❑ يُوَضِّحُهُ: أنَّ كَثِيْرًا مِنَ المُحَاضَرَاتِ العِلْمِيَّةِ، واللِّقَاءَاتِ العَامَّةِ، والمَوَاعِظِ الإيْمانِيَّةِ الَّتِي تُقِيْمَهَا أكْثَرُ مَجَامِعِ (الفِكْرِ التَّرْبَوِيِّ)، ومَا يَسْتَضِيْفُوْنَهُ مِنْ عُلَماءٍ، وطُلَّابِ عِلْمٍ، ودُعَاةٍ مَشْهُوْرِيْنَ، ومَا يَخْتَارُوْنَهُ لها

مِنْ عَنَاوِيْنَ مَدْرُوْسَةٍ، وأسْئِلَةٍ مَحْسُوْبَةٍ، وأمْكِنَةٍ مَقْصُوْدَةٍ . . . إلَّا دَلِيْلٌ وَاضِحٌ لمَا يَرْمِي لَهُ بَعْضُ دُعَاةِ (الفِكْرِ التَّرْبَوِيِّ) اليَوْمَ، وهَلْ كَثْرَةُ الكَلامِ، وجَرْجَرَةُ الحَدِيْثِ: عَنِ الأخُوَّةِ في اللهِ، والحُبِّ في اللهِ، والنَّصِيْحَةِ في الدِّيْنِ، وذَكْرِ سِيَرِ الصَّالِحِيْنَ، ووُجُوْبِ الجَماعَةِ، وتَحْرِيْمِ الفُرْقَةِ، وذِكْرِ آدَابِ الطَّالِبِ (المُرَبَّىٰ!) بَيْنَ يَدَيْ العَالمِ (المُرَبِّي!)، وفَضْلِ العُمْرَةِ والحَجِّ . . . إلَّا تَعْزِيْزًا للتَّجَمُّعِ التَّرْبَوِيِّ؟!

وإنَّ مَا ذَكَرْنَاهُ هُنَا مِنْ عَنَاوِيْنَ ومُحَاضَرَاتٍ: لهِيَ مِنَ الحَقِّ المُبِيْنِ، والطَّرِيْقِ القَوِيْمِ إذَا كَانَ يُرْجَىٰ مِنْهَا اسْتِقَامَةُ المُسْلِمِ (الشَّابِ) علىٰ طَاعَةِ اللهِ تَعَالىٰ، وأنْ يُطِيْعَ رَبَّه في السِّرِّ والعَلَنِ، وأنْ يُحَقِّقَ العُبُوْدِيَّةَ للهِ تَعالىٰ دُوْنَ تَحْزُّبٍ أو تَعَلُّقٍ في تَرْبِيَةٍ أو مُرَبٍّ!

لكِنَّ الخَطِيْئَةَ الدَّعْوِيَّةَ إذَا ظَنَّ هَذَا الشَّابُ بأنَّ مَا هُنَا مِنَ الفَضْلِ السَّخِي والحَقِّ الشَّرعِيِّ الَّذِي نَالَهُ مِنْهُم: هُوَ لأرْبَابِ (الفِكْرِ التَّرْبَوِيِّ) في مَرَاكِزِهِم فَقَطُ!، بمَعْنَىٰ أنَّ هَذَا الخَيْرَ الدَّعْوِيَّ لا يَكُوْنُ إلَّا مِنْ هَذِهِ المَرَاكِزَ التَّرْبَوِيَّةَ، فمِنْهَا يَبْدَأ، وإلَيْهَا يَنْتَهِي، دُوْنَ اعْتِبَارٍ لدَوْرِ العُلَماءِ والدُّعَاةِ!

* * *

ومِنْ خِلالِ مَا مَضَىٰ؛ كَانَ حَقًّا علىٰ النَّاصِحِيْنَ مِنْ أهْلِ العِلْمِ والدُّعَاةِ أنْ يُفَرِّقُوا بيْنَ دَعْوَةٍ ظَاهِرُهَا بَيَانُ الحَقِّ المُجَرَّدِ، الَّذِي لا يُرْجَىٰ مِنْهَا إلَّا وَجْهُ اللهِ تَعَالىٰ، وبَيْنَ دَعْوَةٍ ظَاهِرُهَا التَّحَزُّبُ لتَعْزِيْزِ فِكْرٍ تَرْبَوِيٍّ، أو لمُكَاثَرَةِ مَجْمَعٍ تَرْبَوِيٍّ!

فَمَنْ كَانَ لا يُفَرِّقُ بَيْنَ دَعْوَةٍ ولَوْعَةٍ فَقَدْ أتَىٰ بعَظِيْمٍ، وزَادَ في التَّعْمِيْمِ، وكَانَ مِنْهُ غِشًّا (للمُرَبِّىٰ)، وتَلْبِيْسًا علىٰ (المُرَبِّي)، والله مِنْ وَرَاءِ القَصْدِ!

* * *

❑ فَإنَّ مِثْلَ هَؤلاءِ العُلَماءِ أو الدُّعَاةِ المُنْسَاقِيْنَ طَوْاعِيَّةً لدَعَواتِ أصْحَابِ (الفِكْرِ التَّرْبَويِّ)، لا يَخْرُجُوْنَ عَنْ أحَدِ الفَرِيْقَيْنِ:

الأوَّلُ: مَنْ كَانَ يَعْلَمُ تِلْكَ الخُطُوْطَ العَرِيْضَةَ الَّتِي تُمْلَىٰ عَلَيْه، والخَانَاتِ الَّتِي تُعْرَضُ عَلَيْه بطَرِيْقَةٍ أو أخْرَىٰ، إلَّا أنَّهُ مَعَ هَذَا لَمْ يَسْتَنْكِفِ الرَّكْضَ في هَذِه السَّرَادِيْبِ المُحْكَمَةِ، والأُطُرِ المُحَدَّدَةِ، وهُوَ مَعَ هَذِه الغَفْلَةِ يَعْتَذِرُ: بالحِكْمَةِ، وكَسْبِ الآخَرِيْنَ، وتَعْزِيْزِ (الفِكْرِ التَّرْبَوِيِّ) بَيْنَ أبْنَاءِ المُسْلِمِيْنَ.

فمَنْ كَانَ يَعْلَمُ مِنْهُم مَا هُنَالِكَ مِنْ إمْلاءاتٍ تَرْبَوِيَّةٍ، فَهَؤُلاءِ قَدْ رَفَعُوا عَقِيْرَتَهَم بِغَشِّ أربابِ (الفِكْرِ التَّرْبَويِّ)، والتَّلْبِيْسِ علىٰ أبْنَاءِ المُسْلِمِيْنَ في مَرَاكِزِهِم ونَوَادِيْهِم التَّربوِيَّةِ، والله أعْلَمُ.

والآخَرُ: مَنْ غَابَتْ عَنْهُ كَثِيْرٌ مِنْ هَذِه الحَقَائِقِ المُؤْلِمَةِ، إلَّا أنَّهُ يَعْتَذِرُ: بِحُسْنِ الظَّنِّ بِمَنِ اسْتَضَافُوْهُ، وقَدَّمُوْهُ للجَمَاهِيْرِ.

فمَنْ كَانَ يَجْهَلُ مِنْهُم مَا هُنَالِكَ مِنْ إمْلاءاتٍ تَرْبَوِيَّةٍ، فعَلَيْهِم أنْ يَعْلَمُوا اليَوْمَ، بَأنْ يَكُوْنُوا أصْحَابَ الاخْتِيَارِ لعَنَاوِيْنِ المُحَاضَرَاتِ، وأنْ يَخْتَارُوا مِنَ العَنَاوِيْنِ مَا يَكُوْنُ عَوْنًا لأبْنَاءِ المُسْلِمِيْنَ في طَلَبِ العِلْمِ، والتَّعَلُّقِ بالله، وعُلُوِّ الهِمَّةِ، والزُّهْدِ، وأنْ يَتَّخِذَ سَبِيْلًا إلىٰ الخَيْرِ، وشُعَبِ الإيْمانِ، وغَيْرِ ذَلِكَ، والله المُوَفِّقُ، والهَادِي إلىٰ سَوَاءِ السَّبِيْلْ.

الخَطَأُ الثَّامِنَ عَشَرَ

تَحْجِيرُ عِلْمِ (التَّرْبِيَةِ) في القُرْآنِ الكَرِيْمِ

إنَّ النَّاظِرَ في دَعْوَاتِ أكْثَرِ أرْبَابِ (الفِكْرِ التَّرْبَوِيِّ) اليَوْمَ لاسِيَّما في مَرَاكِزِهِم ونَوَادِيْهِم، يَجِدُ: حِفْظَ القُرْآنِ الكَرِيْمِ، هِيَ المَادَّةُ العِلْمِيَّةُ الَّتِي حَوْلَهَا يُدَنْدِنُوْنَ وإلَيْهَا يَعُوْدُوْنَ، مَعَ تَهْمِيْشِ العُلُوْمِ الشَّرْعِيَّةِ الأخْرَىٰ، لاسِيَّما السُّنَّةِ النَّبَوِيَّةِ حِفْظًا ورِوَايَةً ودِرَايَةً.

* * *

❑ يُوَضِّحُه؛ أنَّنا نَرَىٰ مُعْظَمَ المَرَاكِزِ التَّرْبَوِيَّةِ لا تَسْتَأخِرُ في دَفْعِ شَبَابِها صَبَاحَ مَسَاءَ إلىٰ حِلَقِ القُرْآنِ، للحِفْظِ، ثُمَّ للمُرَاجَعَةِ، ثُمَّ للتَّسْمِيْعِ، ثُمَّ للمُسَابَقَةِ، وهَكَذَا مِنَ القُرْآنِ يَبْتَدِئُوْنَ وإلَيْهِ يَعُوْدُوْنَ، وكَأنَّ العِلْمَ الشَّرْعِيَّ لَيْسَ إلَّا القُرْآنُ!

في حِيْنَ أنَّنَا لا نَشُكُّ في جُهُوْدِ هَذِه المَرَاكِزِ الدَّعْوِيَّةِ، ومَا تَبْذُلُهُ مِنْ تَعْلِيْمِ كِتَابِ الله مِنْ حِفْظٍ ومُرَاجَعَةٍ لَدَىٰ أبْنَاءِ المُسْلِمِيْنَ . . . غَيْرَ أنَّنا لا نُسَلِّمُ لَهُم هَذِهِ التَّوَسُّعَاتِ في حَمْلِ هَؤُلاءِ الشَّبابِ علىٰ مُبَاحَاتٍ كَثِيْرَةٍ، مَعَ مَا يَرْجُوْنَهُ مِنَ القُرْآنِ وغَيْرِه، ولِهَذَا الكَلامِ شَاهِدٌ بَيْنَهُم.

وهُوَ أنَّ الطَّالِبَ يَبْقَىٰ في هَذِه المَرَاكِزِ الدَّعْوِيَّةِ: يَحْفَظُ القُرْآنَ السَّنَتَيْنِ،

والثَّلاثَ، وقَدْ يَزِيْدُ؛ عِلْمًا أنَّه بِمَقْدُوْرِه أنْ يَحْفَظَهُ في أقَلِّ مِنْ ذَلِكَ!

ومَا هَذِهِ النَّفْثَةُ البَائِسَةُ في حَمْلِ الشَّبَابِ علىٰ القُرْآنِ فَقَطْ؛ إلَّا لوَصْلِ حَبَائِلِ التَّجْمِيْعِ والتَّقْمِيْشِ؛ كَما فِيْهِ أيْضًا تَرْوِيْجٌ لهَذِهِ المَرَاكِزِ لكَوْنِها تَهْتَمُّ بشَأنِ القُرْآنِ.

وإذَا قَالَ قَائِلُهُم: إنَّ تَدْرِيْسَ العُلُوْمَ الشَّرعِيَّةَ يَحْتَاجُ إلىٰ وَقْتٍ، وإلىٰ طَلَبَةِ عِلْمٍ ... إلَخْ.

قُلْتُ: إذَنْ، أنْتُم جَعَلْتُم مِنَ حِفْظِ القُرْآنِ كُلَّ شَيءٍ: دَعَوَاتٍ، ولِقَاءاتٍ، ورَحَلاتٍ، ومُجَالَسَاتٍ، وعُمَرَاتٍ، وحَجَّاتٍ إلىٰ مَا لا نِهَايَةَ لَهُ، ورُبَّمَا يَدْخُلُ الشَّابُ في هَذِهِ المَرَاكِزِ المُبَارَكَةِ وهُوَ بَعْدُ مَا طرَّ شَارِبُهُ، ولا يَخْرُجُ مِنْهَا إلَّا وقَدْ تَزَوَّجَ، أو تَوَظَّفَ، أو مَا مِنْ شَأنِه أنْ يُفَارِقَ هَذِهِ المَرَاكِزَ، وهُوَ هُوَ، لا عِلْمَ، ولا جِدِّيَّةَ في الاسْتِقَامَةِ، ورُبَّمَا نَسِيَ بَعْضَ القُرْآنِ، وأدْهَىٰ مِنْ هَذَا وأمَرُّ؛ أنَّه رُبَّمَا أصْبَحَ قَائِدًا دَعَوِيًّا في نَفْسِ هَذَا المَرْكَزِ الدَّعْوِيِّ!

* * *

❑ يُوَضِّحُه؛ أنَّ الاعْتِنَاءَ بالقُرْآنِ دُوْنَ السُّنَّةِ لَيْسَ مِنْ مَنْهَجِ السَّلَفِ، ولَمْ يَكُنْ يَوْمًا طَرِيْقًا صَحِيْحًا في الطَّلَبِ، ومَا هَذِه الدَّعَوَاتُ (القُرْآنِيَّةُ!) في كَثِيْرٍ مِنْ بِلادِ المُسْلِمِيْنَ مُؤَخَّرًا إلَّا تَأثُّرًا وتأثِيْرًا بأهْلِ البِدَعِ، والجَمَاعَاتِ الإسْلامِيَّةِ أبِيْنَا أم رَضِيْنا.

كَمَا أنَّنا لا نَشُكُّ أنَّ أصْحَابَ هَذِهِ المَرَاكِزِ قَدْ وَافَقُوا السَّلَفَ في بِدَايَةِ الطَّلَبِ، لا في نِهَايَتِه، وذَلِكَ بتَعْلِيْمِ القُرْآنِ فَقَطُ دُوْنَ تَدَبُّرٍ وعَمَلٍ؛ لأنَّ

السَّلَفَ كَانُوا لا يُفَرِّقُوْن بَيْنَ القُرْآنِ والسُّنَّةِ في الطَّلَبِ (شَرِيْعَةً ومِنْهَاجًا)، اللهمَّ أنَّهُم يُقَدِّمُوْنَ للطَّالِبِ حِفْظَ القُرْآنِ أوَّلًا، ثُمَّ السُّنَّةَ ثُمَّ مَا سِوَاهُما مِنَ العُلُوْمِ الشَّرْعِيَّةِ، أمَّا أنْ يُجْعَلَ تَعْلِيْمُ القُرْآنِ غَايَةً ومَنْهَجًا قَطُّ دُوْنَ مَا سِوَاهُ؛ فَلا.

عِلْمًا أنَّ النَّاظِرَ في فِقْهِ الوَاقِعِ يَعْلَمُ صِدْقَ مَا أقُوْلُ، فَهُنَاكَ الكَثِيْرُ مِنَ الدَّلائِلِ والمُؤَشِّرَاتِ الَّتِي تَدُلُّ علىٰ خَطَرِ هَذِه الدَّعْوَاتِ القُرْآنِيَّةِ دُوْنَ مَا سِوَاهَا مِنَ العُلُوْمِ الشَّرْعِيَّةِ، سَوَاءٌ كَانَتْ مِنَ الدَّاخِلِ، أو الخَارِجِ.

فأمَّا الدَّاخِلُ: فَنَجِدُ الاعْتِنَاءَ بالقُرْآنِ الكَرِيْمِ دُوْنَ السُّنَّةِ مِمَّا لَهُ شَأنٌ كَبِيْرٌ علىٰ مُسْتَوَىٰ البَنِيْنَ والبَنَاتِ، فانْظُرْ مَثَلًا: مَدَارِسَ التَّحْفِيْظِ، ومَرَاكِزَ التَّحْفِيْظِ، وحَلَقَاتِ المَسَاجِدِ . . . إلَخْ.

في حِيْنَ أنَّ هَذا الاعْتِنَاءَ لا نَجِدُهُ في تَعْلِيْمِ السُّنَّةِ، والعُلُوْمِ الشَّرْعِيَّةِ تَعْلِيْمًا سَلَفِيًّا، وهَذَا في حَدِّ ذَاتِه يُعَدُّ تَنَاقُضًا في التَّعْلِيْمِ والتَّعَلُّمِ!

أمَّا الخَارِجُ: فالكُلُّ يَعْلَمُ أنَّ أكْثَرَ حُكُوْمَاتِ بِلادِ المُسْلِمِيْنَ مِمَّنْ حَكَّمَتِ القَوَانِيْنَ الوَضْعِيَّةَ بَدَلًا مِنْ حُكْمِ الله، لا تَجِدُ حَرَجًا في حِفْظِ القُرْآنِ، وتَعَلُّمِهِ، وإقَامَةِ المَرَاكِزِ لأجْلِهِ . . . إلَخْ.

أمَّا حِفْظُ السُّنَّةِ، وتَعْلِيْمُها فَهَيْهَاتَ فَدُوْنَها خَرْطُ القَتَادِ؛ بَلْ مَنْ سَوَّلَتْ لَه نَفْسُه بِذَلِكَ فَجَزَاؤهُ السِّجْنُ والتَّعْذِيْبُ، كَمَا أنَّ اسْمَه سَيَدْخُلُ قَائِمَةَ الأصُوْلِيِّيْنَ، والمُتَطَرِّفِيْنَ، والإرْهَابِيِّيْنَ . . . وأخْطَرَ مِنْ ذَلِكَ أنَّهُم يَعْلَمُوْنَ أنَّ المُشْتَغِلَ بالسُّنَّةِ سَيَكُوْنُ (سَلَفِيًّا!)، ومِثْلُ هَذَا لا يَحِقُّ له أنْ يَرْفَعَ رَأْسًا

بَيْنَهُم؛ لكَوْنِهِم يَعْلَمُوْنَ مَعْنَىٰ وحَقِيْقَةَ السَّلَفِ: إنَّهُم عِبَادُ الله (قَوْلًا، وعَمَلًا).

* * *

ثُمَّ لا نَنْسَ أيْضًا أنَّ الاعْتِنَاءَ بالقُرْآنِ فَقَطْ فِيْه تَأثُّرٌ ببَعْضِ أهْلِ البِدَعِ، وكَذَا ببَعْضِ الجَمَاعَاتِ الإسْلامِيَّةِ.

هَذَا إذَا نَظَرْنا إلىٰ أكْثَرِ أهْلِ البِدَعِ في زَمَانِنَا نَجِدُ لَهُم عِنَايَةً فَائِقَةً بالقُرْآنِ دُوْنَ غَيْره، مِثْلُ: مَدَارِسِ (جَامِعَاتِ) الأشْعَرِيَّةِ، والمُعْتَزِلَةِ، والإبَّاضِيَّةِ، والقَادِيَانِيَّةِ، والأحْبَاشِ؛ بَلْ غَالِبِ الصُّوْفِيَّةِ.

أمَّا أكْثَرُ الجَمَاعَاتِ الإسْلامِيَّةِ فَلَمْ تَسْلَمْ مِنْ هَذِه الدَّعْوَةِ القُرْآنِيَّةِ كَمَا هُوَ ظَاهِرٌ في مَرَاكِزِهِم الدَّعْوِيَّةِ، وغَيْرِهَا.

هَذَا إذَا عَلِمْنَا أنَّ طُلَّابَ القُرْآنِ فَقَطْ في زَمَانِنا هُمْ أقَلُّ جِدِّيَّةً في الاسْتِقَامَةِ، مِنَ الطُّلابِ الَّذِيْنَ جَمَعُوا بَيْنَ القُرْآنِ والسُّنَّةِ، لِذَا كَانَ الجَامِعُ مِنْهُم للقُرْآنِ والسَّنَّةِ أكْثَرَ جِدِّيَّةً وصَلابَةً في دِيْنِهِ؛ بَلْ لا أعْلَمُ أحَدًا مِنْهُم فِيْه مَا في غَيْره مِنْ طُلَّابِ القُرْآنِ، وأدَلُّ شَيْءٍ علىٰ ذَلِكَ أنَّ بَعْضَ الطُّلَّابِ الَّذِيْنَ يَحْفَظُوْنَ القُرْآنَ نَرَاهُ يَتَخَرَّجُ مِنْ مَدْرَسَتِه، أو مَرْكَزِه، أو مَسْجِدِه وهُوَ خَامِلُ الذِّكْرِ، فَاتِرُ العَزِيْمَةِ، ورُبَّمَا لا تَرَىٰ عَلَيْه سِمَاتَ الصَّالِحِيْنَ، وهَذَا الحَالُ نَرَاهُ أبْعَدَ مَا يَكُوْنُ لطَالِبِ القُرْآنِ والسُّنَّةِ مَعًا، والله أعْلَمُ.

كَمَا أنَّنَا نَخْشَىٰ في الوَقْتِ نَفْسِه، ومَعَ مُرُوْرِ الزَّمَنِ أنْ تَنْبُتَ بَيْنَ هَؤُلاءِ

الشَّبَابِ نَابِتَةٌ نَكِدَةٌ تُؤْمِنُ بالقُرْآنِ دُوْنَ السُّنَّةِ، كَمَا حَذَّرَ مِنْها النَّبِيُّ ﷺ بِقَوْلِه: «لا أُلْفِيَنَّ أحدَكُم مُتَّكِأً على أرِيْكَتِهِ يَأتِيْه أمْرٌ مِمَّا أمَرْتُ بِهِ، أو نَهَيْتُ عَنْه، فَيَقُوْلُ: لا أدْرِي، مَا وَجَدْنا في كِتَابِ الله اتَّبَعْنَاهُ» أخْرَجَهُ أحْمَدُ (٦/ ٨)، والتِّرْمِذِيُّ (٢٦٦٣)، وهُوَ صَحِيْحٌ.

* * *

❑ ومَعَ هَذَا؛ فإنِّي أُعِيْذُ نَفْسِي وكُلَّ مُسْلِمٍ يُؤمِنُ بالله واليَوْمِ الآخِرِ، أنْ يُقَلِّلَ مِنْ شَأنِ القُرْآنِ، ومِنْ شَأنِ مَدَارِسِهِ، وحَلَقَاتِه!

إلَّا أنَّنا نُرِيْدُ شَيْئَيْنِ:

الأوَّلُ: أنْ يَعْلَمَ الجَمِيْعُ أنَّ هُنَاكَ خَلَلًا في مَنْهَجِ أرْبَابِ (الفِكْرِ التَّرْبَوِيِّ).

الثَّانِي: أنْ يَهتَمَّ أصْحَابُ هَذِهِ المَرَاكِزِ: بالسُّنَّةِ النَّبَوِيَّةِ اهْتِمَامًا كَبِيْرًا شَأنُهُ شَأنَ القُرْآنِ، وأنْ يَجْمَعُوا لأبْنَاءِ المُسْلِمِيْنَ القُرْآنَ والسُّنَّةَ جَمْعًا سَلَفِيًّا (عِلْمًا، وعَمَلًا)، والله المُوَفِّقُ.

❑ ❑ ❑

الخَطأ التَّاسِعَ عَشَرَ

التَّبَسُّطُ المَرْذُوْلُ في اللَّعِبِ، واللَّهْوِ، والمَسَارِحِ

لا شَكَّ أنَّ بَعْضَ أرْبَابِ (الفِكْرِ التَّرْبَوِيِّ) ممَّنْ قَلَّ عِلْمُهُم، وضَعُفَ تَأصِيْلُهُم، حِيْنَما تولَّوْا مَناصِبَ (التَّربيَةِ) بَيْنَ أبْنَاءِ المُسْلِمِيْنَ: قَامُوا والحَالَةُ هَذِهِ يتعَثَّرُوْنَ فِيما يَدْعُوْنَ ويُرَبُّوْنَ؛ فعِنْدَهَا اسْتَيْقَنُوا أنَّهم مُتَجَرِّدُوْنَ مِنْ دَلائِلِ العِلْمِ ومَسَائِلِ الدَّعْوَةِ، فعِنْدَئِذٍ اعْتَرَاهُمُ الخَوْفُ مِنْ عُزُوْفِ الشَّبَابِ وتَمرُّدِهِم علىٰ هَذِهِ المَرَاكِزِ، فقَامُوا سِرَاعًا كَأنَّهم إلىٰ نُصُبٍ يُوْفِضُوْنَ لِيُشْغِلُوا أوْقَاتِ شَبَابِهِم بالتَّبَسُّطِ في المُبَاحَاتِ مَا بَيْنَ: لَعِبٍ ولهْوٍ، ورِيَاضَاتٍ، ومُسَابَقَاتٍ ثَقَافِيَّةٍ، وحَاسِباتٍ آليَّةٍ (كُمْبيُوتر)، ورَحَلاتٍ، وزِيَارَاتٍ، ودَوْرَاتٍ إدَارِيَّةٍ وعَصَبِيَّةٍ، ومَسَارِحَ، وأنَاشِيْدَ، وغَيْرِهَا ممَّا أشْغَلُوا بِهِ فَرَاغَ شَبَابِهِم، والله المُسْتَعَانُ.

* * *

❑ يُوَضِّحُهُ؛ أنَّنا نَرَاهُم لا يَفْتَئُون يَدْفَعُوْنَ الشَّبَابَ عِنْدَهُم إلىٰ اللَّعِبِ بِـ(كُرَةِ القَدَمِ)، و(كُرَةِ الطَّائِرَةِ) وغَيْرِهَا صَبَاحَ مَسَاءَ، مَعَ إقَامَةِ وتَنْظِيْمِ المُبَارَيَاتِ، والدَّوْرَاتِ الرِّيَاضِيَّةِ؛ بَلْ جَعَلُوا (كُرَةَ القَدَمِ والطَّائِرَةِ وغَيْرِهَا) في كَثِيْرٍ مِنَ بَرَامِجِهِم شَيْئًا أسَاسِيًا، وذَلِكَ ظَاهِرٌ في وَضْعِهَا في جَدْوَلَةِ البَرَامِجِ الدَّعْوِيَّةِ عِنْدَهُم.

بَلْ سَمِعْنَا غَيْرَ مَرَّةٍ؛ أنَّ كَثِيْرًا مِنْ أصْحَابِ هَذِهِ المَرَاكِزِ والنَّوَادِي يَقْضُوْنَ أوْقَاتٍ لَيْسَتْ قَلِيْلَةً في تَدْرِيْبِ وتَعْلِيْمِ الشَّبَابِ علىٰ أدْوَارِ الأنَاشِيْدِ والمَسْرَحِيَّاتِ الخِتَامِيَّةِ الَّتِي تُقَامُ غَالِبًا في نِهَايَةِ هَذِهِ المَرَاكِزِ، بَلْ رُبَّما قَضَوْا أكْثَرَ الأوْقَاتِ في مُرَاجَعَةِ ومُدَاوَلَةِ هَذِهِ المَسْرَحِيَّاتِ بِحُجَّةِ أنْ تَخْرُجَ بصُوْرَةٍ جَيِّدَةٍ تُرْضِي أرْبَابَ (الفِكْرِ التَّرْبَوِيِّ)!

وكَذَا تَذْهَبُ غَيْرُهَا مِنَ الأوْقَاتِ الكَثِيْرَةِ في التَّدْرِيْبِ علىٰ مُمَارَسَةِ الأنَاشِيْدِ وإلْقَائِهَا، بَلْ رُبَّما تَكَلَّفُوا (للأسَفِ!) في اخْتِيَارِ أصْحَابِ الأصْوَاتِ الحَسَنَةِ (الفَاتِنَةِ!) مِنَ الصِّغَارِ والأغْمارِ، قُلْتُ: عِنْدَ بَعْضِهِم!

* * *

❑ وهَلْ كَانَتْ دَعْوَةُ أبِي بَكْرٍ الصِّدِّيْقِ ﷺ لعُثْمَانَ وغَيْرِه مِنَ الصَّحَابَةِ ﷺ مِمَّنْ أسْلَمُوا علىٰ يَدِيْهِ؛ كَانَتْ عَنْ طَرِيْقِ: السِّبَاحَةِ، أو المُسَابَقَةِ، أو اللَّعِبِ بالكُرَاتِ . . .؟ فَالجَوَابُ قَطْعًا: لا!

وأيْضًا: هَلْ تَعْلَمُوْنَ أحَدًا مِنَ السَّلَفِ الصَّالِحِ، كَانَتْ دَعْوَتُه إلىٰ الله تَعَالىٰ عَنْ طَرِيْقِ: السِّبَاحَةِ، أو المُسَابَقَةِ، أو اللَّعِبِ بالكُرَاتِ . . .؟

والجَوَابُ قَطْعًا: لا!

فَعِنْدَئِذٍ؛ لا بُدَّ أنْ تُقِرُّوْا (عَقِيْدَةً): أنَّ السَّلَفَ خَيْرٌ حَالًا، وأفْضَلُ دَعْوَةٍ مِنَّا ومِنْكُم، وإلَّا وَقَعْتُمْ في تَناقُضٍ بَيِّنٍ!

* * *

ومَهْما هُنَا؛ فَلَيْسَ مِنَ الخَطَأ أَنْ تَكُوْنَ هَذِهِ التَّلاعِيْبُ عِنْدَكُم مِنْ بَابِ الدَّعْوَةِ، ولكِنْ عَلَيْكُم والحَالَةُ هَذِهِ أَنْ تَتَّخِذُوْهَا وَسِيْلَةً دَعَوِيَّةً للشَّبَابِ الغَافِلِ السَّاهِي، البَعِيْدِ عَنْ طَاعَةِ الله، ثُمَّ ثَانِيًا: عَلَيْكُم أَلَّا تُعَمِّمُوا هَذِه الوَسِيْلَةَ لِكُلِّ شَابٍ عَائِدٍ إلىٰ الله؛ لأنَّ في هَذَا تَخْوِيْنًا لَهُم، وتَبْلِيْدًا لقُدُرَاتِهم، ومُقَامَرَةً بِمَشَاعِرِهِم، لِذَا كَانَتْ هَذِه الوَسِيْلَةُ مُقَدَّرَةً بِقَدرِهَا: فَمَنْ رَأَيْتُم أَنَّه يَسْتَقِيْمُ بِها فَحَيْهلا، وإلَّا أَنْ نَجْعَلَهَا دَعْوَةً عَامَّةً لِكُلِّ عَائِدٍ إلىٰ الله تَعَالىٰ، فَلا!

وكذا لا يَجُوْزُ لَكُم أَنْ تَحْمِلُوا مَنْ صَلَحَ مِنَ الشَّبَابِ العَائِدِ إلىٰ الله تَعَالىٰ علىٰ مُمَارَسةِ (كُرَةَ القَدَمِ والطَّائِرَةِ)، وغَيْرِهَا مِنَ الألْعَابِ الرِّياضِيَّةِ غَيْرِ المُعِيْنَةِ علىٰ الجِهَادِ إلَّا بقَدَرٍ فِيْه تَسْلِيَةٌ، وإجْمَامٌ عَنِ النَّفْسِ، أَمَّا جَعْلُهَا وَسِيْلَةً دَعَوِيَّةً مُطْلَقًا فَهَذَا لا يُقِرُّهُ سَلَفي يَرْجُو الله في دَعْوَتِهِ!

* * *

وحَذَارِ حَذَارِ أَنْ يَقُوْلَ بَعْضُ أَرْبَابِ (الفِكْرِ التَّرْبَوِيِّ): إنَّ كَثِيْرًا مِنَ الشَّبَابِ عِنْدَنَا يتَفَاعَلُوْنَ مَعَ هَذِهِ التَّلاعِيْبِ!

فمِثْلُ هَذَا القَوْلِ لا يَصْدُرُ إلَّا مِمَّنْ يَجْهَلُ الحِكْمَةَ الدَّعْوِيَّةَ: لأنَّ كُلَّ وَسِيْلَةٍ إذَا كَانَتْ: لَعِبًا، ولَهْوًا، وتَرْفِيْهًا، وتَرْوِيْحًا؛ بَلْ كُلَّ مَا مِنْ شَأْنِهِ اللَّعِبُ فَهُوَ مَرْغُوْبٌ مَحْبُوْبٌ ضَرُوْرَةً، فَخُذْ مَثَلًا: لِعْبَةَ التَّزَلُّجِ علىٰ الثَّلْجِ، ولِعْبَةَ التِّنِسِ، ولِعْبَةَ (الفِرِّيْرَةِ)، ولِعْبَةَ (الشِّيْشِ) ... إلَخ، كُلُّ هَذِهِ الألْعَابِ يَرْغَبُهَا كُلُّ شَابٍّ غُمْرٍ مُقْبِلٍ إلىٰ الله تَعَالىٰ، لَكِنَّ الخُطُوْرَةَ كُلَّ الخُطُوْرَةِ يَوْمَ

يَشْعُرُ هَذَا العَائِدُ إلىٰ الله تَعَالىٰ أنَّ هَذِهِ الألْعَابَ أصْبَحَتْ في حَيَاتِهِ واسْتِقَامَتِهِ: شَيْئًا مَذْكُورًا، وما ذَاكَ إلَّا أنَّكُم حَمَلْتُمُوْهُم علىٰ هَذِهِ المُغَالَطَاتِ النَّكِدَةِ، الَّتِي كَانَ مِنَ الصَّعْبِ أنْ يَتْرُكَهَا الشَّابُ العَائِدُ إلىٰ الله، أو يَتَنَكَّرَها!

إنَّ مِثْلَ هَذِهِ الدَّعْوَاتِ مَا زِلْنَا نَجْنِي ثِمَارَهَا الفَاسِدَةَ، لِذَا كَانَ الأوْلَىٰ بِكُم أنْ تَحْمِلُوا الشَّبَابَ العَائِدَ إلىٰ الله تَعَالىٰ علىٰ الجَادَّةِ في الاسْتِقَامَةِ، ومَعَالي الأمُوْرِ: كحِفْظِ القُرْآنِ، والسُّنَّةِ، والعِلْمِ الشَّرْعِيِّ، والجِهَادِ، وعُدَّتِه، والبَذْلِ لِهَذا الدِّيْنِ، والصِّدْقِ، واليَقِيْنِ، والتَّوَكُّلِ، والحُبِّ في الله تَعالَىٰ، والبُغْضِ فِيْه . . . إلَخْ، لا أنْ تُشْغِلُوهم بِهَذِه التَّلاعِيْبِ السَّاذَجَةِ، وفُضُوْلِ اللِّقَاءاتِ، والرَّحلاتِ، والمُجَالَسَاتِ، والألْعَابِ الرِّياضِيَّةِ لاسِيَّما (كُرَةِ القَدَمِ والطَّائِرَةِ)!

* * *

❑ فَكَانَ الأوْلَىٰ بِكُم؛ أنْ تَحمِلُوا أبْنَاءَ المُسْلِمِيْنَ في هَذِهِ المَرَاكِزِ علىٰ الفُرُوْسِيَّةِ الشَّرْعِيَّةِ بِنَوْعَيْها:

فالأُوْلَىٰ مِنْهُمَا: فُرُوْسِيَّةُ السِّنَانِ، والبِنَانِ؛ كالرِّمَايَةِ لاسِيَّما الحَدِيْثَةِ مِنْهَا، والخَيْلِ، والإبِلِ، والسِّبَاحَةِ، والمُصَارَعَةِ، وكُلِّ مَا هُوَ مِنْ شَأنِ الجِهَادِ وعُدَّتِه.

والثَّانِيَةُ مِنْهُمَا: فُرُوْسِيَّةُ الحُجَّةِ، والبُرْهَانِ؛ كالعِلْمِ الشَّرْعِي مِنْ قُرْآنٍ، وسُنَّةٍ، وكُلِّ مَا هُوَ تَابعٌ لَهُما كالتَّفْسِيرِ، واللُّغَةِ، والفِقْهِ، والعَقِيْدَةِ، إلىٰ غَيرِ ذَلِكَ.

قَالَ ابنُ القَيِّمِ رَحِمَهُ اللهُ في «الفُرُوسِيَّةِ» (٢/ ٩٢): «وقَدْ أغْنَانَا الله بالفُرُوْسِيَّةِ الإيْمَانِيَّةِ، والشَّجَاعَةِ الإسْلامِيَّةِ الَّتي تَأْثِيْرُها في الغَضَبِ علىٰ أعْدَائِهِ، ونُصْرَةِ دِيْنِهِ، عَنِ الفُرُوْسِيَّةِ الشَّيْطَانِيَّةِ الَّتي يُبْعَثُ عَلَيْها الهَوَىٰ، وحَمِيَّةُ الجَاهِلِيَّةِ» انْتَهَىٰ.

وكَذَا مَا ذَكَرَهُ الشَّيْخُ حُمُوْدُ التُّوَيْجِرِيُّ رَحِمَهُ اللهُ، كَمَا جَاءَ في «الدُّرَرِ السَّنِيَّةِ» (١٥/ ٢١٧، ٢٢٩): «فإنِ ادَّعَىٰ المُتَشَبِّهُوْنَ بأعْدَاءِ الله تَعَالىٰ، أنَّهُم إنَّما يُرِيْدُوْنَ باللَّعِبِ بالكُرَةِ: رِيَاضَةَ الأبْدَانِ، لِتَعْتَادَ علىٰ النَّشَاطِ، والصَّلابَةِ.

فَالجَوَابُ أنْ يُقَالَ: إنَّ الله تَعَالىٰ قَدْ جَعَلَ للمُسْلِمِيْنَ في الرِّيَاضَاتِ الشَّرْعِيَّةِ غُنْيَةً، ومَنْدُوْحَةً، عَنِ الرِّيَاضَاتِ الإفْرَنْجِيَّةِ؛ فَمِنْ ذَلِكَ: المُسَابَقَةُ علىٰ الخَيْلِ، وقَدْ سَابَقَ النَّبِيُّ ﷺ بَيْنَهُما، وفَعَلَ ذَلِكَ أصْحَابُه، والمُسْلِمُوْنَ بَعْدَهُم».

وقَالَ أيْضًا رَحِمَهُ اللهُ: «ومَنْ لَمْ يَكْتَفِ بالرِّيَاضَاتِ الشَّرْعِيَّةِ، ولَمْ يَسَعْهُ مَا وَسِعَ السَّلَفَ الصَّالِحَ، فلا كَفَاهُ الله، ولا وَسَّعَ عَلَيْه في الدُّنْيا والآخِرَةِ، ومَنْ آثَرَ الرِّيَاضَاتِ الإفْرَنْجِيَّةِ علىٰ الرِّيَاضَاتِ الشَّرْعِيَّةِ، فَذَلِكَ عُنْوَانٌ علىٰ زَيْغِ قَلْبِه، عَيَاذًا بالله مِنْ مُوْجِبَاتِ غَضَبِه» انْتَهَىٰ.

* * *

عِلْمًا؛ أنَّ مَا ذَكَرْنَاهُ هُنَا مِنْ فُرُوْسِيَّةٍ شَرْعِيَّةٍ؛ نَجِدُ كَثِيْرًا مِنَ المَرَاكِزِ الدَّعْوِيَّةِ خُلْوَةً مِنْها؛ إلَّا في حُدُوْدٍ ضَيِّقَةٍ، وأوْقَاتٍ قَصِيْرَةٍ؛ كُلُّ ذَلِكَ مِنْهُم

(للأَسَفِ!) بِدَافِعِ شُبَهٍ وَاهِيَةٍ؛ مِنْها: عَدَمُ إِثْقَالِ الشَّبَابِ بِهَذِه العُلُوْمِ؛ رَغْبَةً في احْتِوَائِهِم وكَسْبِهِم، ومِنْها: النُّزُوْلُ للوَاقِعِ الَّذِي يَعِيْشُه الشَّبَابُ هَذِه الأيَّامِ . . . إلَخْ.

* * *

فَلَيْسَ لأرْبَابِ (الفِكْرِ التَّرْبَوِيِّ) اليَوْمَ، أنْ يَتَكَلَّفُوا طَرَائِقَ مُلْتَوِيَةً في دَعْوَتِهِم، أو يَجْعَلُوا مِنَ التَّلاعِيْبِ حَقَائِقَ شَرْعِيَّةً، وأصُوْلًا ثَابِتَةً، وغَايَاتٍ مَقْصُوْدَةً!

وهَذَا للأسَفِ مَا عَلَيْه بعضُ دُعَاةِ اليَوْمِ؛ يَوْمَ جَعَلُوا مِنْ أنْفُسِهِم أهْلَ حِكْمَةٍ، وأصْحَابَ دَعْوَةٍ عَصْرِيَّةٍ تَتَمَاشَىٰ مَعَ الوَاقِعِ، وتَتَكَيَّفَ مَعَ ضُغُوْطِه؛ لِذَا نَرَاهُم لا يَلْوُنَ علىٰ أحَدٍ في الرِّضَا بالقَلِيْلِ في دَعْوَتِهم؛ ولَوْ علىٰ حِسَابِ التَّبَسُّطِ في المُبَاحَاتِ، والتَّكَلُّفِ في الكَلِمَاتِ، والتَّنَطُّعِ في وَسَائِلِ الدَّعْوَةِ، مِمَّا أخْرَجَهُم هَذَا الحَدُّ مِنَ الاعْتِدَالِ والاقْتِصَادِ مِنْ حِكْمَةِ الدَّعْوَةِ إلىٰ حَالٍ مَشِيْنٍ، ودَعْوَةٍ هَزِيْلَةٍ ضَعِيْفَةٍ.

* * *

❑ فَكَانَ مِنْ حَصَائِدِ هَذِه الدَّعْوَاتِ الغَارِقَةِ في التَّبَسُّطِ في اللَّعِبِ واللَّهْوِ مَا يَلي باخْتِصَارٍ:

أوَّلًا: أنَّهُم جعَلُوا مِنَ هَذِه التَّلاعِيْبِ أُصُوْلًا ثَابِتَةً، وغَايَاتٍ مَقْصُوْدَةً، وفي هَذَا ارْتِكَاسٌ وانْتِكَاسٌ عَنِ الأُصُوْلِ الشَّرْعِيَّةِ، والغَايَاتِ المَنْشُوْدَةِ.

ثَانِيًا: أَنَّهُم بِهَذِهِ الطَّرَائِقِ الهَزِيْلَةِ سَعَوْا فِي غِشِّ كَثِيْرٍ مِنَ العَائِدِيْنَ إِلَىٰ الله تَعَالَىٰ، وذَلِكَ بإِشْعَارِهِم بطَرِيْقٍ أو آخَرَ: أَنَّ العَوْدَةَ إِلَىٰ الله تَعَالَىٰ، والتَّوْبَةَ مِنَ المَعَاصِي تَحْصُلُ عِنْدَ هَذِهِ التَّلاعِيْبِ، وتَنْتَهِي إِلَيْهَا، مِمَّا يُضَعِّفُ مِنْ عَزَائِمِ العَائِدِيْنَ إِلَىٰ الله إِذَا عَلِمُوْا فِيْمَا بَعْدُ أَنَّ التَّوْبَةَ إِلَىٰ الله تَعَالَىٰ تَتَطَلَّبُ مِنْهُم الجِدِّيَّةَ فِي الاسْتِقَامَةِ، والمُجَاهَدَةَ بالنَّفْسِ والنَّفِيْسِ، والغَالِي والرَّخِيْصِ، وعِنْدَ هَذَا قَدْ يُخْشَىٰ علىٰ بَعْضِهِم مِنَ الفُتُوْرِ بَعْدَ النُّشُوْرِ، والحَوْرِ بَعْدَ الكَوْرِ؛ حَتَّىٰ إِنَّ بَعْضَهُم عَيَاذًا بالله قَدِ انْتَكَسَ علىٰ أُمِّ رَأْسِهِ!

ثَالِثًا: أَنَّهُم بِهَذِهِ الطَّرَائِقِ يَكُوْنُوْنَ قَدْ سَوَّغُوا للعَامَّةِ، والعُصَاةِ أَنْ يَبْقَوْا علىٰ مَا هُمْ عَلَيْهِ؛ ولَكِنْ بِطَرِيْقَةٍ أُخرَىٰ (شَرْعِيَّةٍ!): وذَلِكَ بدَفْعِهِم إِلَىٰ التَّبَسُّطِ، والإِسْرَافِ فِي المُبَاحَاتِ، وفُضُوْلِ اللَّعِبِ، والكَلامِ، والنَّوْمِ، والنَّظَرِ، والمُخَالَطَةِ.

رَابِعًا: أَنَّهُم بِهَذِهِ الطَّرَائِقِ قَدْ أُصِيْبُوا بالاسْتِسْلامِ، والاسْتِكَانَةِ للوَاقِعِ المَرِيْرِ، يَوْمَ نَرَاهُم يَتَنَزَّلُوْنَ بِدَعْوَتِهِم وحِكْمَتِهِم إِلَىٰ مُسْتَوَىٰ العَامَّةِ والعُصَاةِ، ومُجَارَاتُهُم فِيْمَا هُمْ عَلَيْهِ عَنْ طَرَائِقَ ووَسَائِلَ دَعَوِيَّةٍ هَزِيْلَةٍ، ضَعِيْفَةٍ . . . !

خَامِسًا: أَنَّهُم بِهَذِهِ الطَّرَائِقِ قَدْ رَجَعُوا عَنِ الدَّعْوَةِ السَّلَفِيَّةِ، وهِيَ الدَّعْوَةُ الجَادَّةُ المُسْتَقِيْمَةُ النَّبَوِيَّةُ دُوْنَ مُوَارَبَةٍ، أو مُجَامَلَةٍ، بأَنْ يَقُوْلُوا للمُسِيْءِ أَسَأْتَ، وللمُحْسِنِ أَحْسَنْتَ، والصَّدْعُ بِكَلِمَةِ الحَقِّ، وإِلَّا تَأْخُذْهُم فِي الله لَوْمَةُ لائِمٍ، وهَذَا هُوَ الأَصْلُ فِي الدَّعْوَةِ الإِسْلامِيَّةِ، ولَمْ يَخْرُجْ عَنْهُ أَحَدٌ مِنْ عُلَمَاءِ السَّلَفِ إِلَّا فِي حَالاتٍ يَسِيْرَةٍ تُقَدَّرُ بِقَدْرِهَا، وذَلِكَ بِحَسَبِ حَالِ

المَدْعُوِّ لا غَيْرَ، أمَّا أنْ تُجْعَلَ هَذِهِ البَدَائِلُ أصُوْلًا دَعَوِيَّةً تُمَرَّرُ علىٰ سَائِرِ المَدْعُوِّيْنَ، فَلا!

ونَحْنُ، وهُمْ (للأسَفِ!) إذَا كُنَّا لا نَرْضَىٰ بِمَا تُفْرِزُهُ بَعْضُ الجَمَاعَاتِ الإسْلامِيَّةِ في مَجَالاتِ الدَّعْوَةِ، إلَّا أنَّنا نَجِدُ بَعْضَ دُعَاةِ اليَوْمِ (السَّلَفِيِّيْنَ!) قَدْ قَنِعُوا بدَعْوَةِ التَّائِبِيْنَ إلىٰ الله تَعَالىٰ عِنْدَ حَدِّ اللَّعِبِ، والمُخَالَطَةِ، والخَرَجَاتِ، والزِّيَارَاتِ السَّائِرَةِ، يُوَضِّحُهُ مَا يَأتي!

❑ ❑ ❑

الخَطَأ العِشْرُونَ

التَّبَسُّطُ المَرْذُوْلُ في الأَنَاشِيْدِ

لا شَكَّ أنَّ النَّاظِرَ هَذِهِ الأَيَّامَ إلَىٰ الأَنَاشِيدِ الجَارِيَةِ فِي كَثِيرٍ مِنَ المَحَاضِنِ التَّرْبَوِيَّةِ والمَرَاكِزِ الدَّعْوِيَّةِ التي أخَذَتْ كَثِيْرًا مِنْ أوْقَاتِ النَّاشِئَةِ لِيَسْتَرْعِيهِ الخَوْفُ مِنْ هَذَا التَّمَدُّدِ الإنْشَادِيِّ فِي حَيَاتِهِم؛ مِمَّا يَدْفَعُ كُلَّ مُسْلِمٍ غَيُورٍ إلَىٰ النَّظَرِ فِي دِرَاسَةِ وحُكْمِ هَذِهِ الأَنَاشِيدِ المُسَمَّاةِ: «الأَنَاشِيدَ الإسْلامِيَّةَ»، لأجْلِ هَذَا فَقَدَ أجْرَيْتُ قَلَمِي فِي شَيْءٍ مِنْ دِرَاسَتِهَا وحُكْمِهَا عَلَىٰ ضَوْءِ الكِتَابِ والسُّنَّةِ وكَلامِ أهْلِ العِلْمِ، كَمَا هُوَ مَسْطُوْرٌ في كِتَابِي: «الرِّيْحِ القَاصِفِ»؛ حَيْثُ تَكَلَّمْتُ عَنْهَا بِمَا فِيْهِ الكِفَايَةُ إنْ شَاءَ الله، غَيْرَ أنَّنِي هُنَا أرَدْتُ أنْ أذْكُرَ شَيْئًا مِنْ تَعْرِيْفِهَا وحُكْمِهَا علىٰ وَجْهِ الاخْتِصَارِ، والله مِنْ وراءِ القَصْدِ!

* * *

❑ قُلْتُ: لَقَدْ تَوَاتَرَ عَنِ الشَّافِعِيِّ رَحِمَهُ اللهُ قَوْلُهُ: «خَلَّفْتُ بِبَغْدَادَ شَيْئًا أحْدَثَتْهُ الزَّنَادِقَةُ، يُسَمُّونَهُ التَّغْبِيرَ، يَصُدُّونَ بِهِ عَنِ القُرْآنِ»، انْظُرْ: «تَلْبِيسَ إبْلِيسَ» (٣٣٠) وغَيْرَهُ.

وَقَدْ بَيَّنَ ابْنُ تَيْمِيَّةَ رَحِمَهُ اللهُ قَوْلَ الشَّافِعِيِّ فِي التَّغْبِيرِ؛ كَمَا جَاءَ فِي «مَجْمُوعِ

الفَتَاوَىٰ» (١١/ ٥٣٢)، بِقَوْلِهِ: «هَذَا مِنْ كَمَالِ مَعْرِفَةِ الشَّافِعِيِّ وعِلْمِهِ بالدِّينِ، فَإِنَّ القَلْبَ إِذَا تَعَوَّدَ سَمَاعَ القَصَائِدِ والأَبْيَاتِ والتَذَّ بِهَا، حَصَلَ لَهُ نُفُورٌ عَنْ سَمَاعِ القُرْآنِ والآيَاتِ، فَيَسْتَغْنِي بِسَمَاعِ الشَّيْطَانِ عَنْ سَمَاعِ الرَّحْمَنِ».

وقَالَ أَيْضًا (١١/ ٥٣٤): «والَّذِيْنَ حَضَرُوا السَّمَاعَ المُحْدَثَ الَّذِي جَعَلَهُ الشَّافِعِيُّ مِنْ إِحْدَاثِ الزَّنَادِقَةِ، لم يَكُوْنُوا يَجْتَمِعُوْنَ مَعَ مُرْدَانٍ ونِسْوَانٍ، ولا مَعَ مُصَلْصَلاتٍ وشَبَّابَاتٍ! وكَانَتْ أَشْعَارُهُم مُزَهِّدَاتٍ مُرَقِّقَاتٍ» انتهىٰ.

وقَالَ يَزِيْدُ بنُ هَارُوْنَ رَحِمَهُ اللهُ (٢٠٦): «التَّغْبِيرُ بِدْعَةٌ وضَلَالَةٌ، ومَا يُغَبِّرُ إِلَّا فَاسِقٌ، ومَتَىٰ كَانَ التَّغْبِيْرُ؟!«أَخْرَجَهُ الخَلَّالُ في»الأَمْرِ بالمَعْرُوْفِ والنَّهي عَنِ المُنْكَرِ» (١٠٧).

وَرَوَىٰ إِسْمَاعِيلُ بْنُ إِسْحَاقَ الثَّقَفِيُّ: أَنَّهُ سُئِلَ (أَحمدُ) عَنْ اسْتِمَاعِ القَصَائِدِ، فَقَالَ: «أَكْرَهُهُ، هُوَ بِدْعَةٌ، ولَا يُجَالَسُونَ».

وَقَالَ أَحْمَدُ بْنُ حَنْبَلَ: «التَّغْبِيرُ بِدْعَةٌ»، فَقِيلَ لَهُ: إِنَّهُ يُرَقِّقُ القُلُوبَ، فَقَالَ: «هُوَ بِدْعَةٌ»، وقَالَ مَرَّةً: «أَكْرَهُ التَّغْبِيرَ»، وأَنَّهُ نَهَىٰ عَنِ اسْتِمَاعِهِ، وقَالَ: «بِدْعَةٌ مُحْدَثَةٌ» انتهىٰ، انْظُرْ: «الكَافِي» (٤/ ٥٢٦) لِابْنِ قُدَامَةَ، وغَيْرُهُ.

* * *

❑ فَأَمَّا التَّغْبِيرُ: فَهُوَ شِعْرٌ يُغَنِّي بِهِ المُغَنِّي يُزَهِّدُ بِهِ فِي الدُّنْيَا عَلَىٰ وَجْهِ التَّلْحِينِ والتَّطْرِيبِ المُعْتَدِلِ!

قَالَ الأَزْهَرِيُّ (٣٧٠): «المُغَبِّرَةُ قَوْمٌ يُغَبِّرُونَ بِذِكْرِ الله بِدُعَاءٍ وتَضَرُّعٍ، وقَدْ سَمَّوْا مَا يَطْرَبُونَ فِيْهِ مِنَ الشِّعْرِ فِي ذِكْرِ الله ﷻ تَغْبِيرًا»، وقَالَ الزَّجَّاجُ (٣١١): «سُمُّوا مُغَبِّرِينَ لِتَزْهِيدِهِمُ النَّاسَ فِي الفَانِي مِنَ الدُّنْيَا، وتَرْغِيبِهِمْ فِي الآخِرَةِ»، انْظُرْ «تَلْبِيس إِبْلِيسَ» (٢٣٠).

وقَالَ أبو اللَّيْثِ مُحَمَّدُ بنُ نَصْرٍ السَّمَرْقَنْدِيُّ (٣٧٥) «والتَّغْبِيْرُ اسْمٌ قَدْ أُحْدِثَ لِهَذَا السَّمَاعِ المُحْدَثِ، وكَانَ في الزَّمَانِ الأَوَّلِ، يَقُوْلُوْنَ لأَقْوَامٍ يَذْكُرُوْنَ الله تَعَالىٰ بدُعَاءٍ وتَضَرُّعٍ: يُغَبِّرُوْنَ!» انْظُرْ: «النَّهيَ عَنِ الرَّقْصِ والسَّمَاعِ» للدِّشْتيِّ الحنَفِيِّ (٢/ ٥٥٥).

وقَالَ ابنُ القَيِّمِ رَحِمَهُ اللهُ فِي «مَسْأَلَةِ السَّمَاعِ» (١٢٠): «والتَّغْبِيْرُ: ضَرْبٌ بقَضِيْبٍ علىٰ جِلْدٍ أو مِخَدَّةٍ، يَخْرُجُ لَهُ صَوْتٌ، ويُنْشِدُوْنَ مَعَهُ أَشْعَارًا مُرَقِّقَةً مُزَهِّدَةً». وقَالَ أَيْضًا (١٢٣): «وَقَدْ قِيْلَ: إنَّ التَّغْبِيْرَ في لِسَانِ السَّلَفِ: هُوَ الغِنَاءُ«قَالَ: الحَافِظُ أبو مُوسَىٰ المَدِيْنِيُّ: «إنَّه الغِنَاءُ؛ لأنَّه يَحْمِلُ النَّاسَ علىٰ الرَّقْصِ فيُغَبِّرُوْنَ الأَرْضَ بالدَّقِّ والفَحْصِ وحَثْىِٔ التُّرَابِ، قَالَ أبو مُوْسَىٰ: قَالَ: الشَّافِعِيُّ: «بالعِرَاقِ زَنَادِقَةٌ وَضَعُوا التَّغْبِيْرَ»، وفي رِوَايَةٍ: «أَحْدَثُوا القَصَائِدَ ليُشْغِلُوا النَّاسَ عَنِ القُرْآنِ» انتهىٰ.

وَقَالَ ابْنُ تَيْمِيَّةَ رَحِمَهُ اللهُ فِي «مَجْمُوعِ الفَتَاوَىٰ» (١١/ ٥٩٢): عَنِ التَّغْبِيرِ، فَقَالَ: «وَسُئِلَ عَنْهُ أَحْمَدُ بْنُ حَنْبَلَ، فَقَالَ: «هُوَ مُحْدَثٌ»، قِيلَ: إِنَّهُ يُرِقُّ القَلْبَ، فَقَالَ: «لَا تَجْلِسُوا مَعَهُمْ»، قِيلَ لَهُ: أَيُهْجَرُونَ؟ فَقَالَ: «لَا يَبْلُغُ بِهِمْ هَذَا كُلَّهُ»، فَبَيَّنَ أَنَّهُ بِدْعَةٌ لَمْ يَفْعَلْهَا القُرُونُ الفَاضِلَةُ لَا فِي الحِجَازِ ولَا فِي

الشَّامِ، ولَا فِي اليَمَنِ، ولَا فِي مِصْرَ، ولَا فِي العِرَاقِ ولَا فِي خُرَاسَانَ، ولَوْ كَانَ لِلمُسْلِمِينَ بِهِ مَنْفَعَةٌ فِي دِينِهِمْ لَفَعَلَهُ السَّلَفُ، ولَمْ يَحْضُرْهُ: مِثْلُ إِبْرَاهِيمَ بْنِ أَدْهَمَ، ولَا الفَضِيلُ بْنُ عِيَاضٍ، ولَا مَعْرُوفٌ الكَرْخِيُّ، ولَا السَّرِيُّ السَّقَطِيُّ، ولَا أَبُو سُلَيْمَانَ الدَّارَانِيُّ، ولَا مِثْلُ عَبْدِ القَادِرِ، والشَّيْخِ عَدِيٍّ، والشَّيْخِ أَبِي البَيَانِ، ولَا الشَّيْخُ حَيَاةٌ وغَيْرُهُمْ، بَلْ فِي كَلَامِ طَائِفَةٍ مِنْ هَؤُلَاءِ كَالشَّيْخِ عَبْدِ القَادِرِ وغَيْرِهِ النَّهْيُ عَنْهُ، وكَذَلِكَ أَعْيَانُ المَشَايِخِ» انتهىٰ.

* * *

❑ وأَمَّا الحُدَاءُ: فَهُوَ سَوْقُ الإِبِلِ بِضَرْبٍ مَخْصُوصٍ مِنَ الغِنَاءِ، وفِي الغَالِبِ يَكُونُ بِالرَّجَزِ، وقَدْ يَكُونُ بِغَيْرِهِ مِنَ الشِّعْرِ.

وَمِثَالُهُ: مَا ثَبَتَ فِي البُخَارِيِّ، عَنْ سَلَمَةَ بْنِ الأَكْوَعِ:

اللَّهُمَّ لَوْلَا أَنْتَ مَا اهْتَدَيْنَا ولَا تَصَدَّقْنَا ولَا صَلَّيْنَا

وَهَذَا الحُدَاءُ لَا أَعْلَمُ فِي جَوَازِهِ خِلَافًا عِنْدَ أَهْلِ العِلْمِ، قَالَهُ ابْنُ عَبْدِ البَرِّ وابْنُ قُدَامَةَ والغَزَّالِيُّ وابْنُ حَجَرٍ والهَيْتَمِيُّ وغَيْرُهُمْ كَثِيرٌ.

❑ وأَمَّا النَّصْبُ: فَهُوَ ضَرْبٌ مِنَ النَّشِيدِ بِصَوْتٍ فِيْهِ تَمْطِيطٌ دُونَ خُرُوجٍ عَنِ العَادَةِ.

وَهُوَ يُشْبِهُ الحُدَاءَ فِي حَقِيقَتِهِ (كَمَا سَيَأْتِي بَيَانُهُ) إلاَّ أَنَّهُ أَرَقُّ مِنْهُ، ويَلْحَقُ بِهِ فِي الحُكْمِ، قَالَ ابْنُ قُدَامَةَ «المُغْنِي» (١٢/ ٤٣): «الحُدَاءُ مُبَاحٌ لَا بَأْسَ فِي فِعْلِهِ واسْتِمَاعِهِ، وكَذَلِكَ نُشِيدُ الأَعْرَابِ: وهُوَ النَّصْبُ، لَا بَأْسَ بِهِ وسَائِرِ أَنْوَاعِ الإِنْشَادِ، مَا لَمْ يَخْرُجْ إِلَىٰ حَدِّ الغِنَاءِ» انتهىٰ بِاخْتِصَارٍ.

مِثالُهُ: غِناءُ الجارِيَتَيْنِ عِنْدَ عائِشَةَ الَّذي قِيلَ فِي يَوْمِ بُعاثٍ، كَما ثَبَتَ فِي الصَّحِيحَيْنِ.

وَمَا ثَبَتَ فِي الصَّحِيحَيْنِ عَنِ الصَّحابَةِ وهُمْ يَحْدُونَ بَيْنَ يَدَيْ رَسُولِ الله ﷺ، عِنْدَ حَفْرِ الخَنْدَقِ:

نَحْنُ الَّذِينَ بَايَعُوا مُحَمَّدًا عَلَىٰ الجِهادِ مَا بَقِينا أبَدَا

فَيُجِيبُهُمْ ﷺ بِقَوْلِهِ:

«اللَّهُمَّ لَا عَيْشَ إلاَّ عَيْشُ الآخِرَةِ فَاغْفِرْ لِلأَنْصارِ والمُهاجِرَةِ»

* * *

وَبِهَذا خَرَجَ حَدُّ الحُداءِ والنَّصْبِ عَنِ الغِناءِ المَذْمُومِ لِكَوْنِهِما: لَيْسَ لَهُما ألحَانٌ مَصْنُوعَةٌ مُتَكَلَّفَةٌ بِتَلْحِينٍ وتَمْطِيطٍ وتَطْرِيبٍ: بَلْ كَانُوا يُرَقِّقُونَ الصَّوْتَ ويُمَطِّطُونَهُ عَلَىٰ وَجْهٍ يَلِيقُ بِأُمِّيَّةِ العَرَبِ الَّذِينَ لَمْ يَعْرِفُوا صَنائِعَ المُوسِيقَىٰ؛ كَمَا قَالَهُ الشَّاطِبِيُّ وغَيْرُهُ.

وَهَذا التَّغْبِيرُ الَّذِي ذَمَّهُ الشَّافِعِيُّ وأئِمَّةُ السَّلَفِ، هُوَ شَبِيهٌ بِمَا يُسَمَّىٰ اليَوْمَ: الأَنَاشِيدَ (الإسْلَامِيَّةَ) الَّتِي يُنْشِدُهَا أَهْلُهَا بِتَلْحِينٍ وتَمْطِيطٍ وتَكْسِيرٍ، مِمَّا هُوَ خَارِجٌ عَنِ العَادَةِ وسَنَنِ العَرَبِ، ورُبَّمَا كَانَتْ بَعْضُهَا بِأَصْوَاتٍ فَاتِنَةٍ مُثِيرَةٍ ... فِي حِينِ أَنَّهَا أَصْبَحَتْ عِنْدَ بَعْضِهِمْ عادَةً وفَنًّا ومِهْنَةً.

وَمِنْ هُنَا انْعَقَدَتْ آصِرَةُ المُبَالَغَةِ والتَّكَلُّفِ عِنْدَ كَثِيرٍ مِنْ مُنْشِدِي زَمَانِنَا فِي إخْرَاجِ هَذِهِ الأَنَاشِيدِ، وفِي مُتَابَعَتِهَا مِنْ خِلَالِ تَسْجِيلَاتٍ خَاصَّةٍ، وغُرَفٍ

مُحْكَمَةٍ مُجَهَّزَةٍ، ومِنْ ورَائِهَا تَسْجِيلَاتٌ لِلْأَصْوَاتِ البَشَرِيَّةِ عَبْرَ آلَاتٍ صَوْتِيَّةٍ ذَاتَ تَأْثِيرَاتٍ وتَحْسِينَاتٍ يَتَوَلَّدُ مِنْ خِلَالِهَا أَصْوَاتٌ أَشْبَهُ بِصَوْتِ المُوسِيقَىٰ الآلِيَّةِ، وهَذَا فِي حَدِّ ذَاتِهِ مُضَاهَاةٌ لِلْمُوسِيقَىٰ والمَعَازِفِ المُحَرَّمَةِ، وفِيهِ تَحَايُلٌ عَلَىٰ الشَّرْعِ بِأَضْعَفِ الأَسْبَابِ والعِيَاذُ بِاللَّهِ، وهَكَذَا فِي مُحَاكَاةِ ومُصَانَعَةٍ لأَهْلِ الفِسْقِ والمُجُونِ فِي غِنَائِهِمْ!

وَهَكَذَا جَرَىٰ أَكْثَرُ المُنْشِدِينَ هَذِهِ الأَيَّامَ بِانْتِحَالِ صِنَاعَةِ هَذِهِ الأَنَاشِيدِ مِنْ خِلَالِ تَلْحِينَاتٍ ونَغْمَاتٍ تَكُونُ بِتَقْطِيعِ الأَصْوَاتِ عَلَىٰ نِسَبٍ مُنْتَظِمَةٍ مَعْرُوفَةٍ، يُرَكِّبُونَ مِنْ مَجْمُوعِهَا أَنْغَامًا مُنَظَّمَةً عَلَىٰ وَجْهِ الإِطْرَابِ والتَّلْحِينِ، سَوَاءٌ كَانَتْ بِصَوْتِهِمُ الطَّبِيعِيِّ أَوْ بِوَاسِطَةِ مِعْزَفَةٍ آلِيَّةٍ عَبرَ آلَةِ «الكُمْبِيُوتَرْ»!

* * *

هَذَا إِذَا عَلِمْنَا أَنَّ الشَّرِيعَةَ قَدْ حَرَّمَتِ المَزَامِيرَ لِمَا يَنْتُجُ عَنْهَا مِنْ مَعَازِفَ صَوْتِيَّةٍ نَاتِجَةٍ عَنْ طَرِيقِ الثُّقُوبِ المَوْجُودَةِ فِيْهَا.

❑ ومِنْهُ؛ فَلَا شَكَّ أَنَّ هَذِهِ الآلَاتِ المُوسِيقِيَّةَ الَّتِي تُسَجَّلُ فِيْهَا الأَصْوَاتُ البَشَرِيَّةُ الطَّبِيعِيَّةُ، ثُمَّ يُضَافُ إِلَيْهَا تَحْسِينَاتٌ ومُؤَثِّرَاتٌ آلِيَّةٌ يَتَوَلَّدُ مِنْهَا صَوْتٌ بَشَرِيٌّ أَشْبَهُ مَا تَكُونُ مُحَاكَاةً لِلْمَعَازِفِ والمَزَامِيرِ المُحَرَّمَةِ: إِنَّ مِثْلَ هَذَا الفِعْلِ مُحَرَّمٌ لِثَلَاثَةِ أَوْجُهٍ:

الوَجْهُ الأَوَّلُ: أَنَّهُ فِي الحَقِيقَةِ مُوسِيقَىٰ صَوْتِيَّةٌ وأَصْوَاتُ مَعَازِفَ ومَزَامِيرَ، بَلْ رُبَّمَا كَانَتْ أَبْلَغَ مِنْ أَصْوَاتِ كَثِيرٍ مِنْ آلَاتِ المَعَازِفِ، وهُوَ كَذَلِكَ!

فَالعِبْرَةُ فِي الحُكْمِ بِالحَقِيقَةِ والمُسَمَّيَاتِ لَا بِالظُّنُونِ والأسْمَاءِ، كَمَا أنَّهُ يَجْرِي فِيْهَا القِيَاسُ الصَّحِيحُ دُونَ خِلَافٍ لاتِّحَادِ عِلَّةِ التَّحْرِيمِ المَوْجُودَةِ فِي صَوْتِ المَعَازِفِ والمَزَامِيرِ وغَيْرِهَا مِنْ آلاتِ اللَّهْوِ والطَّرَبِ.

الوَجْهُ الثَّانِي: أنَّهُ مِنَ الحِيَلِ الَّتِي حَرَمَهَا الله تَعَالَىٰ فِي الكِتَابِ والسُّنَّةِ والإجْمَاعِ، وقَدْ عُلِمَ بِالاضْطِرَارِ مِنَ الدِّينِ: أنَّ إتْيَانَ المَعَاصِي عَلَىٰ وَجْهِهَا أهْوَنُ عِنْدَ الله تَعَالَىٰ مِنِ ارْتِكَابِهَا بِالحِيَلِ!

الوَجْهُ الثَّالِثُ: أنَّهُ شَبِيهٌ بِفِعْلِ اليَهُودِ الَّذِينَ حَرَّمَ الله تَعَالَىٰ عَلَيْهِمْ صَيْدَ يَوْمِ السَّبْتِ، فَنَصَبُوا الشِّبَاكَ فِيهِ، ثُمَّ أخَذُوهَا مِنَ الشِّبَاكِ يَوْمَ الأحَدِ، والله أعْلَمُ.

* * *

❑ وقَدْ عَرَّفَ بَعْضُهُمُ الأنَاشِيدَ (الإسْلَامِيَّةَ) الجَارِيَةَ عِنْدَ أهْلِ العَصْرِ: بِأنَّهَا رَفْعُ الصَّوْتِ بِشِعْرٍ أوْ رَجزٍ أوْ نَثْرٍ بِنَوْعٍ فِيْهِ تَرْجِيعٌ وتَرْقِيقٌ وتَرْنِيمٌ لأجْلِ إثَارَةِ الحَمَاسِ والعَوَاطِفِ والغَيْرَةِ الدِّينِيَّةِ فِي أوْقَاتٍ وأمَاكِنَ مُتَنَوِّعَةٍ فَرْدًا أوْ جَمَاعَةً.

ومِنْ خِلَالِ هَذِهِ التَّعَارِيفِ لِلْأنَاشِيدِ المُعَاصِرَةِ: لَا نَشُكُّ أنَّهَا أشْبَهُ مَا تَكُونُ بِالتَّغْبِيرِ الَّذِي حَرَّمَهُ وذَمَّهُ سَلَفُنَا الصَّالِحُ، كَمَا أنَّهُ نَوْعٌ مِنْ أنْوَاعِ الغِنَاءِ المُحَرَّمِ والمَذْمُومِ اتِّفَاقًا.

وَتَزْدَادُ حُرْمَةُ هَذِهِ الأنَاشِيدِ إذَا كَانَتْ بِأصْوَاتٍ فَاتِنَةٍ ولاسِيَّمَا مِنْ بَعْضِ المُرْدَانِ والجِوَارِي الصِّغَارِ، وكَذَا تَزْدَادُ الحُرْمَةُ إذَا خَالَطَهَا تَحْسِينَاتٌ

صَوْتِيَّةٌ مِنْ خِلَالِ آلَاتٍ مَعْرُوفَةٍ (الأُسْتُدْيُو)، ومَا عَلِمُوا أَنَّ هَذَا الفِعْلَ فِي حَقِيقَتِهِ حِيلَةٌ عَلَىٰ المُحَرَّمِ، لأَنَّ الصَّوْتَ الَّذِي يُنْشِدُهُ الوَاحِدُ مِنْهُم بِطَبِيعَتِهِ لَيْسَ هُوَ الصَّوْتَ المُحَسَّنَ بِالصَّوْتِيَّاتِ الآلِيَّةِ، بَلْ هَذَا الفِعْلُ مِنْهُمْ تَلَاعُبٌ وخُرُوجٌ عَنِ الحَقِّ.

وَأَشَدُّ مِنْهُ حُرْمَةً إذَا خَرَجَتْ عَلَىٰ تَكَلُّفٍ وتَصَنُّعٍ وذَلِكَ مِنْ خِلَالِ تَرْكِيبِ لَقَطَاتٍ وصُوَرٍ ومَقَاطِعَ مُخْتَلِفَةٍ مُصَاحِبَةٍ للإنْشَادِ المُصَوِّرِ، وهُوَ مَا يُسَمَّىٰ: بـ(الفِيدْيُو كِلِيبْ)، وهَذَا مِنْهُمْ عَيْنُ التَّشَبُّهِ بِأَهْلِ الفِسْقِ والمُجُونِ!

بَلْ أَشَدُّهَا حُرْمَةً، إذَا أَنْشَدَهَا الرِّجَالُ ومَعَهُم طَبْلٌ أَوْ دُفٌّ أَوِ اتُّخِذَتْ حِرْفَةً ومِهْنَةً!

* * *

نَعَمْ؛ فَإِنَّ أَكْثَرَ المُنْشِدِينَ فِي زَمَانِنَا: هُمْ مُعَبِّرُونَ بِأَشْعَارِهِمْ وأَنَاشِيدِهِمُ الَّتِي يَقْصِدُونَ بِهَا التَّزْهِيدَ فِي الدُّنْيَا والتَّرْغِيبَ فِي الآخِرَةِ، عَلِمُوا أَمْ جَهِلُوا!

ولِيَعْلَمْ أَصْحَابُ المَحَاضِنِ التَّرْبَوِيَّةِ والمَرَاكِزِ الدَّعْوِيَّةِ هَدَانَا الله وإيَّاهُمْ: أَنَّ هَذِهِ الأَنَاشِيدَ الَّتِي اسْتَكْثَرُوا مِنْهَا بَيْنَ شَبَابِهِم، وتَوَسَّعُوا فِيْهَا مِنْ خِلَالِ كَثِيرٍ مِنْ بَرَامِجِهِم الدَّعْوِيَّةِ لَمْ تَكُنْ يَوْمًا مِنَ الأَيَّامِ سَبَبًا لإصْلَاحِ الفَاسِدِ، أَوْ تَغْيِيرًا لِحَالِ الشَّبَابِ الغَافِلِ، أَو طَرِيْقًا لِهِدَايَةِ المُسْلِمِ العَاصِي!

* * *

❑ أمَّا إذَا سَالتَ عَنْ حَقِيقَةِ الأنَاشِيدِ عِنْدَ السَّلَفِ الصَّالِحِ، فَهِيَ كَمَا يَلِي:

إنْشَادٌ بِشِعْرٍ مِنَ الزُّهْدِ والرَّقَائِقِ، أوِ التَّذْكِيرِ والمَوَاعِظِ، أوِ الحَمَاسَةِ والإقْدَامِ ونَحْوِهَا . . . بِصَوْتٍ مُرْتَفِعٍ بِنَوْعٍ مِنَ اللَّحْنِ المُعْتَادِ بِدُونِ تَكَلُّفٍ أوْ تَمْطِيطٍ أوْ تَطْرِيبٍ مَصْنُوعٍ أوْ إيقَاعَاتٍ صَوْتِيَّةٍ أوْ أصْوَاتٍ فَاتِنَةٍ، وذَلِكَ فِي مُنَاسَبَاتٍ وأحَايِينَ يَقْتَضِيهَا الحَالُ: كَحَالِ القِتَالِ والنِّزَالِ والأعْمَالِ الشَّاقَّةِ وحُدَاءِ الرَّكْبِ والقَافِلَةِ وفِي غَيْرِهَا مِمَّا صَحَّتْ بِهِ السُّنَّةُ وعَرَفَتْهَا العَرَبُ فِي سَنَنِ أنَاشِيدِهَا، كَحَالِ الأُمِّ مَعَ طِفْلِهَا، والرَّاعِي مَعَ غَنَمِهِ، وهَكَذَا.

أمَّا أنْ تُتَّخذَ هَذِهِ الأنَاشِيدُ عَادَةً، وشُغْلًا عَمَّا هُوَ أوْلَىٰ فَهَذَا مِمَّا حَرَّمَهُ السَّلَفُ الصَّالِحُ اتِّفَاقًا، ومِنْهُم مَنْ حَكَىٰ الإجْمَاعَ عَلَىٰ تَحْرِيمِهِ وذَمِّهِ، والله المُوَفِّقُ والهَادِي إلَىٰ سَوَاءِ السَّبِيلِ.

* * *

❑ ثُمَّ اعْلَمْ أخِي المُسْلِمُ أنَّ الإنْشَادَ (الإسْلامِيَّ) المُعَاصِرَ فِي حَقِيقَتِهِ حَقِيْقَةٌ مُرَكَّبَةٌ مِنْ كَثِيرٍ مِنَ المَحْظُورَاتِ الشَّرْعِيَّةِ، لِذَا كَانَ وَاجِبًا عَلَىٰ أنْصَارِ المَرَاكِزِ الدَّعْوِيَّةِ أنْ يَحْذَرُوا فِي إنْشَادِهِمْ ما يَلِي:

المَحْظُورُ الأوَّلُ: أنْ يَكُونَ الإنْشَادُ بِتَلْحِينٍ وتَطْرِيبٍ وتَمْطِيطٍ وتَكْسِيرٍ فِي الأصْوَاتِ، مِمَّا خَرَجَ عَنِ العَادَةِ، وذَلِكَ مِنْ خِلَالِ مَقْطُوعَاتٍ صَوْتِيَّةٍ وأنْغَامٍ شَجِيَّةٍ.

المَحْظُورُ الثَّانِي: أوْ يَكُونَ بِأصْوَاتٍ فَاتِنَةٍ مُثِيرَةٍ، سَوَاءٌ كَانَتْ بِأصْوَاتِ

صِبْيَانٍ صِغَارٍ أو كِبَارٍ.

المَحْظُورُ الثَّالِثُ: أَوْ يَكُونَ نَشِيْدُ الرِّجَالِ مُصَاحِبًا لِلدُّفُوفِ أَوِ الطَّبْلِ أَوْ غَيْرِهَا مِنْ آلَاتِ الطَّرَبِ.

المَحْظُورُ الرَّابِعُ: أَوْ يَكُونَ مُتَضَمِّنًا لِلتَّصْفِيقِ أَوِ التَّصْفِيرِ أَوِ الرَّقْصِ.

المَحْظُورُ الخَامِسُ: أَوْ يَكُونَ مُرَكَّبًا ومُعَالَجًا مِنْ خِلَالِ تَحْسِينَاتٍ صَوْتِيَّةٍ عَبْرَ آلَاتٍ صَوْتِيَّةٍ مَعْرُوفَةٍ، وهُوَ مَا يُسَمَّىٰ بالتَّحْسِينَاتِ الصَوْتِيَّةِ، المُعَالَجَةِ بـ(الأُسْتُدْيُو).

المَحْظُورُ السَّادِسُ: أَوْ يَكُونَ مُرَكَّبًا ضِمْنَ لَقَطَاتٍ وصُوَرٍ ومَقَاطِعَ مُخْتَلِفَةٍ، وهُوَ مَا يُسَمَّىٰ: بـ(الفِيدْيُو كِلِيْبْ) لأنَّهُ مِنَ التَّشَبُّهِ بِالفُسَّاقِ.

المَحْظُورُ السَّابِعُ: أَوْ يَكُونَ عَادَةً فِي كُلِّ وقْتٍ، ورُبَّمَا اتَّخَذَهُ بَعْضُهُمْ حِرْفَةً ومِهْنَةً.

المَحْظُورُ الثَّامِنُ: أَوْ يَكُونَ مُتَضَمِّنًا لِشِعْرٍ أَوْ نَثْرٍ مُحَرَّمَيْنِ.

المَحْظُورُ التَّاسِعُ : أَوْ يَكُونَ فِيْهِ تَشَبُّهٌ بِألحَانِ أَوْ كَلِمَاتِ أَهْلِ الفِسْقِ والمُجُونِ، وذَلِكَ بِطَرْقِ وتَوْقِيعِ كَلِمَاتِ الإنْشَادِ عَلَىٰ أَوْزَانِ ونَغْمَاتِ وتَلْحِينِ بَعْضِ أَغَانِي أَهْلِ الفِسْقِ أَوْ تَضْمِينِ الإنْشَادِ بَعْضَ الكَلِمَاتِ الَّتِي هِيَ مِنْ شَأْنِ أَهْلِ الفِسْقِ والمُجُونِ: مِثْلَ الآهَاتِ «آآآلله» و«آآآه»، و«يَاآآ عَيْن»، و«يَاآآ لَيْل»، وغَيْرِهَا مِنْ تَمْدِيدِ الكَلِمَاتِ مَدًّا فَاحِشًا خَارِجًا عَنِ العَادَةِ.

وَقَدْ صَحَّ عَنْهُ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «مَنْ تَشَبَّهَ بِقَوْمٍ فَهُوَ مِنْهُمْ» أَحْمَدُ، وأَبُو دَاوُدَ، وهُوَ صَحِيحٌ.

المَحْظُورُ العَاشِرُ: أَوْ يَكُونُ فِيهِ تَشَبُّهٌ بِظَاهِرِ هَيْئَةِ أَهْلِ الفِسْقِ فِي غِنَائِهِمْ مِنْ حَيْثُ الأَدَاءِ والإلقَاءِ والوُقُوفِ والاصْطِفَافِ واللِّبَاسِ والحَرَكَاتِ، ولَاسِيَّمَا عِنْدَ الضَّرْبِ بِالأَيْدِي عَلَىٰ نَحْوِ التَّصْفِيقِ وضَرْبِ الأَرْضِ بِالأَرْجُلِ وهَزِّ الرُّؤُوسِ، والتَّمَايُلِ والتَّكَسُّرِ فِي الجِسْمِ، وهَكَذَا مِنَ التَّشَبُّهَاتِ الجَارِيَةِ عَلَىٰ عَادَاتِ وصَنَائِعِ أَهْلِ الفِسْقِ عِنْدَ غِنَائِهِمْ.

قَالَ الغَزَّالِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ «الإحْيَاءِ» (٢/ ٢٢): «لَوِ اجْتَمَعَ جَمَاعَةٌ وزَيَّنُوا مَجْلِسًا وأَحْضَرُوا آلَاتِ الشُّرْبِ وأَقْدَاحَهُ، وصَبُّوا فِيهَا السِّكَنْجِبِيْن (شَرَابٌ مُبَاحٌ)، ونَصَبُوا سَاقِيًا يَدُورُ عَلَيْهِمْ، فَيَأْخُذُونَ مِنَ السَّاقِي ويَشْرَبُونَ، ويُحَيِّي بَعْضُهُمْ بَعْضًا بِكَلِمَاتِهِمُ المُعْتَادَةِ بَيْنَهُمْ: حَرُمَ ذَلِكَ عَلَيْهِمْ، وإنْ كَانَ المَشْرُوبُ مُبَاحًا فِي نَفْسِهِ؛ لأَنَّ فِي هَذَا تَشَبُّهًا بِأَهْلِ الفِسْقِ» انتهىٰ بِتَصَرُّفٍ.

وَمِنَ التَّحْذِيرِ مِنَ التَّمَايُلِ وهَزِّ الرُّؤُوسِ، مَا ثَبَتَ عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، أَنَّ أُمَّ عَلْقَمَةَ رَحِمَهَا اللَّهُ، قَالَتْ: أَنَّ بَنَاتِ أَخِي عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا خُفِضْنَ (خُتِنَّ)، فَأَلِمْنَ ذَلِكَ فَقِيلَ لِعَائِشَةَ: يَا أُمَّ المُؤْمِنِينَ، إلاَّ نَدْعُو لَهُنَّ مَنْ يُلْهِيهِنَّ؟ قَالَتْ: بَلَىٰ، قَالَتْ أُمُّ عَلْقَمَةَ: فَأُرْسِلَ إلَىٰ فُلَانٍ المُغَنِّي فَأَتَاهُمْ، فَمَرَّتْ بِهِ عَائِشَةُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا فِي البَيْتِ، فَرَأَتْهُ يَتَغَنَّىٰ ويُحَرِّكُ رَأْسَهُ طَرَبًا، وكَانَ ذَا شَعَرٍ كَثِيرٍ، فَقَالَتْ عَائِشَةُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: «أُفٍّ، شَيْطَانٌ! أَخْرِجُوهُ، أَخْرِجُوهُ، فَأَخْرَجُوهُ!» أَخْرَجَهُ البُخَارِيُّ فِي

«الأدَبِ المُفْرَدِ» (١٢٤٧)، والبَيْهَقِيُّ فِي «السُّنَنِ الكُبْرَىٰ» (١٠/ ٢٢٣)، بِسَنَدٍ صَحِيحٍ.

المَحْظُورُ الحَادِي عَشَرَ: أَوْ يَكُونُ مُلْهِيًا عَنْ قِرَاءَةِ القُرْآنِ، أَوْ مِمَّا هُوَ أَوْلَىٰ وأَكْمَلُ شَرْعًا وطَبْعًا.

المَحْظُورُ الثَّانِي عَشَرَ: وهُوَ مِنْ أَخْطَرِهَا مَأْخَذًا، أَنْ يَكُونَ هَذَا النَّشِيدُ عَادَةً وتَسْلِيَةً، وحَظًّا لِلنَّفْسِ الفَارِغَةِ، والرُّوحِ البَاطِلَةِ؛ بِحَيْثُ يَنْقَلِبُ هَذَا النَّشِيدُ مِنْ مَقْصُودِهِ الشَّرْعِيِّ: وهُوَ التَّذْكِيرُ والتَّزْهِيدُ والتَّحْمِيسُ ونَحْوُهُ إِلَىٰ التِذَاذٍ سَمْعِيٍّ وحَظٍّ نَفْسِيٍّ، لَيْسَ مِنْهُ إِلاَّ العَادَةُ المُسْتَحْكِمَةُ، والتَّسْلِيَةُ المَذْمُومَةُ، والعُزُوفُ عَنْ خَيْرَيِ الدُّنْيَا والآخِرَةِ؛ لَاسِيَّمَا عَنْ قِرَاءَةِ القُرْآنِ، وطَلَبِ العِلْمِ.

وَمِنَ الأسَفِ: أَنَّ هَذَا الفِعْلَ أَصْبَحَ عِنْدَ كَثِيرٍ مِنْ مُحِبِّي الأنَاشِيدِ المُعَاصِرَةِ مِنَ الشَّبِيبَةِ، لَاسِيَّمَا عِنْدَ النِّسَاءِ وأَهْلِ النُّفُوسِ الضَّعِيفَةِ مِنَ الشَّبَابِ وغَيْرِهِمْ، والله المُسْتَعَانُ!

وَإِلَىٰ هَذَا أَشَارَ ابْنُ القَيِّمِ رَحِمَهُ اللهُ فِي «مَسْأَلَةِ السَّمَاعِ» (١٣٩): «سَمَاعُ الأشْعَارِ الَّتِي تَتَضَمَّنُ إِثَارَةً فِي القَلْبِ مِنَ الحُبِّ والخَوْفِ والرَّجَاءِ والطَّلَبِ والأُنْسِ والشَّوْقِ والقُرْبِ وتَوَابِعِهَا إِذَا صَادَفَ مِنْ قُلُوبِ سَامِعِيهَا حُبًّا وطَلَبًا، فَأَثَارَهُ إِثَارَةً مُمْتَزِجَةً بِحَظِّ النَّفْسِ: وهُوَ نَصِيبُهَا مِنَ اللَّذَّةِ والطَّرَبِ الَّذِي يُحْدِثُهُ السَّمَاعُ، فَيَظُنُّ تِلْكَ اللَّذَّةَ والطَّرَبَ زِيَادَةً فِي صَلَاحِ القَلْبِ وإِيمَانِهِ وحَالِهِ الَّذِي يُقَرِّبُهُ إِلَىٰ اللَّهِ، وهُوَ مَحْضُ حَظِّ النَّفْسِ» انتهىٰ.

وَمِنْ هُنَا كَانَ وَاجِبًا عَلَىٰ كُلِّ مُسْلِمٍ أَنْ يُفَتِّشَ نَفْسَهُ ويُكَاشِفَ قَلْبَهُ عِنْدَ سَمَاعِهِ لِلْأَنَاشِيدِ اليَوْمَ، والله الهَادِي إِلَىٰ سَوَاءِ السَّبِيلِ!

* * *

❑ وهُنَا إِيْرَادٌ كَثِيْرًا مَا يَذْكُرُهُ بَعْضُ رُوَّادِ المَرَاكِزِ الدَّعْوِيَّةِ هَذِهِ الأَيَّامَ: وهُوَ أَنَّ هَذِهِ الأَنَاشِيْدَ (الإِسْلامِيَّةَ) صَالِحَةٌ لدَعْوَةِ كَثِيرٍ مِنَ أَبْنَاءِ المُسْلِمِيْنَ العُصَاةِ الَّذِيْنَ قَدِ ابْتُلُوا بالأغَاني المُحَرَّمَةِ، لِذَا كَانَتْ هَذِهِ الأَنَاشِيْدُ عِنْدَنَا تُعْتَبَرُ بَدِيْلًا صَارِفًا عَنْ مُوَاقَعَةِ المُحَرَّمَاتِ عِنْدَ طَائِفَةٍ مِنَ هَؤلاءِ الشَّبَابِ، والوَسَائِلُ لهَا أَحْكَامُ المَقَاصِدِ.

قُلْتُ: لاشكَّ أَنَّ الفَاسِقَ المِلِّيَّ إِذَا عَصَىٰ الله تَعَالىٰ فَهُوَ يَعْتَقِدُ أَنَّ مَا يَفْعَلُهُ حَرَامٌ في الإِسْلامِ، كَمَا أَنَّه يَخَافُ عُقُوْبَتَهُ، لِذَا تَرَاهُ يَرْجُو التَّوْبَةَ ويَسْأَلُ الله المَغْفِرَةَ لأَنَّه يَعْتَقِدُ حُرْمَةَ هَذِهِ المَنَاكِيْرِ، ولاسِيَّما الأغَاني مِنْهَا.

فَكَانَ والحَالَةُ هَذِهِ إِذَا دَفَعْنَا أَهْلَ الأغَاني إِلىٰ ارْتِكَابِ المَعَاصِي باسْمِ: الأَنَاشِيدِ (الإِسْلامِيَّةِ)، وسَوَّغْنَا لَهُم إِبَاحَتَهَا كَانَ هَذَا ذَنبًا آخَرَ أَعْظَمَ مِنِ ارْتِكَابِهم للمَعَاصِي علىٰ وَجْهِهَا، لأَنَّ العَاصِي كَمَا ذَكَرْنَا يَرْتَكِبُ المَعْصِيَةَ عَالمًا أَنَّهَا ذَنْبٌ بِخِلافِ هَذِهِ الأَنَاشِيدِ؛ لأَنَّهُ سَوْفَ يَسْمَعُهَا علىٰ أَنَّها مُبَاحَةٌ وعَمَلٌ مَبْرُوْرٌ!

فعِنْدَئِذٍ تَكُوْنُ التَّوْبَةُ مِنْهُم مَيْئوسٌ مِنْهَا لأَنَّهُم لا يَرَوْنَ في سَمَاعِ الأَنَاشِيْدِ المُحَرَّمَةِ غَضَاضَةً أو كَرَاهَةً؛ هَذَا أَوَّلًا.

أَمَّا ثَانِيًا: فَقَدْ عُلِمَ بالاضْطِرَارِ في دِيْنِ الإِسْلامِ أَنَّ النَّبيَّ ﷺ وأَصْحَابَهُ

الكِرَامَ وتَابِعِيْهِم بِإحْسَانٍ مِنْ صَالِحِي هَذِهِ الأُمَّةِ لم يَكُوْنُوا يَدْعُوْنَ أحَدًا مِنَ العُصَاةِ بطَرِيْقٍ بِدْعِيٍّ أو مُحَرَّمٍ، ولم يَكُوْنُوا يُؤَلِّفُوْنَ قُلُوْبَ النَّاسِ بشَيءٍ مِنْ هَذِهِ المُحْدَثَاتِ والمُحَرَّمَاتِ، وإنَّمَا كَانُوا يَدْعُوْنَهُم إلىٰ تِلاوَةِ القُرْآنِ والذِّكْرِ والتَّذْكِيْرِ والمَوْعِظَةِ الحَسَنَةِ تَرْغِيْبًا وتَرْهِيْبًا!

ومَنِ ادَّعَىٰ أنَّه علىٰ مَرْتَبَةٍ في الدَّعْوَةِ هِيَ خَيْرٌ ممَّا كَانَ عَلَيْهِ السَّلَفُ الصَّالِحُ فَقَوْلُهُ مُبْتَدَعٌ مَرْدُوْدٌ سَاقِطٌ بالكِتَابِ والسُّنَّةِ والإجْمَاعِ، ولا يُخَالِفُ في هَذَا إلَّا مُنَافِقٌ مَعْلُوْمُ النِّفَاقِ!

* * *

وهَذِهِ ثَالِثَةٌ؛ قَدْ أشَارَ إلَيْهَا شَيْخُ الإسْلامِ ابنُ تَيْمِيَّةَ رَحِمَهُ اللهُ؛ حَيْثُ ذَكَرَ مَا نَحْنُ بصَدَدِ الحَدِيْثِ عَنْهُ حَذْوَ القُذَّةِ بالقُذَّةِ، كَمَا يَلي:

وهَذَا نَصُّ السُّؤالِ كَمَا جَاءَ في «مَجْمُوعِ الفَتَاوَىٰ» (١١/ ٦٢٠): «سُئِلَ عَنْ جَمَاعَةٍ يَجْتَمِعُوْنَ علىٰ قَصْدِ الكَبَائِرِ، مِنَ القَتْلِ، وقَطْعِ الطَّرِيْقِ، والسَّرِقَةِ، وشُرْبِ الخُمُوْرِ وغَيْرِ ذَلِكَ، ثُمَّ إنَّ شَيْخًا مِنَ المَشَايِخِ المَعْرُوْفِيْنَ بالخَيْرِ واتِّبَاعِ السُّنَّةِ مَنَعَ المَذْكُوْرِيْنَ مِنْ ذَلِكَ، فَلَمْ يُمْكِنُهُ إلَّا أنْ يُقِيْمَ لَهُم سَمَاعًا يَجْتَمِعُوْنَ فِيْهِ بِهَذِهِ النِّيَّةِ، وهُوَ بِدُفٍّ بِلا صَلاصِلَ، وغِنَاءُ المُغَنِّي بشِعْرٍ مُبَاحٍ بغَيْرِ شَبَّابَةٍ، فَلَمَّا فَعَلَ هَذَا تَابَ مِنْهُم جَمَاعَةٌ، وأصْبَحَ مَنْ لا يُصَلِّي ويَسْرِقُ ولا يُزَكِّي يَتَوَرَّعُ عَنِ الشُّبَهَاتِ، ويُؤَدِّي المَفْرُوْضَاتِ، ويَجْتَنِبُ المُحَرَّمَاتِ، فَهَلْ يُبَاحُ فِعْلُ هَذَا السَّمَاعِ لهَذَا الشَّيْخِ علىٰ هَذَا الوَجْهِ؟ لمَا يَتَرَتَّبُ عَلَيْهِ مِنَ المَصَالِحِ، مَعَ أنَّه لا يُمْكِنُهُ دَعْوَتُهُم إلَّا بِهَذَا؟

فأجابَ رَحِمَهُ اللهُ بجوابٍ طويلٍ، ذَكَرَ فِيْهِ: «بأنَّ الدِّيْنَ قَدْ كَمُلَ، وأنَّهُ يَجِبُ لُزُوْمُ السُّنَّةِ في الدَّعْوَةِ إلىٰ الله تَعالىٰ، مَعَ ذِكْرِ الأدِلَّةِ علىٰ كُلِّ مَسْألَةٍ مِنَ القُرْآنِ والسُّنَّةِ وأقْوالِ سَلَفِ الأمَّةِ».

ثُمَّ قَالَ رَحِمَهُ اللهُ: «إذَا تبيَّنَ هَذَا فنقُوْلُ: إنَّ الشَّيْخَ المَذْكُوْرَ قَصدَ أنْ يُتوِّبَ المُجْتَمِعُوْنَ علىٰ الكَبائِرِ، فَلَمْ يُمْكِنْهُ ذَلِكَ إلَّا بِمَا ذَكَرَهُ مِنَ الطَّرِيْقِ البِدْعِيِّ، يَدُلُّ أنَّ الشَّيْخَ جاهِلٌ بالطُّرُقِ الشَّرْعِيَّةِ الَّتي بِهَا تَتُوْبُ العُصَاةُ، أو عَاجِزٌ عَنْهَا، فَإنَّ الرَّسُوْلَ ﷺ والصَّحَابَةَ والتَّابِعِيْنَ كَانُوا يَدْعُوْنَ مَنْ هُوَ شَرٌّ مِنْ هَؤلاءِ مِنْ أهْلِ الكُفْرِ والفُسُوْقِ والعِصْيَانِ بالطُّرُقِ الشَّرْعِيَّةِ الَّتي أغْنَاهُم الله بِهَا عَنِ الطُّرُقِ البِدْعِيَّةِ، فَلا يَجُوْزُ أنْ يُقَالَ إنَّه لَيْسَ في الطُّرُقِ الشَّرْعِيَّةِ الَّتي بَعَثَ الله بِهَا نَبِيَّهُ مَا يَتُوْبُ بِهِ العُصَاةِ! فَإنَّه قَدْ عُلِمَ بالاضْطِرَارِ والنَّقْلِ المُتَوَاتِرِ أنَّه قَدْ تَابَ مِنَ الكُفْرِ والفُسُوْقِ والعِصْيَانِ مَنْ لا يُحْصِيْهِ إلَّا الله تَعالىٰ مِنَ الأمَمِ بالطُّرُقِ الشَّرْعِيَّةِ الَّتي لَيْسَ فِيْهَا مَا ذُكِرَ مِنَ الاجْتِمَاعِ البِدْعِيِّ، بَلِ السَّابِقُوْنَ الأوَّلُوْنَ مِنَ المُهَاجِرِيْنَ والأنْصَارِ والَّذِيْنَ اتَّبَعُوْهُم بإحْسَانٍ، وهُمْ خَيْرُ أوْلِيَاءِ الله المُتَّقِيْنَ مِنْ هَذِهِ الأمَّةِ تَابُوا إلىٰ الله تَعالىٰ بالطُّرُقِ الشَّرْعِيَّةِ، لا بِهَذِهِ الطُّرُقِ البِدْعِيَّةِ، وأمْصَارُ المُسْلِمِيْنَ وقُرَاهُم قَدِيْمًا وحَدِيْثًا مَمْلُوءَةٌ مِمَّنْ تَابَ إلىٰ الله واتَّقَاهُ وفَعَلَ مَا يُحِبُّهُ الله ويَرْضَاهُ بالطُّرُقِ الشَّرْعِيَّةِ لا بِهَذِهِ الطُّرُقِ البِدْعِيَّةِ».

وبِمِثْلِهِ أيْضًا قَالَ رَحِمَهُ اللهُ جَوابًا لمَنْ يَتَعَلَّلُ بأنَّهُم يَصْطَادُوْنَ بالأنَاشِيْدِ المُطْرِبَةِ والسَّمَاعِ العَوَامَ مِنَ المُسْلِمِيْنَ!

فَقَالَ (١١/ ٦٠١): «وَأَمَّا قَوْلُ الْقَائِلِ: هَذِهِ شَبَكَةٌ يُصَادُ بِهَا الْعَوَامُّ.

فَقَدْ صَدَقَ؛ فَإِنَّ أَكْثَرَهُمْ إِنَّمَا يَتَّخِذُونَ ذَلِكَ شَبَكَةً لِأَجْلِ الطَّعَامِ والتَّوَانُسِ عَلَىٰ الطَّعَامِ.

كَمَا قَالَ الله فِيهِمْ: «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ كَثِيرًا مِنَ الْأَحْبَارِ والرُّهْبَانِ لَيَأْكُلُونَ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ ويَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ»، ومَنْ فَعَلَ هَذَا فَهُوَ مِنْ أَئِمَّةِ الضَّلَالِ الَّذِينَ قِيلَ فِي رُؤوْسِهِم: «يَوْمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ فِي النَّارِ يَقُولُونَ يَا لَيْتَنَا أَطَعْنَا اللَّهَ وأَطَعْنَا الرَّسُولَا وقَالُوا رَبَّنَا إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وكُبَرَاءَنَا فَأَضَلُّونَا السَّبِيلَا، رَبَّنَا آتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ الْعَذَابِ والْعَنْهُمْ لَعْنًا كَبِيرًا».

وأَمَّا الصَّادِقُونَ مِنْهُمْ: فَهُمْ يَتَّخِذُونَهُ شَبَكَةً؛ لَكِنْ هِيَ شَبَكَةٌ مُخَرَّقَةٌ يَخْرُجُ مِنْهَا الصَّيْدُ إِذَا دَخَلَ فِيهَا، كَمَا هُوَ الْوَاقِعُ كَثِيرًا؛ فَإِنَّ الَّذِينَ دَخَلُوا فِي السَّمَاعِ الْمُبْتَدَعِ فِي الطَّرِيقِ، ولَمْ يَكُنْ مَعَهُمْ أَصْلٌ شَرْعِيٌّ شَرَعَهُ اللَّهُ ورَسُولُهُ أَوْرَثَتْهُمْ أَحْوَالًا فَاسِدَةً!» انتهىٰ.

والحَمْدُ لله رَبِّ العَالَمِيْنَ

الخَطَأُ الحادِي والعِشْرُونَ

تَأثُّرُ (التَّربِيَةِ) ببَعْضِ الجَماعَاتِ الإسْلامِيَّةِ الوَافِدَةِ

ممَّا لا شَكَّ فِيْهِ أنَّ هُنَالِكَ جَمَاعَاتٍ إسْلامِيَّةً كَثِيْرَةً، قَدْ ظَهَرَتْ في أكْثَرِ بِلادِ المُسْلِمِيْنَ؛ ومَا ذَاكَ إلَّا بدَافِعِ ظُرُوْفٍ وأحْوَالٍ كَانَتْ وَرَاءَ انْتِشَارِهَا وقِيَامِهَا؛ كَما أنَّها لم تَظْهَرْ أو تَنْتَشِرْ (غَالِبًا) إلَّا حَمِيَّةً ونُصْرَةً للإسْلامِ والمُسْلِمِيْنَ في الجُمْلَةِ، لاسِيَّما وأنَّها تَعِيْشُ في بِلادٍ لا يُحْكَمُ فِيْهَا بالإسْلامِ، مَعَ مَا فِيْهَا مِنِ انْتِشَارٍ للرَّذِيْلَةِ والفَسَادِ ... ممَّا عَمِلَتْهُ أيْدِي الاحْتِلالِ العَابِثَةِ بِبِلادِهِم آنَذَاكَ، ومَعَ هَذَا فَإنَّنا لا نُسَلِّمُ لكَثِيرٍ ممَّا في هَذِهِ الجَماعَاتِ الإسْلامِيَّةِ: مِنْ مَنَاهِجَ، وأفْكَارٍ، وأهْدَافٍ وغَيْرِهِ ممَّا خَرَجَ عَنْ سَنَنِ سَلَفِنَا الصَّالِحِ في العَقِيْدَةِ والمنهَجِ، وفي العِلْمِ والدَّعْوَةِ؛ إلَّا أنَّنا قَدْ نَشْفَعُ لهَا بحُكْمِ ظُرُوْفِهَا، وحَالِ بِلادِهَا مَعَ مَا فِيْهَا مِنْ أخْطَاءٍ واسْتِدْرَاكَاتٍ!

أمَّا أنْ نَجُرَّ هَذِهِ الجَماعَاتِ الإسْلامِيَّةِ لاسِيَّما جَماعَةُ (الإخْوَانَ المُسْلِمُوْنَ)، ونَسُوْقَ مَنَاهِجَهَا إلىٰ بِلادِ الحَرَمَيْنِ؛ فَلا، فَأهْلُ هَذِهِ البِلادِ لا يَعْرِفُوْنَ مِنَ المَنَاهِجِ إلَّا مَنْهَجَ السَّلَفِ الصَّالِحِ؛ حَيْثُ لم تَتَلَوَّثْ عَقَائِدُهُم ولا أفْكَارُهُم بِوَافِدٍ دَخِيْلٍ، وكَذَا لم يَزَلْ عُلَماؤُهُ علىٰ السُّنَّةِ والجَماعَةِ ... فَإنْ كَانَ لَنَا شَيءٌ مِنَ العِلْمِ والعَمَلِ، أو التَّنْظِيرِ لشَبَابِ هَذِهِ البِلادِ؛ فَلْيَكُنْ

تَقْرِيْرًا للمَنْهَجِ السَّلَفِيِّ، ونُصْرَةً للسُّنَّةِ، واتِّبَاعًا للأثَرِ، وأخَذًا بأهْدَابِ الإسْلامِ، وليَكُنْ أيْضًا قَمْعًا للشُّبْهَةِ، وتَرْكًا للشَّهْوَةِ، وأخَذًا علىٰ أيْدِي المُفْسِدِيْنَ الضَّالِّيْنَ.

أمَّا أنْ نَسْعَىٰ في تَفْتِيْتِ عَضُدِ الدَّعْوَةِ هُنَا مَعَ تَفْرِيْقِ جُهُوْدِ أبْنَاءِ المُسْلِمِيْنَ، وزَرْعِ التَّفْرِقَةِ والتَّحزُّبِ . . . فَهَذَا مِنَ الخَطأ البَيِّنِ!

لأجْلِ هَذَا كَانَ علىٰ دُعَاةِ (الفِكْرِ التَّرْبَويِّ) أنْ يَعْلَمُوا حَقِيْقَةَ الدَّعْوَةِ هُنَا، كَما عَلَيْهِم ألَّا يَتَعَامَلُوا مَعَ الدَّعْوَةِ في هَذِهِ البِلادِ كَغَيْرِهَا مِنْ بِلادِ المُسْلِمِيْنَ؛ حَيْثُ التَّحزُّبَاتِ الجَماعِيَّةِ، والسِّرِّيَّةِ في الدَّعْوَةِ، والانْهِزَامِ الدَّعْوِيِّ، ومِنْ وَرَاءِ ذَلِكَ أنَّهُم يُشْعِرُوْنَ العَائِدَ إلىٰ الله تَعَالىٰ مِنْ أبْنَاءِ المُسْلِمِيْنَ: أنَّ الدَّعْوَةَ هُنَا تَحْتَاجُ مِنَ الطَّرَائِقِ والمَسَالِكِ مِثْلِ غَيْرِهَا مِنَ البِلادِ المُسْلِمَةِ المُجَاوِرَةِ، لِذَا نَجِدُهُم لا يَسْتَأخِرُوْنَ سَاعَةً في حَمْلِ الشَّبَابِ المُسْلِمِ: علىٰ الحَذَرِ والخَوَرِ، والدَّعْوَةِ السِّريَّةِ وعَدَمِ الصَّدْعِ بالحَقِّ، وعَدَمِ الأمْرِ بالمَعْرُوْفِ والنَّهي عَنِ المُنْكَرِ (بمَعْنَاهُ السَّلَفِيِّ، لا الخَلَفِي)، كُلُّ ذَلِكَ باسْمِ: مِنْهَجِ السَّلامَةِ، وعَدَمِ الحَمَاسِ، والحِفَاظِ علىٰ رَأسِ المَالِ مِنَ الشَّبَابِ، وكَأنِّي بِهِم يَعِيْشُوْنَ في بِلادٍ أخْرَىٰ تَسْتَوْجِبُ ظُرُوْفُها مِثْلَ هَذَا الطَّرْحِ في الدَّعْوَةِ والتَّعلُّمِ!

* * *

لِذَا فَإنَّ تَأثِيْرَ أنْصَارِ (الفِكْرِ التَّرْبَويِّ) اليَوْمَ بمِثْلِ جماعَةِ (الإخْوَانَ

المُسْلِمُوْنَ): لهُوَ سَبَبٌ كَبِيْرٌ في دَفْعِهِم وغَيْرِهِم مِنْ أبْنَاءِ المُسْلِمِيْنَ: إلىٰ أفْكَارٍ ومَنَاهِجَ لَيْسَتْ مِنَ المَنْهَجِ السَّلَفي في شَيءٍ، وقَدْ تَكَلَّمْنَا عَنْ هَذِهِ العِلاقَةِ الحَمِيْمَةِ بَيْنَ أنْصَارِ «التَّربِيَةِ» وجَمَاعَةِ «الإخْوَانَ المُسْلِمُوْنَ»، فانْظُرْهُ صَحِيْفَةَ .

* * *

❑ ومِنْ هَذِهِ الأخْطَاءِ الَّتِي كَانَتْ حَصَائِدَ مَا كَسَبَتْهُ بَعْضُ أيْدِي أنْصَارِ «التَّربِيَةِ» في تَنْهِيْجِ هَذِهِ الدَّعْوَاتِ السِّرِّيَّةِ بَيْنَ أبْنَاءِ هَذِهِ البِلادِ، مَا يَلي باخْتِصَارٍ:

أوَّلًا: التَّرْبِيَةُ علىٰ السِّرِّيَّةِ، وذَلِكَ بتَعْوِيْدِ شَبَابِهِم علىٰ السِّرِّيَّةِ في تَجَمُّعَاتِهِم ودَعَوَاتِهِم ولِقَاءاتِهِم وغَيْرِ ذَلِكَ ممَّا هُوَ الشَّأنُ عِنْدَ الجَماعَاتِ الإسْلامِيَّةِ في بِلادِهَا، لظُرُوْفٍ خَاصَّةٍ ألَمَّتْ بِهِم علىٰ كَرْهٍ مِنْهُم وإغْمَاضٍ، ومُغَالَبَةٍ عَلَيْهِم، كَمَا مَرَّ مَعَنَا ذِكْرُهُ آنفًا.

ثَانِيًا: اسْتِمْرَاءُ الخَوْفِ والوَجَلِ في رَوْعِ الشَّبَابِ عِنْدَ قِيَامِهِم بالعِلْمِ والدَّعْوَةِ، فَتَجِدُ الشَّابَ أو المُرَبِّيَ مِنْهُم غَالِبًا لا يَتَحَرَّكُ في دَعْوَتِهِ إلَّا وسُحُبُ الخَوْفِ والوَجَلِ عَلَيْهِ ظَاهِرَةٌ وَاضِحَةٌ، كَمَا هُوَ ظَاهِرُ بَعْضِ الجَماعَاتِ الإسْلامِيَّةِ في بِلادِهَا.

ثَالِثًا: إسَاءَةُ الظَّنِّ بالعُلَماءِ والدُّعَاةِ والآخَرِيْنَ ممَّنْ لَيْسُوا علىٰ فِكْرِهِم التَّرْبَوِيِّ، فَكَأنَّ سُوْءَ الظَّنِّ بغَيْرِهِم هُوَ الأصْلُ؛ حَتَّىٰ تَقُوْمَ البَيِّنَةُ والبُرْهَانُ والشَّهَادَةُ علىٰ حُسْنِ انْتِماءِ غَيْرِهِم إلىٰ فِكْرِهِم وجَمَاعَتِهِم!

رَابِعًا: تَهْيِئَةُ الأَجْوَاءِ لتَفْرِيْخِ البَيْعَةِ البِدْعِيَّةِ بَيْنَهُم غَالبًا؛ لاسِيَّما عِنْدَ كِبَارِ مُنَظِّرِي (الفِكْرِ التَّرْبَوِيِّ)؛ بحَيْثُ يَتَرَبَّىٰ الشَّابُ عِنْدَهُم مِنْ خِلالِ تَنْظِيْمٍ هَرَمِيٍّ لا عِلْمَ لَهُ بِها، اللهمَّ إنَّها (التَّرْبِيَةُ)، وهَكَذَا يَجْرِي هَذَا الشَّابُ المِسْكِيْنُ في أَنْفَاقٍ ضَيِّقَةٍ، ومَفَازَةٍ مُسْبِعَةٍ . . . حَتَّىٰ إذَا أَرَادَهُ الله بخَيْرٍ، وشَمَّ العِلْمَ الشَّرعِيَّ عَرَفَ مَا كَانَ يَجْهَلُهُ، والله أعْلَمُ.

ومَهْما هُنَا؛ فَإنَّ أرْبَابَ (الفِكْرِ التَّرْبَوِيِّ) لا يَزَالُوْنَ يَخْلِطُوْنَ بَيْنَ الأحْوَالِ والمَنَاهِجِ عِنْدَ مُمَارَسَةِ (التَّرْبِيَةِ) عِنْدَنَا وعِنْدَ غَيْرِنَا مِنْ بِلادِ المُسْلِمِيْنَ، فلِكُلِّ بَلَدٍ حَالُهُ ووَاقِعُهُ، ولِكُلِّ جَمَاعَةٍ فِكْرُهَا ومَنْهَجُهَا، ونَحْنُ أيْضًا لَنَا حَالٌ ووَاقِعٌ غَيْرُ حَالِهِم ووَاقِعِهِم، ولَنَا فِكْرٌ ومَنْهَجٌ غَيْرُ فِكْرِهِم ومَنْهَجِهِم: إنَّها السَّلَفِيَّةُ عَقِيْدَةً ومَنْهَجًا، لا نَبْغِي لها بَدَلًا، ولا نَرْضَىٰ عَنْهَا تَحْوِيْلًا، اللهمَّ نَسْأَلُكَ الثَّبَاتَ، آمِيْنَ!

❑ ❑ ❑

الخَطَأُ الثَّاني والعِشْرُوْنَ

تَرْبِيَةُ أبْنَاءِ المُسْلِمِيْنَ علىٰ مَنْهَجِ السَّلامَةِ

لَقَدْ قَرَّرَ بَعْضُ أرْبَابِ (الفِكْرِ التَّرْبَوِيِّ) في مَرَاكِزِهِم ونَوَادِيْهِم، وبَيْنَ شَبَابِهِم اليَوْمَ: مَنْهَجًا جَدِيْدًا مَا أنْزَلَ الله بِهِ مِنْ سُلْطَانٍ؛ حَيْثُ ابْتَدَعُوا بِدْعَةً دَعَوِيَّةً إضَافِيَّةً!

قَالَ تَعَالىٰ: ﴿إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَآءَهُۥ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران: ١٧٥].

وذَلِكَ عِنْدَمَا قَرَّرُوا: مَنْهَجَ السَّلامَةِ في قُلُوْبِ وعُقُوْلِ شَبَابِ المُسْلِمِيْنَ علىٰ فَتْرَةٍ مِنْ أهْلِ العِلْمِ الرَّبَّانِيِّيْنَ، فَكَانَ: فِقْهُ الحَذَرِ، وتَأصِيْلُ التَّوَلِّي، وتَقْرِيْرُ الذِّلَّةِ، في غَيْرِهَا مِنْ إمْلاءَاتِ أنْصَارِ (الفِكْرِ التَّرْبَوِيِّ) عَلَيْهِم؛ حَيْثُ أمْلَوْا علىٰ شَبَابِهِم: مَا يَجِدُوْنَهُ في أنْفُسِهِم مِنْ خَوْفٍ، وضَعْفٍ، وخَوَرٍ، وجُبْنٍ، وجَهْلٍ.. إلَخْ.

* * *

❑ ومَا عَلِمَ أرْبَابُ (الفِكْرِ التَّرْبَوِيِّ) أنَّ فَرْقًا كَبِيْرًا بَيْنَ مَنْهَجِ السَّلامَةِ وبَيْنَ سَلامَةِ المَنْهَجِ؟!

فالأوَّلُ مِنْهُما: هُوَ سَبِيْلُ المُنَافِقِيْنَ والمُخَذِّلِيْنَ والمُرْجِفِيْنَ وغَيْرِهِم مِنْ أحْزَابِ الشَّيْطَانِ، وكَذَا ضَعَفَةِ النِّسَاءِ والوِلْدَانِ مِنَ الَّذِيْنَ رَفَعَ الله عَنْهُمُ الحَرَجَ عِنْدَ ألْقِيَاتِ الحَرْبِ وسَنَابِكِ الخَيْلِ وغَيْرِ ذَلِكَ مِنْ إيْثَارَاتِ النَّفْسِ.

أمَّا الثَّاني مِنْهُما: وهُوَ سَلامَةُ المَنْهَجِ: فَسَبِيْلُ الأنْبِيَاءِ والمُرْسَلِيْنَ والأوْلِيَاءِ والعُلَماءِ الرَّبَّانِيِّيْنَ والدُّعَاةِ المُخْلِصِيْنَ وغَيْرِهِم مِنْ حِزْبِ الرَّحمَنِ.

ومَا أحْسَنَ مَا قَالَهُ عَبْدُ الخَالِقِ بنِ أسَدٍ:

قَلَّ الحِفَاظُ! فَذُو العَاهَاتِ مُحْتَرَمُ والشَّهْمُ ذُو الفَضْلِ يُؤْذَىٰ مَعَ سَلامَتِهِ

كالقَوْسِ يُحْفَظُ عَمْدًا وهُوَ ذُو عِوَجٍ ويُنْبَذُ السَّهْمُ قَصْدًا لاسْتِقَامَتِهِ

فَسَلامَةُ المَنْهَجِ في الإسْلامِ: هِيَ تَحْقِيْقُ العُبُوْدِيَّةِ لله تَعَالىٰ، ورَأسُ الإيمانِ، وأصْلُ اليَقِيْنِ، وأعْلىٰ مَنَازِلِ إيَّاكَ نَعْبُدُ وإيَّاكَ نَسْتَعِيْنَ، فعِنْدَئِذٍ لا يَهُولَنَّكَ مَا قَدْ يَتَرَتَّبُ عَلَيْهِ: مِنْ هَمْزٍ ولمْزٍ، واسْتِهْزَاءٍ، وإيْذَاءٍ، وحَبْسٍ، وضَرْبٍ، ورُبَّما قَتْلٍ!

ولا تَجْهلَنَّ قَوْلَهُ تَعَالىٰ: ﴿الٓمٓ ۝١ أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتْرَكُوٓاْ أَن يَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ﴾ [العنكبوت: ١-٢].

وقَوْلَهُ تَعَالىٰ: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُواْ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ ٱلَّذِينَ خَلَوْاْ مِن قَبْلِكُم ۖ مَّسَّتْهُمُ ٱلْبَأْسَآءُ وَٱلضَّرَّآءُ وَزُلْزِلُواْ حَتَّىٰ يَقُولَ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ مَتَىٰ نَصْرُ ٱللَّهِ ۗ أَلَآ إِنَّ نَصْرَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ﴾ [البقرة: ٢١٤].

وقَوْلَهُ تَعَالىٰ: ﴿وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَۗ وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيرًا﴾ [الفرقان: ٢٠].

وعَنْ سَعْدِ بنِ أبي وَقَّاصٍ رضي الله عنه قَالَ: قُلْتُ يَا رَسُوْلَ الله: أيُّ النَّاسِ أشَدُّ بَلاءً؟ «قَالَ الأنْبِيَاءُ ثُمَّ الأمْثَلُ فَالأمْثَلُ فَيُبْتَلَىٰ الرَّجُلُ علىٰ حَسَبِ دِيْنِهِ فَإنْ كَانَ دِيْنُهُ صُلْبًا اشْتَدَّ بَلاؤُهُ، وإنْ كَانَ في دِيْنِهِ رِقَّةٌ ابْتُلِيَ علىٰ حَسَبِ دِيْنِهِ فما يَبْرَحُ البَلاءُ بالعَبْدِ حَتَّىٰ يَتْرُكَهُ يَمْشِي علىٰ الأرْضِ مَا عَلَيْهِ خَطِيئةٌ» أخْرَجَهُ التِّرْمِذِيُّ (٢٣٩٨) وهُوَ صَحِيْحٌ.

فَإنَّنا نَعُوْذُ بالله مِنْ تَرْبِيَةٍ تَقُوْدُنَا إلىٰ البَحْثِ عَنْ مَنْهَجِ السَّلامَةِ الَّتِي لا تَسْتَقِيْمُ ضَرُوْرَةً إلَّا بالخَوْفِ والتَّخْوِيْفِ، والتَّخَاذُلِ والتَّخْذِيْلِ، والتَّوَلِّي يَوْمَ الزَّحْفِ سَوَاءٌ عَنِ الصَّدْعِ بالحَقِّ، أو عَنِ الأمْرِ بالمَعْرُوْفِ والنَّهْي عَنِ المُنْكَرِ، أو عَنِ الدَّعْوَةِ، أو عَنِ الجِهَادِ والمُنَاصَرَةِ أو غَيْرِ ذَلِكَ مِنَ الطَّاعَةِ في المَعْرُوْفِ!

❑ ومَا أحْسَنَ قَوْلِ الشَّاعِرِ فِيْهِم(١):

تَسَالَمَ القَوْمُ لَمَّا عَادُوْا دُعَاةَ السَّلامَهْ
تَفَاسَدُوا ثُمَّ أبْدُوا صُلْحًا بغَيْرِ اسْتِقَامَهْ

* * *

❑ ومَا هَذِهِ البِدْعَةُ الشَّيْطَانِيَّةُ الَّتِي أخَذَتْ طَرِيْقَهَا بَيْنَ صُفُوْفِ أبْنَاءِ

---

(١) انْظُرْ «تَعْظِيمَ الفُتْيا» لابنِ الجَوْزِيِّ (٧٦).

المُسْلِمِيْنَ كَمَا أَمْلَتْهَا (التَّرْبِيَةُ) اليَوْمَ، إِلَّا نَكْسَةً دَعَوِيَّةً؛ حَيْثُ تَرَتَّبَ عَلَيْهَا مَا يَلي:

أَوَّلًا: زَرْعُ الخَوْفِ في نُفُوْسِ أَبْنَاءِ المُسْلِمِيْنَ.

ثَانِيًا: قَلْبُ الحَقَائِقِ الشَّرعِيَّةِ؛ حَيْثُ جَعَلُوا مِنَ الخَوْفِ والتَّخَاذُلِ: شَجَاعَةً وإِقْدَامًا، وذَلِكَ حِيْنَما قَرَّرَ أَنْصَارُ (الفِكْرِ التَّرْبَوِيِّ) هَذِهِ المُغَالَطَاتِ بِبَعْضِ الشُّبَهِ والمُتَشَابِهَاتِ.

ثَالِثًا: اهْتِمامُهُم بالدُّرُوْسِ والكَلِماتِ الَّتِي تُعَزِّزُ الخَوْفَ والتَّخَاذُلَ تَحْتَ عَنَاوِيْنَ شَرْعِيَّةٍ: مِثْلُ الحِكْمَةِ، مَوْقِفِ المُسْلِمِ مِنَ الفِتَنِ، وِحْدَةِ الصَّفِّ، خَطَرِ الخِلافِ، فَضْلِ العُزْلَةِ، شُرُوْطِ الأمْرِ بالمَعْرُوْفِ والنَّهِي عَنِ المُنْكَرِ، الوَسَطِيَّةِ، أَخْطَاءِ العَمَلِ الفَرْدِي . . . إلَخ!

رَابِعًا: تَحْذِيْرُ شَبَابِهِم بصَرِيْحِ العِبَارَةِ أو تَلْمِيْحِ الإشَارَة مِنْ جِدِّيَّةِ الدَّعْوَةِ السَّلَفِيَّةِ، والأمْرِ بالمَعْرُوْفِ والنَّهْيِ عَنِ المُنْكَرِ، والصَّدْعِ بكَلِمَةِ الحَقِّ . . . في غَيْرِهَا مِنْ مَقَامَاتِ العُبُوْدِيَّةِ، ومَنَازِلِ الأنْبِيَاءِ والأوْلِيَاءِ مِنَ العُلَماءِ الرَّبَّانِيِّيْنَ وغَيْرِهِم.

* * *

ومِنْ خَطأ بَعْضِهِم: أنَّ مَفْهُوْمَ (التَّربِيَةِ) عِنْدَهُ لم يَقِفْ عِنْدَ هَذَا الحَدِّ، بَلْ تَعَدَّاهُ إلىٰ الطَّعْنِ في هَذِهِ المَقَامَاتِ والمَنَازِلِ؛ حَيْثُ وَصَفَتْ أَصْحَابَها: بالحَماسِ، والتَّهَوُّرِ، والغُلُوِّ، والتَّنَطُّعِ، وشَقِّ الصَّفِّ، ومِنْ آخِرِهَا: وَصْفُهُم بالإرْهَابِ!

وإذَا سَألْتَ عُقلاءَهُم عَنْ دَوَافِعِ هَذِهِ المُغَالَطاتِ التَّربَوِيَّةِ، والمُخَالَفَاتِ الإيْمانِيَّةِ، قَالَ علىٰ اسْتِحْيَاءٍ: نَحْنُ نُرِيْدُ أنْ نُحَافِظَ علىٰ رَصِيْدِ الشَّبَابِ، لأنَّهُم رَأسُ المَالِ!

* * *

□ وأخِيْرًا؛ فلْيَعْلَمْ أرْبَابُ (الفِكْرِ التَّرْبَويِّ) أنَّ تَرْكَ الإنْكَارِ، باسْمِ مَنْهَجِ السَّلامَةِ، أو غَيْرِهِ لهُوَ جِنَايَةٌ علىٰ أبْنَاءِ المُسْلِمِيْنَ خِلافًا لما يَظُنُّونَهُ!

يُوَضِّحُهُ؛ أنَّ قَوَاعِدَ الشَّرِيْعَةِ قَدِ اسْتَقَرَّتْ علىٰ أنَّ تَارِكَ حُقُوقِ الله الَّتِي تَجِبُ عَلَيْهِ أسْوأُ حَالًا عِنْدَ الله، ورَسُوْلِه مِنْ مُرْتَكِبِ المَعَاصِي.

لِقَوْلِهِ ﷺ: «**مَنْ رَأىٰ مِنْكُم مُنْكَرًا فَلْيُغَيِّرْه بِيَدِه، فإنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَبِلِسَانِه، فإنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَبِقَلْبِهِ، وذَلِكَ أضْعَفُ الإيْمَانِ**» مُسْلِمٌ.

وقَدْ دَلَّ علىٰ خَطَرِ السُّكُوْتِ عَنِ المُنْكَرِ النُّصُوْصُ الشَّرْعِيَّةُ مِنَ الكِتَابِ، والسُّنَّةِ، والإجْمَاعِ، وأقْوَالِ السَّلَفِ.

قَالَ تَعالىٰ: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ﴾ [آل عمران: ١١٠]، ولِذَا نَجِدُ عُمَرَ بنَ الخَطَّابِ ﷺ يَقُوْلُ بَعْدَ أنْ قَرَأ الآيَةَ السَّابِقَةَ: «يَا أيُّها النَّاسُ مَنْ أرَادَ أنْ يَكُوْنَ مِنْ هَذِه الأمَّةِ؛ فَلْيُؤَدِّ شَرْطَ الله فِيْها».

انْظُرْ «جَامِعَ البَيَانِ» للطَّبَرِيِّ (٥/ ٦٧٢)، و«الدُّرَّ المنْثُورَ» للسِّيُوطِيِّ (٢/ ٦٣).

وقَوْلُه تَعَالىٰ: ﴿لُعِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۢ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُۥدَ وَعِيسَى ٱبۡنِ مَرۡيَمَۚ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَواْ وَّكَانُواْ يَعۡتَدُونَ ٧٨ كَانُواْ لَا يَتَنَاهَوۡنَ عَن مُّنكَرٖ فَعَلُوهُۚ لَبِئۡسَ مَا كَانُواْ يَفۡعَلُونَ﴾ [المائدة: ٧٨-٧٩].

وقَوْلُه ﷺ: «**والَّذِي نَفْسِي بِيَدِه لَتَأمُرُنَّ بالمَعْرُوْفِ، ولَتَنْهَوُنَّ عَنِ المُنْكَرِ، أو لَيُوْشِكَنَّ الله أنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُم عَذَابًا مِنْه، ثُمَّ تَدْعُوْنَه فَلا يُسْتَجابُ لَكُم**» أخْرَجَهُ أحْمَدُ (٥/ ٣٨٨)، والتِّرْمِذِيُّ (٢١٦٩) وغَيْرُهما، وقَدْ حَسَّنَهُ الألْبَانِيُّ «صَحِيْحُ التِّرمِذِيِّ» (١٧٦٢).

وقَدْ ذَكَرَ الغَزَالِيُّ رَحِمَهُ اللهُ في «إحْيَاءِ عُلُومِ الدِّيْنِ» (٢/ ٣١١) أنَّ حُذَيْفَةَ بنَ اليَمَانِ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ حِيْنَ سُئِلَ عَنْ مَيِّتِ الأحْيَاءِ؟ فَقَالَ: «الَّذِي لا يُنْكِرُ المُنْكَرَ بِيَدِهِ، ولا بِلِسَانِهِ، ولا بِقَلْبِه».

* * *

قَالَ ابنُ القَيِّمِ رَحِمَهُ اللهُ في «إعْلامِ المُوقِّعِينَ» (٢/ ١٧٦) إذْ يَصِفُ لَنا خَطَرَ السُّكُوْتِ عَنِ المُنْكَرِ بِقَوْلِهِ: «وقَدْ غَرَّ إبْلِيْسُ أكْثَرَ الخلْقِ بأنْ حَسَّنَ لَهُم القِيَامَ بِنَوْعٍ مِنَ الذِّكْرِ، والقِرَاءةِ، والصَّلاةِ، والصِّيامِ، والزُّهْدِ في الدُّنْيا والانْقِطَاعِ، وعَطَّلُوا هَذِه العُبُودِيَّاتِ، فَلَمْ يُحَدِّثُوا قُلُوْبَهم بالقِيَامِ بِها، وهَؤُلاءِ عِنْدَ وَرَثَةِ الأنْبِيَاءِ مِنْ أقَلِّ النَّاسِ دِيْنًا؛ فإنَّ الدِّينَ هُوَ القِيَامُ للهِ بِمَا أمَرَ بِهِ؛ فَتَارِكُ حُقُوقِ اللهِ الَّتِي تَجِبُ عَلَيْه أسْوأ حَالًا عِنْدَ اللهِ ورَسُوْلِه مِنْ مُرْتَكِبِ المَعَاصِي؛ فإنَّ تَرْكَ الأمْرِ أعْظَمُ مِنِ ارتِكَابِ النَّهْي مِنْ أكْثَرِ مِنْ ثَلاثِيْنَ وَجْهًا، ذَكَرَها شَيْخُنا رَحِمَهُ اللهُ (أيْ: ابنُ تَيْمِيَّةَ) في بَعْضِ تَصَانِيْفِه . . .

وأيُّ دِيْنٍ، وأيُّ خَيْرٍ فِيْمَنْ يَرَىٰ: مَحَارِمَ الله تُنْتَهَكُ، وحُدُوْدَه تُضَاعُ، ودِينَهُ يُتْرَكُ، وسُنَّةَ رَسُوْلِه ﷺ يُرْغبُ عَنْهَا؛ وهُوَ بَارِدُ القَلْبِ، سَاكِتُ اللِّسَانِ، شَيْطَانٌ أخْرسٌ؛ كَمَا أنَّ المُتكلِّمَ بالبَاطِلِ شَيْطَانٌ نَاطِقٌ!

وهَلْ بَلِيَّةُ الدِّينِ إلَّا مِنْ هَؤُلاءِ الَّذِيْنَ إذَا سَلِمَتْ لَهُم مَآكِلُهُم ورِيَاسَاتُهُم؛ فَلا مُبَالاةٍ بِمَا جَرَىٰ علىٰ الدِّيْنِ وهَؤُلاءِ. مَعَ سُقُوْطِهِم مِنْ عَيْنِ الله، ومَقْتِ الله لَهُم. قَدْ بُلُوْا في الدُّنْيَا بأعْظَمِ بَلِيَّةٍ تَكُوْنُ، وهُمْ لا يَشْعُرُوْنَ: وهُوَ مَوْتُ القُلُوْبِ؛ فإنَّ القَلْبَ كُلَّمَا كَانَتْ حَيَاتُه أتَمَّ؛ كَانَ غَضَبُه لله ورَسُوْلِه أقْوَىٰ، وانْتِصَارُه للدِّيْنِ أكْمَلَ» انْتَهَىٰ.

* * *

والَّذِيْنَ يُؤْثِرُوْنَ السَّلامَةَ في دِيْنِهِم بهذه الشُّبْهَةِ، ويَتْرُكُوْنَ الأمْرَ والنَّهيَ الوَاجِبَ عَلَيْهِم تُجاهَ أهْلَ الشِّرْكِ والمَعَاصِي مَعَ القُدْرَةِ عَلَيْه: هُمْ كالمُسْتَجِيْرِ مِنَ الرَّمْضَاءِ بالنَّارِ؛ إذْ صُورَةُ حَالِهِم كَمَا قَالَ الله تَعَالىٰ عَنِ المُنَافِقِيْنَ: ﴿وَمِنْهُم مَنْ يَقُولُ ائْذَنْ لِي وَلَا تَفْتِنِّي أَلَا فِي الْفِتْنَةِ سَقَطُوا﴾ [التوبة: ٤٩].

وفي هَذَا يَقُوْلُ شَيْخُ الإسْلامِ ابنُ تَيْمِيَّةَ رَحِمَهُ اللهُ في كِتَابِهِ «الأمْرِ بالمعْرُوفِ والنَّهي عَنِ المنكَرِ» (٧٦): «ولَمَّا كَانَ في الأمْرِ بالمَعْرُوْفِ، والنَّهْي عَنِ المُنْكَرِ، والجِهَادِ في سَبِيْلِ الله مِنَ الابْتِلاءِ والمِحَنِ مَا يَتعرَّضُ بِهِ المَرْءُ للفِتْنَةِ؛ صَارَ في النَّاسِ مَنْ يَتعلَّلُ لِترْكِ مَا وَجَبَ عَلَيْه مِنْ ذَلِكَ بأنْ يَطْلُبَ السَّلامَةَ مِنَ الفِتْنَةِ؛ كَمَا قَالَ تَعَالىٰ عَنِ المُنَافِقِيْنَ: ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ ائْذَنْ لِي وَلَا تَفْتِنِّي أَلَا فِي الْفِتْنَةِ سَقَطُوا وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ﴾ [التوبة: ٤٩].

ثُمَّ قَالَ: «فَمَنْ تَرَكَ القِتَالَ الَّذِي أمَرَ الله بِه؛ لِئَلا تَكُوْنَ فِتْنَةٌ؛ فَهُوَ في الفِتْنَةِ سَاقِطٌ؛ لِمَا وَقَعَ فِيْه مِنْ رَيْبِ قَلْبِه، ومَرَضِ فُؤَادِهِ، وتَرْكِ مَا أمَرَهُ الله بِه مِنَ الجِهَادِ» انْتَهَىٰ.

وقَالَ الشَّيْخُ حَمَدُ بنُ عَتِيقٍ رَحِمَهُ اللَّهُ كَمَا جَاءَ في «الدُّرَرِ السَّنِيَّة» (٨/ ٧٧): «إنَّ المُدَاهِنَ، الطَّالِبَ رِضَا الخَلْقِ، أخْبَثُ حَالًا مِنَ الزَّانِي، والسَّارِقِ، والشَّارِبِ، قَالَ ابنُ القَيِّمِ رَحِمَهُ اللَّهُ: وَلَيْسَ الدِّيْنُ بِمُجَرَّدِ تَرْكِ المُحَرَّمَاتِ الظَّاهِرَةِ؛ بَلْ بالقِيَامِ مَعَ ذَلِكَ بالأمُوْرِ المَحْبُوْبَةِ للهِ، وأكْثَرُ الدَّيِّنِيْنَ لا يَعْبَئُوْنَ مِنْها، إلَّا بِمَا شَارَكَهُم فِيْه عُمُوْمُ النَّاسِ؛ وأمَّا الجِهَادُ، والأمْرُ بالمَعْرُوْفِ والنَّهْي عَنِ المُنْكَرِ، والنَّصِيْحَةُ للهِ، ورَسُوْلِه، وعِبَادِه، ونُصْرَةُ الله، ورَسُوْلِه، وكِتَابِهِ، ودِيْنِهِ، فَهَذِه الوَاجِبَاتُ لا يَخْطُرْنَ بِبَالِهِم؛ فَضْلًا عَنْ أنْ يُرِيْدُوا فِعْلَها؛ فَضْلًا عَنْ أنْ يَفْعَلُوها، وأقَلُّ النَّاسِ دِيْنًا، وأمْقَتُهم إلىٰ الله مَنْ تَرَكَ هَذِه الوَاجِبَاتِ، وإنْ زَهِدَ في الدُّنْيا جَمِيْعًا . . . وأصْحَابُ الكَبَائِرِ أحْسَنُ حالًا عِنْدَ الله مِنْ هَؤُلاءِ . انْتَهَىٰ.

فَلَوْ قُدِّرَ: أنَّ رَجُلًا يَصُوْمُ النَّهَارَ، ويَقُوْمُ اللَّيْلَ، ويَزْهَدُ في الدُّنْيا كُلِّها، وهُوَ مَعَ ذَلِكَ لا يَغْضَبُ، ولا يَتَمَعَّرُ وَجْهُه، ويَحْمَرُّ للهِ، فَلا يَأمُرُ بالمَعْرُوْفِ، ولا يَنْهَىٰ عَنِ المُنْكَرِ، فَهَذَا الرَّجُلُ مِنْ أبْغَضِ النَّاسِ عِنْدَ الله، وأقَلُّهم دِيْنًا، وأصْحَابُ الكَبَائِرِ أحْسَنُ حَالًا عِنْدَ الله مِنْهُم.

ويَشْهَدُ لِهَذا مَا جَاءَ عَنْ بَعْضِ السَّلَفِ، أنَّ السَّاكِتَ عَنِ الحَقِّ شَيْطَانٌ أخْرَسُ، والمُتَكَلِّمُ بالبَاطِلِ شَيْطَانٌ نَاطِقٌ» انْتَهَىٰ.

وقَالَ أيْضًا الشَّيْخُ عَبْدُ اللَّطِيْفِ بنُ عَبْدِ الرَّحْمَنِ رَحِمَهُ اللهُ كَمَا جَاءَ في «الدُّرَرِ السَّنِيَّة» (٨/ ٧٠): «وتَرْكُ ذَلِكَ (أيْ: الأمْرِ بالمَعْرُوْفِ، والنَّهْي عَنِ المُنْكَرِ) علىٰ سَبِيْلِ المُدَاهَنَةِ، والمُعَاشَرَةِ، وحُسْنِ السُّلُوكِ، ونَحْوِ ذَلِكَ مَمَّا يَفْعَلُه بَعْضُ الجَاهِلِيْنَ أعْظَمُ ضَرَرًا، وأكْبَرُ إثْمًا مِنْ تَرْكِهِ لِمُجَرَّدِ الجَهَالَةِ . . . وهَذَا في الحَقِيْقَةِ هُوَ الهُلْكَةُ في الآجِلَةِ، فَمَا ذَاقَ طَعْمَ الإيمانِ مَنْ لَمْ يُوَالِ في الله، ويُعَادِ فِيْهِ» انْتَهَىٰ.

* * *

وأخِيْرًا؛ فَإنَّ مَا يُمْلِيْهِ بَعْضُ أنْصَارِ (الفِكْرِ التَّرْبَويِّ) مِنْ إفْرَازَاتِ مَنْهَجِ السَّلامَةِ؛ هُوَ في حَقِيْقَتِهِ حَيْلُوْلَةٌ وتَحَايُلٌ لقَطْعِ ومَنْعِ مَا مِنْ شَأنِهِ يُبْعِدُ الشَّبَابَ عَنْ نَوادِيْهِم ومَرَاكِزِهِم التَّربَوِيَّةِ، والله أعْلَمُ.

❑ ❑ ❑

الخَطَأُ الثَّالِثُ والعِشْرُوْنَ

ظُهُوْرُ القَصَّاصِيْنَ والوُعَّاظِ في مَرَاكِزِ (التَّربِيَةِ)

إنَّ مِنْ كَرَائِمِ مَرَاكِزِ (التَّرْبِيَةِ) اليَوْمَ أنَّها جَادَتْ بِبَعْضِ الدُّعَاةِ والوُعَّاظِ مِنْ شَبَابِها؛ حَيْثُ تَمَرَّسُوا مِنْ خِلالِهَا: فَنَّ القَصَصِ، والوَعْظِ، والخَطَابَةِ، فأَجَادُوا وأَفَادُوا، لاسِيَّما ممَّنْ دَرَسَ مِنْهُم فَنَّ الإلْقَاءِ والحِوَارِ في دَوْرَاتِهِمُ الإدَارِيَّةِ والعَصَبِيَّةِ، كُلُّ ذَلِكَ علىٰ حِسَابِ العِلْمِ الشَّرعِيِّ والتَّأصِيْلِ العِلْمِيِّ، حَتَّىٰ إذَا لمَعَتْ أسْماؤُهُم، وانْتَشَرَتْ مُحَاضَرَاتُهُم أخَذَتْهُم عَجلَةُ الشُّهْرَةِ إلىٰ كَرَاسِي الإفْتَاءِ والتَّنْظِيْرِ والتَّرْشِيْدِ للأمَّةِ في كُلِّ مَا يَأتي ويَذَرُ مِنْ قَضَايَا مَصِيْرِيَّةٍ أو فَرْعِيَّةٍ!

* * *

وهَكَذا دَبَّتْ هَذِهِ الظَّاهِرَةُ (التَّربَوِيَّةُ) في أمْنٍ وأمَانٍ، وسَلامَةٍ ومُسَالمةٍ لا يُقْلِقُهَا حَالٌ، ولا يُغْضِبُهَا مَقَالٌ ... فَلَمَّا أقْبَلَتِ الفِتَنُ الهَوْجَاءُ تَأخُذُ بالأخْضَرِ واليَابِسِ في مُرَقِّقَاتٍ وقَوَاصِمَ مَا لهَا مِنْ كَاشِفٍ، وانْكَسَر عِنْدَهَا النَّاسُ طَرَائِقَ قِدَدًا (إلَّا مَا رَحِمَ رَبِّي)، إذْ بِهؤُلاءِ القَصَّاصِيْنَ والوُعَّاظِ يَنْظُرُوْنَ إلىٰ هَذِهِ الفِتَنِ نَظَرَ المَغْشِيِّ عَلَيْهِ مِنَ المَوْتِ، وقَامُوا كالَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ المَسِّ؛ فَعِنْدَئِذٍ تَرَامُوا لهَنًا في حَمِئَةِ الفَتْوَىٰ والتَّرشِيْدِ بغَيْرِ عِلْمٍ

ولا تَقْوَىٰ، فَلَمْ يَخافُوا الله فِيْمَا يَأتُوْنَ ويَذَرُوْنَ مِنَ القَوْلِ والتَّقَوُّلِ والجَهْلِ والتَّجَهُّلِ في مِثْلِ هَذِهِ الفِتَنِ المُرَقِّقَةِ، إلَّا مَا رَحِمَ الله!

* * *

فَلَيْتَ شِعْرِي؛ لَوْ تَرَكَ قَصَّاصُو (التَّرْبِيَةِ)، ووُعَّاظُ (الفِكْرِ التَّرْبَويِّ) قَضايَا الأمَّةِ المَصِيْرِيَّةِ في مِثْلِ هَذِهِ الفِتَنِ الهَوْجَاءِ لأهْلِ العِلْمِ الرَّبَّانِيِّيْنَ، فالله المُسْتَعَانُ!

وقَدْ مَرَّ مَعَنَا شَيءٌ مِنَ الحَدِيْثِ عَنْ أخْطَارِ هَؤلاءِ القَصَّاصِيْنَ والوُعَّاظِ، في مَبْحَثِ الكَلامِ عَنِ الانْهِزَامِ الدَّعْوِيِّ، فانْظرْهُ فَفِيْهِ مَقْنَعٌ وكِفَايَةٌ إنْ شَاءَ الله.

❑ ❑ ❑

الخَطَأ الرَّابِعُ والعِشْرُوْنَ

هَشَاشَةُ (التَّربِيَةِ)

إنَّ آيَاتِ وعَلامَاتِ الحَقِّ كَثِيرَةٌ جِدًّا؛ فمِنْ ذَلِكَ: الرُّجُوْعُ إلَيْهِ ممَّنْ يُرِيْدُهُ، والعَمَلُ بِهِ، والدَّعْوَةُ إلَيْهِ، والصَّبْرُ فِيْهِ.

وكذا التَّوْبَةُ مِنْ مُخالَفَتِهِ، والنَّدَمِ علىٰ الجَهْلِ بِهِ، والتَّحْذِيْرِ مِنَ مُخالَفَتِهِ في غَيْرِهَا مِنْ دَلائِلِ الحَقِّ.

ومِنْ قَبْلُ؛ كَانَ مِنَ العِلْمِ الَّذِي أيْقَنَتْهُ البَشَرِيَّةُ جَمْعَاءُ، أنَّ الإسْلامَ مَلاذُ التَّائِبِيْنَ، ومَأوَىٰ العَائِدِيْنَ، وكَهْفُ النَّادِمِيْنَ . . . إلَخْ.

* * *

وكَذَا مَنْ قَرَأ التَّارِيْخَ الإسْلامِيَّ عَلِمَ يَقِيْنًا: حِكْمَةَ الله البَالِغَةَ، وسُنَّتَهُ القَاهِرَةَ، يَوْمَ تَجِدُ اليَهُوْدَ والنَّصارَىٰ والمُشْرِكِيْنَ لا يَفْتَرُوْنَ مِنَ العَوْدَةِ إلىٰ الإسْلامِ مُنْذُ بِعْثَةِ النَّبِيِّ ﷺ حَتَّىٰ يَوْمِنَا هَذَا، بَلْ إنَّ عُلَماءَهُم ومُفَكِّرِيْهِم لم يَقِفُوا عِنْدَ حَدِّ التَّوْبَةِ؛ بَلْ صَاحُوا بخَطِيْئَةِ النَّصارَىٰ واليَهُوْدِ والمُشْرِكِيْنَ، وحَذَّرُوا مِنَ تَحْرِيْفِ كُتُبِهِم في كُتُبٍ كَتَبُوْهَا ومُصَنَّفَاتٍ صَنَّفُوْهَا لَيْسَ هَذَا مَحَلَّ ذِكْرِهَا.

ومِثْلُ هَذَا لا تَجِدُهُ ولا تَسْمَعُهُ عِنْدَ مُسْلِمٍ عَرَفَ الإسْلامَ حَقَّ المَعْرِفَةِ بأنَّهُ تَنصَّرَ أو تَهوَّدَ أو تَمجَّسَ، والحَمْدُ لله رَبِّ العَالمِيْنَ!

وكَذَا مَا كَانَ ومَا يَكُوْنُ ومَا سَيَكُونُ: مِنْ تَوْبَةِ الشِّيْعَةِ والرَّافِضَةِ والصُّوْفِيَّةِ والجَهْمِيَّةِ والمُعْتَزِلَةِ والأشْعَرِيَّةِ والمُرْجِئَةِ والكُلَّابِيَّةِ والكُرَّامِيَّةِ والحَداثَةِ والعَلْمَنَةِ وغَيْرِهِم مِنْ أهْلِ البِدَعِ والأهْوَاءِ. إلىٰ أهْلِ السُّنَّةِ والجَماعَةِ!

وكَذَا ما نَجِدُهُ عِنْدَ أكْثَرِهِم بَعْدَ تَوْبَتِهِ من القِيَامِ في التَّصْنِيْفِ والتَّألِيْفِ في الرَّدِّ علىٰ أهْلِ مِلَّتِهِ ومَذْهَبِهِ القَدِيْمِ، فالحَمْدُ لله مُنَزِّلِ الكِتَابِ ونَاصِرِ الأحْزَابِ ومُجْرِي السَّحَابِ علىٰ نِعْمَةِ الإسْلامِ، ونِعْمَةِ السُّنَّةِ . . . فاللهمَّ إنَّنَا لم نَسْألْكَ الإسْلامَ فَأعْطَيْتَنَا إيَّاهُ فَضْلًا مِنْكَ ومِنَّةً، فَلا تَحْرِمْنَا وقَدْ سَألْنَاكَ الثَّبَاتَ والجَنَّةَ، اللهمَ آمِيْنَ!

* * *

ومِنْ آخِرِ تَوْبَاتِ ونَوْبَاتِ أبْنَاءِ عَصْرِنَا أنَّ طَائِفَةً مِنْ رُوَّادِ (التَّرْبِيَةِ) أعْلَنُوا التَّوْبَةَ ممَّا كَانُوا فِيْهِ، والعَوْدَةَ إلىٰ الله تَعَالىٰ: بالعِلْمِ والتَّأصِيْلِ، والدَّعْوَةِ السَّلَفِيَّةِ دُوْنَ تَقيُّدٍ بشَخْصٍ أو مَرْكَزٍ، أو نَادٍ، أو تَنْظِيْمٍ، أو شَيءٍ مِنْ إفْرَازَاتِ (التَّرْبِيَةِ) اليَوْمَ.

وهَذَا لا تَجِدُهُ قَطْعًا عِنْدَ أحَدٍ ممَّنْ شَمَّ العِلْمَ؛ بأنَّهُ تَابَ أو عَادَ إلىٰ مَرَاكِزِ (التَّرْبِيَةِ)، ومَا سَمِعْنَا أيْضًا عَمَّنِ انْتَهَجَ نَهْجًا سَلَفِيًا أنَّهُ إلَيْهِم ركَنَ واسْتَكَانَ، والله أعْلَمُ!

الخَطَأُ الخَامِسُ والعِشْرُوْنَ

الدَّعْوَةُ الجَوْفَاءُ عِنْدَ التَّربَوِيِّيْنَ

إنَّ مِنَ الخَطَايَا التَّربَوِيَّةِ الَّتِي يُمارِسُهَا بَعْضُ أرْبَابِ (الفِكْرِ التَّرْبَويِّ) اليَوْمَ مَعَ أبْنَاءِ المُسْلِمِيْنَ؛ أنَّهُم يُوهِمُوْنَ الشَّابَ عِنْدَهُم مِنْ خِلالِ مَرَاكِزِهِم ونَوَادِيْهِم أنَّه ممَّنْ يَعْمَلُ للدِّيْنِ والأمَّةِ، فَيَعِيْشُ هَذَا المِسْكِيْنَ مُصَدِّقًا لِهَذِهِ الأُكْذُوْبَةِ الصَّلْعَاءِ، فَيَبْقَىٰ السِّنِيْنَ الخَوَالِيَا مَعَهُم لا للأُمَّةِ عَمِلَ ولا لَنَفْسِهِ تَجمَّلَ، وهَكَذَا تَرَىٰ الجُهْدَ يَبْلُغُ بِهِ مَبْلَغًا مَا بَيْنَ ضَيَاعٍ للوَقْتِ، وهَدْرٍ للطَّاقَةِ . . . وعِنْدَ التَّحْقِيْقِ تَجِدُهُ يَعْمَلُ علىٰ ألَّا يَعْمَلُ، يُوَضِّحُهُ مَا يَلِي:

أوَّلًا: أنَّهُ يَترَبَّىٰ علىٰ التَّنْظِيْرِ والتَّرشِيْدِ للأمَّةِ في قضَايَاهَا المَصِيْرِيَّةِ وهُوَ بَعْدُ لم يَخُطَّ شَارِبُهُ، ولم يَكْتَمِلْ فَهْمُهُ، ولم يُحْسِنْ أغْوَارَ الأُمُوْرِ، اللهمَّ أنَّه تَربَّىٰ علىٰ أنْ يُنَظِّرَ ويُفَكِّرَ، فَمِثْلُ هَذَا المِسْكِيْنَ سَيَكُوْنُ عِبْئًا علىٰ أمَّتِهِ قَبْلَ أنْ يَكُوْنَ ذَنْبًا تَرْبَوِيًّا.

ثَانِيًا: أنَّهُ يَتَكَلَّمُ في قَضَايَا الأمَّةِ المَصِيْرِيَّةِ الَّتِي لَوْ عُرِضَتْ علىٰ عُمَرَ بنِ الخَطَّابِ رضي الله عنه لجَمَعَ لهَا أهْلَ بَدْرٍ، وهَذَا المِسْكِيْنَ يَتَكَلَّمُ فِيْهَا مِنْ طَرَفِ اللِّسَانِ وحَرْفِ الذَّاكِرَةِ، بِلا دَلِيْلٍ شَرعِيٍّ، ولا تَأصِيْلٍ عِلْمِيٍّ، اللهمَّ إنَّهُ تَرْبَوِيٌّ قَدِيْمٌ أو مُفكِّرٌ كَبِيْرٌ؛ أو أنَّه ممَّنْ تَوَجَّهُ أنْصَارُ (الفِكْرِ التَّرْبَويِّ) شَرَفَ

(التَّرْبِيَةِ) بيْنَ الشَّبَابِ، وإنِّي أعْرِفُ كَثِيرًا مِمَّنْ هَذِهِ حَالُهُم، ومَا خَفي كَانَ أعْظَمَ، فالله وَليُّ المُؤمِنِيْنَ!

ثَالِثًا: أنَّهُ يَعِيْشُ علىٰ فَتَاتِ أخْبَارِ وأحْوَالِ دُعَاةِ ورُمُوْزِ (التَّرْبِيَةِ) الَّذِيْنَ رَبَّوْهَ صَغِيرًا وفَطَمُوْهَ يَافِعًا علىٰ تَتَبُّعِ أخْبَارِهِم ومَوَاقِفِهِم، فعِنْدَئِذٍ تَرَىٰ غَايَةَ مَا عِنْدَ هَذَا المِسْكِيْنِ أنَّهُ لا يَسْأَلُ إلَّا عَنْهُم بِكُلِّ بَرَاءَةٍ وسَذَاجَةٍ: مَتَىٰ يَنَامُوْنَ ويَأكُلُوْنَ؟ ولمَاذَا يَتَكَلَّمُوْنَ ويَسْكُتُوْنَ؟ ومَتَىٰ يُسَافِرُوْنَ ويَعُوْدُوْنَ؟ وكَيْفَ يَمْرَضُوْنَ ويَتَعَالجُوْنَ؟ . . . وهَكَذَا يَسْعَىٰ حَثِيْثًا في البَحْثِ عَنِ الأخْبَارِ والاسْتِخْبَارِ حَتَّىٰ إذَا أصْبَحَ مِنْ خَوَاصِّ أحَدِ الدُّعَاةِ والمُرَبِّيْنَ انْقَلَبَ هَذَا المِسْكِيْنُ مُرِيْدًا مِنْ حَيْثُ لا يَشْعُرُ، بَحَيْثُ لا يَقْبَلُ في هَذَا الشَّيْخِ مَسًّا أو نَقْدًا ولَوْ مِنْ بَابِ النَّصِيْحَةِ، لأنَّ هَذَا المِسْكِيْنَ لَيْسَ لَهُ رَصِيْدٌ مِنْ حَيَاتِهِ التَّربَوِيَّةِ إلَّا هَذَا الشَّيْخَ فَعَلَيْهِ يُوَالي ويُعَادِي، وعِنْدَهُ تَقُوْمُ سُوْقُ الوَلاءِ والبَرَاءِ، وحَوْلَهُ يَكُوْنُ الحَدِيْثُ والكَلامُ!

ومِنْ ضَنَّاتِ الأسَفِ أنَّني أعْرِفُ مَنْ كَانَ مُقْبِلًا علىٰ العِلْمِ والتَّأصِيْلِ، والحِفْظِ والتَّقْيِيْدِ؛ حَتَّىٰ إذَا تَلَقَّاهُ المُتَلَقِّيَانِ عَنِ اليَمِيْنِ والشِّمالِ عِزِيْنَ: أوْحَوْا إلَيْهِ أهمِيَّةَ التَّربِيَةِ ومُلازَمَةَ المُرَبِّيْنَ، ومِنْ ثَمَّ ألْقَوْهُ في غَيَاهِبِ الجُبِّ ليبقىٰ مَرِيْدًا لأحَدِ رُمُوْزِ المُرَبِّيْنَ المُفَكِّرِيْنَ، فالله وَليُّ المُتَّقِيْنَ!

رَابِعًا: أنَّه بَعْدَ هَذِهِ الحَصِيْلَةِ الثَّقَافِيَّةِ الهَشَّةِ يُصْبِحُ عَقَبَةً كَأْدَاءَ في وَجْهِ إخْوَانِهِ العَامِلِيْنَ لله تَعَالىٰ، فَمَرَّةً يُخَطِّئُهُم، وتَارَةً يُجَهِّلُهُم، وأخْرَىٰ يُخَذِّلُهُم، ومَرَّةً يَسُبُّهُم ورُبَما آذَاهُم بَذَلاقَةِ لِسَانِهِ، أو صَرِيْفِ أقْلامِهِ!

ولَوْلا المَلامَةُ لذَكَرْتُ بَعْضًا مِنْ مَوَاقِفِ هَؤلاءِ المَسَاكِيْنِ مَعَ أهْلِ العِلْمِ الرَّبَّانِيِّيْنَ، والعَامِلِيْنَ لهَذَا الدِّيْنِ.

خَامِسًا: أنَّ كَثِيرًا ممَّنْ هَذِهِ حَالهُم، هُم أكْثَرُ النَّاسِ في تَحْصِيْلِ الدَّوْرَاتِ الإدارِيَّةِ: مِنْ فَنِّ للحِوَارِ والإلْقَاءِ وغَيْرِهَا؛ حَتَّىٰ إذَا قَدَّمُوْهُ أو اسْتَضَافُوْهُ للكَلامِ أو المُحَاضَرَةِ تَجِدُهُ لا يُحْسِنُ مِنَ العِلْمِ الشَّرعِيِّ إلَّا سَجْعَ الحَمْدَلَةِ، وكَسْرَ البَسْمَلَةِ، ونَصْبَ الحَوْقَلَةِ، ثُمَّ يَذْكُرُ آيَةً أو آيَتَيْنِ في حَدِيْثٍ أو حَدِيْثَيْنِ، ثُمَّ يَبْقَىٰ يَتَحَدَّثُ ويَتَكَلَّمُ السَّاعَةَ والسَّاعَتَيْنِ: وهُوَ يُنَظِّرُ ويُفَكِّرُ مَا بَيْنَ ذِكْرٍ لأرَائِهِ، وتَذْكِيْرٍ لتَجَارُبِهِ، وإمْلاءٍ لنَتَائِجِهِ، وهَكَذَا تَكُوْنُ المُصِيْبَةُ كُلَّ المُصِيْبَةِ إذَا عَلِمَ الجَمِيْعُ أنَّ هَذَا المُفَكِّرَ (المُرَبِّي) يَحَلِّلُ ويُنَظِّرُ ويُفَكِّرُ في كُبْرَيَاتِ قَضَايَا الأمَّةِ المَصِيْرِيَّةِ، فالله المُسْتَعَانُ!

❑ ❑ ❑

الخَطَأُ السَّادِسُ والعِشْرُوْنَ

تَحْجِيرُ (التَّرْبِيَةِ) علىٰ طَائِفَةٍ دُوْنَ غَيْرِهَا

لَمَّا ضَعُفَتِ الحَصِيْلَةُ العِلْمِيَّةُ اليَوْمَ عِنْدَ بَعْضِ القَائِمِيْنَ علىٰ رَأْسِ (التَّرْبِيَةِ)، مَعَ قِلَّةِ قُدُرَاتِهِم في مُخَاطَبَةِ جَمِيْعِ طَبَقَاتِ المُجْتَمَعِ المُسْلِمِ، قَامُوا يُضَيِّقُوْنَ دَوْرَ (التَّرْبِيَةِ) علىٰ الشَّبَابِ والأَبْنَاءِ خَاصَّةً، فعِنْدَهَا هَمَّشُوا طَوَائِفَ لَيْسَتْ أَقَلَّ مَكَانَةً ودَوْرًا مِنَ الشَّبَابِ، وهُمُ الكِبَارُ والآبَاءُ والنِّسَاءُ، والله تَعَالىٰ لم يُفَرِّقْ في كِتَابِهِ وسُنَّةِ نَبِيِّهِ بَيْنَ مُكَلَّفٍ وآخَرَ في الدَّعْوَةِ والتَّذْكِيرِ، قَالَ تَعَالىٰ: ﴿وَذَكِّرْ فَإِنَّ ٱلذِّكْرَىٰ تَنفَعُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الذاريات: ٥٥]. وقَوْلُهُ تَعَالىٰ: ﴿ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ﴾ [النحل: ١٢٥].

وقَوْلُهُ تَعَالىٰ: ﴿قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِيٓ أَدْعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِي وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ [يوسف: ١٠٨]، وقَوْلُهُ تَعَالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱدْخُلُواْ فِي ٱلسِّلْمِ كَآفَّةً وَلَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾ [البقرة: ٢٠٨]، قَوْلُهُ تَعَالىٰ: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [سبأ: ٢٨].

وعَنْ سَهْلِ بنِ سَعْدٍ رضي الله عنه سَمِعَ النَّبِيَّ ﷺ يَقُوْلُ يَوْمَ خَيْبَرَ: «فوَ الله لأنْ يُهْدَىٰ بِكَ رَجُلٌ وَاحِدٌ خَيْرٌ لَكَ مِنْ حُمُرِ النَّعَمِ» مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ.

وقَوْلُهُ ﷺ: «بَلِّغُوا عَنِّي ولَوْ آيَةً، وحَدِّثُوا عَنْ بَنِي إسْرَائِيْلِ ولا حَرَجٌ، ومَنْ كَذَبَ عَليَّ مُتَعَمِّدًا فلْيَتبَوَّأ مَقْعَدَهُ مِنَ النَّار» البُخَارِيُّ، وغَيْرُهَا مِنَ الأدِلَّةِ الشَّرعِيَّةِ العَامَّةِ القَاطِعَةِ بدَعْوَةِ المُكَلَّفِيْنَ علىٰ حَدٍّ سَوَاءٍ.

* * *

❑ ومِنْ خِلالِ هَذا التَّحْجِيْرِ في الدَّعْوَةِ، ظَهَرَتْ آثَارٌ سِيِّئَةٌ، مِنْهَا:

أوَّلًا: تَحْجِيْرُ الدَّعْوَةِ علىٰ طَائِفَةٍ مِنَ المُسْلِمِيْنَ (الشَّبَابِ) دُوْنَ الآخَرِيْنَ.

ثَانِيًا: تَهْمِيْشُ طَوَائِفَ مِنَ المُسْلِمِيْنَ، وحِرْمَانُهُم مِنَ الدَّعْوَةِ إلىٰ الله تَعَالىٰ (الآبَاءَ، والأمَّهَاتِ).

ثَالِثًا: إحْدَاثُ فَجْوَةٍ وجَفْوَةٍ بَيْنَ الأبْنَاءِ والآبَاءِ، وذَلِكَ باشْتِغَالِ الأبْنَاءِ بالدَّعْوَةِ خَارِجَ البَيْتِ، ممَّا سَبَّبَ نُفْرَةً عِنْدَ بَعْضِ الآبَاءِ، وعُقُوْقًا عِنْدَ بَعْضِ الأبْنَاءِ، والشَّاهِدُ والحَالُ قَائِمانِ.

ومَا ذَاكَ إلَّا لكَثْرَةِ الأعْمالِ المُسْنَدَةِ إلىٰ بَعْضِ شَبَابِ (التَّرْبِيَةِ) في مَرَاكِزِهِم، ممَّا زَادَ في قِلَّةِ اهْتِمامِهِم بالدَّعْوَةِ دَاخِلَ بِيُوتِهِم وبَيْنَ أقَارِبِهِم، والله تَعَالىٰ أعْلَمُ.

❑ ❑ ❑

الخَطَأُ السَّابِعُ والعِشْرُوْنَ
الانْتِكَاسَةُ المَوْهُوْمَةُ

إنَّ هَاجِسًا في شَفَقَةٍ قَدْ أخَذَ ببَعْضِ أنْصَارِ (الفِكْرِ التَّرْبَويِّ) في مَرَاكِزِهِم ونَوادِيْهِم علىٰ شَبَابِهِم مِنَ الانْتِكَاسَةِ، وذَلِكَ بالتَّحْذِيْرِ مِنْ أسْبَابِها والعَمَلِ بمُوْجِبَاتِها، فَإذَا خَافَ الشَّابُ ذَلِكَ وسَألهُم عَنِ المَخْرَجِ مِنْهَا!

قَالُوا بلِسَانِ الحَالِ والمَقَالِ: إنَّ المَخْرَجَ مِنَ الانْتِكَاسَةِ: هُوَ الدُّخُوْلُ في مَرَاكِزِ ونَوادِي (التَّرْبِيَةِ)، والمَدْخَلُ في الانْتِكَاسَةِ: هُوَ الخُرُوْجُ مِنْ مَرَاكِزِ (التَّرْبِيَةِ)!

فَعِنْدَئِذٍ يُوهِمُوْنَ الشَّابَ أنَّ البَقَاءَ في هَذِهِ المَرَاكِزِ لَيْسَ مَحَلًّا للمُسَاوَمَةِ أو المُرَاجَعَةِ، لأنَّ المُسَاوَمَةَ في خِلافِ ذَلِكَ مَدْعَاةٌ وسَبَبٌ للانْتِكَاسَةِ عِيَاذًا باللهِ، ومِنْهُ لا يَفْتَرُوْنَ، يَفْتِلُوْنَ لَهُ في الذِّرْوَةِ الغَارِبَ، ويَذْكُرُوْنَ لَهُ قِصَصَ المُنْتَكِسِيْنَ الَّذِيْنَ تَمَرَّدُوا وخَرَجُوا عَنْ مَرَاكِزِ (التَّرْبِيَةِ).

* * *

فمِثْلُ هَذَا الصَّنِيْعِ مِنْ هَؤلاءِ التَّرْبَوِيِّيْنَ يُعْتَبَرُ خَطأً شَرْعِيًّا، يَوْمَ حَجَّرُوا التَّوْبَةَ، وأسْبَابَ الاسْتِقَامَةِ، والخَوْفَ مِنَ الانْتِكَاسَةِ: في البَقَاءِ دَاخِلِ هَذِهِ المَرَاكِزِ، وكَأنَّ الهِدَايَةَ بأيْدِيْهِم، ودَاخِلِ مَرَاكِزِهِم ونَوَادِيْهِم!

قَالَ تَعَالىٰ: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ﴾ [القصص: ٥٦]، وقَالَ تَعَالىٰ: ﴿وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُوا۟ فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [العنكبوت: ٦٩]، وقَالَ تَعَالىٰ: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَٱتَّقَىٰ ﴿٥﴾ وَصَدَّقَ بِٱلْحُسْنَىٰ ﴿٦﴾ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْيُسْرَىٰ﴾ [الليل: ٥-٧]، وغَيْرُهَا مِنَ الأدِلَّةِ.

❑ ❑ ❑

الخَطَأُ الثَّامِنُ والعِشْرُوْنَ

تَأثُّرُ بَعْضِ طُلابِ العِلْمِ بـ (التَّرْبِيَةِ)

إنَّ أثَرًا وَاضِحًا مِنْ أرْبَابِ (الفِكْرِ التَّرْبَوِيِّ) علىٰ بَعْضِ طُلَّابِ العِلْمِ، ممَّا يَحْمِلُنَا علىٰ مُناصَحَتِهِم مِنْ هَذِهِ التَّأثِيْرَاتِ التَّربَوِيَّةِ؛ حَيْثُ إنَّ كَثِيرًا مِنْ أهْلِ العِلْمِ وطُلَّابِهِ كَانُوا قَبْلَ أنْ تَمَسَّهُم أيْدِي التَّربَوِيِّيْنَ: علىٰ كَبِيْرِ عِلْمٍ، وعَظِيْمِ عَمَلٍ، وصِدْقِ نُصْحٍ، وحَقِّ مُناصَحَةٍ، وأمْرٍ ونَهيٍ، فَلا تَرَاهُم إلَّا في حَلَقَةِ عِلْمٍ، أو مَيْدَانِ عَمَلٍ.

فَإذَا كَانَ في حَلَقَاتِ العِلْمِ: أخَذَ في تَفْسِيرِ القُرْآنِ مَرَّةً، وفي شَرْحِ السُّنَّةِ أخْرَىٰ، وفي العَقِيْدَةِ والفِقْهِ تَارَاتٍ، وهَكَذَا تَجِدُهُ بَيْنَ كُتُبِ السَّلَفِ دَرْسًا ومُدَارَسَةً، بَلْ إنِّي أعْلَمُ أحَدَهُم: كَانَ يَشْرَحُ مُسْنَدَ الإمَامِ أحمَدَ!

وإذَا كَانَ في مَيْدَانِ العَمَلِ: أخَذَ في الدَّعْوَةِ والتَّعْلِيمِ، والأمْرِ بالمَعْرُوْفِ والنَّهْيِ عَنِ المُنْكَرِ، والزِّيَارَاتِ، والمُحَاضَرَاتِ، والجِهَادِ، بَلْ إنِّي أعْلَمُ أحَدَهُم: كَانَ يَدْعُو الشَّبَابَ علىٰ الأرْصِفَةِ!

أمَّا إذَا سَألْتَ عَنْ طُلَّابِهِم؛ فَذُرِّيَّةٌ بَعْضُهَا مِنْ بَعْضٍ: في حُبِّ العِلْمِ وطَلَبِ التَّحْصِيْلِ، والبَذْلِ والإيْثَارِ، والزُّهْدِ والوَرَعِ، والتَّقَشُّفِ، فَلا تَجِدُهُم إلَّا رُهْبَانَ لَيْلٍ أو فُرْسَانَ نَهَارٍ!

وهَكَذَا كَانَتْ سِيَرُهُم مَرْضِيَّةً، وأعْمالُهُم سَنِيَّةً؛ حَتَّىٰ إذَا جاءتِ الأقْضِيَةُ التَّرْبَوِيَّةُ بتَدَسُّسٍ إلَيْهِم لتَأخُذَهم في مَزالِقِ العِلْمِ، ومَضَايِقِ الدَّعْوَةِ: حَيْثُ زَيَّنُوا لهُمُ الحَيَاةَ الدُّنْيا، وعَمَّرُوا لهُمُ القُصُوْرَ الفَاخِرَةَ، وقَرَّبُوا لهُمُ المَرَاكِبَ الفَارِهَةَ، وأشْرَكُوْهُم في الإعْلامِ والمَجَلَّاتِ، ومِنْ وَرَائِها (الإنْتَرْنِتْ)، وأظْهَرُوْهُم في زِيِّ أهْلِ الدُّنْيا، ولَقَّنُوْهُم لُغَةَ الحِوَارِ والإلْقَاءِ، وغَيَّبُوْهُم عَنْ لُغَةِ الشَّرِيْعَةِ الغَرَّاءِ، كُلُّ ذَلِكَ لصَالِحِ الدَّعْوَةِ (زَعَمُوا)، وكَسْبِ الآخَرِيْنَ، والتَّيْسِيْرِ، أو عَسَاهُ يَكُوْنُ لمُحَارَبَةِ الإرْهَابِيِّيْنَ!

* * *

نَعَم؛ لَقَدْ رَضِيَ كَثِيْرٌ مِنْ أهْلِ العِلْمِ والدَّعْوَةِ اليَوْمَ، أنْ يَبْقَوْا مَعَ أنْصَارِ (الفِكْرِ التَّرْبَوِيِّ)، ومَعَ أهْلِ الشَّهَادَاتِ الجَامِعِيَّةِ (الأكَادِيْمِيَّةِ)، ورِجَالِ الفِكْرِ، ومُحَلِّلي السِّيَاسَةِ، ومَعَ صِغَارِ العِلْمِ ممَّنْ لم يَتَشَرَّبُوا الكِتَابَ والسُّنَّةَ قَوْلًا وعَمَلًا، ولم يُدْمِنُوا كُتُبَ السَّلَفِ مُطَالَعَةً وتَحْرِيْرًا! وقَدْ مَرَّ مَعَنَا الحَدِيْثُ عَنْ هَؤلاءِ آنِفًا في فَصْلِ الانْهِزَامِ الدَّعْوِيِّ، انْظُرْ صَحِيْفَةَ.

❑ ❑ ❑

الخَطَأُ التَّاسِعُ والعِشْرُوْنَ

أضْرَارُ ضَرُوْرَةِ (التَّرْبِيَةِ)

لَقَدْ بَاتَ مِنَ الخَطَايَا التَّربَوِيَّةِ مَا يَذْكُرُهُ ويَتَذَاكَرُهُ بَعْضُ أنْصَارِ (الفِكْرِ التَّرْبَوِيِّ) في مَجَامِعِهِم التَّربَوِيَّةِ، يَوْمَ قَاموا يَأزُّوْنَ شَبَابَ المُسْلِمِيْنَ إلىٰ ضَرُوْرَةِ (التَّرْبِيَةِ) وجِدِّيَّتِهَا، فَأغْرَوْهُم بهَذِهِ المَقُوْلَةِ؛ وقَدْ قِيْلَ: كَلِمَةُ حَقٍّ أُرِيْدَ بِها بَاطِلٌ، فَعِنْدَئِذٍ طَفِقَ الشَّبَابُ يَبْحَثُوْنَ عَنِ (التَّرْبِيَةِ)، ويَتَبَاحَثُوْنَها في كُلِّ مَكَانٍ يَحِلُّوْنَ فِيْهِ أو يَرْتَحِلُوْنَ مِنْهُ.

حَتَّىٰ إذَا أخَذَتِ الظُّنُوْنِ مَأخَذَهَا مِنَ الشَّابِ عِنْدَهُم، صَاحَ أرْبَابُ (الفِكْرِ التَّرْبَوِيِّ) في وَجْهِهِ، وألْزَمُوْهُ ضَرُوْرَةَ أن يَرْفَعَ لِوَاءَ (التَّرْبِيَةِ) في مَدْرَسَتِهِ أو قَرْيَتِهِ، وهَكَذَا كُلَّما ذَهَبَ أحَدُهُم للتَّدْرِيْسِ في القُرَىٰ أو الفَيَافي أخَذَ في بِنَاءِ دُوْرِ (التَّرْبِيَةِ)، وتَسْوِيْقِ أفْكَارِهَا، ظَنًّا مِنْهُ أنَّ هَذَا مِنَ وَاجِبِ (التَّرْبِيَةِ)، وحَقِّ الإسْلامِ، فَعِنْدَئِذٍ يَقُوْمُ هَذَا المَسْكِيْنُ في بَذْلِ الجُهْدِ، وإفْرَاغِ الوُسْعِ في تَجْمِيْعِ شَبَابِ القَرْيَةِ تَحْتَ مظَلَّةِ (التَّرْبِيَةِ).

ومَا عِلَمَ هَذَا الشَّابُ أنَّ (التَّرْبِيَةَ) بمَعْنَاهَا الَّذِي عِنْدَهُم لَيْسَتْ وَاجِبَةً علىٰ كُلِّ وَاحِدٍ مِنْ أبْنَاءِ المُسْلِمِيْنَ، فَضْلًا عَنْ مَعْنَاهَا الشَّرعِيِّ الَّذِي: هُوَ العِلْمُ والتَّعْلِيْمُ، فَلا نَعْلَمُ أحَدًا مِنْ أهْلِ العِلْمِ أوْجَبَ العِلْمَ علىٰ عُمُوْمِ المُسْلِمِيْنَ.

* * *

❑ والنَّاسُ باعْتِبَارِ وُجُوْبِ العِلْمِ علىٰ قِسْمَيْنِ:

الأوَّلُ: أهْلُ العِلْمِ وطُلَّابُهُ، ممَّنْ يَجِبُ عَلَيْهِم مَعْرِفَةُ العِلْمِ بدَلِيْلِهِ الشَّرعِيِّ.

الثَّاني: عَامَّةُ المُسْلِمِيْنَ، وهَؤلاءِ وَاجِبُهُم السُّؤالُ والتَّقْلِيْدُ، لاسِيَّما في وَاجِبَاتِ العِبَادَةِ.

فعِنْدَئِذٍ كَانَ الخَلْطُ بَيْنَ هَذَا وهَذَا مِنَ الخَطَأ الَّذِي ارْتَكَبَهُ أنْصارُ (الفِكْرِ التَّرْبَويِّ)؛ حَيْثُ وَقَعُوا في خَطأيْنِ: خَطأ مَعَ الشَّبَابِ الَّذِيْنَ يُرِيْدُوْنَ تَرْبِيَتِهِم، وخَطأ مَعَ غَيْرِهِم مِنْ عَامَّةِ المُسْلِمِيْنَ.

فَأمَّا الخَطأ الأوَّلُ: أنَّهُم لم يَتَقَيَّدُوا بالوَاجِبِ الشَّرعِي نَحْوَ الشَّبَابِ الَّذِيْنَ يُرِيْدُوْنَ تَرْبِيَتَهُم، وذَلِكَ بدَفْعِهِم وحَمْلِهِم علىٰ العِلْمِ الشَّرْعِي، والتَّأصِيْلِ العِلْمِي مِنْ خِلالِ دُرُوْسِ أهْلِ العِلْمِ.

وأمَّا الخَطأ الثَّاني: أنَّهُم أيْضًا لمَّا اشْتَغَلُوا بتَرْبِيَةِ الشَّبَابِ: حَرَمُوا عُمُوْمَ المُسْلِمِيْنَ مِنْ حَقِّهِم الشَّرعِي، وذَلِكَ مِنْ خِلالِ تَذْكِيْرِهِم ووَعْظِهِم بالتَّرغِيْبِ مَرَّةً، والتَّرهِيْبِ مَرَّةً، سَوَاءٌ في المَسَاجِدِ أو خُطَبِ الجُمْعَةِ أو الزِّيَارَاتِ أو غَيْرِهَا.

* * *

فَإذَا عُلِمَ هَذَا؛ كَانَ علىٰ أهْلِ (التَّرْبِيَةِ) إذَا حَلُّوا قَرْيَةً أو مَدِيْنَةً أنْ يَجْتَهِدُوا

في نَشْرِ العِلْمِ الشَّرعِي أوَّلًا، والدَّعْوَةِ إلىٰ الله تَعَالىٰ بَيْنَ أَهْلِهَا ثَانِيًا، فمَنْ وَجَدُوْهُ مِنْهُم ذَا قُدْرَةٍ وهِمَّةٍ عِلْمِيَّةٍ دَفَعُوْهُ إلىٰ دُرُوْسِ العِلْمِ.

ومَنْ كَانَ غَيْرَ ذَلِكَ دَعَوْهُ إلىٰ الله تَعَالىٰ: بالمَوْعِظَةِ الحَسَنَةِ، والتَّذْكِيْرِ، والتَّرغِيْبِ والتَّرهِيْبِ، والله أعْلَمُ.

❑ ❑ ❑

الخَطَأُ الثَّلاثُون

امْتِحَانُ النَّاسِ بـ(التَّرْبِيَةِ)

إنَّ امْتِحَانَ النَّاسِ بـ(التَّرْبِيَةِ)، وحَمْلِهِم علىٰ رُسُوْمِهَا، والدُّخُوْلِ في مَظَلَّتِهَا يُعَدُّ خطأً شَرْعِيًّا، وبدْعَةً مُحدثَةً.

فَيَوْمَ قَامَ بَعْضُ أنْصارِ (الفِكْرِ التَّربويِّ) يَرْسُمُوْنَ حُدُوْدًا بَيْنَ أبْنَاءِ المُسْلِمِيْنَ، ويَشُقُّوْنَ أنْفَاقًا في جَوْفِ الأرْضِ، ليَعْلِنُوْهَا مُدَوِّيَةً: إمَّا مَعَنَا أو لا!

فعِنْدَئِذٍ؛ كَانَ حَالُ كَثِيْرٍ مِنْ شَبَابِ (التَّرْبِيَةِ) اليَوْمَ لا يَعْرِفُوْنَ مِنَ الأحْكَامِ الشَّرْعِيَّةِ والوَعْدِ والوَعِيْدِ إلَّا أحَدَ شَائِيَّنَ: إمَّا تَرْبَوِيًّا، وإمَّا غَيْرَ تَرْبَوِيٍّ!

فمَنْ كَانَ عِنْدَهُم مِنْ أهْلِ (التَّرْبِيَةِ) وَالَوْهُ ونَاصَرُوْهُ وأحَبُّوْهُ، ومَنْ لَيْسَ مِنْ أهْلِهَا تَرَكُوْهُ، ورُبَّما أبْغَضُوْهُ وحَذَّرُوا مِنْهُ.

وهَكَذَا؛ في تَفَقُّهَاتٍ، لا عِلْمَ لَنَا بِها اليَوْمَ إلَّا مِنْ زَبَدِ تَرْبِيَةِ أنْصارِ (الفِكْرِ التَّرْبَوِيِّ)، لِذَا كَانَ مِنْ مَنْظُوْمَةِ البِدَعِ العَصْرِيَّةِ اليَوْمَ: الانْتِسَابُ إلىٰ (التَّرْبِيَةِ) في لفْظِهَا ومَعْنَاهَا!

فَلا يَجُوْزُ والحَالَةُ هَذِهِ أنْ يَنْتَسِبَ أحَدٌ مِنْ أبْنَاءِ المُسْلِمِيْنَ إلىٰ (التَّرْبِيَةِ): فَلا شَبَابَ تَرْبِيَةٍ، ولا أهْلَ تَرْبِيَةٍ، بَلْ لا اجْتِرَارَ لكَلِمَةِ (التَّرْبِيَةِ) رَأسًا بمَعْنَاهَا الآنَ!

* * *

وهُنَا يَتبَيَّنُ لَنَا مَيْزَةٌ اخْتُصَّ بِها أَهْلُ السُّنَّةِ والجَمَاعَةِ دُوْنَ غَيْرِهِم مِنَ الفِرَقِ، وهِيَ أَنَّ انْتِسَابَهُم وانْتِمَاءَهُم للكِتَابِ والسُّنَّةِ، ومَتْبُوْعَهُم: هُوَ مُحَمَّدٌ ﷺ، وأمَّا الرِّجَالُ فَهُم عِنْدَهُم أدِلَّاءُ علىٰ الحَقِّ.

كَما قَالَ الشَّاطِبِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ في «الاعْتِصَامِ» (٢/ ٣٥٥): «فَما وَافَقَ مِنْ كَلامِهِم الحَقَّ أَخَذُوا بِهِ، ومَا لا فَلا».

فالانْتِسَابُ إلىٰ غَيْرِ السُّنَّةِ وأَهْلِها بِدْعَةٌ قَدِيْمَةٌ، كَمَا هُوَ حَالُ أَهْلِ الفِرَقِ والطَّوَائِفِ المُخَالِفَةِ لأَهْلِ السُّنَّةِ؛ حَيْثُ كَانَ انْتِسَابُهُم إلىٰ المُسَمَّياتِ البِدْعِيَّةِ المُحْدَثَةِ، فَوَالُوا وعَادُوا النَّاسَ عَلَيْهَا، وامْتَحَنُوْهُم بِها، ورَغِبُوا عَنِ التَّسْمِيَاتِ الشَّرعِيَّةِ، هَذَا إلىٰ جَانِبِ انْتِسَابِهِم إلىٰ الرِّجَالِ، فَكُلٌّ مِنْهُم يَذْكُرُ الرَّجُلَ الَّذِي أَسَّسَ طَرِيْقَتَهُ وطَائِفَتَهُ، ويَعْتَزُّ بذَلِكَ ويَفْتَخِرُ، ووَلاؤُهُ الكَامِلُ لهَذَا الرَّجُلِ وفِكْرِهِ وطَرِيْقَتِهِ ومَنْهَجِهِ، ولا يَلْتَفِتُ إلىٰ طَرِيْقِهِ الَّذِي هُوَ عَلَيْهِ، هَلْ هُوَ مُوَافِقٌ لمَا جَاءَ بِهِ الرَّسُوْلُ ﷺ، أم لا؟!

* * *

ولشَيْخِ الإسْلامِ ابنِ تَيْمِيَّةَ رَحِمَهُ اللَّهُ كَلامٌ نَفِيْسٌ يَأتي مَجْمُوْعُ نَظْمِهِ في «مَجْمُوعِ الفَتَاوَىٰ» (٣/ ٣١٥، ٣٤٣، ٤١٩)، و(١١/ ٥١١)، و«جَامِعِ الرَّسَائِلِ» (٢/ ٣١٩)؛ حَيْثُ يَقُوْلُ: «الانْتِسَابُ إلىٰ جِنْسٍ مُعَيَّنٍ مِنْ أَجْنَاسِ بَعْضِ شَرَائِعِ التَّدَيُّنِ: كالتَّجْنِيْدِ للمُجَاهِدِيْنَ، والفِقْهِ للعُلَماءِ، والفَقْرِ والتَّصَوُّفِ للعُبَّادِ.

أو الانْتِسَابُ إلىٰ بَعْضِ فِرَقِ هَذِهِ الطَّوَائِفِ: كإمَامٍ مُعَيَّنٍ، أو شَيْخٍ، أو

مَلِكٍ، أو مُتَكَلِّمٍ مِنُ رُؤوْسِ المُتَكَلِّمِيْنَ، أو مَقَالَةٍ، أو فِعْلٍ تَتَمَيَّزُ بِهِ طَائِفَةٌ، أو شِعَارِ هَذِهِ الفِرَقِ مِنَ اللِّبَاسِ مِنْ عَمائِمَ أو غَيْرِهَا، كَمَا يَتَعَصَّبُ قَوْمٌ لِلخِرْقَةِ، أو (اللِّبْسَةِ) يَعْنُوْنَ الخِرْقَةَ الشَّامِلَةَ لِلفُقَهَاءِ والفَقَرَاءِ، أو المُخْتَصَّةِ بأحَدِ هَذَيْنِ، أو بَعْضِ طَوَائِفِ أحَدِ هَؤلاءِ، أو لِبَاسِ التَّجْنِيْدِ، أو نَحْوِ ذَلِكَ.

كُلُّ ذَلِكَ مِنْ أمُوْرِ الجَاهِلِيَّةِ المُفَرِّقَةِ بَيْنَ الأمَّةِ وأهْلِهَا: خَارِجُوْنَ عَنِ السُّنَّةِ والجَماعَةِ، دَاخِلُوْنَ في البِدَعِ والفُرْقَةِ، بَلْ دِيْنُ الله تَعَالىٰ: أنْ يَكُوْنَ رَسُوْلُهُ محَمَّدٌ ﷺ: هُوَ المُطَاعُ أمْرُهُ ونَهْيُهُ، المَتْبُوْعُ في مَحَبَّتِهِ ومَعْصِيَتِهِ، ورِضَاهُ وسَخَطِهِ، وعَطَائِهِ، ومَنْعِهِ، ومُوَالاتِهِ ومُعَادَاتِهِ، ونَصْرِهِ وخِذْلانِهِ».

وقَالَ أيْضًا: «الله تَعَالىٰ قَدْ سَمَّانَا في القُرْآنِ: المُسْلِمِيْنَ، المُؤمِنِيْنَ، عِبَادَ الله، فَلا نَعْدِلُ عَنِ الأسْماءِ الَّتِي سَمَّانَا الله بِهَا إلىٰ أسْماءِ أحْدَثَهَا قَوْمٌ، وسَمَّوْهَا هُم وآبَاؤهُم مَا أنْزَلَ الله بِها مِنْ سُلْطَانٍ» انْتَهىٰ.

* * *

وقَدْ قَالَ ﷺ: «. . . **فَادْعُوا بدَعْوَىٰ الله الَّذِي سَمَّىٰ الله بِهِ: المُسْلِمِيْنَ، المُؤْمِنِيْنَ، عِبَادَ الله**» أخْرَجَهُ أحْمَدُ (٤/ ١٣٠، ٢٠٢، ٣٤٤)، والتِّرْمِذيُّ (٢٨٦٣، ٢٨٦٤)، وابنُ خُزَيْمَةُ (١٨٩٥)، وهُوَ صَحِيْحٌ.

وحَتَّىٰ الأسْماءِ الَّتِي يَسُوْغُ التَّسَمِّي بِهَا، والانْتِسَابِ إلَيْهَا لا يَجُوْزُ التَّعَصُّبُ لَهَا، ولا امْتِحَانُ النَّاسِ بِهَا، ولا المُوَالاةُ والمُعَادَاةُ عَلَيْهَا، بَلْ لا

يَجُوْزُ التَّعَصُّبُ للأسْماءِ الشَّرعِيَّةِ إذَا كَانَتْ تُؤدِّي إلىٰ فُرْقَةِ المُسْلِمِيْنَ وتبَاغُضِهِم وتَدابُرِهِم!

فَهَا هُوَ النَّبِيُّ ﷺ يُخْبِرُ عَنْ مِثْلِ هَذِهِ الأمُوْرِ بأنَّهَا: «مُنْتِنَةٌ»، وفي رِوَايَةٍ بأنَّها: «خَبِيْثَةٌ»، وذَلِكَ في حَدِيْثِ جَابِرِ بنِ عَبْدِ الله رضي الله عنهما في شَأنِ الخِصَامِ الَّذِي وَقَعَ بَيْنَ المُهَاجِرِيِّ والأنْصارِيِّ؛ حَتَّىٰ تَدَاعُوا، وقَالَ الأنْصَارِيُّ: يا للأنْصارِ، وقَالَ المُهَاجِرِيُّ: يا للمُهَاجِرِيْنَ، فَخَرَجَ النَّبِيُّ ﷺ، فَقَالَ: «مَا بَالُ دَعْوَىٰ الجَاهِلِيَّةِ ...؟!» مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ.

* * *

يقول ابنِ تَيْمِيَّةَ رحمه الله تَعْلِيْقًا علىٰ هَذَا الحَدِيْثِ كَمَا جَاءَ في «الاقْتِضَاءِ» (١/ ٢١٤): «فَإذَا كَانَ هَذَا التَّدَاعِي في هَذِهِ الأسْماءِ، وهَذَا الانْتِسَابُ، الَّذِي يُحِبُّهُ الله ورَسُوْلُهُ، فَكَيْفَ بالتَّعَصُّبِ مُطْلَقًا، والتَّدَاعِي للنَّسَبِ والإضَافَاتِ الَّتِي: هِيَ إمَّا مُبَاحَةٌ، أو مَكْرُوْهَةٌ؟ وذَلِكَ أنَّ الانْتِسَابَ إلىٰ العِلْمِ الشَّرعِي، أحْسَنُ مِنَ الانْتِسَابِ إلىٰ غَيْرِهِ» انْتَهَىٰ.

وفي شَأنِ التَّعَصُّبِ للنِّسَبِ المُبَاحَةِ، وأنَّه لا يَجُوْزُ ذَلِكَ بحَالٍ مِنَ الأحْوَالِ، يَقُوْلُ أيْضًا رحمه الله في «مَجْمُوعِ الفَتَاوَىٰ» (٣/ ٤١٥): «بَلِ الأسْماءُ الَّتِي يَسُوْغُ التَّسَمِّي بِها مِثْلُ: انْتِسَابِ النَّاسِ إلىٰ إمَامٍ كالحَنَفِيِّ، والمَالِكِيِّ، والشَّافِعِيِّ، والحَنْبَليِّ، أو إلىٰ شَيْخٍ: كالقَادِرِي، والعَدَوِيِّ وغَيْرِهِم، أو مِثْلُ: الانْتِسَابِ إلىٰ القَبَائِلِ كالقَيْسِيِّ، واليَمانِيِّ، وإلىٰ الأمْصَارِ: كالشَّامِيِّ، والعِرَاقِيِّ، والمِصْرِيِّ؛ فَلا يَجُوْزُ لأحَدٍ أنْ يَمْتَحِنَ النَّاسَ بِها،

ولا يُوَالي بِهَذِهِ الأسْماءِ، ولا يُعَادِي بِها، بَلْ أكْرَمُ الخَلْقِ عِنْدَ الله اتْقَاهُم مِنْ أيِّ طَائِفَةٍ كَانَتْ» انْتَهَىٰ.

* * *

لِذَلِكَ نَجِدُ أن أهْلَ السُّنَّةِ والجَماعَةِ يتَقَيَّدُوْنَ بالأسْماءِ الشَّرعِيَّةِ، ولا يَتْنَسِبُوْنَ إلىٰ غَيْرِهَا.

فعَنْ عَبْدِ الرَّحمَنِ بنِ مَهْدِيٍّ رَحِمَهُ اللهُ: أنَّهُ سَألَ مَالِكَ بنَ أنَسٍ رَحِمَهُ اللهُ عَنِ السُّنَّةِ؟ قَالَ: «هِيَ مَا لا اسْمَ لَهُ غَيْرُ السُّنَّةِ، وتَلا: «وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ»، قَالَ أبُو بَكْرٍ ابنُ العَلاءِ: يُرِيْدُ (إنْ شَاءَ الله) حَدِيْثَ ابنِ مَسْعُوْدٍ أنَّ النَّبيَّ ﷺ: «**خَطَّ لَهُ خطًّا . . .**»، وذَكَرَ الحَدِيْثَ. **انْظُرْ**: «**الاعْتِصَامَ**» (١/ ٥٨)، و«**الانْتِقَاءَ**» لابنِ عَبْدِ البرِّ (٣٥)، و«مَدَارِجَ السَّالِكِينَ» لابنِ القَيِّمِ (٣/ ١٧٥)، وانْظُرْ: الحَدِيْثَ عِنْدَ أحْمَدَ (١/ ٤٣٥، ٤٦٥)، و(٣/ ٣٩٧)، وابنِ مَاجه (١١)، وهُوَ صَحِيْحٌ، انْظُرْ «صَحِيْحَ ابنِ مَاجَه» (١١) للألْبَانِيِّ.

وقَدْ أوْرَدَ اللَّالَكَائِيُّ رَحِمَهُ اللهُ في «شَرْحِ أصُوْلِ اعْتِقَادِ أهلِ السُّنَّةِ والجمَاعَةِ» (١/ ٦٥) أنَّ رَجُلًا قَالَ لأبي بَكْرِ بنِ عَيَّاشٍ رَحِمَهُ اللهُ: يا أبَا بَكْرٍ: مَنِ السُّنِّيُّ؟ قَالَ: «الَّذِي إذَا ذُكِرَتِ الأهْوَاءُ، لم يَتَعَصَّبْ لشَيءٍ مِنْهَا».

وقَدْ أوْرَدَ أيْضًا (١/ ١٣٠) عَنْ بَعْضِ السَّلَفِ، قَوْلَهُ: «مَا أُبَالي أيُّ النِّعْمَتَيْنِ أعْظَمُ؟ علىٰ أنْ هَدَاني الله للإسْلامِ، أو جَنَّبَني هَذِهِ الأهْوَاءَ؟!».

وقَدْ أوْرَدَ ابنُ بَطَّةَ رَحِمَهُ اللهُ في «الإبَانَةِ عَنْ شَرِيعَةِ الفِرْقَةِ النَّاجِيَةِ» تَحْتَ رَقْمِ (٢٣٧، ٢٣٨) أنَّ ابنَ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا قَالَ: «قَالَ مُعَاوِيَةُ: أنْتَ علىٰ مِلَّةِ عَليٍّ؟ قُلْتُ: ولا علىٰ مِلَّةِ عُثْمانَ، أنا علىٰ مِلَّةِ محَمَّدٍ ﷺ».

وأوْرَدَ أيضًا (٢١١) أنَّ مَيْمُوْنَ بنَ مِهْرَانَ رَحِمَهُ اللهُ قَالَ: «إيَّاكَ وكُلَّ شَيءٍ يُسَمَّىٰ بغَيْرِ الإسْلامِ!».

ومَا ذَكَرَهُ مَيْمُوْنُ رَحِمَهُ اللهُ هُنَا: هُوَ وِزَانُ أهْلِ السُّنَّةِ والجَمَاعَةِ في حَقِيْقَةِ الانْتِسَابِ الشَّرعِيِّ، وتَرْكِ مَا سِوَاهُ، سَوَاءٌ كَانَ مُبَاحًا أو مُحْدَثًا!

* * *

❑ وكُلُّنا أسَىٰ؛ أنَّنا نَرَىٰ فِرَقًا شَتَّىٰ، وأحْزَابًا مُتَفَرِّقَةً، كُلُّهَا تَدَّعِي أنَّها علىٰ الحَقِّ، أو أنَّها علىٰ مَنْهَجِ السَّلَفِ؛ كَما قَالَ الشَّاعِرُ:

إذَا اشْتَبَكَتْ دُمُوْعٌ علىٰ خُدُوْدٍ ... تَبيَّنَ مَنْ بَكَىٰ مِمَّنْ تَبَاكَىٰ
وكُلٌّ يدَّعِي وَصْلًا بلَيْلَىٰ ... ولَيْلَىٰ لا تُقِرُّ لهُمْ بِذَاكَا

وإنَّ خِلافًا تَذُمُّهُ الشَّرِيْعَةُ إلَّا ولأهْلِ الأهْوَاءِ والبِدَعِ تَأوِيْلاتٌ فَاسِدَةٌ، وشُبَهٌ خَطَّافَةٌ تُخْرِجُ بَاطِلَهَا في قَالِبِ حَقٍّ!

كَمَا قَالَ ابنُ القَيِّمِ رَحِمَهُ اللهُ في «إغَاثَةِ اللَّهفانِ» (٢/ ٨١): «فَكُلُّ صَاحِبِ بَاطِلٍ لا يَتَمَكَّنُ مِنْ تَرْوِيْجِ بَاطِلِهِ إلَّا بإخْرَاجِهِ في قَالِبِ حَقٍّ!».

وقَدْ نَقَلَ ابنُ القَيِّمِ في «مُخْتَصرِ الصَّوَاعِقِ المرْسَلَةِ» (٥١٧) عَنْ أبي المُظَفَّرِ السَّمْعَاني رَحِمَهُ اللهُ (٤٨٩) كَلامًا نَفِيْسًا في هَذَا المَعْنَىٰ، إذْ يَقُوْلُ: «كُلُّ

فَرِيْقٍ مِنَ المُبْتَدِعَةِ يَعْتَقِدُ أنَّ مَا يَقُوْلُهُ هُوَ الحَقُّ الَّذِي كَانَ عَلَيْهِ رَسُوْلُ الله ﷺ وأصْحَابُهُ، لأنَّ كُلَّهُم يَدَّعُوْنَ شَرِيْعَةَ الإسْلامِ، مُلْتَزِمُوْنَ في الظَّاهِرِ شِعَارَهَا! يَرَوْنَ أنَّ مَا جَاءَ بِهِ مُحَمَّدٌ هُوَ الحَقُّ غَيْرَ أنَّ الطُّرُقَ تَفَرَّقَتْ بِهِم بَعْدَ ذَلِكَ، وأحْدَثُوا في الدِّيْنِ مَا لم يَأذَنْ بِهِ الله ورَسُوْلُهُ ﷺ.

فَزَعَمَ كُلُّ فَرِيْقٍ أنَّهُ هُوَ المُتَمَسِّكُ بشَرِيْعَةِ الإسْلامِ، وأنَّ الحَقَّ الَّذِي قَامَ بِهِ رَسُوْلُهُ ﷺ هُوَ الَّذِي يَعْتَقِدُهُ ويَنْتَحِلُهُ» انْتَهَىٰ.

* * *

لأجْلِ ذَلِكَ كَانَ السَّلَفُ المُتَقَدِّمُوْنَ مِمَّنْ حَازُوا قَصَبَ السَّبْقِ في الفَضْلِ والعِلْمِ: هُمُ الرَّكِيْزَةُ الأوْلىٰ الَّتِي نَنْتَمِي إلَيْهُم، وهُمْ أصْحَابُ مُحَمَّدٍ ﷺ الَّذِيْنَ تَلَقُّوا العِلْمَ عَنْهُ بِلا وَاسِطَةٍ، وتَعَلَّمُوا علىٰ يَدَيْهِ، كَمَا يَصِفُهُم ابنُ القَيِّمِ رَحِمَهُ اللهُ في «إعْلامِ الموَقِّعِيْنَ» (١/ ٨) بِقَوْلِهِ: «إنَّهُم حَازُوا قَصَبَاتِ السِّبَاقِ، واسْتَوْلَوْا علىٰ الأمُوْرِ، فَلا مَطْمَعَ لأحَدٍ مِنَ الأمَّةِ بَعْدَهُم باللِّحَاقِ، ولَكِنَّ المُبَرِّزَ مَنِ اتَّبَعَ صِرَاطَهُمُ المُسْتَقِيْمَ، واقْتَفَىٰ مِنْهَاجَهُمُ القَوِيْمَ.

والمُتَخَلِّفُ مَنْ عَدَلَ عَنْ طَرِيْقِهِم ذَاتَ اليَمِيْنَ وذَاتِ الشِّمَالِ، فَذَلِكَ المُنْقَطِعُ التَّائِهُ في بَيْدَاءِ المَهَالِكَ والضَّلالِ، فَأيُّ خَصْلَةِ خَيْرٍ لم يَسْبُقُوا إلَيْهَا؟ وأيُّ خِطَّةِ رُشْدٍ لم يَسْتَوْلُوا عَلَيْهَا؟! تَالله لَقَدْ وَرَدُوا رَأسَ المَاءَ مِنْ عَيْنِ الحَيَاةِ عَذْبًا صَافِيًا زُلالًا، وأيَّدُوا قَوَاعِدَ الإسْلامِ فَلَمْ يَدَعُوا لأحَدٍ بَعْدَهُم مَقَالًا، فَتَحُوا القُلُوْبَ بِعَدْلِهِم بالقُرْآنِ والإيْمانِ، والقُرَىٰ بالجِهَادِ بالسَّيْفِ والسِّنَانِ.

وألْقَوْا إلىٰ التَّابِعِيْنَ ما تَلَقَّوْهُ مِنْ مِشْكَاةِ النُّبُوَّةِ خَالِصًا صَافِيًا، وكَانَ سَنَدُهُم فِيْهِ عَنْ نَبِيِّهِم ﷺ عَنْ جِبْرِيْلَ عَنْ رَبِّ العَالمِيْنَ سَنَدًا صَحِيْحًا عَالِيًا.

وقَالُوا: هَذَا عَهْدُ نَبِيِّنَا إلَيْنَا، وقَدْ عَهِدْنَاهُ إلَيْكُم، وهَذِهِ وَصِيَّةُ رَبِّنَا وفَرْضُهُ عَلَيْنَا، وهِيَ وَصِيَّتُهُ وفَرْضُهُ عَلَيْكُم، فَجَرَىٰ التَّابِعُوْنَ لهُم بإحْسَانٍ علىٰ مِنْهَاجِهِم القَوِيْمِ، واقْتَفُوا علىٰ آثَارِهِم صِرَاطَهُمُ المُسْتَقِيْمَ، ثُمَّ سَلَكَ تَابِعُوا التَّابِعِيْنَ هَذَا المَسْلَكَ الرَّشِيْدَ» انْتَهَىٰ.

* * *

وعلىٰ ذَلِكَ فَأهْلُ الحَدِيْثِ المُتَتَبِّعِيْنَ لآثَارِ النَّبِيِّ ﷺ: هُمُ الَّذِيْنَ يُمَثِّلُوْنَ السَّلَفَ علىٰ الحَقِيْقَةِ؛ لأنَّهم هُمُ الَّذِيْنَ اقْتَفُوا أثَرَهُم وسَلَكُوا سَبِيْلَهُم.

وقَالَ أيْضًا رَحِمَهُ اللهُ: «ولمَّا كَانَتِ الدَّعْوَةُ إلىٰ الله، والتَّبْلِيْغُ عَنْ رَسُوْلِهِ شِعَارَ حِزْبِهِ المُصْلِحِيْنَ، وأتْبَاعِهِ مِنَ العَالمِيْنَ، كَما قَالَ تَعَالىٰ: ﴿قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى ۖ وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ [يوسف: ١٠٨]، وكَانَ التَّبْلِيْغُ عَنْهُ مِنْ عَيْنِ تَبْلِيْغِ ألْفَاظِهِ، ومَا جَاءَ بِهِ، وتَبْلِيْغِ مَعَانِيْهِ؛ كَانَ العُلَماءُ مِنْ أمَّتِهِ مُنْحَصِرِيْنَ في قِسْمَيْنِ:

أحَدُهُما: حُفَّاظُ الحَدِيْثِ وجَهَابِذَتُهُ، والقَادَةُ الَّذِيْنَ هُم أئِمَّةُ الأنَامِ وزَوَامِلُ الإسْلامِ، الَّذِيْنَ حَفِظُوا علىٰ الأمَّةِ مَعَاقِدَ الدِّيْنِ ومَعَاقِلَهُ، وحَمُوا مِنَ التَّغْيِيْرِ والتَّكْدِيْرِ مَوَارِدَهُ ومَنَاهِلَهُ؛ حَتَّىٰ وَرَدَ مَنْ سَبَقَتْ لَهُ مِنَ الله الحُسْنَىٰ تِلْكَ المَنَاهِلَ صَافِيَةً مِنَ الأدْنَاسِ لم تُشِبْهَا الآرَاءُ تَغْيِيْرًا، ووَرَدُوا فِيْهَا عَيْنًا

يَشْرَبُ بِها عِبَادُ الله يُفَجِّرُوْنَها تَفْجِيْرًا» انْتَهَىٰ.

وقَالَ رَحِمَهُ اللهُ في «مُخْتَصرِ الصَّوَاعِقِ المرْسَلَةِ» (٥١٧) بَعْدَ أنْ ذَكَرَ قَوْلَ أبي المُظَفَّرِ السَّمْعَاني السَّابِقَ في أنَّ كُلًّا يَدَّعِي أنَّهُ علىٰ الحَقِّ، وغَيْرَهُ علىٰ البَاطِلِ، قَالَ: «غيْرَ أنَّ الله تَعَالىٰ أبَىٰ أنْ يَكُوْنَ الحَقُّ والعَقِيْدَةُ الصَّحِيْحَةُ إلَّا مَعَ أهْلِ الحَدِيْثِ والآثَارِ؛ لأنَّهم أخَذُوا دِيْنَهُم وعَقَائِدَهُم خَلَفًا عَنْ سَلَفٍ وقَرْنًا عَنْ قَرْنٍ إلىٰ أنِ انْتَهُوا إلىٰ التَّابِعِيْنَ، وأخَذَهُ التَّابِعُوْنَ عَنْ أصْحَابِ النَّبِيِّ ﷺ، وأخَذَهُ الصَّحَابَةُ عَنْ رَسُوْلِ الله ﷺ، ولا طَرِيْقَ إلىٰ مَعْرِفَةِ مَا دَعَا إلَيْهِ رَسُوْلُ الله ﷺ النَّاسَ مِنَ الدِّيْنِ المُسْتَقِيْمِ والصِّرَاطِ القَوِيْمِ إلَّا هَذَا الطَّرِيْقَ الَّذِي سَلَكَهُ أصْحَابُ الحَدِيْثِ.

وأمَّا سَائِرُ الفِرَقِ فَطَلَبُوا الدِّيْنَ بغيْرِ طَرِيْقٍ؛ لأنَّهُم رَجَعُوا إلىٰ مَعْقُوْلِهم وخَوَاطِرِهم وآرَائِهِم، فَإذَا سَمِعُوا شَيْئًا مِنَ الكِتَابِ والسُّنَّةِ عَرَضُوْهُ علىٰ مِعْيَارِ عُقُولهِم فَإنِ اسْتَقَامَ لهُم قَبِلُوْهُ، وإنْ لم يَسْتَقِمْ في مِيْزَانِ عُقُولِهم رَدُّوْهُ، فَإنِ اضْطَرُّوا إلىٰ قَبُوْلِهِ حَرَّفُوْهُ بالتَّأوِيْلاتِ البَعِيْدَةِ والمَعَاني المُسْتَكْرَهَةِ؛ فَحَادُوا عَنِ الحَقِّ وزَاغُوا عَنْهُ ونبَذُوا الدِّيْنَ وَرَاءَ ظُهُوْرِهِم، وجَعَلُوا السُّنَّةَ تَحْتَ أقْدَامِهِم.

أمَّا أهْلُ السُّنَّةِ فَجَعَلُوا الكِتَابَ والسُّنَّةَ إمَامَهُم، وطَلَبُوا الدِّيْنَ مِنْ قِبَلِهِمَا، ومَا وَقَعَ لهُم مِنْ مَعْقُولِهم وخَوَاطِرِهم وأرَائِهِم عَرَضُوْهُ علىٰ الكِتَابِ والسُّنَّةِ فإنْ وَجَدُوْهُ مُوَافِقًا لهُمَا قَبِلُوْهُ وشَكَرُوا الله حَيْثُ أرَاهُم ذَلِكَ ووَفَّقَهُم لَهُ،

وإنْ وَجَدُوْهُ مُخَالِفًا لهُمَا تركُوا مَا وَقَعَ لهُم وأقْبلُوا علىٰ الكِتَابِ والسُّنَّةِ».

ثُمَّ بيَّنَ رَحِمَهُ اللهُ تَعالىٰ مَا هُوَ السَّبَبُ الَّذِي يَجْعَلُهُ يَرَىٰ أنَّ أهْلَ الحَدِيْثِ هُم أهْلَ السُّنَّةِ وهُم المُقْتَفُوْنَ لأثرِ السَّلَفِ وإنْ تَباعَدتِ المُدَّةُ بيْنَهُم، فيَقُوْلُ (٥١٨): «وممَّا يَدُلُّ علىٰ أنَّ أهْلَ الحَدِيْثِ علىٰ الحَقِّ؛ أنَّكَ لَوْ طَالَعْتَ جَمِيْعَ كُتُبِهِم المُصَنَّفَةِ مِنْ أوَّلها إلىٰ آخرِهَا، قَدِيْما وحَدِيْثًا وَجَدْتَها مَعَ اخْتِلافِ بُلْدَانِهِم وزَمَانِهِم، وتَباعُدِ مَا بيْنَهُم في الدِّيَارِ، في بَابِ الاعْتِقَادِ علىٰ وَتيرَةٍ وَاحِدَةٍ، ونَمَطٍ وَاحِدٍ، يَجْرُوْنَ فِيْهِ علىٰ طَرِيْقَةٍ لا يَحِيْدُوْنَ عَنْهَا ولا يَمِيْلُوْنَ، قُلُوْبُهم في ذَلِكَ علىٰ قَلْبٍ وَاحِدٍ، ونَقْلُهُم لا تَرَىٰ فِيْهِ اخْتِلافًا ولا تَفَرُّقًا في شَيءٍ مَّا، وإنْ قَلَّ، بَلْ لَوْ جَمَعْتَ جَمِيْعَ مَا جَرَىٰ علىٰ ألْسِنَتِهِم ونَقَلُوْهُ عَنْ سَلَفِهِم وَجَدْتَهُ كَأنَّه جَاءَ عَنْ قَلْبٍ وَاحِدٍ جَرَىٰ علىٰ لِسَانٍ وَاحِدٍ، وهَلْ علىٰ الحَقِّ دَلِيْلٌ أبْيَنَ مِنْ هَذَا؟! قَالَ تَعالىٰ: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَۚ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَـٰفًا كَثِيرًا﴾ [النساء: ٨٢].

وكَانَ السَّبَبُ في اتِّفَاقِ أهْلِ الحَدِيْثِ أنَّهُم أخَذُوا الدِّيْنَ مِنَ الكِتَابِ والسُّنَّةِ، وطَرِيْقِ النَّقْلِ، فأوْرَثَهُم الاتِّفَاقَ والائْتِلافَ، وأهْلُ البِدَعِ أخَذُوا الدِّيْنَ مِنْ عُقُولِهِم فَأوْرَثَهُم التَّفَرُّقَ والاخْتِلافَ» انْتَهَىٰ.

* * *

❑ ومِنْ خِلالِ مَا ذَكَرْنَاهُ مِنَ الأدِلَّةِ الشَّرعِيَّةِ، والآثَارِ السَّلَفِيَّةِ النَّاهِيَةِ عَنِ الاخْتِلافِ والافْتِرَاقِ؛ كَانَ حَقًّا علىٰ الدُّعَاةِ اليَوْمَ أنْ يَحْذَرُوا كُلَّ مَا مِنْ شَأنِهِ يَكُوْنُ سَبَبًا للتَّفرُّقَةِ والاخْتِلافِ سَوَاءٌ كَانَتْ: أقْوَالًا، أو أعْمالًا، أو

أَسْمَاءً، أو مَنَاهِجَ، أو فِكْرًا، أو غَيْرَهَا مِنَ الأَسْبَابِ المُفَرِّقَةِ الَّتِي مَا أَنْزَلَ اللهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ.

فَحِيْنَئِذٍ: كَانَ علىٰ المُسْلِمِ أَنْ يَحْذَرَ الانْتِماءَ أو الانْتِسَابَ إلىٰ جَمَاعَةٍ أو مَذْهَبٍ أو مِمَّا كَانَ أو سَيَكُوْنُ سَبَبًا للافْتِرَاقِ والاخْتِلافِ بَيْنَ جَماعَةِ المُسْلِمِيْنَ، سَوَاءٌ كَانَتْ أَشْعَرِيَّةً، أو صُوْفِيَّةً، أو إِخْوَانِيَّةً، أو تَبْلِيْغِيَّةً، أو تَرْبَوِيَّةً، أو غَيْرَهَا، فَكُلُّ مَا هُنَا مِنْ جَماعَاتٍ ومُسَمَّيَاتٍ: بِدْعَةٌ مَقِيْتَةٌ فَلْيَحْذَرْهَا المُسْلِمُ، ولا يَغْتَرَّ بِما فِيْهَا مِنْ زُخْرُفِ القَوْلِ أو ظَاهِرِ العَمَلِ.

فَلَيْسَ فِي الإِسْلامِ: حِزْبِيَّاتٌ، ولا جَمَاعَاتٌ، ولا مَنَاهِجُ، ولا مُسَمَّيَاتٌ، بَلْ حِزْبُ اللهِ، وجَمَاعَةُ المُسْلِمِيْنَ، ومَنْهَجُ السَّلَفِ، وقَدْ سَمَّانَا اللهُ تَعَالىٰ: المُسْلِمِيْنَ المُؤْمِنِيْنَ عِبَادَ اللهِ!

* * *

❑ فَعِنْدَئِذٍ؛ كَانَ علىٰ أَنْصَارِ (الفِكْرِ التَّرْبَوِيِّ) أَنْ يَعْتَبِرُوا اليَوْمَ بِمَنْهَجِ ومُصْطَلَحِ (التَّرْبِيَةِ)!

مَتَىٰ أَتَىٰ؟ ومَاذَا جَنَىٰ؟ وهَلْ كَانَ علىٰ مَنْهَجِ السَّلَفِ مِنْ أَهْلِ العِلْمِ والحَدِيْثِ؟

أم كَانَ علىٰ مَنَاهِجِ أَهْلِ الفِكْرِ مِنَ الخَلَفِ؟

فإِنْ كَانَ مِنْ جَوَابٍ صَرِيْحٍ، وإِلَّا فَلْيَتَّقُوا اللهَ، ولْيَحْذَرُوا مِنْ تَرْوِيْجِ وتَسْوِيْقِ مُصْطَلَحِ (التَّرْبِيَةِ)، وأَلَّا يَشُقُّوا عَصَا المُسْلِمِيْنَ بإِحْدَاثِ مُسَمَّيَاتٍ مُحْدَثَةٍ خَطَّافَةٍ!

* * *

لأجْلِ ذَلِكَ كَانَ خطأً بَيِّنًا أنْ يَأخُذَ الاخْتِلافُ والافْتِرَاقُ بَيْنَ الدُّعَاةِ سَبِيْلًا، وأنْ يَكُوْنَ طَرِيْقًا مَطْرُوْقًا، ومِنْهُ كَانَ علىٰ أهْلِ العِلْمِ والدَّعْوَةِ أنْ يَحْذَرُوا ويُحَذِّرُوا مِنْ كُلِّ سَبَبٍ يَكُوْنُ مِدْعَاةً إلىٰ التَّفْرُقَةِ والتَّحَزُّبِ مَهْما كَانَ اسْمُهُ أو رَسْمُهُ، أو ظَهَرَ رُوَّادُهُ، أو كَثُرَ مُرِيْدُوْهُ!

* * *

فَإذَا تَقَرَّرَ أنْ قَاعِدَةَ الإسْلامِ: هِيَ تَقْرِيْرُ الاجْتِماعِ والائْتِلافِ علىٰ الكِتَابِ والسُّنَّةِ وعلىٰ مَنْهَجِ السَّلَفِ الصَّالِحِ تَحْتَ مُسَمَّىٰ: جَمَاعَةِ المُسْلِمِيْنَ وعِبَادِ الله والمُؤمِنِيْنَ ... كَانَ وَاجِبًا شَرْعِيًّا ومَقْصَدًا إسْلامِيًّا مُنَابَذَةُ ومُمانَعَةُ الانْتِسَابِ إلىٰ شَيءٍ مِنَ المُسَمَّيَاتِ والرَّايَاتِ والأشْخَاصِ وغَيْرِ ذَلِكَ إلَّا للعِلْمِ الشَّرعِي.

لِذَا كَانَ لأنْصَارِ (الفِكْرِ التَّرْبَوِيِّ) النَّصِيْبُ الكَبِيْرُ في مُزَاحمَةِ الألْفَاظِ والمُسَمَّيَاتِ الشَّرعِيَّةِ، سَوَاءٌ كَانَتْ مُزَاحَمَتُهُم لأسْماءِ أهْلِ العِلْمِ، أو طُلَّابِ العِلْمِ، أو الحَلَقَاتِ العِلْمِيَّةِ، أو الكُتُبِ الإسْلامِيَّةِ.

أمَّا مُزَاحَمَتُهُم لأسْمَاءِ أهْلِ العِلْمِ، ففِي نَشْرِ: أسْمَاءِ التَّربَوِيِّيْنَ، ودُعَاةِ التَّربِيَةِ، ورُوَّادِ التَّربِيَةِ، ورُمُوْزِ التَّربِيَةِ، ومُنَظِّرِي التَّربِيَةِ، وهَكَذَا.

أمَّا مُزَاحَمَتُهُم لأسْماء طُلَّابِ العِلْمِ، ففِي بَعْثِ: أسْماءِ شَبَابِ التَّربِيَةِ، وأهْلِ التَّربِيَةِ، وشَبَابِ المَرَاكِزِ، وهَكَذَا.

أمَّا مُزَاحَمَتُهُم للحَلَقَاتِ العِلْمِيَّةِ، فَفِي تَسْوِيْقِ: أسْمَاءِ كُتُبِ ودَوْرَاتِ

البَرْمَجَةِ اللُّغَوِيَّةِ العَصَبِيَّةِ، وكَذَا دَوْرَاتِ الإلْقَاءِ والحِوَارِ، وفَنِّ التَّعَامُلِ، وكَسْبِ الآخَرِيْنَ، وهَكَذَا.

أمَّا مُزَاحَمَتُهُم للكُتُبِ الإسْلامِيَّةِ، فَفِي تَسْوِيْقِ: أسْمَاءِ كُتُبِ التَّرْبِيَةِ، وكُتُبِ الإدَارَةِ، والكُتُبِ المُتَرْجَمَةِ، وهَكَذَا.

فَعِنْدَئِذٍ كَانَ مِنْ أبْجَدِيَّاتِ الحِكْمَةِ، وضَرُوْرِيَّاتِ النَّصِيْحَةِ علىٰ أهْلِ العِلْمِ والدَّعْوَةِ: أنْ يَقْطَعُوا كُلَّ طَرِيْقٍ، وأنْ يَرْدِمُوا كُلَّ هُوَّةٍ، وأنْ يُصْلِحُوا كُلَّ فَسَادٍ؛ شَأنُهُ مُزُاحمَةُ ومَضَامَمَةُ جمَاعَةِ المُسْلِمِيْنَ سَوَاءٌ في عِلْمِهَا أو عَمَلِهَا، فَكَانَ والحَالَةُ هَذِهِ أن يَقِفُوا سَدًّا مَنِيْعًا في وَجْهِ: كُلِّ نَشْرٍ وبَعْثٍ وتَسْوِيْقٍ لكُلِّ شَائِبَةٍ تُرِيْدُ بجَمَاعَةِ المُسْلِمِيْنَ تَمْزِيْقًا أو تَفْرِيْقًا سَوَاءٌ في اسْمِهَا أو نِظَامِهَا، والله المُوَفِّقُ والهَادِي إلىٰ سَوَاءِ السَّبِيْلِ.

❑ ❑ ❑

الخَطَأُ الحَادِي والثَّلاثُوْنَ
تَأثُّرُ (التَّرْبِيَةِ) بأهْلِ الرَّأيِ والكَلامِ

لَقَدْ تَأثَّرَ بَعْضُ أنْصارُ ومُنَظِّرِي (الفِكْرِ التَّرْبَويِّ) بأهْلِ الكَلامِ مِنَ العِقْلانِيِّيْنَ والعَصْرَانِيِّيْنَ يَوْمَ تَركُوا السُّنَنَ والآثَارَ فِيما يَقُوْلُوْنَ ويَعْمَلُوْنَ؛ حَيْثُ تَركُوا الأمْرَ الأوَّلَ وَرَاءَ ظُهُوْرِهِم، واسْتَبْدَلُوا بِهِ الآرَاءَ والأفْكَارَ والتَّجَارُبَ!

فَأكْثَرُهُم تَجِدُهُ إذَا أخَذَ في الحَدِيْثِ والتَّنْظِيْرِ والكَلامِ لا يَذْكُرُ مِنَ الأدِلَّةِ الشَّرْعِيَّةِ إلَّا رَأيَهُ وفِكْرَهُ وتَجْرُبَتَهُ!

وإنَّكَ لتَجِدُ الوَاحِدَ مِنْهُم ليَتَكَلَّمُ في قَضَايَا الأمَّةِ المَصِيْرِيَّةِ الَّتِي لَوْ عُرِضَتْ علىٰ عُمَرَ بنِ الخَطَّابِ ﷺ لجَمَعَ لهَا أهْلَ بَدْرٍ، فَتَجِدُهُ يَتَكَلَّمُ (للأسَفِ!) بِلا دَلِيْلٍ شَرْعِيٍّ ولا تَأصِيْلٍ عِلْمِيٍّ، فَلا تَسْمَعُ مِنْهُ غَالبًا: إلَّا ذِكْرًا لآرَائِهِ وأفْكَارِهِ ونَظَرِيَّاتِهِ وتَجارُبِهِ!

* * *

وحَسْبُكَ مِثَالًا لِذِي عَيْنٍ: أنَّ أحَدَهُم إذَا قَدَّمُوْهُ أو اسْتَضَافُوْهُ للكَلامِ أو المُحَاضَرَةِ عَنْ مَوْضُوْعٍ شَرْعِيٍّ؛ تَجِدْهُ لا يُحْسِنُ مِنَ العِلْمِ الشَّرْعِيِّ إلَّا سَجْعَ

الحَمْدَلَةِ، ثُمَّ يَذْكُرُ آيَةً أو آيَتَيْنِ في حَدِيْثٍ أو حَدِيْثَيْنِ، ثُمَّ يَبْقَىٰ يَتَحدَّثُ ويَتَكَلَّمُ السَّاعَةَ والسَّاعَتَيْنِ: وهُوَ يُنَظِّرُ ويُفَكِّرُ ما بَيْنَ ذِكْرٍ لرَأْيِهِ، وتَذْكِيْرٍ لتَجَارُبِهِ، فَالله المُسْتَعَانُ!

* * *

قَالَ تَعَالىٰ: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُۖ وَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [الأنعام: ١٥٣].

وقَالَ تَعَالىٰ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ فَرَّقُواْ دِينَهُمْ وَكَانُواْ شِيَعًا لَّسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍۚ إِنَّمَآ أَمْرُهُمْ إِلَى ٱللَّهِ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُواْ يَفْعَلُونَ﴾ [الأنعام: ١٥٩].

وقَالَ تَعَالىٰ: ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُواْۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۖ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾ [الحشر: ٧].

* * *

وعَنْ عَبْدِ الله بنِ مَسْعُوْدٍ رضي الله عنه قَالَ: خَطَّ لَنَا رَسُوْلُ الله ﷺ لَنا خَطًّا، ثُمَّ قَالَ: «هَذَا سَبِيْلُ الله، ثُمَّ خَطَّ خُطُوْطًا عَنْ يَمِيْنِهِ وعَنْ شِمَالِهِ، وقَالَ هَذِهِ سُبُلٌ علىٰ كُلِّ سَبِيْلٍ مِنْهَا شَيْطَانٌ يَدْعُو إلَيْه، وقَرَأ: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُۖ﴾ الآيَةَ، أخْرَجهُ أحْمَدُ (١/ ٤٣٥-٤٦٥)، وهُوَ صَحِيْحٌ.

وعَنِ العِرْبَاضِ بنِ سَارِيَةَ رضي الله عنه قَالَ: صَلَّىٰ بِنَا رَسُوْلُ الله ﷺ ذَاتَ يَوْمٍ، ثُمَّ أقْبَلَ عَلَيْنا فَوَعَظَنَا مَوْعِظَةً بَلِيْغَةً ذَرَفَتْ مِنْهَا العُيُوْنُ، ووَجِلَتْ مِنْها القُلُوْبُ فَقَالَ قَائِلٌ: يَا رَسُوْلَ الله كَأنَّ هَذِهِ مَوْعِظَةُ مُوَدِّعٍ، فَمَاذَا تَعْهَدُ إلَيْنا؟ فَقَالَ:

«أُوْصِيْكُم بتَقْوَىٰ الله، والسَّمْعِ والطَّاعَةِ وإنْ عَبْدًا حَبَشِيًّا، فَإنَّهُ مَنْ يَعِشْ مِنْكُم بَعْدِي فَسَيَرَىٰ اخْتِلافًا كَثِيرًا، فَعَلَيْكُم بسُنَّتِي وسُنَّةِ الخُلَفَاءِ المَهْدِيِّيْنَ الرَّاشِدِيْنَ، تَمَسَّكُوا بِها، وعَضُّوْا عَلَيْهَا بالنَّوَاجِذِ، وإيَّاكُم ومُحْدَثَاتِ الأمُوْرِ، فَإنَّ كُلَّ مُحْدَثَةٍ بِدْعَةٌ، وكُلَّ بدْعَةٍ ضَلالَةٌ» أخْرَجهُ أحْمَدُ (٤/ ١٢٦)، وأبُو دَاوْدَ (٤٦٠٧) وهُوَ صَحِيْحٌ.

وعَنْ عَبْدِ الله بنِ عَمْرٍو رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رَسُوْلُ الله ﷺ: «ليَأتِيَنَّ علىٰ أُمَّتِي مَا أتَىٰ علىٰ بَنِي إسْرَائِيْلَ حَذْوَ النَّعْلِ بالنَّعْلِ؛ حَتَّىٰ إنْ كَانَ مِنْهُم مَنْ أتَىٰ أُمَّهُ عَلانِيَّةً لكَانَ في أمَّتِي مَنْ يَصْنَعُ ذَلِكَ، وإنَّ بَنِي إسْرَائِيْلَ تَفَرَّقَتْ علىٰ ثِنْتَيْنِ وسَبْعِيْنَ مِلَّةً، وتَفْتَرِقُ أمَّتِي علىٰ ثَلاثٍ وسَبْعِيْنَ مِلَّةً، كُلُّهُم في النَّارِ إلاَّ مِلَّةً وَاحِدَةً»، قَالُوا: ومَنْ هِيَ يَا رَسُوْلَ الله؟ قَالَ: «مَا أنَا عَلَيْهِ وأصْحَابِي» أخْرَجهُ التِّرْمِذِيُّ (٢٦٤١)، وهُوَ حَسَنٌ، انْظُرْ «صَحِيْحَ التِّرْمِذِيِّ» للألْبَانِيِّ (٢١٢٩).

وعَنْ أبي وَاقِدٍ اللَّيْثِيِّ رضي الله عنه أنَّ رَسُوْلَ الله ﷺ قَالَ ونَحْنُ جُلُوْسٌ علىٰ بِسَاطٍ: «إنَّها سَتَكُوْنُ فِتْنَةٌ»، قَالُوا: كَيْفَ نَفْعَلُ؟ قَالَ: فَرَدَّ يَدَهُ إلىٰ البِسَاطِ فَأمْسَكَ بِهِ فَقَالَ: «تَفْعَلُوْنَ هَكَذَا» قَالَ: وذَكَرَ لهُم رَسُوْلُ الله ﷺ: «أنَّها سَتَكُوْنُ فِتْنَةٌ» ولم يَسْمَعْهُ كَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ، فَقَالَ مُعَاذُ بنُ جَبَلٍ: ألَا تَسْمَعُوْنَ مَا يَقُوْلُ رَسُوْلُ الله ﷺ؟ قَالُوا: ومَا قَالَ؟ قَالَ: يَقُوْلُ: «إنَّها سَتَكُوْنُ فِتْنَةٌ»، قَالُوا: فَكَيْفَ بِنَا يَا رَسُوْلَ الله؟ وكَيْفَ نَصْنَعُ؟ قَالَ: «تَرْجِعُوْنَ إلىٰ أمْرِكُمْ الأوَّلِ» أخْرَجَهُ الطَّبَرانيُّ في «المُعْجَمِ الكَبِيرِ» (٣/ ١٨١)، و«الأوْسَطِ» (٢/

٢٤٩)، (٨٨٤٣)، والطَّحَاوِيُّ في «مُشْكِلِ الآثَارِ» (٢/ ٦٨) بإسْنَادٍ صَحِيْحٍ.

* * *

وقَالَ عَبْدُ الله بنُ مَسْعُوْدٍ ﷺ: «اقْتِصَادٌ في سُنَّةٍ خَيْرٌ مِن اجْتِهَادٍ في بِدْعَةٍ» أخْرَجَهُ اللَّالَكَائِيُّ في «شَرْحِ اعْتِقَادِ أصُوْلِ أهْلِ السُّنَّةِ والجماعَةِ» (١/ ٥٥)، وهُوَ أثرٌ صَحِيْحٌ.

وقَالَ أيْضًا ﷺ: «الاقْتِصَادُ في السُّنَّةِ خَيْرٌ مِنَ الاجْتِهَادِ في البِدْعَةِ». انْظُرْ: «شَرْحَ أصُولِ اعْتِقَادِ أهْلِ السُّنَّةِ» للَّالَكَائِيِّ (١/ ٥٥، ٨٨)، و«السُّنَّةَ» لمحَمَّدِ بنِ نَصْرٍ (٢٥) وغَيْرَهُمَا.

وقَالَ أبُو العَالِيَةِ ﷺ: «عَلَيْكُم بالأمْرِ الأوَّلِ، الَّذِي كَانُوا عَلَيْهِ، قَبْلَ أنْ يَفْتَرِقُوا». انْظُرْ: «شَرْحَ أصُولِ اعْتِقَادِ أهْلِ السُّنَّة والجَماعةِ» للَّالكَائيِّ (١/ ٥٦،١٢٧)، و«الشَّرِيعَةَ» للآجُرِّي (١٣)، و«البِدَعَ» لابنِ وَضَّاحٍ (٣٢)، و«السُّنَّةَ» لابنِ نَصْرٍ (٨).

وقَالَ الأوْزَاعِيُّ ﷺ: «اصْبِرْ نَفْسَكَ علىٰ السُّنَّةِ، وقِفْ حَيْثُ وَقَفَ القَوْمُ، وقُلْ بِما قَالُوا، وكُفَّ عَمَّا كَفُّوا عَنْهُ، واسْلُكْ سَبِيْلَ سَلَفِكَ الصَّالحِ، فإنَّهُ يَسَعُكَ مَا وَسِعَهُم». انْظُرْ: اللَّالَكَائِيَّ (١/ ١٥٤)، و«تَلْبِيسَ إبْلِيسَ» لابنِ الجَوْزِيِّ (٨).

وقَالَ سُفْيَانُ ﷺ: «لا يَسْتَقِيْمُ قَوْلٌ وعَمَلٌ إلَّا بمُوَافَقَتِهِ السُّنَّةَ». انْظُرْ: «الحِلْيَةَ» لأبي نُعَيمٍ (٧/ ٣٢)، و«تَلْبِيسَ إبْلِيسَ» لابنِ الجَوْزِيِّ (٩)،

و«مِيزَانَ الاعْتِدَالِ» للذَّهَبِيِّ (١/ ٩٠).

وقَالَ سُفْيَانُ الثَّوْرِيُّ ليُوْسُفَ بنِ أسْبَاطٍ: «يَا يُوْسُفُ: إذَا بَلَغَكَ عَنْ رَجُلٍ بالمَشْرِقِ صَاحِبِ سُنَّةٍ، وإذَا بَلَغَكَ عَنْ آخَرَ بالمَغْرِبِ صَاحِبِ سُنَّةٍ، فابْعَثْ إلَيْهِ بالسَّلامِ، فَقَدْ قَلَّ أهْلُ السُّنَّةِ». انْظُرْ: «شَرْحَ أصُولِ اعْتِقَادِ أهْلِ السُّنَّةِ والجَماعةِ» للَّالكَائيِّ (١/ ٦٤)، و«الحِلْيَةَ» لأبي نُعَيمٍ (٧/ ٣٤)، و«تَلْبِيس إبْلِيسَ» لابنِ الجَوْزِيِّ (٩).

وقَالَ أيُّوْبُ رَحِمَهُ اللهُ: «إنِّي لأُخْبَرُ بمَوْتِ الرَّجُلِ مِنْ أهْلِ السُّنَّةِ، فَكَأنِّي أفْقِدُ بَعْضَ أعْضَائي». انْظُرْ: «شَرْحَ الأصُولِ» للَّالكَائيِّ (١/ ٥٠)، و«الحِلْيَةَ» لأبي نُعَيمٍ (٣/ ٩)، و«تَلْبِيسَ إبْلِيسَ» لابنِ الجَوْزِيِّ (٩).

وقَالَ أيْضًا: «إنَّ مِنْ سَعادَةِ الحَدَثِ (صَغِيْرِ السِّنِّ) والأعْجَمِيِّ أنْ يُوَفِّقَهُما الله لعَالمٍ مِنْ أهْلِ السُّنَّةِ». انْظُرْ: «شَرْحَ الأصُولِ» للَّالكَائيِّ (١/ ٥٩)، و«تَلْبِيسَ إبْلِيسَ» لابنِ الجَوْزِيِّ (٩)، و«الحَلْيَةَ» لأبي نُعَيمٍ (٣/ ٩).

وقَالَ ابنُ شَوْذَبٍ رَحِمَهُ اللهُ: «إنَّ مِنْ نِعْمَةِ الله علىٰ الشَّابِ إذَا نَسَكَ أنْ يُؤاخِي صَاحِبَ سُنَّةٍ، يَحْمِلُهُ عَلَيْهَا» انْظُرْ: «شَرْحَ الأصُولِ» للَّالكَائيِّ (١/ ٦٠)، و«تَلْبِيسَ إبْلِيسَ» لابنِ الجَوْزِيِّ (٩/ ١٠) والله تَعالىٰ أعْلَمُ.

❑ ❑ ❑

الخَطَأُ الثَّاني والثَّلاثُوْنَ

الانْهِزَامُ الدَّعْوِيُّ عِنْدَ أنْصَارِ (التَّربِيَةِ)

مِنَ المُؤسِفِ أنَّ طَائِفَةً مِنْ دُعَاةِ (الفِكْرِ التَّرْبَوِيِّ) كَانَ لهُم دَوْرٌ كَبِيْرٌ في تَمْيِيْعِ قَضَايَا الأمَّةِ الإسْلامِيَّةِ: كَقَضَايَا المَرْأةِ سَوَاءٌ في حِجَابِها، أو مُشَارَكَتِهَا في العَمَلِ، أو قِيَادَتِها للسَّيَّارَةِ، أو المُطَالَبَةِ بحُرِّيَّتِهَا وحَقُوْقِهَا بغَيْرِ حَقٍّ ... إلَخْ.

وكَذَا قَضَايَا: الغِنَاءِ، والتَّصْوِيْرِ، والتَّأمِيْنِ، وحَلْقِ اللِّحْيَةِ، والفَوَائِدِ الرِّبَوِيَّةِ، وإسْبَالِ الثِّيَابِ للرِّجَالِ، التَّسَامُحِ المُطْلَقِ، وتَقْرِيْبِ الأدْيَانِ، ومَدِّ الجُسُوْرِ مَعَ أهْلِ الأهْوَاءِ والبِدَعِ لاسِيَّما الرَّافِضَةِ والصُّوفِيَّةِ والعَلْمانِيَّةِ، والحَدَاثَةِ وغَيْرِهِم مِنْ أصْحَابِ الدَّعْوَاتِ المُخَذِّلَةِ.

* * *

❑ ومِنْ آخِرِهَا وأضَرِّهَا: مَسْألَةُ الوَلاءِ والبَراءِ، والحُكْم بغَيْرِ مَا أنْزَلَ الله تَعَالىٰ، وكَذَا نَرَاهُم لا يَألُوْنَ جُهْدًا في التَّمْيِيْعِ والتَّشْكِيْكِ في بَعْضِ المَسَائِلِ الشَّرعِيَّةِ المَعْلُوْمَةِ مِنَ الدِّيْنِ بالضَّرُوْرَةِ:

مِثْلُ مَنَاهِجِ التَّعْلِيْمِ، وكُتُبِ السَّلَفِ لاسِيَّما كُتُبِ ابنِ تَيْمِيَّةَ، ومحَمَّدِ بنِ عَبْدِ الوَهَّابِ، والأئِمَّةِ النَّجْدِيَّةِ وغَيْرِهَا مِنَ الكُتُبِ الَّتِي تُنَادِي بتَحْقِيْقِ هَذِهِ

القَضَايَا وتَعْزِيْزِهَا بالدَّلِيْلِ الصَّحِيْحِ والتَّعْلِيْلِ الصَّرِيْحِ!

وإذَا أرَدْتَ مِصْدَاقَ ذَلِكَ، فَانْظُرْ مَا تَطْفَحُ بِهِ الصُّحُفُ والمَجَلَّاتُ والقَنَوَاتُ هَذِهِ الأيَّامَ، والله المُسْتَعَانُ علىٰ مَا يَصِفُوْنَ!

❑ ❑ ❑

الخَطَأ الثَّالِث والثَّلاثُوْنَ

الإغَارَةُ علىٰ تُرَاثِ الأمَّةِ

هُنَاكَ جَمْهَرَةٌ كَبِيْرَةٌ مِنْ أنْصَارِ (الفِكْرِ التَّرْبَويِّ) لم تَزَلْ في حِرْصٍ وفَحْصٍ عَنِ البَحْثِ والتَّنْقِيْبِ عَنْ كُلِّ مَا مِنْ شَأنِهِ يُقِيْمُ للتَّرْبِيَةِ عَثْرَتَها في سِجِلِّ التَّارِيْخِ الإسْلامِيِّ، ويُوْقِظُ غَفْلَتَهَا تَحْتَ جَنَاحِ كُتُبِ أهْلِ العِلْمِ الرَّبَّانِيِّيْنَ، ويُوْصِلُوْهَا بحَبْلٍ مِنَ النَّاسِ؛ كَمَا زَعَمُوا وفِيْما ظَنُّوا!

لِذَا نَجِدُهُم أحْرَصَ النَّاسِ علىٰ حَيَاةِ (التَّرْبِيَةِ) في تَقْلِيْبِ صَفَحَاتِ التَّارِيْخِ، وتَنْقِيْبِ رُفَاتِ الصَّالِحِيْنَ، لَعَلَّ وعَسَىٰ أنْ يَجِدُوا مَا يَظُنُّوْنَهُ دَلِيْلًا: لتَأصِيْلِ وتَقْرِيْرِ (الفِكْرِ التَّرْبَويِّ)، وهَكَذَا لم يَزَالُوا في حَفْرِيَّاتٍ حَجَرِيَّةٍ، ورَحلاتٍ (بَرْمَائِيَّةٍ)، لَعَلَ وعَسَىٰ!

وأشَدُّ مِنْ ذَلِكَ وفَوْقَهُ؛ أنَّ نَفَرًا مِنْ أنْصَارِ (الفِكْرِ التَّرْبَويِّ) مُنْذُ أمْسِهِم ويَوْمِهِم لا يَزَالُوْنَ يَسْتَبِيْحُوْن قُدَرَاتِ الأمَّةِ الإسْلامِيَّةِ، ويَنْهَبُوْنَ جُهُوْدَ عُلَمائِهَا، ويَغْتَالُوْنَ تُرَاثَ سَلَفِهَا الصَّالِح ... في تَسْوِيْقِ وتَعْزِيْزِ وتَقْرِيْرِ مَا هُم عَلَيْهِ مِنْ ضَرَاوَاتِ (الفِكْرِ التَّرْبَويِّ) عَلِمُوا أم لا!

ولتَعْرِفنَّهُم في صَرِيْفِ أقْلامِهِم، وعَنَاوِيْنِ كُتُبِهِم، هَكَذَا: «تَرْبِيَةُ النَّبِيِّ ﷺ لأصْحَابِهِ»، و«تَرْبِيَةُ النَّبِيِّ ﷺ للشَّبَابِ»، و«تَرْبِيَةُ النَّبِيِّ ﷺ للنِّسَاءِ»، وكَذَا

«مَنْهَجُ التَّربِيَةِ عِنْدَ ابنِ تيمية»، و«مَنْهَجُ التَّربِيَةِ عِنْدَ ابنِ القَيِّمِ»، و«مَنْهَجُ التَّربِيَةِ عِنْدَ ابنِ رَجَبٍ»، و«مَنْهَجُ التَّربِيَةِ عِنْدَ الذَّهَبِيِّ»، و«مَنْهَجُ التَّربِيَةِ عِنْدَ الحَارِثِ المُحَاسِبِيِّ»، و«مَنْهَجُ التَّربِيَةِ عِنْدَ ابنِ سُحْنُوْنٍ»، و«مَنْهَجُ التَّربِيَةِ عِنْدَ أبي حَامِدٍ الغَزَاليِّ»، و«مَنْهَجُ التَّربِيَةِ عِنْدَ ابنِ خُلْدُوْنٍ»، و«مَنْهَجُ التَّربِيَةِ عِنْدَ الشَّاطِبيِّ»، و«مَنْهَجُ التَّربِيَةِ عِنْدَ ابنِ سَعْدِيٍّ»، و«مَنْهَجُ التَّربِيَةِ عِنْدَ ابنِ بَازٍ»، وغَيْرُهَا الكَثِيْرُ والكَثِيْرُ ممَّا يُعَدُّ في حَقِيْقَتِهِ إغَارَةً جَامِحَةً علىٰ تُرَاثِ أمَّتِنَا الإسْلامِيِّ، والله المُسْتَعَانُ!

❑ ❑ ❑

الخَطَأ الرَّابِعُ والثَّلاثُوْنَ

التَّعَلُّقُ بالمُرْدَانِ، وأهْلِ الصُّوَرِ الحِسَانِ

إنَّ اجْتِماعًا كَبِيرًا مِنَ الشَّبَابِ؛ لاسِيَّما أحْدَاثِ الأسْنَانِ والمُرْدَانِ والصُّوَرِ الحِسَانِ، في مِثْلِ هَذِهِ المَحَاضِنِ والمَرَاكِزِ وغَيْرِها؛ لهُوَ أمْرٌ خَطِيْرٌ، يَحْتَاجُ مِنَّا إلىٰ وَقَفَاتٍ شَرْعِيَّةٍ، ونَظَرَاتٍ مَرْعِيَّةٍ.

فوُجُوْدُ مِثْلِ هَذِهِ الجُمُوْعِ مِنَ الشَّبَابِ مَعَ مَا فِيْهَا مِنْ صُوَرٍ فَاتِنَةٍ؛ لهُوَ سَبَبٌ كَبِيْرٌ في تَعَلُّقِ بَعْضِهِم ببَعْضِ المُرْدَانِ وأهْلِ الصُّوَرِ الحِسَانِ، وقَدْ كَانَ هَذَا، ومَا زَالَ!

* * *

❑ وهَذَا ممَّا يَزِيْدُنَا خَوْفًا علىٰ هَؤلاءِ الشَّبَابِ الَّذِيْنَ هُم أمَانَةٌ عِنْدَنَا، لِذَا كَانَ مِنَ الوَاجِبِ الشَّرْعِيِّ عَلَيْنَا أنْ نَأخُذَ بعَيْنِ الاعْتِبَارِ والنَّصِيْحَةِ بما هُنَا، وأنْ نَأخُذَ بحُجَزِ الشَّبَابِ إلىٰ التَّذْكِيْرِ والتَّحْذِيْرِ مِنْ خَطَرِ وشَنَاعَةِ هَذِهِ الخَطِيْئَةِ المَمْقُوْتَةِ، وإلَّا أوْقَعْنَاهُم في حَيْصَ بَيْصَ، فَمِنْ ذَلِكَ:

أوَّلًا: أنْ نَجْتَهِدَ في حَمْلِ المُرْدَانِ وأهْلِ الصُّوَرِ الحِسَانِ إلىٰ التَّحَلِّي بشِيَمِ وصِفَاتِ الرِّجَالِ: في المَلْبَسِ، والكَلامِ وغَيْرِ ذَلِكَ.

ثَانِيًا: أنْ نَحْمِلَهُم أيْضًا علىٰ كُلِّ مَا مِنْ شَأنِهِ يُبْعِدُهُم عَنِ الافْتِتَانِ والفِتْنَةِ، أو

يُغَيِّرُ أو يُقَلِّلُ مِنْ حُسْنِهِم: كحَلْقِ شُعُوْرِهِم، وسَتْرِ مَا يُحَسِّنُهُم.

ثَالِثًا: تَحْذِيْرُهُم مِنْ مَوَاطِنِ الفِتْنَةِ، والاخْتِلاطِ بغَيْرِهِم.

رَابِعًا: فَإِنْ كَانَ شَيءٌ مِنْ هَذَا، أو أمْكَنَ؛ وإلَّا كَانَ عَزْلُهُم عَنْ إخْوَانِهِم، أو إخْرَاجُهُم مِنْ تِلْكُمُ المَرَاكِزِ والنَّوادِي، خَوْفًا مِنْ فِتْنَةِ غَيْرِهِم، أو إفْسَادِ صَلاحِ غَيْرِهِم مَعَ اعْتِبَارِ مَا يَلي:

الأوَّلُ: أنْ يَسْعَىٰ القَائِمُوْنَ علىٰ هَذِهِ المَرَاكِزِ والنَّوادِي مِنْ أهْلِ التَّقْوَىٰ والوَرَعِ في الجُلُوْسِ مَعَ هَؤلاءِ المُرْدَانِ وأهْلِ الصُّوَرِ الحِسَانِ بقَدْرِ حَاجَتِهِم للدَّعْوَةِ بَعِيْدًا عَنْ إخْوَانِهِم، وخَارِجَ نَوَادِيْهِم، والضَّرُوْرَةُ تُقَدَّرُ بقَدرِهَا، والله أعْلَمُ.

الثَّاني: أن يَتَعَلَّمَ كُلُّ مَنْ نصَّبَ نَفْسَهُ لدَعْوَةِ هَؤلاءِ المَذْكُوْرِيْنَ: الأحْكَامَ الشَّرعِيَّةَ المُتَعَلِّقَةَ بالمُرْدَانِ وأهْلِ الصُّوَرِ الحِسَانِ؛ مِنْ حَيْثُ النَّظَرِ إلَيْهِم، والاخْتِلاطِ بِهِم، والجُلُوْسِ والحَدِيْثِ مَعَهُم، كُلُّ ذَلِكَ خَوْفًا علىٰ الدَّاعِي والمَدْعُوِّ، كَما حَذَّرَ مِنْهُ أئِمَّةُ المُسْلِمِيْنَ مِنَ السَّلَفِ والخَلَفِ.

ولَيْسَ هَذَا مَحلَّ بَسْطِ الحَدِيْثِ عَنْ أحْكَامِ المُرْدَانِ، والله المُوَفِّقُ والهَادِي إلىٰ سَوَاءِ السَّبِيْلِ.

* * *

❑ وأخِيْرًا؛ فإنَّ أخْطاءَ (الفِكْرِ التَّرْبَويِّ) لم تَزَلْ بَعْدُ هَذِهِ الأيَّامَ تُطِلُّ برَأسِهَا في مَضَامِيْنِ الكُتُبِ واللِّقَاءَاتِ والمُحَاضَرَاتِ والمَجَامِيْعِ؛ حَيْثُ أخَذَ بَعْضُهَا برِقَابِ بَعْضٍ في سِلْسِلَةٍ مِنَ النَّكَسَاتِ العِلْمِيَّةِ والعَمَلِيَّةِ التَّائِهَةِ

في بَيْدَاءَ سَحِيْقَةٍ، فأنَّىٰ لَهَا التَّنَاوُشُ مِنْ مَكانٍ بَعِيْدٍ؟ فَعَيْنُ الله تَنْظرُ، وأقْلامُ الغُيُرِ مِنْ أهْلِ العِلْمِ تَرْصُدُ، والتَّارِيْخُ شَاهِدٌ لا يَمَلُّ ولا يَفْتُرُ، لِذَا اكْتَفَيْتُ بِمَا أجْرَاهُ القَلَمُ هُنَا، وبِمَا جَادَتْ بِهَا الذَّاكِرَةُ مِنْ قَرِيْبٍ دُوْنَ تَرْتِيْبٍ، والله وَليُّ المُتَّقِيْنَ.

والحَمْدُ لله رَبِّ العَالمِيْنَ

❑ ❑ ❑

البَابُ السَّابِعُ

تَصْحِيحُ الدَّعْوَةِ عِنْدَ أنْصَارِ (الفِكْرِ التَّرْبَويِّ)

لَقَدْ بَاتَ مِنَ المُسَلَّمَاتِ عِنْدَ كُلِّ مُؤْمِنٍ ومُؤْمِنَةٍ: أنَّ الدَّعْوَةَ الإسْلامِيَّةَ دَعْوَةٌ شَامِلَةٌ كَامِلَةٌ لأمْرِ الدِّيْنِ والدُّنْيا، فَهِيَ كَافِلَةٌ لِكُلِّ زَمَانٍ ومَكَانٍ، ولِكُلِّ عَصْرٍ ومِصْرٍ، ولِكُلِّ إنْسَانٍ وجَانٍّ، قَالَ تَعَالىٰ: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [سبأ: ٢٨].

وقَالَ تَعَالىٰ: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦] . وقَالَ تَعَالىٰ: ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ [آل عمران: ٨٥]، وقَالَ تَعَالىٰ: ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ [المائدة: ٤٤].

وقَوْلُهُ ﷺ: «**والَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بيَدِه، لا يَسْمَعُ بِي أحَدٌ مِنْ هَذِه الأمَّةِ؛ يَهُوْدِيٌّ، ولا نَصْرَانِيٌّ، ثُمَّ يَمُوْتُ، ولَمْ يُؤْمِنْ بالَّذِي أُرْسِلْتُ بِه إلاَّ كَانَ مِنْ أصْحَابِ النَّارِ**» أخْرَجَهُ مُسْلِمٌ.

* * *

فَعِنْدَ ذَلِكَ نَقُوْلُ لِمَنْ يَرَىٰ أهَمِيَّةَ وُجُوْدِ مَرَاكِزِ ونَوادِي (التَّرْبِيَةِ) اليَوْمَ، (وهُوَ كَذَلِكَ)، فَلا بُدَّ حِيْنَئِذٍ مِنْ تَفْصِيْلاتٍ وضَوابِطَ شَرْعِيَّةٍ؛ كَيْ تَسْلَمَ لَنا

هَذِهِ (التَّرْبِيَةُ) مِنَ جُمْلَةِ المَحَاذِيْرِ الشَّرْعِيَّةِ الَّتِي ذُكِرَتْ هُنَا بِطَرِيْقٍ أو آخَرَ، ومَا هَذِهِ التَّصْحِيْحَاتِ والمَلْحُوْظَاتِ إلَّا تَصْحِيْحًا لظَاهِرَةِ (الفِكْرِ التَّرْبَوِيِّ) ممَّا لاثَ بِهَا مِنْ أخْطَاءٍ شَرْعِيَّةٍ، وآثَارٍ سَيِّئَةٍ.

* * *

❑ لِذَا كَانَ مِنْ حَقِّ النَّصِيْحَةِ عَلَيْنَا بَذْلُها، ومِنْ حَقِّ دُعَاة (التَّرْبِيَةِ) مُرَاعَاتُها وأخْذُهَا بعَيْنِ الاعْتِبَارِ؛ لأنَّها مِنْ حَقِّ أبْنَاءِ المُسْلِمِيْنَ عَلَيْهِم، ومِنْ حَقِّ (التَّرْبِيَةِ) فِيْما يَأتُوْنَ ويَذَرُوْنَ، فَمِنْ ذَلِكَ:

أوَّلًا: أنْ يَتْرُكَ أرْبَابُ المَرَاكِزِ والنَّوَادِي كَلِمَةَ ومُصْطَلَحَ (التَّرْبِيَةِ)، وأنْ يَسْتَعْمِلُوا الألْفَاظَ الشَّرعِيَّةَ بَيْنَ أبْنَاءِ المُسْلِمِيْنَ: مِثْلُ العِلْمِ والتَّعْلِيْمِ، والأدَبِ والتَّأدِيْبِ، والإرْشَادِ والتَّرشِيْدِ، والتَّوْجِيْهِ وغَيْرِها؛ إلَّا فِيْما كَانَتِ (التَّرْبِيَةُ) للصِّغَارِ والأطْفَالِ، كَما مَرَّ بَيَانُه في إهْلالِ الكِتَابِ.

ثَانِيًا: أنْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ الشَّابِ المُسْتَقِيْمِ، وبَيْنَ الشَّابِ الغَافِلِ في التَّعَامُلِ والتَّقْيِيْمِ، كَمَا مَرَّ آنِفًا.

ثَالِثًا: أنْ يَتَوَلَّىٰ قِيَادَةَ وتَوْجِيْهَ هَذِهِ المَحَاضِنِ أهْلُ العِلْمِ، سَوَاءٌ العُلَماءُ مِنْهُم، أو طُلَّابُ العِلْمِ النَّابِغِيْنَ.

رَابِعًا: أنْ تَكُوْنَ الدَّعْوَةُ بَيْنَ أبْنَاءِ المُسْلِمِيْنَ؛ دَعْوَةً شَرْعِيَّةً: كَنَشْرِ العِلْمِ الشَّرعِيِّ بَيْنَهُم، مِنْ خِلالِ كُتُبِ السَّلَفِ المُعْتَبرَةِ المُعْتَمَدَةِ، وحَمْلِهِم علىٰ الجِدِّيَّةِ في الاسْتِقَامَةِ وعُلُوِّ الهِمَّةِ، والتَّعَلُّقِ بالله تَعَالىٰ، وتَقْدِيْم النَّقْلِ علىٰ العَقْلِ، وأنَّ الرِّجَالَ يُعْرَفُوْنَ بالحَقِّ لا الحَقَّ بالرِّجَالِ، وأنَّ كُلَّ أحَدٍ يُؤخَذُ

مِنْ قَوْلِهِ ويُرَدُّ إلَّا النَّبيَّ ﷺ.

خَامِسًا: أنْ يَتْرُكُوا كُلَّ مَا مِنْ شَأنِهِ يُخَالِفُ المَنْهَجَ السَّلَفِيَّ، أو يُخَالِفُ جِدِّيَّةَ الاسْتِقَامَةِ: مِنْ كُتُبٍ فِكْرِيَّةٍ، ودَوْرَاتٍ إدَارِيَّةٍ، وتَلاعِيْبَ سَاذَجَةٍ، ودَخَلاتٍ وخَرَجَاتٍ فَاتِرَةٍ، إلَّا ما تُقَدِّرُهُ الضَّرُوْرَةُ أو الحَاجَةُ.

سَادِسًا: مُجَانَبَةُ وتَرْكُ كُلِّ مَا هُنَا مِنَ المَحْظُوْرَاتِ والأخْطَاءِ الشَّرْعِيَّةِ الَّتِي مَرَّتْ مَعَنا آنِفًا، ممَّا تَكَلَّمْنَا عَنْهَا: قَصْدًا، أو تِبَاعًا في مَثَانِي ومَطَاوِي أصْلِ الكِتَابِ؛ فَكُنْ علىٰ ذُكْرٍ مِنْ ذَلِكَ يَا رَعَاكَ الله!

❑ ❑ ❑

تَحذِيرٌ وتَنْبِيهٌ

فليعْلَمِ الجَمِيْعُ أنَّني مَا كَتَبْتُ سَوْدَاءَ في بَيْضَاءَ في هَذَا الكِتَابِ، ومَا أجْرَيْتُ قَلَمِي في مُتَابَعَةِ ومُبَاحَثَةِ هَذِه الظَّاهِرَةِ إلَّا بَذْلًا للنَّصِيْحَةِ لإخْواني أنْصَارِ (الفِكْرِ التَّرْبَوِيِّ)، وكَذَا دُعَاةِ (التَّرْبِيَةِ)، لأنَّ الدِّيْنَ النَّصِيْحَةُ.

فَعِنْدَئِذٍ؛ فإنَّني أُعِيْذُ نَفْسِي وكُلَّ مُسْلِمٍ أنْ تَأخُذَهُ العِزَّةُ بالإثْمِ في تَجْرِيْحِ إخْوَانِنا هَؤلاءِ الدُّعَاةِ، أو يَسْعَىٰ في النَّيْلِ مِنْهُم دُوْنَ عِلْمٍ وعَدْلٍ ورَحْمَةٍ!

كَما أنَّني لا أُبِيْحُ، بَلْ لا أُحِلُّ لأحَدٍ مِنْ أهْلِ الأهْوَاءِ والبِدَعِ، لاسِيَّما المُنَافِقِيْنَ والعِلْمانِيِّيْنَ، أو غَيْرِهُم ممَّن لَيْسَ لهُم نَاقَةٌ ولا جملٌ بَيْنَ دُعَاةِ المُسْلِمِيْنَ: بأنْ تَطُوْلَ أيْدِيْهِم أو أعْيُنُهُم إلىٰ شَيءٍ مِنْ كِتَابي هَذا لأجْلِ أنْ يَغْمِزُوا أو يَلْمِزُوا إخْوَانَنا الدُّعَاةَ الصَّالِحِيْنَ.

فَنَحْنُ وإخْوَانُنا الدُّعَاةُ في أمْرٍ لا يُحْسِنُه إلَّا مَنْ يُحْسِنُ حَقَّ الإسْلامِ، أمَّا هَؤلاءِ المُغْرِضِيْنَ فَهُمْ في أمْرٍ مَرِيْجٍ، لَيْسَ لهُم فِيْما نَحْنُ فِيْه شَيءٌ مِنْ قِطْمِيْرٍ!

* * *

كَما إنَّني أُبْدِي وأُعِيْدُ رَأي عَنْ فَضْلِ هَذِهِ النَّوادِي والمَرَاكِزِ، لاسِيَّما أنَّها لم تَزَلْ هَذِهِ الأيَّامَ حَاضِنَةً للشَّبابِ مِنَ الشُّبهَاتِ الخَطَّافَةِ، والشَّهَوَاتِ

الأخَّاذَةِ، مَعَ مَا فِيْهَا مِنْ جُهُودٍ مَشْكُوْرَةٍ في تَوْجِيْهِ وتَعْلِيْمِ وتَأدِيْبِ شَبَابِها علىٰ مَعَالي الأمُوْرِ، ومَكَارِمِ الأخْلاقِ.

وكَذا إذَا عَلِمْنا أنَّ كَثِيرًا مِنَ القَائِمِين علىٰ هَذِه النَّوادِي والمرَاكزِ: هُم مِنَ المُخْلِصِيْنَ النَّاصِحِيْنَ، مَعَ ما عِنْدَهُم مِنْ حُبٍّ للعِلْمِ، وقَبُولٍ للحَقِّ، فَكَانَ والحَالَةُ هَذِه أنْ نُحْسِنَ الظَّنَّ بِهِم، فَمَنْ هَذِه حَالهُم كَانَ عَلَيْهِم أيْضًا ألَّا يَسْتَأخِرُوا لحظَةً في قَبُوْلِ الحَقِّ والنَّصِيْحَةِ، ومُجانَبَةِ الأخْطَاءِ، كَما جَاءَ ذِكْرُها في هَذَا الكِتَابِ وغَيْرِه مِنْ كُتُبِ أهْلِ العِلْمِ، وإلَّا عَادَ حَامِدُنا ذَامًّا، أو كُنَّا كالَّتِي تَنْقِضُ غَزْلَها!

والحَمْدُ للهِ رَبِّ العَالَمِيْنَ

❑ ❑ ❑

الخَاتِمَةُ

وقَدْ كَانَ كَتَبَ الله عَليَّ أنْ أقِفَ مَعَ ظَاهِرَةِ (الفِكْرِ التَّرْبَويِّ) زَمَنًا طَوِيْلًا، حَائِرًا مُتَرَدِّدًا، وجَازِعًا مُتَحفِّظًا، وكَاتِمًا حَيْرَتِي عَنْ قَلَمِي ولِسَانِي حَتَّىٰ تَصَرَّمَتْ سَنَوَاتٌ وأنا علىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِنَ التَّرَدُّدِ فِيْما أكْتُبُ وفِيْما أقُوْلُ عَنْ مِثْلِ هَذِه الظَّاهِرَةِ الَّلائِكَةِ في صُفُوْفِ شَبَابِ المُسْلِمِيْنَ اليَوْمَ، فَأنْقَذَنِي الله برَحْمَةٍ مِنْهُ وفَضْلٍ، حَيْثُ أُرَانِي أتَقَدَّمُ في الكِتَابَةِ دُوْنَ جَمْجَمَةٍ أو هَمْهَمَةٍ رَافِعًا للنَّصِيْحَةِ عَلَمًا، وللحَقِّ صُوَىٰ ومَعْلَمًا، عَسَاني أجِدُ لمَا أكْتُبُ قَلْبًا وَاعِيًا، ولمَا أقُوْلُ أذُنًا صَاغِيَةً، وإلَّا عَسَاني انْتَظِرُ جِيْلًا لَيْسَ عنِّي ببَعِيْدٍ: يُسَلِّيْني أو يُعَزِّيْني!

فَفي التَّسْلِيَةِ شُكْرٌ، وفي التَّعْزِيَةِ صَبْرٌ، ومَا الدِّيْنُ إلَّا نِصْفَيْنِ: شُكْرٌ وصَبْرٌ!

* * *

وكَأنِّي أرَىٰ طَلائِعَ هَذا الجِيْلِ قَدْ أقْبَلَتْ في جُمُوْعٍ غَفِيْرَةٍ تُرَفْرِفُ أعْلامُهُ، مُقْبِلٌ مَا أقْبَلَ الفَجْرُ بنُوْرِهِ، ومَا أدْبَرَ اللَّيْلُ بظَلامِهِ، وكَأني أسْمَعُ لِقُدُومِهِ هَمْسًا، ولصَوْتِهِ دَنْدَنَةً طَارِحًا ورَاءهُ كُلَّ مَا هُنا مِنْ عَطَبٍ وانْهِزَامٍ، حَامِلًا

عَلىٰ رُؤوسِهِ الكِتَابَ والسُّنَّةَ، في خُطَىٰ ثَابِتَةٍ مُقْتَفِيْنَ آثَارَ السَّلَفِ عِلْمًا وعَمَلًا.

* * *

ثُمَّ أمَّا بَعْدُ؛ فَهَذِه خَاتِمَةٌ أقَدِّمُها عَلىٰ اسْتِحْياءٍ ووَجَلٍ إلىٰ إخْوَاني (التَّرْبَوِيِّيْنَ) يَوْمَ أطْلَقْتُ للقَلَمِ العَنَانَ، وللِّسَانِ البَيَانَ في خَدْشِ بَعْضِ جُهُوْدِ العَامِلِيْنَ مِنْهُم في لَممٍ مِنَ الخَطَايا التَّرْبَوِيَّةِ، وعَتَبٍ في تَصرُّفَاتٍ اجْتِهَادِيَّةٍ، وحَيْثُما أو مَهْما اعْتَذَرْتُ لإخْوَاني، فَإنَّها النَّصِيْحَةُ الصَّرِيحَةُ، ومَا عَسَاني أعْتَذِرُ إذْ اسْتَبَقَتْني النَّصِيْحَةُ في أمَانَتِها العِلْمِيَّةِ يَوْمَ أخَذَ الله العَهْدَ والمِيثَاقَ علىٰ أهْلِ العِلْمِ في بَذْلِها؟!

* * *

وآسَفي؛ إذا لم يَقْبَلُوا مِنِّي عُذْرِي؛ أو يَعْذُرُوني في نُصْحِي، فَلَهُم مِنِّي العُتْبَىٰ، حَتَّىٰ يَقْبَلُوا النَّصِيْحَةَ؛ يَوْمَ تُقْبَلُ النَّصِيْحَةُ، قَبْلَ أنْ تَقُوْلَ نَفْسٌ: يَا حَسْرَتَىٰ عَلىٰ مَا فَرَّطْتُ في جَنْبِ الدَّعْوَةِ، وَلاتَ حِيْنَ مَنَاص.

* * *

كَمَا أنَّنِي أُعِيْذُ كُلَّ قَارِئٍ لِهَذِهِ الرِّسَالَةِ: أنْ تَأخُذَهُ الحَمِيَّةُ بالإثْمِ، أو مَعَاقِدُ الهَوَىٰ بالرَّجْمِ، أو جَهَالَةُ العَمَايَةِ بالظُّلْمِ؛ فاليَوْمَ نَصِيْحَةٌ، وغَدًا

فَضِيحَةٌ: ﴿يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ۝٨٨ إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ [الشعراء: ٨٨-٨٩].

* * *

فاللهَ اللهَ؛ أنْ تَضِيقَ صُدُوْرٌ بهذِهِ النَّصِيْحَةِ، أو تَغْمُضَ أعْيُنٌ عَنِ الحقِّ الَّذِي فِيْها، فإنِّي لم أدَّخِرْ وُسْعًا مَا اسْتَطَعْتُ إلىٰ ذَلِكَ سَبِيْلًا في بَيَانِ ظَاهِرَةِ (الفِكْرِ التَّرْبَويِّ) الَّتِي لم تَزَلْ تَأْخُذْ بِرِقَابِ أبْناءِ المُسْلِمِينَ في سِلْسِلَةٍ مِنَ الخَطَايا التَّرْبَوِيَّةِ علىٰ أيْدِي دُعَاةِ (التَّرْبِيَةِ)، وفي التَّحْذِيْرِ مِنْ آثارِها السَّيِّئَةِ الشَّاقَّةِ في تُرَاثِ أمَّتِنا العِلْمِيِّ والعَمَليِّ، والله المُوَفِّقُ، والهَادِي إلىٰ سَوَاءِ السَّبِيْلِ.

والحَمْدُ للهِ رَبِّ العَالَمِيْنَ،

والصَّلاةُ والسَّلامُ علىٰ عَبْدِهِ ورَسُوْلِهِ الأمِيْنِ

وكَتَبهُ

ذياب بن سعد آل حمدان الغامدي

(١٤٣٠/٤/٤)

الفَهَارِسُ العَامَّةُ

- ثَبَتُ المَرَاجِعِ.
- فَهَارِسُ الآيَاتِ.
- فَهَارِسُ الأحَادِيْثِ.
- فَهَارِسُ الآثَارِ.
- الفَهَارِسُ المَوْضُوْعِيَّةُ.

ثَبتُ المَراجِعِ

١- «القُرْآنُ الكَرِيْمُ».

٢- «التَّربِيَةُ المقَارَنَةُ» لمَلِكَةَ أبْيَضَ.

٣- «التَّربِيَةُ بالحُوَارِ» لسَعِيْدِ المُغَامِسي.

٤- «التَّربِيَةُ عِنْدَ الإمَامِ الشَّاطِبي» للقَرَضَاوي.

٥- «إحْيَاءُ عُلُوْمِ الدِّيْنِ» للغَزَاليِّ.

٦- «أرُسْطُوطَالِيْس المُعَلِّمُ الأوَّلُ» لماجِدِ فَخْرِي.

٧- «أصُوْلُ التَّربِيَةِ الإسْلامِيَّةِ» لخَالِدِ الحَازِميِّ.

٨- «أصُوْلُ التَّربِيَةِ الإسْلامِيَّةِ» لفَوْقِيَّةَ ياقُوْت.

٩- «إعْلامُ المَوقِّعِينَ» لابنِ القَيِّمِ.

١٠- «إغَاثَةُ اللَّهفانِ» لابنِ القَيِّمِ.

١١- «أفْلاطُوْنَ» لعَبْدِ الرَّحمنِ بَدَوِيٍّ.

١٢- «الإبَانَةُ الكُبْرىٰ» لابنِ بَطَّةَ.

١٣- «الإبَانَةُ» للعُكْبريِّ.

١٤- «الاتِّجاهَاتُ الحَدِيْثَةُ في التَّربِيَةِ» لمُحمدٌ الأبْرَاشِي.

١٥- «الاعْتِصَامُ» للشَّاطِبيِّ.

١٦- «البِدَايَةُ والنِّهَايَةُ» لابنِ كَثِيرٍ.

١٧- «البِدَعُ والنَّهيُ عَنْهَا» لابنِ وَضَّاحٍ.
١٨- «التَّارِيْخُ الأوْرُوبيُّ الحَدِيْثُ» لعَبْدِ الحَمِيْدِ البَطْرِيْك وغَيْرِه.
١٩- «التَّربِيَةُ الإسْلامِيَّةُ عِنْدَ الإمَامِ الغَزاليِّ» لأيُّوب دَخِيْلٍ.
٢٠- «التَّربِيَةُ العَامَّةُ» لرُوْنِيْه.
٢١- «التَّربِيَةُ عَبْرَ التَّارِيْخِ» لعَبْدِ الله بنِ عَبْدِ الدَّائِمِ.
٢٢- «التَّربِيَةُ وبِنَاءُ الأجْيَالِ في ضَوْءِ الإسْلامِ» لأنْوَرِ الجُنْدِي.
٢٣- «التَّطوُّرُ التَّربويُّ» لسَعْدِ مِسْرِي.
٢٤- «التَّمْهِيْدُ» لابنِ عَبْدِ البَرِّ.
٢٥- «الجَوَابُ الصَّحِيْحَ» لابنِ تَيْمِيَّةَ.
٢٦- «الحِلْيَةُ» لأبي نُعَيْمٍ.
٢٧- «الدُّرَرُ السَّنِيَّةُ» جمْعُ ابنِ قَاسِمٍ.
٢٨- «الدَّعْوَةُ إلىٰ الله تَعَالىٰ في العَصْرِ العَبَّاسِي» لعَلي مِشَاعِلَ.
٢٩- «الرَّدُ علىٰ المُخَالِفِ» لبكْرٍ أبو زَيْدٍ.
٣٠- «الزُّهْدُ» لابنِ المُبَارَكِ.
٣١- «السِّلْسِلَةُ الصَّحِيْحَةُ» للألْبَانِيِّ.
٣٢- «السِّلْسِلَةُ الضَّعِيفَةُ» للألْبَانِيِّ.
٣٣- «السُّنَّةُ» لعَبْدِ الله بنِ أحمَدَ.
٣٤- «السُّنةُ» للبَرْبَهارِيِّ.
٣٥- «السُّنَّةُ» لمُحمَّدِ بنِ نَصْرٍ.
٣٦- «الشَّرِيْعَةُ» للآجُرِيِّ.

٣٧- «الطَّبقَاتُ الكُبْرىٰ» لابنِ سَعْدٍ.

٣٨- «الطَّبقَاتُ الكُبْرىٰ» للسُّبْكِيِّ.

٣٩- «الفُرُوْسِيَّةُ» لابنِ القَيِّمِ.

٤٠- «الفِكْرُ التَّربَوِيُّ عِنْدَ ابنِ القَيِّمِ» لحَسَنَ الحَجَّاجِي.

٤١- «القَامُوْسُ المُحِيْطُ» للفَيرُوْزآبَادِي.

٤٢- «المَدْخَلُ المُفَصَّلُ» لبكْرٍ أبو زَيْدٍ.

٤٣- «المِصْبَاحُ المُنيرُ» للفَيُّوميِّ.

٤٤- «المُعْجَمُ الفَلْسَفِيُّ» لجَمِيْلٍ صَلِيْبَا.

٤٥- «المُعْجَمُ الوَسِيْطُ».

٤٦- «المَوْسُوْعَةُ الإسْلامِيَّةُ العَرَبِيَّةُ» لأنْوَرِ الجُنْدِي.

٤٧- «أهْدَافُ التَّربِيَةِ الإسْلامِيَّةِ وغَايَتها» لمِقْدَاد يَاجِنْ.

٤٨- «إيْقَاظُ الهِمَمِ» لصَالِحِ الفُلَّاني.

٤٩- «بَيَانُ تَلْبِيْسِ الجَهْمِيَّةِ» لابنِ تَيْمِيَّةَ.

٥٠- «تَارِيْخُ بَغْدَادَ» للخَطِيْبِ البَغْدَادِيِّ.

٥١- «تَارِيْخُ تَطَوُّرِ اتِّجاهَاتِ الفِكْرِ التَّربوِيِّ» لسِهَامِ العِرَاقِيَّةِ.

٥٢- «تَارِيْخُ دِمِشْقَ» لابنِ عَسَاكِرَ.

٥٣- «تَحذْيْرُ الخَواصِ» للسِّيُوطِيِّ.

٥٤- «تُحفَةُ المَوْدُوْدِ» لابنِ القَيِّمِ.

٥٥- «تَرْبِيَةُ الشَّبَابِ» لمُحمَّدِ الدُّوَيْشِ.

٥٦- «تَطوُّرُ النَّظريَّةِ التَّربَوِيَّةِ» لصَالحِ بنِ عَبْدِ العَزِيْزِ.

٥٧- «تَعْظِيْمُ الفُتْيَا» لابنِ الجُوْزِيِّ.
٥٨- «تَغْرِيْبُ الألْقَابِ العِلْمِيَّةِ» لبَكْرِ أبو زَيْدٍ .
٥٩- «تَفْسِيْرُ القُرْآنِ العَظِيْمِ» لابنِ كَثِيْرٍ.
٦٠- «تَلْبِيْسُ إبْلِيْسَ: لابنِ الجَوْزِيِّ.
٦١- «تَهْذِيْبُ تَارِيْخِ دِمِشْقَ» لعَبْدِ القَادِرِ بدْرَانَ .
٦٢- «جَامِعُ البَيَانِ» لابنِ جَرِيْرٍ الطَّبرِيِّ.
٦٣- «جَامِعُ بَيَانِ فَضْلِ العِلْمِ» لابنِ عَبْدِ البَرِّ.
٦٤- «ذَمُّ الكَلامِ وأهْلِهِ» للهَرَوِيِّ.
٦٥- «رَبِيْعُ الأبْرَارِ ونُصُوْصُ الأخْيَارِ» للزَّمخْشَرِيِّ.
٦٦- «رِجَالُ الفِكْرِ والدَّعْوَةِ في الإسْلامِ» لأبي الحَسَنِ النَّدْوِيِّ.
٦٧- «رَسَائِلُ ابنِ حَزْمٍ».
٦٨- «زَادُ المَعَادِ» لابنِ القَيِّمِ.
٦٩- «زَغَلُ العِلْمِ» للذَّهبِيِّ.
٧٠- «سُنَنُ ابنِ ماجَه».
٧١- «سُنَنُ أبي دَاوُدَ».
٧٢- «سُنَنُ التِّرْمِذِيِّ».
٧٣- «سُنَنُ النَّسائِيِّ».
٧٤- «سِيَرُ أعْلامِ النُّبلاءِ» للذَّهَبِيِّ.
٧٥- «سِيرَةُ ابنِ هِشَامٍ».
٧٦- «شَرْحُ اعْتِقَادِ أصُوْلِ أهْلِ السُّنَّةِ والجَماعَةِ» للالكَائِيِّ.

٧٧- «شَرْحُ الطَّحاوِيَّةِ» لابنِ أبي العِزِّ.
٧٨- «شَرَفُ أصْحابِ الحَدِيْثِ» للخَطِيْبِ البَغْدَادِيِّ.
٧٩- «صَحِيْحُ البُخَارِيِّ».
٨٠- «صَحِيْحُ التَّرْغِيْبِ والتَّرْهِيْبِ» للألْبَانيِّ .
٨١- «صَحِيْحُ مُسْلِمٍ».
٨٢- «صِفَةُ الصَّفْوَةِ» لابنِ الجَوْزِيِّ.
٨٣- «ظَاهِرَةُ الإرْجَاءِ» لسَفَرِ الحَواليِّ.
٨٤- «فَتْحُ البَارِي» لابنِ حَجَرٍ.
٨٥- «فَتْحُ البَارِي» لابنِ حَجَرٍ.
٨٦- «فِقْهُ الوَاقِعِ» لنَاصِرِ العُمَرِ.
٨٧- «في أصُوْلِ التَّرِبيَةِ وتَاريخِها» لأحمَدَ عَيْسَىٰ.
٨٨- «قَاعِدَةٌ جَلِيْلَةٌ» لابنِ تَيْمِيَّةَ.
٨٩- «قِصَّةُ الفَلْسَفَةِ اليُونَانِيَّةِ» لأحمْدَ أمِيْنٍ وزَكِي نَجِيْبٍ.
٩٠- «لِسَانُ العَرَبِ» لابنِ مَنْظُورٍ.
٩١- «مَجْمُوْعُ الفَتَاوَىٰ» لابنِ تَيْمِيَّةَ.
٩٢- «مَدَارِجُ السَّالِكِيْنَ» لابنِ القَيِّمِ.
٩٣- «مَدْخَلٌ إلىٰ التَّربِيَةِ الإسْلامِيَّةِ» لعَبْدِ الرَّحمنِ بنِ صَالحٍ.
٩٤- «مُذَكِّراتُ الدَّعْوَةِ والدَّاعِيَةِ» لحَسَنَ البَنَّا.
٩٥- «مُسْتَدْرَكُ الحَاكِمِ».
٩٦- «مُسْنَدُ أحْمَدُ».

٩٧- «مَسِيْرَةُ الفِكْرِ التَّربَوِيِّ» لمَحْمُوْدِ سُلْطَانَ.
٩٨- «مِفْتَاحُ دَارِ السَّعَادَةِ» لابْنِ القَيِّمِ.
٩٩- «مَنْهَجُ ابنِ القَيِّمِ في الدَّعْوَةِ إلىٰ الله تَعَالىٰ» لأحمَدَ الخَلَفِ.
١٠٠- «مَنْهَجُ التَّربِيَةِ في التَّصَوُّرِ الإسْلامِي» لعَلي مَذْكُوْرٍ.
١٠١- «مَنْهَجُ القُرآنِ في التَّربِيَةِ» لمُحمَّدِ شَدِيْدٍ.
١٠٢- «وَاقِعُنَا المُعَاصِرُ» لمُحمَّدِ قُطْبٍ.
١٠٣- «وَسْمُ المُفْتي» لابنِ عَابِدِيْنِ.
١٠٤- «وَقَفَاتٌ إسْلامِيَّةٌ» لفُوقِيَّةَ شَهْبَةَ.

□ □ □

فهَارِسُ الأحَادِيْثِ

«دَعْ مَا يَرِيْبُكَ لما لا يَرِيْبُكَ» أحْمَدُ، والتِّرمِذِيُّ.
«مِنْ حُسْنِ إسْلامِ المَرْءِ تَرْكُهُ ما لا يَعْنِيْهِ» التِّرْمِذِيُّ.
«الدِّيْنُ النَّصِيْحَةُ (ثَلاثًا) قُلْنَا لِمَنْ؟ . .». مُسْلِمٌ.
«بَايَعْتُ رَسُوْلَ الله ﷺ عَلَىٰ إقَامِ الصَّلاةِ» مُتَّفَقٌ عَلَيْه.
«إنَّ اللهَ يَرْضَىٰ لَكُم ثَلاثًا . .». مُسْلِمٌ.
«حَسْبُ امْرِئٍ مِنَ الشَّرِّ؛ أنْ يُحَقِّرَ أخَاهُ المُسْلِمَ» ابْنُ مَاجَه.
«خَطَّ لَنَا رَسُوْلُ الله ﷺ، يَوْمًا خَطًّا . .». أحمَدُ.
«نَحْنُ مَعَاشِرُ الأنْبياءِ أوْلادُ عَلاّتٍ دِيْنُنا وَاحِدٌ» مُتَّفَقٌ عَلَيْه.
«مَنْ كَانَ عَلىٰ مَا أنا عَلَيْه اليَوْمَ وأصْحَابي» الحَاكِمُ.
«إنَّ فِيْها مَلِكًا لا يُظْلَمُ عِنْده أحَدٌ» ابنُ هِشَامٍ.
«إنَّكَ تَأتِي قَوْمًا أهْلَ كِتَابٍ» مُتَّفَقٌ عَلَيْه. «مَنْ يُبايع عَلىٰ المُوتِ». «لا نَبْرَحُ حَتَّىٰ نُناجِزَ القَوْمَ . .». مُتَّفَقٌ عَلَيْه. «لا يُصلِينَّ أحدٌ العصرَ إلَّا في بَنِي قُرَيْظَةَ» مُتَّفَقٌ عَلَيْه. «إنَّها سَتَكُوْنُ فِتْنَةٌ»، قَالُوا: كَيْفَ نَفْعَلْ . .». الطَّبَرانِيُّ. «أوْصِيْكُم بتَقْوَىٰ الله والسَّمْعِ والطَّاعَةِ . .». التِّرْمِذِيُّ. «مَنْ تَصَدَّقَ بِعِدْلِ تَمْرَةٍ مِنْ كَسْبٍ طَيِّبٍ . .». مُتَّفَقٌ عَلَيْه. «العُلَماءُ وَرَثَةُ الأنْبِيَاءِ» أحمَدُ. «تَرَكْتُ فِيْكُم أمْرَيْنِ لَنْ تَضِلُّوا مَا تَمسَّكْتُم بِهما . .». مَالِكٌ. «قَدْ تَرَكْتُكُم

عَلىٰ البَيْضَاءِ، لَيْلُها كنَهَارِها» أحمَدُ، وابنُ مَاجه. «إنَّه لم يَكُنْ نَبِيٌّ قَبْلي إلاَّ كَانَ حَقًّا عَلَيْه أنْ يَدُلَّ أمَّتَهُ» مُسْلِمٌ.

«أجَلْ أمَرَنا أنْ لا نَسْتَقْبِلَ القِبْلَةَ، ولا نَسْتَنْجِي بأيْمَانِنَا ..». مُسْلِمٌ.

«بَدَأ الإسْلامُ غَرِيْبًا، وسَيَعُوْدُ غَرِيبًا، فَطُوبَىٰ للغُرَبَاءِ» مُسْلِمٌ.

«لا تَزَالُ طَائِفَةٌ مِنْ أمَّتي ظَاهِرِيْنَ علىٰ الحَقِّ ..». مُتَّفَقٌ عَلَيْه.

«إنَّ الله زَوَىٰ لي الأَرْضَ فَرَأيْتُ مَشَارِقَهَا ومَغَارِبَها» مُسْلِمٌ.

«لَقَدْ كَانَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُم يُحْفَرُ لَهُ حُفْرَةٌ ويُجَاءُ بالمِنْشَارِ» البُخَارِيُّ.

«ليَبْلُغَنَّ هَذَا الأمْرُ مَا بَلَغَ اللَّيْلُ والنَّهَارُ» أحمَدُ.

«مَنْ لا يَرْحَمُ لا يُرْحَمُ» مُتَّفَقٌ عَلَيْه.

«مَنْ لا يَرْحَمُ مَنْ في الأَرْضِ» الطَّبرانيُّ.

«الرَّاحِمُونَ يَرْحَمُهُم الرَّحمَنُ» أبُو دَاوُدَ والتِّرمِذِيُّ.

«إنَّ الرِّفْقَ لا يَكُوْنُ» مُسْلِمٌ.

«الأنْبِيَاءُ ثُمَّ الأمْثَلُ فَالأمْثَلُ فيُبْتَلَىٰ الرَّجَلُ علىٰ حَسَبِ دِيْنِهِ» التِّرمِذِيُّ.

«إنَّ بَيْنَ يَدَي السَّاعَةِ فِتَنًا كأنَّها كقِطَعِ اللَّيْلِ المُظْلِمِ» أحمَدُ.

«إذَا أرَادَ الله بعَبْدِهِ الخيرَ عَجَّلَ لَهُ العُقُوْبَةَ في الدُّنْيا» التِّرمِذِيُّ.

«إنَّ عِظَمَ الجَزَاءِ مَعَ عِظَمِ البَلاءِ» التِّرمِذِيُّ.

«لم يَبْقَ مِنَ الدُّنْيا إلَّا بَلاءٌ وفِتْنَةٌ، فَأعِدُّوا للبَلاءِ صَبْرًا» أحمَدُ، وابنُ مَاجه.

«مَنْ كَثَّرَ سَوَادَ قَوْمٍ فهو منهم» أبُو يَعْلىٰ.

«يَتَقَارَبُ الزَّمَانُ، ويَنْقُصُ العِلْمُ، وتَظْهَرُ الفِتَنُ» البُخَارِيُّ.

«مَنْ يُرِدِ اللهُ بِهِ خَيْرًا يُفَقِّهْهُ فِي الدِّيْنِ» مُتَّفَقٌ عَلَيْه.
«إِنَّمَا الأَعْمَالُ بالنِّيَّاتِ، وإِنَّمَا لِكُلِّ امْرِئٍ مَا نَوَىٰ» مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ.
«مَا لِي أَرَاكُم أَكْثَرْتُم مِنَ التَّصْفِيْقِ؟!».
«التَّسْبِيْحُ لِلرِّجَالِ، والتَّصْفِيقُ للنِّسَاءِ».
«مَنْ تَشَبَّهَ بِقَوْمٍ فَهُوَ مِنْهُمْ» أَحْمَدُ، وأَبُو دَاوُدَ.
«أَمَا تَرْضَوْنَ أَنْ تَكُوْنُوا رُبْعَ أَهْلِ الجَنَّةِ؟» مُسْلِمٌ.
«لا يَزَالُ هَذَا الدِّيْنُ عَزِيْزًا إِلىٰ اثْنَيْ عَشَرَ خَلِيْفَةً»، وزَادَ أبو دَاوُدَ.
«لَا، قُلْتُ: الله أَكْبَرُ» البُخَارِيُّ.
«سُبْحَانَ الله، إِنَّ المُؤمِنَ لا يَنْجَسُ!».
«بَيْنَمَا رَاعٍ فِي غَنَمِهِ عدا الذِّئْبُ فَأَخَذَ مِنْهَا شَاةً» مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ.
«التَّصْفِيقُ لِلنِّسَاءِ والتَّسْبِيحُ لِلرِّجَالِ».
«وَلَعَنَ المُتَشَبِّهَاتِ مِنَ النِّسَاءِ بِالرِّجَالِ» البُخَارِيُّ.
«مَا لِي أَرَاكُم أَكْثَرْتُم مِنَ التَّصْفِيْقِ» مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ.
«التَّسْبِيْحُ لِلرِّجَالِ، والتَّصْفِيقُ للنِّسَاءِ» البُخَارِيُّ.
«أَمَا تَرْضَوْنَ أَنْ تَكُوْنُوا رُبْعَ أَهْلِ الجَنَّةِ؟» مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ.
«لا يَزَالُ هَذَا الدِّيْنُ عَزِيْزًا إِلىٰ اثْنَيْ عَشَرَ خَلِيْفَةً» مُسْلِمٌ.
«لَا، قُلْتُ: الله أَكْبَرُ» البُخَارِيُّ.
«أَيْنَ كُنْتَ يَا أَبَا هُرَيْرَةَ؟» مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ.
«بَيْنَمَا رَاعٍ فِي غَنَمِهِ عَدا الذِّئْبُ فَأَخَذَ مِنْهَا شَاةً» مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ.

«إنَّ الَّذِيْنَ يَصْنَعُوْنَ هَذِه الصُّوَرَ، يُعَذَّبُوْنَ يَوْمَ القِيَامَةِ» مُتَّفَقٌ عَلَيْه.

«أشَدُّ النَّاسِ عَذَابًا عِنْدَ الله تَعالَىٰ يَوْمَ القِيامَةِ» مُتَّفَقٌ عَلَيْه.

«إنَّ البَيْتَ الَّذِي فيه الصُّوَرُ لا تَدْخُلُه الملائِكَةُ» مُتَّفَقٌ عَلَيْه.

«كُلُّ مُصَوِّرٍ في النَّارِ يُجْعَلُ لَهُ بِكُلِّ صُوْرَةٍ صَوَّرَها» مُسْلِمٌ.

«لا تَدْخُلُ المَلائِكَةُ بَيْتًا فيه كَلْبٌ، ولا صُوْرَةٌ» مُتَّفَقٌ عَلَيْه.

«أمُتَهَوِّكُوْنَ فِيْهَا يا ابنَ الخَطَّابِ؟» أحمَدُ.

«ومَنْ سَنَّ في الإسْلامِ سُنَّةً سَيِّئَةً» مُسْلِمٌ.

«لا يَقُوْلَنَّ أحَدُكُم» مُتَّفَقٌ عَلَيْه.

«إنَّ مِنْ أشْرَاطِهَا أنْ يُلْتَمَسَ العِلْمُ عِنْدَ الأصَاغِرِ» الطَّبرانيُّ.

«كُلٌّ مُيَسَّرٌ لمَا خُلِقَ لَهُ» مُتَّفَقٌ عَلَيْه.

«ألَيْسَ يُحَرِّمُوْنَ مَا أحَلَّ الله فتُحَرِّمُوْنَه؟» أحمَدُ.

«وإيَّاكُم والغُلُوَّ في الدِّيْنِ» أحمَدُ.

«لا أُلْفِيَنَّ أحَدَكُم مُتَّكِأً عَلَىٰ أرِيْكَتِهِ» أحْمَدُ، والتِّرمِذِيُّ.

«مَنْ رَأىٰ مِنْكُم مُنْكَرًا فَلْيُغَيِّرْه بِيَدِه» مُسْلِمٌ.

«والَّذِي نَفْسِي بِيَدِه لَتَأمُرُنَّ بالمَعْرُوْفِ» أحْمَدُ، والتِّرمِذِيُّ.

«فَوَالله لأنْ يَهْدِيَ بِكَ رَجُلٌ وَاحِدٌ» مُتَّفَقٌ عَلَيْه.

«بَلِّغُوا عَنِّي ولَوْ آيَةً وحَدِّثُوا عَنْ بَنِي إسْرَائِيْلَ» البُخَارِيُّ.

«فادْعُوا بدَعْوَىٰ اللهِ الَّذِي سَمَّىٰ اللهُ بِهِ» أحمَدُ، والتِّرمِذِيُّ.

«مَا بَالُ دَعْوَىٰ الجَاهِلِيَّةِ» مُتَّفَقٌ عَلَيْه.

«هَذَا سَبِيْلُ اللهِ ثُمَّ خَطَّ خُطُوْطًا عَنْ يَمِيْنِهِ وعَنْ شِمالِهِ» أحمَدُ.

«أوْصِيْكُم بتَقْوَىٰ الله والسَّمْعِ والطَّاعَةِ» أحمَدُ، وأبو دَاوُدَ.

«لَيَأتِيَنَّ علىٰ أمَّتِي مَا أتَىٰ علىٰ بنِي إسْرَائِيْلَ حَذْوَ النَّعْلِ بالنَّعْلِ» التِّرمِذِيُّ.

«مَا أنَا عَلَيْهِ وأصْحَابي».

«تَرْجِعُوْنَ إلىٰ أمْرِكُمْ الأوَّلِ» الطَّبرانيُّ.

«والَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بيَدِه، لا يَسْمَعُ بِي أحَدٌ مِنْ هَذِه الأمَّةِ» مُسْلِمٌ.

❑ ❑ ❑

فَهَارِسُ الآثَارِ

«مَا آيةٌ في كِتَابِ الله أشَدُّ علىٰ أهْلِ الاخْتِلافِ . . .» مَالِكٌ.
«حدِّثوا النَّاسَ بما يَعرِفون» عليُّ بنُ أبي طَالِبٍ.
«لا يَصْلُحُ آخِرُ هَذِهِ الأمَّةِ إلَّا بما صَلُحَ به أوَّلها» مَالِكٌ.
«أصْبَحَ أهْلُ الرَّأيِّ أعْدَاءَ السُّنَنِ؛ أعْيَتْهُمُ الأحَادِيْثُ» عُمَرُ بنُ الخَطَّابِ.
«اتَّبِعْوا ولا تَبْتَدِعُوا فَقَدْ كُفِيتُم، عَلَيْكُم بالعَتِيْقِ» ابنُ مَسْعُوْدٍ.
«أيُّها النَّاسُ سَتُحْدِثُونَ، ويُحْدَثُ لَكُم، فَإذَا رَأيْتُم مُحدَثَةً» ابنُ مَسْعُوْدٍ.
«اقْتِصَادٌ في سُنَّةٍ خَيْرٌ مِنِ اجْتِهَادٍ في بِدْعَةٍ» ابنُ مَسْعُوْدٍ.
«لا يَزَالُ النَّاسُ صَالحِيْن مُتَماسِكِين؛ مَا أتَاهُمُ العِلْمُ» ابنُ مَسْعُوْدٍ.
«عَلَيْكَ بالاسْتِقَامَةِ، اتَّبعْ ولا تَبْتَدِعْ، اتَّبِعِ الأمْرَ الأوَّلَ» ابنُ عَبَّاسٍ.
«ما رَأيْتُ أحَدًا ألْزَمَ للأمْرِ الأوَّلِ مِنْ عَبْدِ الله بنِ عُمَرَ» عَائِشَةُ.
«عَلَيْكَ بآثَارِ مَنْ سَلَفَ، وإنْ رَفَضَكَ النَّاسُ» الأوْزَاعِيُّ.
«إذا اسْتَطَعْتَ ألَّا تَحُكَّ رَأسَكَ إلَّا بأثرٍ فافْعَلْ» الثَّوْرِيُّ.
«وجَدْتُ الأمْرَ بالإتِّبَاعِ» الثَّوْرِيُّ.
«مَنْ جَعَلَ دِيْنَهُ غَرَضًا للخُصُوْمَاتِ أكْثَرَ التَّنَقُّل» عُمَرُ بنُ عَبْدِ العَزِيْزِ.
«الحَدِيْثُ دَرَجٌ، فاتَّقِ أنْ تَنْزِلَ، والرَّأيُ مَرَجٌ» أبو سَعِيْدٍ الحَدَّادُ.
«عَلَيْكُم بالآثَارِ، وإيَّاكُم والرَّأي» عِصَامُ بنُ يُوْسُفَ.

«ما حَدَّثُوْكَ هَؤلاءِ عَنْ رَسُولِ الله ﷺ فَخُذْ بِه» الشَّعبيُّ.

«عَلَيْكَ بالآثَارِ وأهْلِ الآثَارِ، فمَعَهُم فاجْلِسْ، ومِنْهُم اقْتَبِسْ» البربَهارِيُّ.

«كَيْفَ أَنْتُم إِذَا لَبِسَتْكُم فِتْنَةٌ يَهْرَمُ فِيهَا الكَبِيرُ» ابنُ مَسْعُوْدٍ.

«يُفْتَحُ القُرْآنُ علىٰ النَّاسِ حَتَّىٰ يَقْرَأَهُ المَرْأَةُ والصَّبِيُّ» مُعَاذُ بنُ جَبَلٍ.

«لَئِنْ يُرَبِّنِي رَجَلٌ مِنْ قُرَيْشٍ، أَحَبُّ إِليَّ» أبو سُفْيَانَ.

«أيْ حُكَماءُ، عُلماءُ فُقَهَاءُ» ابنُ عَبَّاسٍ.

«اليَوْمَ مَاتَ رَبَّانيُّ هَذِهِ الأمَّةِ» ابنُ الحَنفِيَّةِ.

«كَانَ عَلْقَمَةُ مِنَ الرَّبَّانِيِّيْنَ» إبْرَاهِيْمُ النَّخعِيُّ.

«هُمُ الَّذِيْنَ يُرَبُّوْنَ النَّاسَ بصِغَارِ العِلْمِ قَبْلَ كِبَارِهِ» مُجَاهِدٌ.

«هُمُ الَّذِيْنَ يُغَذُّوْنَ النَّاسَ بالحِكْمَةِ» عليُّ بنُ أبي طَالِبٍ.

«هُمُ الفُقَهاءُ المُعَلِّمُوْنَ» ابنُ عَبَّاسٍ.

«هُمُ الفُقَهاءُ العُلَماءُ الحُكَماءُ» قَتَادَةُ وعَطَاءٌ.

«وَاحِدُهُم رَبَّانيٌّ، وهُمُ العُلَماءُ المُعَلِّمُوْنَ» ابنُ قُتَيْبَةَ.

«تركَنا رَسُوْلُ الله ﷺ ومَا طَائِرٌ يَطِيْرُ بجَناحَيْهِ» أبُو ذَرٍّ.

«لَفِتْنَتُهم عِنْدِي أخْوفُ علىٰ هَذِهِ الأمَّةِ» إبْرَاهِيْمُ النَّخعِيُّ.

«والله لَقَدْ رَأيْنَاهُم» الحَسَنُ البَصْرِيُّ.

«مَا ابْتَدَعَتْ بِدْعَةٌ أضَرُّ علىٰ أهْلِهِ مِنَ الأهْوَاءِ» الزُّهْرِيُّ.

«لَيْسَ مِنَ الأهْوَاءِ شَيءٌ أخْوَفَ علىٰ الأمَّةِ مِنَ الإرْجَاءِ» يَحيَىٰ وقَتَادَةُ.

«المُرْجِئَةُ يَهُوْدُ القِبْلَةِ» سَعِيْدُ بنُ جُبيرٍ.

«فَهُم أشَرُّ طَائِفَةٍ علىٰ الإسْلامِ» ابنُ عَقِيْلٍ.
«لم يُقَصَّ علىٰ عَهْدِ النَّبِيِّ ﷺ ولا أبي بَكْرٍ» عُبَيْدُ الله بنُ نَافِعٍ.
«تُعْرَضُ الفِتْنَةُ علىٰ القُلُوْبِ فأيُّ قَلْبٍ كَرِهَهَا نَكِتَتْ» حُذَيْفَةُ بنُ اليَمانِ.
«فَإنَّ الضَّلالَةَ حَقَّ الضَّلالَةَ أنْ تَعْرِفَ اليَوْمَ مَا كُنْتَ تُنْكِرُ» حُذَيْفَةُ بنُ اليَمانِ.
«أو لم يَأْتِكُم اليَقِيْنُ، كِتَابُ الله ﷻ؟» حُذَيْفَةُ بنُ اليَمانِ.
«إنَّ أخْوَفَ مَا أخَافُ علىٰ هَذِهِ الأمَّةِ» حُذَيْفَةُ بنُ اليَمانِ.
«اتَّقُوا اللهَ! أعُوْذُ مِنْ صَبَاحِ النَّارِ» أبو مَسْعُوْدٍ الأنْصَارِيُّ.
«كَانُوا يَرَوْنَ التَّلَوُّنَ في الدِّيْنِ مِنْ شَكِّ القُلُوْبِ في الله» إبْرَاهِيْمَ النَّخَعِيِّ.
«الدَّاءُ العُضَالُ التَّنَقُّلُ في الدِّيْنِ» مَالِكِ بنِ أنَسٍ.
«هُوَ أفْقَهُ مِنْ مَالِكٍ إلَّا أنَّ أصْحَابَهُ لم يَقُوْمُوا بِهِ» الشَّافِعِيُّ.
«أصْحَابُ عَبْدِ الله» عَلِيُّ بنُ أبي طَالِبٍ.
«كَانَ إبْرَاهِيْم بنُ أدْهَمَ» الثوري.
«مَا دَخَلَ الكُوْفَةَ أحَدٌ» الشَّعبِيُّ.
«ما رَأيْتُ أفْقَهَ مِنْ أشْهَبٍ» الشَّافِعِيُّ.
«يَنْبَغِي لَنَا أنْ نَحْفَظَ الحَدِيْثَ كَما نَحْفَظُ القُرْآنَ» ابنُ أبي المُهَاجِرِ.
«إذا صَحَّ الحَدِيْثُ فَهُوَ مَذْهَبِي» أبُو حَنِيْفَةَ.
«إنَّما أنَا بَشَرٌ أخْطِئ وأصِيْبُ» مَالِكُ بنُ أنَسٍ.
«لَيْسَ لأحَدٍ بَعْدَ النَّبِيِّ ﷺ إلَّا ويُؤخَذُ مِنْ قَوْلِهِ ويُتْرَكُ» مَالِكُ بنُ أنَسٍ.
«أجْمَعَ المُسْلِمُوْنَ علىٰ أنَّ مَنِ اسْتَبَانَتْ لَهُ سُنَّةٌ» الشَّافِعِيُّ.

«إذا صَحَّ الحَدِيْثُ فَهُوَ مَذْهَبِي» الشَّافِعِيُّ.

«لا تُقَلِّدْني ولا تُقَلِّدْ مَالِكًا ولا الشَّافِعِيَّ» أحمَدُ بنُ حَنْبَلٍ.

«مَنْ رَدَّ حَدِيْثَ رَسُوْلِ الله ﷺ فَهُوَ علىٰ شَفَا هَلَكَةٍ» أحمَدُ بنُ حَنْبَلٍ.

«يُوْشِكُ أنْ تُنَزَّلَ عَلَيْكُم حِجَارَةٌ مِنَ السَّماءِ» ابنُ عَبَّاسٍ.

«ومَا تَصْنَعُ برَأيي؟ بَلْ علىٰ رَأيي!» الشَّعبِيُّ.

«البَوْلُ في المَسْجِدِ؛ أحْسَنَ مِنَ بَعْضِ القِيَاسِ» أبُو حَنِيْفَةَ.

«عَجِبْتُ لقَوْمٍ عَرَفُوا الإسْنَادَ وصِحَّتَهُ» أحمَدُ بنُ حَنْبَلٍ.

«وإيَّاكَ ورَأيَ الرِّجَالِ وإنْ زَخْرَفُوْهُ بالقَوْلِ» الأوْزاعِيُّ.

«رَأيُ الأوْزَاعِيِّ، ورَأيُ مَالِكٍ» أحمَدُ بنُ حَنْبَلٍ.

«مَنْ نَظَرَ في سِيَرِ السَّلَفِ عَرَفَ تَقْصِيْرَهُ» حمَدُوْنَ القَصَّارُ.

«العِلْمُ مَا جَاءَ عَنْ أصْحَابِ مُحَمَّدٍ» الأوْزاعِيُّ.

«يَا أيُّها النَّاسُ مَنْ أرَادَ أنْ يَكُوْنَ مِنْ هَذِه الأمَّةِ» عُمَرُ بنُ الخَطَّابِ.

«الَّذِي لا يُنْكِرُ المُنْكَرَ بِيَدِهِ، ولا بِلِسَانِهِ، ولا بِقَلْبِه» حُذَيْفَةُ بنُ اليَمَانِ.

«الَّذِي إذَا ذُكِرَتِ الأهْوَاءُ، لم يَتَعَصَّبْ لشَيءٍ مِنْهَا» أبو بَكْرِ بنِ عَيَّاشٍ.

«مَا أبَالي أيُّ النِّعْمَتَيْنِ أعْظَمُ؟» بَعْضُ السَّلَفِ.

«ولا علىٰ مِلَّةِ عُثْمانَ، أنَا علىٰ مِلَّةِ مُحَمَّدٍ ﷺ» ابنُ عَبَّاسٍ.

«إيَّاكَ وكُلَّ شَيءٍ يُسَمَّىٰ بغَيْرِ الإسْلامِ» مَيْمُوْنَ بنُ مِهْرَانَ.

«الاقْتِصَادُ في السُّنَّةِ خَيرٌ مِنَ الاجْتِهَادِ في البِدْعَةِ» ابنُ مَسْعُوْدٍ.

«عَلَيْكُم بالأمْرِ الأوَّلِ، الَّذِي كَانُوا عَلَيْهِ، قَبْلَ أنْ يَفْتَرِقُوا» أبو العَالِيَةِ.

«اصبِرْ نَفْسَكَ علىٰ السُّنَّةِ، وقِفْ حَيْثُ وَقَفَ القَوْمَ» الأوْزَاعِيُّ.

«لا يَسْتَقِيْمُ قَوْلٌ وعَمَلُ إلَّا بمُوَافقَتِهِ السُّنَّةَ» سُفْيَانُ الثَّوْرِيّ.

«يَا يُوْسُفُ: إذَا بَلَغَكَ عَنْ رَجُلٍ بالمَشْرِقِ صَاحِبِ سُنَّةٍ» الثَّوْرِيُّ.

«إنِّي لأُخبَرُ بمَوْتِ الرَّجُلِ مِنْ أهْلِ السُّنَّةِ» أيُّوْبُ السِّخْتِيانيُّ.

«إنَّ مِنْ سَعَادَةِ الحَدَثِ، والأعْجَمِيِّ» أيُّوْبُ السِّخْتِيانيُّ.

«إنَّ مِنْ نِعْمَةِ الله علىٰ الشَّابِ إذَا نَسَكَ» ابنُ شَوْذَبَ.

❑ ❑ ❑

الفَهَارِسُ المَوْضُوعِيَّةُ(١)

المُقَدِّمَةُ: ٥

البَابُ الأَوَّلُ

وفِيهِ ثَمانِيَةُ مَدَاخِلَ

❑ المَدْخَلُ الأَوَّلُ: القِصَّةُ، والقَصَّةُ ١٥
القِصَّةُ: ١٥
القَصَّةُ: ١٦
الأَسْبَابُ الثَّلاثَةُ لِذِكْرِ القَصَّةِ ودَوَافِعِها: ١٩
❑ المَدْخَلُ الثَّاني: النَّصِيْحَةُ ٢٠
❑ المَدْخَلُ الثَّالِثُ: التَّعْيِيْرُ ٢٤
وَقْفَةٌ ورِثَاءٌ في الشَّيْخِ بَكْرِ أبي زَيْدٍ ﷺ /ح ٢٦
خَطَرُ أدْعِيَاءِ السَّلَفِيَّةِ في كَلِمَةِ حَقٍّ أُرِيْدَ بِهَا بَاطِلٌ ٢٧
رُكُوْبُ بَعْضِ الصَّالحِيْنَ من طُلاَّبِ العِلْمِ تَجِيْجَ ظَاهِرَةِ أدْعِيَاءِ السَّلَفِيَّةِ ٢٧
شُذُوْذَاتُ وأُغْلُوْطَاتُ أدْعِيَاءِ السَّلَفِيَّةِ العَشَرَةُ ٢٨
تَعْرِيْفُ المَسَائِلِ الاجْتِهادِيَّةِ /ح ٢٨
تَعْرِيْفُ المَسَائِلِ الخِلافِيَّةِ /ح ٢٨

---

(١) كُلُّ مَا كَانَ مِنِ اسْتِدْرَاكٍ أو فَائِدَةٍ أو غَيْرِهِما في الحاشِيةِ، فَقَدْ رَمَزْنا لَهُ بِحَرْفِ الحاءِ المُهْمَلَةِ (ح) تَمْيِيزًا لَها عَنْ أَصْلِ الكِتَابِ.

❑ **الصِفَاتُ العَشْرُ لأدْعِيَاءِ السَّلَفِيَّةِ في المَسَائِلِ الاجْتِهَادِيَّةِ:** ٢٨
أوَّلًا: أنَّهُمْ يُفَسِّقُوْنَ المُخَالِفِيْنَ ٢٨
ثَانِيًا: أنَّهم يَسْتَعْدُونَ فِيْهَا السُّلْطَانَ ٢٨
ثَالِثًا: أنَّهم يُوَالُوْنَ فِيْهَا ويُعَادُوْنَ، وكذا يُحِبُّوْنَ ويُبْغِضُوْنَ ٢٨
رَابِعًا: أنَّهم يَجْعَلُوْنَ مِنها نَفَقًا: لِلتَّشْهِيْرِ، والتَّنْفِيْرِ، والتَّحْذِيْرِ ٢٨
خَامِسًا: أنَّهم فِيْهَا حَرْبٌ علىٰ إخْوَانِهِمْ مِنْ أهْلِ العِلْمِ والدَّعْوَةِ ٢٨
سَادِسًا: أنَّ مَنْهَجَهُم فِيْهَا أشْبَهُ مَا يَكُوْنُ بالخَوَارِجِ ٢٩
سَابِعًا: أنَّ مَوْقِفَهُم مَعَ إخوانِهِم مِنْ طَلَّابِ العِلْمِ أشْبَهَ بالخَوَارِجِ ٢٩
ثَامِنًا: أنَّ مَنْهَجَهُم فِيْهِ شَبَهٌ بِمَنْهَجِ الرَّافِضَةِ مَعَ سَائِرِ المُسْلِمِيْنَ ٢٩
تَاسِعًا: أنَّهم أهْلُ ظِنَّةٍ، وسُوْءِ نِيَّةٍ بإخْوانِهِم مِنْ أهْلِ العِلْمِ والدَّعْوَةِ ٢٩
عَاشِرًا: أنَّهم عُشَّاقُ ثَلْبٍ، وهُوَاةُ نَقْبٍ، وأقْطَابُ رَدٍّ ٢٩
مَنْهَجُ أهْلِ السُّنَّةِ في جَرْحِهِم وتَحْذِيْرِهِم لأهْلِ البِدَعِ والأهْوَاءِ ٣٠
الحَادِي عَشَرَ: أنَّهُم يُدْخِلُوْنَ ويُخْرِجُوْنَ مَنْ يَشاؤُونَ في السَّلَفِيَّةِ ٣١
الثَّاني عَشَرَ: أنَّ أكثَرَهُمْ مُرْجِئَةٌ، أو ممَّنْ دَخَلَتْهُم شُبْهَةُ الإرْجَاءِ ٣١
الثَّالِثَ عَشَرَ: غُلُوُّهُم في كَلامِ الرِجَالِ مِنْ أهْلِ السُّنَّةِ ٣١
❑ **مَنْهَجُ أدْعِيَاءِ السَّلَفِيَّةِ في المَسَائِلُ الخِلافِيَّةُ** ٣٢
حَقِيْقَةُ أدْعِيَاءِ السَّلَفِيَّةِ ٣٣
مَوْقِفُ مَنِ ابْتَلاهُ الله بأدْعِيَاءِ السَّلَفِيَّةِ، إذَا كَانَ علىٰ مَنْهَجِ السَّلَفِ ٣٣
مَوْقِفُ مَنِ ابْتَلاهُ الله بأدْعِيَاءِ السَّلَفِيَّةِ إذَا كَانَ مِنْ أهْلِ الأهْوَاءِ ٣٤
أهْلَ العِلْمِ بِمَنْزِلَةِ حَلْقَةِ البَابِ، فَمَنْ حَرَّكَهُم اتَّهَمْنَاهُ علىٰ وُلاةِ الأمْرِ ٣٦
انْقِلابُ أدْعِيَاءِ السَّلَفِيَّةِ بَعْضُهُم علىٰ بَعْضٍ ٣٦
انْتِكَاسَةُ بَعْضِ أدْعِيَاءِ السَّلَفِيَّةِ ٣٧

أدْعِياءِ السَّلَفِيَّةِ لم يَتَّفِقُوا علىٰ رَجُلٍ مَرْضِيٍّ بَيْنَهُم ٣٧
أهمِيَّةُ قِراءةِ كِتَابِ «تَصْنِيْفِ النَّاسِ بَيْنَ الظَّنِّ واليَقِيْنِ» لبَكْرِ أبُو زَيْدٍ ٣٨
❑ المَدْخَلُ الرَّابِعُ: الاتِّفَاقُ والائْتِلاف ٤٠
❑ المَدْخَلُ الخَامِسُ: الافْتِرَاقُ والاخْتِلافُ ٤٢
التَّحْذِيْرُ مِنْ كُلِّ ما يَكُوْنُ سَبَبًا للتَّفْرُقَةِ بَيْنَ جماعَةِ المُسْلِمِيْنَ ٤٢
لَيسَ في الإسْلامِ: حِزْبِيَّاتٌ، ولا جَماعَاتٌ ٤٨
التَّحْذِيرُ: مِنَ الشِّيْعَةِ والصُّوْفِيَّةِ والإخْوَانِيَّةِ والتَّبْلِيْغِيَّةِ، والتَرْبَوِيَّةِ ٤٨
❑ المَدْخَلُ السَّادِسُ: فِقْهُ الوَاقِعِ ٤٩
تَرْسِيمُ فِقْهِ الوَاقِعِ للعُلَماءِ، كَما ذَكَرَهُ ابنُ القَيِّمِ، نَوْعَانُ: ٤٩
أحَدُهُما: فَهْمُ الوَاقِعِ والفِقْهُ فِيْه ٥٠
النَّوْعُ الثَّاني: فَهْمُ الوَاجِبِ فِي الوَاقِعِ ٥٠
❑ المَدْخَلُ السَّابِعُ: الفِقْهُ الوَاقِعُ ٥٤
مُعَارَضَةُ الأدِلَّةِ الشَّرْعِيَّةِ عِنْدَ بَعْضِ التَّرْبَوِيِّيْنَ مِنْ خِلالِ نَفَقَيْنِ ٥٥
الأوَّلُ: تَحْرِيْفُ وتَأوِيْلُ النُّصُوْصَ الشَّرْعِيَّةَ ٥٥
الثَّاني: تَعْطِيْلُ وإلْغاءُ دَلالَةِ الأحْكَامِ الشَّرْعِيَّةِ ٥٥
حَقِيْقَةُ أدْعِياءِ فِقْهِ الوَاقِعِ: هُوَ فِقْهُ وَاقِعِ الغَرْبِ الكَافِرِ ومُخَطَّطاتِهِ ٥٦
❑ انْقِسَامُ فُقَهَاءُ الوَاقِعِ اليَوْمَ في مَآسِي المُسْلِمِيْنَ إلىٰ فَرِيْقَيْنِ: ٦١
الفَرِيْقُ الأوَّلُ: أهْلُ الرِّوَايَةِ: ٦١
أخْطاءُ أهْلِ الرِّوَايَةِ ٦١
الأوَّلُ: الإغْرَاقُ في نَقْلِ الأخْبَارِ ٦١
الثَّاني: إظْهَارُ الإسْلامِ بِأنَّهُ ضَعِيْفٌ ٦١
الثَّالِثُ: تَثْقِيفِ المُسْلِمِ تَثْقِيفًا إخْبارِيًّا مُجَرَّدًا ٦٢

الرَّابعُ: تَنَازُلُ بَعْضِ الإخْبَارِيِّيْنَ عَنِ الشَّخْصِيَّةِ الإسْلامِيَّةِ ٦٢
الخَامِسُ: الوُقُوْعُ في مَحْذُوْرِ التَّصوِيْرِ الَّذِي هُوَ ذَرِيْعَةُ الشِّرْكِ ٦٢
الفَرِيْقُ الثَّاني: أَهْلُ الدِّرَايَةِ ٦٣
خَطَأ لَقَبِ «المُفكِّرُ الإسْلامِيُّ» ٦٤
المَخْرَجِ مِنَ هَذِهِ الأخْبَارِ والاسْتِخْبَارَاتِ ٦٧
أهمِيَّةُ رَبْطِ الأحْدَاثِ بالأسْبَابِ الشَّرْعِيَّةِ ٦٨
❑ **المَدْخَلُ الثَّامِنُ: دَعْوَةُ السَّلَفِ ودَعَاوِي الخَلَفِ** ٧٠
جُمَلُ بَصَائِرِ السَّلَفِ الصَّالِحِ في الدَّعْوَةِ إلىٰ الله تَعَالىٰ ٧٢
بَعْضُ أقْوَالِ السَّلَفِ في أهمِيَّةِ الأخْذِ بالدَّلِيْلِ الشَّرعِيِّ والأثَرِ ٧٣

البَابُ الثَّانِي

وفِيْهِ ثَلاثَةُ فُصُوْلٍ

❑ **الفَصْلُ الأوَّلُ: تَعْرِيْفُ التَّرْبِيَةِ لُغَةً، واصْطِلاحًا** ٨١
❑ **مَعْنَىٰ (التَّرْبِيَةِ) لُغَةً** ٨١
للتَّرْبِيَةِ في التَّعْرِيْفَاتِ اللُّغَوِيَّةِ: إطْلاقٌ وتَقْيِيْدٌ ٨٣
مَعْنَاهَا إذَا أُطْلِقَتْ: شَمِلَتْ تَرْبِيَةَ الطِّفْلِ الصَّغِيرِ حَتَّىٰ يَكْتَمِلَ ٨٣
مَعْنَاهَا إذَا قُيِّدَتْ، وذَلِكَ باعْتِبَارَيْنِ: قَيْدٌ بالإضَافَةِ، وقَيْدٌ بالنِّسْبَةِ ٨٣
المُقَيَّدُ بالإضَافَةِ: كَقَوْلهم: رَبَّىٰ القَوْمَ ٨٣
المُقَيَّدُ بالنِّسْبَةِ: كَقَولِهِم: رَبَّانِيٌّ ٨٣
تَعْرِيْفُ والرَّبَّانِيِّ: وهُوَ الرَّاسِخُ في العِلْمِ، أو الَّذِي يَطْلُبُ بعِلْمِهِ وَجْهَ الله ٨٣
المَعْنَىٰ الثَّاني للرَّبَّانِيِّ في اللُّغَةِ: الرَّفِيْعُ الدَّرَجَةِ في العِلْمِ ٨٤
الصَّحِيْحُ في نِسْبَةِ الرَّبَّاني: وهُوَ إلىٰ رُبَّانِ السَّفِيْنَةِ ٨٤

تَرْجيحُ وكَلامُ ابنِ تَيْمِيَّةَ رحمه الله في نِسْبَةِ (التَّرْبِيَةِ) والرَّبَّانِي ٨٦
❑ **الخُلاصَةُ في نِسْبَةِ (التَّرْبِيَةِ) والرَّبَّانِيِّ مِنْ خِلالِ كَلامِ السَّلَفِ** ٨٦
أوَّلًا: أنَّ كَلِمَةَ (التَّربِيَةِ) مُشْتَقَّةٌ مِنْ رُبَّانِ السَّفِينَةِ لا مِنَ الرَّبِّ ٨٦
ثانِيًا: أنَّ كَلِمَةَ (الرَّبَّاني) لا تُذَمُّ ولا تَمْدَحُ في ذَاتِها ٨٧
ثالِثًا: أنَّ كَلِمَةَ (الرَّبَّانيِّ) لها مَعْنَيانِ: عَامٌّ وخَاصٌّ ٨٧
رَابِعًا: أنَّ اللهَ تَعالىٰ لم يُسَمِّ أنْبِياءَهُ أو أوْلِيَاءَهُ المُتَّقِينَ ٨٧
خَامِسًا: أنَّ كَلِمَةَ (التَّربِيَةِ) أيْضًا لا تُذَمُّ ولا تَمْدَحُ في ذَاتِها ٨٧
سَادِسًا: أنَّ كَلِمَةَ (التَّربِيَةِ) لَيْسَتْ مِنْ شَأنِ أهْلِ التَّرْبِيَةِ ٨٨
سَابِعًا: لَيْسَ مِنَ الصَّوَابِ نِسْبَةُ التَّربِيَةِ أو الرَّبَّانيِّ: إلىٰ الرَّبِّ ٨٨
ثَامِنًا: أنَّ كَلِمَةَ «التَّربِيَةِ»، لَيْسَ لَهُ أصْلٌ في الوَحْيَيْنِ أو عِنْدَ السَّلَفِ ٨٩
❑ **مَعْنَىٰ (التَّرْبِيَةِ) اصْطِلاحًا**: ٩٠
اخْتِلافُ أهْلِ الاصْطِلاحِ في مَعْنَىٰ (التَّرْبِيَةِ) إلىٰ المُتَقَدِّمِينَ، والمُتَأخِّرِيْنَ .. ٩١
المُتَقَدِّمُوْنَ: ٩١
تَعْرِيْفُ (التَّرْبِيَةَ) عِنْدَ المُتَقَدِّمِينَ: تَدُوْرُ حَوْلَ تَعْلِيْمِ الطِّفْلِ ٩١
تَعْرِيْفِ (التَّرْبِيَةِ) عِنْدَ عُلَماءِ الإسْلامِ وأئِمَّةِ الدِّيْنِ ٩٣
حَقِيْقَةُ التَّربِيَةِ في جُلِّ حَدِيْثِ السَّلَفِ ٩٣
ذِكْرُ كَلِمَةِ (التَّرْبِيَةِ) عِنْدَ ابنِ القَيِّمِ ٩٤
ذِكْرُ أسْماءِ كُتُبِ «التَّربِيَةِ» عِنْدَ دُعَاةِ (التَّرْبِيَةِ) اليَوْمَ ٩٦
❑ **مَعْنَىٰ التَّرْبِيَةِ عِنْدَ أهْلِ العِلْمِ لها مَعْنَيَانِ** ٩٦
المَعْنَىٰ الأوَّلُ: تَرْبِيَةُ العِلْمِ، وذَلِكَ بتَنْمِيَتِهِ ٩٦
المَعْنَىٰ الثَّاني: تَرْبِيَةُ النَّاسِ، وهِيَ قِسْمَانِ: تَرْبِيَةُ الصِّغَارِ، وتَرْبِيَةُ الكِبَارِ .. ٩٧
القِسْمُ الأوَّلُ: تَرْبِيَةُ الصِّغَارِ ٩٧

القِسْمُ الثَّاني: تَعْلِيْمُ الكُبَارِ ٩٧
❑ **مَعْنَىٰ (التَّرْبِيَةِ) عِنْدَ المُتَأخِّرِيْنَ: مِنْ خِلالِ حَالَتَيْنِ:** ٩٨
الأوْلَىٰ: مَا ذَكَرَهُ المُتَقَدِّمُوْنَ مِنْ أهْلِ العِلْمِ في الجُمْلَةِ ٩٨
الثَّانِيَةُ: مَا ذَكَرَهُ أرْبَابُ (الفِكْرِ التَّرْبَويِّ) اليَوْمَ ٩٩
❑ **الفَصْلُ الثَّانِي: تَعْرِيْفُ التَّرْبِيَةِ عِنْدَ المُحْدَثِيْنَ مِنَ التَّرْبَوِيِّيْنَ** ١٠٠
تَعْرِيْفُ (التَّرْبِيَةِ) عِنْدَ المُحْدَثِيْنَ: ١٠٠
تَعْرِيْفُ (التَّرْبِيَةِ) عِنْدَ الشَّيْخِ مُحمَّدٍ الدُّوِيْشِ ١٠٢
خُلُوُّ كَثِيرٍ مِنْ تَعَارِيْفِ (التَّرْبِيَةِ) عَنِ العُبُوْدِيَّةِ لله تَعَالَىٰ ١٠٣
اسْتِبْدَالُ العِلْمِ والعَالِمِ بالتَّرْبِيَة والمُرَبِّي، عِنْدَ أنْصَارِ (الفِكْرِ التَّرْبَويِّ) ١٠٤
أخْطَاءُ بَعْضِ السَّلَفِيِّيْنَ في اجْتِرَارِ كَلِمَةِ (التَّرْبِيَةِ) ١٠٥
❑ **اسْتِدْرَاكٌ علىٰ العَلَّامَةِ الألْبَانيِّ ﷺ في كَلِمَةِ (التَّصْفِيَةِ والتَّرْبِيَةِ)** ١٠٨
المَلْحُوْظَاتُ العَشْرَةُ علىٰ كَلِمَةِ (التَّصْفِيَةِ والتَّرْبِيَةِ) ١٠٨
أوَّلًا: أنَّ الألْبَانيَّ قَدْ أوْجَبَ (التَّصْفِيَةَ والتَّرْبِيَةَ) علىٰ المُسْلِمِيْنَ ١٠٨
ثَانِيًا: أنَّ كَلِمَةَ (التَّصْفِيَةِ والتَّرْبِيَةِ) لَيْسَتْ مِنَ الألْفَاظِ الشَّرْعِيَّةِ ١٠٩
ثَالِثًا: أنَّ لَفْظَةَ (التَّرْبِيَةِ) حَادِثَةٌ ١٠٩
رَابِعًا: انْضِوَاءُ بَعْضِ الجَماعَاتِ الحَادِثَةِ تَحْتَ كَلِمَةَ (التَّرْبِيَةِ) ١١١
خَامِسًا: أنَّ دِلالَةَ (التَّصْفِيَةِ والتَّرْبِيَةِ) وَاحِدَةٌ ١١١
سَادِسًا: دِلالَةُ (التَّصْفِيَةِ والتَّرْبِيَةِ) عِنْدَ الألْبَانيِّ نَظَرِيَّةٌ مُجَرَّدَةٌ ١١١
سَابِعًا: كَانَ مِنَ الخَطأ اسْتِبْدَالُ الألْفَاظِ الشَّرْعِيَّةِ بألْفَاظٍ حَادِثَةٍ ١١٢
ثَامِنًا: أنَّها قَدْ فَتَحَتْ أبْوَابًا كَثِيْرَةً كَانَ مِنَ الصَّعْبِ إيْصَادُهَا ١١٣
❑ **أخْطَاءُ بَعْضِ طُلَّابِ الألْبَانِّي في كَلِمَةِ (التَّصْفِيَةِ والتَّرْبِيَةِ):** ١١٤
أوَّلًا: أنَّ بَعْضًا مِنْ أدْعِيَاءِ السَّلَفِيَّةِ اليَوْمَ قَدْ حَجَّرُوا بِهَا وَاسِعًا ١١٤

ثَانِيًا: أنَّ كَثيرًا مِنْهُم تبايَعُوا علىٰ كَلِمَةِ (التَّصفِيَةِ والتَّرْبِيَةِ) ١١٤
ثَالِثًا: أنَّ تَسْوِيْقَ كَلِمَةِ (التَّصفِيَةِ والتَّرْبِيَةِ) بيْنَ النَّاشِئَةِ لَهُ أثَرُهُ السَّيِّئُ ١١٤
رَابِعًا: أنَّ كَثيرًا مِنْ أدْعِياءِ (الفِكْرِ التَّرْبَوِيِّ) قَدْ فَهِمُوهَا خَطأً ١١٤
خَامِسًا: أنَّ (التَّصفِيَةَ والتَّرْبِيَةَ) قَدْ فَتَحتْ للمُتَعالِمِيْنَ أبْوَابًا ١١٥
❑ **الفَصْلُ الثَّالِثُ: إغارَةُ (التَّرْبِيَةِ) عَلىٰ تُراثِ الأمَّةِ** ١١٦
عَدَدُ أسْماءِ الكُتُبِ الَّتِي كَتَبَها رُوَّادُ وصُنَّاعُ (الفِكْرِ التَّرْبَوِيِّ) ١١٨
❑ **اسْتِدْرَاكٌ علىٰ الأخِ لمُرَبِّي: عَبْدِ الكَرِيمِ بَكَّار حَفِظَهُ اللهُ** ١٢٢
ذِكْرُ أخْطاءِ كِتَابِ «بِنَاءِ الأجْيالِ» ١٢٢
أنْوَاعُ مَنَاهِجِ وأفْكَارِ أنْصارَ (الفِكْرِ التَّرْبَوِيِّ) ١٢٧
الأوَّلُ مِنْهُما: الَّذِيْنَ تَوَلَّوْا كِبْرَ (الفِكْرِ التَّرْبَوِيِّ) ١٢٧
الثَّاني مِنْهُما: هُم الَّذِيْنَ أخَذُوا نَصِيبًا مِنَ العِلْمِ الشَّرْعِيِّ ١٢٨
❑ **بَعْضُ جِنَايَاتِ (الفِكْرِ التَّرْبَوِيِّ):** ١٣٠
قَوْلُهُم عَنِ التَّرْبِيَةِ: ١٣٠
قَوْلُهُم عَنِ القُرْآنِ الكَرِيْمِ: ١٣١
قَوْلُهُم عَنِ النَّبِيِّ ﷺ: ١٣١
قَوْلُهُم عَنْ عُلَماءِ السَّلَفِ: ١٣٢
أسْماءُ جُمْلَةٍ مِنَ الكُتُبِ عِنْدَ أنْصارِ (الفِكْرِ التَّرْبَوِيِّ): ١٣٢
❑ **الشُّرُوْطُ الأرْبَعَةُ في تَصْحِيْحِ مَقُوْلَةِ: لا مُشَاحَّةَ في الاصْطِلاحِ** ١٣٤
أوَّلًا: ألَّا يَحْمِلَ هَذَا المُصْطَلَحُ مَعْنىٰ بَاطِلًا ١٣٤
ثَانِيًا: ألَّا يُوْجَدَ في الكِتَابِ والسُّنَّةِ مَا يَدُلُّ علىٰ المَعْنَىٰ المَرَادِ ١٣٤
ثَالِثًا: إلَّا يَكُوْنَ فِيْهِ اسْتِبْدَالٌ للألْفَاظِ الشَّرْعِيَّةِ ١٣٤

رَابِعًا: أَلَّا يُحْمَلَ كَلامُ الله والرَّسُوْلِ والسَّلَفِ علىٰ المُصْطَلَحَاتِ ١٣٥
❑ وَقْفَةٌ مَعَ كِتَابَيْنِ مُهِمَّيْنِ: ١٣٥
الكِتَابُ الأَوَّلُ: «الفِكْرُ التَّربَوِيُّ عِنْدَ ابنِ القَيِّمِ» لِحَسَنَ الحَجَّاجِيِّ ١٣٦
الكِتَابُ الثَّاني: «التَّرْبِيَةُ الإسْلامِيَّةِ عِنْدَ الغَزَالِيِّ» لأيُّوْبَ بنِ دَخِيْلٍ ١٣٦
وقْفَةٌ مَعَ أسْماءِ الكُتُبِ الَّتي تَكَلَّمَتْ عَنِ «التَّرْبِيَةِ» عِنْدَ الغَزَالي /ح ١٣٦
❑ ذِكْرُ أخْطَاءِ البَاحِثَيْنِ في كِتَابَيْهِما: ١٣٧
أوَّلًا: أنَّ الغَزَاليَّ وابنَ القَيِّمَ لم يَذْكُرَا (التَّربِيَةَ) ١٣٧
ثَانِيًا: أنَّ كَلِمَةَ (التَّرْبِيَةِ) لم تُذْكَرْ عِنْدَهُما بالمَعْنَىٰ العَام ١٣٧
ثَالِثًا: أنَّهما لم يَذْكُرَا في كُتُبِهِم بعَامَّةٍ إلَّا مَا كَانَ مِنْ شَأْنِ: العِلْمِ ١٣٨
رَابِعًا: لم تكُنِ الكِتَابَةُ عِنْدَ البَاحِثَيْنِ بدَافِعِ مُتَابَعَةِ السَّلَفِ ١٣٨
خَامِسًا: أنَّ كُلًّا مِنَ البَاحِثَيْنِ اسْتَطَاعَا أنْ يَسْلُبَا مِنَ حَقِّهُما العِلْمِيَّ ١٣٨
سَادِسًا: أنَّ البَاحِثَيْنِ قَدْ تكَلَّفَا في إيْجَادِ رَوَابِطَ وَهْمِيَّةٍ ١٣٩
نَصِيْحَةٌ للبَاحِثَيْنِ في تَسْمِيَةِ عَناوِيْنِ كِتَابَيْهِما ١٣٩
❑ وَقْفَةٌ مَعَ كِتَابِ «تَرْبِيَةِ الشَّبَابِ» للشَّيْخِ محَمَّدِ الدُّوَيْشِ ١٤٠
بَيَانُ جُهُوْدِ الشَّيْخِ الدُّوَيْشِ في الدَّعْوَة /ح ١٤٠
أوَّلًا: أنَّه قَدْ أقرَّ بَأنَّ الخَلَلَ التَّربَوِيَّ بسَبَبِ ضَعْفِ التَّعْلِيْمِ عِنْدَ المُرَبِّيْنَ .. ١٤٠
ثَانِيًا: أنَّه قَدْ أقرَّ بِأنَّ المُرَبِّيْنَ قَدْ وَرِثُوا أمْرَاضَ مُجْتَمَعَاتِهِم ١٤١
ثَالِثًا: أنَّه قَدْ أقرَّ بِأنَّ مَضمُوْنَ كِتَابه في غَيْرِهِ كَانَتْ أسِيرَةَ التَّجَارُبِ ١٤١
رَابِعًا: أنَّه أرَادَ مِنْ كِتَابِهِ هَذَا: رَسْمَ أهْدَافِ التَّرْبِيَةِ للشَّبَابِ ١٤٢
خَامِسًا: أنَّه في كِتَابِهِ قَدْ تَأثَّر في أبْوَابِهِ وفُصُوْلِهِ بمَبَاحِث مَنْطقِيَّةٍ ١٤٣
خَطَرُ إطْلاقِ قَوْلِ: لا مُشَاحَّةَ في الاصْطِلاحِ ١٤٣

البَابُ الثَّالِثُ
بِدَايَاتُ (الفِكْرِ التَّرْبَويِّ)
وفِيْهِ فَصْلانِ

❑ **الفَصْلُ الأَوَّلُ: بِدَايَاتُ (الفِكْرِ التَّرْبَويِّ) عِنْدَ الأُمَمِ المَاضِيَةِ** ١٤٧
قِيْقَةُ تَارِيْخِ تَطَوُّرِ (الفِكْرِ التَّرْبَويِّ) عِنْدَ الأمَمِ المَاضِيَّةِ ١٤٨
❑ **الفِكْرُ التَّرْبَويُّ في اليُونَانِ (الإغْرِيْقِ)** ١٥٠
التَّعْرِيْفُ باليُوْنَانِ: ١٥٠
قِصَّةُ الفَلْسَفَةِ اليُونَانِيَّةِ: ١٥١
التَّعْرِيْفُ بسُقْرَاط: ١٥٤
طَرِيْقَةُ سُقْرَاطَ في التَّرْبِيَةِ: ١٥٥
وَفَاةُ سُقْرَاطَ: ١٥٦
التَّعْرِيْفُ بأفْلاطُوْنَ: ١٥٦
وَظَائِفُ التَّربِيَةِ عِنْدَ أفْلاطُوْنَ: ١٥٧
التَّعْرِيْفُ بأُرُسْطُو: ١٥٩
آرَاءُ أرُسْطُو التَّربَوِيَّةُ: ١٦١
اتِّفَاق أرُسْطُو مَعَ أفْلاطُوْنَ في تَرْبِيَةَ الرَّجُلِ في عَامِلَيْنِ بَدَنِيِّيْنِ ١٦١
أثَرُ آرَاءِ أرُسْطُو التَّربَوِيَّةِ: ١٦٢
❑ **الفِكْرُ التَّرْبَويُّ عِنْدَ الرُّومَانِ والشَّرْقِ الأوْسَطِ** ١٦٤
انْقِسَامُ الإمْبِرَاطُوْرِيَّةِ الرُّومَانِيَّةِ إلىٰ قِسْمَيْنِ: ١٦٥
الأوَّلُ: القِسْمُ الغَرْبي، وعَاصِمَتُهُ رُوْمَا ١٦٥
الثَّاني: القِسْمُ الشَّرقِي، وعَاصِمَتُهُ القُسْطُنْطِيْنِيَّةُ ١٦٥
❑ **مَرَاحِلُ الرُّوْمَانِ الأرْبَعَةِ في التَّربِيَةِ:** ١٦٥

الأُوْلىٰ: مَرْحَلَةُ الوَطَنِيِّيْنَ ١٦٥
الثَّانِيَّةُ: مَرْحَلَةُ الانْتِقَالِ ١٦٦
الثَّالِثَةُ: مَرْحَلَةُ المَعَاهِدِ ١٦٦
الرَّابِعَةُ: فَتْرَةُ الانْحِلالِ والسُّقُوْطِ ١٦٦
❑ تَقْسِيْمُ التَّرْبِيَةِ الرُّومَانِيَّةِ إلىٰ مَرَاحِلَ أَرْبَعَةٍ: ١٦٦
المَرْحَلَةُ الأُوْلىٰ: ويُطْلَقُ عَلَيْهَا مَرْحَلَةُ الوَطَنِيِّيْنَ ١٦٦
المَرْحَلَةُ الثَّانِيَةُ: وهِيَ مَرْحَلَةُ الانْتِقَالِ ١٦٦
المَرْحَلَةُ الثَّالِثَةُ: مَرْحَلَةُ المَعَاهِدِ الرُّومَانِيَّةِ ١٦٦
المَرْحَلَةُ الرَّابِعَةُ: فَتْرَةُ الانْحِلالِ والسُّقُوْطِ ١٦٦
❑ الفِكْرُ التَّرْبَوِيُّ عِنْدَ أَوْرُوْبَا ١٦٨
مَرْحَلَتَا العُصُوْرِ الوُسْطىٰ خِلالَ القُرُوْنِ الثَّمانِيَةِ: ١٦٨
أَحَدُهُما: تُمَثِّلُ العُصُوْرَ القَدِيْمَةَ ١٦٨
والأُخْرىٰ: تُمَثِّلُ العُصُوْرَ الحَدِيْثَةَ ١٦٨
أَقْسَامُ المُجْتَمَعِ الأَوْرُوبِّي في العُصُوْرِ الوُسْطىٰ إلىٰ ثَلاثِ طَبَقَاتٍ: ١٦٨
طَبقَةُ الأَحْرَارِ ١٦٩
طَبقَةُ رَقِيْقِ الأَرْضِ ١٦٩
طَبقَةُ العَبِيْدِ ١٦٩
مِحْوَرَا الحَيَاةِ الدِّيْنِيَّةِ في العُصُوْرِ الوُسْطىٰ: ١٦٩
الأَوَّلُ: البَابَوِيْه ١٦٩
والثَّاني: التَّنْظِيمَاتُ الكَهْنُوتِيَّةُ ١٦٩
❑ الفِكْرُ التَّرْبَوِيُّ في العَصْرِ الحَدِيْثِ ١٧١
ظُهُوْرُ مَدْرَسَتَيْنِ في فَلْسَفَةِ (التَّرْبِيَةِ): ١٧١

الأُولىٰ: المَدْرَسَةُ المِثَالِيَّةُ ١٧١
والثَّانِيَةُ: المَدْرَسَةُ الوَاقِعِيَّةُ ١٧١
تَشَعُّبُ الفَلْسَفَةِ المِثَالِيَّةِ إلىٰ فَرْعَيْنِ: ١٧٢
الفَرْعُ الأَوَّلُ: الَّذِيْنَ يُؤمِنُوْنَ بَأنَّ الإنْسَانَ جِسْمٌ وعَقْلٌ ١٧٢
والفَرْعُ الثَّاني: الَّذِيْنَ يُؤمِنُوْنَ بأنَّ الإنْسَانَ هُوَ جِسْمٌ وعَقْلٌ ورُوْحٌ ١٧٢
❑ المَدْرَسَةُ الوَاقِعِيَّةُ: ١٧٢
انْقِسَامُ الوَاقِعِيَّةِ إلىٰ ثَلاثَةِ اتِّجاهَاتٍ: ١٧٣
الاتِّجَاهُ الأَوَّلُ: الوَاقِعِيَّةُ المُتَدَيِّنَةُ ١٧٣
الاتِّجَاهُ الثَّاني: لا يَرَىٰ ضَرُوْرَةً للتَّدخُّلِ الإلهِي في تَفْسِيْرِ أصْلِ الكَوْنِ ... ١٧٣
الاتِّجَاهُ الثَّالِثُ: فَهُوَ يَرَكِّزُ علىٰ الوُجُوْدِ المَادِي ١٧٣
❑ الفَلْسَفَةُ البَرْجَمَاتِيَّةُ: ١٧٤
تَارِيْخُ الصِّرَاعِ بَيْنَ الفَلْسَفَاتِ الثَّلاثِ (المِثَالِيَّةِ، الوَاقِعِيَّةِ، البَرْجماتِيَّةِ) ١٧٥
تَعَدُّدُ الفَلْسَفَاتِ التَّربَوِيَّةِ، وتَنَاقُضُهَا: ١٧٧
❑ أقْسَامُ الفَلْسَفَةِ البَرْجَمَاتِيَّةِ: ١٧٧
الأُولىٰ: الفَلْسَفَةُ التَّقَدُّمِيَّةُ ١٧٧
الثَّانِيَةُ: الفَلْسَفَةُ التَّجْدِيْدِيَّةُ ١٧٧
❑ فَلْسَفَةُ الدَّيْمُوْمَةِ: ١٧٨
❑ أقْسَامُ البَرْجَماتِيِّيْنَ: ١٨٠
القِسْمُ الأَوَّلِ: الرُّوْمَانسيُّ ١٨٠
القِسْمُ الثَّاني: الَّذِي يَصِفُهُ (بُرُوبَاخِرْ) بالهُدُوءِ والاعْتِدَالِ ١٨٠
❑ الفَصْلُ الثَّانِي: بِدَايَاتُ (الفِكْرِ التَّرْبَوِيِّ) عِنْدَ المُسْلِمِيْنَ ١٨١
تَارِيْخُ ابْتِدَاءِ فَجْرِ الإسْلامِ: ١٨٢

تَارِيْخُ الخُلَفَاءِ الرَّاشِدِينَ: ١٨٣
تَارِيْخُ الدَّوْلَةِ الأموِيَّةِ: ١٨٣
تَارِيْخُ الدَّوْلَةِ العَبَّاسِيَّةِ: ١٨٤
تَارِيْخُ دُوَلِ المَمالِيْكِ والإمَارَاتِ: ١٨٤
تَارِيْخُ الدَّوْلَةِ العُثْمانِيَّةِ: ١٨٥
تَارِيْخُ انْفِصَالِ بَعْضِ الدُّوَلِ العَرَبِيَّةِ عَنِ الحُكْمِ العُثْماني: ١٨٧
تَارِيْخُ نِظَامِ الانْتِدَابِ: ١٨٧
الانْتِدَابُ الفِرنْسِي: في سُوْرِيا ولِبْنَانَ ١٨٧
الانْتِدَابُ الإنْجلِيْزِيُّ: في العِرَاقِ والأرْدُنِ وفِلِسْطِيْنَ، ومِصْرَ ١٨٧
انْقِسَامُ البُلْدَانِ العَرَبِيَّةِ إلىٰ ثَلاثِ مَنَاطِقَ ثَقَافِيَّةٍ: ١٨٧
الأوْلىٰ: فَرَنْسِيَّةٌ ١٨٧
الثَّانِيَةُ: إنْجلِيْزِيَّةٌ ١٨٧
الثَّالِثَةُ: إيْطَالِيَّةٌ ١٨٧
أثَارُ الاحْتِلالِ الأوْرُوبِّي في مَنَاهِجِ التَّعْلِيْمِ عِنْدَ المُسْلِمِيْنَ: ١٨٧

البَابُ الرَّابِعُ

وفِيْهِ أرْبَعَةُ فُصُوْلٍ

❑ **الفَصْلُ الأوَّلُ: بِدَايَاتُ الانْهِزَامِ النَّفْسِيِّ عِنْدَ المُسْلِمِيْنَ** ١٩٣
صُوَرُ انْهِزَامِ أنْصَارِ ودُعَاةِ (الفِكْرِ التَّرْبَوِيِّ) أمَامَ أعْدَاءِ الإسْلامِ ١٩٨
❑ **الفَصْلُ الثَّاني: تَارِيْخُ بِدَايَاتِ الفِرَقِ** ٢٠١
❑ **وَمَضَاتٌ مُخْتَصَرَةٌ في بَيَانِ نَشْأةِ الفِرَقِ مِنْ خِلالِ ثَمانِ مَرَاحِلَ:** ... ٢٠١
المَرْحَلَةُ الأوْلىٰ: الرَّعِيْلُ الأوَّلُ مِنَ الصَّحَابَةِ ٢٠١

المَرْحَلَةُ الثَّانِيَةُ: ثُمَّ جاءَتِ الجَهْمِيَّةُ في أَوَاخِرِ عَصْرِ التَّابِعِيْنَ ٢٠٢
المَرْحَلَةُ الثَّالِثَةُ: عَهْدُ عَبْدِ الله المأمُوْنُ ٢٠٣
المَرْحَلَةُ الرَّابِعَةُ: عَهْدُ القَرَامِطَةِ والبَاطِنِيَّةِ والعُبَيْدِيَّةِ والفَاطِمِيَّةِ والمَلاحِدَةِ ٢٠٤
المَرْحَلَةُ الخَامِسَةُ: عَهْدُ الاجْتِيَاحِ المَغُولِيِّ التَّتَرِيِّ الغَاشِمِ لأُمَّةِ الإسْلامِ ٢٠٦
المَرْحَلَةُ السَّادِسَةُ: عَهْدُ الإغَارَةِ الأُوْرُبِّيَّةِ الصَّلِيْبِيَّةِ علىٰ الأُمَّةِ الإسْلامِيَّةِ .. ٢٠٩
المَرْحَلَةُ السَّابِعَةُ: عَهْدُ سُقُوْطِ الخِلافَةِ الإسْلامِيَّةِ ٢١٣
المَرْحَلَةُ الثَّامِنَةُ: وهِيَ مَا نَحْنُ فِيْهِ اليَوْمَ ٢١٤
❑ **الصُّوْفِيَّةُ، و(الإخْوَانَ المُسْلِمُوْنَ) أوَّلُ مَنْ تَأثَّرَ بـ(التَّرْبِيَةِ) الغَرْبِيَّةِ** ... ٢١٥
أوَّلُ مَنْ تكَلَّمَ وأشَادَ بـ (التَّرْبِيَةِ) الصُّوفِيَّةِ، الأسْتَاذُ حَسَنُ البَنَّا ٢١٥
❑ **الفَصْلُ الثَّالِثُ: العِلاقَةُ بينَ جَمَاعَةِ (الإخْوَانَ المُسْلِمُونَ)** ٢١٨
وبَينَ أنْصارِ (التَّربِيَةِ)، وأدْعِيَاءِ السَّلَفِيَّةِ ....
سَبَبُ ظُهُوْرِ هَذِهِ الجَماعَاتِ الثَّلاثَةِ ٢١٨
وَقْفَةٌ مَعَ جمَاعَةِ (الإخْوَانَ المُسْلِمُونَ) ٢١٩
وَقْفَةٌ مَعَ أنْصارِ (التَّرْبِيَةِ) ٢٢١
وَجْهُ الشَّبَهِ بَيْنَ أهْلِ (التَّرْبِيَةِ)، وجَمَاعَةِ (الإخْوَانَ المُسْلِمُونَ) ٢٢٣
وَقْفَةٌ مَعَ أدْعِيَاءِ السَّلَفِيَّةِ ٢٢٤
❑ **صُوَرُ الصِّرَاعَاتِ الفِكْرِيَّةِ بَيْنَ الجَمَاعَاتِ الثَّلاثَةِ** ٢٢٧
مَنَاهِجُ أهْلِ (التَّرْبِيَةِ) في عَنَاوِيْنِ كُتُبِهِم ومَحَاضَرَاتِهِم: ٢٢٨
مَنَاهِجُ أدْعِيَاءِ السَّلَفِيَّةِ في عَنَاوِيْنِ كُتُبِهِم ومَحَاضَرَاتِهِم: ٢٣٠
أهْلُ السُّنَّةِ أعْلَمُ الخَلْقِ بالحَقِّ، وأرْحَمُ الخَلْقِ بالخَلْقِ ٢٣١
أسْماءُ أهْلِ العِلْمِ الَّذِيْنَ سَلِمُوا مِنْ إفْرَازَاتِ الجماعَاتِ الثَّلاثَةِ ٢٣٣
❑ **الفَصْلُ الرَّابِعُ: الانْهِزَامُ الدَّعْوِيُّ** ٢٣٤

الخُطُوْطُ العَرِيْضَةُ في مَنْهَجِ الدَّعْوَةِ إلىٰ الله ٢٣٦
أوَّلًا: أنَّ المُنْكَرَاتِ لا تَخْرُجُ: عَنْ نَفَقِ الشُّبُهَاتِ، ونَفَقِ الشَّهَوَاتِ ٢٣٦
ثَانِيًا: أنْ تَكُوْنَ الحِكْمَةُ هِيَ مَنَاطَ الدَّعْوَةِ إلىٰ الله تَعَالىٰ ٢٣٦
ثَالِثًا: أنَّ قَبُوْلَ العُلَماءِ والدُّعَاةِ مُنَاطَةٌ بالحِكْمَةِ الشَّرْعِيَّةِ ٢٣٨
مَنْهَجُ دَعْوَةِ النَّبيِّ ﷺ في مَكَّةَ ٢٣٩
❑ تَحْقِيْقُ الخِلافِ في الحِكْمَةِ الدَّعْوِيَّةِ في قَوْمٍ كَانَتِ المُنْكَرَاتُ بَيْنَهُم ظَاهِرَةً: ٢٤٠
فَالأوَّلُ مِنْهُم: مَنْ غَلَّبَ جَانِبَ التَّحْذِيْرِ مِنَ المُنْكَرَاتِ ٢٤١
الثَّاني مِنْهُم: مَنْ غَلَّبَ جَانِبَ التَّوْحِيْدِ مَعَ إغْفَالِ التَّحْذِيْرِ مِنَ المُنْكَرَاتِ ٢٤١
الثَّالِثُ مِنْهُم: مَنْ غَلَّبَ التَّحْذِيْرَ مِنَ المُنْكَرَاتِ، مَعَ تَقْرِيْرِ التَّوْحِيْدِ ٢٤١
❑ أسْبَابُ الخَلَلِ في الدَّعْوَةِ إلىٰ الله لَهُ أمْرَانِ: ٢٤٢
الأوَّلُ: ظُهُوْرُ الغُلُوِّ: ٢٤٢
الثَّاني: ظُهُوْرُ التَّفْرِيْطِ: ٢٤٢
خَطَرُ المُرْجِئَةِ علىٰ الإسْلامِ والمُسْلِمِيْنَ ٢٤٢
خَطَأُ الجَامِعَاتِ في التَّوَسُّعِ والإغْرَاقِ في مُحَارَبَةِ الشُّبُهَاتِ ٢٤٤
ابْتِلاءُ بَعْضِ أهْلِ العِلْمِ والدَّعْوَةِ ٢٤٦
بِدَايَاتُ خُرُوْجِ الوُعَّاظِ مِنْ أهْلِ الغَيْرَةِ والحَمِيَّةِ علىٰ الإسْلامِ ٢٤٧
❑ وَقْفَةٌ مَعَ القَصَّاصِيْنَ: ٢٤٨
❑ وَقْفَةٌ مَعَ الوُعَّاظِ مِنْ أهْلِ العِلْمِ: ٢٤٩
❑ أخْبَارُهُم الوُعَّاظِ والقَصَّاصِيْنَ: ٢٥١
تَطَاوُلُ الوُعَّاظِ والقَصَّاصِيْنَ إلىٰ التَّصَدُّرِ للفَتَاوَىٰ، والتَّنْظِيْرِ والتَّرْشِيْدِ ٢٥٢
❑ الآثَارُ السَّيِّئَةُ مِنْ تَطَاوُلُ الوُعَّاظِ والقَصَّاصِيْنَ للفَتَاوَىٰ ٢٥٤

خُذْلانُ أَهْلِ العِلْمِ والدَّعْوَةِ لأتْبَاعِهِم ٢٥٥
صُوَرُ تَقَلُّبَاتِ وتَغَيُّراتِ مَوَاقِفِ بَعْضِ أَهْلِ العِلْمِ والدَّعْوَةِ ٢٥٦
صُوَرُ اسْتِبْدَالِ العَنَاوِيْنِ السَّلَفِيَّةِ عِنْدَ بَعْضِ أَهْلِ العِلْمِ والدَّعْوَةِ ٢٥٧
وَقْفَةٌ مَعَ خَطَأ الاسْتِعَاضَةِ بكَلِمَةِ المُقَاوَمَةِ عَنِ الجِهَادِ الشَّرعيِّ ٢٥٩
صُوَرُ الانْهِزَامِ عِنْدَ بَعْضِ أهْلِ العِلْمِ النَّابِغِيْنَ ٢٦١
صُوَرُ الفَوَاقِرِ عِنْدَ بَعْضِ أهْلِ العِلْمِ النَّابِغِيْنَ ٢٦٢
❑ **صُوَرُ التَّنَاقُضِ والتَّبَايُنِ عِنْدَ أصْحَابَ الدَّعْوَاتِ الضَّعِيْفَةِ** ٢٦٣
أوَّلًا: أنَّهُم لم يَنْصُرُوا حَقًّا، ولم يَكْسِرُوا بَاطِلًا ٢٦٣
ثَانِيًا: أنَّهم بقَدْرِ اجْتِهَادِهِم مَا ازْدَادُوا إلَّا خَسَارَةً وتَفْرِيقًا للأطْرَافِ ٢٦٣
ثَالِثًا: أنَّهُم مَا ازْدَادُوا إلَّا بُغْضًا مِنَ الجَمِيْعِ ٢٦٣
رَابِعًا: أنَّهُم لم يَكْسَبُوا مَوْقِفًا وَاحِدًا في جَمِيْعِ المَوَاقِفِ ٢٦٣
خَامِسًا: أنَّهُم وَضَعُوا أنْفُسَهُم في مَوَاقِفَ مَشْبُوْهَةٍ بغِيْضَةٍ ٢٦٣
سَادِسًا: أنَّهُم أفْقَدُوا الأمَّةَ الإسْلامِيَّةَ كَثِيْرًا مِنْ عُلَمائِهَا ودُعَاتِها الصَّادِقِيْنَ ٢٦٤
سَابِعًا: أنَّهُم أخْرَجُوا للأمَّةِ الإسْلامِيَّةِ شَبَابًا مُنْهَزِمًا ٢٦٤
ثَامِنًا: أنَّهُم أسْقَطُوا هَيْبَةَ الدِّيْنِ وأحْكَامَهِ مِنْ قُلُوْبِ كَثِيرٍ مِنَ المُسْلِمِيْنَ ... ٢٦٤
❑ **كَلامٌ نَفِيْسٌ لسَيِّدِ قُطْبٍ** رَحِمَهُ اللهُ ٢٦٤
ذِكْرَىٰ وأطْلالُ الدَّعْوةِ عِنْدَ إخْوانِنَا الدُّعَاةِ ٢٦٧
بِدَايَاتُ انْحِرَافِ الدُّعَاةِ عَنِ المَنْهَجِ الدَّعْوِيِّ الصَّحِيْحِ ٢٦٩
خَطَأ بَعْضِ الدُّعَاةِ في قَوْلِه: إنَّها تَجْرُبَةٌ قَدْ خِضْنَاهَا، والرَّدُّ عَلَيْهَا ٢٦٩
تَرَاجُعَاتِ دُعَاةِ اليَوْمِ للوَرَاءِ فَقَطْ ٢٦٩
الأثَرُ الشَّافي الَّذي يصِفُ حَالَ كَثِيرٍ مِنْ دُعَاةِ عَصْرِنَا ٢٧٠
❑ **خَطَأ بَعْضِ الخُطَبَاءِ أهْلِ المَنَابِرِ والتَّذْكِيْرِ** ٢٧١

❑ خَطَأ بَعْضِ التَّائِبِيْنَ إلىٰ الله تَعَالىٰ ٢٧٢
❑ خَطَأ بَعْضِ الدَارِسِين للعُلُوْمِ الدُّنْيَوِيَّةِ ٢٧٥
❑ خَطَأ بَعْضِ المُذِيْعِيْنَ مِنْ طُلَّابِ العِلْمِ الشَّرعِيِّ ٢٧٥
❑ خَطَأ بَعْضِ دُعاةِ عِلْمِ النَّفْسِ (النَّقْصِ!) ٢٨١

البَابُ الخَامِسُ

المَدَارِسُ الإسْلامِيَّةُ

وفِيْهِ فَصْلانِ

❑ الفَصْلُ الأوَّلُ: تَارِيْخُ المَدَارِسِ الإسْلامِيَّةِ ٢٨٥
❑ صُوَرُ المدارسِ عِنْدَ السَّلَفِ الصَّالِحِ، مَدْرَسَتَانِ: ٢٨٥
مَدَارِسُ الكَتَاتِيْبِ: ٢٨٦
❑ أقْسَامُ مَدَارِسَ الكَتَاتِيْبِ علىٰ قِسْمَيْنِ: ٢٨٦
الأوَّلُ مِنْهَا: مَدَارِسُ عَامَّةٌ ٢٨٦
الثَّاني مِنْهَا: مَدَارِسُ خَاصَّةٌ ٢٨٦
مَدَارِسُ العِلْم: فَهِيَ مَحَاضِنُ أهْلِ العِلْمِ الكِبَارِ، وطُلَّابِ العُلُوْمِ الشَّرْعِيَّةِ ... ٢٨٦
❑ مَدْرَسَةُ الحِجَازِ فَقَدْ تَمَثَّلَتْ: في مَكَّةَ والمَدِيْنَةِ ٢٨٨
❑ مَدْرَسَةُ المَدِيْنَةِ، وذِكْرُ مَشَاهِيْرِهَا مِنْ أهْلِ العِلْمِ: ٢٨٩
❑ مَدْرَسَةُ مَكَّةَ، وذِكْرُ مَشَاهِيْرِهَا مِنْ أهْلِ العِلْمِ: ٢٩٠
❑ مَدْرَسَةُ العِرَاقِ، وقَدْ تَمَثَّلَتْ: في الكُوْفَةِ، والبَصْرَةِ، وبَغْدَادَ ٢٩١
❑ المَدْرَسَةُ الكُوفِيَّةُ، وذِكْرُ مَشَاهِيْرِهَا مِنْ أهْلِ العِلْمِ: ٢٩١
❑ المَدْرَسَةُ البَصْرِيَّةُ، وذِكْرُ مَشَاهِيْرِهَا مِنْ أهْلِ العِلْمِ: ٢٩٢

□ المَدْرَسَةُ البَغْدَادِيَّةُ، وذِكْرُ مَشَاهِيْرِهَا مِنْ أَهْلِ العِلْمِ: ٢٩٣
□ مَدْرَسَةُ الشَّامِ، وذِكْرُ مَشَاهِيْرِهَا مِنْ أَهْلِ العِلْمِ: ٢٩٥
□ مَدْرَسَةُ مِصْرَ، وذِكْرُ مَشَاهِيْرِهَا مِنْ أَهْلِ العِلْمِ: ٢٩٧
□ مَدْرَسَةُ شَمَالِ أَفْرِيْقِيا، وذِكْرُ مَشَاهِيْرِهَا مِنْ أَهْلِ العِلْمِ: ٢٩٩
□ مَدْرَسَةُ الأَنْدَلُسِ، وذِكْرُ مَشَاهِيْرِهَا مِنْ أَهْلِ العِلْمِ: ٣٠١
صُوَرُ تَمَسُّكِ السَّلَفِ الصَّالِحِ بالسُّنَنِ والآثَارِ: ٣٠٣
ذِكْرُ الآثَارِ في حِرْصِ تَمَسُّكِ السَّلَفِ الصَّالِحِ بالسُّنَنِ والآثَارِ ٣٠٥
صُوَرُ تَحْذِيْرِ السَّلَفِ مِنَ الرَّأْيِ: ٣٠٦
□ الفَصْلُ الثَّاني: الفَرْقُ بَيْنَ مَدَارِسِ السَّلَفِ ومَدَارِسِ الخَلَفِ ٣٠٩
الأَوَّلُ: أَنَّ السَّلَفَ كَانُوا يَسْتَحْضِرُوْنَ نِيَّةَ الطَّلَبِ في جَمِيْعِ مَرَاحِلِهِ ٣١٠
الثَّاني: كَانَ العِلْمُ عِنْدَ السَّلَفِ عَنْ رَغْبَةٍ شَدِيْدَةٍ، وهِمَّةٍ عَالِيَةٍ ٣١٠
الثَّالِثُ: كَانَ السَّلَفُ أَهْلَ حِفْظٍ وفَهْمٍ كَبِيْرٍ ٣١١
الرَّابِعُ: كَانَ طَلَبُ العِلْمِ عِنْدَ السَّلَفِ طَرِيْقًا لِرِضَا الله ٣١٤
الخَامِسُ: كَانَ العِلْمُ عِنْدَ السَّلَفِ يُوْرِثُ صَاحِبَهُ صِدْقًا ٣١٤
السَّادِسُ: كَانَتْ مَجَالِسُ العِلْمِ لا يَتَصَدَّرُهَا إلَّا أَهْلُ العِلْمِ الرَّبَّانِيُّوْنَ ٣١٥
السَّابِعُ: كَانَتِ الشَّهَادَاتُ العِلْمِيَّةُ عِنْدَهُم تُؤْخَذُ عَنْ طَرِيْقِ العُلَماءِ ٣١٥
الثَّامِنُ: كَانَ عِلْمُ السَّلَفِ في العِلْمِ النَّافِعِ، والعَمَلِ الصَّالِحِ ٣١٦
التَّاسِعُ: كَانَ السَّلَفُ يُؤْمِنُوْنَ بأَنَّ الله هُوَ الَّذِي يَرْفَعُ أَهْلَ العِلْمِ ٣١٨
□ حَقِيْقَةُ أَصْلِ كَلِمَةِ «الدُّكْتُوْرِ»: ٣٢٠
العَاشِرُ: كَانَ التَّحْصِيْلُ العِلْمِيُّ عِنْدَ السَّلَفِ يَأْخُذُ بجَمِيْعِ العُلُوْمِ ٣٢٦
وَقْفَةٌ مَعَ التَّخَصُّصِ العِلْمِيِّ (الجَامِعِي): ٣٢٦
الحَادِي عَشَرَ: لِلسَّلَفِ في مَدَارِسِهِم مَدَارِجُ عِلْمِيَّةٌ ٣٢٨

الثَّاني عَشَرَ: مَصَادِرُ التَّلَقِّي عِنْدَ السَّلَفِ للعُلُوْمِ الشَّرْعِيَّةِ مُوَحَّدَة ٣٢٩
❑ ذِكْرُ اخْتِلافِ النَّاسِ في حُكْمِ العُلُوْمِ الدُّنْيَوِيَّةِ (الطَّبِيْعِيَّةِ والتَّجْرِيْبِيَّةِ): ٣٣٦
الطَّرَفُ الأوَّلُ: مَنْ أفْرَطَ فِيْهَا إفْرَاطًا أخْرَجَهَا مِنْ حَدِّهَا ٣٣٧
الطَّرَفُ الثَّاني: مَنْ عِنْدَهُ تَفْرِيْطٌ فِيْهَا؛ حَتَّىٰ قَطَعَ بَعْضُهُم بحُرْمَتِهَا ٣٣٧
الوَسَطُ: مَنْ قَالَ بأنَّها عُلُوْمٌ مُبَاحَةٌ ٣٣٧
الثَّالِثَ عَشَرَ: كَانَ السَّلَفُ يُحَذِّرُوْنَ مِنْ كُلِّ لُغَةٍ تُزَاحِمُ اللُّغَةَ العَرَبِيَّةَ ٣٣٧
الرَّابِعَ عَشَرَ: كَانَ السَّلَفُ أبْعَدَ النَّاسِ عَنْ كُلِّ عِلْمٍ دَخِيْلٍ ٣٣٩
الخَامِسَ عَشَرَ: كَانَ السَّلَفُ أهْلَ رِحْلَةٍ في بِلادِ المُسْلِمِيْنَ ٣٤٩
السَّادِسَ عَشَرَ: كَانَ السَّلَفُ في مَدَارِسِهِم أبْعَدَ النَّاسِ عَنِ الفَسَادِ العَرِيْضِ ٣٥٢
السَّابِعَ عَشَرَ: كَانَ السَّلَفُ أبْعَدَ النَّاسِ عَنِ التَّصْفِيْقِ ٣٥٢
الثَّامِنَ عَشَرَ: كَانَ السَّلَفُ أبْعَدَ النَّاسِ عَنِ التَّصَاوِيْرِ ٣٥٩
❑ خَطَرُ نَشْرِ العُلُوْمِ الإدَارِيَّةِ، والنَّفْسِيَّةِ (البَرْمَجَةُ العَصَبِيَّةُ اللُّغَوِيَّةُ) ٣٦٠
❑ الآثَامُ والآثَارُ السيئة في نَشْرِ العُلُوْمِ الدَّخِيْلَةِ في بِلادِ المُسْلِمِيْنَ: ٣٤٨
أوَّلًا: أنْ يَنَالَكَ نَصِيبٌ مِنْ الحَدِيْثِ: «ومَنْ سَنَّ فِي الإسْلامِ سُنَّةً سَيِّئَةً» ٣٤٨
ثَانِيًا: زِيَادَةُ الفَجْوَة في تَجْهِيْلِ الأمَّةِ ٣٤٩
ثَالِثًا: الخَوْفُ مِنَ الله تَعَالىٰ مِنْ نَشْرِ هَذِهِ العُلُوْمِ التَّجْرِيْبِيَّةِ مِنَ الغَرْبِ ٣٤٩

البَابُ السَّادِسُ

أخْطَاءُ (الفِكْرِ التَّرْبَوِيِّ)

في مَرَاكِزِ ونَوَادِي (التَّرْبِيَةِ)

وفِيْهِ أرْبَعَةٌ وثَلاثُوْنَ خَطَأً

❑ ذِكْرُ الأمُوْرِ الخَمْسَةِ الَّتِي يَجِبُ بَيَانُها قَبْلَ ذِكْرِ أخْطَاءِ (الفِكْرِ التَّرْبَوِيِّ): ٣٦٥

أوَّلًا: لا شَكَّ أنَّ أكْثَرَ القَائِمِيْنَ علىٰ مَراكِزِ (التَّرْبِيَةِ) علىٰ إخلاصٍ وصِدْقٍ ٣٦٥
ثَانِيًا: أنَّ ذِكْرَ هَذِهِ الأخْطَاءِ لَيْسَ بالضَّرُوْرِي اجْتِماعُهَا في مَرْكَزٍ أو نَادٍ .. ٣٦٥
ثَالِثًا: لا شَكَّ أنَّ هُنَاكَ بَقِيَّةً مِنَ المَجَامِعِ العِلْمِيَّةِ قَدْ سَلِمَتْ مِنْ هَذِهِ الأخْطَاءِ ٣٦٥
رَابِعًا: أنَّ هَذِهِ الرِّسَالَةَ لم تَأتِ علىٰ جَمِيْعِ أخْطَاءِ (الفِكْرِ التَّرْبَوِيِّ)، في مَرَاكِزِهِ ٣٦٥
خَامِسًا: فَلْيَعْلَمِ الجَمِيْعُ أنَّ الأخْطَاءِ جَاءَتْ بسَبِيْلِ النَّصِيْحَةِ الإيْمانِيَّةِ ٣٦٦
❑ الخَطأ الأوَّلُ: اشْتِقَاقُ كَلِمَةِ (التَّرْبِيَةِ) مِنَ الرَّبِّ ٣٦٧
ذِكْرُ الأمُوْرِ الخَمْسِ في تَرْجِيْحِ نِسْبَةِ: الرَّبَّاني مَنْسُوْبٌ إلىٰ رُبَّانِ السَّفِيْنَةِ: ٣٦٧
أوَّلًا: أنَّها مُشْتَقَّةٌ مِنْ رُبَّانِ السَّفِيْنَةِ؛ لأنَّ الأصْلَ عَدَمُ الزِّيَادَةِ في النِّسْبَةِ .. ٣٦٧
ثَانِيًا: أنَّها لا تُذَمُّ ولا تَمْدَحُ في ذَاتِها ٣٦٧
ثَالِثًا: أنَّ الله تَعالىٰ لم يُسَمِّ أنْبِياءَهُ أو أوْلِيَاءَهُ المُتَّقِيْنَ: رَبَّانِيِّيْنَ ٣٦٨
رَابِعًا: أنَّها إذَا كَانَتْ مُشْتَقَّةً مِنَ الرَّبِّ، فَهِيَ مِنْ شَأنِ أهْلِ العِلْمِ الرَّبَّانِيِّيْنَ ... ٣٦٨
خَامِسًا: فِيْهِ مُخَالَفَةٌ للأدَبِ الإسْلامِيِّ ٣٦٩
❑ الخَطأ الثَّاني: تَأوِيْلُ كَلِمَةِ (التَّرْبِيَةِ)، وصَرْفُهَا عَنْ ظَاهِرِهَا ٣٧٠
❑ الخَطأ الثَّالِثُ: التَّوَسُّعُ في إطْلاقِ كَلِمَةِ (التَّرْبِيَةِ) والتَّرْبَوِيِّيْنَ ٣٧٢
صُوَرُ اسْتِبْدَالاتِ كَلِمَةِ (التَّرْبِيَةِ) و(التَّرْبَوِيِّيْنَ) ٣٧٢
❑ الخَطأ الرَّابِعُ: اجْتِرَارُ كَلِمَةِ (التَّرْبِيَةِ) بَيْنَ شَبابِ المُسْلِمِيْنَ ٣٧٣
❑ الخَطأ الخامِسُ: مَنْعُ الاسْتِفَادَةِ مِنْ خَارِجِ المَرْكَزِ والنَّادِي ٣٧٤
❑ الخَطأ السَّادِسُ: الحِزْبِيَّةُ المَقِيْتَةُ، والحَمِيَّةُ الجَاهِلِيَّةُ ٣٧٥
❑ الخَطأ السَّابِعُ: التَّفَرِقَةُ بَيْنَ عُمُوْمِ المُسْلِمِيْنَ ٣٧٦
ذِكْرُ الأخْطَاءِ الأرْبَعَةِ في تَسْوِيْقِ اسمِ (التَّرْبِيَةِ) في صُفُوْفِ الشَّبابِ: ٣٧٦
أوَّلًا: أنَّ في بَعْثِهَا إحْدَاثَ الشُّقَّةِ المَقِيْتَةِ، والفُرْقَةَ المَشْئُومَةِ ٣٧٦
ثانِيًا: في بَعْثِهَا حِرْمَانٌ لأكْثَرِ المُسْلِمِيْنَ عَنِ العَمَلِ لهَذَا الإسْلامِ ٣٧٧

ثَالِثًا: قَطْعُ جُسُوْرِ التَّوَاصُلِ والتَّآلُفِ بِيْنَ جماعَةِ المُسْلِمِيْنَ ٣٧٧
رَابِعًا: عَزْلُ وبُعْدُ شَبَابِ (التَّرْبِيَةِ) عَنْ إخْوانِهِم المُسْلِمِيْنَ ٣٧٧
❑ الخَطَأُ الثَّامِنُ: قِيَامُ الشَّبابِ بدَوْرِ (التَّرْبِيَةِ) ٣٧٩
❑ الخَطَأُ التَّاسِعُ: تَغْيِيْبُ (التَّرْبِيَةِ) عَنْ أهْلِ العِلْمِ ٣٨٠
❑ الخَطَأُ العَاشِرُ: جَهْلُ (التَّرْبَوِيِّيْنَ) بدَوْرِ العُلَمَاءِ ومَكَانَتِهِم ٣٨٢
قِلَّةُ عِلْمِ أهْلِ (التَّرْبِيَةِ) بالعُلَماءِ، وذَلِكَ مِنْ خِلالِ خَمْسَةِ أمُوْرٍ: ٣٨٢
أوَّلًا: أنَّهُم جعَلُوا المَرَاكِزَ التَّربَوِيَّةَ أصْلًا ٣٨٢
ثَانِيًا: أنَّهم حَجَّرُوا دَوْرَ أهْلِ العِلْم ٣٨٢
ثَالِثًا: أنَّهم أسَاءوا الظَّنَّ بأهْلِ العِلْم ٣٨٢
رَابِعًا: عُزُوْفُ شَبَابِ المُسْلِمِيْنَ عَنْ أهْلِ العِلْم ٣٨٢
خَامِسًا: جَهْلُ أهْلِ (التَّرْبِيَةِ) بدَوْرِهِم فِيْما نَحْنُ فِيْهِ ٣٨٣
❑ الخَطَاءُ الحَادِي عَشَرَ: جَهْلُ أهْلِ (التَّرْبِيَةِ) بدَوْرِهِم التَّربَوِيِّ ٣٨٤
بَيَانُ حَقِيْقَةِ دَوْرِ مَرَاكِزِ (التَّرْبِيَةِ): عَامٌّ، وخَاصٌّ ٣٨٤
العَامُ: دَوْرُ التَّصْنِيْفِ والتَّقْيِيْمِ والفَرْزِ للشَّبَابِ ٣٨٤
الخَاصُّ: دَوْرُ المُلازَمَةِ والتَّعْلِيْمِ والتَّوْجِيْهِ بقَدْرِ الإمْكَانِ والاسْتِطَاعَةِ ٣٨٥
❑ الخَطَأُ الثَّاني عَشَرَ: الظَّنُّ بأبْنَاءِ المُسْلِمِيْنَ ٣٨٨
❑ الخَطَأُ الثَّالثَ عَشَرَ: تَرْبِيَةُ الشَّبابِ على المُلازَمَةِ الصُّوفِيَّةِ ٣٩٢
❑ الخَطَأُ الرَّابعَ عَشَرَ: تَقْدِيْسُ الأشْخَاصِ ٣٩٥
❑ الخَطَأُ الخَامِسَ عَشَرَ: تَحْجِيْرُ ثَقَافَةِ أبْنَاءِ المُسْلِمِيْنَ ٣٩٨
❑ الخَطَأُ السَّادِسَ عَشَرَ: تَوْظِيْفُ العِلْمِ لتَعْزِيْزِ (الفِكْرِ التَّرْبَوِيِّ) ٤٠٠
ذِكْرُ الأخْطَاءِ الثَّلاثَةِ في تَوْظِيْفُ العِلْمِ لتَعْزِيْزِ مَرَاكِزِ (التَّرْبِيَةِ): ٤٠٠
أوَّلًا: أنَّ مُعْظَمَ الدُّرُوْسِ القَائِمَةِ فيهَا صَفَاتٌ طَيِّبَةٌ ٤٠٠

ثَانيًا: أنَّ غَالِبَ الدُّرُوْسِ القَائِمَةِ فيهَا لا تَخْرُجُ عَنْ دُرُوْسٍ قَصِيْرَةٍ ٤٠١
ثَالِثًا: أنَّ هُنَاكَ ظَاهِرَةً عِنْدَ اخْتِيَارِهِم للدُّرُوْسِ لتَعْزِيْزِ لِهَذِهِ المَرَاكِزِ ٤٠١
❑ **الخَطَأُ السَّابِعَ عَشَرَ: الاحْتِوَاءُ التَّرْبَوِيُّ** ٤٠٣
❑ **الخَطَأُ الثَّامِنَ عَشَرَ: تَحْجِيْرُ عِلْمِ (التَّرْبِيَةِ) في القُرْآنِ الكَرِيْمِ** ٤٠٧
❑ **الخَطَأُ التَّاسِعَ عَشَرَ: التَّبَسُّطُ المَرْذُوْلُ في اللَّعِبِ، واللَّهْوِ، والمَسَارِحِ** ٤١٢
أنْوَاعُ الفُرُوْسِيَّةِ الشَّرْعِيَّةِ: ٤١٥
فالأُوْلَىٰ مِنْهُمَا: فُرُوْسِيَّةُ السِّنَانِ، والبِنَانِ؛ كالرِّمَايَةِ ٤١٥
والثَّانِيَةُ مِنْهُمَا: فُرُوْسِيَّةُ الحُجَّةِ، والبُرْهَانِ؛ كالعِلْمِ الشَّرْعِي ٤١٥
الرَّدُّ علىٰ مَنْ قَالَ: إنَّ اللَّعِبَ بالكُرَةِ فِيْهِ تَقْوِيَةٌ للأبْدَانِ ٤١٦
ذِكْرُ الأخْطَاءِ الخَمْسَةِ في الدَّعْوَاتِ الغَارِقَةِ في اللَّعِبِ واللَّهْوِ: ٤١٧
أوَّلًا: أنَّهم جعَلُوا مِنَ هَذِه التَّلاعِيْبِ أُصُوْلًا ثَابِتَةً ٤١٧
ثَانِيًا: أنَّهم بهَا يَغْشُوْنَ كَثِيْرًا مِنَ العَائِدِيْنَ إلىٰ الله تَعَالىٰ ٤١٨
ثَالِثًا: أنَّهم بهَا يَكُوْنُوْنَ قَدْ سَوَّغُوا للعُصَاةِ أنْ يَبْقَوْا علىٰ المَعْصِيةِ ٤١٨
رَابِعًا: أنَّهم بهَا قَدْ أُصِيْبُوا بالاسْتِسْلامِ، والاسْتِكَانَةِ للوَاقِعِ ٤١٨
خَامِسًا: أنَّهم بهَا قَدْ رَجَعُوا عَنِ الدَّعْوَةِ السَّلَفِيَّةِ ٤١٨
❑ **الخَطَأُ العِشْرُونَ: التَّبَسُّطُ المَرْذُوْلُ في الأنَاشِيْدِ** ٤٢٠
تَعْرِيْفُ التَّغْبِيرِ: ٤٢١
تَعْرِيْفُ الحُدَاءِ: ٤٢٣
تَعْرِيْفُ النَّصْبِ: ٤٢٣
تَعْرِيْفُ التَّغْبِيرِ الَّذِي ذَمَّهُ الشَّافِعِيُّ وأئِمَّةُ السَّلَفِ ٤٢٤
تَحْرِيْمُ الأنَاشِيْدِ المُصَاحِبَةِ للتَّحْسِينَاتِ المُوسِيقِيَّةِ مِنْ ثَلاثَةِ أوْجُهٍ: ٤٢٥
الوَجْهُ الأوَّلُ: أنَّهُ فِي الحَقِيقَةِ مُوسِيقَىٰ صَوْتِيَّةٌ ٤٢٥

الوَجْهُ الثَّانِي: أَنَّهُ مِنَ الحِيَلِ الَّتِي حَرَمَهَا الله تَعَالَىٰ ٤٢٦
الوَجْهُ الثَّالِثُ: أَنَّهُ شَبِيهٌ بِفِعْلِ اليَهُودِ ٤٢٦
تَعْرِيْفُ الأَنَاشِيدِ (الإِسْلَامِيَّةِ) عِنْدَ أَهْلِ العَصْرِ: ٤٢٦
حَقِيقَةُ الأَنَاشِيدِ عِنْدَ السَّلَفِ الصَّالِحِ ٤٢٨
ذِكْرُ المَحْظُوْرَاتِ الَّتِي إِذَا صَاحَبَتْ الإِنْشَادَ جَعَلَتْهُ مُحَرَّمًا ٤٢٨
الرَّدُّ علىٰ مَنْ يَدَّعِي أَنَّ الأَنَاشِيْدَ صَالِحَةٌ لدَعْوَةِ العُصَاةِ ٤٣٢
رَدُّ ابنِ تَيْمِيَّةَ علىٰ مَنْ يَدَّعِي أَنَّ الأَنَاشِيْدَ صَالِحَةٌ لدَعْوَةِ العُصَاةِ ٤٣٣
❑ **الخَطَأ الحَادِي والعِشْرُوْنَ: تَأَثُّرُ (التَّرْبِيَةِ) بِبَعْضِ الجَمَاعَاتِ الإِسْلامِيَّةِ الوَافِدَةِ** ٤٣٦
ذِكْرُ الأَخْطَاءِ الأَرْبَعَةِ في الدَّعْوَةِ السِّرِّيَّةِ بَيْنَ أَبْنَاءِ هَذِهِ البِلادِ ٤٣٨
أَوَّلًا: التَّرْبِيَةُ علىٰ السِّرِّيَّةِ ٤٣٨
ثَانِيًا: اسْتِمْرَاءُ الخَوْفِ والوَجَلِ في رَوْعِ الشَّبَابِ ٤٣٨
ثَالِثًا: إِسَاءَةُ الظَّنِّ بالعُلَماءِ والدُّعَاةِ والآخَرِيْنَ ٤٣٨
رَابِعًا: تَهْيِئَةُ الأَجْوَاءِ لتَفْرِيْخِ البَيْعَةِ البِدْعِيَّةِ بَيْنَهُم غَالبًا ٤٣٩
❑ **الخَطَأ الثَّاني والعِشْرُوْنَ: تَرْبِيَةُ أَبْنَاءِ المُسْلِمِيْنَ علىٰ مَنْهَجِ السَّلامَةِ** ٤٤٠
ذِكْرُ الفَرْقِ بَيْنَ مَنْهَجِ السَّلامَةِ وبَيْنَ سَلامَةِ المَنْهَجِ ٤٤٠
الأَوَّلُ مِنْهُما: هُوَ سَبِيْلُ المُنَافِقِيْنَ والمُخَذِّلِيْنَ والمُرْجِفِيْنَ ٤٤١
الثَّاني مِنْهُما: هُوَ سَبِيْلُ الأَنْبِيَاءِ والمُرْسَلِيْنَ والأَوْلِيَاءِ ٤٤٢
ذِكْرُ الأَخْطَاءِ الأَرْبَعَةِ في الدَّعْوَةِ إلىٰ مَنْهَجِ السَّلامَةِ: ٤٤٣
أَوَّلًا: زَرْعُ الخَوْفِ في نُفُوْسِ أَبْنَاءِ المُسْلِمِيْنَ ٤٤٣
ثَانِيًا: قَلْبُ الحَقَائِقِ الشَّرعِيَّةِ ٤٤٣
ثَالِثًا: اهْتِمامُهُم بالدُّرُوْسِ والكَلِماتِ الَّتِي تُعَزِّزُ الخَوْفَ والتَّخَاذُلَ ٤٤٣

رَابِعًا: تَحْذِيرُ شَبَابِهِم مِنْ جِدِّيَّةِ الدَّعْوَةِ السَّلَفِيَّةِ ٤٤٣
❑ الخَطَأُ الثَّالِثُ والعِشْرُوْنَ: ظُهُوْرُ القَصَّاصِيْنَ والوُعَّاظِ في مَرَاكِزِ (التَّربِيَةِ) .. ٤٤٩
❑ الخَطَأُ الرَّابِعُ والعِشْرُوْنَ: هَشَاشَةُ (التَّرْبِيَةِ) ٤٥١
❑ الخَطَأُ الخَامِسُ والعِشْرُوْنَ: الدَّعْوَةُ الجَوْفَاءُ عِنْدَ التَّربَوِيِّيْنَ ٤٥٣
ذِكْرُ الأخْطَاءِ الخَمْسَةِ في الدَّعْوَةِ الجَوْفَاءِ علىٰ أبْنَاءِ المُسْلِمِيْنَ ٤٥٣
أوَّلًا: أنَّهُ يَتربَّىٰ علىٰ التَّنْظِيْرِ للأمَّةِ في قضايَاهَا المَصِيْرِيَّةِ ٤٥٣
ثَانِيًا: أنَّهُ يَتَكَلَّمُ في قَضَايَا الأمَّةِ المَصِيْرِيَّةِ ٤٥٣
ثَالِثًا: أنَّهُ يَعِيْشُ علىٰ فَتَاتِ أخْبَارِ وأحْوَالِ دُعَاةِ ورُمُوْزِ (التَّرْبِيَةِ) ٤٥٤
رَابِعًا: أنَّه بَعْدَ هَذِهِ الحَصِيْلَةِ الثَّقَافِيَّةِ الهَشَّةِ يُصْبِحُ عَقَبَةً كَأْدَاءَ ٤٥٤
خَامِسًا: أنَّ كَثِيْرًا يَسْعَوْنَ في تَحْصِيْلِ الدَّوْرَاتِ الإدَارِيَّةِ ٤٥٥
❑ الخَطَأُ السَّادِسُ والعِشْرُوْنَ: تَحْجِيْرُ (التَّرْبِيَةِ) علىٰ طَائِفَةٍ دُوْنَ غَيْرِهَا ٤٥٦
ذِكْرُ الأخْطَاءِ الثَّلاثَةِ عِنْدَ تَحْجِيْرِ الدَّعْوَةِ: ٤٥٧
أوَّلًا: تَحْجِيْرُ الدَّعْوَةِ علىٰ طَائِفَةٍ مِنَ المُسْلِمِيْنَ (الشَّبَابِ) ٤٥٧
ثَانِيًا: تَهْمِيْشُ طَوَائِفَ مِنَ المُسْلِمِيْنَ ٤٥٧
ثَالِثًا: إحْدَاثُ فَجْوَةٍ وجَفْوَةٍ بَيْنَ الأبْنَاءِ والآبَاءِ ٤٥٧
❑ الخَطَأُ السَّابِعُ والعِشْرُوْنَ: الانْتِكَاسَةُ المَوْهُوْمَةُ ٤٥٨
❑ الخَطَأُ الثَّامِنُ والعِشْرُوْنَ: تَأثُّرُ بَعْضِ طُلابِ العِلْمِ بـ(التَّرْبِيَةِ) ٤٦٠
❑ الخَطَأُ التَّاسِعُ والعِشْرُوْنَ: أضْرَارُ ضَرُوْرَةِ (التَّرْبِيَةِ) ٤٦٢
أقْسَامُ النَّاسِ باعْتِبَارِ وُجُوْبِ العِلْمِ علىٰ قِسْمَيْنِ: ٤٦٣
الأوَّلُ: أهْلُ العِلْمِ وطُلَّابُهُ ٤٦٣
الثَّاني: عَامَّةُ المُسْلِمِيْنَ ٤٦٣
ذِكْرُ أخْطَاءِ الخَلْطِ بَيْنَ هَذَا وهَذَا: ٤٦٣

الخَطَأ الأَوَّلُ: أَنَّهُم لم يَتَقَيَّدُوا بالوَاجِبِ الشَّرعِي نَحْوَ الشَّبَابِ ٤٦٣
الخَطَأ الثَّاني: أَنَّهُم أَيْضًا حَرَمُوا عُمُوْمَ المُسْلِمِيْنَ مِنْ حَقِّهِم الشَّرعِي ٤٦٣
❑ الخَطَأ الثَّلاثُوْنَ: امْتِحَانُ النَّاسِ بـ(التَّرْبِيَةِ) ٤٦٥
❑ الخَطَأ الحَادِي والثَّلاثُوْنَ: تَأَثُّرُ (التَّرْبِيَةِ) بأهْلِ الرَّأي والكَلامِ ٤٧٨
❑ الخَطَأ الثَّاني والثَّلاثُوْنَ: الانْهِزَامُ الدَّعْوِيُّ عِنْدَ أنْصَارِ (التَّرْبِيَةِ) ٤٨٣
❑ الخَطَأ الثَّالِثُ والثَّلاثُوْنَ: الإغَارَةُ علىٰ تُرَاثِ الأمَّةِ ٤٨٥
❑ الخَطَأ الرَّابِعُ والثَّلاثُوْنَ: التَّعَلُّقُ بالمُرْدَانِ، وأهْلِ الصُّوَرِ الحِسَانِ ٤٨٧
❑ ذِكْرُ الوَاجِبِ الشَّرعِيِّ نَحْوِ التَّعَامُلِ مَعَ المُرْدَانِ، وأهْلِ الصُّوَرِ الحِسَانِ: ٤٨٧
أوَّلًا: أنْ نَجْتَهِدَ في حَمْلِهِم إلىٰ التَّحَلِّي بشِيَمِ وصِفَاتِ الرِّجَالِ ٤٨٧
ثَانِيًا: أنْ نَحْمِلَهُم أيْضًا علىٰ كُلِّ مَا مِنْ شَأنِهِ يُبْعِدُهُم عَنِ الفِتْنَةِ ٤٨٧
ثَالِثًا: تَحْذِيْرُهُم مِنْ مَوَاطِنِ الفِتْنَةِ، والاخْتِلاطِ بغَيْرِهِم ٤٨٨
رَابِعًا: عَزْلُهُم عَنْ إخْوَانِهِم، أو إخْرَاجُهُم مِنْ تِلْكُمُ المَرَاكِزِ والنَّوادِي ٤٨٨
ذِكْرُ الوَاجِبِ الشَّرعِيِّ عِنْدَ عَزْلِهِم أو إخْرَاجِهِم: ٤٨٨
الأوَّلُ: أنْ يَجْلِسَ أهْلِ التَّقْوَىٰ والوَرَعِ مَعَهُم بقَدْرِ حَاجَتِهِم للدَّعْوَةِ ٤٨٨
الثَّاني: أن يَتَعَلَّمَ أهْلِ التَّقْوَىٰ والوَرَعِ الأحْكَامَ الشَّرعِيَّةَ المُتَعَلِّقَةَ بِهِم ٤٨٨

البَابُ السَّابِعُ

تَصْحِيحُ الدَّعْوَةِ عِنْدَ أنْصَارِ (الفِكْرِ التَّربَوِيِّ)

❑ ذِكْرُ الشُّرُوْطِ السِّتَّةِ الوَاجِبِ اعْتِبَارُهَا عِنْدَ تَصْحِيحِ مَرَاكِزِ (التَّرْبِيَةِ): ٤٩٢
أوَّلًا: أنْ يَتْرُكَ أرْبَابُ النَّوَادِي كَلِمَةَ ومُصْطَلَحَ (التَّرْبِيَةِ) ٤٩٢
ثَانِيًا: أنْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ الشَّابِ المُسْتَقِيْمِ، وبَيْنَ الشَّابِ الغَافِلِ في التَّعَامُلِ ٤٩٢

ثَالِثًا: أنْ يَتَوَلَّىٰ قِيَادَةَ وتَوْجِيْهَ هَذِهِ المَحَاضِنِ أَهْلُ العِلْمِ ٤٩٢
رَابِعًا: أنْ تَكُوْنَ الدَّعْوَةُ بَيْنَ أبْنَاءِ المُسْلِمِيْنَ؛ دَعْوَةً شَرْعِيَّةً ٤٩٢
خَامِسًا: أنْ يَتْرُكُوا كُلَّ مَا مِنْ شَأنِهِ يُخَالِفُ المَنْهَجَ السَّلَفِيَّ ٤٩٣
سَادِسًا: مُجَانَبَةُ وتَرْكُ كُلِّ مَا هُنَا مِنَ المَحْظُوْرَاتِ والأخْطَاءِ الشَّرْعِيَّةِ ٤٩٣
❑ تَحذِيْرٌ وتَنْبِيْهٌ: ٤٩٥
❑ الخَاتِمَةُ: ٤٩٧
❑ الفَهَارِسُ العَامَّةُ: ٥٠١
❑ ثَبَتُ المَرَاجِعِ: ٥٠٣
❑ فَهَارِسُ الأحَادِيْثِ: ٥٠٩
❑ فَهَارِسُ الآثَارِ: ٥١٤
❑ الفَهَارِسُ المَوْضُوْعِيَّةُ: ٥١٩

❑ ❑ ❑

سِلسِلَةُ إصْدَارَاتِ المُؤلِّفِ

- ❑ «الرِّيْحُ القَاصِفُ عَلَىٰ أهْلِ الغِنَاءِ والمَعَازِفِ» مُجَلَّدٌ
- ❑ «كَفُّ المُخْطئ عَنِ الدَّعْوةِ إلىٰ الشِّعْرِ النَّبَطِي» مُجَلَّدٌ
- ❑ «أحْكَامُ المُجاهِرِيْنَ بالكَبَائِرِ» مُجَلَّدٌ
- ❑ «قِيادَةُ المَرأةِ للسيَّارةِ بَيْنَ الحقِّ والبَاطِلِ» غِلافٌ
- ❑ «تَسْدِيْدُ الإصَابَةِ فيما شَجَرَ بَيْنَ الصَّحَابةِ» مُجَلَّدٌ
- ❑ «فِلِسْطِيْنُ والحَلُّ الإسْلامِي» غِلافٌ
- ❑ «فِقْهُ الإنْكَارِ باليدِ - دِرَاسَةٌ ونَقْدٌ» غِلافٌ
- ❑ «كُسُوْفُ الشَّمْسِ بَيْنَ التَّخوِيْفِ والتَّزْيِيْفِ» غِلافٌ
- ❑ «النَّكْسَةُ التَّارِيْخِيَّةُ» غِلافٌ
- ❑ «حَقِيْقَةُ كُرَةِ القَدَمِ» مُجَلَّدٌ
- ❑ «كَرَائِمُ التَّراجِمِ» سِيْرَةُ العُثَيْمِيْنَ، والعُقْلاءِ، وبَكْرٍ أبو زَيْدٍ، غِلافٌ
- ❑ «شَاعِرُ المَلْيُوْن» غِلافٌ
- ❑ «المَنْهَجُ العِلمِيُّ لطُلابِ العِلمِ الشَّرْعِيِّ» مُجَلَّدٌ
- ❑ «تَحْرِيْرُ المَقَالِ في عُشَّاقِ طَلالٍ» غِلافٌ
- ❑ «ظَاهِرَةُ الفِكْرِ التَّربويِّ» مُجَلَّدٌ
- ❑ «الوَجَازَةُ في الأثْبَاتِ والإجَازَةِ» مُجَلَّدٌ